

ثم توضح الآيات سبب وعلة إكرام الله واستجابته لنبيه زكريا -
عليه السلام : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا
وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (٩٠)

هذه صفات ثلاث أفلت زكريا وزوجته لهذا العطاء الإلهي ، وعلينا
أن نقف أمام هذه التجربة لسعدنا زكريا ، فهي أيضاً ليست خاصة به
إنما بكل مؤمن يقدم من نفسه هذه الصفات .

لذلك ، أقول لمن يعاني من العقم وعدم الإنجاب وضاق به
أسباب الدنيا ، وطرق باب الأطباء أن يلجأ إلى الله بما لجأ به زكريا -
عليه السلام - وأمله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا
وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (٩٠) [الأنبياء] خذوها (روضة) ربانية ، ولن
تختلف عنكم الاستجابة بإذن الله .

لكن ، لماذا هذه الصفة بالذات ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ﴾ .. (٩٠) ؟ [الأنبياء] ؟

قالوا : لآنك تلاحظ أن أصحاب العقم وعدم الإنجاب غالباً ما
يكونون بخلاء ممسكين ، فليس عندهم ما يشجعهم على الإنفاق ،
فيستكثرون أن يخرجوا شيئاً لفقير ، لأنه ليس ولده .

فإذا ما سارع إلى الإنفاق وسارع في الخيرات بشتى أنواعها ،
فقد تحدى الطبيعة وسار ضدها في هذه المسألة ، وربما يميل هؤلاء
الذين ابتلاهم الله بالعقم إلى الحقد على الآخرين ، أو يجعلون ضغينة
لمن ينجب ، فإذا طرحوا هذا الحقد ونظروا لأولاد الآخرين على أنهم
أولادهم ، فعمطوا عليهم وسارعوا في الخيرات ، ثم توجهوا إلى الله
بالدعاء رَغَبًا وَرَهَبًا ، فإن الله تعالى وهو المكون الأعلى يخرق لهم
النواميس والقوانين ، ويرزقهم الولد من حيث لا يحتسبون .

ومعنى : ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (٩٠) [الأنبياء] يعنى : راضين بقدرنا

فيهم ، راضين بالعقْم على أنه ابتلاء وقضاء ، ولا يرفع القضاء عن العبد حتى يرضى به ، فلا ينبغي للمؤمن أن يتمرد على قدر الله ، ومن الخشوع التواضع لمقادير الخلق في الناس .

﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا فَفَضَّلْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا
وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩١)

ولك أن تسأل : لماذا يأتي ذكر السيدة مريم ضمن مواكب النبوة ؟ نقول : لأن النبوة اصطفاء الله لنبي من دون خلق الله ، وكونه يصطفى مريم من دون نساء العالمين لتلد بدون ذكورة ، فهذا نوع من الاصطفاء ، وهو اصطفاء خاص بعريم وحدها من بين نساء العالمين ؛ لأن اصطفاء الأنبياء تكرر ، أما اصطفاء مريم لهذه المسألة فلم يتكرر في غيرها أبداً .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا ..﴾ (٩١) [الأنبياء] يعني : عَصَتْ وحفظت فرجها ، فلم تمكن منها أحداً^(١) .

ومعنى : ﴿فَفَضَّلْنَا فِيهَا^(٢) مِنْ رُوحِنَا ..﴾ (٩١) [الأنبياء] يعني :

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٠١٨/٦) : « قيل : إن المراد بالفرج فرج القميص ، أي : لم تعلق بثوبها ربة ، أي : أنها طاهرة الأثواب ، وفردج القميص أربعة : الثَّخَنُ والأُطَى والأسفل . قال السهيلي : فلا يلحق وعك إلى غير هذا ، فإنه من لطيف الكتابة ، لأن القرآن أزه معنى ، وأدنى لفظاً ، وألطف إشارة ، وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه الرهم . »

(٢) أي : في جيب درجها . قاله أبو يحيى زكريا الانصاري في (فتح الرحمن) (ص ٢٧٦) وقال قتادة : ففح في جيبها . وقال مقاتل : ففح في درجها . ذكرهما السيوطي في الدر المنثور (١٧١/٥) . والدرج : ثوب المرأة .

مسألة خاصة به ، خارجة على قانون الطبيعة ، فليس في الأمر
ذكورة أو أنثى ، إنما النفخة التي نفخها الله في آدم ، فجاءت منها
كل هذه الأرواح ، هي التي نفخها في مريم ، فجاءت منها روح
واحدة ، فالروح هي نفسها التي قال الله فيها : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ
فِيهِ مِنْ رُوحِي ۖ ۝ (٢٩) ﴾ [الحجر]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٣١) ﴾ [الأنبياء]
يعنى : شيئاً عجيباً في الكون ، والعجبية فيها أن تلد بدون ذكورة ،
والعجبية فيه أن يُرَكَّبَ بلا أب ، فكلامها آية لله ومعجزة .
ثم يقول الحق سبحانه بعد سرِّد لقطات من مركب الأنبياء :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا
رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝ (٢١) ﴾

الامة : الجماعة يجمعها رباط واحد من أرض أو ملك أو
دين ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةً عَلَىٰ أُمَّةٍ ۖ ۝ (٢١) ﴾ [الزخرف]
يعنى : على دين .

فالمراد : هذه أمتكم أمةً حال كونها أمةً واحدة ، لا اختلاف فيها^(١)
والرسل جميعاً إنما جاءوا ليتمموا بناءً واحداً ، كما قال ﷺ : « إن مثلى
ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع
لينة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا

(١) قال القرطبي في تفسيره (١٥١٩/٦) : « لما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون
على التوحيد ، فالامة هنا بمعنى الدين الذي هو الإسلام ، قاله ابن عباس ومجاهد
وغيرهما . »

وُضِعَتْ هذه اللبنة ؟ قال : فإنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين ، ^(١) .

والمعنى أن به ﷺ تتم النبوة وتختتم .

وتُطَلَّق الأمة على الرجل الذى يجمع خصال الخير كلها ؛ لأن الله تعالى بعث خصال الخير فى الخلق ، فليس هناك مَنْ هو مَجْمَع مواهب وفضائل ، إنما فى كل منا ميزة وقصيدة فى جانب من الجوانب ؛ ليتكامل الناس ويحتاج بعضهم إلى بعض ، ويحدث الترابط بين عناصر المجتمع ، هذا الترابط يتم إما بحاجات تطوعية ، أو حاجات اضطرارية .

فلو تعلم الناس جميعاً وتخرجوا فى الجامعة فَمَنْ للمهَنْ والحرف الأخرى ؟ مَنْ سيكتس الشوارع ، ويقضى مثل هذه الأمور ؟ لو تعطلت مجارى الصرف الصحى ، أيجتمع هؤلاء الدكاترة والأساتذة لإصلاحها ، ولو أصلحوها مرة فهذا تطوع .

أما المصالح العامة فلا تقوم على التطوع إنما تقوم على الحاجة والاضطرار ، ولولا هذه الحاجة لما خرج عامل الصرف الصحى فى الصباح إلى هذا العمل الشاق المنفر ، لكن كيف وفى رقبته مسئولية أسرة وأولاد ونفقات ؟

وسبق أن قلنا : ينبغى ألا يغتر المرء بما عنده من مواهب ومميزات ، ولا يتمالى بها على خلق الله ، وعليه أن يسأل عنما عند الآخرين من مواهب يحتاج هو إليها ، ولا يؤديها بنفسه .

إذن : الحاجة هى الرابطة فى المجتمع ، ولو كان التطوع

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٣٥) ، ومسلم فى صحيحه

(٢٢٨٦) كتاب الفضائل (حديث ٢٢) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه

والتفضل فلن نحقق شيئاً . فلو قلنا للعامل : تفضل بكنس الشارع لوجد ألفاً عذر يعتذر به ، أما إن كان أولاده سيموتون جوعاً إن لم يعمل فلا شك أنه سيسرع ويبادر .

فالحقيقة أن كل فرد في المجتمع لا يقدم إلا نفسه ، فكما تنتفع الآخريين تنتفع بهم : لذلك إياك أن تحسد صاحب التفوق على تفوقه في أمر من الأمور : لأن تفوقه في النهاية عائد عليك .

وكما نقول هذه المسائل في أمور الدنيا نقولها في أمور الآخرة ، حين نرى صاحب التدبّر ، وصاحب الخلق والالتزام لا نهزأ به ولا نسخر منه ، كما يحلو للبعض : لأن صلاحه سيعود عليك ، وسوف تنتفع بقدّيره واستقامته ولعلنا نرزق بسبب هؤلاء .

وقد يكون في البيت الواحد فتوات وأذكياء ومتعلمون وفيهم معرّف أو مجنون أو مجذوب ، فتري الجميع يحتقرونه ، ويهوئون من شأنه ، أو تراه منبوذاً بين هؤلاء مُبعداً ، لا يشرف بمعرفته أحد ، وربما يعيشون جميعاً في ظله ويرزقون كرامة له .

وكثيراً ما نرى الناس يفضبون وينقمون على قضاء الله إن رزقهم بمولود فيه عيب أو إعاقة ، والله لو رضى به وتقبلت قضاء الله فيه ، لكان هو الظل الظليل لك .

فهؤلاء خلقوا هكذا لحكمة ، حتى لا نتمرد على صنعة الله في كونه ، وحتى يشعر أهل النعمة والسلامة والصحة بفضل الله عليهم ، ولنعلم أن الله تعالى لا يطلب شيئاً من عبده إلا وقد أعطاه عوضاً عنه .

ولك أن تلاحظ مثلاً أحوال الناس المجانبي الذين تراهم في أي

مكان مهملين يستقلهم الناس ، وينفرون من هيتهم الرثة ، ومع ذلك ترى أصحاب الجاه والسلطان إذا نزلت بهم ضائقة وأعييتهم الأسباب يلجئون لمثل هؤلاء المجاذيب يلتمسون منهم البركة والدعاء ، وهذا في حد ذاته أسمى ما يمكن أن يتطلع إليه أهل الجاه وأهل السلطان والنفوذ ، أن تكون كلمتهم مسموعة وأمرهم مطاعاً ، وإن يلجأ الناس إليهم كما لجئوا إلى هذا المجذوب المسكين .

فلذا ما أجرى الله الخير على يد هذا الشيخ المجذوب ترى السيد العظيم يتمحك فيه ، ويدعوه إلى طعامه ، ويدفع عنه أذى الناس ويحتضنه ، لأنه جرب وعلم أن لديه فيضاً من فيض الله وكرامة يختص الله بها مَنْ يشاء من عباده ، ونحن جميعاً عباد الله ليس فينا مَنْ هو ابن الله ، أو بيته وبين الله قرابة .

وإن كان العقل هو أعز ما يعتز به الإنسان ، وهو زينته وحليته ، فلك أن تنظر إلى المجنون الذي فقد العقل ، وحرم هذه الآلة الغالية ، وقرى الناس يشيرون إليه : هذا مجنون ، نعم هو مجنون ، لكن انظر إلى سلوكه : هل رأيتم مجنوناً يسرق ؟ هل رأيتم مجنوناً يزنى ؟ هل رأيتم مجنوناً انتحر ؟

إذن : مع كونه مجنوناً إلا أنه مدرك لنفسه تماماً ؛ لأن خالقه عز وجل وإن سلبه العقل إلا أنه أعطاه غريزة تحكمه كما تحكم الغريزة الحيوان ، وهل رأيتم حماراً ألقي بنفسه مثلاً أمام القطار ؟

إذن : علينا ألا نُحَقِّر هؤلاء ، وألاً نستقل بهم فقد عوضهم الله عما سلبه منهم ، ومَنْ مَن يسعى ليصل إلى ما وصلوا هم إليه ولا يستطيع ، ومَنْ مَن لا يتمنى أن يكون مثل هذا المجذوب الذي يتمسح الناس فيه ، ويطلبون منه البركة والدعاء ؟ وأي عظمة يطلبها الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



فوق هذا ؟ ويكفى هذا أنه لا يُسأل عما يفعل في الدنيا ، ولا يُسأل كذلك في الآخرة .

نعود إلى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً .. ﴾ (٤٧) [الأنبياء] فمن معاني أمة : الرجل الذي جمع خصال الخير كلها ؛ لذلك وصف الله نبيه إبراهيم بأنه أمة ، فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ (١٢٥) .. [النحل]

يعني : جمع من خصال الخير ما لا يوجد إلا في أمة كاملة .
والأمة لا تكون واحدة ، إلا إذا صدر تكوينها المنهجي عن إله واحد ، فلو كان تكوينها من متعدد لذهب كل إله بما خلق ، ولعلنا بعضهم على بعض ، والفساد الحال . إذن : كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. ﴾ (٧١) [المؤمنون]
فلا تكون الأمة واحدة إلا إذا استقبلت أوامرها من إله واحد وخضعت لمعبود واحد ، فإن نُسيت هذا الإله الواحد تضاربت وتشتتت .

وكان الحق سبحانه يقول : أنتم ستجربون أمة واحدة ، تسودون بها الدنيا وتنطلق دعركم من أمة أمية لا تعرف ثقافة ؛ ولا تعرف علماً ، ولم تتمرس بحكم الأمم ؛ لأنها كانت أمة قبلية ، لكل قبيلة قانونها وسيادتها وقيادتها .

ثم ينزل لكم نظام يجمع الدنيا كلها بحضاراتها ، نظام يطوى تحت جناحه حضارة فارس وحضارة الروم ويَطْوَعُها ، ولو أنكم أمة

(١) سئل ابن مسعود : ما الأمة ؟ قال : الذي يُعَلِّمُ الناس الخير . وقال قتادة : إمام هدى يكتفى به ، ويكتفى سنته . [الدر المنثور للسيوطي ١٧٦/٥] .

متقفة لقالوا ققرة حضارية ، إنما هذه أمة أمية ، ونبيها أيضا أمي
إذن : فلا بد أن يكون المنهج الذي جاء به ليسلب هذه الحضارات
عزها ومجتها منها أعلى من كل هذه المناهج والحضارات .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٢) [الأنبياء] أي : التزاموا
بمنهجي لتظلوا أمة واحدة . واختار صفة الربوبية فلم يقل : إلهكم :
لأن الرب هو الذي خلق ورزق ورزى ، أما الإله فهو الذي يطلب
التكاليف .

فالمعنى : ما دمت أنا ربكم الذي خلقكم من عدم ، وأمدكم من
عدم ، وأنا القيوم على مصالحكم ، أكلؤكم بالليل والنهار ، وأرزق
حتى العاصي والكافر بي . فأتنا أوكى بالعبادة ، ولا يليق بكم أن
أصنع معكم هذا كله وتذهبون إلى إله غيري ، هذا منطق للعقل
السليم ، وكما يقولون (الله يأكل لقمتي يسمع كلمتي) .

ومن العبادة أن تطيع الله في أمره ونهيهِ : لأن ثمرة هذه الطاعة
عائدة عليك بالنفع ، فله تعالى صفات الكمال الأزلي قبل أن يخلق من
يطيعه ، فطاعتك لن تزيد شيئا في ملك الله ، ومعصيتك لن تنقص
منه شيئا . إذن : فالأمر راجع إليك ، وربك يثيبك على فعل هو في
الحقيقة لصالحك .

لكن ، هل سمع الناس هذا النداء وعملوا بمقتضاه ، فكانوا أمة
واحدة كهذه الأمة التي أسفلت الدنيا في رحاب الإسلام في نصف
قرن ؟ هذه الأمة التي ما زلنا نرى أثرها في البلاد التي تمررت على
العروبة ، وعلى لغة القرآن ، ومع ذلك هم مسلمون على لغاتهم وعلى
حضارتهم ، إن الدين الذي يصنع هذا ، والأمة الواحدة التي تحملت
هذه المسؤولية ما كان ينبغي أن تختلي عنها .

والسؤال : هل بقيت الأمة الواحدة ؟ تجيب الآيات :

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ

إِلْتِنَازٍ جُعُوتٌ﴾

أى : صاروا شيعاً وأحزاباً وجماعات وطوائف ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْماً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (١٥٩) ﴿[الأنعام]

لماذا ، لست منهم فى شيء ؟ لأنهم يقضون على واحدة الأمة ، ولا يقضون على واحدة الأمة إلا إذا اختلفت ، ولا تختلف الأمة إلا إذا تعددت مناهجها ، هنا ينشأ الخلاف ، أما إن صدروا جميعاً عن منهج واحد فلن يختلفوا .

وما داموا قد تقطعوا أمرهم بينهم ، فصاروا قطعاً مختلفة ، لكل قطعة منهج وقانون ، ولكل قطعة تكاليف ، ولكل قطعة راية ، وكان ألتهم متعددة ، فهل سيتركون على هذا الحال ، أم سيعودون إلينا فى النهاية ؟

﴿كُلُّ إِلْتِنَازٍ جُعُوتٌ﴾ [الأنبياء] إن : أنتم أمة واحدة فى الخلق من البداية ، وأمة واحدة فى المرجع وفى النهاية ، فلماذا تختلفون فى وسط الطريق ؟

إن : الاختلاف ناشئ من اختلاف المنهج ، وكان ينبغي أن يكون واضح المنهج واحداً . وقد جاء النبى ﷺ خاتماً للرسالات ، وجاءت شريعته جامعة لمزايا الشرائع السابقة ، بل وتريد عليها المزايا التى تتطلبها العصور التى تلى بعثته .

فكان المفروض أن تجتمع الأمة المؤمنة على ذلك المنهج الجامع

المانع الشامل ، الذي لا يمكن أن يستدرك عليه ، وبذلك تتحقق وحدة الأمة ، وتصدر في تكليفاتها عن إله واحد ، فلا يكون فيها مدخل للأهواء ولا للسلطات الزمنية أو الأغراض الدنيئة .

لذلك ، إذا تعددت الجماعات التي تقول بالإسلام وتفرقت نقول لهم : كونوا جماعة واحدة ، وإلا فالحق مع أي جماعة منكم ؟ لأن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ إِنِّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۖ ۝ (١٥٩) ﴾ [الأنعام]

ولا يتفرق الداعون لدعوة واحدة إلا بائباع الأهواء والأغراض ، أما الدين الحق فهو الذي يأتي على هوى السماء ، موافقاً لما ارتضاه الله تعالى لخلقِهِ .

لقد انتفض المؤمنون عن الجامع الذي يجمعهم بأمر الله ، فانفضت عنهم الوحدة ، وتدابروا حتى لم يعد يجمعهم إلا قولٌ : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أما مناجهم وقوانينهم فقد أخذوا من هذا أو من هناك ، وسوف تمضي هذه القوانين ، وسوف تخذلهم هذه الحضارات ، ويرون أثرها السري ، ثم يعودون في النهاية إلى الإسلام فهو مرجعهم الوحيد ، كما نسمع الآن نداء لا حل إلا الإسلام .

نعم ، الإسلام حلٌ للمشاكل والأزمات والخلافات والزعامات ، حلٌ للتعددية التي أضعفت المسلمين وقوّضت أخوتهم التي قال الله فيها : ﴿ رَاعُوا حِيلَ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ۖ ۝ (١٠٢) ﴾ [آل عمران]

وراه ، لو عدنا إلى حبل الله الواحد فتمسكنا به ، ولم نلعب بنا الأهواء لعدنا إلى الأمة الواحدة التي سادت الدنيا كلها .

إِنَّ . ﴿إِنَّمَا رَاجِعُونَ﴾ (٩٦) ﴿[الأنبياء] أَيْ فِي الْآخِرَةِ لِلْحِسَابِ ،
وَأَنَا أَقُولُ يَا رَبِّ . لَعَلَّ هَذَا الرَّجُوعَ يَكُونُ فِي الدُّنْيَا بِأَنْ تَعَصِّنَا
قَوَانِينِ الْبَشَرِ ، فَتَنْفِذَ إِلَى اللَّهِ وَتَعُودَ إِلَيْهِ مِنْ جَدِيدٍ ، فَيَعُودَ لَنَا
مَجْدُنَا ، وَيَصْدُقَ قِيَامُ قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ : « بَدَأَ الْإِسْلَامَ غَرِيبًا ،
وَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ »^(١) ،
وَيُعَزِّزْ هَذَا الْفَهْمَ وَيُقَرِّبْ هَذَا الرَّجَاءَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَهَا :

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَكْفُرَانِ﴾
﴿لِسَعِيدٍ مَوْزِنًا﴾ (٩٧)

الحق - سبحانه وتعالى - يستأنف معنا العظة بالعمل الصالح
ليعطينا الأمل لو رجعنا إلى الله ، والدنيا كلها تشهد أن أي مبنأ
ماطل ، أو شمار زائف رائل يُزحرقون به أهواءهم لا يلبث أن ينهار
ولو بعد حين ، ويتبين أصحابه أنه خطأ ويعملون عنه .

ومثال ذلك الفكر الشيوعي الذي ساد روسيا منذ عام ١٩١٧
وانتهكت في سبيله الحرمات ، وسفكت الدماء ، وهدمت البيوت ،
واخذت الثروات ، وبعد أن كانت أمة تصدر الغذاء لدول العالم
أصبحت الآن تتسول من دول العالم ، وهم أول من ضحَّ من هذا
الفكر وعانى من هذه القوانين .

وقوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ..﴾ (٩٧)
[الأنبياء] ربط العمل الصالح بالإيمان ؛ لأنه منطلق المؤمن في كل
ما يأتي وفي كل ما يدع ، لينال بعمله سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .
أَمَّا مَنْ يَعْمَلُ الصَّالِحَ لِدَاتِ الصَّلَاحِ وَمِنْ مَنَظِقِ الْإِنْسَانِيَةِ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١١٥) ككتاب الإيمان ، وابن ماجه في سننه (٢٩٨٦) من حديث
أبي هريرة رضي الله عنه .

والمروءة ، ولا يخلو هذا كله في النهاية عن أهواء وأغراض ، فليأخذ نصيبه في الدنيا ، ويحظى فيها بالتكريم والسيادة والسُّمعة ، وليس له نصيب في ثواب الآخرة ؛ لأنه فعل الخير وليس في بآله الله .

والحق سبحانه يعطينا مثالا بذلك في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِفِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فُرْقَانَهُ حِسَابَهُ ۖ ۝٤٩ ﴾ [النور]

يعنى فوجيء بوجود إله يحاسبه ويجازيه ، وهذه مسألة لم تكن على بآله ، فيقول له : عملتَ ليقال وقد قيل . وانتهت المسألة ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَرَدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ ۝٥٠ ﴾ [المزمل] أي : نعطيهِ أجره في عالم آخر لا نهاية له ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۖ ۝٥١ ﴾ [المزمل]

لأنه عمل للناس ، فليأخذ أجره منهم ، يُحَدِّثُونَ ذِكْرَهُ ، وَيُتَّقُونَ له المعارض والتماثيل .. الخ

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ۖ ۝٥٢ ﴾ [الأنبياء] يعنى . لا تبخسه حقه ولا نجد سعيه أبداً ﴿ وَإِنَّا لَهُ كَانُوبُونَ ۖ ۝٥٣ ﴾ [الأنبياء] تسجل له أعماله ونعفلها ، والمفروض أن الإنسان هو الذي يسجل لنفسه . فإن سجل الله عليك ربك الذي يثيبك عليه . وسجله على نفسه ، فلا شك أنه تسجل بلحق لا يبضك مثقال ذرة من عملك .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْبَةٍ أَهْلُكُمُهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۖ ۝٥٤ ﴾

﴿ لَا يَرْجِعُونَ ۖ ۝٥٥ ﴾

﴿ حَرَامٌ .. (١٥) ﴾ [الأنبياء] يعنى - مستتبع ، لا يجب أن يكون ،
والقرية : أى قرية أهلكناها : لأنها كذبت الرسل ، ووقفت منهم موقف
اللذد والعناد والمعارضة ، فأهلكها الله بدتوبها فى الدنيا ، أيعقل بعد
هذا أن نتركها فى الآخرة من غير أن نأخذها يذنبها ؟
لا بد - إذن - أن ترجع إلينا فى الآخرة لنحاسبها الحساب الدائم
الخالد ، فلا نكتفى بحساب الدنيا المنتهى .
ثم يقول الحق سبحانه

﴿ حَقَّ إِذَا فَتَحْتَ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ وَهُمْ مِّنْ
كُلِّ حَدِيثٍ بِسِلْوَتٍ ^(١) ﴿١٦﴾ ﴾

وردت قصة ياجوج وماجوج فى آخر سورة الكهف ، حينما سئل
النبي ﷺ عن الرجل الجورل الذى طاف الارض ، فنزلت : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ^(٢) ﴾ [الكهف]
وقد تكلم العلماء فى ذى القرنين ، منهم من قال ، هو قوروش
ومنهم من قال هو : الإسكندر الاكبر ، والقرآن لا يعنيه الشخص والأ
لذكروه باسمه ، فالقرآن لا يُدخّل له ، ولا يقيم له تمثلاً ، إنما يريد
التركيز على الأوصاف التى تعنى الحق وتعنى الخلق .

فيكفى أن نعلم أنه إنسان مكّنه الله فى الارض ، يعنى : أعطاه من
أسباب القوة وأسباب العهابة والسيطرة ، وأعطاه من كل مقومات

(١) الحدب - ما ارتفع من الارض ، أى أنهم يحضرون من كل جانب ، ولو كان مرتفعاً شامخاً
لا يرونهم فيه - لأنهم فى غير المنطق اسرع والسير فيه ليسر ، فهم يأتون من كل جهة
ولو شئت ، [القاموس القروى ١/ ١٦٤]

القوة : إعطاء المال والعلم والجيوش . فلم يكف بذلك كله . بل ﴿فَاتَّبَعَ سِبْيًا﴾ (٨٠) [الكهف] يعنى . أخذ بالأسباب التى تلبى إلى الخير .

وسبق أن تحدثنا عن تفسخ شخص البطل في قصص القرآن ؛ لأن القرآن لا يُؤرِّخ للشخصية ، ولا يُعطي لها خصوصية ، وإنما يريدنا عامة لتكون مثلاً يُحتذى ، ويتم بها الاعتبار ، وتُحدِّث الأثر المراد من القصة .

ما يعنيننا في قصة ذي القرنين أنه رجل مَكُنَّ في الأرض . وكان من صفاته كذا وكذا . وب يعنيننا من أهل الكهف أنهم فسدية آمنوا بربهم وتمسكوا بدينهم وعفقتهم وضَحُّوا في سبيلها ، لا يهمنا الأشفاص ولا الزمان ولا المكان ولا العدد .

لذلك ، أبهم القرآن كل هذه المسائل ، فأى فتية ، فى أى زمان ، وفى أى مكان ، وبأى أسماء يمكن أن يقفوا هذا الموقف الإيمانى ، ولو شخصائهم وعيائهم لقَالَ الناس : إنها حادثة خاصة بهؤلاء ، أو أنهم نماذج لا تتكرر ، لذلك أبهمهم القرآن ليكونوا عبرة وأُسوة تسير فى الزمان كله

كذلك ، لما أراد القرآن أن يضرب مثلاً للذين كفروا ذكر امرأة نوح وامرأة لوط ولم يَمَيِّنْهُمَا ، وكذلك ضرب مثلاً للذين آمنوا وامرأة فرعون ولم يذكر مَنْ هِيَ ^(١) ، فالغرض من ضرب هذه الأمثال ليس الأشخاص ، إنما لنعلم أن للمرأة حرية العقيدة واستقلالية الرأي ، فليست هي تابعة لأحد ، بدليل أن نوحاً ولوطاً لم يتمكن كل منهما من هداية امرأته .

(١) قَالَ قَتْلَانِي ﴿عَرِيبٌ إِلَهُ مَعَالِ الدِّينِ كَفَرُوا﴾ أَمْرًا نُوحٍ وَنَمْرُوتَ نُوحٍ كَذَابًا لَعَنَتْ صَافِيَتُنِ مِنْ عِبَادَتَا مَالِئِينَ لِحَدَائِقِهِمَا فَأَمَّ يَتِيمَا عَنُوشَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴿١٥﴾ [الْحَرَامِ]

وفرعون الكافر الذي ادعى الالهية ، لم يستطع ان يمنع زوجته من الإيمان ، وهي التي قالت : ﴿ رَبِّ اِنِّى لى عَبْدُهٗ بِمَآ فِى الْحِجَّةِ وَنَجِّنِى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهٖ وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥٦) [التصريم]

اذن : ما يعيننا فى قصة « ذى القرونين » ان الله مكن له فى الارض ، واعطاه كل اسباب القوة والسيطرة ، لذلك اطمعته ان يكون ميزانا للخير والحق ، وفرضه ان يقضى فى الخلق بما يراه من الحق والعدل

﴿ حَتَّىٰ اِذَا بَلَغَ مَقْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْجُبُ لِي عَنِّ حَبِطَةً وَّوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا الْقَوْمِ اِنِّى اَنْتُمْ تَعَذِّبُ وَاَمَّا اَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حَسَدًا ﴾ (٥٧) [الكهف]

لاننا مكناه وفوضناه ، فاستعمل التمكين فى موضوعه ، واخذ الامانة بحقها ، فقال : ﴿ اَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهٗ ثُمَّ يَرُدُّ اِلَآى رَبِّهٖ فَنُعَذِّبُهٗ عَذَابًا تُكْرَرُ ﴾ (٥٧) [الكهف] اى : نُعَذِّبُهٗ على قدر مقدرتنا ، ثم يَرُدُّ اِلى رَبِّهٖ فَيُعَذِّبُهٗ على قدر قدرته تعالى .

﴿ وَاَمَّا مَنْ اٰمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهٗ جِزَاۗءُ الْحُسْنٰى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ اَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (٥٨) [الكهف]

وهكذا يكون دستور الحياة من الحاكم للممكن فى الخلق ، دستور الثواب والعقاب الذى تستقيم به امور البلاد والعياد ، فحين يرى تقصيرا لا بد ان يأخذ على يد صاحبه مهما تكرر مغلقه ، لا يضافه ولا ينافقه ولا يخشى فى الله لومة لائم ، وان رأى المحسن المجتهد يثيبه ويكافئه .

وهذا القانون نراه فى مجتمعنا يكاد يكون معطلا بين العلملين ، فاختلط الحابل بالنابل ، ودهورت الامور ، ودخلت بيننا مقاييس

أُخْرَى لِلثَوَابِ وَلِلْعِقَابِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، فَاثْقَلَتْ
الْمَوَازِينُ ، حَيْثُ تَبْجَعُ الْكَسَالَى ، وَأُخْبِطُ الْمَجْدُونَ الْمُحْسِنُونَ .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدَهَا تَطَلَّعَ عَلَىٰ قَوْمٍ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ
دُونِهَا بَشَرًا ۖ ﴾ [٩٥]

[الكهف]

هَذَا كُلُّ مَا أُخْبِرَ اللَّهُ بِهِ ، وَيَبْدُرُ أَنَّهُ وَصَلَ فِي تَجَوَّالِهِ السَّعَامِ إِلَى
بِلَادٍ تَظِلُّ الشَّمْسُ بِهَا مَشْرِقَةً ثَلَاثَةَ أَوْ سِتَّةَ أَشْهُرٍ لَا تَقْرُبُ ، بِذَلِكَ لَمْ
يَجِدْ لَهُمْ مِنْ دُونِ الشَّمْسِ سِتْرًا يَسْتُرُهُمَا أَيْ ظِلْمَةً ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مِيزَانَ
السَّانِينَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۖ ﴾ [٩٦]

[الكهف]

وَمَعَ ذَلِكَ احْتِمَالُ أَنْ يَفْهَمَ مِنْهُمْ ، وَيَخَاطِبُهُمْ ؛ لِحَرَصِهِ عَلَىٰ نَفْعِهِمْ
وَمَا يَصْلَحُهُمْ ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْحَاكِمِ الْمُؤْمِنِ حِينَ يُمَكِّنُ فِي الْأَرْضِ ،
وَتُعْطَىٰ لَهُ أَسْبَابُ الْإِيَادَةِ ، وَيُفَوِّضُ فِي خَلْقِ اللَّهِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ حَرِيصًا
عَلَىٰ نَفْعِهِمْ لَوَجَدَ الْعَذْرَ فِي كَوْنِهِ لَا يَفْهَمُ مِنْهُمْ وَلَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ

فَلَمَّا تَوَصَّلُوا إِلَىٰ لُغَةٍ مَشْتَرَكَةٍ ، رُبَّمَا هِيَ لُغَةُ الْإِشَارَةِ الَّتِي نَتَقَاهُمْ
بِهَا مَعَ الْآخَرِينَ مِثْلًا :

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ
لَكَ خَرْجًا ۚ ﴾ عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۖ ﴾ [٩٧]

[الكهف]

ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِقِطْعٍ مِنَ الْحَدِيدِ ، فَاشْعَلْ فِيهَا النَّارَ حَتَّىٰ احْمَرَّتْ
فَقَالَ ﴿ أَتَوْنِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۖ ﴾ [٩٨] [الكهف] وَهَكَذَا صَنَعَ لَهُمُ السَّدُّ الَّذِي
يَحْمِيهِمْ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، فَلَمْ يَقْصُرْ نَفْعُهُ لَهُمْ عَلَىٰ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ
ذَاتِهَا ، إِنَّمَا نَفْعُهُمْ تَفْعًا يُعْطِيهِمُ الْخَيْرَ وَالْقُوَّةَ فِي الْأُفْعَاءِ لِمَعْنَاهَا

(١) الْفَرْجُ وَالْحِمَاجُ مَا يَفْرُجُهُ صَاحِبُ الْمَالِ لِلْعَامِلِ عِنْدَهُ مِنَ الْآخِرِ جِزَاءً عَلَيْهِ أَوْ
مَا يَفْرُجُهُ مِنَ الزَّكَاةِ لِلْإِمَامِ [الْقَامُوسُ الْكَلَامِيُّ ١/١٩٠] .

بعد ذلك ، عملاً بالحكمة التي تقول : لا تعطنى سمكة ، ولكن علمنى كيف اصطاد .

ذلك لانه اشركهم فى العمل ، ليشعروا بأهميته ويتمسكوا بالمحافظة عليه وصيافته ، وإذا ما تعرضوا لمثل هذا الموقف لا ينتظرون مَنْ يصنع لهم .

هذا هو النموذج الذى تُقدِّمه قصة « ذى القرنين » وهو نموذج صالح لكل الزمان ولكل المكان ولكل حاكم مكَّنه الله فى الأرض ، وألقى بين يديه أزمّة لأمر ، وفى حديث أفضل العمل يقول ﷺ : « تعين صانعاً ، أو تصنع لآخرق »^(١) .

وقد تضاربت الأقوال حول : مَنْ هم ياجرج وماجوج ، فمن قائل : هم التتار ، وآخر قال : المفلول . وآخر قال : هم الحتيت ، أو السرديال ، أو قباثل الهون .

ولو كان فى تصديدهم فائدة لميئتهم القرآن ، إنما المهم من قصتهم أنهم قومٌ مفسدون فى الأرض لا يتركون الصالح على صلاحه ، فإذا ما تصدَّى لهم العمكُن فى الأرض فعليه أن يحول بينهم وبين هذا الإفساد فى غيرهم ، وعلينا نحن ألا نُفسد الصالح كهؤلاء ، إنما فترك الصالح على صلاحه ، بل ونزيده صلاحاً

وفى بناء ذى القرنين لسد دروس يجب أن يعيها أولو الأمر الذين يتولون مصالح الخلق ، من هذه الدروس أنه لم يقف عند طلبهم

(١) عن أبي نر رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال الإيمان بالله والجهاد فى سبيله . قال قلت أى الرقاب أفضل ؟ قال اتقى بها عند أهلها وأكثرها شئاً . قال قلت أى لم أعمل ؟ قال : « تعين صانعاً أو تصنع لآخرق » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٤) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٢٥١٨) بلوط : « تعين صانعاً »

في بناء سد يمنع عنهم أذى عدوهم ، إنما اجتهد وترقى بالمسألة إلى ما هو أفضل لهم ، فالسد الأصم العتاسك كتلعة واحدة يسهل هدمه أو النفاذ منه ، لذلك قال ﴿ فَأَعِزُّونِي بِقُوَّةِ أَعْمَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ (٩٥) [الكهف]

لقد طلبوا سدا وهو يقول - رَدْمًا ، لقد رقي لهم الفكرة ، وأراد أن يصنع لهم سدا على هيئة حاصلة تمتص الصدمات ، ولا تؤثر في بنائه ؛ لأنه جعل بين الجانبين رَدْمًا كأنه سوسنة تغطي السد نوعا من المرونة . وهكذا يجب أن يكون المؤمن عند تحمل مسئولية الخلق

ولما عرضوا عليه المال نظير عمله أبي ، وقال ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِزُّونِي بِقُوَّةٍ ۖ ﴾ (٩٥) [الكهف] أي : عندي المال الكثير من عطية الله لكن أعينوني بما لديكم من قوة ، إذن ، زكاة القوة أن تمنع الفساد من الغير .

نعود إلى قوله تعالى . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَصَحْتُمْ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ ۖ ﴾ (٩٦) [الأنبياء] فلها علاقة بقوله تعالى ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ (٩٧) [الأنبياء] فتقطع أهل الخير وتفرقهم يجرى عليهم أصحاب الفساد ، وأقل ما يقولونه في حثهم أنهم لو كانوا على خير لدفنوا أنفسهم ، فدعواكم من كلامهم ، وهكذا يفت أهل الباطل في عضد أهل الحق ، ويصرفون الناس عنهم .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَصَحْتُمْ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ ۖ ﴾ (٩٦) [الأنبياء] يعني : جاءت عناصر الفساد والفننة في الكون ، وعناصر الفساد والفتنة لا تتمكن ولا تجد الفرصة والسلطة الزمنية إلا إذا غفل أهل الحق وتفرقوا فلم يردوهم ، ويأخذوا هي أيديهم .

ويأجوج ومأجوج هم أهل الفساد في كل زمان ومكان ،
فجنكيزخان الذي هدم أول ولاية إسلامية في خولوزم ، وكان عليها
الملك قطب أرسلان ، ثم جاء من ذريته الثالثة هولاكو الذي دخل
بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وخربها وقتل أهلها حتى سالت
لدماء . وألقي بالكتب الإسلامية في النهر حتى كانت قنطرة يعبرون
عليها . هؤلاء الذين نُسبهم التتر .

إذن . فالقرآن قَسَّ علينا من التاريخ القديم قصة يأجوج ومأجوج
أيام ذي القرنين ، ثم رأيناهم في حياتنا الإسلامية ، وشاء الله أن
يستفيد المسلمون من هجمات هؤلاء البرابرة ، وأن تتجمع ولاياتهم
ويصدُّ هجمات التتار على أرض مصر بقيادة قطز والظاهر بيبرس ،
وهما مثالان للممكَّنين في الأرض ، مع أنهما من المعاليك

هذه الهجمات لثغرية للمفسدين في الأرض كانت هجمات همجية
وحشية ، وقد تجمع أحفاد هؤلاء من يأجوج ومأجوج العصر الحديث
في هجمات مدنية تفرونا بحضارتها ، إنهم الصليبيون الذين انهزموا
أمام رعدة المسلمين بقيادة صلاح الدين

وهكذا على مر التاريخ ننتصر إذا كنا أمة واحدة ، ونُهْزَم إذا
تفرقنا وتقطعنا أمماً وأحزاباً ، وهذه حقائق تُثَبِّتُ صِدْقُ القرآن فيما
وجَّهنا إليه من الوحدة وعدم التفرق .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ خَدْبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦)

[الانباء]

الخدب . المكان المرتفع ، نقول : فلان أهدب الظهر يعني : في
ظهره منطقة مرتفعة ، وكذلك هؤلاء المفسدون أئراً من أماكن مرتفعة
في مضية شمال الصين ومعنى ﴿يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦) [الانباء] يعني .
يسرعون ، ومنه نقول . انسل القماش : لأن القماش مَكُونٌ من سُدَى

وأحمة ، يعنى خيوط طويلة وخيوط عرضية ، تتداخل فتكون القماش ، فنسل القماش أن تنزع خيوط العرض وتلك تداخلها مع خيوط الطول ، ولا تنزع خيوط الطول لأنها دائماً مُحْكَمَةٌ بِثُغْيِ السُّدَى عَلَى اللِّحْمَةِ .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَتَلَفَا ذُنُوبَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلِّ
كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٩٧)

فكون أهل الفساد يأتون مسرعين من كل حَدَبٍ وَصَوْبٍ إلا أن فسادهم لن يطول ، فقد اقتربت القيامة ، قال تعالى : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ
وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (١)

[القمر]

وقال . ﴿آتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ..﴾ (١)

[الشم]

وهذا تنبيه للغافل ، وتحذير للباغي من أهل الفساد ، وتحطيم رجاء المظالمين المستضعفين المعتدين عليهم . اطمئنوا فقد قرب وقت الجزاء .

﴿اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ..﴾ (٩٧) [الأنبياء] والوعد الحق أى : الصابق الذى يملك صاحبه أن يتفذه ، فقد تعد وعداً ولا تملك تنفيذه فهو وعد ، لكنه وعد باطل ، فالوعد يختلف حسب مروءة الواعد وإمكانياته وقدرته على إنفاذ ما وعد به .

(١) شخص يصوره : ظلمت عيناه فلا تطرف ، من القوف والفرج والحيرة . وهو كلمة عن مدة الهول والفرح يوم القيامة [القاموس القويم ٢٤٢/١]

لكن مهما كانت عندك من إمكانيات ، ومهما ملكت من أسباب التنفيذ ، أتضمن أن تُمكنك الظروف والأحوال من التنفيذ ؟ ولا يملك هذا كله إلا الله عز وجل ، فإذا وعد خلق ما وعد به ، فالوعد الحق - إذن - هو وعد الله .

وحين يقول الحق سبحانه ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .. (٩٧)﴾ [الأنبياء] فلتنبه ولا تنس الدنيا بعمرها الأساسي ، إنما نس الدنيا بعمرها فيها ، فهذه هي الدنيا بالنسبة لك ، ولا نخل لك بدنيا غيرك ، فإذا كنت لا تعلم متى تفارق دنياك فلا شك أن عمرك قريب ، واقترب الوعد الحق بالنسبة لك .

وكذلك مدة مُكثك في قبرك إلى أن تقوم الساعة ستمر عليك كساعة من بهار ، كما قال سبحانه ﴿كَأَن لَّمْ يَلْقُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ .. (١٥)﴾ [يونس]

ولو تنبه كل منا إلى إخفاء الله لأجله ، لعلم أن في هذا الإخفاء أعظم البيان ، فحين إخفاء ترقبنا في كل طرفة عين ، وتنفس نفس ، لذلك يقولون : « من مات قامت قيامته »^(١) ، لأن القيامة تعني الحساب والجزاء على الأعمال ، ومن مات انقطع عمله ، وطويت صحيفته .

وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (١٧)﴾ [الأنبياء] وعد الله هنا هو القيامة ، وهي مفاجئنا وثانينا بغتة : لذلك نقول في (قِذَا) أنها الفجائية ، كما نقول : خرجت فردا أسد بالباب ،

(١) ذكره المجلد من كشف الحفلة (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وتعلمه : « أكثروا بذكر الموت ، فإنكم إن نكرتموه في غنى كثره عليكم ، وإن نكرتموه في ضيق رُسْمه عليكم . الموت القيامة .

يعنى . فوجئت به ، وهكذا ساعة تقوم الساعة سوف تُفاجيء الجميع ، لا يدري أحد ماذا يفعل .

لذلك يقول سبحانه . ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ (١٧) [الانبياء] وشخص البصر يأتى حين ترى شيئاً لا تتوقعه ، ولم تحسب حسابه ، فتتظر مُتدهشاً يجمع جفتك الأعلى الذى يتحرك على العين ، فلا تستطيع حتى أن ترمش أو تطرف

وفى آية أخرى يقول تعالى . ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٣٩) [إبراهيم]

وإذا أردت أن ترى شخص البصر فانظر إلى شخص يكجا بشيء لم يكن فى باله ، فتراه - بلا شعور وبهريزته التكوينية - شاخص البصر ، لا ينزل جفته .

ثم يقولون : ﴿ نَسُوْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَمَلَةٍ مِّنْ هَٰذَا .. ﴾ (١٢) [الانبياء]

فلم يقتصر الموقف على شخص البصر إنما تتحرك أيضاً أدوات الإدراك فيقول اللسان (يَا وَيْلَتَا) وهذا نداء للويل أى : جاء وقتك فلم يعد أمامهم إلا أن يقولوا : يا عذاب هذا أوانك فاحضر .

والويل : هو الهلاك السريع ينادونه ، فهل يطلب الإنسان الهلاك ، ويدهو به لنفسه ؟ نقول . نعم ، حين يفعل الإنسان الفعل ويجد عواقبه السيئة ، وتواجهه الحقيقة المرة يميل إلى تعذيب نفسه ، ألا تسمع مثل هؤلاء يقولون . أنا أستحق .. أنا أستاهل الضرب .. إنه لَوَمَ النفس وتأنيبها على ما كان منها ، فهى التى أوقعته فى هذه الورطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) [الزخرف]

فلماذا لا يؤنب نفسه ، ويطلب لها العذاب ، وهي التي أردته في التهلكة ، ففي هذا الموقف تنقلب موازينهم التي اعتادوها في الدنيا ، فالأصدقاء في الشر وني المعصية هم الآن الأعداء .

﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا..﴾ (٦٧) [الأنبياء] لم يكن هذا الموقف هي بالذات ، ولم نعمل له حساباً ، والغفلة أن نقرأ عن بالك ما يجب أن يكون على بالك دائماً .

لكن ، أي غفلة هذه والله - عز وجل - يذكّرنا بهذا الموقف في كل وقت من ليل أو نهار ألا ترى أنه سبحانه سمى القرآن ذكراً ليزيح عنا هذه الغفلة ، فكلما غفلت تذكر وهزّ مواجدهك ، وأثار عواطفك .

إنّ المسألة ليست غفلة ؛ لذلك نراهم يستذكرون على كلامهم ، فيقولون . ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٩٧) [الأنبياء] لأنهم تذكروا أن الله تعالى طالما هزّ عواطفهم ، وحرك مواجدهم ناحية الإيمان ، فلم يستجيبوا .

لذلك اعترفوا هنا بظلمهم ، ولم يستطيعوا إنكاره في مثل هذا الموقف ، فلم يعد الكذب مجدياً ، وعلمهم يلتمسون بصدقهم هذا نوعاً من الرحمة ، ويظنون أن الصدق نافعهم ، لكن هيهات

وكان الحق سبحانه يحكي عنهم هذه العواجبه حين تقابلتهم القيمة بأسواقها ، فتخص لها أبصارهم ، ويقول بعضهم ﴿يَوَلَّيْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا..﴾ (٩٧) [الأنبياء] فبرد عليهم إخوانهم ، أي غفلة هذه ، وقد كان الله يذكّرنا بالقيامة وبهذا الموقف في كل وقت ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٩٧) [الأنبياء]

و (بَلْ) حرف إضراب عن الكلام السابق ، رَأَيْتَ للكلام اللاحق ،
وهكذا يُرَاجِعُونَ أنفسهم ، وَيُؤَاجِهْ بعضهم بعضاً ، لكن بعد فوات الأوان
ثم يقول الحق سبحانه

﴿ إِنَّا نَكْتُمُ اللَّغْظَ الَّذِي يُنَادِي بِذُنُوبِكُمْ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَازِلُ مَقَرًّا لِّمَنَازِلِهِمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١)
﴿ هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَهُمْ فِيهَا مَصْرُورُونَ ﴾ (٢)

فالذين اتخذتموهم آلهة من دون الله من الأصنام والأوثان والشمس
والقمر والأشجار سيسبقونكم إلى جهنم لنقطع عليكم أي أمل في
النجاة ؛ لأنهم حين يرون العذاب ربما تذكروا هؤلاء ، وفكروا في
النجوة إليهم والاستنجاد بهم ، لعلمهم يخرجونهم من هذا المأزق ، وقد
سبق أن قالوا عنهم ﴿ هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ .. ﴾ (١٨) [يونس]
وقالوا ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلُمَىٰ ﴾ (٣) [الزمر]

لذلك ، يجمعهم الله جميعاً في جهنم ليقطع عنهم الأمل ، ويبدو خجل
المعبود وحيية العابد ، لأنه جاء النار فرجد معبوده قد سبقه إليها ..
لكن ، هل هذا الكلام على إطلاقه فقد عبد الكفار الأصنام ، ومنهم من
عبدوا عيسى عليه السلام ، ومنهم من عبدوا عُزَيْرًا ، ومنهم من عبدوا
الملائكة ، فهل سيجمع هؤلاء أيضاً مع عبيدهم في النار ؟

لو قلنا بهذا الرأي فسحولهم النار متعماً لدخول إبراهيم ، فجمع الله
له النار والسلامة في وقت واحد ، ويكون وجودهم لمجرد أن يراهم

(١) قرئ: هذا اللفظ في القرآن ثلاث قراءات :

١ - حصب جهنم . قرأه الجمهور .

٢ - حطب جهنم . قرأه علي بن أبي طالب وماتة .

٣ - حصب جهنم . قرأه ابن عباس ، [تفسير الفرطبي ١/ ٤٥٢٦] .

عابدوهم ، ويعلموا أنهم لا ينفعونهم^(١) .

ومعنى ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ۚ ۞ ﴾ [الأنبياء] الحصب مثل . الحطب ، وهو كل ما توفد به النار أياً كان خشباً أو قشاً أو بترولاً أو كهرباء . وفى آية أخرى : ﴿ وَقَوَّعُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۚ ۞ ﴾ [التحريم] لذلك فإن النار نفسها تشتت للكمثرى ، وتتظلمهم ، وتتلف عليهم كما يقول تعالى . ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۚ ۞ ﴾ [ق] ويقول تعالى ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۚ ۞ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۚ ۞ ﴾ [الملك]

وقوله تعالى : ﴿ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ۚ ۞ ﴾ [الأنبياء] الورد هنا بمعنى . الدخول والمباشرة ، لا كالورد^(٢) فى الآية لآخرى ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ ۞ ﴾ [مريم]

(١) عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما نزلت ﴿ إِنَّكُمْ وَمَنِ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ۚ ۞ ﴾ [الأنبياء] . فقال ابن الزبير : أليس ترفع يا محمد أن عيسى عبد صالح ، وإن عزيزاً عبد صالح . وأن الملائكة صالحون ؟ قال : بلى . قال فهذا التصاوى تصد عيسى ، وهذه اليهود تصد جبرئيل ، وهذه بنو عليج تصد الملائكة ، فصاح أهل مكة ونرحبوا . فنزلت ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَلَتْ لَهُمْ مِنْ قَبْلِكَ عَنْهَا مُعَذَّبُونَ ۚ ۞ ﴾ [الأنبياء] عزيز وعيسى والملائكة . أخرجه أبو داود فى تاسيقه وابن المنذر وابن مردويه والطبرانى . قاله السيوطى فى الدر المنثور (٦٧١/٥)

(٢) اختلف العلماء فى معنى الورد فى قوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ ۞ ﴾ [مريم] على أقوال عدة منها

- الورد . الدخول ، قاله ابن عباس وخالد بن معدان وابن جرير وغيرهما
- هو ورود إهوان راضلح والقرب ، وذلك أنهم يمشرون موضع الحساب وهو يقرب جهنم فيرونها وينشرون إليها فى حالة الحساب ثم ينهى الله الذين اتقوا مما نظروا إليه ، ويصير بهم إلى الجنة
- الورد النظر إليها من الغير ، فينحى منها الفائز . ويصلاها من قدر عليه دخولها . ثم يخرج منها بالفضاعة أو ينيرها من رحمة الله . قال القرطبي فى تفسيره (١٣١٠/٦)
- بعد إيراد هذه الأقوال . ظاهر الورد الدخول إلا أنها تكون برباً وسلاماً على المؤمنين ، وينجون منها سالين . ثم قال . هذا القول يجمع شتى الأقوال . لأن من وردوا لم تزد بلهبها وحرها فلا يجد عنها رجى منها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَوْ كَانَتْ هَذِلَا أَلِهَةٌ مَا وَرَدُوهُمْ
وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٩٩)

لأنهم سيدخلون فيجدون آلهتهم أمامهم : لينقطع أملهم في شفاعتهم التي يظنونها ، كما قال تعالى في شأن قرعون . ﴿يَقْدِمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ ..﴾ (٩٨) [هود] فرئيسهم وفترتهم يتقدمهم ، ويسبقهم إلى النار ، فلو لم يكن أمامهم لظنوا أنه ينقذهم من هذا المازق . ولو كان هؤلاء آلهة - كما تدعون - ما وردوا النار .

ومعنى : ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٩٩) [الأنبياء] لأن المعروف عن النار أنها تاكل ما فيها ، ثم تنتهي ، أما هذه النار فلا نهاية لها ، فكلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، وهكذا تظل النار متوقدة لا تنطفئ . ومعنى ﴿كُلٌّ﴾ (٩٩) [الأنبياء] أى . العابد والمعبود .

﴿لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠)

معلوم أن الزفير هو الخارج من عملية التنفس ، فالإنسان يأخذ في الشهيق الأكسجين ، ويخرج في الزفير ثاني أكسيد الكربون ، فنلاحظ أن التعبير هنا اقتصر على الزفير دون الشهيق : لأن الزفير هو الهواء الساخن الخارج ، وليس في النار هواء للشهيق ، فكانه لا شهيق لهم ، أعاننا الله من العذاب .

﴿وَهُمْ لَهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠)

[الأنبياء]

وهذه من الآيات التي توقف عندها المستشرقون ، لأن هناك آيات أخرى تثبت لهم في النار سماعاً وكلاماً . كما في قوله سبحانه .

﴿وَمَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الاعراف]

نعم ، هم يسمعون ، لكن لا يسمعون كلاماً يسرُّ ، إنما يسمعون تهكيتاً وتانيباً ، كما في قوله تعالى ﴿وَمَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ أَلْبِسُوا هَبِيبًا مِنَ النَّارِ أَوْ يَبَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الاعراف]

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾

بعد أن ذكر سبحانه جزاء الكافرين في النار ذكر المقابل . وذكر المقابل يوضح المعنى ، اقرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام]

ويقول ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا .. ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة] : لذلك نظل المقارنة حيّة في الدّهر .

ومعنى : ﴿سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ .. ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنبياء] الحسنَى : مؤنث الأحسن ، تقول : هذا حسن وهذه حسنة ، فإن أردت المبالغة تقول هذا أحسن ، وهذه حسنى . مثل : أكبر وكبرى . ومعنى : ﴿سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ .. ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنبياء] أنهم من أهل الطاعة ، ومن أهل الجنة ، فهكذا حكم الله لهم ، وقد أخذ الله تعالى جزءاً من خلقه

وقال . « هؤلاء للجنة ولا لبلى ، وهؤلاء للنار ولا لبلى »^(١)
 ولا تغل . ما ذنب هؤلاء ؟ لأنه سبحانه حكم بما سبق علمه بطلعة
 هؤلاء ، ومصيبة هؤلاء .
 وقوله . ﴿ أُولَٰئِكَ ۖ عَنْهَا مُعَقَّدُونَ ﴾ (١٠١) [الأنبياء] أى مبعدون
 عن النار .
 ثم يقول الحق تبارك وتعالى .

﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ
 أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ (١٠٢)

حسيس النار . أزيزها . وما يتبعث منها من أصوات أول
 ما تشتعل ﴿ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ (١٠٢) [الأنبياء] فلم يقل
 مثلاً . وهم بما اشتهت أنفسهم ، إنما ﴿ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ .. ﴾
 (١٠٢) [الأنبياء] كأنهم عالقون في النعيم مما اشتهت أنفسهم ، كأن
 شهوات أنفسهم ظرف يحتويهم ويشملهم . وهذا يشوق أهل الخير
 والصالح للجنة ونعيمها . حتى تعمل لها ، وتعد الجدة لهذا النعيم .

وسبق أن قلنا . إن الإنسان يتعبد في أول حياته ، ويتعلم
 صنعة ، أو يأخذ شهادة لينتفع بها فيما بعد ويرتاح في مستقبل
 حياته . وعلى قدر تعبك ومجهودك تكون راحتك ، فكل ثمرة لا يد لها

(١) من أبي الدرداء رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فخرّب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كلهم اللز وخرّب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كلهم الحم فقال الذى فى بينه : إلى الجنة ولا لبلى . وقال الذى فى كتفه اليسرى : إلى النار ولا لبلى . أخرجه أحمد فى مسنده (٤٤١/١)

(٢) قال ابن عباس : أولئك أولياء الله يمدون على الصراط مرأ ، هو أسرع من البرق ، ويقطع الكبار فيها حباً وقال آخرون . بل تولدت استثنائه من المصنفين وخرج منهم عزير والنسيف كما قال حجاج بن محمد الأحمق عن ابن جريج روى عن عطاء عن عطاء عن ابن عباس قال ابن كثير فى تفسيره (١٩٨/٢) .



من حرث ومجهود ، والله عز وجل لا يُضيع أجرَ مَنْ أحسن عملاً .

وكنا نرى بعض الفلاحين يقضى يومه فى حقله ، مهمل الثياب ، رث الهيئة ، لا يشغله إلا العمل فى زرعته ، وآخر تراه مُهتدماً نظيفاً يجلس على المقهى سعيداً بهذه الراحة ، وربما يقتدر على صاحبه الذى يُشقى نفسه فى العمل ، حتى إذا ما جاء وقت الحصاد وجد العامل ثمرته نعيمه ، ولم يجد الكسول غير الحسرة والندم .

لَقَدْ : ربك - عز وجل - أعطاك الطاقة والجوارح ، ويريد منك الحركة ، وفى الحركة بركة ، فلو أن الفلاح جلس يُقلب فى أرضه ويُسخر تنويراتها دون أن يزرعها لعرّضه الله وأثر تعب ، ولو أن يجد شيئاً فى الأرض ينتفع به مثل خاتم ذهب أو غيره .

وتوف الإنسان وراحته بحسب تعبهِ فى بداية حياته ، فالذى ينصب ويعرق مثلاً عشر سنين يرتاح طوال عمره ، فإِنْ تعبَ عشرين سنة يرتاح ويرتاح أولاده من بعده ، وإنْ تعبَ ثلاثين سنة يرتاح أحفاده وهكذا .

وترك المتعلم يكون بحسب شهادته : فهذا شهادة متوسطة ، وهذا علماً ، وهذا أخذ الدكتوراة ، ليكون له مركز ومكانة فى مجتمعه .

لكن مهما أعد الإنسان لنفسه من نعيم الحياة وترغها فإنه نعيم بقدر إمكانياته وطاقاته ؛ لذلك ذكرنا أننا حين سافرنا إلى سان فرانسيسكو رأينا أحد الفنادق الفخمة وقالوا : إن الملك فيصل - رحمه الله - كان ينزل فيه ، فأردنا أن نتجسس فيه ، ولعلنا أخذنا بما فيه من مظاهر الترف والأبهة ودرعة الهندسة ، وكان معي ناس من عليّة القوم فقلتُ لهم : هذا ما أعدّه العباد للعباد ، فما بالكم بما أعدّه رب العباد للعباد ؟

فإذا ما رأيت أهل النعيم والقرف في الدنيا فلا تحقد عليهم ، لأن
نعيمهم يذكرك ويشوقك لنعيم الآخرة .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ^(١)
هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ١٣٣

ذلك لأنهم في نعيم دائم لا ينقطع ، وعطاء غير محدود ،
لا يفوتك بالفقر ولا تفوته بالموت ، لذلك ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ..
﴿ [الأنبياء] ١٣٣ ﴾ وأي فزع مع هذه السعة الباقية ؟ أو ، لا يحزنهم فزع
القيامة وأهوالها .

وقوله ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ١٣٣
[الأنبياء] فقد صدقكم الله وعده ، وانجز لكم ما وعدكم به من نعيم
الآخرة

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ
كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعِندَ عَلَيْنَا
إِذَا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ١٣٤

أي . ما يحدث من عذاب الكفار وتتعيم المؤمنين سيكون ﴿ يَوْمَ

(١) قال مجاهد : تتلقاهم الملائكة الذين كانوا في الدنيا يوم القيامة ليبلوهم . نحن
لأولئك في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا نلصقكم حتى تدخلوا الجنة . خرج ابن
أبي حاتم وتكره السهول في الدر المنثور (٦٨٢/٥) .

تَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ .. ﴿١٠٤﴾ [الانبياء] و (يَوْم) : زمن وظرف للأحداث ، فكان ما يحدث للكافرين من العذاب والتكذيب ، وما يحدث للمؤمنين من الخلود في النعيم يتم في هذا اليوم .

والسجل . هو القرطاس ، والورق الذي نكتب فيه يُسَمَّى سجلاً ، ولذلك الناس يقولون نسجل كذا ، أى نكتبه في ورقة حتى يكون محفوظاً ، والكتاب هو المكتوب

والحق سبحانه يقول في آية أخرى : ﴿ وَالسَّمَرَاتُ مَطْوِيَاتٌ بِحِجَّتِهِ .. ﴾ [الزمر] يطويها بقدرته ، لأن اليمين عندنا هي الفاعلة في الأشياء ، ولكن لا نأخذ الطي أنه الطي المعروف ، بل نأخذه في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴾ [الشورى]

وقوله تعالى ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ .. ﴾ [الانبياء] يدلنا على أن الحق سبحانه يستكم عن الخلق لأول و ﴿ نُعِيدُهُ .. ﴾ [الانبياء] تدل على وجود خلق ثان .

إذن نفكره تعالى في موضع آخر : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَرَاتُ وَهَزَرًا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم] دليل على أن الخلق الأول خلق فيه الأسساب وفيه المسبب ، فالخلق سبحانه أعطاك في الدنيا مقومات الحياة من الشمس والقمر والمطر والأرض والماء الخ ، وهذه أمور لا تدخل لك فيها ، وكل ما عليك أن تستخدمه هلك الذي خلقه الله في الترقى بهذه الأشياء والقرف بها .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٧٢١/٥) : روى مرفوعاً من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ فَيُبْسِطُهَا وَيَسْجُلُهَا حَتَّى يَأْتِيَ الْمَكَافِي . لَا تَرَى فِيهَا مَوْجاً وَلَا أَمْتاً ، ثُمَّ يَرْجِعُ اللَّهُ الْخَلْقَ رَجْعَةً فَرَأْنَا هُمْ فِي الثَّانِيَةِ فِي مِثْلِ مَوَاضِعِهِمْ مِنَ الْأُولَى ، مَنْ كَانَ فِي بَطْنِهَا فِي بَطْنِهَا وَمَنْ كَانَ عَلَى ظَهْرِهَا عَلَى ظَهْرِهَا ، ذَكَرَهُ الطِّرْثُوسِي

أما في الخلق الثاني فانت فقط تستقبل النعيم من الله دون أخذ
بالأسباب التي تعرفها في الدنيا ؛ لأن الآخرة لا تقوم بالأسباب إنما
بالمسبب سبحانه ، وحين ترى في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن
سمعت ، ولا خطر على قلب بشر تعلم أن فعل ربك لك أعظم من
فعلك لنفسك

ومهما ارتقت أسباب القرب في الدنيا . ومهما تقن الخلق في
أسباب الراحة والضمة الراقية ، فقصارى ما عندهم أن تضغط على
زر يفتح لك الباب ، أو يحضر لك الطعام أو القهوة ، لكن اتحدى
العالم بما لديه من تقدم وتكنولوجيا أن يقدم لى ما يخطر ببالى من
طعام أو شراب . فإراه أمامى دون أن أنكم ؛ لأن هذه مسألة لا يقدر
عليها إلا الله عز وجل .

فقلوه : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ .. ﴾ [الأنبياء] فالمعنى
ليست مجرد إعادته كما كان ، إنما نعيده على أرقى وأفضل مما كان
بحيث يصل بك النعيم أن يخطر الشئ ببالك فتجده بين يديك ، بل
إن المؤمن في الجنة يتناول الصدف من الفاكهة فيقول لقد أكلت مثل
هذا من قبل^(١) فيقال له : ليس كذلك بل هو أفضل مما أكلت . وأهنا
مما تنوقت فلو تناولت مثلاً تفاح الدنيا تراه خاضعاً لنوعية التربة
والماء والجو المحيط به والمبيدات التي لا يستغنى عنها الزرع هذه
الأيام ... إلخ . أما تفاح الآخرة فهو شئ آخر تماماً ، إنه صنعة
ربانية وإعداد إلهي

وكان الحق سبحانه يلفت عباده إلى أن عذائته بهم أفضل من

(١) هذا قوله تعالى : ﴿ كَلِمَاتٌ ذُرَرًا مِّنْ ثَمَرٍ ذَرَّةً فَنُفِثُوا فِيهَا وَنُفِثَ مِنْ قَبْلِ وَأَوَّلًا بِهِ مَتَابِهَا . ﴾ [البقرة]

عنايتهم بأنفسهم ، لأنه سبحانه أولى بنا من أنفسنا ، ولكي نعلم الفرق بين الشيء في أيدينا والشيء في يده عز وجل .
ثم يقول تعالى . ﴿ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء] أي . لا يُخرجنا شيء عما وعدنا به ، ولا يخالفنا أحد .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [١٥]

والكتب : التسجيل ، يكن علم الله أزلي لا يحتاج إلى تسجيل ، إنما التسجيل من أجلنا نحن حتى نطمئن ، كما لو أخذت من صاحبك قرصاً وبينكما ثقة ، ويأمن بعضكم بعضاً ، لكن مع هذا نكتب القرص ونسجله حتى نطمئن النفس .

ومعنى ﴿ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. ﴾ [الأنبياء] الزبور : الكتاب الذي أنزل على نبي الله داود . ومعنى الزبور : الشيء المكتوب ، فإن أطلقناها على عمومها فطلق على كل كتاب أنزله الله . ومعنى ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. ﴾ [الأنبياء] الذكر : يُطلق مرة على قصص ، ومرة على الكتب السابقة . وما دام الزبور يُطلق على كل كتاب أنزله الله فلا بد أن للذكر معنى أوسع ؛ لذلك يُطلق الذكر على اللوح المحفوظ ، لأنه ذكر الذكر ، وفيه كل شيء

فمعنى ﴿ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. ﴾ [الأنبياء] أي . في الكتب التي

(١) الزبور والكتب واحد ، والله جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور . وقال سعيد بن جبير
للزبور التوراة والإنجيل والقرآن . (تفسير القرطبي ٤٥٢٩/٦)

أُنزِلَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مَا كَتَبْنَاهُ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ ، أَوْ مَا كَتَبْنَاهُ فِي الزَّبُورِ ، لَا أَنْ سَيِّدَنَا دَاوُدَ أَعْطَاهُ اللَّهُ فَوْقَ مَا أَعْطَى الْآخَرِينَ .

وَمَعْنَى : ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. ﴾ [١٠٥] ﴿ [الأنبياء] هذه تكل على أن واحداً سبق من الآخر ، نقول : القرآن هو كلام الله القديم ، ليس في الكتب السماوية أقدم منه ، والمراد هنا ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. ﴾ [١٠٥] ﴿ [الأنبياء] بعدية ذكرية ، لا بعدية زمنية .

فَمَا الَّذِي كَتَبَهُ اللَّهُ لِدَاوُدَ فِي الزَّبُورِ ؟ كَتَبَ لَهُ ﴿ أَنْ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ ﴾ [١٠٥] ﴿ [الأنبياء] كلمة الأرض إذا أُطْلِقَتْ عموماً يُرَادُ بِهَا الْكُرَّةُ الْأَرْضِيَّةُ كُلُّهَا .

وَقَدْ تَقَيَّدَ بِوَصْفٍ مُعَيَّنٍ ، كَمَا فِي ﴿ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ .. ﴾ [٧١] ﴿ [المائدة] وَفِي : ﴿ فَلَنْ أَرْحَ الْأَرْضَ .. ﴾ [٨٠] ﴿ [يوسف] أَيْ : الَّتِي كَانَ بِهَا . وَمَا يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَنْ الْأَرْضَ .. ﴾ [١٠٥] ﴿ [الأنبياء] أَيْ : الْأَرْضَ عَمُومًا ﴿ يَرْثُهَا .. ﴾ [١٠٥] ﴿ [الأنبياء] أَيْ : تَكُونُ حَقًّا رَسْمِيًّا لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ . فَأَيُّ أَرْضٍ هَذِهِ ؟ أَيْ الْأَرْضَ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا الْآنَ ؟ أَمْ الْأَرْضَ الْمُبَدَّلَةَ ؟

مَا نَحْنُ نَتَكَلَّمُ عَنْ بَيْتِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ الْأَرْضَ الْمُبَدَّلَةَ الْمَعَادَةَ فِي الْآخِرَةِ^(١) ، وَالَّتِي يَرْثُهَا عِبَادُ اللَّهِ الصَّالِحُونَ ، وَالْإِرْثُ هُنَا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُرِثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٤٢] ﴿ [الأنعام]

(١) قُلَّ لِلْقُرْطُبِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤٥٢٠ / ٦) : أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهِ أَنَّهُ يُرَادُ بِهَا أَرْضُ الْجَنَّةِ كَمَا لَلَّ مُحَمَّدُ بْنُ جَبْرِ : لِأَنَّ الْأَرْضَ فِي الْإِسْلَامِ قَدْ وَرَّثَهَا الصَّالِحُونَ وَغَيْرُهُمْ ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَشَاهِدٌ رَافِعُهُمَا .

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الخلق أعدّ الجنة لتسع كل بني آدم إن آمنوا ، وأعدّ الدر لتسع كل بني آدم إن كفروا ، فليس في المسألة زحام على أي حال . فإذا ما دخل أهل الجنة الجنة ، ودخل أهل النار النار ظلت أماكن أهل النار في الجنة خالية فيورثها الله لأهل الجنة ويقسمها بينهم ، ويُفسح لهم أماكنهم التي حُرِم منها أهل الكفر .

أَوْ نَقُولُ : الْأَرْضُ يُرَادُ بِهَا أَرْضُ الدُّنْيَا^(١) . وَيَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ يُمَكِّنُ الصَّالِحَ مِنْ لَارِضٍ ، الصَّالِحِ الَّذِي يَغْتَنِمُهَا وَلَوْ كَانَ كَافِرًا ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَحْرِمُ الْإِنْسَانَ ثَمَارَ عَمَلِهِ ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ كَافِرًا ، يَقُولُ تَعَالَى ﴿ مَنْ كَانَ يُؤِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُؤِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤِثَّهُ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (٢) .

لكن عمارة الكفار للأرض وتكوينهم للحضارة سرعان ما تنزل بهم النكبات ، وتقلب عليهم حضارتهم ، وما نحن نرى نكبات الأمم المرتقبة والمتقدمة وما تعانيه من أمراض اجتماعية مستعصية ، فليست عمارة الأرض اقتصاداً وطعاماً وشراباً وترفهاً . نفى السويد - مثلاً - وهي من أعلى دول العالم نخلاً ومع ذلك بها أعلى نسبة انتحار ، وأعلى نسبة شذوذ ، وهذه هي المعيشة الضمك التي تحدث عنها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى ﴾ [طه]

فَالضُّكُّ لَا يَعْنَىٰ فَقْرًا وَلَا عَجْزًا . إِنَّمَا لَهٗ صُورٌ أُخْرَىٰ كَثِيرَةٌ

(١) عن ابن عباس : إنها أرض الأمم الكافرة ، تراثها أمة محمد ﷺ بالفتوح [تفسير القرطبي ٦ / ٤٤٢] .

إنن . لا تقسّ مستوى التحضر بالماديات فحسب . إنما خُذْ في حُسبانك كُلَّ النواحي الأخرى ، فعن آتقن النواحي المادية الدنيوية أخذها وترف بها في الدنيا ، أما الصلاح الديني والخلق والقيمي فهو سبيل لترَف الدنيا ونعيم الآخرة .

وهكذا تشمل الآية : ﴿ بَرِّئْنَا عِبَادِيَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٠٥) [الانباء] الصلاح المادي الدنيوي ، والصلاح المعنوي الآخروي ، فإن أخذت الصلاح مُطلقاً بلا إيمان ، فإنك ستجد ثمرته إلى حين ، ثم ينقلب عليك ، فأي أصحاب الحضارات القديمة من عاد وثمود والفراعنة ؟ إن كُلَّ هذه الحضارات مع ما وصلت إليه ما أمكنها أن تحتفظ لنفسها بالدوام ، فزالت وبادت .

يقول تعالى . ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الشَّجَرِ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر]

إنها حضارات واقية دُفِنَتْ تحت أطباق التراب ، لا يعرف حتى أمكنتها ، أما إن أخذت الصلاح المعنوي ، الصلاح المنهجي من الله عز وجل فسوف تحوز به الدنيا والآخرة ؛ ذلك لأن حركة الحياة تحتاج إلى منهج يُنظمها : افعل كذا ولا تفعل كذا ، وهذا لا يقوم به البشر أما ربُّ البشر فهو الذي يعلم ما يصلحهم ويُشرع لهم ما يسعدهم .

إن منهج الله وحده هو الذي يأمرنا وينهانا ، ويخبرنا باللال والحرام ، وعينا نحن التنفيذ ، وعلى الحكام وأولياء الأمر المعسكين بميزان العدل أن يراقبوا مسألة التنفيذ هذه ، فيُولُوا مَنْ يصلح للمهمة ، ويقوم بها على أكمل وجه ، وإلا فسد حال المجتمع ، الحاكم

يُشْرِفُ وَيُرَاقِبُ ، يُشْجِعُ الْعَامِلَ وَيُعَاقِبُ الْخَامِلَ ، وَيُضَعُ الرَّجُلَ الْمُنَاسِبَ فِي مَكَانِهِ الْمُنَاسِبِ .

فَمَنَاصِرُ الصَّلَاحِ فِي الْمَجْتَمَعِ : عُلَمَاءُ يُخَطِّطُونَ ، وَحُكَّامٌ يُنْزِلُونَ ، وَيُدِيرُونَ الْأُمُورَ ، وَكَلِمَةُ حَاكِمٍ مَأْخُوضَةٌ مِنَ الْحِكْمَةِ (بِالْفَتْحِ) وَهِيَ اللَّجَامُ الَّذِي يَكْبِحُ الْفَرَسَ وَيُوجِّهُهَا .

لِذَلِكَ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : « مَنْ وَلَّى أَحَدًا عَلَى جَمَاعَةٍ ، وَفِي النَّاسِ خَيْرٌ مِنْهُ لَا يَشْمُ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ »^(١) .

لَعَنَّا ؟ لِأَنَّ ذَلِكَ يُشْجِعُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، وَيُخْطِطُ الْعِزَائِمُ الْعَالِيَةُ وَالْهَمَمُ الْقَوِيَّةُ حِينَ تَرَى مَنْ هُوَ أَقَلُّ مِنْكَ كِفَايَةً يَتَوَلَّى الْأَمْرَ ، وَتُسْتَبْعَدُ أَنْتَ . أَمَّا حِينَ تَعْتَدِلُ كِفَاةَ الْمِيزَانِ فَسَوْفَ يَجْتَهِدُ كُلُّ مَنَّا بِبَيْضِ الْمَنَاسِبِ .

إِذَنْ . مَهْمَةُ الْحُكَّامِ وَوَلَاةُ الْأَمْرِ تَرْقِيَّةُ الْمَجْتَمَعِ ، فَلَا نَقُولُ لِحَاكِمٍ مِثْلًا يُعَدُّ لَنَا صَعَامًا ، أَوْ يَصْنَعُ لَنَا آلَةً ، فَطَيْسَتْ هَذِهِ مَهْمَتُهُ ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا أَحَدَ الْأُمَرَاءِ وَكَانَ لَهُ أَرْضٌ يَزْرَعُهَا ، يَتَوَلَّاهُ لُحْدُ الْمُوظَّفِينَ يَقُولُونَ لَهُ (الْخَوْلَى) وَمَهْمَةُ الْخَوْلَى الْإِشْرَافُ وَالْمِرَاقَبَةُ .

وَفِي يَوْمٍ جَاءَ الْأَمِيرُ لِيَبَاشَرَ أَرْضَهُ وَيَتَفَقَّدَ أَحْوَالَهَا فِي صُحْبَةِ الْخَوْلَى ، وَفِي أَثْنَاءِ جَوْلَتِهِمَا بِالْأَرْضِ رَأَى الْخَوْلَى قَنَاقَةً يَنْسَابُ مِنْهَا الْمَاءُ حَتَّى أَغْرَقَ الزَّرْعَ فَتَنَزَلَ وَصَدَّ الْقَنَاقَةُ بِنَفْسِهِ .

وَعِنْدَهَا غَضَبُ الْأَمِيرِ وَفَصَلَهُ مِنْ عَمَلِهِ ؛ لِأَنَّهُ عَمِلَ بِيَدِهِ فِي حِينٍ أَنْ مَهْمَتُهُ الْإِشْرَافُ وَلِيَدِهِ مِنَ الْعَمَالِ مَنْ يَقُومُ بِمِثْلِ هَذَا الْعَمَلِ .

(١) عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ وَلَّى مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَكُنَّ عَلَيْهِمْ أَعْدَاءُ مُجَاهِدَةً لَعَنَهُ اللَّهُ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ حَرْقًا وَلَا عَدْلًا حَتَّى يَسْخَطَهُ جِهَنَّمُ » أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٦/١) .

تكن ، لماذا هذه النظرة في إدارة الأعمال ؟ قالوا ، لأنه إن عملت بيدك فسأنت واحد ، لكن إن أسرفت فيمكن أن تُشرف على آلاف من العمال . ومن هنا جاءت مسألة التخصص في الأعمال .

وعلى الحاكم وولي الأمر أن يحافظ على منهج الله ، ويتابع تطبيق الناس له . فيقف أمام أي فساد ، ويأخذ على يد صاحبه ، ويثيب المجتهد العامل ، كما جاء في قوله تعالى في قصة ذي القرنين .

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعْتَبُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيَعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ۖ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءُ الْحَسَنَىٰ وَمَقُولَ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾ [الكهف]

ذلك ، لأن الله تعالى يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن ، ولو تركنا أهل الفساد والانحراف لجراء القيامة لفسد المجتمع ، لا بد من قوة تصون صلاح المجتمع ، وتضرب على أيدي المفسدين ، لا بد من قوة تمنع من يتجرؤون علينا ويطالبون بتغيير نظامنا الإسلامي .

لذلك يقول تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ..﴾ [الأنفال] لا بد أن يعلم العدو أن لديك الرادع الذي يردعه إن اعتدى عليك أو حارل إفساد صلاح المجتمع

لذلك ، قال النبي ﷺ يقول في الحديث^(١) إن السهم الذي يرمى في سبيل الله ، لكل من شارك في إعداده ورميه جزء من الثواب ، فالذي قطعه من الشجرة والذي براه ، والذي وضعه في القوس ورمى به ، لأن في ذلك صيانة للحق وصيانة للصلاح حتى ينوم ، ولا يفسده أحد .

(١) عن حنيفة بن عمار قال ﷺ : « إن الله عز وجل يُصل الثلاثة بالسهم الواحد الجنة .

صانعه يحسب في صفة الخير والمعد به ، والرامي به ، أخرجه الدارمي في سننه

(٢٠٤/٢) والترمذي في سننه (١٦٣٧) ، وابن ماجه في سننه (٢٨١١)

والمستولية هنا لا تقتصر على الحكام وولاية الامر ، إنما هي مسئولية كل فرد فيمن ولي أمراً من أمور المسلمين . كما جاء في الحديث . « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته . فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »^(١) .

وعلى العامل ألا ينظر إلى مراقبة صاحب العمل ، وليكن هو رقيباً على نفسه ، والله من رجل يراقب الجميع ، وقد جاء في الحديث القدسي « إن كنتم تعتقدون أنني لا أراكم فانخل في إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم » .

والمعامل في حركة الحيلة يحددها متداخلة ، فمثلاً لو أردت بناء بيت ، فالهندسة حركة ، والبناء حركة ، والكهرباء حركة ، والشجارة حركة ، وهكذا . ، فلو قلنا : إن هذا العمل يتكون من مائة حركة مثلاً ، فإنك لا تملك منها إلا حركة واحدة هي عملك الذي تسقته ، والباقي حركات لغيرك . فإني أخلصت فيما للناس عندك أهمهم الله أن يخلصوا لك ولو عن غير قصد ، فأنت أخلصت وأتقنت حركة واحدة ، وأخلص الناس لك في تمنع وتسعين حركة .

واعلم أن الفواطر والأفكار بيد الله سبحانه ، فمن راقب الله فيما للناس عندك راقبهم الله لك فيما لك عندهم ، وكفاك مؤنة ابراقبة ، فقد يصنع لك الصانع شيئاً ، ويريد أن يغشك فيه فيحول الله بينه وبين

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . وأحمد في مسنده (٥٤/٢ ، ١١١) . والبخاري في صحيحه (٢٤٠٩) .

هذا : ربما يجلس معه أحد معارفه فيستحي أن يفرض أمامه ، أو لا يحدد الشيء الذي يفشك به ، أو غير ذلك من الأسباب التي يُسخرها الله لك ، فيبتن لك الصانع صنّعه ، ولو رغماً عن إرادته .

إثنى . إن أردت صلاحَ أمرك فاصلح أمور الآخرين .

ومن الأساسيات التي تُصلح بها ونرت الأرض أن ننظر إلى أخاس جميعاً على أنهم سواسية ، لا فضلَ لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فليس لدينا مَنْ هو ابنُ الله عز وجل . وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة . قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ .. (١٦٧) [المحجرات]

والإسلام لا يعرف الطبقيّة ، لا في إتقان العمل ، فقيمة كل امرئ ما يُحصنه ، وقد ضربنا لذلك مثلاً ، وما نزال نذكره مع أنه لرجل غير مسلم ، إنه رجل فرنسي كان نقيباً للعمال ، وكان يدافع عن حقوقهم ، ويطلب لهم زيادة الدُخل من ميزانية الوزارة ، فلما تولى منصب الوزارة وتولى المسئولية عدلَ عَمَّا كان يطالب به ، فضجّ العمال ، وأراد أحدهم أن يغيظه فقال له : أنكر يا معالي الوزير أنك كنت في يوم من الأيام ماسح لحذية ، فما كان من الرجل إلا أن قال : نعم .. لكني كنت أجيدها .

وسبق أن ذكرنا أن الله تعالى ورّج المواهب والقدرات بين خلقه ، فساعة ترى نفسك مُميزاً على غيرك في شيء فلا تغتر به ، وابتدُ فيما ميّز به عنك غيرك ، لأننا جميعاً عند الله سواء ، لا يماهى منا أحدٌ على أحد ، فأنت مُميز بملكك أو قوتك ، وغيرك أيضاً مُميز في سعاده مع أهله أو في أمانته وثقة الناس به ، أو في رضاه بما قسم له أو في قدرته على نفسه ورضاه بالقليل ، وقد يُميِّز الواحد منا بالولد الصالح الذي يكون مطواً لآبيه ، وقرة عين له .

إذن هذه مسألة مُتَدَرَّة محسوبة ، لأن ربك سبحانه قُيُوم عليك ، لا تخفي عليه منك خافية ، وحين يُمَيِّز بعضنا على بعض إنما ليهلك فينا الغرور والكبرياء ، وينزع من قلوبنا الحقد والغُل ، وهكذا يتوازن المجتمع ، ولا يكون التميز مشار حقد ؛ لأن تميزَ غيرك لصالحك ، وسيعود عليك

والحق - سبحانه وتعالى - يُحَدِّثنا عن يوم القيامة ، وكيف أن الشمس ستندثر من الرؤوس ، ويشقد بالناس لكرب ، إلا هؤلاء الذين يُظْلَم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ذلك لأنهم كانوا مظلة أمان في الدنيا ، فأظلم الله في الآخرة

كما جاء في الحديث الشريف : « سبعة يُظلم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » (١) .

نعم ، لقد صنع هؤلاء بسلوكهم القويم مظلة أمان في الكون ، فاستحقوا مظلة الله في الآخرة ، وبمثل هؤلاء يتوازن المجتمع المسلم ويرقى إلى القمة ، هذا المجتمع الذي نريده هو مجتمع هنيئ متواضع ، وفقيره كريم شريف ، وشابّه طائع .

يقول رب العزة سبحانه في الحديث القدسي « أحب ثلاثة وحببي لثلاثة أشد - فهؤلاء ستة نقسمهم إلى قسمين - أحب الفقير

(١) حديث مطلق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٦٦٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٠٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

المتواضع ، وحبى للفنى المتواضع أشد - لأن عنده أسباب الكبر ومع ذلك يتواضع - وأحب الفنى الكريم وحبى للفقير الكريم أشد ، وأحب الشيخ الطائع وحبى للشاب الطائع أشد ، .

« وأكره ثلاثة وكُرِّهى ثلاثة أشد ، أكره الفنى المتكبر ، وكُرِّهى للفقير المتكبر أشد ، وأكره للنقيير البخيل ، وكُرِّهى للفنى البخيل أشد ، وأكره الشاب العاصى وكُرِّهى للشيخ العاصى أشد ،

هؤلاء اثنا عشر نوعاً : ستة فى المحبوبة ، وستة فى المكروهية ، وكلما التزمنا بتطبيق هذا المنهج وجدنا مجتمعاً رانياً من الدرجة الاولى .

﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ (١٦)

البلاغ . الشيء المهم الذى يجب أن يعلمه الناس ؛ لذلك حين يشغل الناس بالحرب ، وينتظرون أخبارها تاتيهم على صورة بلاغات ، يقولون : بلاغ رقم واحد ، لأنه أمر مهم .

فقوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا .. ﴾ (١٦) [الانبياء] أى . أن ما جاء به القرآن هو البلاغ الحق ، والبلاغ الاعلى الذى لم يترك لكم عذراً ، ولا لغفلتكم مجالاً ، ولا لمستدرك أن يستدرك عليه فى شيء . فهو مُتَنهِى ما يمكن أن أخبركم به .

وهو بلاغ لمن ؟ ﴿ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ (١٦) [الانبياء] أى . يتلقفون مراد الله لينفذوه ، سواء أكان أمراً أم نهياً .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٧)

وما دام ﷺ خاتم الرسل ، وبعثه للناس كافة ، ولنزمن كله إلى أن تقوم الساعة . وقد جاء الرسل السابقون عليه لفترة زمنية

محددة ، ولقوم بعينهم أما رسالة محمد ﷺ فجاءت رحمة للعالمين جميعاً ؛ لذلك لا بدُّ لها أن تتسع لكل أفضية لحياة التي تعاصرها أنت ، والتي يعاصرها خلقك ، وإلى يوم القيامة .

ومعنى : العالمين ، كُلُّ ما سوى الله عز وجل : عالم الملائكة ، وعالم الجن ، وعالم الإنس ، وعالم الجعد ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات . يكن كيف تكون رسالة محمد ﷺ رحمة لهم جميعاً ؟

قالوا . نعم ، رحمة للملائكة ، فجبريل - عليه السلام - كان يخشى العاقبة حتى نزل على محمد فوله تعالى : ﴿ هُوَ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ (٢٥) [التكوير] فاطمان جبريل عليه السلام وأمن

ورسول الله ﷺ ورحمة للجماد ، لأنه أمرنا بإمالة الأذى عن الطريق . وهو رحمة بالحيوان . وفي الحديث الشريف . « ما من مسلم يزرع زرعاً ، أو يفرس غرساً فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة »^(١) .

وحديث المرأة التي نخلت النار في مرة حبستها ، فلا هي أطعمتها وسقته ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض^(٢)

وحديث الرجل الذي نخل الجنة ، لأنه سقى كلباً كان يلهث يأكل الثرى من شدة العطش ، فنزل الرجل البئر وسأ خفقه فسقى الكلب ، فشكر الله له وغمر له ، لأنه نزل البئر وليس معه إناء يملأ به الماء ،

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٢٠) . وكنا مسلم في صحيحه (١٥٥٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه

(٢) من ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : « نخلت امرأة النار في مرة وبطنتها فلم تلمسها . ولم تصمها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧/٨) قال ابن حجر في الفتح (٢٥٧/٦) « المراد (بخشاش الأرض) هوام الأرض وحشراتنا من غارة ونحوها »

فاحتال للأمر ، واجتهد ليمسقى الكلب^(١)

وهكذا نالت رحمة الإسلام الحيوان والطير والإنسان ، ففي الدين مبدأ ومنهج يُنظم كل شيء ولا يترك صغيرة ولا كبيرة في حياة لناس ؛ لذلك فهو رحمة للعالمين

فقله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) [الأنبياء] يعنى أن كل ما يجيء به الإسلام داخل في عناصر الرحمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنَّمَا يُرِثُ عَلَىٰ الْوَحْدَانِيَّةِ أَنَا وَاللَّهُ وَحْدٌ
فَهَلْ أَسْمِعُ مَسْلُومُونَ﴾ (١٠٨)

فالوحدانية هي أول رحمة بنا ، أن نكون كلنا سواء ، ليس لنا إلا إله واحد ، هذه من أعظم رحمت الله أن نعبد وحده لا شريك له ، فعبادته تُغنينا عن عبادة غيره ، ولو كانت آلهة متعددة لاصابتنا الحيرة بين إله يأمر ، وإله ينهى .

لذلك : فالحق - سبحانه وتعالى - يطلب منا أن نعترف بأننا نلحق بهذه الوحدانية ، وبهذه الألوهية ، وفي هذا يقول الشاعر الإسلامي محمد إقبال :

والسُّجود الذي تَجْتَوِيهِ مِنْ أَلُوفِ السُّجُودِ فِيهِ نَجَاةٌ

(١) من أبي هريرة أن النبي ﷺ قال بينما رجل يمضي بطريق اقتصد عليه العطش ، فوجد بشراً فذلل بها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يهدى يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بيني ، فنزل البشر فملا حقه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا يا رسول الله إن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال في كل ذات كبد رطبة أجر ، أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٠٩)

فسجودك لله وتصغير وجهك له سبحانه يحميك من السجود
لغيره ، ولولا سجودك لله لَسَجَدْتَ لِكُلِّ مَنْ هُوَ اقْوَى عِنْدَكَ ، فعليك -
إذن - أن تعتز بعبوديتك لله ؛ لأنها تحميك من العبودية لغيرك من
البشر ، وصلى لا يقول لك شخص أنت عبد ، نعم أنا عبد لكن لستُ
عبدًا لك . فعميد غيرك حرٌّ مثلك .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً في هذه المسألة في قوله
تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ﴾ (١٦)

فهو يستوي عبد لعدة أسياد يتجاذبون في وقت واحد ، وهم مع
ذلك مختلفون بعضهم مع بعض ، وعبد سَلَمًا لسيد واحد ؟

وهكذا ، نحن جميعاً عبيد لله - عز وجل - حين نخضع لا نخضع
إلا له سبحانه ، فلا أخضع لك ولا تخضع أنت لي ؛ لذلك يقولون
« اللى الشرح يقطع صباعه ميخرش دم ، لأنه أمر من أعلى ، من
السماء ، لا يدخل لأحد فيه .

بذلك ، فالعبودية نكره حين تكون عبودية للبشر ، لأن عبودية
البشر للبشر يأخذ السيد خير عبده ، أما العبودية لله فيأخذ العبد خير
سيده .

والشاعر^(١) يقول ،

حَسَبْتُ نَفْسِي عِزًّا بِأَنِّي عَبْدٌ يَحْتَفِي بِي بِسَلَا مَوَاعِيدِ رَبِّ
مَوْفَى قُدْسِهِ الْأَعَزُّ وَلَكِنْ أَنَا الْقَتْلَى مَتَى وَأَيْنَ أَحِبُّ

ولك أن تقارن بين مقابلة عظيم من عظماء الدنيا ومقابلة ربك
عز وجل . فإن أردت الدخول على أحد هؤلاء لا بد أن تطلب المقابلة ،

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه

وبما ترى تقبل أم ترفض ، وإن قبلت فلا تملك من عناصرها شيئاً ،
فالزمن ، والمكان ، وموضوع الكلام . كلها أمور يحددها غيرك .

أما إن أردت مقابلة ربك - عز وجل - فمعاً عليك إلا أن تتوضأ
وترفع يديك قائلاً الله أكبر بعدما ستكون في معية الله ، وقد اختبرت
انت الزمان ، والمكان ، وموضوع الحديث ، وإنهاء اللقاء .

ألا ترى كيف امتن الله تعالى على رسوله في رحلة الإسراء
والمعراج ، بأن وصفه بالعبودية له سبحانه ، فقال ﴿سُبْحَانَ الَّذِي
أَمَرَئِي بِهِدَهُ ۖ﴾ [الإسراء] ١٠٠ . ﴿إِن جَاء قَوْلُهُ تَعَالَى ۖ﴾ [نَمَّا يَرْحَمِي
إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۖ﴾ [الأنبياء] ٢٢٨ . ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء] ١٠٧ . أن دعوة الله لنا إلى عبادة إله
واحد ترحمنا من عبوديتنا بعضنا لبعض .

ثم يرضينا الحق سبحانه في هذه العبودية ، فيقول ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء] ١٠٨ . كما تحت ولدك المتكاسل أن يكون مثل رعيه
الذي تفوق ، وأخذ المركز الأول ، فنقول له : ألا تناكر وتجتهد حتى
تكون مثله ؟

وهكذا في ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء] ١٠٨ . أي . مسلمون لله ،
لأن مصلحتكم في الإسلام وعزكم في عبوديتكم لله .

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّاءَ ۖ أَذْنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ
أَقْرَبَ ۖ أَمِ بَعِيدَ مَا تُوعَدُونَ﴾ [١٠٩]

(١) آلهة الأمر ، وآلهه به . أهله . وآذنتك بالشئ . اعلمتك . [إعلان العرب - مادة .
لكن]

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا ..﴾ [الأنبياء] يعنى . اعرضوا وانصرفوا ﴿فَقُلْ أَذَنْتُكُمْ ..﴾ [الأنبياء] مائة : أذن ومنها الأذن تعنى الإعلام بالشيء . والاصل فى الإعلام كان فى الأذن بالكلام ، حيث لم يكن عندهم قراءة وكتابة ، فاعتمد الإعلام على الكلام والسمع بالأذن ، فعنى ﴿أَذَنْتُكُمْ ..﴾ [الأنبياء] أعلمتكم وأخبرتكم .

وقوله تعالى . ﴿عَلَى سَوَاءٍ ..﴾ [الأنبياء] يعنى . جاء الإعلام لكم جميعاً لم أخص أحداً دون الآخر ، فأنتم فى الإعلام سواء لا يتميز منكم أحد على أحد ؛ لذلك كان النبى ﷺ يحرم على إبلاغ الجميع ، فيقول :

« يضر الله أمراً سمع مقالتي فوعاها ، ثم أدأما إلى من لم يسمعها ، فربُّ مبلغ لوعى من سامع »^(١) وهكذا يشيع الخبر ويتداول بين الجميع

﴿فَقُلْ أَذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ..﴾ [الأنبياء] فلم أعلم قوماً دون قوم . ولم أسمع أذنًا دون أذن . وجعلت من كمال الإيمان أن يخبر السامع من لم يسمع ، لأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

ثم ينبئهم إلى أمر الساعة : ﴿وَأَنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء] فانتبهوا وخشوا بالكم ، واحصوا ما وعدوا ، فلا أدري لعل الساعة تكون قريباً . ولعلها تفاجئكم قبل أن أنهى كلامى معكم .

لذلك : لما سألوا أحد الصالحين : فيم أفنيت صمرك ؟ قال

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٧/١) والترمذى فى سننه (٢٦٥٨ - ٢٦٥٧) وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) والحميدى فى مسنده (٤٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

« أَفَلَيْتَ عَمْرِي فِي أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ : عَلِمْتُ أَنِّي لَا أَخْلُو مِنْ نَظَرِ اللَّهِ طَرَفَةً
عَيْنٍ فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَعْصِيَهُ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ لِي وَزْئًا لَا يَتَجَاوَزُنِي قَدْرُ
ضَمْنِهِ اللَّهُ لِي فَقَنَعْتُ بِهِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ عَلَيَّ دَيْنًا لَا يُؤَدِّيهِ عَنِّي غَيْرِي
فَاسْتَفْلَحْتُ بِهِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ لِي أَجَلًا يَبَادِرُنِي فَبَادَرْتُهُ ،

إِذَنْ . فالمراد : استعدوا لهذه المسألة قبل أن تفاجئكم ،
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ
وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾

ومما دام ربك - من وجل - يعلم الجهر ويعلم السر وأخفى ،
فإياك أن تتناق ، لأننا ننهك عن النفاق مع البشر ، فمن باب أولي أن
تنهك عن نفاق ربك سبحانه الذي يعلم سرّك كما يعلم علانيتك ،
وقصارى أمر البشر أن يراقبوا علانيتك . لذلك ، فإن كل احتياطات
أهل الإجرام التخفى عن أعين الدولة ، والهرب من مراقبة الشرطة ،
لكن كيف التخفى عن نظر الله وعلمه ؟

وقوله تعالى . ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ (١١٠)
[الأنبياء] يعلمنا الأدب حتى فيما نكتم ، فالأدب في الجهر من باب
أولى ، ونحن مؤمنون بأن الله سبحانه غيب غير مشهود ، وهب أنك
في بيتك تعلم كل شيء فيه ، لأنه مشهود لك ، أمّا ما كان خارج البيت
فهو غيب منك لا تعلمه ، أمّا الحق سبحانه فهو غيب يعلم كل مشهود
وكل غيب .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ وَإِنْ أَدْرِىكَ لَعَلَّكُمْ فَتَنَةً لَكُمُ وَمَتَّعُ إِلَىٰ خَيْرٍ ﴾ (١١١)

أى . لعل الإمهال وبقاءكم دون هذاب وتبليط الساعة عنكم
فتنة واختبار ، يا ترى أتوفقون وتفوزون فى هذا الاختبار ،
كما قال سبحانه فى موضع آخر .

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْرُ اللَّهِمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ٥٥ ﴾ [التوبة]

وقال تعالى ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطْعِمُ لَهُمْ خَيْرَ لَأَنْفُسِهِمْ
إِنَّمَا نُطْعِمُ لَهُمْ لِيُرْضَوْا إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ١٢٨ ﴾ [ال عمران]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ جِينٍ ١١١ ﴾ [الانبيا] أى . لن يدوم هذا
النعيم وهذا المتاع ؛ لأن له مدة موقوتة

ثم يقول الحق سبحانه فى ختام سورة الانبياء .

﴿ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ
مَنْ مَاتَصِفُونَ ١١٢ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. ١١٢ ﴾ [الانبيا] كما دعا
بذلك الرسل السابقون ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ
الْفَاتِحِينَ ٨٩ ﴾ [الاعراف]

(١) قال قتادة كانت الانبياء تقول ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ .. ٨٩ ﴾ [الاعراف] فأمر
النبي ﷺ أن يقول : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ١١٢ ﴾ [الانبيا] فكان إذا لقى العدو يأتى - وهو
يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل - ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. ١١٢ ﴾ [الانبيا] أى الحق .
به - ذكره القوطى فى تفسيره (٤٥٢٢/٦) والسيوطى فى الدر المنثور (٦٨٩/٥)
وهذا لابن أبى حاتم

(٢) أى انصرنا عليهم ، ويجوز أن يكون المعنى ربنا افتح بيننا وبين قومنا باب التخلص
والمصبة بالحق حتى يؤمنوا ويتركوا عناهم [القاموس للزويم ٧٠/٢]

وهل يحكم الله سبحانه إلا بالحق ؟ قالوا^(١) : الحق سبحانه يُبَيِّن
لنا : لأننا عشنا في الدنيا ورأينا كثيراً من الباطل ، فكاننا لأول مرة
نسمع الحكم بالحق .

ثم يقرأ سبحانه : ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ
(١١٢) ﴾ [الأنبياء] أى المستعان على ما تُجْهِمُونَ فيه من نسبتنا إلى
الجنون ، أو إلى السحر .. الخ .

وتلاحظ أن الحق سبحانه في آيات سورة الأنبياء تكلم عن حَلِيّ السماء
كَلِمَ السَّجَلِ للكتب ، ثم قال ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١١٣) [الأنبياء] ﴿ وَمَنَّا إِلَى
حِينِ ﴾ (١١٤) [الأنبياء] ، ثم قال : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾ (١١٥) [الأنبياء]
هذا كله لِيُقَرَّبَ لنا مسألة الساعة وقيامها ، وَنُعَدَّنا لاستقبال
« سورة الحج » .

(١) قوله أين عباس فيما أخرجه عنه ابن جرير الطبري وابن المنذر ، أورده السيوطي في الدر المنثور (٦٨٩/٥) قال : لا يحكم الله إلا بالحق ، ولكن إنما يستعمل بذلك في الدنيا يسأل به حلي قومه .

سورة الفاتحة

سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ
السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾

الخطاب هنا عام للناس جميعاً ، وعادة ما يأتى الخطاب الذى يطلب الإيمان عاماً لكل الناس ، إنما ساعة يطلب تنفيذ حكم شرعى يقول : يا أيها الذين آمنوا .

لذلك يقول هنا : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ..﴾ [الحج] يريد أن يلفتهم إلى قوة الإيمان . وكلمة ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ ..﴾ [الحج] التقوى : أن تجعل بينك وبين ما أحدثك عنه وقاية ، أى : شيئاً يقيك العذاب الذى لا طاقة لك به .

(١) سورة الحج هي السورة رقم (٢٣) في ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٧٨ آية ، وهي سورة محتلفة فيها آيات مدنية ، وآيات مكة ، وهو قول جمهور العلماء ، قال ابن الفرس في أحكام القرآن فيما نقله عنه السجستاني في (الإتقان في علوم القرآن ٢٣/١) ورجعه القرطبي أيضاً في تفسيره (٤٥٢٢/٦) وقال : « وهذا هو الأصح » .
قال القرطبي : « هي من أعاجيب السور ، نزلت ليلاً ونهاراً ، وسفراً وحضرًا ، مكة ومدينة ، سلمياً وحربياً ، ناسخاً ومنسوخاً ، محكمًا ومتشابهًا ، مختلف للمدة » . نقله القرطبي في تفسيره (٤٥٢٢/٦)

ونلاحظ أن الله تعالى يقول مرة : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. ﴾ (١٩٤) [البقرة] ومرة يقول ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ .. ﴾ (٦٤) [البقرة] نعم ، لأن المعنى ينتهى إلى شيء واحد ، معنى ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ .. ﴾ (٦٤) [البقرة] أى اجعل بينك وبينها وقاية تحميك منها ، ويكون هذا بفعل الامر وترك النهى . وقوله . ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. ﴾ (١٩٤) [البقرة] لأن الله تعالى صفات جمال ، وصفات جلال ، صفات الجمال كالرحمن ، والرحيم ، والباسط والستار ، وصفات الجلال كالفهار والجبار وغيرها مما نخاف منه . فاجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية ، فليست بك طاقة لقاهريته ، وبطشه سبحانه ، والنار من جود الله ، ومن مظاهر قهره فكما نقول : اتق الله نقول : اتق النار .

واحتار فى هذا الامر صفة الربوبية ، فقال . ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ﴾ (١) [الحج] ولم يقل : اتقوا الله ، لأن الرب هو المتولى للرعاية والتربية ، فالذى يُحذرك هو الذى يُحبك ويُعطيك ، وهو الذى خلقك ورباك ورعاك .

فالربوبية عطاء . إيجاد من عدم وإعداد من عدم ، فأولئى بك أن تتقيه ، لأنه قدّم لك الجميل .

أما صفة الألوهية فتعنى التكليف والعبادة بالفعل ولا تفعل ، الله معبود ومُطَاع فيما أمر وفيما نهى .

ثم يقول تعالى . ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) [الحج] الزلزلة هى الحركة العنيفة الشديدة التى تُخرج الأشياء عن ثباتها ، كما لو أردت أن تخلع وتكاد من الأرض ، فعليك أولاً أن تهزّه وتخلخله من مكانه ، حتى تجعل له مجالاً فى الأرض يصرّج منه ،

وإنما لو حاولت جذبته بداية فسوف تجد مجهوداً ومشقة في خلقه ، وكذلك يفعل الطبيب في خلق الضرس .

فمعنى الزلزلة : الحركة الشديدة التي تزيل الأشياء من أماكنها .
والحق سبحانه وتعالى تكلم عن هذه الحركة كثيراً فقال ﴿ إِذَا رُجَّتِ
الْأَرْضُ رَجًا ۚ وَبُسَّتِ ۙ الْجِبَالُ بَسًا ۚ فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبَثًا ۖ ﴾ [الواقعة]
ويقول : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۚ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۚ ﴾
وقال الإنسان ما لها ۚ ۝ يَوْمَئِذٍ تُعَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ ۝ بِأَنَّ وَعْدَكَ أَوْحَى
لَهَا ۚ ۝ [الدولة]

فالزلزال هنا ليس زلزالاً كالذي فراه من هزات أرضية تهدم بعض البيوت ، أو حتى قبيلع بعض القرى ، فهذه مجرد آيات كونية تثبت صدق البلاغ عن الله ، وتنبهك إلى الزلزال الكبير في الآخرة ، إنه صورة مصغرة لما سيحدث في الآخرة ، حتى لا نفتر بسياقتنا في الدنيا فإن السيادة هبة لنا من الله .

وعندما حدث زلزال « أعادير » لاحظوا أن الحسيوانات ثارت
 وهاجت قبل الزلزال بدقائق ، ومنها ما خرج إلى الخلاء ، هائاً إعلام
 هذا ؟ رأى استشعار لديها وهي بهائم في نظرنا لا تفهم ولا تعي ؟

إن في ذلك إشارة للإنسان الذي يعتبر نفسه سيد هذا الكون :
تنبيه ، فلولا أن الله سيّدك لركزت هذه البهائم فقضت عليك .

نقول بيس هذا زلزالاً عاماً ، إنما هو زلزال مخصوص منسوب إلى الأرض بوحى من الله ، وبإمر منه سبحانه أن تتزلزل .

(١) بَسْمٌ ، لَهُ وَجْهٌ أَجْزَاءُ بَقِيَّةٍ أَيْ فَكُنْتُ تَلْبِثًا خَفِيًّا [القاموس القويم ٦٩/٦]

لذلك وَصِفَ هذا الزلزال بأنه شيء عظيم : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج] فحين تقول أنت أيها الإنسان : هذا شيء عظيم فهو عظيم بمقياسك أنت ، أما العظيم هنا فعظيم بمقاييس الحق سبحانه ، فلك أن تتصور فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم .

لقد انشأنا هذه السورة بزلزلة القيامة ، لأن الحق سبحانه سبق أن قال ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ..﴾ [١٧] ﴿[الأنبياء] فلا بُدَّ أَنْ يعطينا هنا صورة لهذا الوعد ، ونُبْذة عما سيحدث فيه ، وصورة مُصَغَّرَةٌ تدل على قدرته تعالى على زلزال الآخرة ، وأن الأرض ليس لها قوام بذاتها ، إنما قوامها بأمر الله وقدرته ، فإذا أَرَادَ لها أَنْ تزول زالت .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة]

فَمَا تَرَاهُ مِنَ الْبَرَائِكِ وَمِنَ الثَّرَوَاتِ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ وَعَجَلَابِ يَقَعُ تَحْتَ هَذِهِ الْآيَةِ ، لذلك قال تعالى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [٦]

وما دام الحق سبحانه يمتنُّ بملكيته ما تحت الثرى فلا بُدَّ أَنْ تحت الثرى ثروات وأشياء نفيسة ، ونحن الآن نُخْرِجُ معظم الثروات من باطن الأرض ، ومعظم الأمم الغنية تعتمد على الثروات المدفونة من بترول ومعادن ومناجم وذهب .. إلخ .

وسبق أن ذكرنا أن الحق - سبحانه وتعالى - بمعسر الخيرات في كونه ، وجعل لكل منها وقته المناسب ، فالرزق له ميلاد يظهر فيه : ﴿وَمَا تُزَكُّهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر]

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿يَوْمَ تَسْرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ
وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى
وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٦﴾﴾

والرؤية . قلنا قد تكون رؤية علمية أو رؤية بصرية ، والشيء
الذى نعلمه إما . علم اليقين ، وإما عين اليقين ، وإما حقيقة اليقين
علم اليقين . أن يخبر من تلقى به بشيء ، كما تواترت الأخبار عن
الرحالة بوجود قارة أسموها فيما بعد أمريكا ، وبها كذا وكذا ، فهذا
نسميه « علم يقين » ، فإذا ركبت الطائرة إلى أمريكا قرأيتها وشاهدت
ما بها فهذا « عين اليقين » ، فإذا نزلت بها وتجولت بين شوارعها
ومبانيها فهذا نسميه « حقيقة اليقين » .

لذلك : حين يخبر الله تعالى الكافرين بأن هناك عذاباً في النار
فهذا الإخبار صادق من الله فعلمنا به « علم يقين » ، فإذا رأيناها
فهذا « عين اليقين » كما قال سبحانه ﴿ثُمَّ تَسْرَوْنَهَا عَيْنَ
الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكوير]

فإذا ما باشرها أهلها ، وذاقوا حرها ولظامها - وهذا مقصور على
أهل النار - فقد علموها حق اليقين ، لذلك يقول تعالى :

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ
الْيَمِينِ ﴿٩٢﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٣﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾

(٩١) أى تسهل لك طريق وفيل تقسى ، وفيل تلهو ، وفيل تسلو والمعنى مقارب
[تفسير القرطبي ٤/٦٠٣٦]

وَتَهْنِئَةُ جَعِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُمْ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ [الواقعة]

ومعنى ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ..﴾ [المعج] الذهول :
هو انصراف جارية عن مهمتها الحقيقية لهول رأته فتنشغل بما رآته
عن تادية وظيفتها ، كما يذهل الخادم حين يرى شخصاً موبياً أو
عظيماً ، فيسقط ما بيده مثلاً ، فالذهول - إذن - سلوك لا إرادى قد
يكون ذهولاً عن شيء تفرضه المسئلة ، أو عن شيء تفرضه
الغريزة .

العاطفة كالأم التى تذهل عن ولدها ، وعاطفة الأمومة تتناسب مع
حاجة لولد ، وفى مرحلة الحمل مثلاً تجد لأم تحنط فى مشيتها ،
وفى حركاتها ، خوفاً على الجنين فى بطنها ، وهذه العاطفة من الله
جعلها فى قلب الأم للحفاظ على الوليد ، وإلا تعرض لما يؤذيه أو
يؤدى بحياته .

لذلك ، لما سألوا المرأة العربية عن أحب أبنائها ، قالت : الصغير
حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والعريض حتى يشفى ، فحسب
الحاجة يعطى الله العاطفة ، فالحامل عاطفتها نحو ولدها قوية ، وهى
كذلك فى مرحلة الرضاعة .

فانظر إلى المرضعة ، وكيف تذهل عن رضيعها وتنصرف عنه ،
وأي هول هذا الذى يشغلها ، ويعطل عندها عاطفة الأمومة والحنان
ويعطل حتى الغريزة .

وقد أعطانا القرآن صورة أخرى فى قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ
مِنْ أَخِيهِ ﴿٤٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٤٥﴾ وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٤٦﴾﴾ [حس]

سورة البقرة

٥٩١١

ومن عظمة الأسلوب القرآني أن يذكر هنا الأخ قبل الأب والام ، قالوا . لأن الوالدين قد يُوجدان في وقت لا يرى أنهما في حاجة إليه ، ولا هو في حاجة إليهما لأنه كبير ، أما الأخ فعليه طمع المعونة والمساعدة

وقوله تعالى ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ۖ ۝ ٢١ ﴾ [الحج]

والمرضعة تأتي بفتح الضاد وكسرها . مُرْضِعَةٌ بالفتح هي التي من شأنها أن ترضع وصالحه لهذه العملية ، أما مُرْضِعَةٌ بالكسر فهي التي تُرضع فعلاً . وتضع الآن ثديها في فم ولده . فهي مرضعة . فانظر - إذن - إلى مدى الذهول والانشغال في مثل هذه الحالة

وقوله تعالى ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ۖ ۝ ٢٢ ﴾ [الحج] بعد أن تكلم عن المرضع رَفَى المسألة إلى الحامل ، ومعلوم أن الاستعصاء بالحمل غريزة قوية لدى الأم حتى في تكرينها الجسماني . فالرحم بمجرد أن تصل إليه المريضة المضطربة ينقل عليها ، كما قال سبحانه وتعالى . ﴿ وَتَقَرُّنَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ ۝ ٢٣ ﴾ [الحج]

فلذا ما جاء وقت الميلاد انفتح له بقدره الله . فهذه - إذن - مسألة غريزية فوق قدرة الأم ودون إرادتها . إذن وضع هذا الحمل دليل مؤل كبير وأمر عظيم يحدث .

والحمل نوعان ثقل تحمله وهو غيرك وتقل تحمله في ذاتك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ۖ ۝ ٢٤ ﴾ [البقرة] والحمل (بكسر الحاء) هو الشيء الثقيل الذي لا يطيقه ظهرك ، أما الحمل بالفتح فهو : الشيء اليسير تحمله في نفسك ، وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

لَيْسَ بِحِمْلٍ مَا أَطَاقَ الظُّهُرُ مَا الْحِمْلُ إِلَّا مَا وَعَاهُ الصُّدْرُ

أى : أن الشيء الذى تطيق حمله ويقوى عليه ظهرك ليس بحمل ، إنما الحمل هو الهم الذى يحتويه الصدر .

ثم يقول سبحانه . ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ٧ ﴾ [الحج]

سكارى . أى يتمایلون مضطربين ، مثل السكارى حين تلعب بهم الخمر ، (وتطوحنهم) يميناً وشمالاً ، وتلقى بهم على الأرض ، وكلما زاد سكرهم وخروجهم عن طبيعتهم كان النوع شديداً !!

وهكذا سيكون الحال فى موقف القيامة لا من سكر ولكن من خوف وهول وفزع ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ٧ ﴾ [الحج]

يكن ، من أين يأتى اضطراب الحركة هذا ؟

قالوا لأن الله تعالى خلق الجوارح ، وخلق فى كل جراحة غريزة الانضباط والتوازن ، وعلماء التشريح يحددون فى الجسم أعضاء ومناطق معينة مسئولة عن حفظ التوازن للجسم ، فإذا ما تأثرت هذه الغدد والأعضاء يشعر الإنسان بالدوار ، ويفقد توازنه ، كأن تنظر من مكان مرتفع ، أو تسافر فى البحر مثلاً .

فهذا الاضطراب لا من سكر ، ولكن من هول ما يروونه ، فيحدث لديهم تغييراً فى الغدد والخلايا المسئولة عن التوازن ، فيتعلمون ، كمن اغتالته الخمر .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ٧ ﴾ [الحج] إنهم لم يروا العذاب بعد ، إنها مجرد قيام الساعة وأهوالها أفقدتهم توازنهم ،

لأن الذي يَصَدِّقُ في أن القيامة تقوم بهذه الصورة يَصَدِّقُ في أن بعدها مذبذباً في جهنم . إذن : انتهت المسألة وما كنا نكذب به ، ما هو ماثل أمام أعيننا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَسَّيِّعٌ كُلُّ شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ ﴾

شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ ٢

الجدل : هو المحاوراة بين اثنين ، يريد كل منهما أن يؤيد رأيه ويحضر رأي الآخر ، ومنه : جدس الخرص أو الحيل أي قتله واحدة على الأخرى .

ولو تأملت عملية خَزَل الصوف أو القطن لوجدت عبارة عن شعيرات قصيرة لا تتجاوز عدة سنتيمترات ، ومع ذلك يصنعون منه حبلاً طويلاً . لأنهم يداخلون هذه الشعيرات بعضها في بعض ، بحيث يكون طرف الشعرة في منتصف الأخرى ، وهكذا يتم قتله وغزله ، فإذا أردت تقوية هذه الفتلة تجعلها مع فتلة أخرى ، وهكذا يكون الجدل في الأفكار ، فكل صاحب فكرة يحاول أن يقوى رأيه وحجته ، لينحس حجة الآخرين .

فقرله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ .. ﴾ [الحج] فكيف يكون الجدل في الله تعالى ؟

يكون الجدل في الله وجوداً ، كالمجاد الذي لا يعترف بوجود إله ،

(١) قال أبو مالك عجمي أخرجه ابن أبي حاتم : ثبت في التفسير بن الحارث [الترمذي للسيوطي ٨/٦] . قال القرطبي في تفسيره (٤٠٣٧/٩) . قال أي التفسير بن الحارث : إن الله خير قادر على إظهار من قد بلى وعاد توباً .

لو يكون الجدل في الوحدانية ، كمن يشرك بالله إلهاً آخر ، أو يكون
الجدل في إعلام الله بشيء غيبى ، كأمير الساعة الذي ينكره البعض
ولا يُصدّقون به ، هذا كله جدل في الله .

وقوله . ﴿يَغْيِرْ عِلْمَ ..﴾ (٣) [الحج] إذن : فالجدل في ذاته مُباح
مشروع ، شريطة أن يصدر عن علم وحق ، كما جاء في قوله تعالى :
﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..﴾ (١٢٥) [النحل]

فالحق سبحانه لا يمنع الجدل ، لكن يريده بالطريقة الحسنة
والأسلوب اللين ، وكما يقولون . النصيح قليل ، فلا تجعله جدلاً ، ولا
ترسله جملًا ، ولا تُخرج الإنسان مما يالف بما يكره ، واقرأ قوله
تعالى . ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ..﴾ (١٢٥) [النحل]
وقال سبحانه . ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ ..﴾ (١٦) [المائدة]

لذلك : فالقرآن الكريم يعلم الرسول ﷺ لو أن من الجدل في قوله
تعالى ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَتْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) [سبأ]
فانظر إلى هذا الجدل الراقى والأسلوب العالى . فطى خطابهم
يقول ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَتْنَا ..﴾ (٢٥) [سبأ] وينسب الإجماع إلى
نفسه ، وحين يتكلم عن نفسه يقول . ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) [سبأ]
ولم يقل هنا تجرمون لتكون مقابلة بين الصالحين ، وبلى هذا
الأسلوب ما فيه من جذب القلوب وتحنيئها لنفيل الحق .

ولما اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون رد عليهم القرآن بالعقل
وبالمنطق ، فسألهم . ما الجنون ؟ الجنون أن تصدر الأفعال الحركية
عن غير بدائل اختيارية من المنع ، فهل جرّبتم على محمد شيئاً من

هذا ؟ وما هو الخلق ؟ الخلق : استقامة المنهج والسلوك على طريق الكمال والخير ، فهل رأيتم على محمد خلاف هذا ؟

لذلك يقول تعالى في الرد عليهم ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَى وُقِرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا^(١) مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ .. ﴾ (٤٦) [سبأ] وكيف يكون صاحب هذا الخلق القويم والسلوك المنضبط في الحيز مجنونا ؟

ولما قالوا كذاب ، جادلهم القرآن . ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُ لَكُمْ هُمْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٦) [يونس]

لقد أتته الرسالة بعد الأربعين ، فهل سمعتم عنه خطيباً أو شاعراً ؟ فهل قال خطبة أو قصيدة تحتفظون بها كما تحتفظون بقممات شعرائكم ؟

وقالوا : إنها عبقرية كانت عند محمد ، فأي عبقرية هذه التي تتفجر بعد الأربعين ، ولو تأملت العبقريات لوجدتها في العقد الثاني أو الثالث من عمر صاحبها ، فكيف يُرجل محمد عبقريته إلى الأربعين ، ومن يصنع له الحياة وهو يرى الناس يتساقطون من حوله أبوه مات قبل أن يولد ، وأمه ماتت وهو رضيع ، وجدّه مات وهو ما يزال صغيراً .

وهكذا ، يعطينا القرآن مثالا للجدل بالحكمة والموعظة الحسنة . للجدل الصادر عن علم بما تقول ، وإدراك لحقائق الأمور .

(١) أي تقوموا قياماً خالصاً ش من وجل من غير هوى ولا عصبية . ليسل بعضكم بعضاً هل يصعد من جود فيمنح بعضكم بعضاً ، فينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ ويسأل غيره من الناس من شأنه إن أهمل عليه ويتفكر في ذلك [قاله ابن كثير في تفسيره ٥٤٣/٢]

لذلك ، لما ذهب الشَّعْبِيُّ^(١) بعك الروم قال له الملك : عتدكم في الإسلام أمور لا يُصدِّقها العقل . فقال الشَّعْبِيُّ : ما الذي في الإسلام يخالف العقل ؟ قال . تقولون إن في الجنة طعاماً لا ينفد أبداً ، ونحن نعلم أن كل ما أخذ منه مرة بعد مرة لابد أن ينعد . انظر إلى الجدل في هذه المسألة كيف يكون

قال الشَّعْبِيُّ : أرايت لو أن عندك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها فقبست من ضوءه ، أينقص من ضوء المصباح شيء ؟ هذا - إذن - جدل راقٍ وعلى أعلى مستوى .

ويستمر ملك الروم فيقول : كيف نأكل في الجنة كل ما نشتهي دون أن تغرط أو تكون لنا فضلات ؟ نقول : أرايتم الجنين في بطن الأم . أينمو أم لا ؟ إنه ينمو يوماً بعد يوم ، وهذا دليل على أنه يتغذى ، فهل له فضلات ؟ لو كان للجنين فضلات ولو تغرط في مشيمته لمات ، إذن . يتغذى الجنين غذاءً على قدر حاجة نموه ، بحيث لا يتبقى من غذائه شيء .

ثم قال أين تذهب الأرواح بعد أن تفارق الأجساد ؟ أجاب الرجل إجمالاً : تذهب حيث كانت قبل أن تحلّ فيك ، وأمامك المصباح وفيه ضوء ، ثم تفتح المصباح فانطلقا ، فقال له أين ذهب الضوء ؟

ومن الجدل الذي جاء عن علم ودراية ما حدث من الإمام علي رضي الله عنه ، حيث قتل أصحاب معاوية عمار بن ياسر ، فغضب الصحابة في صفوف معاوية وتذكروا قول رسول الله ﷺ عن عمار .

(١) هو : حاسر بن هراسل الشعبي الحميري . أبو عمرو . رواية من التابعين . يفسر القتل بطفله . ولد عام ١٩ هـ . ونشأ ومات فجأة بالكوفة عام ١٠٣ هـ عن ٨٤ عاماً انصر بعد الملك بن مروان فكان ثديهما ورسوله إلى ملك الروم . كان ضئيلاً نحيفاً . وهو من رجال الحديث الثقات . ولطيفاً وشاعراً [الأعلام للزركلي ٢/٢٥٩]

« تقتله الفئة الباغية »^(١) وأخذوا يتركون جيش معاوية واحداً بعد الآخر ، فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال : لقد فشلت في الجيش فاضحية ، إن هي استمرت فلن يبقى معنا رجل واحد ، فقال معاوية : وما هي ؟ قال : يقولون : إنما قتلنا عماراً والنبي ﷺ قال عنه : « تقتله الفئة الباغية » .

فأحسار معاوية ثم قال : قل لهم قتله من أخرجته للقتال^(٢) - يعني علي بن أبي طالب ، فلما بلغ الكلام سيدنا علياً قال : قتلوا لهم . فمن قتل حمزة بن عبد المطلب ؟ أي : إن كان الأمر كما تقولون فالنبي ﷺ هو قاتل حمزة ؛ لأنه هو الذي أخرجته للقتال

هذا هو الجدل عن علم ، والعلم قد يكون علماً بدهياً وهو العلم الذي تؤمن به ولا تستطيع أن تدلل عليه . أو علماً عقلياً استدلالياً ، وقد يكون العلم بالوحي من الله لا تدخل لأحد فيه ، وسبق أن طررنا مثلاً للبهديات بالولد الصغير حينما يرى أخاه يجلس بجوار أبيه على انعقد مثلاً ، فيأقن الصغير يريد أن يجلس هو بجوار الأب ، فيحاول أولاً أن يقيم أخاه من المكان فيشدّه ويجذبه ليخلى له المكان .

وهنا نتساءل : كيف عرف الطفل الصغير أن الصغير لا يسع اثنين ؟ ولا يمكن أن يحلّ بالمكان شيء إلا إذا خرج ما فيه أولاً ؟

(١) من أمثلة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال لعمار : تلك الفئة الباغية ، أخرجها مسلم في صحيحه (٢٩٩٦) كتاب القتل ، والبخارى في صحيحه (٤٤٧)

(٢) من محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : لما قتل عمار بن ياسر دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال قتل عمار . وقد قال رسول الله ﷺ تقتله الفئة الباغية ، فلما عمرو بن العاص فرحاً يرجع حتى دخل على معاوية فقال له معاوية : ما شئت ؟ قال قتل عمار فقتل معاوية قد قتل عمار ، فلما قال عمرو سمعت رسول الله ﷺ يقول تقتله الفئة الباغية . فقال له معاوية : من هو ؟ قال أو ممن قتلناه إنما قتله علي وأصحابه ، جدوا به حتى القوه بين رماحنا - أو قال بين سيوفنا أخرجهم أحمد في مسنده (١٩٩/٤)

هذه أمور لم نعلمها إلا في دراستنا الثانوية ، فعرفنا معنى الحيز وعدم تداخل الأشياء ، هذه المسألة يعرفها الطفل بديهية .

ولو تأملت النظريات الهندسية لوجدت أن كل نظرية تُبنى على نظرية سابقة ، فلو أردت أن تبرهن على النظرية الماثلة تستخدم النظرية تسعين مثلاً ، وهكذا إلى أن تصل إلى نظرية بديهية لا برهان عليها

وهكذا تستطيع أن تقول : إن كل شيء علمي في الكون مبني على البديهيات التي لا تحتاج إلى برهان ، ولا تستطيع أن تضع لها تعريفاً ، فالحسماء مثلاً ، يقولون هي كل ما علاك فاطلك ، فالسقف سماء ، والغيم سماء ، والسحاب سماء ، والسماء سماء ، مع أن السماء لا تحتاج إلى مثل هذا التعريف ، لأنه حين نسمع هذه الكلمة (السماء) نعرف معانها بديهية دون تعريف .

وهذه الأمور البديهية لا جدل فيها ، لأنها واضحة ، فلو قلت لهذا الطفل : اجلس على أخيك ، فهذا ليس جدلاً ، لأنه لا يصح

أما العلم الاستدلالي فإن تستدل بشيء على شيء ، كأن تدخل بيتك فتجد (عقب سيجارة) مثلاً في (طفاية السجائر) فتسال : مَنْ جاءكم اليوم ؟ ومثل الرجل العربي حين سار في الصحراء ، فوجد على الأرض آثاراً لخف البعير وبعره ، فقال البعرة قتل على البعير ، والقدم قتل على المسير .

أما علم الوحي فيأتي من أعلى ، يلقيه الله سبحانه على مَنْ يشاء من عباده .

فعلى المجادل أن يستخدم واحداً من هذه الثلاثة ليبرهن به ، فإن جادل بغير علم فهي سفسطة لا طائل من ورائها .

شُكْرُكَ يَا رَبِّ



وقد نزلت هذه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِفِيرٍ
عِلْمٍ .. (٣)﴾ [الحج] في النضر بن الحارث ، وكان يجادل عن غير
علم في الوجود ، وفي الوجدانية ، وفي البعث .. إلخ .

والآية لا تخص النضر وحده ، وإنما تخص كل مَن فعل فعله ،
ولفَّ لَفَّهُ من الجدل .

ثم يقول تعالى : ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ (٤)﴾ [الحج] أى : أن
هذا الجدل قد يكون ذاتياً من عنده ، أو بوسوسة الشيطان له بما
يخالف منهج الله ، سواء أكان شيطانَ الإنس أو شيطانَ الجن .

إذن : فالسيئات والانحرافات والخروج عن منهج الله لا يكون
بوسوسة ، إما من النفس التي لا تنتهى عن مخالفة ، وإما من
الشيطان الذي يُلحُّ عليك إلى أن يُوقع بك في شركه .

لكن ، لا نجعل الشيطان (شعاعة) نعلق عليها كل سيئاتنا
وخطايانا ، فليست كل الذنوب من الشيطان ، فمن الذنوب ما يكون
من النفس ذاتها ، وسبق أن قلنا ، إذا كان الشيطان هو الذى يوسوس
بالشر فعن الذى وسوس له أولاً ؟ وكما قال الشاعر :

« إبليسُ لما قَوَّى مَن كَانَ إبليسُهُ ؟ »

وفُرق بين المعصية من طريق النفس ، والمعصية من طريق
الشيطان ، الشيطان يريدك عاصياً على أى وجه من الوجوه ، أما
النفس فتريدك عاصياً من وجه واحد لا تحيد عنه ، فإذا صرفتها
إلى غيره لا تنصرف وتابى عليك ، إلا أن تُوقعك في هذا الشيء
بالبذات .

وهذا بخلاف الشيطان إذا تابَّيتَ عليه ولم تُطعْ في معصية صرفك إلى معصية أخرى ، أياً كانت ، المهم أن تعصى ، وهكذا يمكنك أن تفرق بين المعصية من نفسك ، أو من الشيطان .

ولما سُئل أحد العلماء : كيف أعرف : أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ قال : هذه مسألة ليست عند العلماء إنما عندك أنت . قال : كيف ؟ قال : لنظر في نفسك ، فإن كان الذي يأخذ منك الصدقة أحب إليك ممَّنْ يعطيك هدية ، فاعلم أنك من أهل الآخرة ، وإن كنت الهدية أحب إليك من الصدقة فأنت من أهل الدنيا .

ذلك لأن الإنسان يحب من عَمُرَ له ما يحب ، فالذي يعطيك يعمر لك الدنيا التي تحبها فأنت تحبه ، وكذلك الذي يأخذ منك يعمر لك الآخرة التي تحبها فأنت تحبه . فهذه مسألة لا تدخل للشيطان فيها

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [المان]

فهذه الآية تُجمل أنواع العلم الثلاثة التي تحدثنا عنها ، فالعلم يُراد به البدهيات ، والهدى أى : الاستدلال ، والكتاب المعتبر يُراد به ما جاء وحياً من الله ، وبهذه الثلاثة يجب أن يكون الجدل ويدلنى هي أحسن

ومعنى : ﴿ مُرِيدٍ ﴾ [الحج] من مُرَدٍّ أو مُرَدٍّ يعرود كثر ينثر ، والمُعرود العُتُوُّ وبلوغ الفاية من الفساد ، ومنها مُارد ومريد ومُمرود ، والمُارد : هو المستعلى أعلى منك .

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

أى : كتب الله على هذا الشيطان المرید ، وحكم عليه حكماً ظاهراً ، هكذا (عینى عينك) كما يقال ﴿ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ .. ﴾ [٤] ﴿ [الحج] أى : قابله وسار خلفه ﴿ لَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [٥] ﴿ [الحج] يضلّه ويهديه هذان - فكيف نجعل بينهما ؟

امراد : يُضِلُّهُ عن طريق الحق والسير ، ويهديه أى : للشر ؛ لأن معنى الهداية : الدلالة مُطلقاً ، فإن دلت على خير فهي هداية ، وإن دلت على شر فهي ايضاً هداية .

واقرا قوله سبحانه وتعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ^(١) وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ^(٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَسَاهَنُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ^(٣) ﴾ [الصافات]

أى : تلّوهم وخذوا بأيديهم إلى جهنم .

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَنفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا^(١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. ﴾ [١٦٩] ﴿ [النساء]

والسَّعِير . هى النار المتوهجة التى لا تخدم ولا تنطفئ .

(١) قال الترمذ بن بشير يعنى بأزواجهم أشباههم ونسائلهم . قال جرير يجرى أصحاب الزنا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . [التفسير ابن كثير ٤ / ٢] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلِّغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتِي وَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَلَآءَةَ ظَاهِرِينَ وَرَبِّتٍ وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ ۝٥﴾

قوله : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ .. ٥ ﴾ [الحج]

الريب . الشك . فالمعنى : إِنْ كُنْتُمْ شَاكِّينَ فِي مَسْأَلَةِ الْبَعْثِ ،

فإِلَيْكُمْ الدَّلِيلُ عَلَىٰ حَقِّهِ ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ .. ٥ ﴾ [الحج] أَيْ

الْحَقُّ الْأَوَّلُ ، وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَمَّا جَمْعُهَا النَّاسُ بَعْدَ آدَمَ

فَخَلَقُوا مِنْ (نطفة) حية من إنسان حي

(١) النطفة : الماء المائي ، وفطال في القرائن على ماء الرجل أو المرأة الذي يُخلق منه الولد

العلقة : الدم الجاسد الغليظ الذي يُخلق بما يسمى . والمضغة : القطعة من اللحم تُضغ

لتماسكها ومخلقة : أي مضغة مشككة ومصورة على هيئة مثل وغير مضقة : أي غير

مشككة أي غير تامة التصوير [القاموس القديم للقرآن الكريم] .

(٢) من الهرم والخرف حتى لا يظل [تفسير القرطبي ١/ ٤٥٤٤]

والمتتبع لآيات القرآن يجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول مرة
في خلق الإنسان ﴿مِنْ تُرَابٍ ۝ (٥)﴾ [الحج] ، ومرة ﴿مِنْ مَّاءٍ ۝ (٦)﴾
[الطارق] ، و ﴿مِنْ طَيْرٍ ۝ (٧)﴾ [الانعام] ، و ﴿مِنْ حَمَإٍ^(١) مُسْنُونٍ (٢٩)﴾ [الحجر] ، و ﴿مِنْ صَلْفَالٍ كَالْفَخَّارِ (٣٣)﴾ [الرحمن] وهذه
التي دعت المستشرقين إلى الاعتراض على أسلوب القرآن ، يقولون :
من أين هذه الأشياء خلقت ؟

وهذا الاعتراض ناشئ من عدم فهم لغة القرآن ، فالتراب والحماء
والطين والحماء المسنون والصلصال ، كلها مراحل متعددة للشئ
الواحد ، فإذا وضعت الماء على التراب صار طيناً ، فإن تركت الطين
حتى يتخمر ، ويتداخل بعضه في بعض حتى لا تستطيع أن تميز
عنصراً فيه عن الآخر . وهذا عندما يعطن وتتغير رائحته يكون هو
لحم المسنون ، فإن جف فهو صلصال كالخضار ، ومنه خلق الله
الإنسان وصورة ، ونفخ فيه من روحه ، إذن هذه مراحل للشئ
الواحد ، ومرور الشئ بمراحل مختلفة لا يغيره

ثم تكلم سبحانه عن الخلق الثاني بعد آدم عليه السلام ، وهم
ذريته ، فقال : ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ۝ (٥)﴾ [الحج] والنطفة في الأصل هي
قطرة الماء العذب ، كما جاء في قول الشاعر :

بَقَايَا نِطَافٍ أَوْدَعَ الْغَيْمُ صَفْوَهَا مَثْقَلَةُ الْأَرْجَاءِ زُرُقُ الْجَوَانِبِ

ولا تظهر زُرُقَةُ الماء إلا إذا كان صافياً لا يشوبه شئ ، وكذلك
النطفة هي خلاصة الخلاصة ، لأن جسم الإنسان تحدث فيه عملية

(١) الحماء والصماء الطين الأسود ، والمسنون المصبوب في قالب إنساني أو مصور بصورة
إنسان أو طين كالخضار صالح للتصوير والصلصال [لسان العرب ١ / ٣٢٩]

الاحتراق ، وعملية الأيض أى : الهدم والبناء بصفة مستمرة ينتج عنها خروج الفضلات المختلفة من الجسم : فالبول ، والغائط ، والعرق ، والدموع ، وصَنَعُ الأذن ، كلها فضلات ناتجة عن احتراق الطعام بداخل الجسم حيث يمتص الجسم خلاصة الغذاء ، وينقلها إلى الدم .

ومن هذه الخلاصة يُستخلص منى الإنسان الذى تَركُضُ منه انطفة ، فهو - إذن - خلاصة الخلاصة فى الإنسان ، ومنه يحدث الحمل ، ويتكوّن الجنين ، وكان الخالق - عز وجل - قد صَفَّاهُ هذه التصفية ونَقَّاهُ كل هذا النقاء ؛ لأنها ستكون أصلًا لأكرم مخلوقاته ، وهو الإنسان .

وهذه النطفة لا تتن من الإنسان إلا فى عملية الجماع ، وهى التى متعة فى وجود الإنسان للحى ، لماذا ؟ لو تأملت متعة الإنسان ولذاته الأخرى مثل : لذة الذرق ، أو الشم ، أو اللمس ، فهى لذاتٌ معروفة محددة بحاسة معينة من حواس الإنسان ، أما هذه اللذة المصاحبة لنزول المنى أثناء هذه العملية الجنسية فهى لذة شاملة يهتز لها الجسم كله ، ولا تستطيع أن تُحدد فيها منطقة الإحساس ، بل كل ذرة من ذرات الجسم تمسها .

لذلك أمرنا ربنا - عز وجل - أن نغتسل بعد هذه العملية ؛ لأنها شغلت كل ذرة من ذرات تكوينك ، وربما - عند العارفين بالله - لا تغفل عن الله تعالى إلا فى هذه اللحظة ، لذلك كان الأمر بالاعتسال بعدها ، هذا قول العلماء .

أما أهل المعرفة عن الله وأهل الشرح وأهل الفيوضات فيقولون .

إن الله خلق آدم من طين ، وجعل نسله من هذه المنطقة الحية التي وضعها في حواء ، ثم أتى منها كل الخلق بعده ، فكان في كل واحد منا ذرة من أبيه آدم ؛ لأنه لو طرا على هذه الذرة صوت ما كان نسل بعد آدم ، فهذه الذرة موجودة فيك في المطفة التي تلقاها ويأتي منها ولدك ، وهي أجفئ شيء فيك ، لأنها الذرة التي شهدت الخلق الأول خلق أبيك آدم عليه السلام .

وقد قربنا هذه المسألة وقلنا : لو أنك أخذت سنتيمتراً من مادة ملونة ، ووضعت في قارورة ماء ، ثم أخذت قرعاً القارورة حتى اختلط الماء بالمادة الملونة فإن كل قطرة من الماء بها ذرة من هذه المادة ، وهكذا لو ألقيت القارورة في برميل .. الخ .

إذن فكل إنسان منا فيه ذرة من أبيه آدم عليه السلام ، هذه الذرة شهدت خلق آدم ، وشهدت العهد الأول الذي أخذ الله على عباده في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. ﴾ (١٧٢)

[الأعراف]

لذلك ، يسمي الله تعالى إرسال الرسل بعثاً فيقول : ﴿ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ (٤١) [الفرقان] بعثه . كأنه كان موجوداً وله أصل في رسالة مباشرة من الله حين أخذ العهد على عباده ، وهم في ظهْر آدم عليه السلام ، كما يضاطب الرسول بقوله . ﴿ قَدْ كَرَّ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكَّرٌ ﴾ (٢١) [الغاشية] أي : مُذَكَّرٌ بالعهد القديم الذي أخذناه على أنفسنا .

لذلك اقرأ الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا .. ﴾ (١٧٢) [الأعراف]

هذا في مرحلة الدُّرِّ قبل أن يأتي الهوى في النفوس ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٧) أو تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٨﴾ [الاعراف]

إذن ، بحث الله الرسس لئذُكُر بالعهد الاول ، حتى لا تحدث الغفلة ، وحتى تقيم على الناس الحجة .

ثم يقول تعالى ﴿ثُمَّ مِنْ هَلَكَةٍ ۝٥٠﴾ [الحج] سَمَّيْتُ النطفة علقه ، لأنها تعلق بالرحم . يقول تعالى في آية أخرى ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ سَمَرٍ يُحْتَمَى ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ لَسُونِ ۝٣٨﴾ [الأنبياء]

فالمعنى هو السائل الذي يعمل النطفة ، وهي الخلاصة التي يتكوّن منها الجنين ، والعلقة هنا هي البويضة المخصبة ، فبعد أن كان للبويضة تعلق بالأم ، والحيوان المسمى (النطفة) تعلق بالاب ، اجتماعا في تعلق جديد والتقياً ليتشبّثا بجدار الرحم ، وكان فيها ذاتية تجعلها تعلق بنفسها ، يُسمونها (زيجوت)

ومنها قولهم : فلان هذا مثل العلقه إذا كان ملازماً لك .

بعد ذلك تتحول العلقه إلى مضغه ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ۝٥١﴾ [الحج] والمضغه . هي قطعة لحم صغيرة قدّر ما يُمصّغ من الطعام ، وهو خليط من عدّة اشياء ، كما لو أكلت مثلاً قطعة لحم مع ملحقة خضار مع ملحقة أرز ، وبالمضغ يتحوّل هذا إلى خليط ، ذلك لأن جسم الإنسان لا يتكوّن من عنصر واحد ، بل من ستة عشر عنصراً

هذه المضغه ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ۝٥٢﴾ [الحج] معنى مخلقة يعني : يظهر عليها هيكل الجسم ، وتشكّل على صورته ، فهذه

للرأس ، وهذه للأذراع ، وهذه للرجل وهكذا ، يعني تَخَلَقَتْ على هيئة الإنسان .

أما غير المخلقة ، فقد عرفنا مؤخرًا أنها الخلايا التي تُعَرِّضُ الجسم وتُرَقِّعه إذا أصابه عَطَبٌ فهي بمثابة (احتياطي) لإعادة تركيب ما تلف من أنسجة الجسم وترميمها ، كما يحدث مثلاً في حالة الجُرْح فإن تركته لطبيعة الجسم يتدمل شيئاً فشيئاً ، دون أن يترك أثراً .

فترى هذا في أولاد الفلاحين ، حين يُجرح الواحد منهم ، أو تظهر عنده بعض الدمل ، فيتركونها لمقاومة الجسم الطبيعية ، وبعد فترة تتلاشى هذه الدمل دون أن تترك أثراً على الإطلاق ؛ لأنهم تركوا الجسم للصيدلية الربانية .

أما إذا تدخلنا في الجُرْح بمواد كيميائية أو خيامة أو خلافه فلا بد أن يترك أثراً ، فترى مكانه لامعاً ، لأن هذه المواد أثلفت مسام الجسم ؛ لذلك نجد مثل هذه الأماكن من الجسم قد تغيرت ، ويعيل الإنسان إلى حكها (وهرشها) ، لأن هذه المسام كانت تُخرج بعض فضلات الجسم على هيئة عرق ، فلما انسدت هذه المسام سببت هذه الظاهرة . هذا كله لأننا تدخلنا في الطبيعة التي خلقها الله

إذن . فمعنى ﴿ وَغَيْرُ مُحْتَلَةٍ ۖ ﴾ [الحج] هي الصيدلية التي تُعَوِّضُ وتُعِيدُ بناء ما تلف من جسم الإنسان .

ثم يقول سبحانه . ﴿ لَيْسَ لَكُمْ وَتَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ ﴾ [الحج] أي : نُوَضِّحُ لَكُمْ كل ما يتعلق بهذه المسألة ﴿ وَتَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ ۖ ﴾ [الحج] وهي المصنفة التي قُدِّرَ لها أن تكون جنيناً يكتمل إلى أن يولد ؛ لذلك قال ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ ﴾ [الحج] أو نسقطه ميتاً قبل ولادته .

فَإِنْ قُلْتَ . وما الحكمة من خَلْفَ وتصويره ، إِنْ كَانَ قد قُدِّرَ له أَنْ يَمُوتَ جَنِينًا ؟ نَقُولُ : لنعرف أن الموت أمر مُطْلَق لا رَابِطَ له وَلَا سِنَ . فالموت يكون لشيخ كما يكون للجنين في بطن أمه ، ففي أي وقت ينتهي الأجل .

وقوله تعالى . ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا .. ٥٠ ﴾ [الحج] قال : ﴿ نُخْرِجُكُمْ .. ٥٠ ﴾ [الحج] بصيغة الجمع ولم يقل . أطفالاً إنما ﴿ طِفْلًا .. ٥٠ ﴾ [الحج] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ قالوا : هي اللفظة الفاظ يستوي فيها المفرد والجمع ، فطفل هنا بمعنى أطفال ، وقد وردت أطفال في موضع آخر في قوله سبحانه . ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ ^(١) .. ٥٩ ﴾ [النور]

وكما نقول . هنا رجل عدل ، ورجال عدل ، وفي قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يتكلم عن الأصنام فيقول : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي .. ٧٧ ﴾ [الشعراء] ولم يقل : أعداء . وحينما تكلم عن ضيفه قال ﴿ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي .. ٦٨ ﴾ [الحجر] ولم يقل . ضيوفى ، إذن . المفرد هنا يُؤدِّي معنى الجمع

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ لْيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ .. ٥١ ﴾ [الحج] وهكذا . يتقلبا السياق من الطفولة إلى المرحلة السهائية من عمر الإنسان ، وسبق أن تحدثنا عن مراحل عمر الإنسان . وأنه يمر بمرحلة الرُّشد رُشد البنية حين يصبح قادراً على إيجاب مثله . ورُشد العقل حين يصبح قادراً على التصرف السليم ، ويحسن الاختيار بين البدائل . ثم تأتي مرحلة الأشد ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. ٥٢ ﴾ [الحجرات] يعني . نضج نضجها من حوادث الحياة أيضاً .

(١) حلم العبد يعلم حكماً . بلغ مبلغ الرجال . [القاموس المفهرس ١٦٩/١] .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَلَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدِّ إِلَىٰ أَرْدَلِ
الْعُمُرِ .. ٥﴾ [الحج] وأردل العمر يعنى رديته ، حين تظهر على
الإنسان علامات الخور والضعف ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ..
٥﴾ [الحج] لأنه ينسى ، وعندها يعرف أن صحته وقوته وسلطانه
ليست ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله

وإذا بلغ الرجل أردل العمر يعود من جديد إلى مرحلة الطفولة
تدريجياً ، فيحتاج لمن يأخذ بيده ليقوم أو ليمشى ، كما تأخذ بيد
الطفل الصغير ، فإذا تكلم يتهتة ويتلعثم كالطفل الذى يتعلم الكلام ..
وهكذا فى جميع شئونه .

لذلك يقولون : الزواج المبكر أقرب طريق لإنجاب (والد) يعولك
فى طفولة شيخوختك ، ولم يقل ولداً ، لأنه سيقوم معك فيما بعد
بدور الوالد ، يقولون ، لحق والده يعنى سنهما متقارب .

لكن ، لمتأسداً يردُّ بعضنا إلى أردل العمر دون بعض ؟ الحق
سبحانه جعلها نماذج حتى لا نقول : يا ليت أعمارنا تطول ؛ لأن
أعمار الجميع لو طالت إلى أردل العمر لأصبح الأمر صعباً علينا ،
فمن رحمة الله بنا أن خلق الموت

ثم يقول تعالى . ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ
وَرَبَّتْ وَانْتَبَتْ مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ نَهْجٌ ٥﴾ [الحج]

أى كما كان خلق الإنسان من تراب ، ثم من نقطة ، ثم من
علقة ، ثم من مُصَفَّةٍ مُخَلَّفَةٍ وغير مُخَلَّفَةٍ ، ثم أخرجه طفلاً ، وبلغ
أُسْبَهُ ، ومنهم مَنْ مات . ومنهم مَنْ يردُّ إلى أردل العمر ، كذلك الحال
فى الأرض ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً .. ٥﴾ [الحج]

هامة . ساكنة ، ومنه قولنا للولد كثير الحركة . امد ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ۖ ۝٥﴾ [الحج] أى . تحركت ذراتها بالنبات بعد سكوتها .

ولا اهتزاز . تحرك ما كنت تظنه ثابتاً ، وليس ما كان ثابتاً فى الواقع : لان لكل كائن حركة فى ذاته ، حتى قطعة الحديد الجامدة لها حركة بين ذراتها ، لكن ليس لديك من وسائل الإدراك ما تدرك به هذه الحركة ولو تأملت المغناطيس لادركت هذه الحركة بين ذراته ، فعين تدرك القضيب الممغنط وتمرره على قضيب آخر غير ممغنط فى اتجاه واحد ، فإنه يكتسب منه المغناطيسية ، وتمرير المغناطيس فى اتجاه واحد معناه تعديل للذرات لتحمل شحنة واحدة سالبة أو موجبة ، فإن اختلف اتجاه الدلك فإن للذرات أيضاً تختلف

إذن فى الحديد - رمز الصلاة والجمود - حركة وحياة تناسبه ، وإن خيل إليك أنه أصم جامد فى ظاهره .

لذلك نقول ﴿ هَامِدَةٌ ۖ ۝٥﴾ [الحج] يعنى . ساكنة فى رأى العلم ، حيث لا نبات فيها ثم ﴿ اهْتَزَّتْ ۖ ۝٥﴾ [الحج] يعنى . زادت وربت وتحركت لإخراج النبات ، إنما هى فى الحقيقة لم تكن ساكنة مطلقاً ؛ لان فيها حركة ذاتية بين ذراتها .

ومعنى . ﴿ وَرَبَّتْ ۖ ۝٥﴾ [الحج] أى زادت عن حجمه ، كما تزيد حبة الفول مثلاً حين توضع فى الماء ، وتأخذ حظها من الرطوبة ، وكذلك فى جميع البقول ، وهذه الزيادة فى حجم الحبة هى التى تطلقها إلى فلقين فى عملية الإنبات ، ويخرج منها زبان يتجه إلى أعلى ليكون الساق الذى يبحث عن الهواء . وإلى أسفل ليكون الجذر الذى يبحث عن الماء . وتظل هاتان الفلقتان مصدر غذاء للنبات حتى

تقوى ، وتستطيع أن تستص غداها من التربة ، فإذا أنت هاتان
اغلاقان مهمتهما في تغذية النبتة تحولتاً إلى ورقتين ، وهما أول
ورقتين في تكوين النبتة

كذلك ، نلاحظ في تغذية النبات أنه لا يأخذ كل غذائه من التربة ،
إنما يتغذى بنسبة ربما ٩٠ بالمائة من غذائه من الهواء ، وتستطيع أن
تلاحظ هذه الظاهرة إذا نظرت إلى إصيص به زرع ، فسوف تجد
ما نقص من التربة كمية لا تُذكر بالنسبة لحجم النبات الذي خرج
منها .

وحيث تتأمل جذر النبات تجد فيه أية من آيات الله ، فالجذر يمتد
إلى أن يصل إلى الرطوبة أو الماء ، حتى إذا وصل إلى مصدر غذائه
توقف ، ولك أن تتأمل مثلاً إلى (كوز الطلبة) فسوف تجد الجذور
غير متساوية في الطول ، بحسب بُعد الحبة عن مصدر الرطوبة

﴿ وَرَبَّتْ .. ﴾ (٥) [الحج] أي : زادت وانتفشت . كما يحدث في
العجين حين تضع فيه الخميرة ﴿ وَأَنْبَتَ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٥) [الحج]
هذه صورة حية واقعية نلاحظها جميعاً عياناً الأرض تكون
جرداء ساكنة ، لا حركة فيها ، فإذا ما نزل عليها الماء تغيرت
وتحركت ذراتها وتشققت عن النبات ، ولو حتى بالمطر الصناعي ،
كما كنا نرى في عرفة مثلاً ينزل عليها المطر الصناعي فيخضر
الراعي ، لكن حينما ينقطع الماء يعود كما كان لعدم موالاة الماء ،
ولو واليت عليها بالماء لصارت غابات وأحراشاً وبساتين كالتى نراها
في أوروبا

والمطر لا يحتاج أن تُسوى له الأرض ، لأنه يسقى المرتفع

والمنخفض على السواء ، على خلاف الأرض التي تسقيها أثت لا بُدَّ
أن تُسَوِّيها للماء حتى يصل إليها جميعاً .

فإذا أنزل الله تعالى المطر على الأرض الجدياء الحرياء قراها
تفتق بالنبات ، فمن أين جاءت هذه البذور ؟ وكيف لم يُصبها
المطرب ، وهي في الأرض طوال هذه الفترات ؟ الأرض هي التي
تحفظها من المطرب إلى أن تجد البيئة المناسبة للنبات ، وهذا النبات
الذي يخرج من الأرض دون تدخل الإنسان يسموه (عذى)

أما عن نقل هذه البذور في الصحراء وفي الوديان ، فهي تنتقل
بواسطة الريح ، أو في روث الحيوانات .

ومعنى . ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ ۝٥ ﴾ [الحج] الزوج : البعض يظن
الزوج بمعنى الاثنين ، إنما الزوج كلمة مفردة تدل على واحد مفرد معه
مثله من جنسه ، ففى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝١٥ ﴾ [النجم] فكل منهما زوج ، وكما نقول : زوج أهدية يعنى فردة
حذاء معها فردة أخرى مثلاً ، ومثلها كلمة ثوام يعنى مولود معه مثله
فكل واحد منهما يسمى (توأم) ومما معاً (توأمان) ولا نقول .
هما توأم .

وهنا مظهر من مظاهر دقة الأداء القرآنى . ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ۝٥ ﴾ [الحج] لأن كل المخلوقات ، سواء أكانت جماداً أو نباتاً أو
حيواناً ، لا بُدَّ فيه من ذكر وأنثى ، هذه الزوجية قال الله فيها :
﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ۝١٥ ﴾ [الذاريات] حتى فى الجماد الذى
نظنه جماداً لا حركة فيه ، يتكوّن من زوجين . سالب وموجب فى
الكهرباء ، وفى الذرة ، وفى المغناطيس ، فكل شيء يعطى أعلى منه ،
فلا بُدَّ فيه من زوجين .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى حينما عالج هذه المسألة عالجها برصيد احتياطي في القرآن ، يقول سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا لَبِثَ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس] فقله سبحانه : ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس] رصيد عال لما سيلقى به العلم من اكتشافات تثبت صدق القرآن على مرّ الايام ، ففي الماضي عرفنا الكهرباء ، وأنها سالب وموجب فقلنا هذه مما لا نعلم ، وفي الماضي القريب عرفنا الذرة فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم .

إنّ : خُذْهَا قضية عامة كل شيء يتكاثر إلى أعلى منه . فلا بدّ أن فيه زوجية .

فقله تعالى . ﴿وَأَنْثَتَ مِنْ كُلِّ لَوْحٍ زَوْجًا﴾ [الحج] فالزوج من النبات مفرد معه مثله ، وهذا واضح في لقاح الذكر والانثى . هذا اللقاح قد يكون في الذكر وحده ، أو في الانثى وحدها كما في النخل مثلاً ، وقد يكون العنصران معاً في النبات الواحد كما في سنبله القمح أو في كوز الذرة .

ولو تأملت نبات الذرة لوجدت له في أعلاه (شوشة) بها حبيبات دقيقة تحمل لقاح الذكورة ، وفي منتصف العود يخرج الكوز ، وبه شعيرات تصل كل شعرة منها إلى حبة من حبات الذرة المصطفة على الكوز ، وهذه تحمل لقاح الانوثة ، فإذا هبّ الريح هزّت أعلى العود فتساقطت لقاحات الذكورة على هذه الشعيرات فتلقحتها ، لذلك نرى الحبة التي لا يخرج منها شعرة إلى خارج الغلاف تضمر وتموت ؛ لأنها لم تأخذ حظها من اللقاح .

ومعنى . ﴿بِهَيْجٍ﴾ [الحج] من البهجة ، فالمراد الشيء حسن المنظر والجميل الذي يجذب الانظار إليه ، وبهجة النظر إلى

النبات شائعة لا تقتصر على مَنْ يملكه بخلاف الأكل منه ، فحين تمر بهستان أو حديقة تمتع بمنظرها وجمال ألوانها وتسرُّ برائحتها .

وفي النفس الإنسانية ملكات تتغذى على هذه الخضرة ، وعلى هذه الألوان وتنسب لهذا الجمال ، ولو لم تكن تملكه .

لذلك الحق - سبحانه وتعالى - ينبهنا إلى هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثَرَ وَيَتَّعِ^(١) .. ﴾ [الاسم] أي : أن النظر مشاع للجميع ، ثم بعد ذلك اتركوا الخصوصيات لأصحابها ، تمتعوا بما خلق الله ، ففي النفس ملكات أخرى غير الطعام .

واقرا أيضا قوله تعالى في الحيل ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تُسْرَحُونَ ﴾ [النمل] فليست الخيل لحمل الأثقال فقط وإنما فيها جمال وأبهة ، ترضى شيئا في نفوسكم ، وتشبع ملكة من ملكاتها .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّلُ اللَّوْنِ
وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

أي : أن ما حدث في خلق الإنسان تكويناً ، وما حدث في إنبات الزرع تكويناً ونماءً ، يردُّ هذا كله إلى أن الله تعالى ﴿ هُوَ الْحَقُّ .. ﴾ [الحج] فلماذا أتى بالحق ولم يقل الخالق ؟ قالوا : لأن الخلق قد يخلق شيئا ثم يتخلى عنه ، أما الله - سبحانه وتعالى - فهو الخالق الحق ، ومعنى الحق أي : الثابت الذي لا يتغير ، كذلك عطاؤه لا يتغير ، فسوف يظل سبحانه خالقاً يعطيك كل يوم ، لأن عطاءه سبحانه دائم لا ينقذ .

(١) يبع الثمر - يترك وينزع ، والبهج - النضج ، واليهج - الناضج . [نفس العرب - مادة]

وإذا نظرت إلى الوجود كله لوجدته دورة مكررة ، فإله عز وجل
قد خلق الأرض وقدر فيها أقرانها ، فمثلاً كمية الماء التي خلقها الله
في الكون هي هي لم تزد ولم تنقص ؛ لأن للماء دورة في الحياة ،
فالماء الذي تشربه طوال حياتك لا يُنقص في كمية الماء الموجودة ؛
لأنه سيخرج منك على صورة فضلات ليعود في دورة الماء في
الكون من جديد .

وهكذا في الطعام الذي تأكله ، وفي الوردة الجميلة الطرية التي
تقطفها ، كل ما في الوجود له دورة يدور فيها ، وهذا معنى :
﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْرَانَهَا .. ﴾ (١)

فمعنى : ﴿ الْحَقُّ .. ﴾ (٢) [الحج] هنا الثابت الذي لا يتغير في
الحق وفي العطاء . فلا تظن أن عطاء الله لك شيء جديد ، إنما هو
عطاء قديم يتكرر لك ولغيرك .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى .. ﴾ (٣) [الحج] كما قلنا في
الآية السابقة : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً .. ﴾ (٤) [الحج] أي : ساكنة
لا حياة فيها ، والله وحده القادر على إحيائها ، لذلك نجد علماء الفقه
يُسَمُّونَ الأرض التي فصلحها للزراعة (إحياء الموات)^(١) فإله تعالى

(١) إحياء الموات معناه إعداد الأرض الميتة التي لم يسبق تعميرها وتهيئتها وجعلها صالحة
للانقاع بها في السكنى والزرع ونحو ذلك . ويشترط لاعتبار الأرض مواتاً أن تكون بعيدة
عن العمران ، حتى لا تكون مرافقاً من مرافقه ، ولا يتوقع أن تكون من مرافقه ، ويرجع
إلى العرف في معرفة مدى البعد عن العمران . والتفق الفقهاء على أن الإحياء سبب للملكية
لحديث رسول الله ﷺ : « من أخصب أرضاً ميتة فهي له » . واشتراط في اشتراط إذن الحاكم
في الإحياء فأكثر العلماء على عدم اشتراط إذن الحاكم . وذهب أبو حنيفة إلى اشتراط إذن
الإمام وإقراره . وفسق مالك بين الأراضي المجاورة للعمران والأراضي البعيدة عنه
ويجوز للحاكم العادل أن يقطع بعض الأفراد من الأرض الميتة والصحراء والمياه ما دامت
هناك مصلحة ، فإذا لم تتحقق للمصلحة بطل أم يصرها من القطع له ولم يستمرها فإنها
تنزع منه ، [فله السنة - الشرح - سيد سابق ٢/٢٠١ - ٢٠٤ بتصرف] .

هو القادر وحده على إحياء كل ميت ، لذلك يقول بعدها . ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦)

[الحج]

وما دام الأمر كذلك وما دُمتُم تشهدون آية إحياء الموات في الأرض الميتة فلا تتكروا البعث وإعادةكم بعد الموت فيقول تعالى :

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٧)

وقد سبق أن أنكروا البعث بعد الموت وقالوا . ﴿أَبَدًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا نَمْعُوثُونَ﴾ (١١) أَوْ أَهَابُونا الْأَوَّلُونَ (١٧) . [الصفات]

فيردُّ عليهم الحق سبحانه . نعم ، ستعيدكم بعد الموت ، والذي خلقكم من لا شيء قادرٌ على إعادةكم من باب أولي ، لذلك يقول تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ..﴾ (١٧) [الدرم] والحق سبحانه هنا يخاطبنا على قدر عقولنا ؛ لأننا نفهم أن الخلق من موجود أهرن من الخلق من عدم ، أما بالنسبة للخالق - عز وجل - فليس هناك سهلٌ وأسهل ، ولا هينٌ وأهون

فقوله تعالى . ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ..﴾ (٧) [الحج] كان عملية إحياء الموتى ليست منتهى قدرة الله . إنه في قدرته تعالى كثير من لايات والمجائب ، ومعنى : ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا ..﴾ (٧) [الحج] أي . لا شك فيها . والساعة . أي زمن القيامة وموعدها ، لكن القيامة ستكون للحساب وللفصل بين الناس ، فلا بُدَّ من بعثهم من القبور ؛ لذلك يقول بعدها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٧) [الحج]

فَكُلُّ مَا تَقْدَمُ نَاشِئٌ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْحَقُّ ، وَلَأنَّهُ سُبْحَانَهُ
الْحَقُّ ، فَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَالسَّاعَةُ آتِيَةٌ
لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَبْدِئُ مَنْ فِي الْقُبُورِ
ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾

تكلعنا في أول السورة عن الجدل بالعلم والموعظة الحسنه وقلنا .
العلم إما علم بدهي أو علم استدلالى عقلى أو علم بالوحي من الله
سُبْحَانَهُ ، أما هؤلاء الذين يجادلون في الله بغير علم بدهي ﴿ وَلَا
هُدًى .. ﴾ [الحج] يعنى : علم استدلالى عقلى ، ﴿ وَلَا كِتَابٍ
مُنِيرٍ ﴾ [الحج] يعنى : وحى من الله ، فهؤلاء أهل سفسطة وجدل
عقيم لا فائدة منه ، وعلى العاقل حين يصادف مثل هذا النوع من
الجدال أن لا يجاريه في سفسطته ، لأنه لن يصل معه إلى مفيد ،
إنما عليه أن ينقله إلى مجال لا يحتمس السفسطة .

ولنا في هذه المسألة مثلٌ وقُدوة بسيدنا إبراهيم - عليه السلام -
حينما جادل النمرود . اقرأ قول الله تعالى . ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ
إِبْرَاهِيمَ لِي رَبَّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ
قَالَ أَنَا أَحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا
مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. ﴾ (٢٠٨) [البقرة]

لقد اتبع النمرود أسلوب السفسطة حين قال ﴿ أَنَا أَحْيِى

وَأُمِيتُ .. (٢٥٨) ﴿ [البقرة] لأنه ما فعل حقيقة الموت ، ولا حقيقة الحياة^(١) ، فاراد إبراهيم أن يكفه إلى مجال لا سفسطة فيه : ليهي هذا الموقف ويسد على خصمه باب اللدد والتهريج ، فقال . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. ﴾ (٢٦٨) [البقرة] وكانت النتيجة أن حارَّ عدو الله جواباً ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. ﴾ (٢٥٨) [البقرة] أي دهش وتحيّر .

﴿ ثَانِي عَطْفُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ^(٢) وَنُذْرِيْقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝٩﴾

﴿ ثَانِي .. (٩) ﴾ [الحج] ثنى الشيء يعنى : لواه ، وعطفه : يعنى جنبه ، والإنسان في تكوينه العام له رأس ورقبة وكتفان ، وله جانبان وظهور ، وهذه الأجزاء تُؤدّي دوراً في حياته وحركته ، وتدلّ على تصرفاته ، فالذي يجادل في الله عن غير علم ولا هدى ولا كتاب منير يكتسب عنك جنبه ، ويكوى رأسه : لأن الكلام لا يعجب ، ليس لأن كلامك باطل ، إنما لا يعجبه لأنه أفسس وليست لديه الحجة التي يواجهك بها ، فلا يملك إلا هذه الحركة .

(١) وذلك أن الضرور قال : « إلى أوتى بالرجلين الذ استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فيقتل ، وأمر بالآخر من الأخر فلا يقتل » قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي وغير واحد أورده ابن كثير في تفسيره (٢١٣/١) . ثم قال ابن كثير . والظهور والله أعلم أنه ما أراد هنا لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا في معناه . لأنه مانع لوجود الصانع . وإن أراد أن يدهى لنفسه هذا المقام مثلاً ومكافأة ويوهم أنه فعل لذلك وأنه هو الذي يحير ويعيت . .

(٢) العصف الجانب . عطف الإنسان جانباه . ويقال ثنى عطفه أي . امرض وابتمد بجانبه . وقوله ﴿ ثَانِي عَطْفٌ ۝٩ ﴾ [الحج] كناية عن الإعراض كبراً وغشواً [القاموس القويم ٢٠/٢]

لذلك يُسمَّى هذا الجدل «مراء» ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفْتَمَارُونَ عَلَيَّ مَا يَرَى ﴾ (٩٧) [النجم] يعنى . أتجادلون رسول الله فى أمر رآه ؟ والمراء : هو الجدل العنيف ، مأخوذ من (مَرَى ^(١) الضرع) يعنى . حَلَب ما فيه من لبن إلى آخر قطرة فيه . وأهل الدِّيف يقولون عن هذه العملية (قرقرة البقرة) يعنى . أخذ كل لبنها ولم يَبْقَ فى ضرعها شيء .

كذلك المجادل بالباطل ، أو المجادل بلا علم ولا حجة تراه يكابر لياخذ آخر ما عند خصمه ، ولو كان عنده علم وحجة لانهى الموقف دون لجج أو مكابرة .

والقرآن الكريم يعطينا صورة لهذا الجدل والإعراض عن الحق ، فيقول سبحانه - ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسِهِمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَهْدُونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٥) [الصفّات]

والقرآن يعطينا التدرج الطبيعى للإعراض عن الحق الذى يبدأ بالرأس ، ثم الجانِب ، ثم يعطيك دُبُرَه وعَرَضُ اكتشاف ، هذه كلها ملاحظ للفرار من الجدل ، حين لا يقوى على الإقناع .

ثم يقول سبحانه . ﴿ ثَانِي عِطْفِهِ لِيَهْبِلُ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾ (٦) [الحج] هذه حلة ثنى جنبه ، لأنه يريد أن يُضِل مَنْ اهتدى ، فلو وقف يستمع لخصمه وما يلقى من حجج ودلائل لانهزم ولم يتمكن من إضلال الناس ؛ لذلك يَكْنِى عِطْفَه هَرَبًا من هذا الموقف الذى لا يقدر على مواجهته والتصدى له .

فما جِراء هذا الصنف ؟ يقول تعالى . ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ .. ﴾ (٩) [الحج] والخِزْي - الهوان وانذلة ، هذا جزاء الدنيا قبل جزاء الآخرة ،

(١) مَرَى : مَسَحَ ضرع البقرة لشر . وثالثة مَرَى : هزيرة اللبن [لسان العرب - مادة مرى]

الم يحدث للكفار هذا الخوف يوم بدر ؟ ألم يُعسك رسول الله ﷺ بقضيب في يده قبل المعركة ويشير به . « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان » ^(١) ويسمى صنابير الكفر ورؤوس الصلال في قريش ؟ وبعد انتهاء المعركة كان الأمر كما أخبر رسول الله ﷺ . وصُرع كل هؤلاء الصناديد في نفس الأماكن التي أشار إليها رسول الله

ولما قُتل في هذه المعركة أبو جهل علاؤه سيحنا عبد الله بن مسعود ، سبحان الله ، عبد الله بن مسعود راعى الغنم يعتلى ظهر سيد قريش ، عندها قال أبو جهل - وكان فيه رمق حياة - لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رؤيى الغنم ^(٢) ، يعنى ركبتنى يا ابن الإيه !! فأى حذى بعد هذا ؟

وأبو سفيان بعد أن شفع له العباس رضى الله عنه عند رسول الله ﷺ ، ورأى موكب النبى يوم الفتح ، وحوله رايت الأنصار في موكب رهيب مهيب ، ثم يملك نفسه ولم يستطع أن يخفى ما في صدره ، فقال للعباس رضى الله عنه لقد أصبح ملك ابن أخيك قوياً ، فقال له : إنها النبوة يا أبا سفيان ^(٣) يعنى . المسألة ليست ملكاً ، إنما هي النبوة المؤيدة من الله .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٩) من حديث أنس . رضى الله عنه . وحدث في مسنده (٢١٩/٣ ، ٢٥٨) أن رسول الله ﷺ قال : « هذا مصرع فلان » ويقع يده على الأرض هاهنا وهاهنا . قال ، فما ملأ أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

(٢) قال عبد الله بن مسعود وجدته بآخر رمق فعرفته ، فرضعت رجلى على صفة فقال له أبو جهل لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رؤيى الغنم . قل ثم أحتذرت راسه ثم جئت به رسول الله ﷺ . فقلت يا رسول الله هذا رأس علو الله لى جهل . أورد ابن هشام في السيرة النبوية (٢٣٦/٢)

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤٠٤/٤) : « قال أبو سفيان : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قال قلت هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار . قال ما لأحد بهؤلاء حك ولا ملأته ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك القادة عظيمًا . قال قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال نعم إذن .

وسيدنا أبو بكر - رضى الله عنه - حينما استأذن عليه القوم فى الدخول ، فآذِنَ للسَّابِقِينَ إلى الإسلام من العبيد والعوالى ، وترك بعض صناديد قريش على الباب ، (فَرِمَتْ) أنوفهم من هذا الأمر واعتأفوا ، وكان فيهم أبو سيدنا أبى بكر فقال له . اتأذن لهؤلاء وتتركنا ؟ فقال له : إنه الإسلام الذى قَدَّمَهُمَ عليكم . وقد شاهد عمر هذا الموقف فقال لهم : ما لكم رِمْتُمْ^(١) أنوفكم ؟ وما بالكم إذا أُذِنَ لهم على ربهم وتأخروا أنتم .

فالعصب العقيقى سيكون فى الآخرة حين تُنَادَى بهؤلاء إلى الجنة . وتتأخرون أنتم فى قول الموقف

واقرا قوله تعالى . ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۚ ﴾^(١١)
[الواقعة]

ثم يقول تعالى ﴿ وَنَذِيْقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۖ ﴾^(١٢) [الحج]
فهذا اسْمُ الَّذِى رَأَوْهُ فى الدنيا لَنْ يُفْلَتَهُمْ مِنْ حَزَنِ وَعَذَابِ الآخرة ، ومعنى ﴿ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۖ ﴾^(١٣) [الحج] الحريق . هو الذى يحرق غيره من شدته ، كالنار التى أوقدوها لإبراهيم - عليه السلام - وكانت تشوى الخير الذى يمرُّ بها فى السماء فيقع مشوياً^(١٤) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْت يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُسَٰوِي بَيْنَ ظَنِّكَ لِلْعَبِيدِ ۖ ﴾^(١٥)

(١) ورد أنه : عصب أى امتداد وانفتح من ذلك خضياً ، وخص لآلئ بالذكر لأنه موضع الأنفة والكبر . ورد فلان بالغة لوربها إذا صمغ بالغة وتجرى [لسان العرب - مادة : ورد]

(٢) قال ابن إسحاق : جمعوا العطب ههنا ثم أوقدوها . واشتعلت واشتكت حتى أن كان الطائر يمر بهنياتها فيشتعل من شدة وهبها [ذكره القرطبي فى تفسيره (١٤٨١/٦)]

﴿ذَلِكَ .. (١٥)﴾ [الحج] يعنى خِزْي الدنيا وعذاب الحريق فى الآخرة بما قُذِّمَتْ . وبما اقترفت يداك ، لا ظُلماً منك ولا اعتداء ، فانت الذى ظلمت نفسك ، كما قال سبحانه . ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٨)﴾ [النحل]

وهل أخذناهم دون إنذار ، ودون أن نُجرِّم هذا الفعل ؟ لانتك لا تعاقب شخصاً على ذنب إلا إذا كنت قد نبهته إليه ، وعرفته بعقوبته ، فإن عاقبته دون علمه بأن هذا ذنب وهذه جريمة فقد ظلمته ؛ لذلك فاهمل القانون يقولون . لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص .

وقد جاءكم النص الذى يُبين لكم ويُجرِّم هذا الفعل ، وقد أبلغتكم الرسل ، وسبق إليكم الإنذار ، كما فى قوله تعالى . ﴿وَمَا كُنَّا مَعَذِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الاسراء]

﴿ذَلِكَ بِمَا قُذِّمَتْ يَدَاكَ .. (١٥)﴾ [الحج] فهل الذنوب كلها تقديم اليد فقط ؟

الذنوب . إما أقوال ، وإما أفعال ، وإما عمل من أعمال القلب ، كالحقد مثلاً أو السفاق .. إلخ لكن فى الغالب ما تُزاول الذنوب بالأيدي^(١)

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ لِلظَّالِمِ الْكَافِرِ (١٦)﴾ [الحج] ظلام صيغة مبالغة من الظلم . تقول . ظالم . فإن أردت المبالغة تقول . ظلام . كما تقول . فلان أكل وفلان أكل . قالفعل واحد ، لكن ما يبشأ عنه مختلف ، والمبالغة فى الفعل قد تكون فى الفعل نفسه أو فى تكراره ، فمثلاً قد تأكل فى الوجبة الواحدة رغيفاً واحداً . وقد

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٥٥١٨/٦) « حبر باليد عن السجدة » لأن اليد التى تفعل وتبطل الجملة .

تأكل خمسة أرغفة هذه مبالغة في الوجبة الواحدة ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، لكن تبالغ في الوجبة الواحدة ، وقد تكون المبالغة في عدد الوجبات فتأكل في الوجبة رغيفاً واحداً ، لكن تأكل خمس وجبات بدلاً من ثلاث . فهذه مبالغة بتكرار الحدث .

وصيغة المبالغة لها معنى في الإثبات ولها معنى في النفي ، (إذ قُلْتُ فلان أكول وأثبت له المبالغة فقد أثبت له أصل الفعل من باب أولى فهو أكول ، وإذا نفيت المبالغة فنفي المبالغة لا ينفي الأصل ، تقول : فلان ليس أكولاً ، فهذا لا ينفي أنه أكول .

فإذا طبقنا هذه القاعدة على قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٥ ﴾ [الحج] فهذا يعني أنه سبحانه وتعالى (ظالم) حاشا لله ، وهنا نقول : هناك آيات أخرى تنفي الفعل ، كما في قوله تعالى ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝١٦ ﴾ [الكهف] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ۝٧٦ ﴾ [الرحمن]

كما أن صيغة المبالغة هنا جاءت مضافة للعبيد ، فعلى فرض المبالغة تكون مبالغة في تكرار الحدث ﴿ يَظْلِمُ لِّلْعَبِيدِ ۝١٥ ﴾ [الحج] ظلم هذا ، وظلم هذا ، وظلم هذا ، فالمظلوم عبيد ، وليس عبداً واحداً

والظلم في حقيقته أن يأخذ القوي حقَّ الضعيف ، ويكون الظلم على قدر قوة الظالم وقدرته . وعلى هذا إن جاء الظلم من الله تعالى وعلى قدر قوته وقدرته فلا شك أنه سيكون ظمناً شديداً لا يتحمله أحد ، فلا نقول - إذن - ظالم بل ظلام ، وهكذا يتمشى المعنى مع صيغة المبالغة .

فالحق سبحانه ليس بظلام للعبيد ، لأنه بين الحلال والحرام ، وبين الجريمة ووضع لها العقوبة ، وقد بلغت الرسل من بداية الأمر فلا حجة لأحد .

ثم يقول الحق سبحانه (١) :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ
وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ
ذَٰلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُ ١١﴾

قوله تعالى . ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. (١١)﴾ [الحج]
العبادة : أن تطيع الله فيما أمر فتتقنه ، وتطيعه فيما نهى فتجتنبه .
بعض الناس يعبد الله هذه العبادة طالما هو في خير دائم وسرور
مستمر . فإذا أصابه شرٌ أو وقع به مكروه ينقلب على وجهه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. (١١)﴾ [الحج]
والحق سبحانه يريد من عبده أن يقبل على عبادته في ثبات
إيمان ، لا تزغزعه الأحداث ، ولا تهز إيمانه فيقراجع ، ربك يهديك
عبداً به في الخير وفي الشر ، في السراء وفي الضراء ، فكلهما
فتنة واختبار ، وما آمنت بالله إلا لأنك علمت أنه إله حكيم عادل

(١) سبب النزول : روى فيها عدة روايات ، منها .

عن ابن عباس قال . كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون فإذا رجعوا إلى
بلادهم ، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاء حسن قالوا : إن ديننا هذا صالح
فتمسكوا به ، وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاء سوء وعام فحط قالوا : ما في ديننا
هذا خير . فأنزل الله على نبيه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ..
(١١)﴾ [الحج] أورده ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٠٩) . والواحد في أسباب النزول
(ص ١٧٥)

... عن أبي سعيد الخدري قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده وتسلم
بالإسلام . فأتى النبي ﷺ فقال : أئذن لي فقال : إن الإسلام لا يقال . فقال : إنني لم أصب
في ديني هذا خيراً . أصاب بصري ومالي وولدي . فقال : يا يهودي إن الإسلام يسبك
الرجال كما تسبك النار حيث الحديد والفضة بالنهب . قال : ونزلت ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن
يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. (١١)﴾ [الحج]

قادر ، ولا بد أن تأخذ ما يجري عليك من أحداث الحياة في ضوء هذه الصفات .

فإن أثقلتك الحياة فاعلم أن وراء هذه حكمة إن لم تكن لك فلاولادك من بعدك ، فاعلمهم إن وجدوك في سعة وفي خير طمعوا وفسدوا وطغوا ، ولعل حياة الضيق وقلة الرزق وتعبك لتوفر لهم متطلبات الحياة يكون دافعاً لهم .

واقرا قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ ﴾ (٦) أن رآه استغنى ﴿ (٧) ﴾ [العلق] وقوله تعالى : ﴿ وَتَلَوْنَاهُ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنِ وَنَحْنُ نَرَاهُ تَرْجَعُونَ ﴾ (٨) [الأنبياء]

لا بد أن تعرف هذه الحقائق ، وأن تؤمن بحكمة ربك في كل ما يجري عليك ، سواء أكان نعيماً أو بؤساً ، فإن أصابك مرض أقعدك في بيتك فقل ما لنا حدث خارج البيت أبعدني الله عنه وعيالي منه ؟ فاعل الخير فيما تظنه شراً ، كما قال تعالى ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۖ ﴾ (٩٦) [البقرة]

وقد أجرى علماء الإحصاء إحصاءات على بعض بيوتنا ، فوجدوا الإخوة في البيت الواحد ، وفي ظروف بيئية واحدة وأب واحد ، وأم واحدة ، حتى التعليم في المدارس على مستوى واحد ، ومع ذلك تجد أحد الأبناء مستقيماً ملتزماً ، وتجد الآخر على النقيض ، فلما بحثوا في سبب هذه الظاهرة وجدوا أن الولد المستقيم كانت فترة تربيته ومفكرته في وقت كان والده مريضاً ويلزم بيتاً لمدة ست سنوات ، فأخذ هذا الولد أكبر قسط من الرعاية والحب ، ولم يجد انفرصة للخروج من البيت أو الاحتلاط برفاق السوء .

وفي نموذج آخر لأحد الأبناء المتحررين وجدوا أن سبب انحرافه

أن ولده في فترة تربيته وتنشئته كان تاجراً ، وكان كثير الأسفار ، ومع ذلك كان يُخَدِّق على أسرته ، فتربى الولد في سعة من العيش ، بدون مراقبة الأب .

وفي نموذج آخر وجدوا آخرين . أحدهما متفوق ، والآخر فاشل ، ولما بحثوا أسباب ذلك رغم أنهما يعيشان ظروفًا واحدة وجدوا أن الابن المتفوق صحته ضعيفة ، فعال إلى البيت والقراءة والاطلاع ، وكان الآخر صحيحاً وسيماً ، فعال إلى حياة الترف ، وقضى معظم وقته خارج البيت . والأمثلة في هذا المجال كثيرة .

إذن : فالابتلاءات لها مغالمة ، ومن ورائها حكم ، لأنها ناشئة وجارية عليك بحكمة ربك وخالفك ، وليست من سَعَيْكَ ولا من عمل يدك ، وما دامت كذلك فارض بها ، واعبد الله بإخلاص وإيمان ثابت في الخير وفي الشر .

ومعنى ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ..﴾ (٥٥) [الحج] والحرَف : هو طرف الشيء ، كأن تدخل فتجد الغرفة معتمة فتجلس على طرف في آخر الجالسين ، وهذا عادة لا يكون معه تمكُّن واطمئنان ، كذلك مَنْ يَعْبُدُ الله على حرف يعنى : لم يتمكَّن الإيمان من قلبه ، وسرعان ما يُخرِجه الابتلاء عن الإيمان ، لأنه عبد الله عبادة غير متمكنة باليقين الذي يصدر عن المؤمن بآله حكيم فيما يُجرِّيه على عبده .

والآية لم تترك شيئاً من هولجس النفس البشرية سواء في الخير أو في الشر .

وتأمّن قول الله تعالى ﴿إِنَّ أَصَابَهُ خَيْرٌ..﴾ (٥٦) [الحج] وكذلك ﴿وإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ..﴾ (٥٦) [الحج] فإنت لا تقوى . أصبتُ الخير ، إنما الخير هو الذي أصابك وأتاك إلى بابك ، فأنت لا تبحث عن رزقك

يقدر ما يبحث هو عندك : ليلك يقول تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣)﴾ . [الطلاق]

ويقول أهل الضعفة : رزقك أعلم بمكانك، عملك بمكانه . يعني يعرف عنوانك أما أنت فلا تعرف عنوانه ، بدليل أنك قد تطلب الرزق في مكان فلا تَرزُق منه شيء ، وقد ترى الزرع في الحقول زاهياً نامل فيه المحصول الوفير ، وتبنى عليه الآمال ، فإذا تعافى أو آفة تاتي عليه ، فلا تَرزُق منه حتى بما يسد الرزق .

وبنا عبيرة ومثل في ما بن أدنية^(١) . حين ضاقت به الحال في المدينة ، فقالوا له : إن لك حبيبة بهشليم بن عبد الحكيم الخليفة الأموي فاذهب إليه يمالك من خير الخلافة ، وفعل بهشليم ابن أدنية إلى صديق وصرب إليه أكباد الإبل حتى الشام ، واستأذن فادين له ، واستقبله صاحبه ، وسأله عن حاله فقال : في ضيق وهي شدة . وكان في مجلس الخليفة عشاء فقال له : يا عروة السب القاتل . وكان ابن أدنية شاعراً

لقد علمت وما الإسراف من خلقي أن الذي هو رزقي سبب بأنيني^(٢) . وهذا أحسن عبيرة أن الخليفة كسر خاطره ، وحبيب أخيه فيه ، فقال له : جرتك الله خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد ذكرت مني غائباً ، ونجوت مني غافلاً ، ثم انصرف .

ولما خرج ابن أدنية من مجلس الخليفة ، وفكر الخليفة في

(١) هو عروة بن ريمي (والمعروف بأذنية) بن مالك بن الحارث القتيبي شاعر غزل يقدم من أهل المدينة وهو معروف بين الفضلاء والمحدثين لهيب . ولكن الشعر يطلب عليه توفي نحو ١٢٠ هـ [الأعلام للزركلي ٢٣٧/٤]

(٢) ذكر هذا البيت والذي بعده كسر الدين الزركلي في كتابه الأعلام (٢٣٧/٤) من شعر عروة بن أدنية وانظر الشعر والشعراء ٢٢٥ ، نوات الوفيات ٢٤/٢ .

العوقف وأثب نفسه على تصرفه مع صاحبه الذي قصد خيره . وكيف أنه رده بهذه الصورة ، فأراد أن يصلح هذا الخطأ ، فأرسل إليه رسولا يحمل الهدايا الكثيرة ، إلا أن رسول الحليفة كلما تبع ابن أذينة في مكان وجدته قد غادره إلى مكان آخر ، إلى أن وصل إلى بيته ، فطرق الباب ، وأخبره أن أمير المؤمنين قد قدم على ما كان منه ، وهذه عطايا وهدايا .

وهنا أكمل ابن أذينة بيته الاول ، فقال .

أَسْتَعِي لَه فَيُعْثِنِي تَطْلُبُ وَلَوْ قَعَدْتُ أَثَانِي لَا يُعْثِنِي

كذلك نلاحظ في هذه الآية . ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ [الحج] ولم يقابل الخير بالشر ، إنما سماها (فِتْنَةٌ) أى . اختبار وابتلاء : لأنه قد ينجح في هذا الاختيار فلا يكون شراً في حقه .

ومعنى ﴿ انْقَلَبَ عَلَيَّ وَجْهِهِ ﴾ [الحج] يعنى . عكس الامر . فبعد أن كان عابداً طائعاً انقلب إلى الضد فصار عاصياً ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴾ [الحج] وخسران الإنسان لعبادته خسران كبير لا يُجْبَر ولا يُعْوَضه شيء : لذلك يقول بعدما . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِين ﴾ [الحج] فهل هناك خسران مبين ، وخسران غير مبين ؟

نعم . الخسران هو الخسارة التي تُعْوَض ، أما الخسارة التي لا عوض لها فهذه هي الخسرون المبين الذي يلزم الإنسان ولا ينفك عنه ، وهو خسران لا يقتصر على الدنيا فقط فيمكن أن تُعْوَضه أو تصبر عليه ، إنما يمتد للآخرة حيث لا عوض لخسارتها ولا صبر على شدتها . فالخسران المبين أى . العجيب الذي يطرق صاحبه .

لذلك نقول لمن فقد عزيزاً عليه ، كامرأة التي فقدت وحيدها مثلاً : إن كان الفقيد حبيباً وغالياً فييمره غالباً ويدخلوا به الجنة ، ذلك حين تصيرون على فقدّه وتهتمسونه عند الله ، وإن كنتم خسرت به الدنيا فلا تفسسروا به الآخرة ، فإن لطمنا الخدود وشققنا الجيوب ، وعترضنا على قدر الله فيه فقد خسرنّا به الدنيا والآخرة

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن »^(١) .

والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء مرتبة من مراتب الإيمان ، ومرحلة من مراحل اليقين في نفس المؤمن ، وهي بداية وعتبة يتلوها مراحل أخرى ومراق ، حسب قوة الإيمان

اسمع إلى هذا أحوار الذي دار بين أهل المعرفة من الزهاد ، وكيف كانوا يتبارون في الوصول إلى هذه المراقي الإيمانية ، ويتنافسون فيها ، لا من مباهة ومفاخرة ، إنما عن نية خالصة في الرقي الإيماني .

يسأل أحد هؤلاء المتمكنين صاحبه : كيف حال الزهاد في بلادكم ؟ فقال : إن أصابنا خير شكرنا ، وإن أصابنا شر صبرنا ، فضحك الشيخ وقال : وما في ذلك ؟ إنه حال الكلاب في بئح . أما عندنا فإن أصابنا خير أثرتنا ، وإن أصابنا شر شكرنا .

وهذه ليست مباهة إنما تنافس ، فكلاً الرجلين زاهد سالك لطريق الله ، يرى نفسه محسوباً على هذا الطريق ، فيحاول أن يرتقى فيه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٩٩) كتاب الزهد ، وأحمد في مسنده (٢٤/٥) ، والدارمي في سننه (٢١٨/٢) من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه

إلى أعلى مراتبه ، فإياك أن تظن أن العافية عند الصبر على البلاء
والشكر على العطاء ، فهذه العداية وبعدها مدارل أعلى ومراق أسنى
إمن طلب العلا ، وشمر عن ساعد الجد فى عبادة ربه

انظر إلى أحد هؤلاء الزهاد يقول لصاحبه ألا تشتاق إلى الله ؟
قال لا ، قال منعجاً وكيف ذلك ؟ قال : إنما يشتاق لغائب
ومتى غاب عني حتى اشتاق إليه ؟ وهكذا تكون درجات الإيمان
وشغافية العلاقة بين العبد وربه عز وجل

ثم يقول الحق سبحانه عن هذا الذى يعد الله على حرف

﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ
ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ (١٢)

معنى : ﴿ ما لا يضره .. ﴾ (١٢) [الحج] هل الصنم الذى يعبد
الكفر من دون الله يمكن أن يضره ؟ لا ، الصنم لا يضر ، إنما الذى
يضره حقيقة من عباده وانصرف عن عبادته ، يضره الربوبية التى
يعاندها والمجازى الذى يجاربه بعمله ، إذن فما معنى ﴿ يضره .. ﴾
(١٢) [الحج] هنا ؟

المعنى : لا يضره لأن انصرف عنه ولم يعبد ، ولا ينفعه إن
عبده ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ (١٢) [الحج] نعم ضلال لأن
الإنسان يعبد ويعطى من يرجو نفعه فى أى شيء ، أو يحدثى ضرره
فى أى شيء .

وقد ذكرنا سابقاً قلوب بعض العارفين (واجعل طاعتك لمن
لا تستعنى عنه) ، ولو قلنا هذه المقولة لأبنائنا فى الكتب الدراسية ،

واهتمّ بها القاسمون على التربية لما أغرى الأولاد بعضهم بعضاً بالفساد ، ولوقف اللوك يفكر مرة ، والفن مرة على توجيهات ربه ، ونصائح أبيه وأمه ، وكيف أنه سيترك توجيهات من يحبونه ويخافون عليه ويرجّون له الخير إلى إضرأ صديق لا يعرف عنه وعن أخلاقه شيئاً .

• لَا يَدْ أُنْ تُطْعَمُ أَيْمَانُنَا مَعَادِيهِ الْإِسْلَامِ - لِيَعْرِفُوا الْوَلَدَ مِثْلَهُ صِفَرَهُ
مَنْ يَحِبُّهُ وَمَنْ يَكْرَهُهُ - وَبِئْسَ هُوَ أَوْلَى بِطَاعَتِهِ .

وتحطأ في الآية أن الضرر سابق للنتفع . ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ﴾ (١٧) [الحج] لأن نزع المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، لأن المفسدة خروج الشيء عن استقامة تكوينه ، والنفع يزيدك ويضيف إليه ، أما الضرر فينقصك ، لذلك خير لك أن تقل كما أنت لا تنقص ولا تزيد ، فإذا وقعت أمام أمرين أحدهما يجلب خيراً ، والآخر يدفع شراً ، فلا شك أنك ستختار دفع الشر أولاً ، وتجتنب بدو المفسدة قبل جلب المصلحة .

وَحَرَبْنَا لَذَلِكَ مَثَلًا هَبْ لِيْ اِنْشَاءً سِيرِيْ لَكَ بِتَفَاحَةٍ ، وَآخِرُ
سِيرَمِيْكَ بِحَجَرٍ فِيْ نَفْسِي الْوَقْتُ ، فَمَاذَا تَقُولُ ؟ تَلْجِزُ التَّفَاحَةَ ، لَوْ
تَتَّقِيْ اَذَى الْحَجَرِ ؟ هَذَا هُوَ مَعْنَى : نَرَى الْمَفْسِيْدَ مُقَدِّمٌ عَلَى جُلْبِ
الْمَصْلَحَةِ .

يَدْعُوا الْمَنَ حُرَّةً وَأَقْرَبَ مِنَ النَّفْعِ مَالِئُ الْمَوَاقِ

وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ۝ ١٣

الآية السابقة تثبت أنه يدعو ما لا يضُرُّه ومَا لا ينفعه ، وهذه
الآية تُثبِت أنه يدعو مَنْ ضُرُّه أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ

صفة أفضل التفضيل (أقرب) تدل على أن شيئين اشتركا في صفة واحدة ، إلا أن أحدهما زاد عن الآخر في هذه الصفة ، فلو قُلْتُ : فلان أحسن من فلان . فهذا يعنى أن كلاهما حَسَنٌ ، لكن زاد أحدهما عن الآخر في الحُسْنِ .

فقوله تعالى . ﴿ يَدْعُوا لِمَنْ حَرَهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ .. ﴾ (١٧) [الحج] إذن . هناك نَفْعٌ وهو قريب . لكن الضر أقرب منه ، فهذه الآية في ظاهرها تناقض الآية السابقة . والحقيقة ليس هناك تناقض ، ولا بد أن يفهم هذه المسألة في ضوء قوله تعالى ﴿ وَلَوْ كَانُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا لَهُ إِخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (١٨) [النساء]

فالآوثان التي كانوا يعبدونها كان لها سِدَّةٌ يستحكمون فيها وفي عبيدتها ، فإذا أرادوا من الآلهة شيئا قالوا للسدنة ادعوا الآلهة لنا بكذا وكذا ، إذن كان بهم نفوذ وسلطة زمنية ، وكانوا هم الواسطة بين الآوثان وعبيدتها ، هذه الواسطة كانت تُدرِّ عليهم كثيرا من الخيرات وتعطيهم كثيرا من المنافع ، فكانوا يأخذون كل ما يُهدى للآوثان .

فالآوثان - إذن - سبب في نَفْعٍ سديتها ، لكن هذا النفع قصاراه في الدنيا ، ثم يتركونه بالموت ، فمدة النفع قصيرة ، وربما أتاه الموت قبل أن يستفيد بما أخذوه ، وإن جاء الموت فلا إيمان ولا عمل ولا توبة ، وهذا معنى ﴿ حَرَهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ .. ﴾ (١٧) [الحج]

لذلك يقول تعالى بعدما ﴿ أَيْسَرَ الْمَوْتِ وَأَيْسَرَ الْعَشِيرِ ﴾ (١٧) [الحج] كلمة (بشس) ثَقُلَ لِيْذَمَ وهي بمعنى ساء وقبح ، والموتى : الذى يليك ويقرَّب منك ، ويُرَادُ به النافع لك ، لأنك لا تقرَّب إلا النافع لك ، إما لأنه يعينك وقت الشدة ، ويساعدك وقت الضيق ، وينصرك إذا احتجت لنصوته ، وهذا هو الوسى .

ولما أنْ تُقَرَّبَ منك ، لأنه يُسَيِّك ويجالسك وتانسر به ، لكنه ضعيف لا يقوى على نُصرتك ، وهذا هو العشير .

والأصنام التي يعبدونها بثست المولى ؛ لأنها لا تنصرهم وقت الشدة ، وبثست العشير ؛ لأنها لا تُسليهم ، ولا يأنسون بها في غير الشدة .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (١٤)

بعد أن تكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن الكفار وأهل النار ومنْ يعبدون الله على حَرْف ، كان لا بُدَّ أنْ يأتى بالمقابل ؛ لأن النفس عنده استعداد للمقارنة والمائل في أسباب دخول النار ، وفي أسباب دخول الجنة ، وهذا أجدى في إيقاع الحجة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٥) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٦) ﴾ [الأنعام] وقوله تعالى : ﴿ فَلْيُنْحَرِكُوا فَتَيَأْتُوا بِكُمْ كُفْرًا .. (٨٢) ﴾ [التوبة]

لنذكر النعمة وحدها دون أن نقابلها بالنعمة لا تؤتي الأثر المطلوب ، لكن حينما نقابل النعمة بالنعمة وسلب الضر بإيجاب النفع فإن كلامها يظهر الآخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ رَحِمَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ . (١٨٥) ﴾ [المدن] فإن أمنت لا تُرحل عن النار فقط - مع أن هذه في حد ذاتها نعمة - لكن تُرحل عن النار وتدخل الجنة .

والإيمان عمل قلبي وموحيدي نطمئن بها لنفوسنا ، لكن الإيمان له
مطلوب فانت آمنت بالله ، وأطعنا قلبك إلى أن الله هو الخالق الرازق
واجب الوجود ، إلخ ، لهذا مطلوب هذا الإيمان .

مطلوب الإيمان أن نسمع لأوامره ، لأنه حكيم ، ونثق في قدرته
لأنه قادر ، ونخاف من بطشه لأنه جبار ولا تياس من بسطه لأنه
باسط ، ولا تأمن قبضه لأنه قابض

لقد آمنت بكل هذه المقامات ، فحين يأمرك بامر فاعلمك أن
تستحضر حيثيات هذا الأمر ، وأنت واثق أن ربك عز وجل لم يأمرك
ولم ينهك عن فراغ ، إني من خيال صيغته الكمال فيه سبحانه ، أو
صفات الجلال والجبروت ، فاستحضر في كل أعمالك وفي كل
ما تأتي أو تدع هذه الصفات .

كذلك ، حثت الآية من الإيمان والعمل الصالح ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ [الحج]

وفي سورة العصر ﴿ وَالْعَصْرُ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكُفْرٌ ۝ إِلَّا
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝ ﴾ [العصر] ليس ذلك ونقط إيمان
أيضا ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾ [العصر]

فالتواصى ، بالحق والصبر على الشدائد من الاستجابة بدعى
الإيمان وثمرة من ثماره ، لأن المؤمن يستعرض في رحلة الحياة
لفتن كثيرة قد يزلزله ، ويواجه سحرية واستهزاء وربما تعرض
لألوان العذاب .

فعلية تدبر - أن يتعمق بالحق ويتواصى به مع أخيه ، وعليه
أن يصبر ، وأن يتواصى بالصبر مع إخوانه ، ذلك لأن الإنسان قد

تعرض له فترات ضعف وجور ، فعلى القوي حتى وقت الفتنة أن يتصحب الضعيف .

وربما تدل هذا الحال على موقف آخر وأمام فتنة أخرى ، فمن أوصيته اليوم بالصبر ربما يوصلك غداً ، وهكذا يُثمر في المجتمع الإيمانى التواصى بالحق والتواصى بالصبر .

إِنَّ قَوَّامُوا ، لَأَنْكُمْ سَتَعْرِضُونَ لِهَؤُلَاءِ لَيْسَتْ هِرَاتٍ شَمْلَةٌ جَامِعَةٌ ، إِنَّمَا هِرَاتٌ يَتَغَرَّسُ فِيهَا طَائِفٌ ذَوْنُ الْأَخْرِ ، قَبْلَ ضَعْفَتِ وَحْدَتُ قَرْنِهِ إِخْوَانُهُ مِنْ قَوْلِ سَيْلٍ ، أَعْبَدُوا تَوَلَّدَ ، لِحُتْمِهِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُرْجِزَكَ الْعَتَّةُ عَنِ الْحَقِّ ، كَمَا تَخْرُجُ عَنِ الصَّبْرِ ، وَهَذِهِ عِنْدَ صِرِّ الْبَهَاءِ الَّتِي يَسْعَى لِمُؤْمِنِينَ الْكَمَالُ نَهْجٌ ، أَيْمَانٌ ، وَعَمْرٌ صَالِحٌ ، وَقَوْمٌ مَالِحٌ ، وَتَوَاصَى بِالصَّبْرِ .

وقوله سبحانه ﴿ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [الحج] (١١) ﴿ الْحِمَاتُ هِيَ الْحِدَائِقُ وَالْبُسَيْطَاتِيں أَمْثِلَةٌ بِأَنْوَاعِ الْمَتْنِ الزَّرْعِ ، وَالْخَصْرَةُ ، وَالْبَضَارَةُ ، وَالزُّهْرُ ، وَالرَّثْعَةُ الْعَصَا وَهَذِهِ كُلُّهَا بَعْدَ الْمَاءِ ، لَدَاكَ قَالِ ﴿ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [الحج] (١) وَمَعْنَى ﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ [الحج] (١٤) أَنَّ الْمَاءَ دَاتِيٌ فِيهَا ، لَا بِأَثَرِهَا مِنْ مَكَانٍ لَحَرٍ رِمَا يَنْقَطِعُ عَنْهَا كَمَا جَاءَ فِي آيَةِ أُخْرَى ﴿ تَجْرَى تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [التوبة] (١٠) .

ثم يقول سبحانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [الحج] (١) لَاهِ سُبْحَانَهُ لَا يَعْجزُ شَيْءٌ ، وَلَا يَعْالجُ أفعاله كَمَا يَعْالجُ الْبَشَرُ أفعالهم ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس] (٨٢) .

(١) أى : شَيْءٌ مِنْ مَضَامٍ وَيَعْبُدُ مِنْ شَيْءٍ ، فَلَمْ يُمْسِكِ الْجَنَّةَ بِحُكْمٍ وَجَدَ الصِّدْقَ بِطَبْعِهِ وَالْكَافِرِينَ الْبَارِ بِمَا سَيَرَى مِنْ عَذَابِهِ [قَالَ الْفَرَطِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ٦ : ١٥٥٢] .

ولو تأملت هذه الآية لوجدت الشيء الذي يريده الله ويأمر بكونه موجوداً في الحقيقة ، بسبيل أن الله تعالى يخاطبه ﴿ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٧) [يس] فهو - إذن - كائن فعلاً ، وموجود حقيقة ، والأمر هنا إنما هو لإظهاره في عالم المشاهدة .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ مَنْ كَانِ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ
كَيِّدُهُ مَا يَغِيظُ ۝ ١٥ ﴾

(يظنُّ) تفيد علماً غير يقيني وغير متأكد ، وسبق أن تكلمنا في نسبة القضايا ، فهناك حكم محكوم به ومحكوم عليه ، تقول : زيد مجتهد ، فانت تعتقد في نسبة الاجتهاد لزيد ، فإن كان اعتقادك صحيحاً فتستطيع أن تقدم الدليل على صحته فتقول : بدليل أنه ينجح كل عام بتفوق .

أما إذا اعتقد هذه القضية ولم يقدم عليها دليلاً كان سمع الناس يقولون زيد مجتهد ، فقال مثلهم ، لكن لا دليل عنده على صدق

(١) ورد في هذه الآية ثلاثان لها

١ - من كان يظن أن لن ينصره الله مجداً ^(١) في الدنيا والآخرة فلهمدد بسبب أي جعل إلى السماء - أي - سماء بيته - ثم ليقطع أي - ثم ليقتطع به - قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وحطاب وقتادة وغيرهم

٢ - من كان يظن أن لن ينصره الله نبياً ويؤكد هذا الأمر ليقطعه عنه ، فليقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه لأن أصله في السماء (ثم ليقطع) أي . من اثنين الوحي الذي يأتيه من الله إلى قلبه ، قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

قال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢١) : قول ابن عباس وأصحابه أولى وتظهر في المعنى وأبلغ في التذكير . وانظر الدر المنثور للسيوطي (١٦ / ١٠٦) وقد قال الشيخ الشمراني رحمه الله عليه - بكلا القولين ، فكلاهما صحيح معتمد والله أعلم

هذه المقولة ، كالطفل الذي نُلْقَتْهُ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]
هذه قضية واقعية يعتقدها الولد ، لكن لا يستطيع أن يُقدِّم الدليل
عليها إلا عندما يكبر ويستوى تفكيره .

فمن أين أخذ الطفل هذه القضية واعتقدها ؟ أخذها من المأمون
عليه . من أبيه أو من أستاذه ثم قلده إذن إن كنت القضية
واقعة ، لكن لا تستطيع أن تقيم الدليل عليها فهي تقليد . فإن اعتقدت
قضية واقعة ، وأقمت الدليل عليها ، فهذا أسمى مراتب العلم . فإن
اعتقدت قضية غير واقعية ، فهذا جهل .

فالجاهل . مَنْ يعتقد شيئاً غير واقع ، وهذا الذي يُتعب الدنيا
كلها . ويُسْقَى مَنْ حوله ، لأن الجاهل لامي الذي لا يعلم شيئاً ،
وليس لديه فكرة يعتقدها صفحة بيضاء ، تستطيع أن تقنعه بالحقيقة
ويقبلها منك لأنه خالي الذهن ولا يعارضك

أما الجاهل صاحب الفكرة الخاطئة فيحتاج منك أولاً أن تقنعه
بخطأ فكرته حتى يتنازل عنها ، ثم تلقى إليه بالفكرة الصواب .

فإن تشككت في النسبة بحيث استوت عندك نسبة الخطأ مع
نسبة الصواب ، فهذا هو الشك . فلا تستطيع أن تجزم باجتهاد زيد .
ولا بعدم اجتهاده ، فإن غلب الاجتهاد فهو ظن . فإن غلب عدم
الاجتهاد فهو وهم .

إذن : نسبة القضايا إما عظم تعتقده . وهو واقع وتستطيع أن
تقيم الدليل عليه ، أو تقليد : وهو ما تعتقده وهو واقع ، لكن لا تقدر
على إقامة الدليل عليه . أو جهل : حين تعتقد شيئاً غير واقع ، أو
شك . حين لا تجزم بالشئ ويستوى عندك النفي والإثبات . أو
ظن . حين تُرجح الإثبات ، أو وهم . حين تُرجح النفي .

فالظن في قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ ﴾ (١٥) [الحج] أى . يمر بجياطره مجرد مرور أى الله لن ينصر محيلاً أو يتوهم ذلك - ولا يتوهم ذلك إلا الكفار - لأنهم يأمنون بالله فى معركة الإيمان والكفر من ظن هذا انظر فعليه أن يسهى عنه . لأنه أمر بعد ، لن يحدث ولن يكون

وقد ظن الكفر هذا الظن حين رأوا بوادر نصر الإيمان وعلامات فوزه ، فاعتظوا لذلك - وهم يجدوا شيئاً يريح خاطرهم إلا هذا الظن ذلك . يره الله صيغهم عليهم ، فيقول لهم ستظنون بغيظكم لأن النصر للإيمان ولجنوده مستمر ، فليس أملك إلا أن يحسن حذراً فى السماء وتربط عنقك به . تشق نفسك حتى تقع ، فلو كان هذا الكيد لنفسك نجحت من الغيظ فاعن

﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ مِنْ يَدَيْهِ كَيْدَهُ مَا يَغِيبُ ﴾ (١٥) [الحج]

لكن ما الغيظ ؟ الغيظ خروج من لعصب مصحوب ومشوب بحرر وأسى وخسرة حينما ترى واقعاً يحدث أمام عينيك ولا يرضيك وفى الوقت نفسه لا تستطيع أن تفعل شيئاً تمنع به ما لا يرضيك

وهذه المادة (غيظ) موجودة فى مواضع أخرى من كتاب

(١) وردت هذه المادة فى القرآن الكريم

- يغيظ الفعل المضارع ورد ٣ مرات (التوبة ١٢٠) (الحج ١٥) (الفتح ٢٩)

- الغيظ الاسم مفعول بالورد ٤ مرات (آل عمران ١١٩) (التوبة ١٥) (الملك ٨)

بغيتكم ، الاسم قبله حرف الجر الياء ومضاف إلى ضمير المحاطب للجميع ورد مرة واحدة (آل عمران ١١٩)

- يغيب الاسم قبله حرف الجر الواو ومضاف إلى ضمير العينة للجميع ورد مرة واحدة (الأحزاب ٢٥)

- لماثلون اسم التامل الجميع مؤنك باللام ورد مرة واحدة (الشعراء ٥٥)

- تغيظ مصدر التعليل تغيظ ورد مرة واحدة (الفرقان ١٢)

الله . وقد استعملت حتى نجمانات اخرى لا تحس ، اقرأ قول الله تعالى
عن النار ﴿ تَكَادُ تَمَيِّرُ مِنَ النَّمِيطِ ۝ (٨) ﴾ [العنك] وقال ﴿ إِذَا رَأَوْهُمْ
مِنْ مَكَابٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا دَغِيطًا وَرَفِيرًا ۝ (٩) ﴾ [المزقات] فكان النار معقضة
من هؤلاء . تتأهب لهم وتتطهرهم .

والغيط يقع للمؤمن والطكافر ، محبين يرى عناد الكفار وسحريةتهم
واسدهاءهم بالإيمان نغاط ولكن يذهب الله غيط قلوبهم ، كما قال
سبحانه ﴿ وَيَذْهَبُ عِظْ قُلُوبِهِمْ ۝ (١٥) ﴾ [التوبة]

أما عيط الكافر من ثمر الإيمان فسوف يثقى في قلوبهم ، وربما
- سبحانه وتعالى يقول لهم ثقوا تماماً أن الله لم يرسل رسولاً إلا
وهو ضامن أن ينصره ، فإن خطر بدالكم خلاف ذلك فس يربحكم
ويشفي عيظكم إلا أن تشنلوا أنفسكم ، لذلك خاطبهم الحق سبحانه
في آية أخرى فقال ﴿ قُلْ مَوْتُوا بَعِظْكُمْ ۝ (١١٩) ﴾ [آل عمران]

رمعي ﴿ قَلْبِي مَدَّةٌ بِسَبِّ إِيَّيْ لِمَاءٍ ۝ (١٢) ﴾ [الحج] ﴿ فَيَنْدَدُ
(١٥) ﴾ [الحج] من مد لشيء يعنى أطاله بعد أن كان محتملاً ،
ومنه قوله تعالى ﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا ۝ (٩) ﴾ [الجم] فكما تسير تحد
أرضاً ممتدة بيس لها نهاية ، وليس لها حافة

واسبب الحصر ، يخرجون به الماء من الثر ، لكن هل يستطيع
أحد أن يربط حبلاً في السماء ، إذن علق المسألة على محال ،
وكأنه يقول لهم حتى إن أردتم شيق أنفسكم هل تستطيعوا ،
وسوف تصور هكذا بعظكم

أو يكون المعنى ﴿ إِلَى السَّمَاءِ ۝ (١٥) ﴾ [الحج] يعنى سماء
ابيت وسقفه كمر يشق نفسه في سقف ابيت

ويمكن أن نفهم (السبب) على أنه أي شيء يوصلك إلى السماء ،
وأي وسيلة للصعود ، فيكون المعنى خذوا أي طريقة توصلكم إلى
السماء لتمنعوا عن محمد أسباب النصر ؛ لأن نصر محمد يأتي من السماء
فامنعوه ، وهذه أيضاً لا يقدرن عليها ، وسيظل عيظهم في قلوبهم .

وتلاحظ أنه يتكلم عن محمد ﷺ ، مع أن الآية لم تذكر شيئاً
عنه ، وكل ما جاء في الآية ضمير الغائب المفرد في قوله تعالى
﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ .. ﴾ (١٥) [الحج] والحديث موجه للكفار
المغتالين من بواصر النصر لركب الإيمان ، فقوله : ﴿ يَنْصُرُهُ .. ﴾ (١٥) [الحج]
ينصر من ؟ لا بد أنه محمد ، لماذا ؟

قالوا . لأن الأسماء حينما تُطلق تدلُّ على معانٍ ، فعندما تقول
« سماء » نفهم المراد ، وعندما تقول « قلب » نفهم « نور » نعرف
المراد . والأسماء إما اسم ظاهر مثل محمد وطى وعمر وأرض
وسماء ، وإما ضمائر تدل على هذه الأسماء الظاهرة مثل أنا ، أنت ،
هو ، هم . والضمير مبهم لا يُعيّنهُ إلا التكلم ، فانت تقول أنا وكذلك
غيرك يقول أنت أو نحن ، فالذي يُعيّن الضمير المتكلم به حال الخطاب ،
فمُعْذرة الفهم في الضمائر ذات المتكلم وذات المخاطب . فإن لم يكن
متكلماً ولا مخاطباً فهو غائب ، فمن أين تأتي بقريئة التعريف للغائب ؟

حين تقول هو ، هي ، هم . من المراد بهذه الضمائر ؟ كيف
تُعيّنُها ؟ إن عيّنت المتكلم بكلامه ، والمخاطب بمخاطبته ، كيف تُعيّن
الغائب ؟ قالوا لا بد أن يسبقه شيء يدل عليه ، كأن تقول جاءني
رجل فأكرمته ، أكرمت من ؟ أكرمت الرجل الذي تحدثت عنه ،
جاءتني امرأة فأكرمتها ، جاء قوم فلان فأكرمتهم . إذن - فمرجع
الضمير هو الذي يدل عليه .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ
وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ (١٦)

قوله ﴿أَنْزَلْنَاهُ .. (١٦)﴾ [الحج] أي : القرآن ، لأن الضمير هنا كما ذكرنا مرجعه مُتَعَبِّرٌ ، وما دام مرجعه مُتَعَبِّرًا فلا يحتاج لذكر سابق والإمرال يحمل معنى العلو ، فإن رأيتَ في هذا التشريع الذي جاءك في القرآن ما يشقُّ عليك أو يحولُ بينك وبين ما تشتهيهِ نفسك ، فاعلم أنه من أعلى منك ، من الله ، وليس من عَسَاوٍ لك ، يمكن أن تستفرك عليه أو تناقشه . لماذا هذا الأمر ؟ وبماذا هذا الدهى ؟ فطالما أن الأمر يأتيك من الله فبماذا يدانُ تسمع وتطيع ولا تناقش

.. ولقد أُسْـرِيَ في هذا التسليم بسيدنا أبي بكر لما قالوا له إن صاحبك بقور إنه أُسْـرِيَ به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، ثم عُرِج به إلى السماء ، فما كان من الصديق إلا أن قال إن كان قال فقد صدق^(١) ، هكذا دوي مناقشة ، فالامر من أعلى ، من الله

وقلنا إنك لو عُدْت مريضاً فوجدتَ جوارره كثيراً من الأدوية فسألته لماذا كل هذا للدواء ؟ قال لقد وصفه الطبيب ، فأجذت تعترض على هذا الدواء بوقتنك من تفاعلاته وأضراره وعناصره ، وأقحمت نفسك في مسألة لا تدخلُ لك بها

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٢٦٨) ، وأخرجه الحاكم في مستدرقه (٢/ ١٢) وصححه وأقره الذهبى من حديث عائشة رضي الله عنها

هذا قياس مع العارق ومع الاعتراف بأخطاء الاطباء في وصف
الدواء ، لكن بتوضيح المسألة والله المثل الأعلى ، وصدق القائل
سَبَّحَانَ مَنْ يَرِثُ الْعَلِيْبَ وَطِبَّةٌ وَيُرِي الْمَرِيضَ مَصَارِعَ الْأَسِينَا
إِذْ نَحْبَةُ كُلِّ أَمْرٍ لَيْسَ أَوْ مَعْلَمُ حِكْمَتِهِ : إِنَّمَا يَكْفِي أَنْ نَعْلَمَ
الْأَمْرَ بِهِ

ومعنى ﴿يَاتِ . (١٦)﴾ [الحج] أى عجائب ﴿بَيِّنَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج]
واصحات وسبق أن ذكرنا أن كلمة الآيات تُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ
ثَلَاثَةٍ الآيات الكونية التى تُثَبِّتُ قُدْرَةَ اللَّهِ ، وبها يستقر الإيمان فى
النفوس ، وهذه الليل والنهار والشمس والقمر ، والآيات بمعنى
المعجزات المصاحبة للرسول لإثبات صدق بلاغهم عن الله ، والآيات
لتى يَكُونُ منها القرآن ، وتُسَمَّى د حاملة الأحكام :

فالمعنى هنا ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج] تحمل
كلمة الآيات كُلُّ هذه الصفات : آيات القرآن فيها الآيات الكونية ،
وفيها المعجزة ، وهى ذاتها آيات الأحكام :

ثم يقول سبحانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦)﴾ [الحج] وهذه
من المسائل التى وقف الناس حولها طويلاً ﴿بِضَلٍّ عَنْ بَشَاءٍ وَيَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ .. (١٦)﴾ [النمل] واحتمالها تمسك به من ليس لهم حَقٌّ من
الهداية ، يقولون : لم يَهْدِ اللَّهُ لنا الهداية ، فعماذا تفعل ؟ وما ذنبنا ؟

وهذه وقعة عقلية خائنة ، لأن للوقفة العقلية تقتضى أن تذكر
الشيء وَمَقَابِلَهُ ، أما هؤلاء فقد سبَّهوا العقل للتناقض فى وحدة
وتركوا لآخرى ، فهى - إذن - وقفة تبريرية فالصالح الذى يقول :
لقد كتب الله على الضلال ، فما ذنبى ؟ لصالحاً لم يَقُلْ الطائع الذى
كتب الله له الهداية ، لصالحاً يثيبه ١٩

فلماذا تركتم الخير وناقشتم في الشر ؟

والمعامل في الآيات التي تتحدث عن مشيئة الله في الإضلال والهداية يجد أنه سبحانه قد بين من شاء أن يضلّه ، وبين من شاء أن يهديه ، اقرأ قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٧) [المائدة] إذن كفره سابق لعدم هدايته وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٦٨) [النساء] وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴾ (٥٠) [القصص]

إنما يهدي من آمن به ، أما هؤلاء الذين اختاروا الكفر واطمانوا إليه وركنوا ، فإن الله تعالى يختم على قلوبهم ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، لأنهم أحسبوه فزادهم منه كما زاد المؤمنين إيماناً ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَلَوْا زَادَهُمْ هُدًى .. ﴾ (٦٧) [محمد]

والهداية هنا بمعنى الدلالة على الخير ، وسبق أن ضربنا لها مثلاً ، وقد تعالى المثل الأعلى : هَبْ أَنْكَ تَسْلُكَ طَرِيقًا لَا تَعْرِفُهُ ، فتوقفت عند جندى المرور وسألته عن وجهتك فدلّك عليها ، ووصف لك الطريق الموصّل إليها ، لكن ، هل دلّته لك فكذلك أن تسلك الطريق الذي وُصف لك ؟

بالطبع أنت حرّ تسير فيه أو في غيره فإذا ما حفظت لرجل المرور جميلته وشكرته عليه ، ولمس هو فيك للخير ، فإنه يمسبك بنفسه على حقبات الطريق ، وربما ركب معك ليجتاز بك منطقة خطيرة يخاف عليك منها هذا معنى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَلَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (٦٧) [محمد]

أما لو تعاليت على هذا الرجل ، أو اتهمته بعدم المعرفة بمسالك الطرق ، فإنه يدعك وشأنك ، ويضنّ عليك بمجرد النصيحة

سُورَةُ الْحَجِّ

﴿٩٧﴾

وهكذا ، الحق - سبحانه وتعالى - نلّ المؤمنين ودلّ الكافر على الخير ، المؤمن رضى بالله وقبّل أمره ونهّيه ، وحسد الله على هذه النعمة ، فزاده إيماناً وأعانه على عشقة العبادة ، وجعل له نوراً يسير على هديّه ، أما الكافر فقد تركه يتخبط في ظلمات كفره ، ويتردد في متاهات العمى والضلال .

ثم يقول للحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ^(١) وَالنَّصَارَى
وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

هذه فئات ست أخبر الله عنها بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ .. (١٧)﴾ [الحج] ومعنى الفصل بينهم أن بينهم خلافاً ومعرفة ، ولو تنبعت الآيات التي ذكرت هذه الفئات تجد أن هناك آيتين في البقرة وفي المائدة

يقول تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِغِينَ^(٢) مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

وفي المائدة يُقدّم الصابغين على النصاري ، وفي هذا الموضع تأتي بالرفع بالواو ، يقول تعالى . ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

(١) صبا يصبا خرج من دين إلى دين ، والصابغون يصبغون أنهم على دين نوح عليه السلام وقبل هم عباد الملائكة وقبل عبد الكواكب والتجوس وقبل عبادة النار

[المفسر القويم ١/٣٦٠]

وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا حَرَفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٥﴾ [المائدة]

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج] (١٧) أي بمحمد ﷺ ، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ (١٧) [الحج] أي اليهود ، ثم انصاري وهما قبل الإسلام ، أما الصابئون فهؤلاء جماعة كانوا على دين إبراهيم عليه السلام ، ثم عبدوا الكواكب فسُمُّوا الصابئة لخروجهم عن دين الحق أما المجوس فهم عبدة النار والذين أشركوا هم المشركون عبدة الأصنام والأوثان .

أما التقديم والتأخير بين انصاري والصابئين ، فقالوا لأن انصاري فرقة كبيرة معروفة وبهم منى ، أما الصابئة فكانوا جماعة حرحوا على نبيهم وخالفوه وأثروا بعتيدة غير عقيدته ، فهم قلة ، لكن سبقوا النصاري في الترتيب الزمني ، لذلك حين يراعى السبق الزمني يقول ﴿الصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ﴾ (١٧) [الحج] ، وحين يراعى الكثرة والشهرة ، يقول ﴿النَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ﴾ (٦٥) [السورة] فكل من التقديم أو التأخير مراد لمعنى معين

أما قوله ﴿وَالصَّابِقُونَ﴾ (٦٥) [المائدة] بالرفع على خلاف القاعدة في العطف ، حيث عطفت على منصوب ، والمنعطف تابع للمعصوف عليه في إعرابه . فلماذا وسطاً مرفوعاً بين منصوبات ؟

قالوا لا يتم الرفع بين المنصوبات إلا بعد تمام الجملة ، مكانه قال إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ، والصابئون كذلك ، فعطف هنا جملة تامة ، فهي مؤخرَةٌ في المعنى ، مُقدِّمة في اللفظ وهكذا تشمل الآية التقديم والتأخير السابق

لكن ، كيف يمشا الخلاف بين الأديان ؟

يُنشأ الخلاف من أن قوماً يؤمنون بالله ويؤمنون بالنبي لم يبلغ من عبادة الإله ، لكنهم يختلفون على أشياء ربما بينهم ، كما ترى الخلاف مثلاً بين المعتزلة وأهل الحنابلة ، أو الجبورية والقدورية ، فجماعة نشأت الصغيات ، وآخرون يُكرونها ، جماعة يقولون الإنسان مُجْتَرٍ في تصرفاته ، وآخرون يقولون بل هو مختار .

وقد ينشأ الخلاف بين الأديان ، للاختلاف في البواطن ، فإهل الديانات يؤمنون بالإله ، إلا أنهم يختلفون في الأنبياء موسى وعيسى ومحمد مع أنهم جميعاً خلقوا . وقد ينشأ الخلاف من الادعاء ، كالدين يدعون النبوة كهؤلاء الذين يعبدون النار ، أو يعبدون بورداً مثلاً .

هذه ست طوائف مختلفة ذكرتهم الآية ، فما حكم هؤلاء جميعاً بعد بعثة محمد ﷺ ؟

نقول أما المشركون الذين عبدوا الأصنام ، وكذلك الذين عبدوا السموات المدعاة ، فهؤلاء كفار صائغون أما اليهود والنصارى الذين يؤمنون بالله قائل مختار ، ويؤمنون بسورة صادقة ، بشأنهم بعد ظهور الإسلام ، أن الله تعالى أقام لنا تصفية آخر الأمر لهذه الدلائل ، فمن كان يهودياً قبل الإسلام ، ومن كان نصرانياً قبل الإسلام ، فإن الله أجرى لهم تصفية عقيدة هي الإسلام ، فإن كانوا مؤمنين بالإيمان الأول بالله تعالى فعندهم أن يبدأوا من جديد مؤمنين مسلمين .

لذلك قال تعالى : ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة)

بعد ظهور الإسلام بدأت هؤلاء جميعاً - اليهود والنصارى

والمجوس والمشركين - حياة جديدة ، وفتحت لهم صفحة جديدة هم فيها أولاد اليوم ، حيث لزمهم جميعاً الإيمان بالله تعالى والإيمان بنبيه محمد ﷺ ، وكان الإسلام تصفية (وأوكازيون إيماني) يجب ما قبله ، وعفا الله عما سلف .

ولحق - سبحانه - حينما تكلم عن الأجيال السابقة لنبوّة محمد ﷺ . قال ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٨٩)

[آل عمران]

لذلك نبّه كل من موسى وعيسى - عليهما السلام - بوجود محمد ﷺ وبشّروا به ، بدليل قول الله تعالى ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مَا عَرَفْتُمْ كَفَرُوا بِهِ .. ﴾ (٨٩) [البقرة] والمراد اليهود والنصرى

وقد جاء محمد ﷺ رحمة للعالمين ، وجامعاً للأديان كلها في الإسلام الذي زاد عليها ما زاد مما تقتضيه أمور الحياة وتطورات العصر ، إى أن تقوم الساعة .

جاء الإسلام تصفية لهؤلاء ، استأنفوها بإيمان ، واستأنفوها بعمل صالح ، فكان لهم لجرهم كاملاً عند ربهم لا يطمعن فيهم دينهم السابق ، ولا عقابهم الفاسدة الكافرة .

أما إن حدث خلاف حول النبوات كما تذكر الآية التي نحن بصددنا ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٧٧) [الحج] والفصل أن نعرف من الحق ومن المبطل ، وهكذا جمعت

(١) الإصر العهد والعقد والميثاق [لسان العرب - مادة إصر] .

الآيات بين حالة الاتفاق وحالة الاختلاف وبيّنت جزاء كل منهما
فالفصل إما فصل أماكن ، وإما فصل جزاءات ، قالوا : بالطبع
فالحكم بينهم : هذا مُحَقٌّ وهذا مُبْطَلٌ سيؤدى إلى اختلاف الأماكن
واختلاف الجزاءات

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج] لان الله
تعالى هو الحكم الذى يفصل بين عباده ، والحكم يحتاج إما إلى بيّنة أو
شهود ، والشهود لا بُدَّ أن يكونوا عدولاً ، ولا يتحقق العدل فى الشهادة
إلا بدين يمنع الإنسان أن يميل عن الحق ، فإن كان الحكم هو الله فلا
حاجة لبيّنة ، ولا حاجة لشهود ، لانه سبحانه يحيط علمه بكل بشىء ،
ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض .

ومن العجيب أن الحكم والفصل من الحق سبحانه يشمل كل
السلطات - التشريعية والقضائية والتنفيذية ، فحكمه سبحانه لا يُؤْجَلُ
ولا يُتَحَايَلُ عليه ، ولا تصيب فيه الحقوق كما تضيع فى سراييب
وأدراج المحاكم

أما حُكْمُ البشر فينفصل فيه التشريع عن القضاء عن التنفيذ ، فربما
صدر الحكم وتعمّل تنفيذه ، أما حكم الله فنافذ لا يُؤْجَلُهُ شىء .

إذن المسألة لن تمر هكذا ، بل هى محسوبة لك أو عليك .
ثم يقول الحق سبحانه .

﴿الَّذِينَ لَا يَرْأَوْا اللَّهَ يُسْجَدُ لَهُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ
وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ
اللَّهُ فَعَالَهُ مِن مُّكَرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

قوله تعالى : ﴿الْمُتَرَفِّعِينَ﴾ [الحج] يعنى : ألم تعلم ، لان السجود من هذه الاشياء سجود على حقيقته كما تعلمه من اليهود من أنفسهم . ولكل جنس من أجناس الكون سجود بخاصية . وسبب ان تحدثنا عن احساس الكون وهى أربعة : أدناها الجماد ، ثم بلوه النبات ، حيث يزيد عليه خاصية النمو وخاصية الحركة ، ثم يليه الحيوان الذى يزيد خاصية الإحساس ، ثم يليه الإنسان ويزيد عليه خاصية الفكر والاختيار بين البدائل .

وكل جنس من هذه الأجناس يخدم ما هو أعلى منه حيث تنتهى هذه الدائرة بأن كل ما على كونه الله مُسَخَّرٌ لخدمة الإنسان ، وفى الصبر : يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك ، وخلقْتُ من أجلى ، فلا تشتغل بها هر لك عمن أنت له .

فكان على الإنسان أن يفكر فى هذه امييزة التى منحه ربه إياها ، ويعلم أن كل شيء من الوجود مهما صَغُرَ فله مهمة يؤديها ، ودور يقوم به ، فأولى بك أيها الإنسان وأنت تشيد هذا الكون أن يكون لك مهمة وأن يكون لك دور فى الحياة فست باقى من هذه المخلوقات التى سَخَّرَهَا الله لك ، ولأُ صِرْتَ أَقْلَ مَعَهَا وَأَوْفَى .

إن كانت مهمة جميع المخلوقات أن تخدمك لانك أعلى منها ، فانظر إلى مهمتك لمن هو أعلى منك ، فإذا خدعك رسول من أعلى منك لينبئك إلى هذه المهمة كان عليك أن تشكره لانه ينبئك إلى ما ينبغي لك أن تشتغل به ، وإلى من يجب عليك الاتصال به دائماً . لذلك الرسول لا يصح أن تصرف عنه أُنْثَاءً لانه يَرْصُحُ لَكَ مَسَائِلَ كثيرة هى محل للمحذ العقلى .

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٢٨) : وروى فى بعض الكتب الإلهية يقول الله تعالى : يا ابن آدم خلقتك لعمادتي فلا تفتن . ولكنت جوارحك لئلا تشعب . فاطمئن بعبدي من وجدتي وجدته كل شيء . وإن فُتِكَ فافتك كل شيء . وأنا أحب إليك من كل شيء . وقد أخرج أحمد فى مسنده (٢/ ٣٥٨) عن أبي هريرة رفته ، قال الله : يا ابن آدم يقترع بعبادتي ملا صدوق ففتى وأسد فترك ولا تحمل ثلاث سمورك شغلاً ولم أصد مرقن .

وكان على العقل البشري أن يفكر في كل هذه الاعناس التي
تخدمه . ألك قدرة عليها ؟ لقد خدمتك منذ صغرك قبل أن تُرجع إليها
أمراً . وقبل أن توجد عندك القدرة لتأمر أو لتتأول هذه الأشياء .
كان عليك أن نميه إلى القوة الأعلى منك ومن هذه المخلوقات . القوة
التي مسخرت الكون كله لخدمتك . وهذا بحث طبيعي لا بد أن يكون ...
هذه الأشياء هي خدمتها لله لم تتأبه عليك . ولم تتحلف يوماً عن
خدمتك . انظر إلى الشمس والقمر وغيرهما أقالت الشمس يوماً
إن هؤلاء أقدم لا يستحقون المعروف . فلن أطلع عليهم اليوم ؟
الأرض . هل خدمت في يوم عليّ رابعها ؟ الريح هل توقفت عن
الهبوب وكلها مخلوقات أقوى منك . ولا قدرة لك عليهما . ولا
تستطيع سحرهما . إني هي في قبضة الله . عز وجل . ومُسخرة لك
بأمره سبحانه . ولأنها مُسخرة فلا يتحلف أبداً عن أداء مهمتها
أما الإنسان فبأنى منه لفساد . وبأنى منه الخروج عن الطاعة لما
منحه الله من منطقة الاختيار .

البعض يقول عن سجود هذه المخلوقات أنه سحود كاذب .
لا سحوداً على حقيقته . لكن هذا القول يعارضة قول الله تعالى :
﴿ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَاتِّعَابَهُ .. ﴾ [سورة]

فلعل مخلوق مهما صغر ملاءة وتسيب وسجود . يتناسب
وطبيعته . إنك لو تأملت سجود الإنسان بحقيقته على الأرض لوجدت
اختلافاً بين الناس باختلاف الأحوال . وهم طوع وإكراه . فسجود
الصحيح غير سجود المريض الذي يسجد وهو على الفراش . أو
حائض على سقم . وربما يشير بعينه . أو أصبعه للدلالة على
السجود . فإن لم يمتنع أجرى السجود على خطئه .

فإذا كان السجود يختلف بهذه الصورة في الجنس الواحد حسب حاله وقدرته وطاقته ، فلماذا نستبعد أن يكون لكل جنس سجوده الخاص به ، والذي يتناسب مع طبيعته ؟

وإذا كان هذا حال السجود في الإنسان ، فهل ننتظر مثلاً أن نرى سجود الشمس أو سجود القمر ؟! ما دام الحق - سبحانه وتعالى - قال : ﴿ إِنَّمَا تَسَجَّدَ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤْمِنَ بِسُجُودِهَا ، لَكِنْ عَلَى هَيْئَةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا حَافِقُهَا عَزَّ وَجَلَّ . ﴾

بالله ، لو جلس مريض يصلي على مقعد أو على الفراش ، أتعرف وهو أمامك أنه يسجد ؟ إذن كيف نطمح في معرفة كيفية سجود هذه المخلوقات ؟

ومن معاني السجود : الخضوع والطاعة ، فمن يستبعد أن يكون سجود هذه المخلوقات سجوداً على الحقيقة ، فليعتبر السجود هنا للخضوع والانقياد والطاعة ، كما تقول على لسان متكبر جاء ساجداً يعنى : خاضعاً ذليلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائِمَّا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (١١)

[المست]

إذن ، لك أن تفهم السجود على أي هذه المعاني تحب . فلن تخرج عن مراده سبحانه ، ومن رحمة الله أن جعل هذه المخلوقات خاضعة لإرادته ، لا تنحل عنها أبداً ولا تتحلف ، كما قال سبحانه ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَتَيْنَ أَنْ يُحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢)

[الاحزاب]

ونحن نتنقل الآن ، ونروى بعض حوارات للمسلمين وأهل المعرفة وأصحاب الفيوضات الذين فهموا عن الله وتذوقوا لذة قربيه ، وكانوا يتحاورون

ويتنافسون لا للمباهاة والافتخار، إنما للترقى في القرب من الله

جلس اثنان من هؤلاء العارفين وفي قم أحدهم نخمة يريد أن يبصقها ، وبدأ عليه الصبرة ، وهو ينظر هنا وهناك فقال له صاحبه: ألقيها واسترح ، فقال : كيف وكلما أردت أن أبصقها سمعت الأرض تسبح باستحيث أن ألقيها على مسبح ، فقال الآخر - ويبدو أنه كان في منزلة أعلى منه - وقد افعل البصق وقال مسبح في مسبح .

إذن : فاهل الكشف والعارفون بالله يدركون هذا التسبيح ، ويعترفون به ، وعلى قدر ما لديك من معرفة بالله ، وما لديك من فهم وإدراك يكون تلقيك وتقبلك لمثل هذه الأمور الإيمانية

والحق - سبحانه وتعالى حين قال ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٨) [الحج] معلوم أن من في السموات هم الملائكة وأسما منهم ، لكن نحن من أهل الأرض ويشملنا حكم السجود وتدخل في مدلوله ، فلماذا قال بعدها : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴾ (١٨) [الحج] ؟

كلمة : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴾ (١٨) [الحج] تبين أن لنا قهرية وتسخيراً وسجوداً كباقي أجناس الكون ، ولنا أيضاً منطقة اختيار . فالكاثر الذي يتمرد التمرد على خالقه : يأمره بالإيمان فيكفر ، ويأمره بالطاعة فيعصى ، فلماذا لا يتمرد على طول الخط ؟ لماذا لا يرفض المرض إن مرضه الله ؟ ولماذا لا يرفض الموت إن حل به ؟

إذن الإنسان مؤتمر بأمر الله مثل الشجر والحجر والحيوان ، ومنطقة الاختيار هي التي نشأ عنها هذا الانقسام كثير آمن ، وكثير حق عليه العذاب .

لكن ، لماذا لم يجعل الله - سبحانه وتعالى - الخلق جميعاً
مُسَخَّرِينَ ؟

قالوا لأن صفة التسخير وعدم الخروج عن مرادات الله تثبت لله
تعالى صفة القدرة على الكل ، إنما لا تثبت لله المحبوبة المحبوبة
لا تكون إلا مع الاختيار أن تكون حُرّاً مختاراً في أن تؤمن أو تكفر
فتمتار الإيمان ، وأن تكون حُرّاً وقادراً على المعصية ، لكذلك تطيع ،
وهربذاً لذلك مثلاً - والله المثل الأعلى - - هَبْ أَنْ حَضَبَ عَسَدِينَ ،
ترعط أحدهما إليك في سلسلة مثلاً ، وتثوب الآخر حُرّاً ، فإن ماديت عليهما
أجانب ، فأيهما يكون أطوع لك المعهور المجبر ، أم الحر الطليق ؟
إِنَّ التَّسْخِيرَ وَالْقَهْرَ يُثَبِّتُ الْقُدْرَةَ ، وَالْإِخْتِيَارَ تُثَبِّتُ الْمَصَّةَ

والخلافاً الذي حدث من أناس ، فكثير منهم آمن ، وكثير منهم
حق عليه العذاب ، من أين هذا الاختلاف يا رب ؟ مما خلقته فيك من
اختيار ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، فكان كفر الكافر
واختياره ، لأن الله سخره للاختيار فهو حتى في اختياره مُسَخَّرٌ

أما قوله تعالى ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [الحج] يعنى
باختياراتهم ، وكان المعروض أن يقول في مقابلها وقليل لكن
هؤلاء كثير ، وهؤلاء كثير أيضاً

ومعنى ﴿ حَقُّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحج] حق يعنى ثبت ،
فهذا أمر لا بد منه ، حتى لا يستوى المؤمن والكافر ﴿ أَفَجَعَلُ
الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [نجم] إِنْ لَا يُدْرَأُ يَعْقِبُ هَؤُلَاءِ ،
والحق يقتضى ذلك

وقوله سبحانه ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا

يَشَاءُ ﴿١٨﴾ [الحج] لأن أحقية العذاب من مُسألو لك . قد يأتي من هو أقوى منه فيمنعه ، أو يأتي شافع يشفع له . وكان الحق سبحانه وتعالى - يُبَيِّنُ هؤلاء من المُجَافِينَ عَذَابَهُ - على يمينهم أحد

.. فَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ إِهْلَاقَهُ فَلَنْ يُكْرِمَهُ أَحَدٌ - لَا يَنْصُرُهُ وَلَا يَشْفَعُ لَهُ ، فَاَلْمَحْنَى ﴿وَمَنْ يَهَيِّئِ اللَّهُ شَيْئًا فَلَا يُغَيِّرُهُ أَحَدٌ﴾ [الحج] أي : بالعذاب الذي حَقَّ عليه وثبت ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج] يعني . يكرمه ويخلصه من هذا العذاب . كذلك لا يوجد مَنْ يُعْزِزُهُ ، لأن عِزَّهُ لَا تَكُونُ إِلَّا شَقَرًا عَنْ اللَّهِ ، وَهَذَا مُحَالٌ ، أَوْ يَكُونُ بِشَافِعٍ يَشْفَعُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ سُبْحَانَهُ

لذلك ، نقول : إن الحق سبحانه يُجِيرُ عَلَى خَلْفِهِ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، يعني لا أحد يقول لله . ماذا في جوارى . سلك دليل الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج] :

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى^(١)

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصِمَا فِي رِيحٍ فَأَلْزَمَ الْكَيْدَ الْكَافِرَ الْقَطْعُ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾

كلمة خَصِمٌ من الانفاط التي يستوي فيها العفري والمحنى

(١) سبب نزول الآية : هي آية من - وهو الله عنه - أنه كان يلطم قسماً ، إلى هذه الآية ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصِمَا فِي رِيحٍ فَأَلْزَمَ الْكَيْدَ الْكَافِرَ الْقَطْعُ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج] نزلت في الثلاثة والثلاث الذين قُتِلُوا يوم بدر ، وهم حمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وعلي بن أبي طالب . وختمه وشهيداً لينا ربيعة ، والوليد بن عتبة . قال علي رضي الله عنه : أن أول من يجترأ في القصوة على ركبيه بين يدي الله يوم القيامة - أودع الواحد في أسباب النزول من (١٧٦) ، والدر المنثور للسيوطي (١٨/٦) وعزاد التهامي وسلم وغيرهما .

والجمع ، وكذلك المذكر والمؤنث كما في قوله تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسُفِ إِذْ تُسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (٧١) [من]

ويقول تعالى : ﴿خُضَّاعًا بَنِي بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ..﴾ (٧٢) [من]

والمراد بقوله : ﴿خُضَّاعًا ..﴾ (٧٢) [الصح] قوله تعالى : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ..﴾ (١٨) [الصح] والخصومة تحتاج إلى فصل بين المتخاصمين ، والفصل يحتاج إلى شهود ، لكن إن جاء الفصل من الله تعالى قلن ، يحتاج إلى شهود ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدٌ﴾ (٧٩) [النساء]

وإن جاء عليهم بشهود من أنفسهم ، فإنما لإقامة الحجة ولتقريبهم ، يقول تعالى ﴿وَقَالُوا لِمَ لَمْ يَشْهَدُوا عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ..﴾ (٧١) [فصلت]

فإن قلت كيف تشهد الجوارح على صاحبها يوم القيامة وهي التي فعلت ؟

نقول ، هناك فرق بين عمل أريده وعمل أؤديه ، وأما أبغضه وضربنا لذلك مثلاً - وفي المثال الأعلى - بالقائد الذي يأمر جنوده ، وعليهم أن يطيعوه حتى إن كانت الأوامر خاطئة ، فإن رجعوا إلى القائد الأعلى حكوا له ما كان من قائدهم : ذلك لأن القائد الأعلى جعل له ولاية عليهم ، والزمهم طاعته والالتزم بأمره

فالمخلوق - عز وجل - جعل لإرادة الإنسان ولاية على جوارحه ، فالفعل - إنن - للإرادة ، وما الجوارح إلا أداة للتنفيذ ، فحينما تريد مثلاً أن تقوم ، مجرد أن تريد ذلك تجد نفسك قائماً دون أن تفكر في حركة القيام أو العضلات التي تحركت لتؤدي هذا العمل ، مع أنها

عملية مُعقَّدة تتضافر فيها الإرادة والعقل والأعصاب والأعضاء ، وأنت نفسك لا تشعر بشيء من هذا كله ، وهل في قيامك لموت الجوارح أن تتحرك فتتحرك ؟

فإننا كانت جوارحك تنفعل لك وتطاعك لمجرد الإرادة ، أفلا يكون أولى من هذا أن ينفعل خلق الله لإرادة الله ؟

إذن ، العدة في الأفعال ليست الجوارح وإنما الإرادة ، بدليل أن الله تعالى إذا أراد أن يُعطل جارحة من الجوارح عطل الإرادة الأمرة ، وقطعها عن الجارحة ، فهذا هي مشلولة لا حركة فيها ، فإن أراد الإنسان تحريكها بعد ذلك فلن يستطيع ، لماذا ؟

لأنه لا يعلم الأبعاد التي تُحرك هذه الجارحة ، ولو سألت أعلم الناس في علم الحركة والذين صنعوا الإنسان الآلي : ما الحركة الآلية التي تتم في جسم الإنسان كي يقوم من نومه أو من جلسته ؟ ولن يستطيع أحد أن يصف لك ما يتم بداخل الجسم في هذه المسألة

أما لو نظرت مثلاً إلى الحفَّار ، وهو يؤدي حركات أشبه بحركات الجسم البشري لوجدت صعباً يشغله باستخدام بعض الأجزاء ، ويستطيع أن يصف لك كل حركة فيه ، وما الآلات التي تشترك في كل حركة ، فقل لي يا الله ، ما الزر الذي تضغط عليه لتحرك يدك أو ذراعك ؟ ما الزر الذي تُحرك به عينيك ، أو لسانك ، أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة منك فيفعل لك ما تريد ؛ لأن الله تعالى خلقك ، وجعل لإرادتك السيطرة الكاملة على جوارحك ، فلا تستبعد أن تنفعل المخلوقات لك - من وجل - إن أراد منها أن تفعل

حتى العذاب في الآخرة ليس لهذه الجوارح والأعضاء ، إنما العذاب للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان إذا تعرض لألم شديد

لا يستريح منه إلا لئن ينام ، فلما استيقظ عوده الألم ، إنسان فاندفس
في القن تالم وتتعذب لا الجوارح .

والحق سبحانه هو الذي يفصل بين هذين الحصنين ، كما قال
سبحانه في آية أخرى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٤٧) [الحج]
لذلك يقول الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه ^٦ أنا أول
من يعثر بين يدي الله يوم القيامة للفصل ومعى عبدة بن الحارث
وحمزة بن عبد المطلب هؤلاء في حاشي وفي الجانب المقابل عتبة
ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ^٧

لماذا ؟ لأن بين هؤلاء كانت أول معركة في الإسلام ، وهذه أول
خصومة وقعت فيه ، ذلك لأهم في معركة بدر أخرج رسول الله ﷺ
قوماً للمبارزة وكانت عادتهم في الضرر أن يخرج اقرباء القوم
وأبطالهم للمنازلة بدل أن يُعذبوا القوم ويشركوا الجميع في القتال
ويُعرضوا أرواح الناس جميعاً للخطر

ومن ذلك ما حدث بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - في
موقعة صفين حيث قال علي لمعاوية ابرر إلي يا معاوية ، فإن
غلبتني فالأمر لك ، وإن غلبتك فاجعل الأمر لي ، فقال عمرو بن
العاص وكان في صفوف معاوية والله ، يا معاوية لقد انصفك
الرجل ، وفي هذا حق لدماء المسلمين في الجانبين

فيظهر معاوية إلى عمرو وقال ، والله يا عمرو ما أردت إلا أن ابرر

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٤٤) قال : أنا أول من يعثر بين يدي الرحمن
للمصومة يوم القيامة ، قال قتادة بن عباد وعبيد بن جراح في هذه الخصمان استصموا في
ربهم (٤٧) [الحج] قال هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن
ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة

له فيقتلني ، ويكون لك الامر من بعدى ، وما دمت قد قلت ما قلت
فلا يبارزه فيرك فاحرج إليه .

فقام عمرو ببارزة على ، لكن أين عمرو من شجاعة على
وقوته ؟ وحمل على عمرو حملة قوية ، فلما أحس عمرو أن على
سيضربه ضربة تميته لجأ إلى حيلة ، واستعمل دهاءه في صرف
على عنه ، فكشف عمرو عن عورته ، وهو يعلم تماماً أن على يتورع
عن النظر إلى العورة ، وفعل تركه على وانصرف عنه ، ونجا عمرو
بحيلته هذه^(١).

وقد عبر الشاعر عن هذا الموقف فقال

وَلَا خَيْرَ فِي رَدِّ الرَّدَى بِدَنِيَّةٍ كَمَا رَدَّهَا يَوْمًا بِسَوَاتِهِ عَمْرُو

ويقول الشريف^(٢) الرضى - وهو من آل البيت - في القصيدة

التي مطلعها

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شَيْمُكَ الصَّبْرُ أَمَا لِلْهَوَى أَمْرٌ عَلِيٌّ وَلَا نَهْيٌ

(١) ذكر ابن كثير في كتابه ، البداية والنهاية . (٦ / ٢٧٤) أن على رضى الله عنه نادى
ويحك يا مصري ابرء إلى ولا تقمى العرب عيني وبينك فقال له عمرو بن العاص
اعتلمه فإنه قد أصاب بقتل هؤلاء الأربعة ، فقال له معاوية والله لقد علمت أن على لم يقهر
قط ، وإنما أردت قتلى التسيب فقلنا من بعدى ، أذهب إليه فليس منكى يمدح وذكرنا
أن على حمل على عمرو بن العاص يوماً فصره بالرمح نالفاً إلى لأرض فبنت سوءته
فرجع عنه ففد له أصحابه مالك يا أمير المؤمنين رجعت عنه ؟ فقال ألتروا ما هو ؟
قالوا لا قال هذا عمرو بن العاص تلقاني بسروته فذكرني بالرحم فرجعت عنه وما
رجع عمرو إلى معاوية قال له ، أجد الله واحد استك

(٢) هو محمد بن الحسين أبو الحسن الرضى الطرى الحسى ، أشهر الطالبين ، مؤيد
٢٥٦ هـ وولاه (٦ / ٤ هـ) في بغداد ، انتهت إليه نقابة الأشراف في حياته وأنه
« المعجرات النبوية » « معارج القدان » « حقائق أمير المؤمنين على بن أبي طالب »
[الإعلام للركلى ٦ / ٩٩]

بَلَىٰ إِنَّا فَتْنَنَا قُلُوبَهُمْ شَرًّا لَّوَلَمْ يَكُن مِّنْهُمْ نَذِيرٌ
وَفِيهَا يَقُولُ

وَأَنَا أَنَسُ لَا تَوَسُّطَ بَيْنَنَا لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوِ الْقَبْرِ
تعود إلى بدر ، حيث اعترض الكفار حينما أخرج لهم رسول الله
بعض رجال الأنصار فقالوا : هؤلاء نكرات من الأنصار ، نريد أن
تُخرج لنا أكفأهم من رجال قريش ، فأخرج لهم رسول الله ﷺ علياً
وحمزة وعبيد بن الحارث بن عبد المطلب ، وأخرجوا هم عتبة وشيبة
والوليد ، وكان ما كان من نُصرة المسلمين وهزيمة المشركين^(١)

وهذا هو اليوم الذي قال الله فيه ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَنْتُمْ
أَذِلَّةٌ فَأْتَوْا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) [آل عمران]

إنَّ فبدر كانت فصلاً دنيوياً بين هذين الخصمين ، ويبقى
فصل الآخرة الذي قال فيه الإمام علي : «أنا أول من يجثو بين يدي
الله يوم القيامة للمصل» .

ومعنى ﴿أَحْصَصْنَاهُمْ فِي رَبِّهِمْ﴾ (١٩) [الحج] أي بسبب
اختلافهم في ربهم . ففريق يزمن بوجود إله . وفريق ينكره ، فريق
يثبت له الصفات ، وفريق يتنقى عنه هذه الصفات ، يعني : انقسموا
بين إيمان وكفر .

(١) ذكر ابن هشام في «اللبيرة المبرية» (١٢٥/٢) أن عتبة بن ربيعة خرج بين أسبه
شعبة بن ربيعة وبين الوليد بن عتبة حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج
إليه ثنية من الأنصار ثلاثة وهم عرف ومُحَرِّز ، ابنا الحارث - ولهما عقراء - ورجل
آخر يقال هو عبد الله بن رواحة - فقالوا من أنتم ؟ قالوا رماة من الأنصار قتلوا
ما لد بكم من حاجة ثم نادى منهم يا محمد ، أخرج إلينا أكفأهم من قريش ، فقتل
رسول الله ﷺ قُتْمَ بْنَ عُبَيْدَةَ بْنَ الْحَارِثِ وَقُتْمَ بْنَ حَنْزَلَةَ وَقُتْمَ بْنَ حُلَيْ ، فلما قتلوا ودلوا
منهم . قالوا من أنتم ؟ قالوا نعم ، أكفأهم ، فبارز عبيدة ، وكان كسوف القمر حنة
بين ربيعة ، وبارز حمزة شعبة بن ربيعة ، وبارز علي الوليد بن حبة .

ثم يُفَصِّلُ الْقَوْلُ : ﴿ قَالَتَيْنِ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) ﴾ [الحج]

﴿ قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ .. (١٩) ﴾ [الحج] كَانَ النَّارُ تَفْصِيلٌ عَلَى قَدَرِ جَسَدِهِمْ إِحْكَامًا لِلْعَذَابِ ، وَمِبَالغةً فِيهِ ، فَلَيْسَ فِيهَا لَتْسَاعٌ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ مِنْ شِدَّتِهَا ، وَلَيْسَتْ فَضْفَاضَةً عَلَيْهِمْ .

ثم ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (٢٠) ﴾ [الحج] وَالْحَمِيمُ : الْمَاءُ الَّذِي بَلَغَ مَتْنَى الْحَرَارَةِ ، حَتَّى حَارَ مِنْ نَفْسِهِ بُخْرًا مِنْ شِدَّةِ حَرِّهِ ، وَلَكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ مَاءً يُغْلِيهِ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ !!

وهكذا يَجْمَعُ اللهُ عَلَيْهِمُ ألْوَانَ الْعَذَابِ : لَأَنَّ الثِّيَابَ يَرْتَدِيهَا الْإِنْسَانُ لِيَسْتُرَ عَوْرَتَهُ ، وَيَتَّقِيَ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ ، فَفِيهَا شَمُولٌ لِمَنْفَعَةِ الْجَسْمِ ، يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَدَّاهَا اللَّهُ لِيَاسٍ الْجُورِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٦٦) ﴾ [النحل]

فَالْإِذَاقَةُ لَيْسَتْ فِي اللَّبَاسِ ، إِنَّمَا يَشْوِيهِ آخَرُ ، وَاللَّبَاسُ يَعْطِي الْإِحَاطَةَ وَلِشَمُولِ ، لَتَعَمَّ الْإِذَاقَةُ كُلَّ أَطْرَافِ الْبَدَنِ ، وَتَحْكُمَ عَلَيْهِ مِبَالغةً فِي الْعَذَابِ .

﴿ يُصْهَرُ بِهِمْ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَلِلْجُلُودِ (٢١) ﴾

قلنا - إِنَّ هَذَا الْمَاءَ بَلَغَ مِنَ الْحَرَارَةِ مَتْنَهَا ، فَلَمْ يَقُلْ عِنْدَ دَرَجَةِ الْحَرَارَةِ الَّتِي نَعْرِفُهَا ، إِنَّمَا يُغْلِيهِ رَبُّهُ الَّذِي لَا يُطَبِّقُ عَذَابَهُ أَحَدًا ، وَأَنْتَ إِذَا صَبَبْتَ الْمَاءَ الْمَغْلَى عَلَى جَسَمِ إِنْسَانٍ فَإِنَّهُ يَشْوِي جَسَدَهُ مِنَ الْخَارِجِ ، إِنَّمَا لَا يَصِلُ إِلَى دَاخِلِهِ ، أَمَّا هَذَا الْمَاءُ حِينَ يُصَبُّ عَلَيْهِمْ

فإنه يصير ما في بطونهم أولاً ، ثم جلودهم بعد ذلك ، فإلهم قنأ عذابك يوم تبعث عبادك .

﴿ وَهُمْ مَقْمَرٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴾ (٢١)

المقمار هي السياط التي تقمع بها الدابة ، وتردعها لئلا تواقع ، أو الإنسان حين تعاقبه ، لكنها سياط من حديد ، ففيها دلالة على البؤس والانكسار ، فضلاً عن العذاب .

ثم يبين الحق سبحانه مهمة هذه المقامع ، فيقول :

﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٢٢)

الحق - سبحانه وتعالى - يُصَوِّرُ حال أهل النار وما هم فيه من العذاب ومن اليأس في أن يُخفف عنهم ، فإذا ما حاولوا الخروج من عَمِّ العذاب جاءتهم هذه السياط فأعدهم حيث كانوا ، والإنسان قد يتعود على نوع من العذاب فيبهون عليه الأمر ، كالمسجون مثلاً الذي يُضْرَب بالسياط على ظهره ، فبعد عدة ضربات يفقد الإحساس ولا يؤثر فيه ضرب بعد ذلك .

وقد أجاب المتنبى^(١) في وصف هذا المعنى حين قال :

رَمَانِي الدُّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى كَأَنِّي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالٍ

(١) المتنبى هو أحمد بن الحسين أبو الطيب الكندي ، ولد (٢٠٢ هـ) بالكوفة في مطلة تسمى كندة ، نشأ بالشام ، ثم تنقل في البادية يجلب الأناب وعلم العربية ، قال الشعر صبيحاً ، ثلباً في بادئة السملوة ، كسر ، أمير حمص وسجله حتى تاب ورجع من دعواه . قرئ ٢٥٤ هـ عن ١٢ عاماً [الأعلام للزركلي ١/١١٥] .

فَكَتَبْتُ إِذَا أَصَابْتَنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتْ النَّصْلُ عَلَى الْفُصَالِ

لَكِنْ أَتَى يَخْفُفُ عَنْ أَهْلِ الْبَارِ ، وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ : ﴿ كَلَّمَآ نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْفَانِهِمْ جُلُودٌ غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ﴾ (٥٦) [النساء]

فَفِي إِعَادَتِهِمْ تَيْسِيرٌ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ طَمَعُوا فِي النِّجَاةِ ، وَمَا أَشَدَّ الْيَأْسَ بَعْدَ الطَّمَعِ عَلَى النَّفْسِ ، لِذَلِكَ يَقُولُونَ : لَا أَفْجِعُ مِنْ يَأْسٍ مَقْمَعٍ ، بَعْدَ أَمْسٍ مَقْمَعٍ كَمَا يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا .. ﴾ (٢٦) [الكهف] سَاعَةً يَسْمَعُونَ الْإِغَاةَ يَأْمَلُونَ وَيَسْتَبْشِرُونَ ، فَيَأْتِيهِمْ الْيَأْسُ فِي ﴿ بَعَادٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الرُّجُومَ .. ﴾ (٦٩) [الكهف] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رَذُّوْا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٢٦) [الحج] الْحَرِيقُ ، الشَّيْءُ الَّذِي يَحْرِقُ غَيْرَهُ لَشِدَّتِهِ .



وَبَعْدَ أَنْ تَحْدَثَتْ الْآيَاتُ عَنِ الْكَافِرِينَ ، وَمَا حَاقَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ كَانَ لَا بُدَّ أَنْ تَتَحَدَّثَ عَنِ الْمَقَابِلِ ، عَنِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُجْرَى الْعَقْلُ مُقَارَنَةً بَيْنَ هَذَا وَذَلِكَ ، فَيَزِدُّهُ الْمُؤْمِنُ تَشَبُّهًا بِالْإِيمَانِ وَتَقَرُّهُ مِنَ الْكُفْرِ ، وَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يَنْتَبِهَ لِعَاقِبَةِ كُفْرِهِ فَيُزْهِدُهُ فِيهِ وَيَرْجِعُ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَهَكَذَا يَنْتَفِعُ الْجَمِيعُ بِهَذِهِ الْمَقَابِلَةِ ، وَكَانَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْطِينَا فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ وَفِي هَذِهِ الْمَقَابِلَاتِ وَسَائِلَ النِّجَاةِ وَالرَّحْمَةِ

يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّفُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُزْلُزًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (٢٣)

يُبَيِّنُ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ السَّكَنُ :
﴿جَمَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ..﴾ [الحج] والزينة . ﴿يُحَلِّوْنَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُزْلُزًا ..﴾ [الحج] واللباس . ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا
حَرِيرٌ﴾ [الحج] فجمع لهم نعم السكَن والزينة واللباس .

ومى الآخرة يُنْعَمُ الرجال بالحرير وبالذهب الذى حُرِّمَ عليهم فى
الدنيا ، وهنا قد يعترض النساء ، وما النعيم فى شيء تنفعنا به فى
الدنيا وهو الحرير والذهب ؟

نعم تتمتعن بالحرير والذهب فى الدنيا ، أما فى الآخرة فهو نوع
آخر ومتعة كاملة لا يُفْصِيهَا شَيْءٌ ، فالطلى للمرأة خالص من
المكثرت رباتي معها لا يأخذه أحد ، ولا تحتاج إلى تغييره أو
بيعه ؛ لأنه يتجدد فى يدها كل يوم ، لقراه على صياغة جديدة وشكل
جديد غير الذى كان عليه^(١) . كما قلنا سابقاً فى قوله تعالى عن أهل
الجنة ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ..﴾ [البقرة]

فحسبوا أن طعام الجنة وفاكهتها كفاكهة الدنيا التى أكلوها من
قبل ، فَيُبَيِّنُ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَفَاكهة الدنيا ﴿رَأَوْا بِهِ مُمِشَابَهَا ..﴾
[البقرة] يعنى . أنواعاً مختلفة للصنف الواحد .

ثم يقول الحق

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا

إِلَى صِرَاطٍ الْحَسِيدِ﴾

(١) أورده الخليل القويم (فى حاشى الأرواح ص ١٨٩) عن كتب الأجداد بهذا اخرج ابن ابي
الدنيا : ان الله عز وجل ملكاً منذ يوم خلق يصور على أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة .
لو انك قلبك من على أهل الجنة اخرج لنعيم يصور شعاع الشمس . فلا تسألوا بعد هذا عن
على أهل الجنة .

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ.. (١٦٩)﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ
وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكْمِ يُظَلَمِ نُزُفُهُ مِن عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾

انتقلتُ بنا الآيات إلى موضوع جديد ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٢٥)﴾ [الحج] بصيغة الماضي ، لأن الكفر وقع منهم فعلاً ﴿وَيَصُدُّونَ .. (٢٥)﴾ [الحج] بصيغة المضارع ، ولقياس أن يقول : كفروا وصدُّوا ، لكن المسألة ليست قاعدة ولا هي عملية آلية ، لأن الصدَّ عن سبيل الله فاشيء عن الكفر وما يزال صدُّهم مستمراً .

ويعنى ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٥)﴾ [الحج] أى : عن الجهاد ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (٢٥)﴾ [الحج] لأنهم صدُّوا المسلمين عن دخوله ، وكان فى قبضتهم وتحت سيطرتهم ، وهذا ما حدث فعلاً فى الحديبية حينما اشتاق صحابة رسول الله إلى أداء العمرة والطواف بالبيت الذى طالبت مدة حرمانهم منه ، فلما ذمبوا منهم كفار مكة ، وصدُّهم عن دخوله .

﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (٢٥)﴾ [الحج] كلمة حرام يُستفاد منها أنه

(١) العاكف فيه والباد أى المنع من الحرم وحوله . والهادى فهو المقيم عنده من سكان البادية ، أو البلاد البعيدة عن الحرم . [القاموس القويم ٢/ ٢١]

(٢) الإلصاق للدخول عن الحق أى من يره فى المسجد فعلاً لا يرضى الله مثلياً بهبل من الحق ومثلياً بظلم [القاموس القويم ٢/ ١٩٠]

مُحَرَّمٌ أَنْ تَفْعَلَ فِيهِ خَطَا ، أَوْ تَهَيِّنَهُ ، أَوْ تَعْتَدِيَ فِيهِ وَكَلِمَةً (الْحَرَامُ) وَصَفَ بِهَا بَعْضَ الْمَكَانِ وَبَعْضَ الزَّمَانِ ، وَهِيَ خَمْسَةٌ أَشْيَاءَ . نَقُولُ : الْبَيْتُ الْحَرَامُ وَهُوَ الْكَعْبَةُ ، وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ ، وَابْلَدُ الْحَرَامِ ، ثُمَّ الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ وَهَذِهِ عِبَارَةٌ عَنْ نَوَاطِرِ مَرْكَزِ الْكَعْبَةِ ، هَذِهِ أَمَاكِنُ ، ثُمَّ الْخَامِسُ وَهُوَ زَمَنُ : الشَّهْرِ الْحَرَامِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَالُوا فِيهِ ﴾ (٢١٧) [البقرة]

وَحُرْمَةُ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ هَذَا لِمَكَّةَ أَرَادَهَا الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ ، لِأَنَّهُ رَبٌّ رَحِيمٌ بِخَلْقِهِ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ فُرْصَةً لِسُتْرِ كِبَرِيَّائِهِمْ ، وَالْخَدُّ مِنْ شُرُورِهِمْ ، وَكَانَتْ تَنْتَشِرُ بَيْنَ الْقَوْمِ الْحُرُوبُ وَالصَّرَاعَاتُ الَّتِي كَانَتْ تُذَكِّي نَارَهَا عَادَاتٍ قَطْلِيَّةً وَسَعَارَ الْحَرْبِ ، حَتَّى أَنْ كَلَّا الْفَرِيقَيْنِ يُرِيدُ أَنْ يَفْنَى الْآخَرَ ، وَرَبِّمَا اسْتَعْمَرُوا فِي الْحَرْبِ وَهُمْ كَارِهُونَ لَهَا ، لَكِنْ يَسْتَعْمِلُهُمْ كِبَرِيَّاؤُهُمْ مِنَ التَّرَاجُعِ وَالْإِنْسَابِ .

لِذَاكَ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِهَذِهِ الْأَمَاكِنِ وَالْأَزْمَنَةِ حُرْمَةً لَتَكُونَ سِتَارًا لِهَذَا الْكِبَرِيَاءِ الرَّائِفِ ، وَلِهَذِهِ الْعِزَّةِ الْبَهِيضَةِ . وَكُلُّ حَنْتٍ يَهْتَاجُ إِلَى زَمَنٍ وَإِلَى مَكَانٍ ، فَحَرَّمَ اللَّهُ الْقِتَالَ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ ، حَتَّى إِذَا مَا اسْتَعَرَتْ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ جَاءَ شَهْرٌ حَرَامٌ ، فَأَنْقَذَ الضَّعِيفَ مِنْ قَبْضَةِ الْقَوِيِّ دُونَ أَنْ يَجْرَحَ كِبَرِيَاءَهُ ، وَرَبِّمَا مَرَّ رَأْسُ قَاتِلٍ لَوْلَا الشَّهْرُ الْحَرَامُ كُنْتَ فَعَلْتَ بِهِمْ كَذَا وَكَذَا .

فَهَذِهِ - إِذَنْ - رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ ، وَسِتَارٌ يَحْمِيهِمْ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِهِمْ وَنَرَوَاتِهَا وَيَحَقِّقُنْ لِمَعْنَاهُمْ .

وَمِنْ أَشْبَهِ كِبَرِيَاءِ الْعَرَبِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بَكَبَرِيَاءِ زَوْجَيْنِ تَعَاَصَمَ عَلَى مَضْمَنٍ ، وَيُرِيدُ كُلُّ مِنْهُمَا أَنْ يَأْتِيَ صَاحِبَهُ ، لَكِنْ يَنْعِيهِ كِبَرِيَّاؤُهُ أَنْ يَتَنَازَلَ ، فَجَلَسَ الرَّجُلُ فِي غُرْمَتِهِ ، وَأَغْلَقَ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهِ ، فَظَهَرَتْ الزَّوْجَةُ ، فَإِذَا بِهِ يَرْفَعُ يَدَيْهِ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ تُصَالِحَهُ زَوْجَتَهُ ،

فذهبت وتريت له ، ثم دفعت الباب عليه وقالت - وكان أحداً يُجبره
على الدخول - (مُودِيَانِي فِين يَأْم مَاشَم)

وكذلك ، جعل في المكان محرمًا ، لأن الزمن الحرام الذي حرم
فيه قتال أربعة أشهر : ثلاثة سرد وواحد فرد ، الفرد هو رجب ،
والسرد هي ، ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم .

فحرم أيضاً القتال في هذه الأماكن ليعصم دماء الخلق أن تُراق
بسبب تناحر القبائل بالعلل والحقد والكبرياء والغرور .

يقول تعالى في تحريم القتال في البيت الحرام ﴿ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ
عند المسجد الحرام حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ
الْكَافِرِينَ ﴾ (١٩١)

[البقرة]

فلعلهم حين تأتي شهور التحريم ، أو يأتي مكانه يستريحون من
الحرب ، فيدركون لذة السلام وأهمية الصلح ، فيقضون على أسباب
النزاع بينهم دون حرب ، فسُعار الحرب يَجُرُّ حرباً ، ولذة السلام
وراحة الأمن والشعور بهدوء الحياة يَحَرِّمُ مَيْلًا للتصالح وفرض مثل
هذه المنازعات بالطرق السلمية

والمعامل في هذه الأماكن التي حرمها الله يجدها على مراتب .
وكانها دوائر مركزها بيت الله الحرام وهو الكعبة ، ثم المسجد الحرام
حولها ، ثم البلد الحرام وهي مكة ، ثم المشعر الحرام الذي يأخذ
جزءاً من الزمن فقط في أيام الحج .

أما الكعبة فليست كما يظن البعض أنها هذا البناء الذي نراه ،
الكعبة هي المكان ، أما هذا البناء فهو المكين ، فلو تقضت هذا البناء
القائم الآن لمكان البناء هو البيت ، هذا مكانه إنْ نزلتْ في أعماق
الأرض أو صعدتْ في طبقات السماء .

سورة الحج

﴿١٧٩﴾

إِنِّي : فبييت الله الحرام هو هذه النقطة عن الأرض حتى السماء ،
ألا ترى الناس يُصَلُّون في الأديار العليا ، وهم أعلى من هذا البناء
بكثير ؟ إنهم يواجهون جَوْ الكعبة ، لا يواجهون الكعبة ذاتها ، لماذا ؟
لأن الكعبة ممتدة في الجو إلى ما شاء الله .

ثم يلي البيت المسجد ، وهو قطعة أرض حُكِرَت على المسجدية ،
لكن هناك مسجد بالمكان حين تقيمه أنت ، وتجعل له بقاء مثل هذا
البناء الذي نَحْدِث فيه الآن يسمى « مسجد » بالمكان ، أو مسجد
بالمكان حين يضيق علينا هذا المسجد فنخرج نصلي في الشارع فهو
في هذه الحالة مسجد ، قالوا ولو امتد إلى صنعاء وقراصلت
الصفوف فكله مسجد .

نعود إلى ما دار بين المسلمين والمشركين يوم الحديبية ، فقد
صدَّ الكفار المسلمين عن بيت الله الحرام وهم على مَرْمِ البصر منه ،
فاغتاض المسلمون لذلك ، ورأى بعضهم أن يدخل مكة عتوة ورَّغماً
عنهم

لكن كان لرسول الله ﷺ سرٌّ بينه وبين ربه عز وجل ، فنزل على
شروطهم ، وعقد معهم صلحاً هو « صلح الحديبية » الذي أثار
حفيظة اصحابه ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، فقال لرسول الله :
يا رسول الله ، السما على الحق ؟ قال ﷺ : « بلى » قال : أيسروا هم
على ياطر ؟ قال « بلى » قال : لِمَ تُعْطِي الدنْيَةَ في دِينِنَا؟^(١)

وكان من بنود هذا الصلح ، إذا أسلم كافر ودخل في صفوف

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٤٨/٤) ، والبخاري في صحيحه (كتاب الجرية - باب ١٨) وكذا مسلم في صحيحه (كتاب الجهاد - باب ٢٤) وفيه : أن رسول الله ﷺ قال بعد مراجعة عمر بن الخطاب له : يا بن الخطاب ، إنني رسول الله ولن يضوي الله وقال له أبو بكر : يا بن الخطاب ، إن رسول الله ولن يضويه الله أبداً .

المسلمين يورثه محمد ﷺ . وإذا ذهب مسلم إليهم لا يردونه إلى المسلمين^(١) .

وكان للسيدة أم المؤمنين أم سلمة - رضوان الله عليها - موقف عظيم في هذه الشدة ، ورأى شديد رد آراء الرجال إلى الرشد وإلى الصواب ، وهذا مما تفضل به للمرأة في الإسلام . وترد به على المتشككين بحقوق المرأة .

فلما عاد رسول الله ﷺ إلى نسطاطه - مُغْضِباً فقال لام سلمة : « هلك المسلمون يا أم سلمة ، لقد أمرتهم فلم يعتزلوا ، يعني : أمرهم بالعودة دون أداء العبرة هذا العام .

فقالت السيدة أم المؤمنين . يا رسول الله ، إنهم مكرويون ، فقد منعوا عن بيت الله وهم على رأي منه ، لكن اذهب يا رسول الله إلى ما أمرك به ربك ، فافعل فإننا رأوك فعلتة علموا أن الأمر هزيمة - يعني لا رجعة فيه - ومعللاً أخذ رسول الله بهذه النصيحة ، فذهب فحلق ، وذبح هديه وفعل الناس مثله ، وانتهت هذه المسألة^(٢)

لكن قبل أن يعودوا إلى المدينة شاءت إرادة الله أن يخبرهم بالحكمة في قبول رسول الله لشروط المشركين مع أنه شروط ظالمة مُحَقِّقة .

أولاً : من هذا الصلح ومنه المعاهدة اعتراف منهم بمحمد ومكانته ومُثْرلته ، وأنه أصبح مساوياً لهم ، وهذا مكسب في حد ذاته

ثانياً : اتفق الطرفان على وقف القتال بينهم لعدة سنوات ، وهذه

(١) كان رأي رسول الله ﷺ في هذا الشرط الذي اشترطه قريش ما قاله : « من أتانا منهم فرددناه عليهم ، جعل الله به فرجاً ومخرجاً ، أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٤٧/٤) ، ومسلم في صحيحه (كتاب الجهاد - باب ٣٤)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١٥٣/٧) بشرح فتح الباري - كتاب المغازي من حديث المسير بن مخرمة والبيهقي في دلائل النبوة (١٥٠/٤)

الفترة أعطت المسلمين فرصة كي يتفرقوا لاستقبال الوفود ونشر دين

الله

قَالَ النَّبِيُّ : كَانَ فِي إِمْكَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَدْخُلَهُمْ مَكَّةَ رَغْمًا عَنْ أَهْلِهَا ، وَكَانَ فِي مَقْدُورِهِ أَنْ يَقْتُلَهُمْ جَمِيعًا ، لَكِنْ مَاذَا سَبَّكَ مَوْقِفَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَالَّذِينَ يَسْتَرُونَ إِيْمَانَهُمْ وَلَا يَعْرِفُهُمْ أَحَدٌ ؟ إِنَّهُمْ وَسَطُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ ، وَسَيَنَالُهُمْ مَا يَنَالُ الْكُفَّارَ ، وَلَوْ تَعَيَّنَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْكُفَّارِ أَوْ خَرَجُوا فِي جَانِبٍ لَمْ يَكُنْ تَفَادِيَهُمْ .

اقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَيْدَى مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْنَتُكُمْ مِنْهُمْ فَكُفُّوا عَنْهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَكُوا^(١) لَمَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٢٥) [الحج]

ثم يقول تعالى عن المسجد الحرام : ﴿ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ .. ﴾ (٢٥) [الحج] أي جميعاً ﴿ سَوَاءٌ أَعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ .. ﴾ (٢٥) [الحج] العاكف فيه يعني . المقيم . والباد القادم إليه من خارج مكة . ومعنى ﴿ سَوَاءٌ .. ﴾ (٢٥) [الحج] يعني . هذان النوعان متساويان تماماً .

لذلك نقول للذين يحجزون الأماكن لعبائهم في بيت الله الحرام خاصة ، وفي بيوت الله عامة أريحوا أنفسكم ، فالمكان محجوز عند الله لمن سبق ، لا لمن وضع سجادته ، وشغل بها المكان .

وَقَدْ دَخَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ سَوَاءٌ أَعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ .. ﴾ (٢٥) [الحج]

(١) لو تركوا . لو تطرفوا . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فهما أخرجه عنه ابن جرير الطبري [نكرة السيوطي في الدر المنثور ٥٢٤/٧]

البعض لأن يقول لا يجوز تأجير البيوت في مكة فمن أراد أن ينزل في بيت ينزل فيه دون أجرة حتى يستوى المقيم والغريب^(١)

وهذا الرأي مردود عليه بأن البيوت مكان ومكين ، وأرض مكة كانت للجميع حين كان المكان حراً يبنى فيه من أراد ، أما بعد أن بنى بيتاً ، وسكنه أصبح مكيناً فيه ، لا يجوز لأحد دخوله إلا بإذنه وإرادته .

وقد دار حول هذه المسألة^(٢) نقاش بين الحنظلي^(٣) في مكة والإمام الشافعي^(٤) ، حيث يرى الحنظلي أنه لا يجوز تأجير البيوت في مكة ، لأنها حسب هذه الآية للجميع ، فرد عليه الشافعي رضي الله عنه : لو كان الأمر كذلك لما قال سبحانه في المهاجرين ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ .. ﴾ (٥)

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٥٦٤/٦) - كانت دورهم يبيعون أبواب حتى كثرت السرقة ، فانتخذ رجل باباً فالتك عليه عمر وقال أتخلق باباً في وجه حجاج بيت الله ؟ قل الرجل إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة ، ففكره . فانتد الناس الأبواب ، وروى عن مالك أن النور ليست كالمسجد ، ولأهلها الامتناع منها والاستبداد . وهذا هو العمل اليوم وقال بهذا جمهور من الأئمة .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢١٤/٢) - هذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق ابن راهويه بمسود الجوف وأحمد بن حنبل حاضراً أياً ، وذكر احتجاج كل منهما (٣) عن إسحاق بن راهويه أبو يعقوب الحنظلي فزير نيسابور وماتها ولد عام ١٦٦ هـ . وهو أحد كبار الحفاظ ، أخذ عنه أحمد وأبو يعقوب ، ومسلم وغيرهم . اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والزهد [الأعلام للزركلي ٢٩٢/٩] وتذكره الحفاظ بلقيس (٤٢٣/٢) .

(٤) هو محمد بن إبراهيم الشافعي أبو عبد الله - أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه نسبة الشافعية كافة ، ولد عام ١٥٠ هـ في غوة بفلسطين ، وحمل منها إلى مكة وهو ابن ستين . وزار بغداد مرتين . وتصد مسر سنة ١٨٩ هـ فتولى بها وقره معروف إلى القاهرة له مصنفات أشهرها كتاب « الأم » ، « أحكام القرآن » ، [الأعلام للزركلي ٢٦/٦]

سُورَةُ الْحَجِّ

○ ١٧٧٣ ○

فنسب الديار إليهم ولَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَزَلَ مَكَّةَ
« واهل ترك لنا عقيل من دار أو من ربع ؟ »^(١) وَكَوْنُ عَقِيلٍ يَبِيعُ
دُورَهُمْ بَعْدَ أَنْ هَاجَرُوا ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى مُلْكِيَّتِهِمْ لَهَا ، لِذَلِكَ رَجَعَ
الْحَضْرَتِيُّ إِلَى رَأْيِ الشَّافِعِيِّ .

هَذَا مَعَ أَنَّ الْآيَةَ تَعْنِي النِّيَّةَ فَقَطْ ، لَا مَكَّةَ كُلَّهَا ، فَمَا كَانَ الْخِلَافُ
لِيَصِلَ إِلَى مَكَّةَ كُلِّهَا .

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ يُؤْذِ فِيهِ بِالْإِحَادِ يَظْلَمْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ
الْإِيمِ (٢٥) ﴾ [الحج]

الْإِحَادُ قَدْ يَكُونُ فِي الْحَقِّ الْأَعْلَى ، وَهُوَ الْإِلْحَادُ فِي اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ ، أَمَا هُنَا فَيُرَادُ بِالْإِلْحَادِ ، الْمَيْلُ مِنْ طَرِيقِ الْحَقِّ ، وَقَوْلُهُ
﴿ يَظْلَمْ .. (٢٥) ﴾ [الحج] الظلم في شيء لَا يَسْمُو إِلَى دَرَجَةِ الْكُفْرِ ،
وَالْإِلْحَادُ يَظْلَمُ إِنْ حَدَثَ فِي بَيْتِ اللَّهِ فَهُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ ؛ لِأَنَّكَ فِي بَيْتِ
رَبِّكَ (الْكَعْبَةِ) .

وَكَانَ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَحْيَ مِنْ مَجْرَدِ حَدِيثِ النَّفْسِ بِمَعْصِيَةٍ ،
مَجْرَدِ الْإِرَادَةِ هُنَا تُعَدُّ ذَنْبًا ، لِأَنَّكَ فِي مَقَامٍ يَجِبُ أَنْ تَسْتَشْعِرَ فِيهِ
الْجَلَالَ وَالْمَهَابَةَ ، فَكَمَا أُعْطِيَ اللَّهُ لِبَيْتِهِ مِيزَةً فِي مَصَاعِفِ الْحَسَنَاتِ ،
كَذَلِكَ عَظُمَ أَمْرُ الْمَعْصِيَةِ وَأَنْتَ فِي رَحَابِ بَيْتِهِ ، فَتَبَيَّنَ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ^(٢)

(١) حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (١٥٨٨) ، وَكَانَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ

(١٢٥١) وَتَمَعَهُ دَلِيلُ اسْمَا بَيْنَ رِبْدٍ قَالِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيْنَ تَذْبُلُ ؟ فِي دَارِكَ بِمَكَّةَ ؟

قَالَ وَاهِلُ تَرْكُهُ عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أَوْ دُورٍ ؟ وَكَانَ عَقِيلٌ وَرِبْدٌ أَبَا طَالِبٍ هُوَ وَطَالِبٌ ، وَلَمْ يَرْثَهُ
مَعْتَدٌ وَلَا طَلَى رَحْمَةُ اللَّهِ فِيهِمَا شَيْئًا لِأَنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ ، وَكَانَ عَقِيلٌ وَطَالِبٌ كَافِرَيْنِ .

(٢) قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ مَنْ هُمُ الْبَاطِلَةُ فَمَنْ يَجْعَلُهَا - فِي سِرِّهِ الْبَيْتِ - لَمْ تَكُتَبْ عَلَيْهِ حَتَّى

يُحْصِلَهَا ، وَمَنْ هُمُ الْبَاطِلَةُ فِي الْبَيْتِ لَمْ يَمُتْهُ اللَّهُ مِنْ عَدْنِهَا حَتَّى يَذْبُوهُ مِنْ مَذَابِ الْإِيمِ .

أَخْرَجَهُ سَمِيدُ بْنُ مَسْعُودٍ وَالطَّبْرَانِيُّ قِيَمًا أَوْرَدَهُ السَّيُولِيُّ فِي الْفَرْدِ لِلْعَنْثَوْرِ (٢٦/٦)

حتى في أمثال أهل الريف يقولون : (تيجي في بيت العالم
وتسكر) يعنى السكر يتصور في بيت أحد العصاة ، في بيت
فاسق ، في خمار ، لكن في بيت عالم ، فهذا شيء كبير ، وجرة
عظيمة . لماذا ؟

للمكان حرمة بحرمة صاحبه ، فإذا كان المكان حرمة بحرمة
صاحبه ، والبيت منسوب إلى الله ، فانت تعصى ربك في عقر داره ،
وأي جرة أعظم من الجرة على الله ؟

وهذه خاصية للمسجد الحرام ، فكل المساجد في أي مكان بيوت
الله ، لكن هناك فرق بين بيت الله باختيار الله ، وبيت الله باختيار عباده
الله ، لذلك جعل بيت الله باختيار الله (البيت الحرام) هو القبلة التي
توجه إليها كل بيوت الله في الأرض .

فما عاقبة الإلحاد في بيت الله ؟ ﴿ يُدْفَعُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (٢٥)
[المع] إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق دائماً وأبداً ، والإنافة أشد
الإنراكات تأثيراً ، وذلك هو العذاب المهين ، والذوق هو الإحساس
بالمطعم شراباً كان أو طعاماً ، إلا أنه تعدى كل محس به ، ولو
لم يكن مطعوماً أو مشروباً ، ويقول ربنا عز وجل ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (٤٦)

[السخان]

أي . ذق الإهانة والمذلة ، لا مما يطعم أو مما يشرب ، ولكن
بالإحساس ، فالإنافة تتعدى إلى كل البدن ، فالإنافة تذوق ، والرجل
تذوق ، والصدر يدوق ، والرقبة تذوق وهذا اللز من إنافة للذل
والإهانة في الدنيا لهؤلاء مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب الله .

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً ، والعذاب هو يلام الحس . إذا
أحسنت أن تدبّر ألمه ، فأيق في آله الإحساس بالآلم .

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ﴾ (٢٦)

ما دام الكلام السابق كان حول البيت الحرام ، فمن المناسب أن يتكلم عن تاريخه وبنائه ، فقال سبحانه : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (٢٦) [الحج] معنى بَوَّأَ . أى . جعله مَبَاءةً بمعنى . يذهب لعمله ومصلحته ، ثم يبرء إليه ويعود ، كالبَيْتِ لِلْإِنْسَانِ يرجع إليه . ومنه قوله تعالى . ﴿وَبَاغُوا بِغَضَبِ مِنْ اللَّهِ ..﴾ (٢٦) [البقرة]

وَإِذْ . ظرف زمان لحدث يأتى بعده الإخبار بهذا الحدث ، والمعنى خطاب لرسول الله ﷺ اذكر يا محمد الرقت الذى قيل فيه لإبراهيم كذا وكذا . وهكذا فى كل آيات القرآن تأتى (إِذْ) فى خطاب لرسول الله ﷺ بحدث وقع فى ذلك الظرف

لكن ، ما علاقة المَبَاءة أو المكان المَبْتَوَّى بمسألة البيت ؟ قالوا . لأن المكان المَبْتَوَّى بقعة من الأرض يختارها الإنسان ، يرجع إليها من متاعب حياته ، ولا يختار الإنسان مثل هذا المكان إلا توفرت فيه كل مَقْرُمَاتِ الحياة .

لذلك يقول تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَانَ يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ..﴾ (٥٦) [يوسف]

وقال فى شأن بنى إسرائيل : ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صَدَقِي ..﴾ (٩٢) [يونس] فمعنى ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ..﴾ (٢٦) [الحج]

أى جعلناه ميكة له ، يرجع إليه من حركة حياته بعد أن أعظمناه ،
ودلّلناه على مكانه^(١)

وقلنا : إن المكان غير المكين ، المكان هو البقعة التي يقع فيها
ريحلُ بها المكين . فأرض هذا المسجد مكان ، والبناء القائم على هذه
الأرض يُسمّى « مكين في هذا المكان » . وعلى هذا فقد دلّ الله
إبراهيم عليه السلام على المكان الذي سيأمره بإقامة البيت عليه

وقد كان للعلماء كلام طويل حول هذه المسألة : فبعضهم ينسب
إلى أن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت . ونقول لأصحاب
هذا لرأى . الحق - تبارك وتعالى - هوّ لإبراهيم مكان البيت ، يعنى .
بيّنه له ، كان البيت كان موجوداً ، بدليل أن الله تعالى يقول في
القصة على لسان إبراهيم . ﴿ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِى بَوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ
عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. ﴾ (٢٧) [إبراهيم]

وفى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ
وَإِسْمَاعِيلُ .. ﴾ (١٢٧) [البقرة]

ومعلوم أن إسماعيل قد شارك أباه وساعده فى البناء لما شبّ .
وأصبح لديه القدرة على معاونته أمه ، أمّا مسألة السكن فكانت
وإسماعيل ما يزال وضعياً ، وقوله تعالى . ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. ﴾ (٢٧)
[إبراهيم] يدل على أن العندية موجودة قبل أن يبلغ إسماعيل أن
يساعد أباه فى بنائة البيت . إذن . هذا دليل على أن البيت كان
موجوداً قبل إبراهيم .

(١) أى أريته أصله ليبيته . وكان قد درس بالطوفان وغيره . فلما جاءت سدة إبراهيم عليه
السلام أمره الله ببنيانه ، نجاه إلى موضعه وجعل يطلب أثره ، فحدث الله ريحاً فكشفت عن
أسس إسم عليه السلام . وترتب قراءته عليه . [تفسير القرطبي ٤٥٦٧/٦]

وقد أوضح الحق - سبحانه وتعالى - هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١)

وحتى نتفق على فهم الآية نسأل : مَنْ هُم الناس ؟ الناس هم آدم وذريته إلى أن تقوم الساعة ، إذن : هَآدم من الناس ، فلماذا لا يشملهم عموم الآية ، فالبيت وُضِعَ للناس ، وآدم من الناس ، فلا بد أن يكون وُضِعَ لآدم أيضاً

إذن ، يمكنك القول بأن لبیت وُضِعَ حتى قبل آدم ؛ لذلك نُصَدِّقُ بالرأى الذى يقول : إن الصلائكة هى التى وُضِعَ البيت أولاً ، ثم طمسَ الطريقانُ معالم البيت ، فدلَّ الله إبراهيم بوحي منه على مكان البيت ، وأمره أن يرفعه عن جديد فى هذا الوادى .

ويقال إن الله تعالى أرسل إلى إبراهيم سبحانه فُلِّتَ على المكان ونطقتْ يا إبراهيم خُذْ عَلَى قَدْوَى ، أى - البناء^(٢)

ولو تدبرت معنى ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ .. ﴾ (١٢٧) [البقرة] الرَّفْعُ يعنى : الارتفاع ، وهو البعد الثالث ، فكان القواعد كان لها طُول وعَرْضُ موجود فعلاً ، وعلى إبراهيم أن يرفعها .

لكن لماذا بوأَ الله لإبراهيم مكان البيت ؟

لما أسكن إبراهيم ذريته عند البيت قال ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ .. ﴾ (٢٧) [إبراهيم] كَانَ المسألة من بدايتها مسألة عبادة وإقامة للصلاة ،

(١) أخرج الترمذى عن على بن الربيع رضي الله عنه فى قوله ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ (١٢٧) [البقرة] قال : جاءت مصمبة على تربع البيت ، لها رأس لتكلم لارتفاع البيت على تربوس ، فرفعه على تربيعها ، [أراده السير على فى الدر المنثور ١/ ٢٠٧]

الصلاة للإله الحق والربّ الصديق ، لذلك أمره أولاً ﴿ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَظَهَرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج] والمراد : ظهر هذا المكان من كل ما يشعر بالشرك ، فهذه هي الهداية الصحيحة لإنامة بيت الله .

وهل كان يُعقل أن يدخل إبراهيم - عليه السلام - في الشرك ؟ بالطبع لا ، وما أيعبد إبراهيم عن الشرك ، لكن حين يُرسى الله رسوله ، فإنه أول من يتلقى عن الله الأوامر ليبلغ أمته ، فهو أول من يتلقى ، وأول من يُنمذ ليكون قدوة لقومه فيصدقوه ويتقوا به ؛ لأنه أمرهم بأمر هو ليس بنجوة عنه .

ألا ترى قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ﴾ [الأحزاب] وهل حرج محمد ﷺ عن تقوى الله ؟ إنما الأمر للامة في شخص رسولها ، حتى يسهل علينا الأمر حين يأمرنا ربنا بتقواه ، ولا نرى غضاضة في هذا الأمر الذي سبقنا إليه رسول الله ، لأنك تلحظ أن البعض يأمف أن تقول له يا فلان اتق الله ، وربما اعتبرها إهانة واتهاماً ، وظن أنها لا تقال إلا لعن بدر منه ما يخالف التقوى .

وهذا قههم خاطيء للأمر بالتقوى ، فحين أقول لك : اتق الله لا يعنى أنتى أنتى عنه بالتقوى ، إنما أدذك أن تبدأ حركة حياتك بتقوى الله .

إنن : قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام . ﴿ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا ﴾ [الحج] لا تعنى تصور حدوث الشرك من إبراهيم ، وقال ﴿ شَيْئًا .. ﴾ [الحج] ليشمل النهى كُلُّ ألوان الشرك ، أياً كانت صورته شجر ، أو حجر ، أو وثن ، أو نجوم ، أو كواكب .

064454

ويؤكد هذا المعنى بقوله : ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي ۖ ﴾ (٢٦) ﴿ [الحج] والتطهير
يعنى : الطهارة المصنوية بإزالة أسباب الشرك ، وإخلاص العبادة لله
وحده لا شريك له ، وطهارة حسية مما أصابه بمرور الزمن وحدث
الطوفان ، فقد يكون به شيء من القاذورات مثلاً .

ومعنى ﴿لِلْعَائِقِى ۖ﴾ (٢٦) [الحج] الذين يطوفون بالبيت .
 ﴿وَالْقَائِمِينَ ۖ﴾ (٢٦) [الحج] المقيمين المبتكفين فيه للعبادة ﴿وَالرُّكَّعِ
 السُّجُودِ﴾ (٢٦) [الحج] الذين يذهبون إليه فى أوقات الصلوات لأداء
 الصلاة ، عبْرَ عن الصلاة بالركوع والسجود ، لأنهما أظهر أعمال
 الصلاة

تم يقون الحق سبحانه

﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ^(١) مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٣﴾﴾

أمر الله نبيه إبراهيم بعد أن رفع القواعد من البيت أن يُؤذن في
الناس بالحج ، لماذا ؟ لأن البيت بيت الله ، واخلق جميعاً خلق الله ،
فلماذا تقتصر رؤية البيت على مَنْ قُدِّرَ له أن يمرَّ به ، أو يعيش إلى
جواره ؟

فأراد الحق - سبحانه وتعالى - أن يُشيع هذه العِيزة بين خلقه جميعاً ، فبَدَّهوا لرؤية بيت ربهم ، وإن كانت المساجد كلها بيوت

(١) الضامر: خفيف الجسم قليل اللحم. ومن عادة العرب أن يضمّروا الخيل لتكون أقوى وأنشط وأسرع. وقوله تعالى ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: ٢٧] أي حصان ضامر متعود على السفر البعيد بنشاط وقوة. [القاموس اللّوغي ١/ ٣٩١].

الله ، إلا أن هذا البيت بالذات هو بيت الله بأصيار الله ؛ لذلك جعله قبلة
لبيوته التي اختارها الخلق .

إن من علامات الرلاء بين الناس أن نزور قصور المعظماء وعلى
القوم ، ثم يُسجل الزائر اسمه في سجل الزيارات ، ويرى في ذلك
شرفاً ورفعة ، فما بالك ببيت الله . كيف تقتصر زيارته ورؤيته على
أهله والمجاورين له أو من قُدِّر لهم المرور به ؟

ومعنى ﴿وَأَذِّنْ .. (٤٧)﴾ [الحج] الاذان : العلم ، وأول وسائل العلم
للسماع بالأذن ، ومن الآن أخذ الاذان أى الإعلام . ومن هذه
العادة قوله تعالى ﴿وَأَذِّنْ تَأْذِينَ وَبُكْمٍ .. (٧)﴾ [إبراهيم] أى أعم ؛
لأن الاذن وسيلة السماع الأولى ، والخطاب المبدئى الذى تتعلم به ؛
لذلك قبل أن تتكلم لا بد أن تسمع .

وحينما أمر الله إبراهيم بالأذان لم يكن حول البيت غير إبراهيم
وولده وزوجته ، فلمن يؤذن ؟ ومن سيستمع فى صحراء واسعة
شاسعة وراية غير مصكون ؟ فناداه ربه « يا إبراهيم عليك الاذان
وعلينا البلاغ »^(١)

مهمتك أن ترفع صوتك بالأذان ، وعليك إيصال هذا النداء إلى كل
الناس ، فى كل الزمان ، وفى كل المكان . سيسمعه البشر جميعاً ،

(١) من ابن عباس قال لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال رب ، قد فرغت فقال ﴿وَأَذِّنْ
لِلنَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٤٧)﴾ [الحج] . قال رب ، وما يبلغ حسرتى ؟ قال أذن وعلى البلاغ .
قال رب ، كيف أقول ؟ قال يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فسمعه
من بين السماء والأرض . ألا ترى أنهم يمشون من أقصى الأرض يليون ؟ أورده
السيروطى فى الدر المنثور (٣٢/٦) وهراء لابن أبي شيبة فى المصنف وابن جرير وابن
أبي حاتم والحاكم وصحبه والبيهقى فى سننه .

وهم في عالم الأندُر وفي أصلاب آبائهم^(١) بقسرة الله تعالى الذي قال
لنبيه محمد ﷺ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى..﴾ (١٧) ﴿[الأنفال]

يعنى - أد ما عليك ، واترك ما فوق قدرتك لقدرة ربك . فأذن
إبراهيم في الناس بالحج ، ووصل النداء إلى البشر جميعاً ، وإلى أن
تقوم الساعة فمن أجاب ونسى : لبيك اللهم لبيك كتبت له حجة ،
حتى إن من العلماء من قال^(٢) : من لبى مرة كتبت له حجة ، ومن
لبى مرتين كتبت له حجتين وهكذا ، لأن معنى لبيك : إجابة لك بعد
إجابة .

فإن قلت إن مطالب الله وأومره كثيرة ، فلماذا أخذ الحج بالذات
هذه المكانة ؟ نقول . أركان الإسلام تبدأ بالشهادتين لا إله إلا الله
مصدق رسول الله ، ثم الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصوم ، ثم الحج ،
لو نظرت إلى هذه الأركان لوجدت أن الحج هو الركن الوحيد الذي
يجتهد المسلم في أدائه وإن لم يكن مستطيعاً له فتراه يوفر ويقتصد
حتى من قوته ، وربما حرم نفسه ليؤدي فريضة الحج ، ولا يحدث
هذا ولا يتكلفه الإنسان إلا في هذه الفريضة ، لماذا ؟

قالوا : لأن الله تعالى حكم في هذه المسألة فقال "أذن - ياأيوك ،
هكذا رغماً عنهم ، بدون اختيارهم ، ألا ترى الناس ينجذبون لأداء
هذه الفريضة ، وكأن قوة خارجة عنهم تجذبهم

(١) عن ابن عباس في قوله ﴿وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ (٢٢) ﴿[الحج]﴾ قال - أقام إبراهيم عليه
السلام على الحجر قنادي يا أيها الناس ركب عليكم الحج ، فاستمع من في أصلاب
الرجال وأرحام النساء ، فأجاب من آمن من سبق في علم الله أن يحج إلى يوم القيامة
لبيك اللهم لبيك أورد السيوطي في الدر المنثور (٢٢/٦) وعزاه لابن جرير الطبري
(٢) أخرجه الديلمي في « الفريضة » بماتود الخطيب ، (رقم ٥٢٠٣) عن علي بن أبي طالب ،
قال السيوطي في الدر المنثور (٢٢/٦) - أخرجه الديلمي بسند واحد عن علي رقه .
وقال الترمذي في تذكرة المروزيات (ص ٧٢) - الحديث من نسخة محمد بن الأشعث
التي حاشا أحاديثها من أكبر .

وهذا معنى قوله تعالى ﴿فَجَعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ..﴾ (٢٧) [إبراهيم] ومعنى تهوى : قاتى دون اختيار من الهوى أى السقوط . وهو أمر لا يملك الإنسان . كالذى يسقط من مكان عال . فليس له اختيار فى ألا يسقط .

وهكذا تحنُّ القلوب إلى بيت الله . وتتحرق شوقاً إليه . وكان شيئاً يجذبها لأداء هذه المريضة ، لأن الله تعالى أمر بهذه الفريضة . وحكم فيها بقوله ﴿يَا تُرْكُ﴾ (٢٧) [الحج] أما فى الأمور الأخرى فقد أمر بها وتركها لاختيار المكلف . يطيع أو يعصى . إذن هذه المسألة قضية صادقة بنصر القرآن .

وبعض أهل الفهم يقولون إن الأمر فى ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ .. (٢٧) [الحج] ليس لإبراهيم . وإنما لمحمد ﷺ - الذى نزل عليه القرآن . وخاطبه بهذه الآية - فالمعنى ﴿وَأَذِّنْ بَوَائِنَ لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ..﴾ (٢٦) [الحج] يعنى . اذكر يا مَنْ أُنزل عليه كتابى إذ يرانا لإبراهيم مكان البيت ، اذكر هذه القضية ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ .. (٢٧) [الحج] فكان الأمر هنا لمحمد ﷺ^(١)

لذلك لا نشاهد هذا التمسك فى الأمم الأخرى كاليهود والنصارى ، فهم لا يحجون ولا يذهبون إلى بيت الله أبداً . وقد ثبت أن موسى - عليه السلام - حج بيت الله^(٢) ، لكن لم يثبت أن عيسى عليه السلام

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٦ / ٤٥٦٩) : « قيل إن الخطاب لإبراهيم عليه السلام ثم عد لونه ﴿وَالرَّكْعَ السُّجُودَ﴾ (٢٦) [الحج] ثم خاطب الله عز وجل محمداً ﷺ فقال - ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ . (٢٧) [الحج] أى : أعلمهم أن عليهم الحج » .

(٢) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر برباعى الأزدى لطلال أى واد هذا ، فخطبوا هذا وادى الأزدى . قال : كائن أنظر إلى موسى عليه السلام ما يظن من الثنية وله جزاء إلى الله بالثنية . ثم أتى على ثنية مرشى . فقال : أى ثنية هذه ؟ قالوا : ثنية مرشى . قال : كائن أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على نافذة حمراء جمعة عليه جبة من صوف . خطام ثالثة خلية ، وهو يكبى . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٦) ، وأحمد فى مسنده (١ / ٢١٥)

حَجَّ ، بدليل أن رسول الله ﷺ قال : « يُوشع أن يزن ابن مريم ،
ويأتي حاجاً ، ويزور قبري ، ويدفن هناك »^(١)

فقال رسول الله : « ويأتي حاجاً » لأنه لم يمت ، وصوف يدرك
عهد التكليف من رسول الله حين يزن من السماء ، وسيصلي خلف
إمام من أمة محمد صلى الله على جميع أنبياء الله ورُسُلُه .

ومن المسائل التي نحتج بها عليهم قولهم إن الذبيح إسحق ، فلو أن
الذبيح إسحق كما يدعون لكنت مناسك الذبيح والغداء ورُمي الجمار عندكم
في الشام ، أما هذه المناسك فهي هنا في مكة ، حيث كان إسماعيل
ثم تذكروا جيداً ما قاله كتابكم المقدس^(٢) في الأصحاح ٢٣ ، ٢٤

(١) أورد القرطبي في التذكرة (من ٧٧٣) طبعة مكتبة دار التراث من حديث كثير من عهد الله عن أبيه
من جده قال : فزودنا مع النبي ﷺ الحديث وديه . لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى بن مريم عهد
الله ورسوله حاجاً أو معتمراً أو ليجتمعن الله ذلك به . وقال محمد بن كعب القرظي أن رجلاً قال
إني أشهد أنه لمكتب في التوراة والإنجيل أنه يمر بالروحة حاجاً أو معتمراً أن يجمع الله له ذلك .
فيجعل الله حراوته أصحاب الكيف والرفيق . فيمرون حاجاً فزمنهم لم يصبوا ولم يموتوا .
كما دفن المسيح عليه السلام فقد ذكر القرطبي في التذكرة (من ٧٦٦) عن عبد الله بن عمرو
عن رسول الله ﷺ : « يموت خمسين وأربعين سنة ويدفن معي في قبري خاتوم أنا وعيسى من
قبر واحد بين أبي بكر وعمر » ذكره المصنف في أبي حفص .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يموت عيسى في الأرض بعدما يكون أربعين سنة . ثم
يموت ويصلي عليه المسلمون وينفذونه » ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده (حديث ٢٥١٩)
(٢) تحقيق هذه المسألة أن إبراهيم عليه السلام كان عمره ٨٦ سنة عندما وُكِّد له إسماعيل ، وذلك
بمصر الكتاب المقدس . كان إبراهيم ابن ست وثلاثين سنة لما ولدت هاجر لإسماعيل لإبراهيم .
[التكوين ١٦ - ١٦] أما عمره عندما وُكِّد له إسحاق ، فكان عمره ١٠٠ سنة ، بتم الكتاب
« وكان إبراهيم ابن ثلثة حين ولد له إسحاق ابنه » [تكوين ٢٦ - ٥] أي أن عمر إسماعيل
كان ١٤ سنة بعدما ولد أخوه إسحاق . فكيف يكون وعنده هو إسحاق ؟
وهاجر زوجة لإبراهيم بنس التوراة ، فأخذت صارون امرأة لإبراهيم هاجر المصرية جاريته
من بعد عشر سنين لإقامة إبراهيم في أرض كنعان وأعطتها لإبراهيم رجلاً رجلاً له . فنزل على
هاجر فميت . [تكوين ١٦ - ١٦]
فكيف يظنون بعد هذا ، « وحديث بعد هذه الأمور أن إسماعيل إبراهيم يقال له يا إبراهيم .
فقال هانئاً فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق وادع إلى أرض المريا وأصعبه هناك
معرفة على أحد الجبال الذي أقول لك » [تكوين ٢٢ - ٢] وانظر [تكوين ٢٢ - ١ - ١٦] .

من أن الحق - سبحانه وتعالى - أوحى إلى إبراهيم أن يصعد على جبل قارن ، ويأخذ ولده الوحيد ويذبحه ، فالوحيد إسماعيل لا إسحق ، لأن الله فدى إسماعيل ، ثم بشر إبراهيم بإسحق .

ومن حكمة الله - عز وجل - أن جعل في كذب الكاذب منقذا للحق ، وثغرات نسل منها إلى الحقيقة ، لذلك يقول رجال القضاء ليست هناك جريمة كاملة أبداً ، لا بد أن يترك المجرم قرينة تدل عليه مهم محتاط لجريمته ، كأن يسقط منه شيء ولو أربار من ملايسه ، أو ورقة صغيرة بها رقم تليفون الخ ، لذلك تقول : الجريمة لا تقيد ؛ لأن المجرم سيقع لا محالة في يد من يقتص منه .

وارجال القضاء ووكلاء النيابة مقدرة كبيرة على استخلاص الحقيقة من أفواه المجرمين أنفسهم ، فيظل القاضي يحاوره إلى أن يجد في كلامه ثغرة أو تضارباً يصل منه إلى الحقيقة .

ذلك لأن للصدق وجهاً واحداً لا يمكن أن يتلجج صاحبه أو يتردد ، أما الكذب فله أكثر من وجه ، والكاذب نفسه لو حاورته أكثر من مرة لوجدت تغييراً وتضارباً في كلامه ، لذلك العرب يقولون إن كنت كذوباً فكُنْ ذكُوراً يحنى تذكر ما قلته أولاً ، حتى لا تُغيره بعد ذلك .

ومن أمثلة الكذب الذي يفضح صاحب قول أحدهم للآخر : هل تذكر يوم كنا في مكان كذا ليلة العيد الصغير ، وكان القمر ظهراً !! فقال ، كيف ، يكون القمر مثل الظهر في آخر الشهر ؟

وقد بلغا القاصي إلى بعض الحيل ، ولا بد أن يستخدم ذكاءه لاستجلاء وجه الحق ، كالتأضي الذي احتكم إليه رجلان يتهم أحدهما الآخر بأنه أخذ ماله أمانة ، ثم أخذها لنفسه ودفنها في موضع كذا

وكذا ، فلما حاور القاضى المتهم أنكر فأنصرف عنه ، وتوجه إلى صاحب الأمانة ، وقال له : اذهب إلى هذا المكان ، وابحثُ لعلك تكون قد نسيتَه هنا أو هناك .

أو لعلَّ آخر أخذَه منك ، فذهب صاحب المال ، وفجأةً سأل القاضى المتهم : لماذا تأخر فلان طوالَ هذا الوقت ؟ فردَّ المتهم : لأن المكان بعيدٌ يا سيادة القاضى - فتأنته ذاكرته - ، ونعلق بالحق دون أن يشعر .

ثم يقول تعالى : ﴿يَأْتُونَكَ رِجَالًا .. (٧٧)﴾ [الحج] ورجالاً هنا ليست جمعاً لرجل ، إنما جمع لواجل ، وهو الذى يسير على رجليه ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ .. (٧٧)﴾ [الحج] الضامر الفرس أو البعير المهزول من طول السفر .

وتقديم العاشمين على الراكبين تأكيد للحكم الإلهى ﴿يَأْتُونَكَ .. (٧٧)﴾ [الحج] فالجميع حريص على أدائه المفريضة حتى إن حجَّ ماشياً . وقوله : ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٧٧)﴾ [الحج] أى - من كل طريق واسع ﴿عَمِيقٍ (٧٧)﴾ [الحج] يعنى : بعيد

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَآرِزِهِمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكُفُّوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾ (٢٨)

كلمة ﴿مَنَافِعَ .. (٢٨)﴾ [الحج] كلمة عامة واسعة تشمل كل أنواع للنفع - مادية دنيوية ، أو دينية أخروية ، ولا ينبغى أن تُضيق

ما وسَّعه الله ، فكلُّ ما يتصل بالحج من حركات الحيلة يُعد من المنافع ، فاستعدادك للحج ، وتجهيز نفقاته وأدواته ودراسته فيها منافع لك ولغيرك حين توفر لأهلك ما يكفيهم حتى تعود .

ما يتم من حركة بيع وشراء في مناطق الحج . كلها منافع مستباعدة بين الناس ، التاجر الذي يبيع لك ، وصاحب البيت الذي يُؤجره لك ، وصاحب السيارة التي تنقلك .

إذن . المنافع المادية في الحج كثيرة ومتشعبة ، متداخلة مع المنافع الدينية الآخروية ، فحين تشتري الهدى^(١) مثلاً تؤدي نُسكاً وتنتفع بالتاجر الذي باع لك ، والمربي الذي ربى هذا الهدى ، والجزار الذي ذبحه ، والمقبر الذي أكل منه

إذن . لا يتم الحج إلا بحركة حياة واسعة . فيها نفع لك وللناس من حيث لا تدري ، ولك أن تنتظر من الهدايا التي يجلبها الحجاج معهم لأهلبيهم وذويهم ، خاصة المصوبين منهم ، فتدري بعضهم ينشغل بجمع هذه الأشياء قبل أن يؤدي نُسكه ويقضي معظم وقته في الأسواق . وكأنه لن يكون حاجاً إلا إذا عاد مُحملاً بهذه الهدايا

لذلك كان يأتي إلينا بعض هؤلاء يسألون : أنا على نَم مُحْتَجَة^(٢)

(١) الهدى : الذبحة فُهدى إلى الحرم في الحج [القاموس القويم ٢٠١/٢] وهو مستحب للمحج المفرد والمفطر المفرد . ويؤتى على القارن والمعتكف ، وكذلك على من ترك واجباً من واجبات الحج كرمي الجمار أو طواف الوداع . وكذلك واجب على من ارتكب مظهراً من مظهرات الإحرام ، غير الزينة ، كالتهيب والحلل [لنظر تفصيل هذا وشروط الهدى في كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق ٥٣٦/١]

(٢) المحتج : هو الاجتهاد في أشهر الحج ، ثم يحج من عامه الذي اعتمر فيه ، ويسمى نمتاً للاعتكاف بأداء النُسك في أشهر الحج من عام واحد . من غير أن يرجع إلى بلد وصفة للمحتج أن يحرم من الميقات بالعمرة وحدها ، ويقول عند التلبية : لبيك بعمرة ، ويؤدي مناسك العمرة ، ثم يتحلل من إحرامه وينتفع بكل ما كان مُحَرماً عليه إلى أن يحرم بدم النحرية ، فيحرم من مكة والحج . وهذا يجب عليه الهدى [فقه السنة ٤٦٥/١ ، ٤٦٦]

وليس معنى تقويد . فماذا أفعل ؟ يريد أن يصوم صحيح . كيف سيؤدي ما عليه وقد أنفق كل ما معه ؟ فكنت أقول له اعطني حقيبة سفرك ، وسأبيع ما بها ، ولن أبقى لك إلا ما يكفيك من نفقات حتى تعود .

ليست هذه كلها من المنافع ؟

ومن منافع الحج أن الحاج منذ أن ينوي أداء هذه الفريضة ويعد نفسه لها إعداداً مادياً ، وإعداداً نفسياً معنوياً ، فيحاول أن يعيد حساباته من جديد ، ويصنع من نفسه ما كان فاسداً ، وينتهي عما كان يقع فيه من معصية الله ، ويصلح ما بينه وبين الناس ، إذن يجري عملية سنكل خاصة تحركه إلى إنسان جديد يليق بهذا الموقف العظيم ، ويكون آملاً لرؤية بيت الله والطواف به .

ومن الإعداد للحج أن يتعلم الحاج ما له وما عليه ، ويتأدب بأداب الحج فيعرف محظوراته وما يحرم عليه ، وأنه سوف يتنازل عن هذامه وملابسه التي يزهو بها ، ومكانته التي يفخر بها بين الناس ، وكيف أن الإحرام يسوي بين الجميع .

يتعلم كيف يتأدب مع نفسه ، ومع كل أجناس الكون من حوله^(١) ، مع نفسه فلا يفكر في معصية ، ولا تمتد يده حتى على شعرة من شعره ، أو تفر من أظافره ولا يقرب طيباً ، ولا حتى صابونة لها رائحة

والعجيب أن الحاج ساعة يدخل في الإحرام يحرص كل الحرص

(١) يقصد سيد للمحرم بالحج أو العمرة ، يقول تعالى ﴿يُنَاقِهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّدَاقَةَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [البقرة] ، ويقول أيضاً ﴿أَجَلْ لَكُمْ مِنْهُ جَهَنَّمُ تَعَالَى لَكُمْ فِيهَا نَارٌ وَنَارٌ تَنْجِيكُمْ مِنْهَا﴾ [المائدة]

على هذه الأحكام ، ولقحدى أى إنسان ينوى الحج ويأخذ فى الإحرام به ، ثم يفكر فى معصية ، لأنه يُعِدُّ نفسه لمرحلة جديدة يتطهر فيها من الذنوب ، فكيف يكتسب المزيد منها وقد أتى من بلاد بعيدة ليتطهر منها ؟

وفى الحج يتأدب الحاج مع الحيوان ، فلا يصيده ولا يقتله ، ومع الثبات فلا يقطع شجراً يتأدب حتى مع الجماد الذى يعتبره أدنى أجناس الكون ، فيحرص على تقبيل الحجر الأسود ، ويجتهد فى الوصول إليه ، فإن لم يستطع أشار إليه بيده

إن الحج التزام وانضباط يفرق أى انضباط يعرفه أهل الدنيا فى حركة حياتهم ، ففى الحج ترى هذا الإنسان السيد الأعلى لكل المخلوقات كم هو منكسر خاضع مهما كانت منزلته ، وكم هى طمانينة النفس البشرية حين تُقبَلُ حجراً وهى راضية خاضعة ، بل ويعزى الإنسان إذا لم يتمكن من تقبيل الحجر .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ وَذَكَرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ۖ ﴾ (٢٨)

[الحج]

يذكروا اسم الله ، لأن كل أعمال الحج مصحوبة بذكر الله وتلبيته ، فَمَا من عمل يُؤدِّيه الحاج إلا ويقول . اللهم لبيك . وتخل التلبية شاغله وتهدى إلى أن يرمى جمرة العقبة . ومعنى « لبيك اللهم لبيك » أن مشاغل الدنيا تطلبنى ، وأنت تطلبنى لأداء فَرَضِكَ على . فأنا ألبيك أنت أولاً ، لأنك خالقى وخالق كل ما يشغلنى ويأخذنى منك .

والأيام المعلومات هي . أيام التشريق

ومعنى ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ..﴾ (٢٨) ﴿[الحج] أَى . يشكرون الله على هذا الرزق الوقتى الذى يأكلون منه ويشربون ، ويبيعون ويشقرون فى أوقات الحج . أو يشكرون الله على أن خلق لهم هذه الأنعام ، وإن لم يحجوا ، ففى خلق الأنعام - وهى الإبل والبقر والغنم والماعز - وتسخيرها للإنسان حكمة بالغة ، فضلاً عن الانتفاع بلحمها ولبناتها وأصوافها وأوبارها اذكروا الله واشكروه أن سخرها لكم ، فلو لا تسخير الله لها لَمَا استطعتم أن تبتغوا بها ، فالجمل مثلاً هذا الحيوان الضخم يقوده الطفل الصغير ، ويتيخه ويحمله فى حين لم يستطع الإنسان تسخير الثعبان مثلاً أو الدب

لذلك يقول تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (٧٧) ﴿ رَدَّلْنَاهَا لَهُمْ ..﴾ (٧٧) ﴿[يس]

لذلك تذكر الله وتشكروه على ما رزقنا من بهيمة الأنعام استمتاعاً بها أكلاً ، أو استمتاعاً بها بيعاً أو ذبحة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْبِحُونَ وَحِينَ تُسَرِّحُونَ﴾ (٦) ﴿[النحل]

- (١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٦٧) أربعة أقوال فى تأويل الأيام المعلومات
- أيام العشر الأول من شهر ذى الحجة - قاله ابن عباس وابن موسى الأشعري ومجاهد وغيرهم وهو مذهب الشافعي والمشيهور من أحمد بن حنبل
 - يوم النحر وثلاثة أيام بعده - وهو أيام ١٠ ، ١١ ، ١٢ من شهر ذى الحجة - وهى السمة بأيام التشريق - قاله ابن عباس وابن عمر وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه .
 - يوم النحر ويومان بعده . قاله ابن عمر والسدى وهو مذهب مالك
 - يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق - قاله زيد بن أسلم أى أيام ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ .
- ١٢ من شهر ذى الحجة

وبولا أن الله تعالى ذللها لخدمتك ما استطعت أنت تذليلها
والانتفاع بها ؛ لذلك من حكمة الله أن يشرك بعض خلقه غير
مُسْتَأْنَس ، ولا يمكن لك بحال أن تستأنسه أو تُذْلكه لنظال على ذِكْر
لهذه النعمة ؛ وتشكر الله عليها .

ومسوق أن صرينا مثلاً بالبرغوث ، وهو من أدنى هذه المخلوقات ،
ولا تكاد تراه . ومع ذلك لا تقدر عليه ، وربما أفضى مَضْجَعك . وألقى
بومك طوال الليل وتلعب هذه النعمة في الجمل الذي يتوده لصبي
الصفير ، إذا حرن^(١) منك فلا تستطيع أن تجعله يسير رغماً عنه ، أو
صالح فلا يقدر عليه أحد ، وقد يقتل صاحبه ويبطش بمن حوله

إذن . لا قدرة لك عليه بدائك ، إنما يتفليس الله يمكن الانتفاع به ،
فتسوقه إلى تحرره ، فيقف ساكناً مُسْتَسْلماً لك .

والمعامل في حال الحيوانات التي أحلها الله لنا يجد أمره عجيباً ،
فالحيوان الذي أحله الله لك تظل تنتفع به طوال عمره ، فإذا ما تعرض
لما يزهق روحه ، ماذا يفعل ؟ يرفع رأسه إلى أعلى ، ويعصيك مكان
ذبحه ، وكأنه يقول لك : أنا في اللحظات الأخيرة فاجتهد في أن تنتفع
بلحسي ، وأهل الريف إذا شاهدوا مثل هذه الحالة يقولون : طلب
الحلال يعني الذبح أما الحيوان الذي لا يذبح ولا يحله الله فيموت
مُنْكَس الرأس ، لأنه لا فائدة منه .

هذا الحيوان الذي نتهمه بالغباء ونقول أنه بهيم الخ لو فكرت

(١) حرمت الذلابة قامت فلم تبرز [أى رفضت السير] لا تنقاد ، إذا استمر [حذب
منها] جريها وقت [لسان العرب - مادة حرن] .

سورة البقرة

﴿١٧٩﴾

فيه لَتَغْيِرَ رَأْيَكَ ، فاحسب الحمار الذي نتخذه رمزاً للغباء وعدم الفهم فسوقه أمامك وتحمّله القاذورات وتضربه فلا يعترض عليك ولا يخالفك ، فإن نفلت وزينته بلجام فضة ، وبربعة قطيفة تتخذه رُكُوبَة وزينة ويسير بك ويعملك ، وأنت على ظهره ، فإن غضبت عليه راسختمته في الاحمال وفي القاذورات تحمل راضياً مطيعاً..

وانظر إلى هذا الحمار الذي نتخذه مثلاً للغباء ، إذا أردت منه أن يفلز قناة أوسع من قدرته وإمكانياته ، فإنه يترجع ، ومهما ضربته وقسوت عليه لا يُقدِّم عليها أبداً ، لأنه يعلم مدى قفزته ويعلم قدرته ، ولا يُقدِّم على شيء فوق ما يطيق - وبعد ذلك نقول عنه : حمار !

ثم بقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَكُلُوا^(١) مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَاسِ الْفَقِيرِ (٧٨) ﴾ [الحج]

الباس : هو الذي يبدو على سحنته وشكله وزينه أنه فقير محتاج ، أما الفقير فهو محتاج الباطن ، وإن كان ظاهره اليسر والغنى ، وهؤلاء الفقراء لا يلتفت الناس إليهم ، وربما لا يعلمون حالهم وحاجتهم ، وقد قال الله فيهم : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ، (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

والمعنى . كُلُوا مما يُبَاح لكم الأكل منه ، وهي الصدقة المحضنة ، أو الهدية للبهت غير المشروطة بشيء ، يعنى : لا هي دم قرآن أو

(١) قال أبو بكر الجصاص (٣٧٠هـ) في كتابه « أحكام القرآن » ط . دار الكتب العلمية (٣٠٧/٢) « ظاهره يلتضى بإيجاب الأكل ، إلا أن السلف متفقون على أن الأكل منها ليس على الوجوب ، وقد روى عن عطاء والحسن وإبراهيم ومجاهد لقوا « إلى شاء أكل ، وإن شاء لم يأكل » .

تعتَم ، ولا هي فدية لمخالفة أمر من أمور الإحرام ، أو كانت تذراً
فهذه كلها لا يؤكل منها^(١) .

إذن : كلوا من الصدقة والتطوع ، وأطعموا كذلك البائس والفقير ،
ومن رحمة الله بالفقراء أن جعل الأغنياء والميسير هم الذين يبحثون
عن الذبائح ويشترونها ويذهبون لمكان الذبح ويتحملون مشقة هذا
كله ، ثم يبحثون عن الفقير ليعطوه وهو جالس في مكانه مستريحاً ،
يأتيه رزقه من فضل الله سهلاً ميسراً .

لذلك يقولون : من شرف الفقير أن جعله الله ركناً من أركان
إسلام الغنى ، أى : فى فريضة الزكاة ، ولم يجعل الغنى ركناً من
أركان إسلام الفقير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ
وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾^(٢)

(١) قال الجصاص فى أحكام القرآن ، (٣ / ٢٠٧) : الناس فى دم القران والمستمة على
الولدين : منهم من لا يجيز الأكل منه . ومنهم من يبيح الأكل منه ولا يوجب به ، وقال
الشافعى فى كتب الام (٢ / ٢٤) : الهدى مديان واجب ونظير ، فكل ما كلى أصله
وجيباً على إنسان ليس له حبسه ، فلا ياكل منه شيئاً وذلك مثل : دمنى الفساد والطبيب
وجزاء الصيد والذئور والمعة ، وإن أكل من الهدى الواجب تصدق بقيمة ما أكل منه ، وكل
ما كلى أصله تطرحاً مثل الضحايا والهدايا تطرحاً أكل منه وأطعم وأهدى وأضر وتصدق ،
وجب إلى أن لا ياكل ولا يبيع إلا تلكاً ويهدى تلكاً ويتصدق بذلك .

(٢) قال الزجاج لا يعرف أهل اللغة الثلاث إلا من التفسير وقال أبو عبيدة لم يجر فيه
شعر يحتاج به . وقال ابن الأعرابي : ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ [الحج] قال قتادة
هو أنهم من الحلق والتطيف . [لسان العرب - مادة بكت]

﴿لَيَقْضُوا .. (٦٩)﴾ [الحج] كلمة قضاء تُقال ، إما لقضاء الله الذي يقضيه على الإنسان مثلاً ، وهو أمر لازم محكوم به ، وإما قضاء من إنسان بين متخاصمين ، وأول شيء في مهمة القضاء أن يقطع الخصومة ، كان المعنى ﴿لَيَقْضُوا . (٦٩)﴾ [الحج] أي يقطعوا ومعنى ﴿تَقْضُهُمْ .. (٧٩)﴾ [الحج] لما نزل القرآن بهذه الكلمة لم تكن مستعملة في لسان قريش ، ولم تكن دائمة على ألسنتهم . فسألوا أهل الياضية ، فقالوا ، التَّقِضُ يعني : الإدراة والأوساخ التي تعلق بالجسم ، فقالوا ، والله لم نعرفها ، لا ساعة نزل القرآن بها

فالمراد - إذن - ليقطعو تقاضهم أى الادران التى لحقتهم بسبب التزامهم بأمور الإحرام ، حيث يمكث الحاج أيام الحج مُحَرَّمًا لا يتطيب ، ولا يأخذ شيئاً من شعره أو أظفاره ، فإذا ما أنهى أعمال الحج وذبح هدّبه يجوز له أن يقطع هذا التلغث ، ويزيل هذه الادران بانتحُل من الإحرام ، وفعل ما كان محظوراً عليه .

وقوله تعالى : ﴿وَيُؤْمِنُوا نُورَهُمْ﴾ .. (٢٩) ﴿[الحج] إِنْ كَانَ قَدْ نَذَرَ
لَهُ شَيْئًا فَعَلَيْهِ الْوَفَاءُ بِهِ .

﴿وَلْيَطْرُقُوا بِأَبْوَابِ الْحَقِّ﴾ [الحج] يعنى طواف الإفاضة ، والطواف أن تدور حول شيء بحيث تبدأ وتنتهى ، وتبدأ وتنتهى . وهكذا ، وقد وصف البيت بأنه عتيق ، وكلمة عتيق استعملت فى اللغة استعمالات واسعة ، منها ، القديم ، وما دام هو أو بيت وُصِفَ للناس فهو إنَّ قديم ، والقَدَمُ هنا صفة مدح ، لأنها تعنى الشيء الثمين الذى يُحافظ عليه ويُهْتَمُّ به

كما نرى عند بعض الناس أشياء ثمينة ونادرة يحتفظون بها

ويتوارثونها يسمونها « العاديات » مثل التحف وغيرها ، وكلما مرّ عليها الزمن زادت قيمتها ، وغلا ثمنها .

والعتيق . الشيء الجميل الحسن ، والعتيق . المعتوق من السيطرة والعبودية لغيره ، فما المراد بوصف البيت هنا بأنه عتيق ؟

وصف البيت بالقدم يشمل كلّ هذه المعاني . فهو قديم ، لأنه أول بيت وُضع للناس ، وهو غال ونفيس وندر حيث نوى فيه ما لا تراه في غيره من آيات ، ويكفي أن رؤيته والطواف به تغفر الذنوب ، وهو بيت الله الذي لا مثيل له .

وهو كذلك عتيق بمعنى مستوق من سيطرة الغير ، لأن الله حفظه من اعتداء اجبابرة ، ألا ترى قصة الفيل ، وما فعله الله بتأمره حين أراد هدمه ؟ حتى الفيل الذي كان يتقدم هذا الجيش أدرك أن هذا اعتداءً على بيت الله ، فترجع عن البيت . وأخذ يتوجّه أي جهة أرادوا إلا فاحية الكعبة .

ويقال إن رجالاً تقدم إلى الفيل وقال في أذنه . أبرك محمرد - اسم الفيل - وارجع راشداً فلأنك ببلد الله المرام . وقد عثر الشاعر^(١) عن هذا الموقف ، فقال :

حُبِسَ الفيل بالمُغَمَّسِ حَتَّى قَلَّ يَعرى كأنه مَعْدُورٌ^(٢)

ثم ينزل الله عليهم الطير اليا بابل التي نرميهم بالحجارة حتى الموت .

(١) هو تميم بن حبيب الدثمي . فيما ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٢/١٠٢)

(٢) هو أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي

(٣) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١ / ٦٠) هذا البيت ضمن أبيات أخرى لأمية بن أبي الصلت

لذلك لما ذهب عبد المطلب جد الرسول ﷺ ليُكلم أبرهة في الإبل
المائة التي أخذها من إبله ، قال أبرهة : لقد كنتُ أهابك^(١) حين
رأيتك ، لكنك سقطت من نظري لما كلمتني في مائة بعير أصبتُها لك ،
وتركت البيت الذي فيه مجدكم وعزكم .

فماذا قال عبد المطلب ؟ قال أما الإبل فإنها لي ، أما البيت فله
رَبُّ يحميه

البعض يتهم عبد المطلب لمقالته هذه بالسلبية ، وليست هذه
سلبية من كبير قريش ، إنما ثقةً منه في حماية الله لبيته ، لذلك رَدَّه
إلى أقوى منه ، وكانه قال : إن كنتُ أحميه أنا ، فسأحميه بقوتي
وقدوتي وحيلاتي ، لكنني أريد أن أعبه بقدرة الله وقوته ، وما سلَّمتُ
البيت إلا وأنا واثق أن ربَّ البيت سيحميه ، وهذه تُزلزل العدو
وتُربكه .

وما أشبه موقف عبد المطلب بموقف موسى عليه السلام ، لما
قال له قومه ﴿ إِنَّا نَمُذِّرُكَوْنُ (٦١) ﴾ [الشعراء] فقال في يقين وثقة .
﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

إذن ، لم يُكنْ عبد المطلب سلبياً كما يتهمه البعض ، بل كان إيجابياً
من النوع الراقى ، علو كآس إيجابياً بالمعنى الذي قريدون لأعطته هذه
الإيجابية منعةً بقوته هو ، إنما تصرَّفه وما تعتبرونه سلبية أعطاه منعةً
بقدرة الله وقوته سبحانه ؛ لذلك تدخلت فوراً جنود السماء .

(١) ويذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١٩/١) أن عبد المطلب كان أرسم الناس
وجليلهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة لجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلس تحته ، وكره أن
تراه الميشة يجلس معه على سرير ملكه فذل أبرهة عن سيره ، فجلس على بساطه ،
واجتمع معه علي بن جندب ،

نكن ، لعماد الطواف والدورن حول الكعبة ؟

قالوا : لأن المسلم وهو غائب عن الكعبة يُعْنَى لجهتها ، كل حسب موقعه منها ، فتجد المسلمين في كل أنحاء العالم يتجهون نحوها ، كل من ناحية ، هذا من الشمال ، وهذا من الجنوب ، وهذا من الشرق ، وهذا من الغرب ، يعنى بكل الجهات الأصلية والفرعية

فإنما ما ذهبنا إلى الكعبة ذاتها ، وتشرفت برؤيتها ، فهل يستقلها من نفس المكان الذى كنت تتجه إليه في صلاتك وغيرك وغيرك ؟ إننى فكل اتجاهات الكعبة سواء لك ولغيرك ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا قَسَمَ وَجْهِ اللَّهِ .. (١١٥) ﴾ [البقرة] فليس هناك مكان أولى من مكان : لذلك نطوف حول البيت .

ثم يقول اسحق سبحانه

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُسَلَّنَ عَلَيْكُمْ فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ^(١) وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿ ذَلِكَ .. (٢٠) ﴾ [الحج] إشارة إلى الكلام السابق بأنه أمر واضح ، لكن استمع إلى أمر جديد سيأتى ، فهنا استئناف كلام على كلام سابق ، فبعد الكلام عن البيت وما يتعلق به من مناسك الحج يستأنف السياق .

(١) الأوثان جمع وثن ، وهو التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو لفضة وصورها وكانت العرب تنصبها رتبهما ، والصارى تنصب للصليب وتعبده وتعتكبه فهو كالتماثيل أبقسا وقال حذى ابن حاتم : أثير النبى ﷺ ونهى عنى صليب من ذهب فقال : ، ألق هذا الوثن عندك ، أى الصليب وأصله من وثن الشيء أى أقام فى مقامه . [تفسير القرطبي ٦/ ٤٥٨٥] .

سورة الحج

﴿ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ لَهُ عِزٌّ زَيْنٌ ۚ ﴾ [حج] فالحق

- سبحانه - يريد لعبده أن يلتزم أوامره بفعل الأمر واجتناب النهي ، فكل أمر لله يحرم عليك أن تتركه ، وكل نهى يحرم عليك أن تأتيه ، فهذه هي حرمة الله التي ينبغي عليك تعظيمها بطاعة الأمر واجتناب النهي .

وحين تُعْظَم هذه الحرمات لا تُعْظَمها لذاتها ، فليس هناك شيء له حرمة في ذاته ، إنما تُعْظَمها لأنها حرمة الله وأوامره ؛ لذلك قد يجعل الالتزام بها مُتَغَيِّرًا ، وقد يطرأ عليك ما يبدو متناقضاً من الظاهر .

فالموضوء مثلاً ، البعض يرى فيه نظافة للبدن ، فإذا انقطع الماء وعدم وجوده حلٌ محلّ التيمم بالتراب الطاهر الذي تُغَيَّر به أعضاء التيمم ، إذن ليس في الأمر نظافة ، إنما هو الالتزام والانقياد واستحضار أنك مُقْبِل على أمر غير عادي يجب عليك أن تتطهر له بالموضوء ، فإن أمرتُك بالتيمم فعليك الالتزام دون البحث في أسباب الأمر وعلته

وهكذا يكون الأدب مع الأوامر وتعظيمها ؛ لأنها من الله ، ولم لا ونحن نرى مثل هذا الالتزام أو رياضة القسايب في الالتزام في تعاملاتنا الطبيعية الحياتية ، فمثلاً الجندي حين يُجَنَّد يتعلم أول ما يتعلم الانضباط قبل أن يُمسك سلاحاً أو يتدرب عليه ، يتعلم أن كلمة « ثابت » معناها عدم الحركة مهما كانت الظروف فلو لدغته عقرب لا يتحرك

ويدخل المدرب على الجنود في صالة الطعام فيقول : ثابت فينقذ الجميع .. الملعقة التي في الطبق تظل في الطبق ، والملعقة التي في

فم الجندى تظل في فمه ، فلا ترى في الصلاة لواسعة حركة واحدة . وهذا الانضباط الحركي السلوكي مقدمة للانضباط في الأمور العسكرية الهامة والخطيرة بعد ذلك

إِنَّ فَرِيضَتَكَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَوْلَى بِهَذَا الانضباط ، لأن العبادة ما هي إلا انضباط عابد لأوامر معبود وطاعة مطلقة لا تقبل المناقشة ؛ لأنك لا تقيديها لذاتها وإنما انقياداً لأمر الله ، ففي الطواف تُقْبَلُ الحجر الأسود ، وفي رمي الجمار ترمى حجراً ، وهذا حجر وذاك حجر ، هذا ندوسه وهذا نُقْبَلُهُ فَحَجَرٌ يُقْبَلُ وَحَجَرٌ يُقْتَبَلُ ؛ لأن المسألة مسألة طاعة والتزام . هذا كله من تعظيم حرمات الله

لذلك الإمام علي - رضي الله عنه - يلفتنا إلى هذه المسألة فيقول في التيمم : لو أن الأمر كما نرى لكان مسح باطن القدم أَوْلَى من ظاهرها^(١) ، لأن الأوساخ تعلق بباطن القدم أولاً .

وقد ذكرنا في الآيات السابقة أن الحرمات خمس : البيت الحرام . والمسجد الحرام . والبلد الحرام . والمشعر الحرام . والشهر الحرام ، وحرمات الله هي الأشياء المحرمة التي يجب ألا تقطعها .

ثم يُبَيِّنُ الحق سبحانه جلاء هذا الالتزام : ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ إِذَا رَمَى . (٤٠) ﴾ [الحج] الخيرية هنا ليست في ظاهر الأمر وعند الناس أو في ذاته ، إنما الخيرية للعبد عند الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ .. (٤١) ﴾ [الحج] قد تقول كيف وهي حلال من البداية وفي الأصل .

(١) روى أبو داود في سننه (١٦٢) عن عيسى بن أبي طالب أنه قال : لو كان الدين بالرائي لكان أسفل الصف أَوْلَى بالمسح من أعلاه . وقد رايت رسول الله ﷺ يمسح على ظهره خفيه ، وفي رواية أخرى (١٦٤) : لو كان الدين بالرائي لكان باطن القدمين أعق بالمسح من ظاهرهما .

قالوا - لأنه لما حُرِّمَ الصيد قد يظن البعض أنه حرام دائماً فلا ينتفعون بها ، فبيّن سبحانه أنها حلال إلا ما ذكر تحريمه . ونص القرآن عليه في قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخنزيرِ وَمَا أَهْلُ لغيرِ الله به وَالْمُنْتَحِنَةُ ^(١) وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ .. ﴾ [المائدة]

وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ .. ﴾ [الأنعام]

ومعنى ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ .. ﴾ [الحج] الرجس النجاسة الغليظة المتغلغلة في ذات الشيء . يعنى . ليست سطحية فيه يمكن إزالتها ، وإنما هي في نفس الشيء لا يمكن أن تفصلها عنه .

﴿ وَاجْتَنِبُوا .. ﴾ [الحج] لا تلب على الامتناع فقط ، إنما على مجرد الاقتراب من دواعي هذه المعصية ؛ لأنك حين تقترب من دواعي المعصية وأسبابها لا بد أن تداعبك وتشغل خاطرك ، ومن حرام حول الشيء يوشك أن يقع فيه ، لذلك لم يقل الحق - سبحانه وتعالى - امتنعوا إنما قال : اجتنبوا ، ونعجب من بعض الذين أسرفوا على أنفسهم ويقولون : إن الأمر في اجتنبوا لا يعنى تحريم الخمر ، فلم يقل حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْخَمْرُ .

نقول اجتنبوا أبلغ في النهي والتحريم وأوسع من حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ، هو قال الحق - تبارك وتعالى - حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْخَمْرُ . فهذا يعنى أنك لا تشربها ، ولكن لك أن تشهد مجلسها وتعصرها وتحملها

(١) المنتحنة البهيمة التي تلف حول علفها فتنفخ مائتة والموقوذة هي الحيوان الذي وقذ (ضرب) بعضاً أو حجر حتى مات قبل أن يُذَكَّى ذكاة شرعية . والمتردية هي التي ماتت بسبب سقوطها في حفرة . والنطيحة ما ماتت بسبب النطح [القايوس القويم]

وتبيحها ، أما اجتنبوا فتعنى احذروا مجرد الاقترب منها على أى وجه من هذه الوجوه

لذلك ، تجد الأداء لقصرانى للمطلوبات المنهجية فى الأوامر والنواهي من الله يُفَرِّق بين حدود ما أحل الله وحدود ما حرم ، ففى الأوامر يقول ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُهَا .. ﴾ (٢٢٩) [البقرة]

وفى النواهي يقول ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُهَا .. ﴾ (٢٨٧) [البقرة]

فهى الأوامر وما أحل الله لكقف عند ما أحل ، ولا تقتعداه إلى غيره ، أمّا المحرمات فلا تقترب منها مجرد اقترب ، فلما أراد الله نهى آدم وحواء عن الأكل من الشجرة قل لهما ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. ﴾ (٢٥) [البقرة]

وبعد أن أمر الحق سبحانه باجتناب الرجس فى عبادة الأصنام قال ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (٤) [الحج] فقرر عبادة الأوثان بقول الزور ، كأنهما فى الإثم سواء ؛ لذلك النسي ﷺ سلم يوماً من صلاة الصبح ، ثم وقف وقال : « ألا وإن شهادة الزور جعلها الله بعد الأوثان »^(١)

لماذا ؟ لأن فى شهادة الزور جماع لكل حيثيات الحالم ، فساعة يقول ليس لكون إله ، فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، ساعة يقول الإله له شريك فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، كذلك حين يظلم أو يُفسر فى الحقيقة ، أو يذم الآخرين ، كلها داخلة تحت شهادة الزور

(١) عن جرير بن عوف الأسدي قال : « صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، علمنا انصرف قائماً قال : عجلت شهادة الزور بالإشهاد بالله (ثلاثاً) . ثم تلا هذه الآية ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ من الأوثان واجتنبوا قول الزور (٤) [الحج] » أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢١/٤) . والترمذى فى سننه (٢٣٠٠) . وأبو داود فى سننه (٣٥٩٩)

ولما عدّد النبي ﷺ اكباشه ، قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا .
 بلى يا رسول الله . قال . الإشراف بالله ، وحقوق الوالدين - وكان متكئاً
 فجلس - فقال . ألا وقول الزور ، وقول الزور ، قال الروي : فما زال
 يكررها حتى قلنا (لفته سكت) أو حتى ظننا أنه لا يسكت^(١)
 ويقولون في شاهد الزور : يا شاهد الزور أنت شر منظور ،
 ضللت القضاة ، وحلفت كاذباً بالله .

ومن العجيب في شاهد الزور أنه أول ما يسقط من نظر الناس
 يسقط من نظر مَنْ شهد لصالحه ، فرغم أنه شهد لصالحك ، ورفع
 رأسك على خصمك لكن داست قدمك على كرامته وحقوقه ، ولو
 تعرض لشهادة في قضية أخرى فانت أول من تفضحه بأنه شهد
 زوراً لصالحك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنِ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا
 خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ
 فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ۚ ﴾

اكتفت الآية بذكر صفتين فقط من صفات كثيرة على وجه
 لإجمال ، وهما حنفاء لله ، غير مشركين به ، وحنفاء جمع حنيف ،

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٥١٧٦) ، وكذا مسلم في صحيحه
 (٨٧) من حديث أبي بكره . قال ابن دقيق العيد : « امتناعه ﷺ بشهادة الزور يستل أن
 يكون لأنها أسهر وقوعاً على الناس ، والتهلوت بها أكثر ، ومخسرتها أيسر وقوعاً ؛ لأن
 الشرك ينفي عنه المسلم ، والمقوق يذهب عنه الطبع ، وأما قول الزور فإن الحوامل عليه
 كثيرة فحسن الامتناع بها ، وليس ذلك لاعتبارها بالنسبة إلى ما ذكر معها »

مأخوذة من حنف الرجل يعنى . تقوسها وعدم استقامتها فيقال فيه حنك أى ميل عن الاستقامة ، وليس الوصف هنا بأنهم مُفْجَون ، إنما المراد أن الاعوجاج عن الاعوجاج استقامة

لذلك وُصف إبراهيم - عليه السلام - بأنه ﴿كَانَ حَنِيفًا ۖ﴾ (١٧) [آل عمران] يعنى . مائلاً عن عبادة الأصنام .

وقلنا إن السماء لا تتدخل برسالة جديدة إلا حين يعمُ الفسادُ القومَ ، ويستشرى بينهم انحلال ، وتنعدم أسباب الهداية ، حيث لا واعظ للإنسان لا من نفسه وضميره ، ولا من دينه ، ولا من مجتمعه وبيئته . ذلك لأن فى النفس البشرية مناعة للحق طبيعية . لكن تلمسها الشهوات ، فإذا عُدِمَ هذا الوعظ وهذه المناعة فى المجتمع تَدَحَّطَتِ السماء بنبي جديد ، ورسالة جديدة ، وإنذار جديد ، لأن الفساد عَمُ الجميع ، ولم يَعدْ أحد يعطِ الآخر ويهديه

وهذا المعنى الذى قال الله فيه . ﴿كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ مِنْ مُكْرِمَعُولِهِمْ أُنَاسًا ۚ﴾ (٧١) [المائدة]

ومن هنا شهد الله لامة محمد ﷺ أنها خير أمة أخرجت للناس ، لأن المناعة للحق فيها قائمة ، ولها واعظ من نفسها يأمر بالخير ، ويأخذ على يد المنحرف حتى يستقيم ، لذلك قال فيها النبى ﷺ . «الخير فى أمتى وفى يوم القيامة»^(١)

والمعنى الخير فى حصراً وفى أمتى تَمَرّاً . فرسول الله ﷺ جمع خصال الخير كله ، وخصه الله بالكمال ، لكن من يطبق الكمال

(١) أورده السيوطى فى «الدرر المنتشرة فى الأهلبيث الممثلة» (حديث ٢٢) وقال «قال الجليل ابن حجر لا أمره» وقال ابن حجر المكي فى الفتاوى التحفية «لم يرد بهذا اللفظ ، وإنما يدل على معناه الجبر المشهور لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق» نقله العجلونى فى كشف الخفاء (١٧٩/١)

سُورَةُ الْحَجِّ

٩٨٠٢

المصمدي من أمته ؟ لذلك نشر الله خصال الخير في جميع أمة محمد ،
فأخذ كل واحد منهم صفة من صفاته فكماله ﷺ منثور في أمته .
هذا كريم ، وهذا شجاع ، وهذا حلیم .. إلخ .

ولما كان لأمة محمد هذا الدور كان هو خاتم الأنبياء ؛ لأن أمته
ستؤدي رسالته من بعده ، فلا حاجة - إذن - لتدخل السماء برسالة
جديدة إلى أن تقوم الساعة

إذن تقول الرسل لا تأتي إلا عند الاعوجاج ، يأتون هم ليقيموا
هذا الاعوجاج ويميلون عنه إلى الاستقامة ، هذا معنى الحنيف أو
﴿ حَنَفَاءَ لِلَّهِ .. ﴾ (٣٦)

وهذه الصفة هي مقياس الاستقامة على أوامر الله لا على أوامر
البشر ، فنحن لا نضع لأنفسنا أسباباً لكمال ثم نقول : ينبغي أن يكون
كذا وكذا ، لا إنما الذي يضع أسباب الكمال للمخلوق هو الخالق .

ولمق - سبحانه وتعالى - ليس مراده من الفعل أَنْ يفعل لذاته
ولمجرد الفعل ، إنما مراده من الفعل أَنْ يفعل لأنه أمر به ، وقد
أوضحنا هذه المسألة بالكافر الذي يفعل الخير وينفع الناس
والمجتمع ، لكن ليس من منطلق الدين وأمر الله ، إنما من منطلق
الإنسانية والمكانة الاجتماعية والمهابة والمنزلة بين الناس ، ومثل هذا
لا يجصف الله حقه ، ولا يخصه ثواب عمله ، يعطيه لكن في الدنيا
عملاً بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ
أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (٣٧)

لكن لا حظ لهؤلاء في ثواب الآخرة ، لأنهم عملوا للمجتمع
والناس والمنزلة ، وقد أخذوا المقابل في الدنيا شهرة وصيتاً ذائعاً ،
ومكانة وتخليداً .

وفي الحديث القدسي يقول الحق سبحانه لهم : لقد فعلت ليقال وقد قيل ، ^(١) وانتهت المسألة .

والحق - تبارك وتعالى - ضرب لنا عدة أمثلة لهؤلاء ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا رَوَّحَهُ اللَّهُ عَنْهُ فَرَغَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور]
فعمل الكافر كالسراب يتراءى له من بعيد ، يظن من ورائه الخير ، وهو ليس كذلك ، حتى إذا ما عاين الأمر لم يجد شيئاً ، وفوجيء بوجود إله عادل لم يكن في ياله يوم عمل ما عمل .

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ .. ﴾ [١٨] [ابن ميم]

وقال : ﴿ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ^(٢) عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [٢٦٤] [البقرة]

وهل يثبت المطر شيئاً إذا نزل على الحجر الصُّدِّ الأملس ؟ هكذا

(١) عن ابن مبررة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه معه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ، ولكنه قال قلت لأن يقال جرى فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) وأحمد في مستدركه (٢٢٢/٢) والنسائي في سننه (٢٤٠٢/٦) وذكره كثير من أئمة الحديث .
تعمم العلم وعلمه ورجل ومنع الله عليه . وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوي تفصيلاً في الأحاديث القدسية ١/١٢٥ - ١٥١ .

(٢) الصفوان الحجر الأملس الذي لا يصلح للدرع ومثله الصلد والويل المطر الخفيف . [القاموس القويم]

عمل الكافر ، فمن أراد ثواب الآخرة فليحقيق معنى ﴿حَقَّاءَ لِلَّهِ ..﴾ [الحج] ويعمل من منطلق أن الله أمر .

إذن . العمل لا يفعل ؛ لأنه حسن في ذاته ، إنما لأن الله أمرك به ، بدليل أن الشارع سبحانه بأمور لا تجد فيها حسناً ، ومع ذلك عليك أن تلتزم بها لتحقيق الانضباط الذي أرادته منك الشارع الحكيم ، وبعد ذلك سينكشف لك وجه الحسن في هذا العمل ، وتعلم الحكمة منه .

خذ مثلاً موقف الإسلام من اليتيم ، وقد حث رسول الله ﷺ على رعايته وإكرامه وكفالاته حتى أنه قال « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى ، ^(١) لكافل اليتيم قرين لرسول الله في الجنة

ففي هذا الموقف حكم كثيرة ، قد لا يعلمها كثير من الناس ؛ لأن اليتيم فقد أباه وهو صغير ، ونظر فلم يجد له أباً ، في حين يتمتع رفاقه بأحضان آبائهم ، فإذا لم يجد هذا الصغير حناناً من كل الناس كأنهم آبائه لتربى عنده شعور بالسُّخْط على الله والاعتراض على القدر الذي حرمه دون غيره من حنان الأب ورعايته .

لذلك يريد الإسلام أن ينشأ اليتيم نشأة سوية في المجتمع ، لا يسخط على الله ، ولا يسخط على الناس ، لأنهم جميعاً عاملوه كأنه واحد لهم .

وهناك ملحظ آخر . حين ترى مكانة اليتيم ، وكيف يرعاه المجتمع ويدهص به يطمئن قلبك إن فاجأك الموت وأولادك سفار .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٠٤ ، ٦٠٠٥) ، وأبو داود في سننه (٥١٥٠) من حديث رسول بن سعد السلمي

هذه مناعات يجعلها الإسلام في المجتمع . مناعة في نفس اليتيم ، ومناعة فيمن يرعاه ويكفله .

وكفالة اليتيم وإكرامه لا بُدُّ أن تتم في إطار ﴿حَقَّاءَ لِلَّهِ ..﴾ (٢١) ﴿[الحج] فيكون عمك لله خالصاً ، دون نظر إلى شيء آخر من منافع الدنيا ، كالذي يسمى للرعاية على اليتيم لينتفع بماله ، أو أن له مطعماً في أمه .. إلخ فهذا عمله كالذي قلنا (كسراب بقيعة) أو كرماد اشتدت به الريح أو كحجر أملس صلد لا ينبت شيئاً .

فإن حاول الإنسان إخلاص النية لله في مثل هذا العمل فإنه لا يامن أن يخالطه شيء ، كما جاء في الحديث الشريف . « اللهم إني أستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطني فيه ما ليس لك »^(١) .

الصفة الثانية التي وصف الله بها عباده المؤمنين ﴿غَيْرُ مُشْرِكِينَ بِهِ ..﴾ (٣١) ﴿[الحج] فالشرك أمر عظيم ، لأن الحق - تبارك وتعالى - كما قال في الحديث القدسي - أغنى الشركاء عن الشرك ، فكيف تلجأ إلى غير الله والله موجود ؟

لذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي « إذا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه »^(٢) .

ويعطينا الحق سبحانه بعدما صورة توصيفية لعاقبة الشرك : ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ﴾ (٣١) ﴿[الحج]

(١) ذكره ابن رجب الحنبلي في كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطوف ابن عبد الله أنه كان يقول اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه . وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أفك لك به ، وأستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمت

(٢) أخرجه مسلم في مسنده (٢٩٨٥) وابن ماجه في سننه (٤٢٠٢) واللفظ لمسلم من أبي هريرة رضي الله عنه

سورة الحج

﴿١٨٠٧﴾

خُرُ يُعْنِي سَقَطَ مِنَ السَّمَاءِ لَا يُمَسِّكُهُ شَيْءٌ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى :
﴿ خُرُ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ .. ﴾ (٢٦)

[النحل]

وَفِي الْإِنْسَانِ جُمَادِيَّةٌ ، لِأَنَّ قَانُونَ الْجاذِبِيَّةِ يَتَحَكَّمُ فِيهِ ، فَإِنْ صَعِدَ إِلَى أَعْلَى لَا يَدُّ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ بِفِعْلِ هَذِهِ الْجاذِبِيَّةِ ، لَا يَمْلِكُ أَنْ يُعَمِّكَ نَفْسَهُ مُعَلَّقًا فِي الْهَوَاءِ ، فَهَذَا أَمْرٌ لَا يَمْلِكُهُ وَخَارِجٌ اسْتَطَاعَتِهِ ، وَفِي الْإِنْسَانِ نَبَاتِيَّةٌ تَتِمَّلُ فِي النَّمْرِ ، وَفِيهِ حَيَوَانِيَّةٌ تَتِمَّلُ فِي الْفَرَائِضِ ، وَفِيهِ إِنْسَانِيَّةٌ تَتِمَّلُ فِي الْعَقْلِ وَاسْتَفْكَارٍ وَالْإِخْتِبَارِ بَيْنَ الْبِدَائِلِ ، وَبِهَذِهِ كُرِّمَ عَنْ سَائِرِ الْأَجْنَاسِ .

وَتَلَحَّظْ أَنَّ (خُرُ) تَرْتَبِطُ بِارْتِفَاعٍ بَعِيدٍ ﴿ خُرُ مِنَ السَّمَاءِ .. ﴾ (٢٦)
[الحج] بِحَيْثُ لَا تَسْتَطِيعُ قُوَّةُ أَنْ تُحْمِيَهُ ، أَوْ تَمْنَعَهُ لَا بِذَاتِهِ وَلَا بِغَيْرِهِ .
وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْأَرْضِ تَتَخَفُظُهُ الطَّيْرُ ، فَإِنْ لَمْ تَتَخَفُظْهُ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ وَتَتَلَاعَبُ بِهِ ، فَهُوَ هَاكُ هَاكُ لَا مُحَالَةَ ، وَلَوْ كَانَتْ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ لَكَانَتْ كَافِيَةً

وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَتَأَمَّلَ مَعْرَى هَذَا التَّصْوِيرِ الْقُرْآنِيَّ فَيَحْذَرُ هَذَا لِمَصِيرٍ فَهَذِهِ حَالُ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ ، فَإِنْ أَخَذَتِ الصُّورَةُ عَلَى أَنَّهَا تَشْبِيهِ حَالَةَ بِحَالَةٍ ، فَهِيَ الصُّورَةُ أَمَامَكَ وَاضِحَةٌ ، وَإِنْ أَرَدْتَ تَفْسِيرًا آخَرَ يُوضِّحُ أَجْزَاءَهَا فَالسَّمَاءُ هِيَ الْإِسْلَامُ ، وَالطَّيْرُ هِيَ الشَّهَوَاتُ ، وَالرِّيحُ هِيَ رِيحُ الشَّيْطَانِ ، يَتَلَاعَبُ بِهِ هُنَا وَهُنَاكَ فَهُوَ ضَيَاعٌ بَعْدَ هَذَا ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْقُذُهُ مِنْ هَذَا لِمَصِيرٍ ؟

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا
مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (٢٢)

﴿ذَلِكَ .. (٢٢)﴾ [الحج] كما قلنا في السابقة . إشارة إلى الكلام السابق الذي أصبح واضحاً معروفاً ، ونستأنف بعدها كلاماً جديداً نكتبه له .

﴿وَمَنْ عَظَّمَ شَعَائِرَ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [الحج] الشعائر جمع شعيرة ، وهي المعالم التي جعلها الله لعباده لينالوا ثوابه بتعظيمها ، فالإحرام شعيرة ، والتكبير شعيرة ، والطواف شعيرة ، والسعي شعيرة ، ورأس الجمار شعيرة .. إلخ . وهذه أمور عظمها الله ، وأمرنا بتعظيمها^(١) .

وتعظيم الشيء أبلغ وأشمل من فعله ، أو أدائه ، أو عمله ، عظم الشعائر يعني أدائها بحب وعشق وإخلاص ، وجاء بها على الوجه الأكمل ، وربما زاد على ما طلب منه .

ومثالنا في ذلك خليل الله إبراهيم ، عندما أمره الله أن يرفع قواعد البيت كان يكفيه أن يبتني على قدر ما تطوله يده ، وبذلك يكون قد أدى ما أمر به ، لكنه عشق هذا التكليف وأحبّه فاحتال للامر ووضع حجراً على حجر ليقف عليه ، ويرفع البناء بقدر ما ارتفع إليه .

فمحبّة أمر الله مَرَقَى من مراقب الإيمان ، يجب أن نسمو إليه ، حتى في العمل الدنيوي هَبْ أَفْكَ ثَقُلْتَ إِلَى دِيْوَانٍ جَدِيدٍ ، ووصل إلى علمك أن مدير هذا الديوان رجل جاد وصعب ، ويحاسب على كل صغيرة وكبيرة ، فيمنع التأخير أو التسهّب أثناء الدوام الرسمي . فإذا

(١) هناك قول آخر في تفسير هذه الآية ، فالمفسرون بشعائر الله هنا البُنى والهدى الذي يُهدى إلى الكعبة . وتعظيم شعائر الله هنا معناه استعظام البُنى واستعظامها واستعسانها [راجع الآثار التي أوردها السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالعائور (١٦/٦) عن ابن عباس ومجاهد] .

بك تلتزم بهذه التعليمات حرفياً ، بل وتزيد عليها ليس حباً في العمل ، ولكن حتى لا تُسئَل أمام هذا المدير في يوم من الأيام .

إذن . الهدف أن تؤدي التكاليف بحُبٍّ وعشقٍ يوصلنا إلى حب الله عز وجل : لذلك نجد من أهل المعرفة مَنْ يقول : رَبُّ مَعْصِيَةٍ أَوْرَثَتْ ذِلاًَّ وَانْكَسَاراً خَيْرٌ مِنْ طَاعَةِ أَوْرَثَتْ عِزّاً وَاسْتِكْبَاراً^(١) .

فالهم أن تصل إلى الله ، أن تخضع لله ، أن نذلَّ لعزته وجلاله ، والمعصية التي تُوصلك إلى هذه الغاية خير من الطاعة التي تُسلِّعك للفرور والاستكبار

هذه المحبة لتكاليف ، وهذا العشق عبْر عنه رسول الله ﷺ حينما قال : « وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »^(٢) لذلك نَعَى القرآن على أولئك الذين ﴿ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (١١٢) [النساء]

وابنته فاطمة^(٣) - رضي الله عنها - كانت تجسو الدرهم وتلمعه ، فلما سألها رسول الله عما تفعل ، قالت - لأنني نويتُ أن أتصنِّقَ به ، وأعلم أنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد الفقير . هذا هو التعظيم لشعائر الله والقيام بها عن رغبة وحب

وفي عصور الإسلام الأولى كان الناس يتفاضلون بأسبقهم إلى

(١) من حكم ابن عطاء الله السكندري ، ذكره عبد السلام كسيلي في كتابه « أبو العيينة السوفى » ص ٧٦ - نثر الشعب القاهرة

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٨/٢ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائي في سننه (٦١/٧) والحاكم في مستدركه (١٦٠/٢) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وتعام الحديث « حُبٌّ إِلَى مَنِ الْمَنِيَا النساء والطيب »

(٣) هي فاطمة بنت رسول الله محمد بن عبد الله ، أمها خديجة بنت خويلد ، ولدت ١٨ ق هـ ، تزوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في الناحية عشرة من عمرها ، وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزيب ، عاشت بعد أبيها ستة أشهر توفيت ١١ هـ عن ٢٩ عاماً ، الاعلام للدركلي (١٣٢/٥)

صلاة الجماعة حين يسمع النداء ، وبأخراهم خروجاً من المسجد بعد أداء الصلاة ، ولك أن تقيس حال هؤلاء بحالنا اليوم . هؤلاء قوم عظموا شعائر الله فلم يقدموا عليها شيئاً .

وقد بلغ حبُّ التكاليف وتعظيم شعائر الله بأحد العارفين إلى أن قال - لقد أصبحت أخشى ألا يثيبني الله على طاعته ، فسأله ولماذا ؟ قال لأنني أصبحت أشتهيها يعني : أصبحت شهوة عندي ، فكيف بئاب - يعني - على شهوة ؟

لذلك أهل العزم وأهل المعرفة عن الله إذا ورد الأمر من الله وثبت أحذود على الرّحْب والسَّعة دون جدال ولا مناقشة ، وكيف يناقشون أمر الله وهم يُعَظِّمُونَهُ ؟ ومن هنا نقول للذين يناقشون في أمور مظهرها رسول الله ﷺ مثل تعدد زوجاته مثلاً ويعترضون ، بل ومنهم من يتهم رسول الله ﷺ بما لا يليق .

نقول لهم ما دُمْتُمْ أمتم بأنه رسول الله ، فكيف تضعون له موارد الكمال من عند أنفسكم . وتقولون كان ينبغي أن يفعل كذا ، ولا يفعل كذا ؟ وهل عندكم من الكمال ما تقيسون به فعل رسول الله ؟ المفروض أن الكمال منه ﷺ ومن ناحيته ، لا من ناحيتكم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا مَنْ تَقْوَى لِقُلُوبِ ﴾ (٤٦) [الحج] ليست من تقوى الجوارح بل تقوى قلب لا تقوى قالب ، فالقلب هو محل نظر الله إليك ، ومحل قياس تعظيمك لشعائر الله

و سبق أن ذكرنا أن الله تعالى لا يريد أن يُخضع قلوبنا ، إنما يريد أن يُخضع قلوبنا . ولو أراد سبحانه أن تخضع القلوب لخصعت به راحة ، كما جاء في قوله تعالى .

﴿ أَعْلَنَكَ بِأَخِيحَ تَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٠) إِنْ نَشَأْ نُفِرْكَ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٢١﴾ [الشعراء]

وأنت تستطيع أن تُرغم مَنْ هو أضعف منك على أى شىء يكرهه ، إن شئت سجد لك ، لكن لا تملك أن تجعل فى قلبه حباً أو احتراماً لك . لماذا ؟ لأنك تجبر القلب ، أما القلب فلا سلطة لك عليه بحال .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ لَكَرَفِهَا مَنَفَعٌ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا

إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (٢٢)

يعنى ما دامت هذه المسائل من شعائر الله ومن تقوى القلوب فاعملوها وعظموها ؛ لأن لكم فيها منافع عرفتكمها أو لم تعرفكمها ، وربما تعرف بعضها ولا تعرف الباقى ، لأنه مستور عنك ولو أنك لا تعلم قيمة الجزاء على هذه الشعائر ، فقيمة الجزاء على العمل بحسب أنفاس الإخلاص فى هذا العمل .

ومعنى ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴾ (٢٢) [الحج] ما دام الحق - سبحانه وتعالى - ذيل الآية بقوله ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (٢٣) [الحج] إذن فالمراد هنا شعيرة الذَّبْحِ ، ولا يخفى ما فيها من منافع حيث ننتفع بصوفها ووبرها ولبنها ولحمها ، وننخذها زينة وركوبة .

كل هذا ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴾ (٢٣) [الحج] يعنى ، زمن معلوم ، وهو حين تقول وتتنوى هذه هدية للحرم ، ساعة تعقد هذه البنية

فليس لك الانتفاع بشيء منها ، لا أتت ولا غيرك^(١) ؛ لذلك يُمَيِّزُونَهَا
بعلامة حتى إن ضلّت من صاحبها يعرفون أنها مُهْدَاة لبيت الله ، فلا
يأخذها أحد^(٢)

وما دامت هذه منافع إلى أجل مسمى ، فلا بُدّ أنها المنافع
الدنيوية ، أما المنافع الآخروية فسوف تجدها فيما بعد في الآخرة .
ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج] أي .
بعد هذا الأجل المسمى ينتهي بها المطاف عند الحرم حيث تُذْبَح
هناك .

وقد كان للعلماء^(٣) كلامٌ حول هذه الآية . ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ
الْعَتِيقِ ﴾ [الحج] حيث قالوا : محل الذَّبْحِ في مِنًى ، وليس في
مكة ، والآية تقول : محلها البيت العتيق .

(١) قال ابن عباس : ما لم يُسَمَّ بدناً ، ولأنَّ معاهد ، المنافع الركوب والطين والولد إذا سميت
بدناً أو عساً ذهب تلك كله . وكذا قال عطاء والضحاك وقتادة وغيرهم . وقال آخرون : بل
له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً إذا احتاج إلى ذلك كما ثبت في الصحيحين عن أنس أن
رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال أركبها . قال : إنها بدنة . قال : أركبها
ويحك . [قال ابن كثير في تفسيره ٢/٢٢٠]

(٢) وهو قوله تعالى ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهُرَ الْحُرُمَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا
الْقُلُودَ . ﴾ [المائدة] قال ابن كثير في تفسيره (٢ / ١) : « يعني لا تتركوا
الإهداء إلى البيت الحرام فإن فيه تمخيم شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها في أعمالها لتتميم
به مما جاء من الأنعام . وليعلم أنها هدًى إلى الكعبة فيجتنبها من يريد بها يسوء ، وتبعت
من يراها على الإتيان بمثلها » .

(٣) هناك قولان في تفسير هذه الآية ، في مؤدّ التخصير في (محلها)
- البَدْنُ والهُدْيُ ، أي إلى يوم النحر تحرر مِنًى [من عطاء] وإذا دخلت الحرم فقد
بلغت محلها [عكرمة] وهذا ما أخذ به فضيلة الشيخ الشعراوي رحمه الله
- شعائر ومناكب الحج أي أن شعائر الحج كلها من الشرف بمعرفة ورمي الجمار
والنسي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق . قاله القرطبي في تفسيره
(٦/٥٨٨)

الدين ، لأن هذه القواعد وهذه الأسس ثابتة في كل رسالات السماء ، لا تتبدل ولا تتغير بتغير الرسل .

يقول تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ﴾ (١٢) [النورى]

هذا في الأصول العقديّة الثابتة ، أما في الفرعيات فنرى ما يصلح للمجتمع ، وما يناسبه من طاعات وعبادات .

ثم يبين الحق سبحانه الحكمة من هذه المناسك ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .. ﴾ (٢١) [الحج] أى : يذكروا الله في كل شيء . ويشكروه على كل نعمة يبالونها من بهيمة الانعام

لذلك نذكر الله عند الذبح نقول : بسم الله ، الله أكبر ، لماذا ؟ لأن الذبح إزهاق روح خلقها الله ، وما كان لك أن تزهاقها بإرادتك ، فمعنى بسم الله والله أكبر ، هنا أننى لا أزهاق روحها من عندى ، بل لأن الله أمرنى وأباحها لى ، فإله أكبر فى هذا الموقف من إرادتك ، ومن عواطفك .

ونرى البعض يأتف من مسألة الذبح هذه ، يقول كيف تذبحون هذا الحيوان أو هذه الدجاجة ؟ يدعى الرحمة والشفقة على هذه الحيوانات ، لكنه ليس أرحم بها من خالقها ، وما ذبحناها إلا لأن الله أحلها ، وما أكلناها إلا بسم الله ، ببطل أن ما حرمة الله علينا لا تقرب منه أبداً .

وهل لنا أكرم القطعة عن الأرنب ، فاذبح الأرنب وأترك القطعة ؟ وهل أحترم الكلب عن الخروف ؟ أبداً ، المسألة مسألة تقصير وأمر ثبت عن الله ، فَعَلَى أَنْ أُعْطِيَهِ وَأَطِيعَهُ .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْنَا مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .. ﴾ (٣٣) [الحج]
الرزق يعنى . أنه تعالى أوجدها لك ، وملكك إياها ، وذلكها لك
فاستأسستها وسخرها لك فانتفعت بها ، ولولا فسخيره ما انتفعت لك
بقوتك وقدرتك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِأَلْهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ .. ﴾ (٣٤) [الحج] يعنى .
إن اختلفت الشرائع من أمة لأمة فإياك أن تظن أن هذا من إله ، وهذا
من إله آخر ، إنما هو إله واحد يشرع لكل أمة ما يناسبها وما
يصلحها ؛ لأن التشريعات السماوية تأتي علاجاً لأفات اجتماعية .

والأصل الأصل هو إيمان بربه واحد فاعل قادر مختار ، يبلغ عنه
رسول بمعجزة تُبين صدقه فى التبليغ عن الله . هذا أصل كل الديانات
السماوية ، كذلك قواعد الدين وأساسياته واحدة مُتفق عليها ، فالسرقة
والزنا وشهادة الزور .. إلخ كلها مُحَرَّمة فى كل الأديان .

لكن ، هناك أمور تناسب أمة ، ولا تناسب أخرى ، والمشرع
للجميع إله واحد ، الناس جميعاً من لدن آدم وإلى أن تقوم الساعة
عِماله ، وهم عنده سواء ، لذلك يختار لكل ما يصلحه .

ألا ترى رب الأسرة كيف يُنظم حياة أولاده - والله العَظِيمُ الأعلى -
فيقول هذا يفعل كذا ، وهذا يفعل كذا ، وإذا جاء الطعام قال هذا يأكل
كذا وكذا لأنه مريض مثلاً ، لا يناسبه طعام الآخرين ، ويأمر الأم أن تُعَدَّ
لهذا المريض ما يناسبه من الطعام . ذلك لأنه راعٍ للجميع مسئول عن
الجميع ، وعليه أن يراعى مصلحة كل واحد منهم على حدة^(١)

(١) وذلك مستنداً لحديث رسول الله ﷺ : « ألا فتلكم راعٍ وكللكم مسئول عن رعيته . فالأصغر الذى
على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته . والرجل راعٍ على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم . والمرأة
رعية على بيت زوجها ورثته وهو مسئلة عنهم . والعبد راعٍ على مال سيده . وهو مسئول عنه
ألا فتلكم راعٍ ، وكللكم مسئول عن رعيته » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٩) ، والبخارى فى
صحيحه (٢٤٠٩ - ٨٩٣) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما

إذن اختلاف التشريعات في هذه المسائل الجزئية بين الأمم لا يعنى تعدد الآلهة كلاً وحاشا لله ، بل هو إله واحد ، يعطى عباده كلاً على حسب حاجته ، كي يتوازن المجتمع ويستقيم حاله

نذكر أنه كان عند طبيب الوحدة الصحية دورقان ، فى كل منهما مزيج معين ، وكان يعطى كل المرضى مع اختلاف أمراضهم من هذين النوعين فقط ؛ لذلك كانت عديمة الجدوى ، أما الآن فالطبيب الماهر لا بد أن يُجرى على مريضه الفحوص والتحاليل اللازمة ليصف على مرضه بالتصديد ، ثم يصف العلاج المناسب لهذه الحالة بمقادير دقيقة تُبْرِئ المريض ولا تُضر المريض من ناحية أخرى .. كذلك الأمر فى اختلاف الشرائع السماوية بين الأمم .

وما دام أن الحكم إله واحد ، وما نُعْتَم عنده سواء وليس منكم مَنْ هو ابن الله ، ولا بينه وبين الله قرابة . إذن . ﴿ فَلَهُ أَسْلَمُوا .. ﴾ [الحج] يعنى . أَسْكُمُوا كل أموركم لله ، فإن أمر فعظموا أمره ، وخذوه على الرُحْب والسَّعَةِ ، فإن ترك مجالاً لاختيارك ناصنع ما نشاء ولا تنس أن الله تعالى أعطاك فرصة للترقى الإيمانى ، وللترقى الإحسانى . وفتح لك مجال الإحسان إن أردت .

ثم يقول سبحانه . ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج] للمخبت . فى المعنى العام يعنى الإنسان الخاشع الخاضع المتواضع لكل أوامر الله ، والمعنى الدقيق للمخبت ، هو الذى إذا ظلم لا ينتصر لنفسه ، عملاً بقول الله تعالى ﴿ وَلَمَنْ سَبَّ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى] هكذا بلام التوكيد .

أما فى وصية لقمان لولده ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان] بدون توكيد ، لماذا ؟

قالوا : لأن لقمان يوصي ولده بالصبر على ما أصابه ،
والمصائب قسمان : مصيبة تصيب الإنسان ، وله فيها غريم هو الذي
أوقع به المصيبة ، وهذه يصاحبها غضب وسعار للانتقام ، ومصيبة
تصيب الإنسان وليس له غريم كالمريض مثلاً ، فإن كان له غريم
فالصبر أشد ، لذلك احتاج إلى التوكيد ، على خلاف المصيبة التي
ليس أمامك فيها غريم ، فهي من الله فالصبر عليها أهون من الأولى

ومع ذلك جعل الحق - سبحانه وتعالى - للنفس البشرية منافذ
تُطس من خلالها عن نفسها ، حتى لا يختمر بداخلها الغضب ،
فيتحول إلى حقد وضيغنة ، قد تؤدي إلى أكثر مما وقع بك ؛ لذلك
أباح لك الرد لكن حببك في مراق أخرى ، هي أجدي لك ، فقال تبارك
وتعالى ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾
[آل عمران] ﴿١٣٤﴾

وهذه مراحل ثلاث ، تختار منها بحسب قهرك عن الله وقربك
منه .

الأولى : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ..﴾ [آل عمران] يعني - تكظم
غيظك في نفسك ، دون أن تترجم هذا الغيظ إلى عمل نزوعي فتنتقم ،
فالغيظ - إذن - مسألة وجدانية في القلب ، وموجود في مواجيد
نفسه ، وهذه مرحلة

الثانية : ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ..﴾ [آل عمران] يعني -
لا ينتقم ، ولا حتى يجعل للغيظ مكاناً في نفسه ، فيُصغّيها من
مشاعر الحق والغيظ راضياً .

الثالثة : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران] وهي أعلى
المراتب ، وهي ألا تكفي بالعفو ، بل وتُحسن إلى من أساء إليك ،

والبعض يقول : هذا ضد طباع البشر ، نعم هي ضد طباع البشر العاديين ، لكن الذين يعرفون الجزاء ، ويعرفون أنهم بذلك سيكونون في حضانة ربهم يهون عليهم هذا العمل ، بل ويحبون الإحسان إلى مَنْ أساء .

بذلك ، فالحسن البصرى - رضوان الله عليه - لما بلغه أن شخصاً نال منه في أحد المجالس - وكان الوقت بواكير الرطب - أرسل حادمه إليه بطبق من الرطب ، وقال له : يلفنى أنك أهديت إلى حسناتك بالأمس^(١) .

ومعلوم أن الحسنات أغلى وأثمن بكثير من طبق الرطب . ومن هنا يقولون ما أعجب من الذي يُسئ إلى مَنْ أساء إليه ، لأنه أعطاه حسنة ، وهي خلاصة عمله ، فكيف يُسئ إليه ؟

وكان الحق سبحانه يريد أن يُحدث توارثاً في المجتمع ، ويقضى على دواعي الحقد وأسباب الضغائن في النفس البشرية ، فحين تُحسن إلى مَنْ يُسئ إليك فإِنَّكَ تَجِدُ جذور الكُره والحقد من نفسه ، كما قال سبحانه وتعالى

﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت] فقد أخرجتَ خصمك من قالب الخصومة ، إلى قالب الولاية والمحبة .

فالمُخْبِت المتواضع لله ، أما غير المُخْبِت فتراه متكبراً (يتفرعن) على مَنْ حوله ، ويرى نفسه أعظم من الجميع ، ولو أنه استحضر

(١) ذكره أبو حامد الغزالي (٤٠١/٢) أن رجلاً قال للمسن : إن فلاناً قد اغتصبك بميث إليه رطباً على طبق ، وقال قد يلقي أنك أهديت إلى من حسناتك فاردت أن أكافئك عليها فعدوني فإني لا أقرر أن أكافئك على التمام

جلال ربه لخشع له ، وقواضع وانكسر لحقته ، فالتكبر دليل غفلة عن
عظمة الله ، كانه لم يشهد خالقه

إذن . تستطيع أن تقول أن الإخبات على نوعين . إخبات لله
بالخضوع والخشوع والتعظيم لأوامره ، وإخبات لخلق الله . بحيث
لا ينتصر لظلمه ولا يظلم . إنما يتسامح ويعفو ؛ لأنه يعلم جيداً أنه
إذا ظلم من مخلوق تعصب له الخالق .

ولك أن تنظر إلى أولادك إذا ظلم أحدهم الآخر فإلى من تنحاز ،
ومع من تعاطف ؟ لا شك أنك ستميل إلى المظلوم ، وتحنو عليه ،
وتريد أن تموضه عما لحقه من الظلم ، حتى إن الظالم ليدم على
ظلمه ، لأنه ميّز أخاه المظلوم عليه . وربما تمنى أن يكون هو
المظلوم لا الظالم .

كذلك حال المحضيت يرى أن الخلق جميعاً عيال الله ، وأن أحبهم
إليه أرفهم بعياله ؛ لذلك يعفو عمن ظلمه ، ويتروك أمره لله رب
الجميع ، كما أن المظلوم إذا ردّ الظلم فإنه يردّ بقوته ومقدرته هو ،
إنما إن ترك الردّ لله جاء الردّ على مقدار قوته سبحانه .

ملاحظ آخر ينبغي أن يتنبه له المظلوم قبل أن يفكر في الانتقام ،
وهو من يدريك بهلك ظلمت أنت أيضاً دون أن تدري ، لعل للناس
عندك مظالم لا تشعر بها ، وليست في حسابك ، فالمسألة - إذن -
لك وعليك .

لذلك يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي : يا ابن آدم
دعوت على من ظلمك .

وهذا مباح لك بقوله تعالى . ﴿ لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ

سُورَةُ الْحَقِّ

٩٨٢٠

إِلَّا مَنْ ظَلَمَ .. ﴿١١٨﴾ [النساء] يعنى . أعطيتك فرصة أن تدعو على من ظلمك .

ثم يقول سبحانه . « ودعا عليك مَنْ ظلمته ، فإن شئت أجبتك وأجبتنا عليك ، وإن شئت أخرتكما للأخرة فيسفعكما عقوى »^(١) .

فالمخيت يستحضر هذا كله . ويركن إلى العفو والتسامح ! ليأخذ ربه عز وجل في صفه ، لذلك يقولون . لو علم الظالم ما أعدّه الله للمظلوم من الكرامة لضُرَّ عليه بالظلم .

فحين ترى المظلوم يعفو عنك ويتسامح معك ، فلا تظن أنك أخضعتك لك ، إنما هو خضع لله الذى سيرفعه عليك ، ويُعَلِّي رأسه عليك فى يوم من الايام .

لذلك من أعطى السلوك السوى إذا تشاحر اثنان يقول أحد العقلاء : لكما أب ترد عليه ، أو لكما كبير ترجع إليه فى هذه الخصومة .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ
وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ٣٥

يُبين لنا الحق سبحانه بعض صفات المخبتين . فهم ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. ﴾ [٣٥] [الحج] (وَجِلَتْ) . يعنى خافت ، واضطربت ، وارتعدت لذكر الله تعظيماً له . ومهابة منه .

(١) ذكره أبو حامد الغزالي (١٨٣/٢) من قول يزيد بن ميسرة . إن ظلمت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول . إن أكثر يدعوك بالله ظلمته . فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسفعكما عقوى .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) [الرعد]

فمرة يقول ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ..﴾ (٣٥) [الحج] ومرة ﴿تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) [الرعد] ، لماذا ؟ لأن ذكر الله إن جاء بعد المخالفة لا يبدد للنفس أن تخاف وتوجل وتضطرب هيبة عز وجل ، أما إن جاء ذكر الله بعد المصيبة أو الشدة فإن النفس تطمئن به ، وتأنس لما فيها من رصيد إيماني ترجع إليه عند الشدة وتركن إليه عند الضيق والبلاء ، فإن تعرضت لمصيبة وعزت أسباب دفعها عليك تقول : أما لي رب فتلجأ إليه ، كما كان من موسى - عليه السلام - حين قال : ﴿إِنِّي مَعِيَ رَبِّي سَاهِدِينَ﴾ (٦٢) [الشعراء]

﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ..﴾ (٣٥) [الحج] ومعنى أصاب يعني جاء بأمر سيء في عرقك أنت ، فتعده مصيبة ، لأننا نقدر المصيبة حسب سطحية العمل الإيدائي ، ربما لو أخذت مع المصيبة في حسابك الأجر عليها لهانت عليك وما اعتبرت بها كذلك لذلك في الحديث الشريف يقول ﷺ : « المصائب من حرم الثواب » .

هذا هو المصائب حقاً الذي لا تجبر مصيبتها ، أما أن تُصاب بشيء فتصبر عليه حتى تنال الأجر فليس في هذا مصيبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ ..﴾ (٣٥) [الحج] لأن الصلاة هي إولاء الدائم للعبد لمسلم ، والفرض الذي لا يسقط عنه بحال من الأحوال ، فالشهادتان يكتفى أن تقولها في العمر مرة ، والزكاة إن كان عندك نصيب فهي مرة واحدة في العام كله ، والصيام كذلك ، شهر في العام ، والحج إن كنت مستطيعاً فهو مرة واحدة في

العمر ، وإن لم تكن مستطيعاً فليس عليك حج .

إن : الصلاة هي الولاء المستمر للحق سبحانه على مدار اليوم كله ، وربك هو الذي يدعوك إليها ، ثم لك أن تُحدد أنت موعد ومكان هذا اللقاء في حضرته تعالى ، لأنه سبحانه مستعد للاقائك في أي وقت .

وتصور أن رئيس الجمهورية أو الملك مثلاً يدعوك ويحثم عليك أن يراك في اليوم خمس مرات لتكون في حضرته ، والحق سبحانه حين يدعو عباده للقاءه ، لا يدعوهم مرة واحدة إنما خمس مرات في اليوم واللييلة ، لأنه سبحانه لا يتكلف في هذه العملية تكرار لقاءات ، فهو سبحانه يلقي الجميع في وقت واحد .

ولما سئل الإمام علي - رضي الله عنه - كيف يُحاسب الله كل هؤلاء الناس في وقت واحد ؟ قال : كما أنه يريزتهم جميعاً في وقت واحد .

وقوله تعالى . ﴿ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [الحج] لا ينفقون من جيوبهم ، إنما من عطاء الله ورزقه ومن العجيب أن الله تعالى يعطيك ويهبك ويُعِدُّ عليك تفضلاً منه سبحانه ، فإذا أرادك تعين محتاجاً قال لك ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. ﴾ [الحديد]

وكان الله تعالى يقول لنا : أنا لا أعود في عيتي ولا في عطاشي ، فأقول . اعط ما أخذته للفلان ، بر إن أعطيت الفقير من مالك فهو أيضاً لك مُدْخِر لا يضيع ، فَرِزْكَ الذي وهبك الله إياه ملكك ، ولا نغيبك في شيء منه أبداً ، فربك يحترم ملكيتك ، ويحترم جزاء عملك وجدك واجتهادك

نقول - والله المثل الأعلى - كالرجل الذي يحتاج ميسفاً كبيراً لأحد الأبناء فيأخذ من إبله ما معهم وما لغيره من مصروفاتهم على وعد أن يعرضهم بدلاً منها فيما بعد .

لذلك يقول بعدها ﴿لِيُصَافِّهُ لَهُ ۖ﴾ [الحديد] فيعاملك ربك بمازياة : لذلك يقول البعض : إن الله تعالى حرم على عبده أن يعامله به ، نعم يعاملك ربك بالربا ويقول لك : أترك لي أنا هذا التعامل ، لأنني حين أزيدك لا أنقص الآخرين ، ولا أنقص مما عندي ، ولا أرهق ضعيفاً ولا محسناً ولا أستغل حاجته

والصدقة في الإسلام تأمين لصاحبها ضد الفقر إن احتج ، لماؤمه ما يحافه المرء حاجة عند الكبر ، وعدم القدرة على الكسب ، وعند الإعاقة عن العمل ، يحاف أن يفقد ماله ، ويحتاج إلى الناس حال كبره

وعندها يقول له ربه . اطمن ، فكما أعطيت حال يسرك سيعطيك غيرك حال عوزك وحاجتك .

إذن أخذ منك ليعطيك ، وليؤمن لك مستقبل حياتك الذي تحاف منه

الصدقة في الإسلام صندوق لتكافل المجتمع ، كصندوق التأمين في شركات التأمين ، فإذا ما ضاقت بك أسباب الرزق وشكوت الكبر وانعجز نقول لك لا تحزن أنت في مجتمع مؤمن متكافل ، وكما طلبنا منك أن تعطي وأنت واجد طلبنا من غيرك أن يعطيك وأنت معتم

ثم يقول الحق سبحانه

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعِيرٍ
اللَّهُ لَكُم فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ
جُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرِ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا
لَكُم لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦٧﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى في النفقة مما رزقكم الله تكلم
في النفقة في البدن ، والبدن جمع بدنة ، وهي أجمل أو الناقة ، أو
ما يساويهما من البقر ، وسماها بدنة إشارة إلى ضرورة أن تكون
بدينة سمينة واقرة ، ولا بد أن تراعى فيها هذه الصفة عند اختيارك
للهدى الذي ستقدمه له ، واحذر أن تكون من أولئك الذين يجعلون لله
ما يكرهون ، إنما كن من الذين قال الله لهم ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا
أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ..﴾ (٢٦٧)

وقوله تعالى : ﴿فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ..﴾ [الحج]
أي ذكروا الله بالشكر على أن وهبها وذلكها لكم ، واذكروا اسم الله
عليها حين ذبحها .

(١) ورد في هذه الكلمة عدة قراءات منها

صَوَافٍ أي قياماً حتى ثلاث قوائم معقولة يدعى البصري - عن ابن عباس ومجاهد وعلي بن
أبي طلحة ، وهي قراءة الجمهور
- صَوَافٍ جمع صافنة ، وهي التي قد ولعت إحدى يديها بالثقل فلا تشطرب عن ابن مسعود
وابن عباس وابن عمر
- صَوَافٍ أي خوالصه عز وجل ، لا يشركون به أي التسمية على لحمها أحداً عن الحسن
والأحمر ومجاهد وزيد بن أسلم وابن عباس والأشعري

- صَوَافٍ وهي بمعنى التي قبلها عن الحسن البصري ، [تفسير القرطبي ١٥٩٢/٦]

(٢) قال ابن الأثير القانع في الأصل المسأل وقال الحسن البصري فيه رواية عنه ابن أبي شبيب
وعنه ابن حميد القانع الذي يقبح إليك بما في يدك والمعتز الذي يتصدى إليك لتطعمه ولفظ
ابن أبي شبيب والمعتز الذي يعتريك ، بريك نفسه ولا يملك [الدر المنثور للسيوطي ١٥٥/٦] .

ومعنى ﴿صَوَافُ .. (٢٥)﴾ [الحج] يعنى . راقطة قائمة على أرجلها ، لا ضعف فيها ولا هزال ، مصفوفة وكأنها فى معرض أمامك . وهذه صفات البُنى الجيدة التى تقاسب هذه الشجرة وتليق أن تقدم هديا لبیت الله .

ومعنى . ﴿إِذَا رَجِيتَ بِجَنُوبِهَا .. (٢٦)﴾ [الحج] وجب الشيء وجبا يعنى : سقط سقوطا قويا على الأرض ، وتملأ من الندى لا تتبجج . وهى ملاءة على الأرض مثل باقى الأنعام . وإنها تنحدر وهى واقعة ، فإذا ما نُحِرَتْ وقعت على الأرض وارتفعت بقوة من بدانتها .

. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا .. (٢٦)﴾ [الحج] وقلنا . إن الأكل لا يكون إلا من الهدى العوض والتطوع الخالص الذى لا يرتبط بشيء من مسائل الحج . فلا يكون هدى تمتع أو قران . ولا يكون جبرا لمخالفة . ولا يكون قذرا . إلخ .

وعلة الأمر بالأكل من الهدى : لأنهم كانوا يتنافسون أن يأكلوا من المذبح للفقراء ، وكان فى الأمر بالأكل منها إشارة لوجوب اختيارها مما لا تعافه النفس .

ومعنى . ﴿الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرِ .. (٢٦)﴾ [الحج] القانع . الفقير الذى يتعفف أن يسأل الناس . والمعتَر . الفقير الذى يتعرض للسؤال .

. ثم يقول سبحانه : ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾ [الحج] يعنى : سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ . ولو فى غير هذا الموقف ، لقد سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ منذ وُجِدَ الإنسان ؛ إذ لك عليكم أن تشكروا الله على أن أوجدها وملأكم إياها ، وتشكروه على أن سَخَّرْنَاهَا وَلَلَّهَا لَكُمْ . وتشكروه على أن هداكم لبلقيام بهذا النفسك ، وأداء هذه الشعيرة وعمل هذا الخير الذى سيعود عليكم بالنفع فى الدنيا وفى الآخرة

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ مَسَحَرْنَا لَكُمْ أَشْكَارًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ لَشَدِيدٌ ٢٧﴾

ذلك لانهم كانوا قبل الإسلام حين يذبحون اللاوتان يُلطِّخون اللحم بدماء الذبيحة^(١) ، فكانهم يقولون له لقد ذبحنا لك ، وما هي دماء الذبيحة ، وفي هذا العمل منهم دليل على غيائهم وحُصْفُ تصرفهم . فهم يدعون أنهم إذا لم يُلطِّخوه بالدم ما عرف أنهم ذبحوا من أجله .

وهنا ينبه الحق - سبحانه وتعالى - إلى هذه المسألة : ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا ٢٧﴾ [الحج] يعني : لا يأخذ منها شيئاً ، وهو سبحانه قادر أن يعطي الفقير الذي أمرك أن تعطيه ، ويحطه مثلك تماماً غير محتاج .

إنما أراد سبحانه من تباين الناس في مسألة الفقر والغنى أن يحدث توازناً في المجتمع ، فالمجتمع ليس آلة ميكانيكية تسير على وتيرة واحدة ، إنما هي حياة بشر لا بد أن تقوم على الصحة وعلى التكامل ، فلا بد من هذه التساوقات بين الناس ، ثم تتدخل الشرائع السماوية فتأخذ من القوي وتعطي الضعيف ، وتأخذ من الغنى وتعطي

(١) قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يُسْرِجُونَ القوتَ بِدماء القِدَنِ ، فراد المفسرون أن يسخروا ذلك ، فقلت الآية [تفسير القرطبي ١٥٩٦/٦] وذكره الصيوطي في الدر المنثور (٥٦/٦) من قول ابن عباس أيضاً وعنه لابن المنذر وابن مريم

النفير وسامعها ، ففضى على مشاعر الحقد والحسد والبغضاء والأثرة .

فحين يعطى القوى الضعيف من قرضه لا يحسد عليه ، ويتمنى له دوامها ، لأن خيرها يعود عليه ، وحين يعطى الغنى مما أفاض الله عليه للفقير يؤلف قلبه ، ويجتث منه الغل والحسد ، ويدعو له بدوام النعمة .

لا بد من هذا التغاوت ليتمحقق فيما قول الرسول ﷺ « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضاً »^(١) .

لذلك ، ترى صاحب النعمة الذى ينثر منها على غيره ، إن أصابته في ماله مصيبة يصرن له الآخرون ويتألمون بآلمه ، لأن نعمته تفيض عليهم ، وخيره ينالهم . وأهل الريف إلى عهد قريب كان الولحد منهم يربى البقرة أو الجاموسة ؛ ليحلب لبنها ، وكان لا ينسى الجيران وأهل الحاجة ، فكانوا يدعون الله له أن يباركه له في ماله ، وإن أصابته ضرراء في ماله حزنوا من أجله .

إذن : حين تفيض من نعمة الله عليك على من حرم منها تدفع من نفسك الكثير من الحقد والحسد ، فإن لم تفعل فلا أقل من إخفاء هذا الخير عن أئمن المحتاجين حتى لا تثير حفاظهم ، وربما لو رآك الرجل العاقل يردعه إيمانه فلا تستد عيناه إلى ما في يديك ، إنما حين يراك الأطفال الصغار تحمل ما حرموا منه ، أو رأوا ولدك يأكل وهم محرومون هذا تكون المشكاة وقوله تعالى

﴿وَلَسْكَنَ يَأْلَهُ الْفُقَرَىٰ مِنْكُمْ...﴾ (٢٢) [الحج]

(١) حديث معلق عليه أخرجه البخاري من مسنده (٢٤٤٦) . وكما عظم غنى صحبه (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري يرضى الله عنه .

والتقاء الله هو اتباع منهجه ، فيطاع الله باتباع المنهج فلا يعصى ،
ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، وطريق الطاعة يوجد في اتباع
المنهج بـ « أفعِلْ » و « لا تفعلْ » ، ويذكر فلا ينسى ؛ لأن العبد قد
يطيع الله ويُفقد منهج الله ، ولكن النعم التي خلقها الله قد تشغل العبد
عن الله ، والمنهج يدعوك أن تتذكر في كل نعمة من نعم بها ، وإياك
أن تنسيك النعمة المنعم .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَسْخَرُهُ لَكُمْ لِيُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا
هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٧) [الحج]

تلاحظ هنا مسألة التشابهات في القرآن الكريم ، ففي الآية
السابقة ذُكر الحق سبحانه بقوله : ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴾ (٣٦) [الحج]

هذه التشابهات يقف عندها العلماء الذين يبحثون في القرآن
ويُقبلون في آياته ، لذلك يجمعون مثل هذه الآيات المتشابهة التي
تتحدث في موضوع واحد ويرتبونها في الذهن ؛ لذلك لا يُؤمنون
على الحفظ ، ومن هنا قالوا : يبقى لمن أراد حفظ القرآن أن يدع
مسألة العلم جانباً أثناء حفظه ، حتى إذا نسي كلمة وقف مكانه
لا يتزحزح إلى أن يعرفها ، أما العالم فربما وضع مرادفها مكانها ،
واستقام له المعنى .

والمراد بقرنه تعالى : ﴿ لِيُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ .. ﴾ (٣٧) [الحج]
يعني : تذكرونه وتشكرونه على ما وفقكم إليه من هذه الطاعات
﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٧) [الحج] بشر يعني : أخبر بشيء سار قبل
مجيء زمنه ، ليسعد له الم بشر ويفرح به ، كذلك الإنذار أن تخبر
بشيء سيء قبل حلوله أيضاً ، ليسعد له المنذر ، ويجد الفرصة التي

يتلافى فيها خطاه ، ويُجَنَّبُ نفسه ما يُنذَرُ به ، ويُقْبَلُ على ما يُنْجِيهِ
و ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٧) [الحج] : جَمَعَ مُحْسِنٍ ، وَالْإِحْسَانَ أَعْلَى
مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ ، وَهُوَ أَنْ تُكْرِمَ نَفْسَكَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ الَّتِي تُرْضَاهَا
عَلَيْكَ فَرَقَ مَا فَرَضَ فَرِيكَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَيْكَ خُمُسَ صَلَوَاتٍ فِي
الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ، وَفِي إِمَّاكَ أَنْ تَزِيدَ مِنْ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ مَا تَشَاءُ ، لَكُنْ
مِنْ جَنْسِ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، لَا تَخْتَرِعْ أَنْتَ عِبَادَةَ مِنْ عِنْدِكَ ، كَذَلِكَ
الْأَمْرُ فِي الصَّوْمِ ، وَفِي الزَّكَاةِ ، وَفِي الْحَجِّ ، وَفِي سَائِرِ الطَّاعَاتِ الَّتِي
الزَّمَّكَ اللَّهُ بِهَا ، فَإِنْ فَعَلْتَ هَذَا فَقَدْ دَخَلْتَ فِي مَقَامِ الْإِحْسَانِ .

وَفِي الْإِحْسَانِ أَمْرَانِ : مُحْسِنٌ بِهِ وَهُوَ الْعِبَادَةُ أَوْ الطَّاعَةُ الَّتِي تُكْرِمُ
نَفْسَكَ بِهَا فَرَقَ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَدَافِعٌ عَلَيْهِ ، وَهُوَ أَنْ تُوَدَّى
الْعَمَلُ كَانَ اللَّهُ يَرْقُبُكَ ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ : « وَالْإِحْسَانُ أَنْ
تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَلْيَكْ يَرَاكَ » (١) .

فَيَمْرَاقِبُكَ لِنَظَرِهِ وَمَرَاعَاكَ لِنَظَرِهِ تَعَالَى إِلَيْكَ ، يَدْفَعُكَ إِلَى هَذَا
الْإِحْسَانِ ، أَلَا تَرَى الْعَامِلَ الَّذِي تَبَاشَرُهُ وَتُشْرِفُ عَلَيْهِ ، وَكَيْفَ يُنْهَى
الْعَمَلُ فِي مَوْعِدِهِ ؟ وَكَيْفَ يُجِيدُهُ ؟ عَلَى خِلَافِ لَوْ تَرَكْتَهُ وَانْصَرَفْتَ
عَنْهُ

فَإِنْ لَمْ تَصِلْ إِلَى هَذِهِ الْمَرَقَةِ الَّتِي كَأَنَّكَ تَرَى اللَّهَ فِيهَا ، فَلَا أَتَقَلُّ
مِنْ أَنْ تَتَذَكَّرَ نَظَرَهُ هُوَ إِلَيْكَ ، وَمَرَاقِبَتُهُ سَبْحَانَهُ لِحُرُكَاتِكَ وَسُكُنَاتِكَ .

لِذَلِكَ ، فِي سُورَةِ الذَّارِيَّاتِ ﴿إِنَّ الْمُحْسِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (١٥)
أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿ (١٦) [الذَّارِيَّاتِ]

(١) حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ أَخْرَجَهُ الْقِسْطَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٥) ، وَكَانَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٨)
كِتَابُ الْإِيمَانِ مِنْ حَدِيثِ حُمَرَ بْنِ أَسْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

ثُمَّ يُفَسِّرُ سَبَبَ هَذَا الْإِحْسَانِ . ﴿ كَتَبُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَمُونَ ﴾ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴿

[الذاريات]

وَمَنْ يُلْزِمُكَ بِهِ هَذِهِ التَّكْلِيفُ ؟ لَكَ أَنْ تَصِلَى الْحَضَاءَ ثُمَّ تَقَامَ إِلَى الْفَجْرِ . كَذَلِكَ لَمْ يُلْزِمَكَ بِالْإِسْتِغْفَارِ وَقْتُ الْمَسْجَرِ ، وَلَمْ يُلْزِمَكَ بِصَدَقَةِ الْمَطْوُوعِ . إِذْ : هَذِهِ طَاعَاتٌ فَوْقَ مَا فَرَضَ اللَّهُ وَصَلَتْ بِأَصْحَابِهَا إِلَى مَقَامِ الْإِحْسَانِ ، وَأَعْلَى مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ ، فَلْيُبَشِّرْ لَهَا مَنْ أَرَادَ .

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ

خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (٢٨)

صَدَّرَ الْآيَةَ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا .. ﴾ (٢٨) [الحج] يُشْعِرُنَا أَنَّ هُنَاكَ مَعْرَكَةً ، وَالْمَعْرَكَةُ الَّتِي يُدْفِعُ اللَّهُ لَهَا لَا يَدُّ أَنَّهَا بَيْنَ حَقِّ أَنْزَلِهِ ، وَبَاطِلِ يُوَاجِهِهِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَ ذَلِكَ أَنْ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ هُنَذَا لَكُمْ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. ﴾ (١٦) [الحج]

وَمَا دَامَ أَنَّ هُنَاكَ خُصُومَةً فَلَا يَدُّ أَنْ تَنْشَأَ عَنْهَا مَعَارِكٌ ، هَذِهِ الْمَعَارِكُ قَدْ تَأَخَذَ صُورَةَ الْأَلْفَاظِ وَالْمُجَادِلَةِ ، وَقَدْ تَأَخَذَ صُورَةَ الْعَنْفِ وَالْقُوَّةِ وَالشَّرَاسَةِ وَالِاتِّهَامِ الْمُبَاشِرِ بِأَدْوَاتِ الْعَرَبِ .

وَمَعْرَكَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ مُعَارِضِيهِ مِنْ كُفَّارِ حَكَّةَ لَمْ تَقِفْ عِندَ حَدِّ الْمَعْرَكَةِ الْكَلَامِيَةِ فَحَسَبَ ، فَقَدْ قَالُوا عَنْهُ : صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ سَاحِرٌ ، وَكَاهِنٌ ، وَمَجْنُونٌ ، وَهَاسِرٌ ، وَمُفْتَرٍ .. إلخ ثُمَّ تَطَوَّرَ الْأَمْرُ إِلَى إِيْذَاءِ أَصْحَابِهِ وَتَعْذِيبِهِمْ ، فَكَانُوا يَأْتُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَشْدُوحِينَ

ومجروحين فيقول لهم ﷺ : « لم أومر بقتال ، اصبروا اصبروا ، صبراً صبراً ... »

إلى أن زاد اعتداء الكفار وطفح الكيل منهم أذن الله لرسوله بالقتال ، فقال ﴿ أَدْنِ لِلدِّينِ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٢١٧ ﴾ [الحج]

فقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الدِّينِ آمَنُوا .. ﴾ ٢١٨ [الحج] صيغة يدافع مبالغة من يدفع ، معنى يدفع يفتى شيئاً واحداً ، أو مرة واحدة ، وتنتهي المسألة أما يدافع فتدفع على مقابلة الفعل بمظه ، فإله يدفعهم وهم يقابلون أيضاً بالمداغة . فيحدث تدافع وتفاعل من الجانبين ، وهذا لا يكون إلا في معركة

والمعركة تعنى منتصرو ومهزوم ، لذلك الحق - تبارك وتعالى - يطمئن المؤمنين أنه سيدخل المعركة في صفوفهم ، وسيدافع عنهم

فقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الدِّينِ آمَنُوا .. ﴾ ٢١٨ [الحج] أمر طليعي ، لأن الحق سبحانه ما كان ليُرسل رسولا ، ويتركه لأهل الباطل يتغلبون عليه وإلا فما جدوى الرسالة إذن ، لذلك يطمئن الله تعالى رسوله ويُبشّره ، فيقول :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ٢١٨ إِنْهُمْ لَهُمُ الْمَصُورُونَ ٢١٩ ﴾ [المعاني]

وقال . ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ .. ﴾ ٢٢٠ [الحج]

وقال ﴿ إِنْ تَصَرَّوْا لِلَّهِ يُصْرِكُمْ وَيُخَيِّتْ أَقْدَامَكُمْ ٢٢١ ﴾ [محمد]

فهذه كلها آيات تطمئن المؤمنين وتُبشّرهم ، وقد جليت على

مراحل لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فمنعهم عن القتال في البداية لحكمة ، ثم جعل القتال قيعا بينهم ، وقيل أن يأذن لهم في قتال أعدائهم لحكمة . هي أن يئثروا المؤمنين ويضعفهم ليخرج من صفوفهم أهل الخور والجهن ، وضعفوا الإيمان الذين يعبدون الله على حرف . ولا يبقى بعد ذلك إلا قوى الإيمان ثابتة العقيدة ، الذي يحمل راية هذا الدين ويساح بها في بقاع الأرض ، لأنها دعوة عالمية لكل زمان ولكل مكان إلى أن تقوم الساعة . ولم كانت هذه الدعوة بهذه المنزلة كان لا بد لها من رجال أقوياء يحملونها ، وإلا لو استطاع الأعداء القضاء عليها فلن تقوم لدين الله قائمة

إذن : كان لا بد أن يصفى الحق سبحانه أهل الإيمان كما يصفى الصبيح الذهب . ويخرج خبثه حين يضعه في النار ، كذلك كانت الفتن والابتلاءات تصفية أهل لإيمان وتمييزهم . لكن بالقتال في صف واحد

ثم يقول سبحانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج] فكان الحق - سبحانه وتعالى - أصبح طرفاً في المعركة ، والخوَّان : صيغة مبالغة من خائن ، وهو كثير الخيانة وكذلك كفور : صيغة مبالغة من كافر .

ومعنى للخيانة يقتضى أن هناك أمانة خانها . نعم ، هناك الأمانة الأولى ، وهي أمانة التكليف التي قال الله فيها : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ . . ﴾ [الأحزاب] فلقد خان هذه الأمانة بعد أن رضى أن يكون أهلاً لها .

وهناك أمانة قديم هذه . وهي العهد الذي أخذهُ الله على عباده ،
وهم في مرحلة الدَّرِّ^(١) . ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ^(٢) شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً
مِنْ بَعْدِهِمْ .. ﴿١٧٣﴾﴾ [الأنعام]

بإِنْ قَالُوا . نعم هذه أمانة ، لكنها بعيدة ، وَمَنْ مِنَّا يَذْكُرُهَا الْآنَ ؟
نقول . ألم تَقْرُوا بآنَ الله خَلَقَكُمْ ، وَأَرْجَدَكُمْ مِنْ عَدَمٍ .. وَأَمْدَكُمْ
مِنْ عَدَمٍ ؟ كما قَالَ سُبْحَانَهُ . ﴿وَوَكِّنْ مَسْأَلَتَهُمْ عَنْ حَقِّقِهِمْ لِقَوْلِنَا اللَّهُ ..
﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف] كما اقْرَؤُوا بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِنْ
خَيْرَاتِ اللَّهِ عِزَّ وَجْهِ . فكان وفاء هذا الإقرار أَنْ يَوْفُوا . لكنهم مع
هذا كله كَفَرُوا . أليست هذه خيانة للأمانة عاصروها جميعاً وعاشوها
وَأَسْبَحُوا فِيهَا ؟

وَالْكَافُّورُ : مَنْ كَفَرَ نِعَمَ اللَّهِ وَجَحَّدَهَا .

وما دام هناك الْخُشُوعُ وَالْكَفُّورُ فَلَا بُدَّ لِلسَّعَاءِ أَنْ تُؤَيَّدَ رُسُولُهَا ،
وَأَنْ تَنْصُرَهُ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ أَوَّلًا ، بآنُ تَأْذِنَ لَهُ فِي الْقِتَالِ ، ثُمَّ تُلَمِّرُهُ
بِأَحْذِ الْجِدَّةِ وَالْأَسْبَابِ الْمَزِيدَةِ لِلنَّصْرِ ، فَبِئْسَ عَزَّتِ الْمَسَائِلُ عَلَيْكُمْ ، قَانَا
مَعَكُمْ أَوْ يَدِكُمْ بِجُنُودٍ مِنْ هُنْدَى

(١) الدَّرُّ في اللغة جَلَسَ السِّلَّ ، وَاحْتَبَا نَدْرَةً . وَدَرَّ اللَّهُ الْخَلْقَ عَلَى الْأَرْضِ فَخَسَرَهُمْ
وَالذَّرِيَّةَ لِمَعْنِيَةٍ مِنْهُ ، وَهِيَ مُتَسَرِّبَةٌ إِلَى الدَّرِّ الَّذِي هُوَ الْخَلْعُ الْتَصْفَارُ . [لسان العرب -
حاشية درر] .

(٢) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢/٢٦١) : وَدَعَتْ أَهْلِيَّتُهُ فِي أَخْذِ الذَّرِيَّةِ مِنْ صُلْبِ آدَمَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَبْيِيهِرُهُمْ إِلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَصْحَابِ الشِّمَالِ ، وَفِي بَعْضِهَا الْإِسْتِشْهَادُ
عَلَيْهِمْ بآنَ اللَّهِ رِيحُ . وَقَدْ قَالَ قُلُوبُونَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْإِسْتِشْهَادِ إِنَّمَا هُوَ
لَمَطُهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ ،

وقد حدث هذا في بدء الدعوة ، فأيد الله نبيه بجنود من عنده ^(١) ، بل أيدته حتى بالكافر المعانيد ، ألم يكن دليل ^(٢) رسول الله في الهجرة كافرًا ؟ ألم ينصره الله بالحمام وبالعنكبوت وهو في الغار ؟ ألم ينصره بالارض التي ساخت تحت اقدام فرس سراقية ^(٣) ، الذي خرج في طلبه ؟

هذه جنود لم ترها ، ولم يؤيد بها رسول الله ﷺ إلا بعد أن استنفد أسبابه ، ولو أراد سبحانه لطوع لرسوله هؤلاء المعاندين ، فما رفع أحد منهم رأسه بعناد لمحمد ، إنما الحق - ثبارك وتعالى - يريد أن يعصيه طواغية ويخصم له القوم ، ألم يقل سبحانه وتعالى : ﴿ إِنْ شَاءَ نَزَّلْنَا جَلَبِهِمْ مِنْ سَّمَاءٍ آتَةٍ فَطُلُّوا أَعْيُنُهُمْ لَهَا حَاجِمِينَ ﴾ [الشعراء]

وقدنا : إن الله تعالى يريد أن يخصم قلوب عباده لا قوايلهم ، فلو أخضعهم الله بآية كونية طبيعية كالرييح أو الصاعقة أو الخسف ، أو غيره من الآيات التي أخذت أمثالهم من السابقين لقلوا . إنها آفات طبيعية جاءتنا ، لكن جعل الله بين الفريقين هذه المواجهة ، ثم يصر لحزبه وجنوده أسباب النصر

(١) قال تعالى ﴿ وَإِذْ نَسْتَعِذُّ بِكُمْ مِنْ آلِ كُذَيْبٍ وَلَهُمْ أَسْلَاحٌ مِثْلُ بِهِيمٍ ﴾ وما جعله الله إلا بشرى ولعظمته به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله ﴿ [الأنفال] ﴾ . وفي آيات أخرى يقول تعالى ﴿ وَإِذْ نَصْرَكُمُ اللَّهُ بِنُحْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَهَاتُوا آلَكُمْ فَشَكَرْتُمْ ﴾ [الأنفال] ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُمْ يَكْتُمُكُمْ أُنْ يَمْدُكُمْ رَبُّكُمْ بِمَلَكَةِ الْإِيمَانِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُرْسِلِينَ ﴾ [النور] ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَتُؤْتُوا مِنْ قَوْلِهِمْ هَذَا يَمْدُكُمْ رَبُّكُمْ بِخِصْمَةِ الْإِيمَانِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُرْسِلِينَ ﴾ [النور] [الشمراء]

(٢) هو عبد الله بن أرقط ، وهو رجل من بني قنقل بن بكر ، وكانت أمه أسواق من بني سهم ابن عمرو ، وكان مشركاً يدلها على الطريق ، فدعا إليه راسيتيها ، فكانتا عنده يرفعان ليعادها [سيرة ابن هشام ٢/ ٤٨٥]

(٣) هو : سراقية بن مالك بن جشم السلمي الكنتلي ، صحابي ، له شعر ، كان يهزل قديماً ، كان في الجاهلية فاضلاً (الصائغ بالثر) أخرجه أبو سفيان ليقتل في الرسول ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبي بكر ، أنتم بعد عبادة قطائف حبة ٨ هـ توفي ٢٤ هـ [الأعلام للزركلي ٢/ ٨٠]

قَالَ سُبْحَانَهُ . ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ
عِيَهُمْ وَيُخَفِّصْ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٤)

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا
وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (١٥)

ودفاع الحق سبحانه عن الحق يأخذ صوراً متعددة ، فأول هذا
الدفاع أن أذن لهم في أن يقتلوا ، ثانياً أمرهم بإعداد القوة للقتال :
﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ (١٥) . [الاعمال]

والمراد أن يأخذوا بكل أسباب النصر على عدوهم ، وأن يستنفذوا
كل ما لديهم من وسائل ، فإن استنفذتم ووسائلكم ، تدخل أنا بجنود
من هدي لا قوتها ، فليس معنى أن الله يدافع عن الذين آمنوا أن
تدخل إليهم لحمايتهم وهم جالسون في بيوتهم ، لا إنما يأخذون
بأسباب القوة ويسعون ويبادرون هم أولاً إلى أسباب النصر .

ومعنى ﴿ أَذِنَ .. ﴾ (١٥) [المع] أنهم كانوا ينتظرون الأمر بالقتال ،
ويستشرفون للمصر على الأعداء ، لكن لم يؤذن لهم في ذلك ، فلما
أراد الله لهم أن يقاتلوا أذن لهم فيه ، فيقال تعالى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ
يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (١٥) [الحج]

وعلة القتال أنهم ظلموا ، لذلك أمرهم ربهم - تبارك وتعالى - أن
يقاتلوا ، لكن لا يعقدوا ، كما قال سبحانه . ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١٦) واقتلوهم حيث
تقيمتهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم .. (١٦) [البقرة]

إِذْ أَمَرَهُمْ أَوَّلًا بِالصَّبْرِ ، وَفِي الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى بِأَنْ يَقَاتِلُوا لِرُدِّ
الْعُدُوَانَ ، وَلِلدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ دُونَ أَنْ يَعْتَدُوا ، وَفِي الْمَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ
سَيَقُولُ لَهُمْ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا
فِيكُمْ غِلَظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٢) [الثوبة]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ لَّقَدِيرٌ ﴾ (١٢٩) [الحج] بأسباب
يُمْكِنُهُمْ مِنْهَا ، أَوْ يَفْقِدُ أَسْبَابَ فَتَاتِهِمْ قُوَّةً خَفِيَّةً لَا يَرَوْنَهَا ، وَقَدْ رَأَوْا
نَمَائِجَ مِنْ ذَلِكَ فَعَلُوا .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ
يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ
السَّوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ كُرِّفَتْ بِهَا أَسْمَاءُ اللَّهِ
كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ
لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٠﴾ ﴾

فلو أنهم أُخْرِجُوا بِحَقٍّ كَانَ فَعَلُوا شَيْئًا يَسْتَدْعِي إِخْرَاجَهُمْ مِنْ
دِيَارِهِمْ ، كَانَ خَدَشُوا الْعِيَاءَ ، أَوْ هَدَبُوا الْأَمْنَ ، أَوْ أَجْرَمُوا ، أَوْ
خَرَجُوا عَلَى قَوَائِينِ قِبَائِلِهِمْ لَكَانَ إِخْرَاجُهُمْ بِحَقٍّ

إِنَّمَا الْوَاقِعُ أَنَّهُمْ مَا فَعَلُوا شَيْئًا ، وَلَيْسَ لَهُمْ ذَنْبٌ ﴿ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا

(١) البهجة . كنيسة البصاري . والبيع بيع . قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه عبد بن حميد وابن
جرير . وقال أيضا الصوامع . التي تكون فيها الرهبان . والبيع مساجد اليهود وصلوات
كثائن البصاري . والمساجد . مساجد المسلمين [الدر المنثور للسيوطي ٥٩/٦] .

رَبَّنَا اللَّهُ .. ﴿٤٠﴾ [الحج] هذه المقولة اعتبرا للقوم ذُنُوبًا وجريمة تستحق أن يخرجوهم بها من ديارهم .

كما قال سبحانه في أهل الأخدود . ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿٤١﴾ [البدر]

وفي آية أخرى : ﴿هَلْ نَقَمُونَ مَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ ..﴾ ﴿٤٢﴾ [الصافات]
وفي قصة لوط عليه السلام ﴿فَالْتَوَىٰ أَخْرَجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ بِظَهْرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ [النمل]

إذن . أخرجوهم ، لا لانهم آمن فحاسة ومعصية ، إنما لانهم أناس يتظهرون ، فالطهارة والعفة جريمتهم التي يُخْرِجُون من أجلها . كما تقول . لا عيب في فلان إلا أنه كريم ، أو تقول . لا كرامة في فلان إلا أنه لص . نهذه - إذن - صفة لا تمدح ، وتلك صفة لا تذم .

نقد قلب هؤلاء الموازين ، وخالفوا الطبيعة السوية بهذه الأحكام الفاسدة التي تدل على فساد الطباع ، وأى فساد بعد أن قلبوا المعايير ، فكروا ما يجب أن يُحب ، وأحبوا ما يجب أن يكره ؟ ولا أدل على فساد طبائعهم من عبادتهم لحجر ، وتركهم عبادة خالق السماوات والأرض .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ سُرَاطِعُ دِينٍ وَبَنَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ..﴾ ﴿٤٤﴾ [الحج]

وفي آية أخرى يُبين الحق سبحانه نتيجة انعدام هذا التدافع ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم لِفُسَادِ الْأَرْضِ ..﴾ ﴿٤٥﴾ [البقرة]
والفساد إن حدث بين الناس في حركة الحياة فيمكن أن يعوض ويُتدارك ، أما إن تعدى الفساد إلى مقومات اليقين الإيماني في الأرض

فكره الناس ما يربطهم بالسماة ، وهدموا أباكي العبادة ، فهذه الطامة
والفساد للذي لا صلاح بعده ، فكان الآيتين تصوران نوعاً من الإيعال
في الفساد ، والاتضاع في اجرائهم

وتفسد الأرض حين يعدم هذا التدافع ، كيف ؟ هب أن ظالمًا
مستبدًا في بلد ما يستعبد الناس ويمتص خيراتهم بل ودماءهم دون
أن يردّه أحد ، لا شك أن هذا سيحدث في المجتمع قهراً وفوضى ،
ولن يجتهد أحد فوق طاقته ، ولمن سيعمل وخيره لكثيره ؟ وهذا بداية
الفساد في الأرض .

فإن قلنا هذا فساد بين الناس في حركة حياتهم يمكن أن يصلح
قيماً بعد ، فما بالك إن امتد الفساد إلى أماكن الطاعات والعبادات ،
وقطع بين الناس الرباط الذي يربطهم بالسماة ؟

إن كان الفساد الأول قابلاً للإصلاح ، ففساد الدين لا يصلح ،
لأنك خربت الموازين التي كانت تنظم حركة الحياة ، فأصبح المجتمع
بلا ميزان وبلا ضوابط يرجع إليها

ونلاحظ في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ..
(١) ﴾ [الحج] جاءت قضية عامة لكل الناس ، فلم يخص طائفة دون
أخرى فلم يقل مثلاً : لولا دفع الله الكافرين بالمؤمنين ، إنما قال
مطلق الناس ، لأنها قضية عامة يستوي فيها الجميع في كل
المجتمعات

كذلك جاءت كلمة (بعض) عامة ، لتدل على أن كلا الطرفين
صالح أن يكون مدفوعاً مرة ، ومدفوعاً عنه أخرى ، فهم لبعض
بالمرصاد من أفسد يتصدى له الآخر ليوقفه عند حده ، فليس
المراد أن طائفة تدفع طائفة على طول الخط

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . (٣٦) ﴾ [الزخرف] دون أن يُحدد ليهما مرفوع ، وإيهما مرفوع عليه ؛ لأن كلا منهما مرفوع في شيء ، ومرفوع عليه في شيء آخر ، ذلك لأن العباد كلهم عيّل الله ، لا يُحابى منهم أحداً على أحد .

انظر الآن إلى قوة روسيا في الشرق وقوة أمريكا في الغرب ، إنهما مثال لقوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسِ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ .. (٣٦) ﴾ [الحج] فكل منهما تقف للأخرى بالمرصاد ، ترقبها وترصد تحركاتها وتقدمها العسكري ، وكان الله تعالى جعلهما لحماية سلامة الآخرين أن تقف كل منهما موقف الحذر والخوف من الأخرى .

وهذا الخوف والترقب والإعداد هو الذي يمنع اندلاع الحرب بينهما ، فما بالك لو قامت بينهما حرب أسفرت عن منتصر ومهزوم ؟ لا بد أن المنتصر سيعيثُ في الأرض فساداً ويستبد بالآخرين ، ويستشري ظلمه لعدم وجود مَنْ يردعه .

ومن رحمة الله بالمؤمنين أن يكيد الظالمين باطالمين بكل الوسائل ومبرهم ، ويؤدب الطالم بمن هو أشد منه ظمناً ، ليظل أهل الخير بميدين عن هذه المعركة ، لا يدخلون طرقاتاً فيها ، لأن الاختيار لا يصعدون أمام هذه العمليات ، لأنهم قوم رفق القلوب ، لا تتاسبهم هذه القسوة وهذه القلطة في الانتقام .

اقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَكِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾ [الأنعام]

وهكذا يؤقر الله أهل الخير ، ويحقن دماءهم ، ويريح أوليائهم من مثل هذه الصراعات الباطلة

لذلك لما دخل النبي ﷺ مكة مغلولاً المنتصر . بعد أن أخرجه

قومه منها ، وبعد أن فعلوا به وبأصحابه الأفاعيل ، كيف دخلها وهو القائد المعتصر الذي تمكن من رقاب أعدائه ؟

دخل رسول الله ﷺ مكة مطاطيء الرأس ، حتى لنكاد رأسه تلمس قريوس^(١) السرج الذي يجلس عليه ، تواضعا منه ﷺ ، ومع ذلك قال أبو سفيان لما رأى رسول الله في هذا الموقف ، قال للعباس ، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما^(٢) .

ومعد أن تمكن رسول الله من كفار مكة ، وكان باستطاعته القضاء عليهم جميعهم ، قال : « يا معشر قريش ، ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال فاذهبوا فانتم الطلقاء »^(٣)

فأي رحمة هذه ؟ وأي لين هذا الذي جعله الله في قلوب المؤمنين ؟ وهل مثل هذا الدين يُعارض ويُتصرف منه ؟

إذن يُسلط الحق - تبارك وتعالى - الأشرار بعضهم على بعض ، وهذه آية نراها في الظالمين في كل زمان ومكان ، ويجلس الأخيار يرقبون مثل هذه الصراعات التي يهلك الله فيها الظالمين بالظالمين .

(١) القريوس جنو الهندج وحتر كل شيء ، امواجهه فسر الرجل والسرج كل حود متوج من عنياته [لصار العرب - مادنا قريش ، هنا] وقد ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (٤ / ٤) : أن رسول الله ﷺ كان يضع رأسه تواضعا به حين رأى ما أكرمه الله به من النج ، حتى إن عتقوه (طرفه بحيث) ليكاد يمسر واسطة الرجل .
(٢) قال أبو سفيان حين مرث أمامه جيوش المسلمين يوم فتح مكة ما لأحد بهؤلاء قير ولا طاقة ، والله يا أبا العباس لقد أصبح ملك ابن أخيك العباة عظيما قال العباسي : يا أي سفيان إنها النبوة قل نعم إذن

(٣) قال ابن إسحاق حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قدم في خطايه على باب الكعبة فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق ربه ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده إلى أن قال ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا حيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال فاذهبوا فانتم الطلقاء [السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ١٢]

ثم يقول سبحانه وتعالى . ﴿ أَهْلَمْتُمْ صَوَامِعَ وَبَيْعَ .. ﴾ [الحج] صوامع جمع صومعة ، وهي مكان خاص للعبادة عند النصارى ، وعندهم متعبد عام يدخله الجميع هو الكنائس ، أما الصومعة فهي مكان خاص لينفرد فيه صاحبها وينقطع للعبادة ، ولا تكون الصومعة في حضر ، إنما تكون في الجبال والأودية ، بعيداً عن عمران لينقطع فيها الراكب عن حركة حياة القدس ، وهي التي يسمونها الأديرة وتوجد في الأماكن البعيدة .

وقد حرم الإسلام الرهبانية بهذا المعنى ، لأنها رهبانية ما شرعها الله ، كما قال سبحانه . ﴿ وَرَهَابِيَّةٌ ^(١) ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبَهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا .. ﴾ [٢٧] [الحديد]

ومعنى : ﴿ وَبَيْعَ .. ﴾ [٢٨] [الحج] البَيْع هي الكنائس .

فالحق - سبحانه وتعالى - ما نعى عليهم الانقطاع للعبادة ، لكن نعى عليهم انقطاعهم عن حركة الحياة ، وأسباب العيش ، لذلك قال : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا ^(٢) حَقَّ رِعَايَتِهَا .. ﴾ [٢٧] [الحديد]

وقد أباح الإسلام أيضاً الترهّب والانقطاع للعبادة ، لكن شريطة أن تكون في جُلُوة بمعنى بين الناس ، لا تعتزل حركة الحياة ، إنما تعبد الله في كل حركة من حركات حياتك ، وتجعل الله تعالى دائماً في بالك وتُصَبِّ عَيْنِيكَ فِي كُلِّ مَا تَأْتِي ، وَمَا تَدَعُ ، إِذَنْ

(١) الرهب - التعبد . كانوا يترهبون بالتحسّس من أشغال الدنيا ، وترك ملذاتها والرهق فيها ، والرهبلة من أهدأ وتعبد مشالها ، حتى إن منهم من كان يضع نفسه روض السلسلة في عقه وغير ذلك من أنواع التعذيب ، والراهب هو المتعبد في السرحة [لسان العرب - مادة : رهب]
(٢) أي : إنما قاموا بما التزموه حق القيام وهذا لهم من وجهين أحدهما الابتعاد عن الله ما لم يتركه الله والثاني في عدم قيامهم بما التزموه مما رخصوا أنه قربة يقتربهم إلى الله عز وجل . قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤)

هناك فرق بين مَنْ يعبد الله في خلوته ، وَمَنْ يعبد الله في جلوته

لذلك سيدنا عمر - رضي الله عنه - قال عن الرجل الذي لازم المسجد للعبادة وعرف أن أحياه يتكفل به وينفق عليه ، قال : أخوه أعبد منه . كيف ؟

قالوا : لأنك تستطيع أن تجعل من كل حركة لك في الحياة عبادة ، حين تخلص النية فيها لله عز وجل . ولك أن تقارن بين مؤمن وكافر ، كلاهما يعمل ويجهد ليُقْبَلَ نفسه وأهل بيته ، ويحيا الحياة الكريمة ، وهذا هدف الجميع من العمل ، لكن لو أن المؤمن اقتصر في عمله على هذا الهدف بلا شئ مع الكافر تماما .

إنما للمؤمن فوق هذا مقاصد أخرى تكمن في نيته وضميره ، المؤمن يفعل على قدر طاقته ، لا على قدر حاجته ، ثم يأخذ ما يحتاج إليه وينفق من لباقي ويتصدق على مَنْ لا يقدر على الحركة الحياتية .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) الذين هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلرُّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) ﴾ [المؤمنون] هل يعني مؤدبون فقط ؟ لا ، بل إن المؤمن يتحرك ويعمل ويسعى ، وفي نيته مَنْ لا يقدر على السعي والعمل ، فمكانه يُقبل على العمل ويجهد فيه وفي بيته أن يعمل شيئا لله بما يفيض عن حاجته من ناتج عمله وهذا ما يُعَيِّز المؤمن في حركة الحياة عن الكافر

وأذكر مرة أننا جئنا من الريف في الشتاء في الثلاثينيات لزيارة سيدنا الشيخ الحافظ التيجاني ، وكان مريضاً - رحمه الله ورضي الله عنه - وكان يسكن في حارة ، وفضلنا أن نأخذ (تاكسي) يوصلنا بدل أن نمشي في وحل الشتاء . وعند مدخل الحارة رمى سائق

(التاكسي) الدخول وقال : إن أجرة التوصل لا تكفي لفسيل السيارة وتنظيفها من هذا الوَحْل ، وبعد إلحاح وافق وأوصلنا إلى حيث نريد ، وأعطيناه ضِعْفَ أجرته ، لكنني قبل أن أنصرف قلتُ له : أنت لماذا تعمل على هذا (التاكسي) ولماذا تتعب ؟ قال : من أجل مصالح ومصالح أولادي ، فقلت له : وما يُضيقك إن زِدْتَ على ذلك وجعلتَ في نيتك أن تُيسرَ بعملك هذا على الناس ؟ فأهَمَّ الرجل ولبسته الكلمة فقال : والله لا أريدُ راكباً أبداً .

ومعنى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (المؤمنون) لم يقل مؤدون ، لأن ﴿فَاعِلُونَ﴾ (المؤمنون) تعنى أن نيتهم في الفعل أن يفعلوا على قدر طاقتهم ويجهدوا لتوفير شيء بعد نفقاتهم يتصدقون منه .

إذن : حُرِّمَ الإسلام الرهبانية التي تحرم المجتمع من مشاركة الإنسان فقال ﷺ : « لا رهبانية في الإسلام »^(١) لأنه اعتبر كل حركة مقصود منها صالح المجتمع كله حركة إيمانية عبادية ، ومن هنا كان العمل عبادة .

وقد وضع العلماء شروطاً لمن أراد الانقطاع للعبادة أولها ألا يأخذ نفقته من أحد ، بمعنى أن يعمل أولاً ليوفر احتياجاته طوال فترة انقطاعه ، وصدق (إقبال) حين قال

(١) قال المجلوني في كشف الغطاء (٣٦٥٤) : قال ابن حجر : لم أرد بهذا اللفظ لكن في حديث سمع بن أبي وقاص عند أبيه قال : إن الله أبداً بالرهبانية العنصرية السمة ، وقد أخرج أحمد في مسنده (٢٢٦/٦) من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « إن الرهبانية لم تكتب علينا » .

لَيْسَ زُحُودًا نَصِيْفٌ مِنْ تَقَى لَمَرٍّ مِنْ شُعْرَةِ الْحَيَاةِ بَدِيْنٍ
 إِنَّمَا يُعْرَفُ النَّطْصُوفُ فِي الدِّ سُوْقِي بِمَالٍ وَمَطْمَعٍ وَفُتُوْنٍ
 ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى . ﴿وَمَلَأْتُمْ...﴾ (٤٠) [الحج] وهذه لليهود يُسْمَوْنَ
 مَكَانَ لِلتَّعْبِدِ ، صَالُوْنَا . لَكِنْ ، لَمَّا لَمْ يَرْتَبِهَا الْفَرَانُ تَرْتِيْبًا زَمْنِيًّا ،
 فَيَقُولُ ، لَهْدَمَتْ صَلَوَاتُ وَ صَوَالِعُ وَبِيْعٌ ؟ قَالُوا لَآنَ الْفَرَانُ يُؤَدِّخُ
 لِلْقَرِيْبِ مِنْهُ فَالْأَجْعِدُ .

﴿وَتَسَاجِدُ .﴾ (٤١) [الحج] وهذه للمسلمين ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
 كَبِيرًا ..﴾ (٤٢) [الحج]

وَمَا دَامَ الْحَقُّ سَبْحَانَكَ ذَكَرَ الْمَسَاجِدَ بَعْدَ الْفِعْلِ ﴿لَهْدَمَتْ ..﴾
 (٤١) [الحج] فهذا دليل على أنه لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ مَكَانٌ يُحْكِرُ
 لِلْعِبَادَةِ ، وَإِنْ جُعِلَتْ الْأَرْضُ كُلُّهَا لِهَمِّ مَسْجِدٍ وَطَهْرٍ ، وَمَعْنَى ذَلِكَ
 أَنْ تُصَلَّى فِي أَىْ بَقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، وَإِنْ غُذِمَ الْمَاءُ تَقْطُهرُ بِتَرَابِهَا ،
 وَبِذَلِكَ تَكُونُ الْأَرْضُ مَحَلًّا لِلْعِبَادَةِ وَمَحَلًّا لِحَرَكَةِ الْحَيَاةِ وَالْعَمَلِ
 وَالسَّعْيِ . فَيُمْكِنُكَ أَنْ تَبَاشِرَ عَمَلَكَ فِي مَصْنَعِكَ مِثْلًا وَتُصَلِّيَ فِيهِ ،
 لَكِنْ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَرِيدُ مِنْهُ أَنْ تُخَصَّصَ بَعْضُ أَرْضِهِ لِيَكُونَ بَيْتًا لَهُ
 تَنْقَطِعُ مِنْهُ حَرَكَةُ الْحَيَاةِ كُلُّهَا ، وَيُوقَفُ فَقَطْ لَأُمُورِ الْعِبَادَةِ .

لَدَكَ قَالَ ﷺ . مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا وَلَوْ كَعِصْفَصٍ قَطَاةٍ^(١) بَنَى
 اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ^(٢) .

(١) الْقَطَاةُ ، طَائِرٌ ، سَقَى بِذَلِكَ لِتَثَلُّ مَشْيِهِ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ قَطَا] وَمَطْمَعُ الْقَطَاةِ
 حَيْثُ تَهْبُخُ فِيهِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَالْأَسْحُوسُ مَنِيضُ الْقَطَا لِأَنَّهُا تَلْعَسُ الْمَوْضِعَ ثُمَّ تَبِيضُ
 فِيهِ ، وَكَذَلِكَ هُوَ لِلدَّهْنِهَا [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ لَحْص]
 (٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (١ / ٦٤١) مِنْ إِبْنِ عِيَّاسٍ وَأَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي حَنِيَةِ الْأَوَائِلِ
 (٤ / ٢١٧) مِنْ حَيْثُ لَيْسَ دَر . وَكَذَا (٥ / ٧٤) مِنْ حَيْثُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ

فقله تعالى . ﴿لَهَدَيْتُمْ .. وَمَسَاجِدُ ..﴾ [الحج] تدل على مكان خاص للعبادة وإلا لو اعتُبرت الأرض كلها مسجداً ، فماذا تهدم ؟

وعليه ، فكل مكان تُزارك فيه أمورٌ غير العبادة لا يُعتبر مسجداً ، كما ماكن الصلاة التي يتمنونها تحت العمارات السكنية . هذه ليست مساجد ، والصلاة فيها كاصلاة في الشارع وفي البيت ، لأن المسجد (مكان) وما يُبنى عليه (مكين) .

والمسجدية تعنى : المكان من الأرض إلى السماء بدليل أننا في بيت الله الحرام نصلى فوق سطح المسجد ، ونفجه لجو الكعبة ، لا للكعبة ذاتها ، لماذا ؟ لأن جو الكعبة إلى السماء كعبة . وكذلك لو كنا في صحابيء أو في مناجم تحت الأرض ؛ لأن ما تحت الكعبة من الأرض كعبة . وكذلك في المسعى إذا ضاق للدور الأول يسعى الناس في الثاني وفي السطح ، لأن جو المسعى مسعى

إنّ . المسجد ما حُكر للعبادة ، وخُصص للمسجدية من أرضه إلى سمائه ، وهذا لا يُدرس فيه عمل ديني ولا تُعقد فيه صفقة .. إلخ

أما أن نجعل المسجد تحت عمارة سكنية ، وفوق المسجد مباشرة يباشر الناس حياتهم ومعيشتهم بما فيها من هرج ولهو ، حلال وحرام وطهارة ونجاسة ، ومعاشرة زوجية . إلخ فهذا كله يتنافى مع المسجدية التي جعلها الله حُكراً للعبادة من الأرض إلى السماء فلنُسمّ هذه الأماكن : مُصلّى . ولا نقول : مسجد .

ثم يصف الحق سبحانه المساجد بقوله . ﴿يَذْكُرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ..﴾ [الحج] لأن ذكر الله في المساجد دائم لا ينقطع ، ونحن لا نتحدث عن مسجد ، ولا عن مساجد قُطر من الأقطار ، إنما المراد

مساجد الدنيا كلها من أقصى الشرق لأقصى الغرب ، ومن الشمال
للجنوب

ولو نظرت إلى أوقات الصلوات لرأيت أنها مرتبطة بحركة الفلك
وبالشمس في الشرق ، وفي الزوال ، وفي الغروب ، وباعتبار فارق
التوقيت في كل بلاد الله تجد أن ذكر الله دائم لا ينقطع أبداً في ليل أو
نهار ، فأنب تؤذن للصلاة ، وغيرك يقيم ، وغيركما يصلي ، أنت تصلي
الطهر ، وغيرك يصلي الصبح أو العصر ، بل أنت في الركعة الأولى من
الصبح ، وغيرك في الركعة الثانية ، أنت تركع وغيرك يسجد

إنن : هي منظومة عبادية دائمة في كل وقت ، ودائرة في كل
مكان من الأرض ، فلا يتفكركون ذاكراً لله . اليس هذا ذكراً كثيراً ؟
أليست كلمة (الله أكبر) دائرة على السنة الخلق لا تنتهي أبداً ؟

ثم لما كان دفع الله الناس بعضهم ببعض ينتج عنه معركة تُسفر
عن منتصر ومهزم ، قال سبحانه : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ .. ﴾
(١٤) [المج] فإن كان التدافع بين الكفار فإنه لا ينتهي ، وإن كان بين
حق لله وباطل حكم الله بأنه باطل لا بد أن تنتهي بضمرة الحق ،
وغالباً لا تطول هذه المعركة ؛ لأن الحق دائماً في حضانة الله ، إما
تطول المعارك بين باطل وباطل فليس أحدهما أولى بضمرة الله من
الأخر ، فيظل كل منهما يطحن في الآخر ، وإن لم تكن حرباً ساخنة
كانت حرباً باردة ، لماذا ؟ لأنه لا يوجد قوى لا هوى له يستطيع أن
يفصل فيها ، وطالما تدحل الهوى تستمر المعركة

يبقى في القسيمة العقلية المعركة بين حق وحق ، وهذه لا وجود
لها ؛ لأن الحق واحد في الوجود ، فلا يمكن أن يحدث تصادم أبداً
بين أهل الحق .

سُورَةُ الْحَقِّ

٩٨٤٧

والحق - تمسارك وتعالى - في نُصْرَتِهِ لأوليائه يستطيع أن
ينصرهم دون حرب ، ويهلك أعداءهم ، لكن الحق سبحانه يريد أن
ياخذوا هم بأسباب النصر ، لذلك يُعلمهم أصول هذه المسألة ، فيقول
سبحانه

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتَمْتُمُوهُمْ ^(١) فَشَدُّوا
الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ
لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَسْكَنَ لَيْلٌو بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ .. (٤) ﴾ [محمد]

ومعنى ﴿ أَثْخَتَمْتُمُوهُمْ .. (٤) ﴾ [محمد] يعنى جعلتموهم لا يتدرون
على الحركة ﴿ فَشَدُّوا الْوَثَاقَ .. (٤) ﴾ [محمد] لا تُجهزوا عليهم ، ولا
تقتلهم ، إنما شدُّوا قيودهم واستأسروهم ، وهذه من رحمة الإسلام
وآدابه في الحروب ، فليس الهدف للقتل وإزهاق الأرواح ثم ﴿ فَإِمَّا مَنًّا
بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً .. (٤) ﴾ [محمد] منّا إن كان هناك تبادل للأسرى ، فانت
تمنّ وهو يمنّ والغداء أن يفدى نفسه

وكانت هذه المسألة حجة لنا حينما نتحدث عن الرق من
الإسلام ، ونرد على هؤلاء الذين يخلو لهم اتهام الإسلام ،
ويستخدسون في ذلك السفسطة والمراوغة اللغوية لإقناع الناس بأن
الإسلام ساهم في نشر الرق والعبودية

ونقول ، لقد جاء الإسلام والرق موجود ومنتشر لم تُشرعه
الإسلام ولم يُوجده بداية ، حيث كانت أسباب الرق كثيرة ، وأسباب

(١) لثخنه الجراح أعجزته من الحركة أو عن القتال [القاموس القويم ١/١٠٦] وقال
ابن العباس معناه غلبتموهم وكثر قهرهم الجراح [لسان العرب - مادة : ثخن]

الاستعداد متعددة فَمَنْ تَحَمَّلَ ذَنْبًا وَعَجَرَ عَنْ سَدِّهِ يُسْتَعْبَدُ لِصَاحِبِ
الدين ، وَمَنْ عَمِلَ ذَنْبًا وَخَافَ مِنْ عَقُوبَتِهِ أَخَذَهُ عَبْدًا ، وَمَنْ اخْتَلَفَهُ
الاشْرَارُ فِي الطَّرِيقِ جَعَلُوهُ عَبْدًا .. إلخ

فلما جاء الإسلام عمل على سَدِّ منابع الرِّقِّ هذه ، وجعل الرِّقَّ
مفصَّولاً على الحرب المشروعة ثم فتَحَ عدة مصارف شرعية
للحُلُف من الرِّقِّ القائم ، حيث لم يَكُنْ موجوداً من أبواب العتق إلا
إرادة السيد في أَنْ يعتق عبده ، فأضاف الإسلام إلى هذا الباب أبواباً
أخرى ، جعل العتق كفارة لبعض الذنوب ، وكفارة للييمين ، وكفارة
للظَّهَار^(١) ، وَحَثَّ على الصدقة في سبيل العتق ، ومساعدة المكاتب
الذي يريد العتق ويسمى إسنه . إلخ .

فإذا لم تعتق عبدك ، فلا أقل من أَنْ تَطْعِمَهُ مِنْ طَعَامِكَ ، وتلبسه
من ملبسك ، ولا تُجْعَلْهُ مَا لَا يَطِيقُ ، وَإِنْ حَمَمْتَهُ فَاغْنِهِ ، وكما يقول
النبي ﷺ « إِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ »^(٢)

ونلاحظ على الذين يعيبون على الإسلام مسألة الرِّقِّ في الحروب
أنهم يقارنون بين الرِّقِّ والحرية ، لكن المقارنة هنا ليست كذلك

(١) ظهر من امرائه ، قال لها أيها عليه كظهر أمه أو أحته أو غيرها من المحرمات فيحرمها
ولا يملكها ، وكل العرب يفعلون ذلك ابتداءً لهن وإختراراً قلما اشتكت الزوجة التي ظاهرها
زوجها للنبي ﷺ نزلت الآية تنظم الظهار ، فإما طلاق أو كفارة الكبرى إذا رغب في العودة
إلى زوجته طرية له على الظهار . قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا مِنْهُنَّ أَغْلَظُ ﴾
[أنهائهم إلا اللأئي وظاهرهم وبنهم ليقولون مكرراً في القول وروياً وإن الله لمع غفورٌ ٢٢] [المجادلة]
الكفارة الكبرى إما تحرير رقبة - صيام شهرين متتابعين - إطعام ستين مسكيناً

(٢) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ بَغَضْتُمْ حُرُوكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ
فِتْنَةً بَيْنَكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيَطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلَا
تَكْفُرُوهُمْ مَا يَهْدِيهِمْ ، فَإِنْ كَفَلْتُمْهُمْ - فَلْيَنْفِقْهُمْ قَابِلِيَهُمْ - أَخْرِجْهُ الْبِخَارَى فِي مَبْجَعِهِ
(٢٥٤٥) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٦٦١) كتاب الإيمان

المطالبة هنا بين الرق والقتل ؛ لأنه لا يُسْتَرَقُّ إِلَّا مِنْ قَدَرِ الْمُسْتَرَقِّ عَلَيْهِ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ فِي الْمَعْرَكَةِ ، وَكَانَ بِاسْتِطَاعَتِهِ قُتْلَهُ ، لَكِنْ رَحِمَهُ اللَّهُ بِعِبَادِهِ مَنْعَتْ قِتْلَهُ ، وَأَبَاحَتْ أَخْذَهُ رَقِيْقًا ، فَبِالْإِنْفَعِيَةِ لِلْمُقَاتِلِ الْمُنْتَصِرِ يَقَابِلُهَا حَقُّنَ دَمِ الْآخَرِ ، ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَرْبِ نَبَحَتْ عَلَى عَقْبِهِ ، وَبَفَتْحِ لَهُ أَبْوَابُ الْحَرِيَةِ .

إِنَّ : لَا تَقَارَنُ بَيْنَ عَبِيدٍ وَحُرٍّ ، إِنَّمَا قَارَنَ بَيْنَ الْعَبودية وَالْقِتْلِ أَيُّهُمَا أَقْلٌ ضَرَرًا ؟ .

لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَمْحُفْ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيَذْهَبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥ ﴾ [التوبة]

هَذِهِ نَتَائِجُ سِتِّ الْأَمْرِ ﴿ قَاتِلُوهُمْ .. ۝١٤ ﴾ [التوبة] وَجَوَابُ الْأَمْرِ مَجْرُومٌ بِالسُّكُونِ كَمَا فِي (يُعَذِّبُهُمْ) وَمَجْزُومٌ بِحَذْفِ حَرْفِ الْعِلَّةِ كَمَا فِي (وَيُخْزِهِمْ) ، وَالْحَزَى لَاتِهِمْ كَانُوا مَسْخُورِينَ بِقُوَّتِهِمْ ، وَلَدِيهِمْ جَبْرُوتٌ مُفْتَعَلٌ ، يَظُنُّونَ أَلَّا يَقْدِرُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ ، وَكَذَلِكَ فِي يَنْصُرْكُمْ ، وَيَمْحُفْ ، وَيَذْهَبْ .

ثُمَّ قَطَعَ السَّبِيْقُ الْحِكْمَ السَّابِقَ ، وَاسْتَأْنَفَ كَلَامًا جَدِيدًا ، وَإِنْ كَانَ مُعْطُوفًا عَلَى مَا قَبْلَهُ فِي اللَّفْظِ ، وَهَذَا مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الدَّقَةِ فِي الْأَدَاءِ الْقُرْآنِيِّ ، وَمَلَحَظَ لِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى بِالْكَفَارِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ .. ۝١٥ ﴾ [التوبة] هَكَذَا بِالرَّفْعِ ، لَا بِالسُّجُودِ فَقَطَعَ ابْنُ عَسَى (يَتُوبُ) عَمَّا قَبْلَهُ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَشَأْ أَنْ يَشْرَكَ بَيْنَهُمْ حَتَّى فِي جَوَابِ الْأَمْرِ .

وَحَتَّى عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّهُمْ هَزِمُوا . وَكُسِرَتْ شُرُوكُهُمْ ، وَضَاعَتْ

هيبتهم ، لعلهم يفيقون لانفسهم ، ويعودون للحق ، وهذه من رحمة الله بالكافرين في معاركتهم مع الإيمان .

لكن ، لماذا يقوب الله على الكفار ويرحمهم وهم أعداء دينه وأعداء نبيه ؟ قالوا : لأنه سبحانه وتعالى ربهم وخالقهم ، وهم عباده وعباده ، وهو أرحم بهم ، ومرادات الله في الخلق أن يكونوا جميعاً طائعين .

لذلك ، يقول سبحانه في الحديث القدسي : « قالت السماء يا رب ائذن لي أن أسقط كسفاً على بن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يا رب ائذن لي أن أخسف بأبن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لي أن أسقط على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لي أن أعرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك » .

فالكون كله شاقم على الكافرين ، مستورد على العصاة ، مستنقذ منهم ، فماذا قال الحق - تبارك وتعالى - لهم ؟ قال سبحانه « دعوني وأخلفتي ، لو خلقتهم برحمتهم فإن تابوا إلي ، فأنا حبيبيهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طيبيهم » .

نعود إلى قوله تعالى ﴿ وَلَنَصَرُّنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ .. ﴾ [١٤١] [الحج] وما دام أن النصر من عند الله فإنكم أن تبحثوا في القوة أو تقيسوا قوتكم بقوة عندكم ، فلربك عز وجل جنود لا يحصها إلا هو ، ووسائل النصر وأنت في حضرة الله كثيرة تأتيك من حيث لا تحسب وباهون الأسباب . أقلها أن الله يريكم أعداءكم قليلاً ويكثر المؤمنين في أعين الكافرين ليست ذلك في عضدكم ويرعبهم ويؤزعزع معدياتهم ، وقد يحدث العكس ، فهوى الكفار المؤمنين قليلاً فيجترون عليهم ، ويتقدمون ، ثم تفاجئهم الحقيقة

إِذْ نَ ﴿٢١﴾ وَمَا يَهْتَمُّ جُنُودُ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴿٢٢﴾ [المدر] فَلَا تُعَوِّلْ لِحَقِّكَ عَلَى قُوَّتِكَ وَتَحْسِبْ حُدَى تَكَافُتْكَ مَعَ عَدُوِّكَ ، تَعْلَفُ مِنْ هَذِهِ الْحَسَابَاتِ ، وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَسْتَنْفِدَ وَسَائِلَكَ وَأَسْبَابَكَ ، ثُمَّ تَدْعِ الْعَجَالَ لِأَسْبَابِ السَّمَاءِ .

وَأَقْبَلْ جُنُودَ رَبِّكَ أَنْ يُلْقَى الرَّعْبُ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِكَ . وَهَذِهِ وَحْدَهَا كَافِيَةٌ ، وَيُرَوِّى أَنَّهُمْ فِي إِحْدَى الْمَعَارِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَغَيَّرَتْ رَائِحَةُ أَفْوَاهِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَحْسَنُوا فِيهَا بِالْمِرَاوَةِ لَطُولَ فِتْرَةِ الْقِتَالِ ، فَأَخْرَجُوا الْمِسَاكَ يُنْخَفِقُونَ أَسْنَانَهُمْ ، وَيَطْيِئُونَ أَفْوَاهَهُمْ ، عِنْدَهَا قَالَ الْكُفَّارُ : إِنَّهُمْ يَسْنُونُ أَسْنَانَهُمْ لِيَأْكُلُونَا ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرُونَ .

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج] عَزِيزٌ يَعْنِي لَا يُغْلِبُ ، وَمَا دَامَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْصُرُ مَنْ تَصَرَّهَ فَلَا بُدَّ أَنْ تَنْتَهِيَ الْمَعْرَكَةُ بِالنَّصْرِ مِمَّا خَارَتْ الْقُرَى وَمِمَّا ضَعُفَتْ ، أَلَمْ يَكُنِ الْمُسْلِمُونَ فِي مَكَّةَ ضَعْفَاءَ مُضْطَهَدِينَ ، لَا يَسْتَطِيعُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ بَيْنَ الْكُفَّارِ ؟

وَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر] تَعَجَّبَ عُمَرُ^(١) بِغَرَابَتِهِ وَعَبَقَرِيَّتِهِ أَيْ جَمَعَ هَذَا الَّذِي سَيُهْزَمُ وَنَحْنُ قَادِرِينَ حَتَّى عَلَى حِمَايَةِ أَنْفُسِنَا ؟ فَلَمَّا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ : صَدَّقَ اللَّهُ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر] فَمَا دَامَ أَنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْصُرَكُمْ ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ

(١) أُورِدَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ وَغَرَاهُ تَأْيِيدُ أَبِي حَلَامٍ (٣٦٦/٤) عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ : « لَمَّا مَزَاتِ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر] قَالَ عُمَرُ : أَيْ جَمَعَ هَذَا ؟ أَيْ أَيْ جَمَعَ يَغْلِبُ ؟ قَالَ عُمَرُ : لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَثْبُتُ فِي الْفَرَسِ وَهُوَ يَقُولُ : سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ، فَمَزَاتِ ثَابِتُهَا بِمَعْنَى

محكوم بها ألا : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ آتَا وَرُسُلِي ۖ ٤٦ ﴾ [المجادلة]

لهذا ما تمت لكم القلبة ، فاعلموا ان لكم دوراً ، ألا وهو

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا
الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ
وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ٤٦ ﴾

معنى . ﴿ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ۖ ٤٦ ﴾ [الحج] جعلنا لهم سلطاناً
وقوة وقلبة ، فلا يجترأ أحد عليهم أو يزعجهم ، وعليهم أن
يعلموا ان الله ما مكَّنهم ونصرهم لذاتهم . وإنما ليقوموا بمهمة
الإصلاح وينتقوا الخلافة الإنسانية في الأرض من كل ما يُضعف
صَلاحتها أو يفسده .

لذلك ، سيدنا سليمان عليه السلام كان يركب بساط الريح يحمله
حيث أراد ، فداخله شيء من الزهو ، فعلم به البساط وأوشك أن
يلقيه . ثم سمع من البساط مَنْ يقول له : أَمَرْنَا أَنْ نطيعك ما أَمَرَ
الله .

والعمَّن في الأرض الذي أعطاه الله اليأس والقنوة والسلطان ،
يستطيع أن يفرض على مجتمعه ما يشاء ، حتى إن مَكَّن في الأرض
بباطل يستطيع أن يفرض باطله ويخضع الناس له ، ولو إلى حين
معاندا يُفَاط بالمؤمن إن مَكَّن في الأرض ؟

يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ۖ ٤٦ ﴾
[الحج] ليكونوا دائماً على ذكر ولاة من ربهم الذي وهبهم هذا

التمكين ؛ ذلك لأنهم يترددون عليه سبحانه خمس مرات في اليوم
والليلة .

﴿وَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (٤١) [المع] فهذه
أسس الصلاح في المجتمع والميزان الذي يسعد به الجميع .

﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٤٢) [المع] يعني : النهاية إلينا ، وآخر
لمطاف عندنا . فمن التزم هذه التوجيهات وأدى دوره المنشوط في
مجتمعه ، فيها ونعمت ، ومن ألقاها وراء ظهره فعاقبته معروفة
ثم يُسأل الحق سبحانه رسوله ﷺ حتى لا يهتم بما يفعله قومه
من كفر وعناد ومجابهة للدعوة :

﴿وَإِنْ يَكْذِبُواكَ فَتَدَّكَذِبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ (٤٣)

﴿يَكْذِبُواكَ ..﴾ (٤٣) [المع] يعني . في بصوتك فبواجبهوتك ،
ويقعدون في سبيل دعوتك ليبتلواها ، فاعلم أنك لست في ذلك بدعاً من
الرسول ، فقيده كذب كثير من الرسل قبلك . وعليك ألا تلاحظ مسألة
التكذيب منفصلة عن عاقبته ، نعم : كذب القوم لكن كيف كانت
العاقبة ؟ أتركناهم أم أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ؟

فلا تحزن ، فسوف يحل بهم ما حلّ بسابقيهم من المكذبين
والمعاندين .

وقلنا : إن الرسول يتحمل من مشقة الرسالة وعناء الدعوة على
قَدْر رسالته ، فكلُّ رسولٍ الله قبل بعثه كان الرسول يُرْسَلُ إلى
قومه خاصة . وفي مدة مصبوذة ، وزمان محدود ، ومع تلك تعبوا

كثيراً في سبيل دعوتهم ، فما بالك برسول بُعث إلى الناس كافة في كل زمان وفي كل مكان ، لا شك أنه سيتحمل من التعب والعناء أضعاف ما تحمله إخوانه من الرسل السابقين .

وكان الحق - تبارك وتعالى - يُعد رسوله ﷺ ويؤمّنه على تحصيل المشاق من بدية الطريق حتى لا تفت في عضده حين يواجهها عند مباشرة أمر الدعوة . يقل له : ليست السيادة أمراً سهلاً ، إنما دورها متاعب وأموال ومصاعب فاستعد ، كما تنبه ولدك : ابتبه ، فالامتحانات سنأتى هذا العام صعبة ، فالوزارة تريد تقليل عدد المتقدمين للجامعة ، فاجتهد حتى تحصل على مجموع مرتفع ، وحين يسمع الولد هذا التنبيه يُجمع تماسكه ، ويجمع تركيزه ، فلا يهتز حين يولجه الامتحانات

ثم يذكر الحق - تبارك وتعالى - نماذج للمكذّبين للرسول ﴿ قَوْمُ نوح وعاد وثمود ﴾ (١٢) [الحج]

ثم يقول تعالى

﴿ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ (١٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٤﴾

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه ذكر المكذّبين ، إلا في قصة موسى فذكر المكذّب ، فلم يقل قَوْمُ موسى بل قال وكذّب موسى ، لماذا ؟ قالوا . لأن مهمته كانت أصعب حيث تعرّض في دعوته لمن ادّعى الألوهية فاتها .

وقوله تعالى ﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ .. ﴾ (١٤) [الحج] أمليت . أمهلت حتى ظنوه إمهالاً ، وهو إمهال بأن يمد الله لهم ، ويطيّل

في مدتهم ، لا إكراماً لهم ، ولكن ليأخذهم بعد هذا أخذ عزيز مقتدر ،
وفي آية أخرى يوضح لنا هذه البرنية المختصرة ، فيقول سبحانه
﴿ وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ
بِزَادَاتٍ وَإِنَّمَا .. ﴾ (١٧٨)

وفي هذا المعنى يقول أيضاً ﴿ فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْمَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ
كَافِرُونَ ﴾ (٥٥)

إذن لا تغتر بما في أيديهم ، لأنه فتنة ، حتى إذا أخذهم الله كانت
حسرتهم أكبر ، فمن عدم هذه النعم لا يتعلق قلبه بها ، ولا يآلم لفقدها .

وقد حدث شيء من هذا في أيام سعد زغلول وكان أحد
معارضيه يشتمه ويتناول عليه ، لكن فوجيء الجميع بأنه يؤليه
منصباً مرموقاً في القاهرة ، فتعجب الناس وسألوه في ذلك فقال
نعم ، وضعت في هذا المنصب ليعرف العلو والمنزلة حتى يتحسّر
عليها حين تُسلب منه ، وتكون أنكى له . يعنى : يرفعه إلى أعلى حتى
يهوى على رقبته ، لأنه ما فائدة أن ترفعه من على الحصيرة مثلاً !!

ثم يقول تعالى ﴿ فَكَيْفَ كَانَ لَكَبِيرٍ ﴾ (٤٤) [الحج] الحق سبحانه
يلقى لصبر في صورة استقهام لتقول أنت ما حدث وتشهد به .
والمراد : أعاقبناهم بما يستحقون ؟

والنكير : هو الإنكار على شخص بتغيير حاله من نعمة إلى نقمة ،
كالذى يكرمك ويؤاسيك ويبيش في وجهك ويغدق عليك ، ثم يقطع عنك
هذا كله ، فتقول لماذا تنكّر لى فلان ؟ يعنى قطع عني نعمته .

وكان الحق تبارك وتعالى - يريد أن ينتزع منا الإقرار بقدرته
تعالى على عقاب أعدائه ومكذّبي رسبه ، وهذا المعنى جاء أيضاً في

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَذْنَانِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤْتِي الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين] يعنى هل جرّى الكفار بما عملوا ؟ وهل استطعنا أن نعاقبهم بما يستحقون من العذاب ؟

﴿ تَكْوَفَ كَأَن تَكُورُ (٤٤) ﴾ [الحج] أى إنكرى لموقفهم من عدم أداء حقوق النعمة فبدّلها الله عليهم نقمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا
خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِئُ مَعْظَلَةٍ وَقَصَرٌ مَّشِيدٌ (١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ .. (١) ﴾ [الحج] (كَأَيِّن) أداة تدل على المتكررة مثل كم الخبرية حين تقول : كم أحسست إليك . تعنى مرات عديدة تفوق الحصر . فهي تدل على المبالغة فى العدد والكمية ، ومنها قوله تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّجْمٍ فَاتَلَّ مَعَهُ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ .. (١٤٦) ﴾ [المراد] والقرية^(١) اسم للمكان . وحين يهلك الله القرية لا يهلك المكان ، إنما يهلك المكين فيه فالمراد بالقرية أهلها ، كما ورد فى قوله تعالى . ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ^(٢) الَّتِي كَانَتْ فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف] اسأل أهل القرية .

(١) القرية : البلدة الكبيرة تكون أقل من المدينة ، أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية [القاموس القديم ١١٥/٢]

(٢) قال قتادة المراد بالقرية هنا مصر . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤٨٧/٢) والقرطبي فى تفسيره (٢٥٨٠/١) وقالوا ، وقيل قرية من قرأها بدلوا بها وامتثلوا منها . لفظ القرطبي

ويمتثل أن يكون المعنى : امسال القرية تُحبك ، لأنك لو سألت
اهل القرية فلربما يكذبون ، أمّا القرية فتسجل الأحداث وتُخبر بها كما
حدثت

وقد يتعدى الهلاك إلى القرية ذاتها ، فيغير معالمها بدليل قوله
تعالى . ﴿ فَلَيْتَ يَوَدُّهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۖ ۝٥٧ ﴾ [البقره]

ومعنى ﴿ أَهْلَكْنَاهَا وَمِى ظَالِمَةٌ ۖ ۝٥٨ ﴾ [الحج] أى بسبب
ظلمها ، ولا يُغيّر الله ما يقوم حتى يُغيروا ما بانفسهم ، وفى آية
أخرى يقول تعالى ﴿ وَخَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً بِأَيْمَانِهَا
رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
وَالْحَرْبِ بِمَا كَانُوا يَمْتَعِرُونَ ۝١١٢ ﴾ [اسمل]

فهلاك القرى لا بد أن يكون له سبب ، فلما وقع عليها الهلاك
أصبحت ﴿ خَاوِيَةً عَلَىٰ عُرُوشِهَا ۖ ۝٤٥ ﴾ [الحج] الشيء الخاوى يعنى
الذى سقط وتهدم على غيره ، وقوله ﴿ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ۖ ۝٤٥ ﴾
[الحج] يدل على عظم ما حلّ بها من هلاك ، حيث سقط السقف أولاً ،
ثم انتهارت عليه الجدران ، أو أن الله تعالى قلبها رأساً على عقب ،
وجعل عاليها سافلها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَبِئْسَ مَعْشَلَةٌ ۖ ۝٤٥ ﴾ [الحج] البئر : هو الفجوة
العميقة فى الأرض ، بحيث تصل إلى مستوى الماء الجوفى ، ومنه
يُخرجون الماء للشرب وللزراعة [الخ ومنه قوله تعالى . ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ
مَاءَ مَدْيَنَ ۖ ۝٢٢ ﴾ [التقصص] أى البئر الذى يشربون منه .

والبئر حين تكون عاملة ومُستفاداً منها تلاحظ حولها مظاهر

حياة ، حيث ينتشر الناس حولها ، وينمو النبات على بقايا المياه المستخرجة منها ، ويحوم حولها الطير ليرتوي منها ، أما البئر المعطلة غير المستعملة فتجدها حربة ليس بها علامات حياة ، وربما تسنو^(١) عليها الريح ، وتطمسها فتعطل وتُهجر ، فالمراد معطلة عن أداء مهمتها ، ومهمة البئر السقيا .

﴿ وَقَصْرٌ مُمَشِدٌ (١٥) ﴾ [الحج] القصر اسم للمأوى الفخم ، لأن المأوى قد يكون خيمة ، أو فسطاطاً ، أو عريشة ، أو بيتاً ، أو عمارة ، وعندما يرتقي الإنسان في المأوى فيبشئ لنفسه شيئاً خاصاً به ، لكن لا بد له أن يخرج للقضاء لوازم الحياة من طعام وخلاقه ، أما القصر فيعني مكان السكن الذي يتوفر لك بداخله كل ما تحتاج إليه ، بحيث لا تحتاج إلى الخروج منه ، يعني بداخله كل مقومات الحياة . ومنه . سميت الحور مقصورات في قوله تعالى . ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُيُوتِ (٢٢) ﴾ [الرحمن] يعني . لا تتعداها ولا تخرج منها .

و ﴿ مُشِيدٌ (١٥) ﴾ [الحج] من الشيد ، وهو الحير الذي يستعمل كحُرَّة في بناء الصجر يعني . مادة للحق الحجارة . وجعلها على مستوى واحد . وقديماً كان البناء بالطوب اللبن ، والعمونة من الطين ، أما في القصور والمساكن الفخمة الراقية فالبناء بالحجر ، والمشييد أيضاً العالي المرتفع ، ومنه قولهم . أشاد به يعني . رفعه وأعلى من مكانه ، والارتفاع من ميزات القصور ، ومعلوم أن مقاسات الغرف في العمارات مثلاً غيرها في القصور ، هذه ضيقة منخفضة ، وهذه واسعة عالية .

(١) سفت الريح التراب كثرة ، وقيل حملته . والسافيد الريح التي تحمل تراباً كثيراً على وجه الأرض تهجمه على الناس [لسان العرب - مادة : سفا]

وفى قوله تعالى ﴿وَقَصُرْ مُشِيدًا ۝٤٥﴾ [الحج] دليل على أن هؤلاء
لمهلكين كانوا من اصحاب الغنى والنعيم ، ومن سكان القصور ومن
طية القوم

ثم يقول الحق سبحانه

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ
أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى
الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝٤٦﴾

السَّيْر . قَطْع مسافات من مكان إلى آخر ، ويسمونه السياحة ،
والحق سبحانه يدعو عباده إلى السياحة في أنحاء الأرض ؛ لأن
للسياحة فائدتين

فأما أن تكون سياحة استثمارية لاستنباط الرزق إن كنت في
مكان يضيق بك العيش فيه ، كهؤلاء الذين يسافرون للبلاد الأخرى
للعمل وطلب الرزق .

وبما أن تكون سياحة لأخذ العبرة والتأمل في مخلوقات الله في
ملكه الواسع ليستدل بخلق الله وآياته على قدرته تعالى .

والسياحة في البلاد المختلفة تتيح لك فرصة ملاحظة الاختلافات
من بيئة لأخرى ، فهذه حارة وهذه باردة ، وهذه صحراء جرداء وهذه
خضراء لا يوجد بها حبة رمل ، لذلك يخطبنا ربنا تبارك وتعالى
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ۝٤٧﴾ [الأنعام]

فالعطف في الآية بـ (ثُمَّ) يدل على أن للسياحة مهمة أخرى ،
هي الاستثمار وطلب الرزق ، ففي الآية إشارة إلى الجمع بين هاتين
المهمتين ، فحين تذهب للعمل إياك أن تغفل عن آيات الله في المكان
الذي سافرت إليه ، وخذ منه عبرة كونية تفيدك في دينك

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فانظروا (١٦٦) ﴾ [النمل]

العطف هنا بالعاء لتي تخيد الترتيب ، يعني . سيروا في الأرض
لتنظروا آيات الله ، فهي خاصة بسياحة الاعتبار والتأم ، لا سياحة
الاستثمار وطلب الرزق

لذلك يقولون في الامثال (اللي يعيش ياما يشوف ، واللى
يمشى يشوف أكثر) فكما تعددت الأماكن تعددت الآيات والعجائب
الدالة على قدرة الله ، وقد ترى منظرًا لا يؤثر فيك ، وترى منظرًا آخر
يهزك ويحرك عواطفك ، وتأملاتك في الكون

وقوله ﴿ أَلَمْ يَسِيرُوا . (١٦٧) ﴾ [الحج] تعني وتؤكد أنهم ساروا
فعلًا كما تقول أفلم أكرمك ؟ ولا تقول هذا إلا إذا أكرمته فعلًا
وقد حدث أنهم ساروا فعلًا في البلاد أثناء رحلة الشتاء والصيف
وكانوا يمرون على ديار القوم المهلكين ، كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّكُمْ
لَسُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصِبِينَ (١٦٧) ﴾ [الصافات]

يعني . أنتم أهل سَيْر وترحال وأهل نظر في مصير من قبلكم
فكيف يقب منكم الانصراف عن آيات الله ؟

﴿ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَكُنْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ
بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (١٦٨) ﴾

[الحج] فما داموا قد ساروا وفرحوا في البلاد ، فكيف لا يحفلون آيات الله ؟ وكيف لا تُحرك قلوبهم ؟

ولما وقفت عند قوله تعالى ﴿ فَكَوْنْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا .. ﴾ [الحج] وهل يعقل الإنسان بقلبه ؟ معلوم أن العقل في المخ ، والقلب في الصدر .

نعم ، للإنسان وسائل إدراك هي الحواس التي تلتقط المحسّات يُسمونها تأدياً مع العلم الحواس الخمس الظاهرة لأن العلم أثبت للإنسان في وظائف الأعضاء حواساً أخرى غير ظاهرة ، فحين تُمسك بشئين مختلفين يمكنك أن تُميز أيهما أثقل من الآخر ، فبأي حاسة من الحواس الخمس المعروفة توصلت إلى هذه النتيجة ؟

إن قلتَ بالعين فدعها على الأرض وانظر إليها ، وإن قلتَ باللمس فلك أن تلمسها دون أن ترفعها من مكانها ، إذن سأنت لا تدرك الثقل بهذه الحواس ، إنما بشيء آخر وبآلة إدراك أخرى هي حاسة العَظْم الذي يُميّز لك الخفيف من الثقيل

وحين تذهب بشراء قطعة من القماش تفرك القماش بلطف بين أناملك ، فتستطيع أن تُميز الثخين من الرقيق ، مع أن الفارق بينهما لا يكاد يُذكر ، فبأي حاسة أدركته ؟ إنها حاسة البَين كذلك هناك حاسة البُعد وغيرها من الحواس التي يكتشفها العلم الحديث في الإنسان .

فلما يدرك الإنسان هذه الأشياء بوسائل الإدراك يتدخل العقل ليقرّب هذه المدركات ، ويختار من البدائل ما يناسبه ، فإن كان سيختار ثوباً يقول هذ أنعم وأرق من هذا ، وإن كان سيختار رائحة يقول هذه ألطف من هذه ، إن كان في الصيف اختار

الخفيف ، وإن كان في الشتاء احتار السميك .

وبعد أن يختار العقل ويوازن بين البدائل يحكم بقضية تستقر في الذهن وتقتنع بها ، ولا تحتاج لإدراك بعد ذلك ، ولا لاختيار بين البدائل ، وعندها تنفذ ما استقر في نفسك ، وارتحت إليه بقلبك

إذن إدراك بالحواس وتمييز بالعقل ووقوف عند مبدأ بالقلب ، وما دام استقر المبدأ في قلبك فتد أصبح دستوراً لحياتك ، وكل جوارحك تخدم هذا المبدأ الذي انتهيت إليه ، واستقر في قلبك ووجدانك .

لكن ، لماذا القلب بالذات ؟ قالوا : لأن القلب هو الذي يقوم بعملية صنع سائل الحياة ، وهو الدم في جميع أجزاء الجسم وجوارحه ، وهذه الجوارح هي أداة تنفيذ ما استقر في الوجدان ؛ لذلك قالوا الإيمان محلّه القلب ، كيف ؟ قالوا : لأنك غرّبت المسائل وصفّيت القضايا إلى أن استقرت العقيدة والإيمان في قلبك ، والإيمان أو العقيدة هي ما انعقد في القلب واستقر فيه ، ومن القلب تمتد العقيدة إلى جميع الأعضاء والحواس التي تقوم بالعمل بمقتضى هذا الإيمان ، وما دُمت قد انتهيت إلى مبدأ وعقيدة ، فإياك أن تخالفه إلى غيره ، وإلا فيكون قلبك لم يفهم ولم يفقه .

وكلمة ﴿يَعْقِلُونَ بِهَا (٤٦)﴾ [الحج] تدل على أن للعقل مهام أخرى غير أنه يختار ويفاضل بين البدائل ، فالعقل من مهامه أن يعقل صاحبه عن الخطأ ، ويعقله أن يشرد في المباهات ، والبعض يظن أن معنى عقل يعنى هرية الفكر وأن يشطح المرء بعقله في الأفكار كيف يشاء ، لا ، العقل من عقّال النائة الذي يتمتع بها . ويحجزها أن تشرد منك .

ثم يقول سبحانه . ﴿ أَوْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (٤٦) [الحج] كيف ولهؤلاء القوم أذان تسمع ؟ نعم ، لهم أذان تسمع ، لكن سماع لا فائدة منه ، فكأن الحاسة غير موجودة ، وإلا ما فائدة شيء سمعته لكن لم تستفد به ولم تُوظفه في حركة حياتك ، إنه سماع كعدمه ، بل إن عدمه أفضل منه ، لأن سماعك يقيم عليك الحجة .

﴿ فَلِإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٤٧) [الحج] فعمى الأبصار شيء هين ، إذا ما تحسّ بعمى القلوب^(١) ، لأن الإنسان إذا فقد رؤية البصر يمكنه أن يسمع ، وأن يعمل عقله ، وأن يهتدى ، وما لا يراه بعينه يمكن أن يخبره به غيره ، ويصفه له وصفاً دقيقاً وكأنه يراه ، لكن ما العمل إذا عميت القلوب ، والانظر مبصرة ؟

وإذا كان لعمى الأبصار بديل وعرض ، فما البديل إذا عمى القلب ؟ الاعمى يحاول أن يتحسّس طريقه ، فلإن عجز قال لك : خذ بيدي ، أما اعمى القلب فماذا يفعل ؟

لذلك ، نقول لمن يغفل عن الشيء الواضح والمبدأ المستقر اعمى قلب . يعنى طمس على قلبه فلا يعى شيئاً .

وقوله ﴿ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٤٧) [الحج] معلوم أن القلوب في الصدر ، فلماذا جاء التعبير هكذا ؟ قالوا : ليؤكد لك على أن المراد القلب الحقيقي ، حتى لا تخن أنه القلب التفكيرى التعقلى ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ يَقْرَأُونَ بَاقْرَاهِمِمْ ﴾ (١٦٧) [ال عمران]

(١) قال قتادة البصر النافذ جهر يُلْقَى ومنقعة والبصر النافذ في القلب وقال مجاهد بكل عين أربعة عيون ، يعنى لكل إنسان أربعة أعين : عينان في رأسه لدمياه ، وعينان في قلبه لأخبرته ، فإن صيت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضره عماء شيئاً وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم يظلمه نظره شيئاً [تفسير القرطبي ٤/٦٦٠٨]

ومعلوم أن القول من الأقواء ، لكنه أراد أن يؤكد على القول والكلام ، لأن القول قد يكون بالإشارة والدلالة ، فالقول بالكلام هو أبلغ أنواع القول وأكده ؛ لذلك قال الشاعر

جَرَّاحَاتُ السَّنَانِ لَهَا التَّنَامُ وَلَا يُلْتَمَاسُ مَا جَرَّحَ اللِّسَانُ

ويقولون : احفظ لسانك الذي بين فكّيك ، وهل اللسان إلا بين الفكّين ؟ بكن أراد لتأكيد على القول والكلام خاصة ، لا على طرق التفاهم والتعبير الأخرى .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَسْتَغْجِلُونَكُمْ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤٧)

الم يقولوا في استعجال العذاب . ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ افْعَلْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤٢) [الأنفال]
وقالوا ﴿فَأَنَّا بِمَا نَعْبُدُكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٠) [الأعراف]

ولا يستعجل الإنسان العذاب إلا إذا كان غير مؤمن به ، المؤمن بالعذاب - حقيقة - يحاب منه ، ويريد أن يبطيء عنه أو أن يتجاوز منه والمعنى ﴿وَسْتَغْجِلُونَكُمْ بِالْعَذَابِ﴾ (٤٧) [المع] أنهم يظنون أنه إن توعدهم الله بالعذاب فإنه سيحقق لوعده . لذلك ، الحق سبحانه

(١) سبب نزول الآية : قال القرطبي في تفسيره (١/٤٦) : سزلت في المناسرين الحارث ، وهو قوله ﴿فَأَنَّا بِمَا نَعْبُدُكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٠) [الأعراف] وقيل : سزلت في أبي جهل بن هشام ، وهو قوله ﴿وَلَنُظْهِرَنَّ عَنَّا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ افْعَلْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤٢) [الأنفال]

يصحح لهم هذا الفهم ، فيقول : ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤٧) [الحج] فلا تتعجبوا توعدكم به ، فهو وقع بكم لا محالة ، لأنه وعد من الله ، والله لا يخلف وعده ، لكن اعلموا أن اليوم عند الله ليس كيومكم ، اليوم عندكم أربع وعشرون ساعة ، أما عند الله فهو كالف سنة من حسابكم اقمم للأيام .

واليوم زمن يتمتع لبعض الأحداث ، ولا يسع أكثر مما قدر أن يفعل فيه من الأحداث ، أما اليوم عند الله - عز وجل - فيسع أحداثا كثيرة تملا من الزمن ألف سنة من أيامكم ، ذلك لأنكم تراولون الأعمال وتعالجونها ، أما الخالق سبحانه فإنه لا يزاول لأفعال بعلاج ، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، ففعلك يحتاج إلى وقت ، أما فعل ربك فبكلمة كن . وقد شاء الحق سبحانه أن يعيش هؤلاء في عذاب التفكير في هذا الوعيد طول عمرهم ، فيعذبون به قبل حدوثه . إذن لا تظن أن العذاب الذي توعدكم به سيحدث اليوم أو غدا ، لا ، لأن حساب الوقت مختلف .

ألم تقرأ قول الله تعالى لنبيه موسى - عليه السلام - لما دعا على قومه ﴿رَبِّنا اطمئن على أموالهم﴾^(١) واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ (٨٨) [يونس]

قال له ربه ﴿قَدْ أَجِيتَ دَعْوَتَكَما...﴾ (٨٩) [يونس]

ويقول المفسرون^(٢) حدثت هذه الإجابة لموسى بعد أربعين سنة من دعوته عليهم

(١) قال الضحاك : هارت دنايرهم ودرهمهم وبها سهم وحديدهم حجارة منقوشة [الدر المنثور للسيوطي ٢٨٤/١] وعزاء لابي أبي حاتم وأبي الشيخ

(٢) قاله مجاهد فيها أخرج عه الحكيم الترمذي . وقال ابن عباس فيما أخرجه عه ابن المنذر : يرغمون أن يرمون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة . أوردهما السيوطي في (الدر المنثور ٣٨٥/٤)

وفي موضع آخر يقول تعالى ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [المائدة]

وتريد هذه المدة في قوله سبحانه ﴿يَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المائدة] لماذا ؟ لأن الزمن عندكم في هذه الحالة مُطْلَ . فأنتم من هَوَل ما تروُنَ تستطيلون القصير ، ويمر عليكم الوقت ثقيلًا ، لذلك تتمنون الانصراف ولو إلى النار .

كما أن صاحب النعيم يستقصِر الطويل ، ويمر عليه الوقت كأنه لمح البصر ، ومن ذلك ما تلاحظه من قِصَرِ الوقت مع الاحبة وطوله مع الأعداء وَمَنْ لَا يَهْوَاهُ قَلْبُكَ ، ولهذه المسألة شواهد كثيرة في شعرا العربي ، منها قول أحدهم

حَادِثَاتُ السُّرُورِ تُوزَنُ وَزْنًا وَالْبَلَايَا تُكَالُ بِالْقُرْآنِ^(١)
وقول الآخر .

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أَنْمُ وَنَفَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ الْمِ^(٢)
ويقول ابن زيدون

إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكُمْ بِتْ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكُمْ

(١) اللقرآن جمع لغير وهو من المكثيل ، وهو من الأرض قدر مائة وأربع وأربعين ذراعًا [لسان العرب مادة . قفز] .

(٢) هذا البيت لبشار بن برد ذكره أبو علي القاسم في الامالي (١/١٢٧) والكرى النوم والنمى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُمْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ
تُؤَخِّدُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴾ (٤٨)

﴿ وَكَأَيِّنْ (٤٨) ﴾ [الحج] قلنا تدل على الكثرة يعنى : كثير من القرى . ﴿ أَمَلَيْتُمْ (٤٨) ﴾ [الحج] - أمهلت ، لكن طول الإسهال لا يعنى الإهمال ، لأن الله تعالى يُملي للكافر ويُعمله لأجل ، فإذا جاء الأجل والعقاب أخذه .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا (٤٨) ﴾ [الحج] وأخذ الشيء يتناسب مع قوة الأخذ وقدرته وعنف الانتقام بحسب المعتقم ، فإذا كان الأخذ هو الله عز وجل ، فكيف سيكون أخذه ؟

فى آية أخرى يوضح ذلك فيقول : ﴿ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ (٤٧) ﴾ [القدر] لا يُخَالَفُ ، ولا يمتنع منه أحد ، وكلمة الأخذ فيها معنى الشدة والعنف والقهر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَى الْمَصِيرِ (٤٨) ﴾ [الحج] يعنى المرجع والمآب ، فلن يستطيعوا أن يفلتوا .

إن الإملاء - تأخير العذاب إلى أجل معين ، كما قال سبحانه - ﴿ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رَوْنًا (٤٧) ﴾ [الحاق]

هذا الأجل قد يكون لمدة ، ثم يقع بهم العذاب ، كما حدث فى الأمم السابقة التى أملاكها الله بالخسف أو بالغرق . الخ ، أما فى أمة محمد ﷺ ، فيكون الإملاء بأحداث سطحية فى الدنيا ، كالذى حلّ بالكفار من الخزي والهوان والهزيمة وانكسار شوكتهم ، أما العذاب الحقيقى فينتظروهم فى الآخرة .

لذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - لنبيه ﷺ لا تمتطىء
عذابهم والانتقام منهم فى الدنيا ، فما لم تَرَهُ فيهم من العذاب فى
الدنيا ستراه فى الآخرة : ﴿ فَإِنَّمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَصَوَّلُكَ
فَالْيَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٧) [غلغلر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَكَايَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا كُرْهُدِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٧٩)

والإنذار نوح من الرحمة ، لأنك تخبر بشر قبل أوانه ، ليحذره
المتذكر ، ويحاول أن يُجى نفسه منه ، ويستعد عن أسبابه ، فحين
أذكرك بالله ، وأنه يأخذ أعداءه أخذ عزيز مقتدر ، فعليك أن تريا
بنفسك عن هذه النهاية ، وإن تنجو من دواعى الهلاك .
ومعنى ﴿ مُّبِينٌ ﴾ (٧٩) [الحق] محيط ، لا يترك صغيرة ولا كبيرة .

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٨٠)

وطالما آمنوا وعملوا الصالحات فقد انتفعوا بالفتارة ، وأثمرت
فيهم ، فآمنوا بالله إليها فاعلا مختارا له صفات الكمال المطلق ، ثم
عملوا على مقتضى أوامره ، لذلك يكون لهم مغفرة إن كانت أَلْعَتُ
نفوسهم بشيء من المعاصى ، ويكون لهم رزق كريم ، والكريم هو
اليدال ، كأن الرزق نفسه وصل إليهم بكرم وريانة . كما أن الكريم
هو الذى تظل يده مبسوطة دائما بالعطاء ، على حد قول الشاعر

وَأَنى أَمْرٌ لَا تَسْتَقْدِرُ دَرَاهِمِي عَلَى الْكَفِّ إِلَّا عَابِرَاتِ سَبِيلِ

فالرزق نفسه كريم ، لأنه معدود لا ينقطع ، كما لو أخذت كوب ماء من ماء جارٍ ، فإنَّ يحلُّ محلُّه غيره على الفور ، وهكذا .

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ

أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

السعي : عمل يذهب إلى غاية ، وإن كان قطع مسافة تقول : سرتنا من كذا إلى كذا ، وإن كان في قصية علمية فكرية ، فيعني : أن الحدث يعمن من شيء بداية إلى شيء غاية

والسعي لا يحدد على إطلاقه . ولا يَدُمُّ على إطلاقه ، فإن كان في حير فهو محمود مدوح ، كالسعي الذي قال الله فيه : ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [٢٤] . وإن كان في شرٍّ فهو قبيح مذموم ، كالسعي الذي قال الله تعالى فيه : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [٢٥] وإذا تَوَلَّى سَفَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [٢٥] [البقرة]

أما السعاية فعادة تأخذ جانب اشر . وتعنى : الوشاية والسعي بين الناس بالنميمة ، تقول : فلان سَعَاءٌ بين الخلق يعنى بالشر ينقله بين الناس بقصد الأذى ، وهؤلاء إن علموا الخير أحقوه ، وإن علموا الشر أذاعوه ، وإن لم يعلموا كذبوا

لذلك ، نقول عما ينتج من هذه السعاية من الشر بين الناس : هذا آفة الأخذ ، يعنى : الذى سمع الشر ومقله وسعى به ، وكان عليه أن يحبسهُ وَيُخْفِيَهُ . حتى لا تنتشر هذه الرذيلة بين الخلق .

وقد وشى واش بهمام بن عبد الله السلولى إلى زياد بن أبيه
وكان زياد جباراً فقال للواشى . أجمع بينك وبينه ؟ فلم يجد الواشى
يداً من أن يقول . نعم ، فكيف ينكر ما قال ؟ ولعله قال فى نفسه
لعل الله يقضى أمراً يُخرجنى من هذه (الورطة) قبل هذه المواجهة ؟
ثم أرسد زياد إلى ابن همام فلتى به ، وقد جعل زياد الواشى فى
مجلسه خلف ستار ، وأدخل همام ، فقال له يا همام بلغنى أنك
هجوئتنى ، فقال كلا ، أصلحك الله ما فعلت ، ولا أنت لذلك بأهل ،
فكشف زياد الستار وقال . هذا الرجل أخسرنى أنك هجوئتنى ، فنظر
ابن همام ، فإذا هو صديق له يجالسه ، فقال له

أَنْتَ أَمْرٌؤٌ إِمَّا اتَّمَنْتَكَ خَالِئاً قَمَنْتَ وَإِمَّا قُلْتَ قَوْلًا بِلَا عِلْمٍ
مَّأْتَبَتْ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِى كَانَ بَيْنَنَا بِمَنْزِلَةِ بَيْنِ الْحَيَاةِ وَالْإِثْمِ^(١)

يعنى . أنت مذموم فى كل الأحوال ، لأنك إما خنت أمانة المجلس
والحديث ولم تحفظ سرّاً فضفضت لك به ، وإما احتقت هذا القول
كذباً وبلا علم .

وعندهما خلع زياد على همام الخلع^(٢) ، لكنه لم يعاقب الواشى ،
وفى هذا إشارة إلى ارتياحهم لمن يتقل إليهم وأن أذانبهم قد أخذت
على ذلك وتعودت عليه .

(١) أورد القرطبي هذه الأبيات فى . بحبان علوم الدين ، (٢ / ١٥٧) . ولكنه ذكر قصة غير هذه
فى مناسبتها . قال . سعى رجل بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما
للمواظفة بالليل ويعد على الرجل وقال . وذكر الأبيات

(٢) الخلع من الثياب ما خلعت فطرحته على آخر أو لم تطرحه كل ثوب فخلعه على خلع
[لسان العرب - مادة خلع]

ومعنى ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ [الحج] والآيات إما كرتية ، كالشمس والقمر ، وإما معجزات ، وإما آيات الأحكام ، وسَعَرُوا فيها يعنى ، قالوا فيها قَوْلًا باطلاً غير الحق ، كما يسعى الواشى بالباطل بين الناس ، فهؤلاء إِنْ نظروا فى آيات انكون قالوا ، من صنع الطبيعة ، وإن شامدوا معجزة على يد نبيّ قالوا ، سحر وأساطير الأولين ، وإن سمعوا آيات الأحكام تُنْكَى قالوا ، شعر . وهم بذلك كله يريدون أَنْ يُفْسِدُوا على أهل الإيمان إيمانهم ، ويصدُّوا عن سبيل الله .

ومعنى ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ [الحج] جمع لاسم الفاعل معاجز مثل . مقاتل ، وهى من عَاجَزَ غير عجز عن كذا يعنى : لم يقدر عليه ، عَاجَزَ فلانٌ فلانًا يعنى باراه أيهما يعجز قبل الآخر ، معاجزه مثل باراه ليثبت أنه الأفضل ، ومثل : سابقه ونافسه .

إذن . فالمعاجزة مطاعة ومشاركة ، وكلمة نافسه الأصل فيها من النفس الذى نأخذه فى الشهيق ، ونُخْرِجُه فى الزفير ، والذى به يتأكسد الدم ، وتستقر حركة الإنسان ، فإن امتنع انتفُس يعوت ؛ لأن الإنسان يصبر على الطعام ويصبر على الماء ، لكنه لا يصبر على الهواء ولو لثَقَس واحد .

وقد حدثت هذه المعاجزة أو المنافسة بين سيدنا عمر وسيدنا العباس رضى الله عنهما . قال عمر للعباس أتنافسنى فى الماء ، يعنى : تغطس تحت الماء وتنظر أيهما يُعْجِز الآخر ، ويتحمل عملية مؤلِّف النفس ، ومثل هذه المنافسة قد يحتال عليها الإنسان إن كتم نفسه وهو فى جَوْ الهواء ، أما إِنْ نَزَلَ تحت الماء حيث ينعدم الهواء ، فكيف سيحتال على هذه المسألة ؟ وتحت الماء لا يكون إلا الهواء الذاتى الذى اختزبه كل منهما فى رفته ، ومثل هذه المنافسة توضح أيهما أفسح

صَدْرًا مِنْ الْآخِرِ ، وَأَيُّهُمَا أَكْثَرُ تَحْصُلًا تَحْتَ الْمَاءِ . هَذِهِ هِيَ الْمَعْجَزَةُ .

فَمَعْنَى ﴿سَمَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجَزِينَ...﴾ (٥١) [الحج] أَي : يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ أَنْ يُعْجِزُونَا ، فَحِينَ تَأْتِي إِلَيْهِمْ بِكَلَامٍ بَلِيغٍ مُعْجَزٍ يَخْتَلِقُونَ كَلَامًا فَارِغًا لِيُعْجِزُونَا بِهِ ، فَأَنَّى يَكُونُ لَهُمْ ذَلِكَ ؟ وَأَنَّى لَهُمْ أَنْ يَطْعَنُوا بِكَلَامِهِمْ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ ؟

ثُمَّ يُبَيِّنُ جِزَاءَ هَذَا الْفِعْلِ وَهَذِهِ الْمَكَابِرَةُ ﴿أَرْأَيْتَ أَصْحَابَ الْجَحِيمِ﴾ (٥٢) [الحج] فَهَذَا حُكْمُ اللَّهِ بِهِمْ قَضِيَّةٌ رَاضِحَةٌ مِنْ أَتَمِّدِ الطَّرِيقِ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يُعْجِزُ اللَّهَ ؟
ثُمَّ يَقُولُ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ^(١)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَنْبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ
الْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ
ثُمَّ يُصَدِّقُكُمْ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٣)

(١) سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ : لَوْرِدَ لِلوَاحِدِيِّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ (ص ١٧٨) عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ قَالَ : لَمَّا أُرْسِلَ اللَّهُ ﷺ ﴿الرَّائِقُ ثَلَاثَ وَفَرَيْنِ﴾ (٥٢) وَمِنَ الْبَاقِيَةِ الْآخَرُونَ (٥٣) [الأنعام] فَالْقَى الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ تِلْكَ الْفَرَانِيقَ الْعَلَى وَهَلَاكَتَهُنَّ فَوَجَّهَ قَلْبَهُ بِذَلِكَ الْمُشْرِكِينَ وَقَالُوا : لَقَدْ ذَكَرْنَاكَ الْهَلَاكَ ، فَجَاءَ جَبْرِيْلٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ : أَعْرِضْ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ ، فَلَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِ قِيلَ : أَمَّا هَذَا فَلَمْ أَتْلُ بِهِ ، هَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَمَا لَوْ مَقَّامُكَ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ الْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...﴾ (٥٣) [الحج] .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢/٢٢٩) : لَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ هَهُنَا تِلْكَ الْفَرَانِيقَ ، وَلَكِنَّهَا مِنْ طَرَفٍ كَلَّمَا مَرْسَلَةً وَلَمْ أَرَاهَا مُسْتَعْدَةً مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ وَإِنَّ أَهْلَهُ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١/١٦١٢) : «الْأَحَادِيثُ الْمَرْبُورَةُ فِي مَرَدِّ هَذِهِ الْآيَةِ ، لَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ يَصِحُّ» ، وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ فِي كِتَابِ «الذُّفَا بِتَعْرِيفِ حَقِّ الْمُصْطَلَقِ» : «هَذَا حَدِيثٌ لَمْ يَخْرِجْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّحَّةِ وَلَا رَوَاهُ بَسْطٌ سَلِيمٌ مُتَّصِلٌ ثَقَّةٌ وَإِنَّمَا أُوتِيَ بِهِ وَبِمُثْلِهِ الْعَصَمِيُّونَ وَالْمُؤَدَّوُونَ الْمَوْلَعُونَ بِكُلِّ غَرِيبٍ ، الْمُتَلَقِّدُونَ مِنَ الصَّحَفِ كُلِّ صَحِيحٍ وَسَلِيمٍ» .

أثارت هذه الآية جدلاً طويلاً بين العلماء ، ودخل فيه كثير من الحشو والإسرائيليات ، خاصة حول معنى ﴿ تَمْنَى ﴾ (٥٧) [الحج] وهي تُرد في اللغة بمعنيين ، وما دام اللفظ يحتمل معنيين فليس أحدهما أولى من الآخر إلا بمدى استعماله وشيوعه بين جمهور العربية ، ويأتي التمني في اللغة بمعنى القراءة ، كما ورد في قول حسان بن ثابت في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنهما

تَمْنَى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَآخِرَهَا وَكَفَاهُ حَتَمُ الْمَقَادِرِ^(١)

يعنى قُتل عثمان وهو يقرأ القرآن . وهذا المعنى عريب في حقل القرآن عليه لعدم شيوعه^(٢) .

وتأتي تمنى بمعنى . أحب أن يكون الشيء . وهذا هو القول المشهور في لغة العرب . أما بمعنى قرأ فهو غير شائع ويُرد هذا القول ، وينقصه نقصاً أولياً مبدئياً قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ .. ﴾ (٥٧) [الحج]

ومعلوم أن الرسول ينزل عليه كتاب يمكن أن يقرأه ، أما النبي فلا ينزل عليه كتاب ، بل يعمل بشرع مَنْ سبقه من الرسل إذن فما دام للرسول والنبي مشتركين في إلقاء الشيطان ، فلا بد أن تكون الاحتمية هنا بمعنى . أحب أن يكون الشيء ، لا بمعنى قرأ ، فأي شيء سيقرا النبي وليس معه كتاب ؟

والدين فهموا التمني في قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ (٥٧) [الحج] أنه

(١) ذكره ابن منظور في لسان العرب مادة عسى ، بلفظ

تَمْنَى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَآخِرَهَا لَأَقَى حَتَمَ الْمَقَادِرِ

(٢) قال أبو منصور والثلاوة تمنى أمنية لأن قال القرآن إِذْ مِنْ بَابِ رَحْمَةٍ تَمْنَاهَا ، وَإِذَا

مِنْ بَابِ عَذَابٍ تَمْنَى أَنْ يُؤْفَأَ ، [لسان العرب - مادة عسى]

بمعنى . قرأ ، سواء أكانوا من العلماء المتعمقين أو السطحيين ، قالوا المعنى إذا قرأ رسول الله القرآن تدخل الشيطان في القراءة ، حتى يدخل فيها ما ليس منها .

وذكروا دليلاً على ذلك في قوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝٢٠ ﴾ [النجم] ثم أضافوا . والغرائيق^(١) العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى . وكان الشيطان أدخل في القرآن هذا الكلام ، ثم نسخه الله بعد ذلك ، وأحكم الله آياته

لكن هذا القول يُشكك في قضية القرآن ، وكيف نقول به بعد أن قال تعالى في القرآن ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ۝١٦٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝١٦٤ ﴾ [الشعراء]

وقال ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوِيلِ ۝١٦٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝١٦٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ^(٢) ۝١٦٦ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝١٦٧ ﴾ [الحاقة] . ذن . الحق سبحانه وتعالى حفظ قرآنه وكلامه من أمثال هذا العبث ، وكيف تدخل في القرآن هذه الكفريات ؟ وكيف تستقيم عبارتهم والغرائيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى مع قول الله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٦٣ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝١٦٤ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝١٦٥ تِلْكَ إِذًا فِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝١٦٦ ﴾ [النجم] كيف يتسجم هذا وذلك ؟

(١) الغرائيق الأصنام ، وهي في الأصل . الذكور من طير الماء . وكلوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله عز وجل وتخلصهم بهم إليه ، فشبّهت بالصيود التي تعلق وترتفع في السماء [لسان العرب - مادة طروق] .

(٢) الوتين عرق في القلب إذا قُطِع مات صاحبه ، وهو الشريان الرئيسى الهام الذي يقضى الجسم بالدم النقي الخارج من القلب [القاموس القويم ٢/ ٢٩٩]

فهذا الفهم في تفسير الآية لا يستقيم ، ولا يمكن للشيطان أن يدخل في القرآن ما ليس منه ، لكن يحتمل تدخل الشيطان على وجه آخر نحين يقرأ رسول الله القرآن . وفيه هداية للناس . وفيه مواظ وأحكام ومعجزات ، أنتظر من عذر الله أن يدخل الجور للناس حتى يسمعوا هذا الكلام دون أن يشوش عليهم ، ويبلبل أفكارهم ، ويحول بينهم وبين سماعه ؟

فإذا تمت الرسالة يعني . قرأ ألقى الشيطان في أمنيته ، وسلط أتباعه من البشر يقولون في القرآن سحر وشعر وأفك وأساطير الأولين . فدور الشيطان - إذن - لا أن يدخل في كلام الله ما ليس منه ، فهذا أمر لا يقدر عليه ولا يمكنه الله من كتابه أبداً ، إنما يمكن أن يلقى في طريق القرآن وفهمه والتأثر به العقبات والعراقيل التي تصد الناس عن فهمه والتأثر به ، وتفسد القرآن في نظر من يريد أن يؤمن به

لكن ، هل محاولة تشويه القرآن هذه وصدد الناس عنه جاءت بنتيجة . وصرفت الناس فعلاً عن كتاب الله ؟

لقد خيب الله سعيه . ولم تقف محاولاته عقبة في سبيل الإيمان بالقرآن والتأثر به ؛ لأن القرآن وجد قلوباً وأذاناً استمعت وتأملت فآمنت وانهارت لحلاله وعظمته وخضعت لأسلوبه وبلاغته . فآمنوا به واحداً بعد الآخر

ثم يقول تعالى . ﴿لَيَنْسَخَ اللَّهُ مَا يَبْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج] يعني ألقى وأبطل ما ألفاه الشيطان من الأباطيل والعقبات التي أركب بها أن يصد الناس عن القرآن . وأحكم الله آياته ، وأوضح أنها منه سبحانه ، وأنه كلام الله المعجز

الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

هذا على قول من اعتبر أن ﴿ تَمْنَى ﴾ [٥٦] [الحج] بمعنى : قرأ

أما على معنى أنها الشيء المحبوب الذي تقصده ، فنقول .
الرسول الذي أرسله الله تعالى بمنهج الحق إلى الخلق ، فإن كان قادراً على تطبيق المنهج في نفسه فإن أمنيته أن يُصدق وأن يُطاع فيما جاء به ، أمنيته أن يسودَّ منهجه ويُسيطر ويسوس به حركة الحياة في الناس .

ولنبي أو الرسول هو أولى الناس بقومه . وهو أحرصهم على نفعهم وهدايتهم ، والقرآن خير يحب للناس أن يأخذوا به عملاً بقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لآخيه ما يحب لنفسه »^(١) .

لكن ، هل يترك الشيطان لرسول الله أن تتحقق أمنيته في قومه أم يضع في طريقه العقبات ، ويُحرِّك ضده النفوس ، فيتمرد عليه قومه حيث يُذكرهم الشيطان بما كان لهم من سيادة ومكانة سيفقدونها بالإسلام ؟

وهكذا يلتقي الشيطان في أمنيّة الرسول ﴿ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [٥٧] [الحج] وما كان للشيطان ليدع القرآن ينفذ إلى قلوب الناس أو حتى أذانهم ، اليس هو صاحب فكرة ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ [٧٦] [مجادل] ؟

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (١٢) ، ومسلم في صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بالغط « والذي نفسى بيده » لا يؤمن به حتى يحب لغيره - أو قال لآخيه - ما يحب لنفسه .

إن الشيطان لو لم تلق العرافيل في سبيل سماع القرآن ويُسكّن فيه لآمن به كل مَنْ سمعه ، لأن القرآن حلاوة لا تُقاوم ، وأثراً ينفذ إلى القلوب مباشرة .

ومع ذلك لم يَفُتْ ما ألقى الشيطان في عَصُدِ القرآن ، ولا في عَصُدِ الدعوة ، فاخذت تزداد يوماً بعد يوم ، ويزداد عدد المؤمنين بالقرآن المصدقين به المهم أن نتنبه كيف نستقبل القرآن ، وكيف نتلقاه ، لا بد أن نستقبله لاستقبال الخالي من هوى ، فالذي يفسد الأحكام أن تُستقبل وتدخل على هوى سابق

وسبق أن قلنا : إن الحيز الواحد لا يسع شيئين في وقت واحد ، لا بد أن تُخرج أحدهما لتُدخِل الآخر ، فعليك - إذن - أن تُخلى عقلك وفكرت تماماً ، ثم تستقبل كلام الله ، وابحث فيه كما شئت ، فسوف تنتهي إلى الإيمان به شريطة أن تُصَفِّي له قلبك ، فلا تُبق في ذهنك ما يُعكّر صفو الفطرة التي خلقها الله فيك ، عندها سيأخذ القرآن طريقه إلى قلبك ، فإذا أُشرب قلبك حب القرآن ، فلا يزعجه بعد ذلك شيء .

ولنا في إسلام سيدنا عمر مثلاً وعظة ، فلما سمع القرآن من أخته لأول مرة . وقد أغلق قلبه على كفره لم يتأثر به ، وضربها حتى أدنى وجهها ، وعندها رقّ قلبه ، وتحركت عاطفته نحو أخته ، وكان عاطفة الحب رحرحت عاطفة العداوة ، وكشفت عن صفاء طبيعته ، فلما سمع القرآن بعدها آمن به على الفور^(١)

(١) قصة إسلام عمر بن الخطاب نكروا ابن هشام في السيرة النبوية (١/٣٤٤) وفيها أنه قال : « لقد أخبرت أنكما تلبيما مسلماً على دينه ، ويطش بخلته سعيد بن زيد ، فقامت إليه أختي فاطمة بنت الخطاب بتكلمه عن دينها ، فصدتها فشحما ، فلما فعل ذلك قالت له أحسن وجهته . نعم قد أسلمنا وأما بالله ورسوله . فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما يالحت من الدم ندم على ما صنع فارهوى . »

كذلك ، إن أردت أن تناقش قضية الإيمان أو الكفر ، وأن تختار بينهما : لأنهما لا يجتمعان أبداً ، ولا بد أن تختار ، فحين تناقش هذه القضية وأنت مُصرٌّ على الكفر قلن تصل إلى الإيمان ، لأن الله يطبع على انقلب المُصِرُّ فلا يخرج منه الكفر ، ولا يدخله الإيمان ، إنف أخرج الكفر أولاً وتحرر من أسرهِ . ثم ناقش المسائل كما تحب .

كما قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ خِزْفٍ ﴾ [سبأ] ٤١

أما أن تناقش قضية ، وفي ذهنك فكرة مسبقة ، فانت كهؤلاء الذين قال الله فيهم ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِذَا . ﴾ [محمد] يعني ما الجديد الذي جاء به ؟ وما المعجزة في هذا الكلام ؟ فيأتي الرد ﴿ وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [١٦] وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ [محمد]

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه عن القرآن

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [٤٤]

فالقرآن واحد ، لكن المستقبل مختلف ، وقد ذكرنا أنك حين تريد أن تبرد كوب الشاي الساخن فإنك تنفخ فيه ، وكذلك إن أردت أن تدفئ يديك في برد الشتاء فإنك أيضاً تنفخ فيها ، كيف - إذن - والفاعل واحد ؟ نعم ، الفاعل واحد ، لكن المستقبل للفعل مختلف ،

وقوله تعالى ﴿ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ رُسُلٍ وَلَا نَبِئٍ ﴾ [الحج] ٥٩

(من) هنا للدلالة على العموم وشمول كل الأنبياء والرسل السابقين لكل نبي أو رسول يتمنى يعنى يؤد ويهب ويرغب أن ينتشر دينه ويطبق منهجه ، ويؤمن به جميع قومه ، يكن هيبات أن يتركه الشيطان وما أحب ، بل لا بد أن يقف له بطريق دعوته ليصد الناس عنه ويصرفهم عن دعوته ومنهجه ، لكن فى النهاية ينصر الله رسله وأنبياءه ، وينسخ عقبات للشيطان التى أنقاعا فى طريق الدعوة ، ثم يحكم الله آياته ، ويؤكد لها يظهرها ، فتصير محكمة لا ينكرها أحد .

وساعة تسمع كلمة ﴿ أَلْفَى ﴾ [الحج] فاعلم أن بعدها عقبات وشروفا ، كما يقول تعالى ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [المائدة]

ومما قاله أصحاب الراى الأول فى تفسير ﴿ تَمَى ﴾ [الحج] وأنها بمعنى قرأ يقولون ، إن الله تعالى ينزل على رسوله ﷺ أشيئه تثبت بشريته ، ثم يمحوا الله آثار هذه البشرية ليسين أن الله صنعه على عينه ، حتى إن همت بشريته بشيء يعصمه الله منها

لذلك يقول ﷺ « يَرِدُ عَلَى فَاَقُول ، أنا لست كآحدكم ، ويؤخذ منى فاقول ، ما أنا إلا بشر مثلكم »

إذن فالرسول بشر إلا أنه يوحى إليه ما يعصمه من زلات النشر

ومن بشريه ﷺ أنه تعرض للسحر ، وهذه واقعة لا تُنكر ، وقد ورد فيها أحاديث صحيحة ، وقد كاد الكفار لرسول الله بكل أنواع الكيد استهزاء ، وسبائيا ، واضطهادا ، وإهانة ، ثم تأمروا عليه بليل ليقتلوه ، وبيّنوا له ، فلم يفلحوا قال تعالى ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لِيُفْتِنُوكَ^(١) أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ
الْمَاكِرِينَ ﴿٣١﴾

[الأنفال]

وكاد الله لرسوله وأخرجه من بينهم سالماً ، وهكذا فضح الله
تبييتهم وخيبت سعيهم وفشلت محاولاتهم الجهرية والسرية فلجئوا
إلى السحرة ليفعلوا برسول الله ما عجزوا هم عنه ، وعملوا لرسول
الله سحراً في مُبْشَطٍ وَمُشَاطٍ من شعره ﷺ وطلع نخلة ذكر
ففضحهم الله ، وأخبر رسوله بذلك فارسل الإمام علياً فأتى به من
بشر ذروا^(٢) .

وكان الحق سبحانه يريد أن يُبين لنا بشرية الرسول ، وأن
يجرى عليه ما يجري على البشر ، لكن ربه لا يترك بشريته وحدها ،
ولما يعصمه بقيوميته .

وهذا المعنى هو ما قصده أصحاب الرأي الأول أن الرسول
يطأ عليه ما يطأ على البشر العادي ، لكن تتدخل السماء لتعصمه
ونحن نختار الرأي الآخر الذي يقول أن تعنى بمعنى ودّ وأحب
ثم تختتم الآية بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج]
عليم بكيد الشيطان ، وتدبيره ، حكيم في علاج هذا الكيد .

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
وَالْقَاسِيَةُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

(١) أي - ليحبسوك ويقتلك في مكانك بمكة تحت سيطرتهم وقيل ليفتنوك [القلموس
اللويم ١٠٥/١]

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٦٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢١٨٩) من حديث
عائشة رضي الله عنها

سورة الحج

٩٨٨١

ولسائل أن يقول إذا كان الله تعالى ينسخ ما يلقى الشيطان ،
فلماذا كان الإلقاء بداية ؟

جعل الله الإلقاء فتنة ليختبر الناس ، وليميز من ينهض بأعباء
الرسالة فهي مسئولية لا يقوم بها إلا من ينفذ من الفتن ، وينجس
من إغرامات الشيطان ، ويتخطى عقباته وعراقيله ، لذلك قال تعالى
عنهم ﴿ كُنْتُمْ حَرِيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (١١٠) [المران]

وما تبوأتم هذه المنزلة إلا لأنكم أملّ لحمل هذه الأمانة ، تمرّ بكم
الفتن فتبهاون بها ولا ترعروعكم ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى
الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ (٥٢) [الحج] أي : ففاق ، فإن
تعرض لفتنة انقلب على وجهه . يقول كما يقولون سحر وكذب
وأساطير الأولين .

وكذلك فتنة ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٥٢) [الحج] وهم الذين فقدوا لبن
القلب ، فلم ينظروا إلى الجميل عليهم في لكون خلقاً وإيجاداً وإمداداً ،
ولم يعترفوا بفضل الله عليهم ، ولم يستبشروا به ويأتوا إليه .

ونحن نلاحظ لولد الصغير ياتس بأمه وأبيه ، ويركن إليهما ، لأنه
ذاق حنانهما ، وتربى في رعايتهما ، فإن ربّه مثلاً للمربية حتى في
وجود أمه فإنه يميل إليها ويألف حصنها ، ولا يلتفت لأمه ، لماذا ؟
لأنه نظر إلى الجميل ، من أين أتاه ، ومن صاحب الفضل عليه فربّ
له قلبه ، بصرف النظر من هو صاحب الجميل

فهؤلاء طاروا على كون الله ، لا حول لهم ولا قوة ، فاستقبلهم
بكل ألوان الخير ومع ذلك كانت قلوبهم قاسية متحجرة لا تعترف
بجميل .

ثم يقول سبحانه . ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (٥٢) [الحج]
 فهم ظالمون أولاً لأنفسهم حين نظروا إلى منفعة عاجلة قليلة ، وتركوا
 منفعة كبيرة دائمة . والشِّقَاقُ الخلاف ، ومنه قولنا هذا في شِقِّ ،
 وهذا في شِقِّ ، بمعنى . غير ملتزمين ، وليته شِقَاقُ هَيْنٍ يكون له
 اجتماع والتَّام . ليته كشِقَاقِ الدنيا بين الناس على عَرَضٍ من أعراض
 الحياة ، إنما هم في شِقَاقٍ بعيد . يعني أثره دائم ، وأثره فظيع .
 إذن العلة الأولى لما يكفى الشيطان أن يكون فتنة . أما العلة
 الثانية ففي قوله تعالى :

﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
 فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ
 آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٥٤)

قوله تعالى . ﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (٥٤) [الحج]
 يعني . يتأكدوا تأكيداً واضحاً أن هذا هو الحق ، مهما شوش عليه
 المشوشون ، ومهما قالوا عنه : إنه سحر ، أو كذب ، أو أساطير الأولين ،
 لأن الله سيبطل هذا كله ، وسيقف أهل العلم والنظر على صدق القرآن بما
 لديهم من حقائق ومقدمات واستدلالات يعرفون بها أنه الحق .

وما دام هو الحق الذي لم تزعزعه هذه الرياح الكاذبة فلا بد أن
 يؤمنوا به ﴿ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ (٥٤) [الحج] ثم يتبع هذا الإيمان عمل وتطبيق
 ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ ﴾ (٥٤) [الحج] يعني : تخضع وتخضع وتلتين وتستكين

ثم يقول سبحانه ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٥٤) [الحج]

سُورَةُ الْجَنَّةِ

﴿١٨٨﴾

فمسألة كيد الشيطان وإلقائه لم تنته بموت الرسول ، بل هو قاعد
لامته من بعده ، فالشيطان يقعد لامة محمد كلها ، ولكل من حمل عنه
الدعوة .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ
يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ
وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (١١٢) [الانعام]

يعنى دعهم جانباً قائم لهم بالمرصاد ، فلماذا - إذن - فعلوه ؟
وما الحكمة ؟

يقول تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (١١١) [ال عمران]
وقال ﴿ وَلِنَتَصْنَعَ إِلَيْهِ أَفْئِدَةً الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ (١١٣) [الانعام]
فهمة الشيطان أن يستغل ضعف الإيمان ، ومن يعبدون الله على
حرف من أصحاب الاحتجاجات التبيرية الذين يريدون أن يبرروا
لانفسهم الانغماس فى الشهوة والسير فى طريق الشيطان ، وهؤلاء
يحلوا لهم الطعن فى الدين ، ويتحنون أن يكون الدين والقيامة والرب
أرهاباً لا حقيقة لها ، لأنهم يخافون أن تكون حقيقة ، وأن يتورطوا
بأعمالهم السيئة ونهايتهم المؤيعة ، فهم - إذن - يستبعدون القيامة
ويقولون : ﴿ أَلَمْ نَأْتِكُمْ بِنُورٍ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ وَأَنَّا لَمَبْهُوثُونَ ﴾ (١١٤) [الصافات]

لماذا ؟ لانه يريد أن يبرر سلوكه ، إنه يريد أن يخرج نفسه من
ورطة ، لا مخرج منها ، وهؤلاء يتبعون كل ناعق ، ويحزرون وراء كل
شبهة فى دين الله يثقفونها ويرددونها ، ومرادهم أن يهدموا الدين
من أساسه .

سنع من هؤلاء المسرفين على انفسهم مثلاً من يعترض على

تحريم الميتة وأكل الذبيحة ، وهذا دليل على خميرة الشوك والكفر في نفوسهم ، ولهم حجج واهية لا تغطي إلا على أمثالهم من الكفرة والمنافقين ، وهذه مسألة واضحة ، فالموت غير القتل ، غير الذبح .

الموت . أن تخرج الروح أولاً دون نقض بنية الجسم ، وبعد خروج الروح ينقض بناء الجسد ، أما القتل فيكون بنقض البنية أولاً ، ويترتب على نقض البنية خروج الروح ، كأن يضرب الإنسان أو الحيوان على رأسه مثلاً ، فيموت بعد أن اختلّ مخه وتهشم ، فلم يعد صالحاً لبقاء الروح فيه .

يقول تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ...﴾ (١١٤) [آل عمران] إذن فالموت غير القتل .

وقد متّكنا لذلك بضوء الكهرباء الذي نراه ، والذي يسرى في الأسلاك ، ويظهر أثره في هذه اللامبات ، نحن لا نعرف حتى الآن كنه هذه الكهرباء وماهية هذا الضوء ، إنما نراه ونشمّ به ، فإذا ما كُشِرت هذه السبة ينطفئ الثور ؛ لأنها لم تعدّ صالحة لاستقبال هذا النور ، رغم أنه موجود في الأسلاك ، إذن : لا يظهر نور الكهرباء إلا في بنية سليمة لهذا الشكل الزجاجي المفرغ من الهواء

كذلك الروح لا تسكن الجسم ، ولا تبقى فيه إلا إذا كانت له مواصفات معينة ، فإن اختلّت هذه المواصفات خرجت الروح من الجسد .

أما الذبح فهو أيضاً إزهاق روح ، لكن بأمر الله خالقها وبرخصة منه سبحانه ، كأن يُقتل إنسان في قصاص ، أو في قتال مشروع ، أو تذبح الحيوان الذي أحله الله لنا وأمرنا بذبحه ، ولولا أمر الله بذبحه ما ذبحناه ، ولولا أن الله أحله ما أكلناه ، بدليل أننا لا نأكل ما لم يحل لنا من الحيوانات الأخرى .

والذين يجادلون في عملية الذَّبْح الشرعية ، ويُزهقون أرواح
الحيوان بالضيق مثلاً ففلوا عن الحكمة من الذَّبْح الذَّبْح إراقة للدم ،
وفي الدم مواد ضارة بالإنسان يجب أن يتخلص منها بتصفية دم
ذبيحته ، لأن بها كمية من الدم الفاسد الذي لم يمر على الكلية لتنقيته .

فالمسلم حريص على أن يعمل منهج رسول الله ﷺ ، وحريص
على أن يسود هذا المنهج حركة الحياة ، لكن لن يدعه الشيطان يُحقِّق
هذه الأمنية كما لم يدع رسوله ﷺ من قبل ، فكيفه وإلقائه لم ينته
بموت الرسول ، وإنما هو باقٍ ، وإلى أن تقوم الساعة .

لذلك يقول تعالى في الآية بعدها :

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾

قوله ، ﴿فِي مِرْيَةٍ ٥٥﴾ [الحج] يعني في شك من هذا ، لذلك
قلنا ، إن اتباع رسول الله ﷺ مكلَّفون من الله بأن يكونوا امتداداً
لرسالته ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ
شَهِيداً﴾ [البقرة] ١٤٣ شهداء أنكم بلغت كما كان الرسول شهيداً
عليكم ، فكلُّ من كان مبعوث من الله ، وكما شهد رسول الله عليه أنه
أبلغه ، كذلك هو يشهد أنه بلغ من بعد رسول الله ، لذلك جاءت هذه
الآية للأميرين ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على
الناس .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما حملنا هذه الرسالة قال :
ما نُمِّم امتداداً لرسالة الرسول ، فلا ندُّ أن نتعرَّضوا لما تعرَّض له

الرسول من استهزاء وإيذاء وإلقاء فى أمتياتكم ، فإنَّ صمدتم فإن الله تعالى ينسخ ما يلقى الشيطان ، وينصر فى النهاية أوليائه ، وسيظل الإسلام إلى أن تقوم الساعة ، وسيظل هناك أناس يُحَادُّون الدين ويُشكِّكون فيه ، وسيظل الملحدون الذين يُشكِّكون الناس فى وجود الله يفرجون عيونهم من حين إلى آخر بما يتناقض ودين الله كقولهم إن هذا الكون خلق بالطبيعة ، وترى وتسمع هذا الكلام فى كتاباتهم ومقالاتهم .

ولم يَسْلَمْ العلم التجريبي من خرافاتهم هذه ، فإنَّ رأوا الحيوان منسجماً مع بيئته قالوا لقد أمدته الطبيعة بلون مناسب وتكوين مناسب لبيئته .

وفي النبات حينما يلقون عند أية من آياته مثلاً : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِثَ بِمَعْشَرَها عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ... ﴾ [الرعد] يقولون إن النبات يتغذى بعملية الانتخاب ، يعنى النبات هو الذى ينتخب ويختار غذاءه ، ففى التربة الواحدة وبالعاء الواحد ينمو النبات الحلو والمر والحمضى والحريف ، فبذل أن يعترفوا لله تعالى بالفضل والقدرة يقولون الطبيعة وعملية الانتخاب .

وقد تحدثنا مع بعض هؤلاء فى فرنسا ، وحاولنا الرد عليهم وإبطال حججهم ، وأسطها أن عملية الانتخاب تحتاج إلى إرادة واعية تُعَيِّن بين الأشياء المختبئة ، فهل عند النبات إرادة تُعَيِّن من اختيار الحلو أو الحامض ؟ وهل يُميز بين المر والحريف ؟

إنهم يحاولون إقناع الناس بدور الطبيعة ليعبدوا عن الألمان قدرة الله فيقولون إن النبات يتغذى بخاصية الانابيب الشعرية يعنى أنابيب ضيقة جداً تشبه الشعرة فسميت بها ، ونحن نعرف أن الشعرة

عبارة عن أنبوبة مجوفة . وحين تضع هذه الأنبوبة الضيقة في الماء ، فإن الماء يرتفع فيها إلى مستوى أعلى ؛ لأن ضغط الهواء داخل هذه الأنبوبة لضيقها أقل من الضغط خارجها لذا يرتفع فيها الماء ، أما إن كانت هذه الأنبوبة واسعة فإن الضغط بداخلها سيساوى الضغط خارجها ، ولن يرتفع فيها الماء .

يقولنا لهم . لو أحضرنا حوضاً به سوائل مختلفة ، مذاب بعضها في بعض ، ثم وضعنا به الأنابيب الشُّعْرِيَّة ، هل سنجد في كل أنبوبة سائلاً معيناً دون غيره من السوائل ، أم سنجد بها السائل العُلُوط بكل عناصره ؟

لو قمتَ بهذه لتجربة فستجد السائل يرتفع نعم في الأنابيب بهذه الخاصية ، لكنها لا تُمَيِّز بين عنصر وآخر ، فالسائل واحد في كل الأنابيب . وما أبعد هذا عن نمو النبات وتغذيته

وصدق الله حين قال . ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)﴾ [الاعلى]

إذن ما أبعد هذه التفسيرات عن الواقع وما أجهل القائلين بها والمروجين لها ! خاصة في عصر ارتقى فيه العلم ، وتقدم البحث ، وتتنوع وسائله في عصر استنارت فيه العقول ، واكتشفت أسرار الكون الدالة على قدرة خالقه عز وجل ، ومع ذلك لا يزال هناك مبطلون

والحق سبحانه وتعالى يقول . ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرَّةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً . . (٥٥)﴾ [الحج]

فهم - إذن - موجودون في أمة محمد إلى أن تقوم الساعة .

وَسَتُواجههم نحن كما واجههم رسول الله ، وسيظل الشيطان يلقى في نفوس هؤلاء ، ويوسوس لهم ، ويوحى إلى أوليائه من الإنس والجن ، ويضع العقبات والعراقيل ليصد الناس عن دين الله هذا نموذج من إلقاء الشيطان في مسألة القمة ، وهي الإيمان بالله .

كما يلقى الشيطان في مسألة الرسول ، فيجد منهم من يهاجم شخصية رسول الله ﷺ ، وكيف وهو الأمي البدوي يقود أمة ويتمونه ويخوضون في حقه ، وفي مسألة تعدد زوجاته ﷺ الخ مما يمتلئ عقبة في سبيل الإيمان به ﷺ .

ونعجب لهجوم هؤلاء على رسول الله طالما هم كافرون به ، إن هذا الهجوم يحمل في طياته إيماناً بأنه رسول الله ، وإلا لما استكثروا عليه ولما انتقدوه ، فلو كان شخصاً عادياً ما تعرض لهذه الانتقادات .

لذلك لا تناقش مثل هؤلاء في مسألة الرسول ، إنما في مسألة القمة ، ووجود الإله ، ثم الرسول المبلّغ عن هذا الإله ، أما أن تخوض معهم في قضية الرسول بدايةً فلا تصل معهم إلى حل ، لأنهم يضعون مقاييس الكمال من عندهم ، ثم يقبسون عليها سلوكيات رسول الله ، وهذا وضع مقلوب ، فالكمال ناخذه من الرسول ومن فعله ، لا تضع له نحن مقاييس الكمال

ثم يُشكّكون بعد ذلك في الأحكام ، فيعترضون مثلاً على الطلاق في الإسلام ، وكيف نفرق بين زوجين ؟ وهذا أمر عجيب منهم ، فكيف نجبر زوجين كلهم على معاشرة لا يبتغونها ، وكأنهما مقترنان في سلسلة من حديد ؟ كيف رأيت لا تستطيع أن تربط صديقاً بصديق لا يريده ، وهو لا يراه إلا مرة واحدة في اليوم مثلاً ؟ فهل تستطيع أن تربط زوجين في مكان واحد ، وهما مأموران على بعض في حال الكراهية ؟

سُورَةُ الْحَجِّ

﴿١٨٨٩﴾

وَيُخَيِّبُ اللَّهُ سَعْيَهُمْ ، وَيُظْهِرُ بَطْلَانَ هَذِهِ الْأَفْكَارِ ، وَيَكْجِثُهُمْ أَحْدَاثُ الْحَيَاةِ وَمَشَاكِلُهَا إِلَى تَشْرِيعِ الطَّلَاقِ ، حَيْثُ لَا بَدِيلَ عَنْهُ لِحُلِّ مِثْلِ هَذِهِ الْمَشَاكِلِ .

وقد ناقش هؤلاء كثيراً في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة]

وفي قوله ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف] ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف]

يقولون ومع ذلك لم يتم الدين ، ولا يزال الجبهة العالمية في الدنيا غير مؤمنين بالإسلام ، يريدون أن يُشكِّكوا في كتاب الله . وهذا القول منهم ناشئ عن عدم فهم الآية ، ولمعنى ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ [التوبة] فهي لا تعنى أن ينتصر الإسلام على كل ما عداه انتصاراً يمحو المخالفين له

إنما يُظْهِرُهُ يعنى . يكتب له الغلبة بصدق حججه وقضاياها على كُره من الكافرين والمشركين ، فهم - إذن - موجودون ، لكن يظهر عليهم ، ويعلمو دين الإسلام ، ويضطرون هم للأخذ بقوانينه وتشريعاته حلاً لمشاكلهم ، ويكُونُهم يتحدرون منه حلاً لمشاكلهم وهم كافرون به أبلغ في الرد عليهم لو آمنوا به ، فلو آمنوا بالإسلام ما كان ليظهر عليهم ويعلموهم

فما كنتم تُشكِّكون فيه وتقولون إنه ما كان يصدر من إله ولا من رسول ، فما هي الأيام قد عضتكم بأحداثها وتجاربها وألجأتكم إلى هذا الحكم الذي تعارضونه ، وما أنتم تُشرعون بتشريع الإسلام وأنتم كافرون به ، وهذا دليل ظهوره عليكم .

ومعنى ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ۖ﴾ [الحج] يعنى : فجأة ، وقد تكلم العلماء فى معنى الساعة أهى يوم القيامة ، أم يوم يموت الإنسان ؟ الساعة تشمل المعنيين معاً ، على اعتبار أن مَنْ مات فقد قامت قيامته حيث انقطع عمله ، وموت الإنسان يأتى فجأة ، كما أن القيامة تاتى فجأة ، فهما - إذن - يستويان

لكن ، إنْ كانت الساعة بغتة تفجؤهم بأموالها ، فما العلامات الصُّغرى ؟ وما العلامات الكبرى ؟ البست مقدمات تاذن بحلول الساعة ، وحينئذ لا تُعَدُّ بغتة ؟ قالوا : علامات الشيء ليست هى إذن وجوده ، العلامة تعنى - قُرْبَ مواعده فانتبهوا واستعدوا ، أما وقت حدوثه فلا يعلمه أحد ، ولا بُدَّ أَنْ يأتى بغتة رغم هذه المقدمات

ثم يقول تعالى . ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ ۖ﴾ [الحج] البعض^(١) اعتبر : ﴿عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ ۖ﴾ [الحج] يعنى القيامة . وبالتالي فالساعة تعنى الموت ، وآخرون^(٢) يقولون : ﴿عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ ۖ﴾ [الحج] المراد يوم بدر الذى فصل الله فيه بين الحق والباطل

وهذا اجتهدا يُشْكِرُونَ عليه ، لكن لما نتأمل الآية . ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ ۖ﴾ [الحج] يعنى : العربية مستمرة ، لكن بداراً انتهت ، الخرية ستظل إلى أن تقوم الساعة^(٣) .

ولا مانع أن تكون الساعة بمعنى القيامة ، واليوم العقيم أيضاً هو

(١) قاله الضعفاء ، ومجاهد قال : يوم القيامة لا ليلة له [نقله القرطبي فى تفسيره ٤٦٩٩/٦ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٧٠/٦] .

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة [نقله القرطبي فى تفسيره ٤٦٩٩/٦] .

(٣) قال ابن كثير فى تفسيره (٢٢١/٢) : « هذا القول هو الصحيح » وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا ، لكن هذا هو المراد ، ولهذا قال ﴿قَمَلُكَ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَوْمَئِذٍ نَبَهُمْ ۖ﴾ [الحج] ،

يوم القيامة ، فيكون المدلول واحداً ، لأن هناك فرقاً بين زمن الحدث والحدث نفسه ، فالساعة هي زمن يوجد فيه الحدث وهو العذاب ، فالساعة أولاً ثم يأتي العذاب ، مع أن مجرد قيام الساعة في حد ذاته عذاب .

ومعنى ﴿عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] المقيم : الذي لا يلد ، رجل كان أو امرأة ، فلا يأتي بشيء بعده ، ومنه قوله تعالى عن سارة امرأة إبراهيم عليه السلام : ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩)﴾ [الذاريات] وكذلك يوم القيامة يوم عقيم ، حيث لا يوم بعده أبداً ، فهي نهاية المطاف على حد قول أحدهم حَبَّتْهُمْ بِهِ الدُّنْيَا وَادْرَكَهَا الْعُقْمُ .

أو ﴿عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] بمعنى : أنها لا تأتي بخير ، بل بشر ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا عَادَ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات]

ذلك لأن الريح حين تهب ينتظر منها الخير ، إما بسحابة ممطرة ، أو تحريك نقاح الذكورة بالأنوث ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ (٢٢)﴾ [الحجر] أما هذه فلا خير فيها ، ولا طائل منها ، وليتها تقف عند عدم النفع ، ولكن تتعداه إلى جلب الضرر ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات] فهي تدمر كل شيء تمر عليه

وكما جاء في قوله سبحانه : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْظَرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاقِيهِمْ (٢٥)﴾ [الاحقاف]

فالمعنى : إذن - ﴿عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] لا خير فيها ولا نفع ، بل فيها الشر والعذاب ، أو عقيم يعني : لا يأتي يوم بعده ، لأنكم تركتم

دنيا الاغيار ، وتقلب الاحوال حال بعد حال ، فالدنيا تتقلب من فقر إلى غنى ، ومن صحة إلى مرض ، ومن صغر إلى كبر ، ومن أمن إلى خوف ، وتتحول من صيف إلى شتاء ، ومن حر إلى برد ، ومن ليل إلى نهار وهكذا .

أما في الآخرة فقد انتقلتم من عالم الاغيار الذي يعيش بالاسباب إلى عالم آخر يعيش مع المسبب سبحانه ، وإلى يوم آخر لا يوم بعده ، كانه عقيم أن يكون له عقب من بعده أو مثيل له ، كما لو حضرت حفلاً مثلاً قد استكمل اللون الكمال والنعم ، فتقول : هذا حدث لا يتكرر يعنى عقيم لا يأتى بعده مثله .

وإذا كنت في الدنيا تعيش بالاسباب التى خلقها الله لك ، فانت في الآخرة ستجلس مستريحاً تتمتع بالمسبب عز وجل ، ويكفى أن يخطر الشئ ببالك ، فتراه بين يديك ؛ ولأن القيامة لا اغيار فيها ولا تقلب ، فسيظل الجميع كل على حاله فى سن واحدة ، لا يشيب ولا يهرم ، ولا يمرض ولا يموت .

الآن ترى إلى قوله تعالى فى سماء الجنة : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً ۖ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۙ عُرُبًا ۙ أَتْرَابًا ۚ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ۖ ﴾ [الراعدة]

والكاره لزوجته فى الدنيا لأنها كانت تتبعه تقول له : لا تقس زوجة الدنيا بزوجة الآخرة ، لأن الله تبارك وتعالى يقول ﴿ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ ﴾ [النساء]

أى : مطهرة من كل ما كنت تكرهه فيها فى الدنيا شكلاً وطبعاً وخلقاً ، فانت الآن فى الآخرة التى لا يعكر نعيمها كدر .

(١) العُرب جمع عُرُوب ، وهى المرأة المتحيرة فى زوجها ، والاتراب جمع تَرَب ، وهو المساوى فى السن [القاموس القويم ١/ ٩٩] .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَكْفُلُ بِحُكْمِهِمْ فَأَلْزَمَهُمْ شَرًّا آمَنُوا وَعَسِلُوا الصَّكَبَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

ولفائل أن يقول : ليس الملك له يومئذ ، وفي كل يوم ؟ نعم ، الملك له في الدنيا وفي الآخرة ، يكن في الدنيا خلق الله خلقاً وملوكهم وجعلهم ملوكاً من باطن ملكه تعالى . لكنه ملك لا يدوم ، كما قال سبحانه : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُزِيلُ مَنْ تَشَاءُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦)

[آل عمران]

إذن : ففي الدنيا ملوك ملكهم الله أمراً من الأمور ، ففيها ملك للغير ، أما في الآخرة فالملك لله تعالى وحده ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ فَلَهُ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٦)

[غافر]

وفي القيامة ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَكْفُلُ بِحُكْمِهِمْ..﴾ (٥٦) [الحج] فقد رَدَّ الملك كله إلى صاحبه ، وردت الأسباب إلى مسببها .

ومعنى ﴿يَكْفُلُ بِحُكْمِهِمْ..﴾ (٥٦) [الحج] أن هناك خصومة بين طرفين ، أحدهما على حق والآخر على باطل ، والفصل في خصومات الدنيا يحتاج إلى شهود وإلى بيعة ، وإلى يمين فيقولون في المحاكم . البيعة على المدعى واليمين على مَنْ أنكر . هذا في خصومات الدنيا ، أما خصومات الآخرة فقاهاها الحق - سبحانه وتعالى الذي يعلم السر وأخفى ، فلا يحتاج إلى بيعة ولا شهود ولا سلطة تُنفذ ما حكم به .

محكمة الآخرة لا تحتاج فيها إلى مُحامٍ ، ولا تستطيع فيها أن تُدلس على القاضي ، أو تُوجَر شاهد زور ، لا تستطيع في محكمة الآخرة أن تستخدم سلطتك الزمنية فتتقض الحكم ، أو تُسقطه ؛ لأن الملك يومئذٍ وحده ، والحكم يومئذٍ لله وحده . هو سبحانه القاضي والشاهد والمنفذ ، الذي لا يستدرك على حكمه أحد

وما دام هناك حكومة ، فلا بد أن تسفر عن محكوم له ومحكوم عليه ، ويوضحهما قوله تعالى : ﴿ قَالِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٥٦) [الحج]

وهؤلاء هم الفائزون الذين جاء الحكم في صالحهم .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (٥٧)

وهؤلاء هم الجبابرة وأصحاب السيادة في دنيا الكفر والعناد ، والذين حكم الله عليهم بالعذاب الذي يُهينهم بعد عزّتهم وسلطانهم في الدنيا . وثلّح أن العذاب يُوصف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه عظيم ، ومرة بأنه مُهين .

فالعذاب الأليم الذي يؤلم صاحبه ، لكنه قد يكون لفترة ثم ينتهى ، أما العذاب العظيم فهو الدائم ، والمهين هو الذى يُنله ويدوس كرامته التى طالما اعتز بها . وأنت تجد الناس يختلفون فى تقبُّل الرّوان العذاب فمنهم من لا يؤثر فيه لضرب الموجع ولا يحركه ، لكن

تؤلمه كلمة تجروح عزته وكرامته لذلك جاء العذاب هكذا الوانا ؛
ليستوعب كل صنوف الملكات النفسية ، ويواجه كُلاً نفس بما
يؤلمها



ثم تكلم الحق سبحانه عن أمر كان لا بد أن نعرفه ، فالمسلمون
الأوائل في مكة أخرجوا من ديارهم وأبنائهم وأموالهم لأنهم قالوا
ربنا الله ، ولا شك أن للوطن وللأهل والبيئة التي نشأ فيها المرء أثراً
في ملكات نفسه ، لا يمكن أن يُحصى بحال ، فإن غاب عنه اشتاق إليه
وتمنى العودة ، وكما يقول الشاعر :

بَلَدِي وَكَأَنَّ جَارَتِي عَلَى عَزِيْزَةٍ أَهْلِي وَإِنْ ضَعُفُوا عَنِّي كِرَامٌ

لذلك ، تطالب العالم عندما يترك بلده إلى القاهرة يقولون لا بد
له أن يرجع ، ولو أن تعضه الأحداث والشدائد ، فيعود ليطلب من
أهله العون والمساعدة ، أو حتى يعود إليها في نهاية المطاف ليدفنوه
في تراب بلده .

وقالوا ، إن سيدنا سليمان - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -
لما تفقد الطير ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ (٢٠)
لَأَعَذِّبَهُ^(١) عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢١) [السل]
ذلك لأنه ذبي ، فالمسألة ليست جبروتاً وتعذيباً ، دون أن يسمع منه .
وقالوا : إن الطير سأل سليمان كيف يعذب الهدد ؟ قال : أضعه

(١) قال ابن عباس : يعنى ذنب ريشه وقال عبد الله بن شداد : ذنب ريشه وتشميسه وكما
قال غيره واحد من السلف إنه ذنب ريشه وتركه ملكي يأكله الذر والنمل [تفسير ابن

فى غير بنى جنسه ، وفى غير المكان الذى يآلفه ، يعنى فى غير
موطئه

يقول تعالى :

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ
مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ
لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾

وفى موضع آخر يقول تعالى . ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ
إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ [الحج] هؤلاء تحملوا الكثير ، وتعبوا فى
سبيل عقيدتهم ، فلا بد أن يعوضهم الله عن هذه التضحيات ، لذلك
يقول هنا ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ
رِزْقًا حَسَنًا﴾ [الحج] وأوضعن أن الموت غير القتل . الموت أن
تخرج الروح دون نقض للبنية ، أما القتل فهو نقض للبنية يترقب عليه
خروج الروح .

﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ..﴾ [الحج] تعويضاً لهم عما ماتوه
فى بلدهم من أهل ومال ، كما يعوض الحاكم العادل المظلوم فيعطيه
أكثر مما أخذ منه ، لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر ﴿وَمَنْ
يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى
اللَّهِ ..﴾ [النساء]

لأن مَنْ قُتِلَ فَقَدْ فَازَ بالشَّهادة ونال إحدى الحُسَينِ ، أما مَنْ مات فَقَدْ حُرِمَ هذا اشرف : لذلك فقد وقع أحرقه على الله ، وما بالك بأجر مُؤدِّيهِ رِبِكْ عز وجل ؟ وكما لو أن رجلاً مُتَعَباً يسير ليس معه شيء ولا يجد حتى مَنْ يقرضه ، وفجأة سقطت رجله في حفرة فتكدَّر وقال : حتى هذه ؟ لكن سرعان ما وجد قدمه قد أثارت شيئاً في التراب له بريق ، فإذا هو ذهب كثير وقع عليه بنفسه .

ويروى أن فضالة^(١) حضرهم وهم يدفنون شهيداً ، وآخر مات غير شهيد ، فرأوه ترك قبر الشهيد وذهب إلى قبر غير الشهيد ، فلما سألوه : كيف يترك قبر الشهيد إلى غير الشهيد ؟ قال : والله ما أبالي في أي حفرة متها بَعَثْتُ^(٢) ما دام قد وقع أجرى على الله ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. ﴾ (٥٠)

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٥٨) [الحج] حين يصف الحق سبحانه ذاته بصفة ، ثم تأتي بصفة الجمع ، فهذا يعني أن الله تعالى أدخل معه الخلق في هذه الصفة ، كما سبق أن تكلمنا في قوله تعالى ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١٤) [المؤمنون]

فقد أثبت للخلق صفة الخلق ، وأشركهم معه سبحانه في هذه الصفة ؛ لأنه سبحانه لا يبيض عباده شيئاً ، ولا يحرمهم ثمرة مجهودهم ، فكل مَنْ أوجد شيئاً فقد خلقه ، حتى في الكذب قال ﴿ وَتَعْلَقُونَ أَفْئَكُ .. ﴾ (١٧) [العنكبوت]

(١) هو فضالة بن عبيد الأنصاري الأوسي ، أبو محمد ، صحابي ممن بايع تحت الشجرة شهد أمداً وما بعدها ، وشهد فتح الشام ومصر ، وسكن الشام ، ولي الكوفة والبحر بمصر ، ثم ولاه معاوية قضاء دمشق وتوفي فيها عام (٤٢٣هـ) [الأعلام للزركلي ٤/٩٤٦] .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٦/١٦٢٠) وعزاه لابن المبارك أنه ذكر عن فضالة بن عبيد

لأن الخلق إيجاد من عدم ، فأنت حين تصنع مثلاً كروب للعاء من الزجاج أوجدت ما لم يكن موجوداً ، وإن كنت قد استخدمت المواد المخلوقة لله تعالى ، وأعملت فيها عقلك حتى توصلت إلى إنشاء شيء جديد لم يكن موجوداً ، فأنت بهذا المعنى خالق حسن ، لكن خلق ربك أحسن ، فأنت تخلق من موجود ، وربك يخلق من عدم ، وما أوجدته أنت يطل على حالته ويجمد على خلقك له ، ولا يتكرر بالتناسل ، ولا ينمو ، وليست فيه حياة ، أما خلق ربك سبحانه فكما تعلم

كذلك يقول سبحانه هنا . ﴿رَبُّنَا اللَّهُ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨)﴾ [الحج] فأنبت لحلقه أيضاً صفة الرزق ، من حيث هم سبب فيه ؛ لأن الرزق هو كل ما ينتفع به حتى الصرام يُعدُّ رزقاً ، لذلك قال تعالى . ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّهَا مِنْ غُلَامَاتٍ مَا رَزَقَاكُمْ .. (١٧٧)﴾ [السجدة]

نقول ، فالعبد سبب في الرزق ، لأن الله تعالى هو خالق الرزق أولاً ، ثم أعطاك إياه تنتفع به وتعمل فيه ، وتعطى منه للغير ، فالرزق منك مناوله عن الرازق الأول سبحانه ، فأنت بهذا المعنى رازق وإن كرهوا أن يسمى الإنسان رازقاً ، رغم قوله تعالى ﴿وَلَا إِلَهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨)﴾ [الحج] لعاداً ؛ قالوا ، حتى لا يفهم أن الرزق من الناس .

لذلك نسمع كثيراً من العمال البسطاء ، أو موظفياً صغيراً ، أو مواب عمارة مثلاً حين يفصله صاحب العمل ، يقول له . يا سيدي الأرزاق بيد الله . كيف وقد كنت تأخذ راتبك من يده ومن ماله ؟ قالوا . لأنه نظر إلى المناول الأول للرزق ، ولم ينظر إلى المناول الثاني .

سُورَةُ الْحَجِّ

﴿١٨٩٩﴾

أما الرزق الحسَن الذي أعدّه الله للذين هاجروا في سبيله ،
فيوضحه سبحانه في قوله

﴿لِيَدْخُلْنَهُمْ مُدْخِلًا يَرْضَوْنَهُ وَلَئِنْ
اللَّهُ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾

لأن الرزق قد يكون حسناً لكنه لا يَرْضَى صاحبه . أما رزق الله
لهؤلاء فقد بلغ رضاهم ، وارضاه : هو اقتناع النفس بشيء تجد فيه
متعة ، بحيث لا تستشرف إلى أعلى منه ، ولا تبغى أكثر من ذلك

لذلك بعد أن ينعم أهل الجنة بنعيمها ، ممّا لا عَيْنٌ رأت ، ولا أذن
سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، بعدما يتجلى الحق - سبحانه -
عليهم فيقول لعباده المؤمنين : يا عبادي ارضيتم ؟ فيقولون : وكيف
لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من العالمين ؟ قال : ألا
أعطيكم أفضل من هذا ؟ قالوا : وهل شيء أفضل مما نحن فيه ؟
قال : نعم ، أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(١) .

ومن ذلك قوله تعالى نبيه محمد ﷺ : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَرَضِي﴾ (٥)

وقوله تعالى : ﴿يُنَاقِشُهَا النَّفْسُ الْمُظْمِئَةُ﴾ (٢٧) أرجعي إلى ربك وأهنية
مرضية (٢٨)

يبالغ في الرضا . حيث يتعداك الرضا إلى أن تكون عيشتك
نفسها راضية ، وكأنها تهشّك هي ، وترضى بك .

(١) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٧٥٩٨) . وكذا مسلم في صحيحه (٢٨٢٩)
كتاب الجنة وصفة مقيمها من حديث أبي سعيد الخدري .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ٥٩ ﴾ [الحج]

عليم بما يستحقه كل إنسان عند الحساب من التعيم ، ثم يزيد مَنْ يشاء من فضله ، فليس حساب ربك في الآخرة كحسابكم في الدنيا ، إنما حسابه تعالى بالفضل لا بالعزل .

وحليم يحلم على العبد إن أساء ، ويتجاوز للصالحين عن الهفوات ، فإن خالط عملك الصالح سوء ، وإن خالفت منهج الله في عقله أو هفوة فلا تجعل هذا يعكر صفو علاقتك بربك أو ينقص عليك طمأنينة حياتك ، لأن ربك حلیم سيتجاوز عن مثل هذا على حد قولهم (حبيبك يبلغ لك الزلط)

لذلك لما رَشَى أحد المؤمنين^(١) للكفار في فتح مكة ، وهم عمر أن يقتله فذهب رسول الله ﷺ وقال : « لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم »^(٢)

ويكفي أنهم خرجوا بأنفسهم واقتحموا معركة غير متكافئة في العدد والعدة ، ألا نذكر لهم هذا الموقف ؟ ألم يقل الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ١ ﴾ [عبد] وَمَنْ أَبْغَى بِشَيْءٍ يَضَعُ أَمَامَهُ ، فَلْيَكُنْ قَوِيًّا فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ غَلَبَكَ الشَّيْطَانُ فِي بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ النَّارِ فَشَمِّرْ لَهُ أَنْتَ فِي أَبْوَابِ الْخَيْرِ ، فَإِنَّ هَذَا يُعَوِّضُ ذَاكَ .

(١) هو حاطب بن أبي بنشعة ، وأوصته أنه كتاب أهل مكة بتجهيز رسول الله ﷺ لفتح مكة ، فقال عمر : دعى أبواب عتقه فقال إنه شهد بدرًا وحضر حاطب بأنه لم يكن له في مكة عشيرة تنفع من أهله فقتل عذره قال العنزياني في « معجم الشعراء » ، كل أحد يرسن ترويض في الجاهلية وشعرائها قال المصايفي مات حاطب في سنة ثلاثين في خلافة عثمان وله ٦٥ سنة [الإسماعيلية لابن حجر ٩/ ٢٩٤]

(٢) حديث متفق عليه أخرجه البيهقي في صحيحه (٤٨٩) ، وكذا مسلم في صحيحه (٣٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ
لِيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يعني هذا الأمر الذي تحدثنا فيه قد استقر ، وإليك هذا الكلام الجديد ﴿ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ .. ﴾ [٦٠]

الحق - سبحانه وتعالى - خلق الإنسان وجعل فيه ملكات مختلفة ليؤدي خلافته في الأرض بحركات متوازنة ، مخلق لنا عواطف وجعل لها مهمة ، هذه العواطف لا يحكمها قانون وخلق لنا أيضاً عرائز ولها مهمة ، لكن محكومة بقانون تعلية الفرائز عند الخلق ، فإياك أن تتعدى بعريزتك إلى غير المهمة التي خلقها الله لها .

فمثلاً ، غريزة حب الطعام جعلها الله فيك لاستبقاء الحياة ، فلا تجعلها غرضاً أصيلاً لذاتها ، فتأكل لمجرد أن تلتذ بالاكل ، لأنها لذة وقتية تعقبها آلام ومتاعب طويلة . وهذه الغريزة جعلها الله في النفس البشرية منضبطة تماماً كما تضبط الميعة مثلاً ، فحين تجوع تجد نفسك تأقت للطعام وطلبته ، وإن عطشت مالت نفسك نحو الماء ، وكان بداخلك جرساً ينبهك إلى ما تحتاجه بنيتك من مقومات استبقائها

حب الاستطلاع غريزة جعلها الله فيك لتتطلع بها وتستطلع ما في الكون من أسرار دالة على قدرة الله وعظمته ، فلا تتعدى هذا الغرض ، ولا تحرك هذه الغريزة إلى التجسس على الخلق واسوقوف على أسرارهم

التناسل غريزة جعلها الله لحفظ النوع ، فلا ينبغي أن تتعدى
ما جعلت له إلى ما حرم الله

الغضب غريزة وانفعال قسوى لا تختاره بعقلك تغضب أو
لا تغضب ، إنما إن تعرضت لأسبابه فلا تملك إلا أن تغضب ، ومع
ذلك جعل له حدوداً وقنن له وأمر فيه بضبط النفس وعدم الخزوع .

الحب والكراهة غريزة وعاطفة لا نخضع لقانون ، ولا يحكمها
العقل ، فلك أن تحب وأن تكره ، لكن إياك أن تتعدى هذه العاطفة إلى
عمل عقلى ونزوع تعتدى به أو تظلم

لذلك يقول تعالى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا^(١) قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا
تَعْدُوا...﴾ (٨)

لأن هذه المسألة لا يحكمها قانون ، وليس بيدك الحب أو الكره ،
لذلك لما قاتل سيدنا عمر قاتل أخيه قال له عمر ، أدرك وجهك عسى
فيأتي لا أحبك ، وكان الرجل عاقلاً فقال لسيدنا عمر ، أو عدم حبك
لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال عمر ، لا ، فقال الرجل ، إنما يبكى
على الحب النساء ، يعنى أحب أو اكره كما شئت ، لكن لا تعد
ولا ترمى حقاً من حقوقى .

فهل وقفنا بالفرائض عند حدودها وأهدافها ؟ لو تأملت مثلاً الغريزة
الجنسية التى يصفها البعض بملء فيه يقول : غريزة بهيمية .
سبحان الله ألا تستحي أن تظلم البهائم لمجرد أنها لا تتكلم ، وهى
المهم لهذه الغريزة منك ، ألا تراها بمجرد أن يخصب الذكر أنثاه

(١) شناه وشننه شانا كبغضه وكرهه . والشايمه الميفس [القاموس القويم ١/٢٥٧]
وجرمه حملته على فعل شر أو ذنب أو جرم أى لا يحملنكم بفن قوم على عدم
العدن أى اقرموا العدل حتى مع من تكرهونهم [القاموس القويم ١/١٢١]

ويتفرع عن هذه المسألة مسألة ردِّ العقوبة إذا اعتدى عليك :
 ﴿وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُصْرَثَهُ اللَّهُ ..﴾ (١٢٦) [الحج]
 الحق - سبحانه وتعالى - هو خالق النفس البشرية ، وهو أعلم
 بنوازلها وخطاباتها ، لذلك أباح لك إن اعتدى عليك أن ترد الاعتداء
 بمثله ، حتى لا يفتمر الغضب في نفسك ، وقد ينتج عنه ما هو أشد
 وأبلغ في ردِّ العقوبة . يبيح لك الرد بالمثل لتنتهي المسألة عند هذا
 الحد ولا تتفاقم ، فمن ضربه ضربة فلك أن تُنفُس عن نفسك
 وتضربه مثله ، لك ذلك ، لكن تذكر المثلية هنا ، لا بد أن تكون
 نامة ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا
 عُوقِبْتُمْ بِهِ ..﴾ (١٢٦) [المحل]

وهل تستطيع أن تضبط هذه المثلية فترد الضربة بمثله ؟ وهل
 قوتك كقوته ، وحدة انفعالك في الرد كحدة انفعاله ؟ ولو حدث وزدت
 في ردك نتيجة غضب ، ماذا تفعل ؟ أتسمح له أن يرد عليك هذه
 الزيادة ؟ أم تكون أنت ظالماً معتدياً ؟

إذن ، ماذا يلجئك لمثل هذه المعاناة ، ولك في التسامح سعة ،
 وفي قول الله بعدما ﴿وَلَقِنْ صَبْرْتُمْ لَّهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦) [المحل]
 مخرج من هذا المضيق ؟

وسبق أن حكيت قصة العرسي اليهودي الذي قتل لطالب الدين .
 إن تأخرت في السداد أشترط عليك أن آخذ رطلاً من لحمك وجاء
 وقت السداد ولم يُوف المدين ، فرفعه الدثن إلى القاضي وأخبره بما
 اشترطه عليه . فقال القاضي نعم من حقه أن تأخذ رطلاً من لحمه
 لكن بضربة واحدة بالسكين تأخذ رطلاً ، إن زاد أو نقص أخذناه
 منك

إذن مسألة المثلية هنا عقبة تحد من ثورة الغضب . وتفتح باباً للارتقاءات الإيمانية ، فإن كان الحق سبحانه سمح لك أن تنفُس عن نفسك فقال ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .. ﴾ (٤٠) [الشورى] فإنه يقول لك : لا تنس العفو والتسامح ﴿ وَكَاتِبِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٢) [آل عمران]

لذلك ، فالآية التي معنا تلقتنا إيمانية ﴿ وَمِنْ عَاقِبِ بِمِثْلِ مَا عَاقِبَ بِهِ .. ﴾ (٦٠) [الحج] واحدة بواحدة ﴿ ثُمَّ يَبَى عَلَيْهِ .. ﴾ (٦١) [الحج] يعني زاده بعد أن ردَّ العدوان بمثله وظلمه واعتدى عليه ﴿ لِيُصْرَتَ اللَّهُ .. ﴾ (٦٢) [الحج] ينصره على الممتدى الذي لم يرتض حكم الله في ردَّ العقوبة بمثلها .

وتلاحظ في قوله تعالى مخايل النصر بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ (٦٠) [الحج] مع أن الصفة التي تناسب النُصرة أن يقول هو عزيز ، لأن النُصرة تحتاج قوة وتحتاج عزة ، لكنه سبحانه اختار صفة العفو والمغفرة ليلفت نظر مَنْ أراد أن يعاقب إلى هذه الارتقاءات الإيمانية . اغفر وارحم واعفُ ، لأن ربك عفو غفور ، فاختار الصفة التي تُحنن قلب المؤمن على أخيه المؤمن .

ثم اليس لك ذنب مع الله ؟ ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. ﴾ (٧٢) [التوب] فما دُمْتَ تحب أن يغفر الله لك فاعفُ لعباده ، وحين تغفر لمن يستحق العقوبة تأتي النتيجة كما قال ربك عز وجل . ﴿ فَإِذَا الِأُذَىٰ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٧٤) [فصلح]

فالحق سبحانه يريد أن يشيع بيننا الصفاء النفسى والتلاحم الإيمانى ، فأعطاك حقَّ ردَّ العقوبة بمثلها لتنفُس عن نفسك الغيظ ، ثم دعاك إلى العفو والمغفرة

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ

النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٦١)

﴿ ذلك .. (٦١) ﴾ [الحق] يعنى ما قلته لك سابقاً له دليل ، فما هو ؟ أن الله يأخذ من القوى ويعطى للضعيف ، ويأخذ من الطويل ويعطى للقصير ، فالمسألة ليست ثابتة (أو ميكانيكا) وإنما خلقها الله بقدر . والليل والنهار هما طرفا الأحداث التى تقطعونها ، والحق سبحانه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ (٦١) [الحق]

يولج الليل يعنى - يدخل الليل على النهار ، فيأخذ منه جزءاً جزءاً فيطوّل السيل ويقتصر النهار ، ثم يدخل النهار على الليل فيأخذ منه جزءاً جزءاً ، فيطوّل النهار ويقتصر الليل . لذلك نراهما لا يتساويان ، فمرة يطول الليل فى الشتاء مثلاً ، ويقتصر النهار ، ومرة يطول النهار فى الصيف ، ويقتصر الليل . فزيادة أحدهما ونقص الآخر أمر مستمر ، وأغير متداولة بينهما .

وإذا كانت الأغيار فى ظرف الأحداث ، فلا بد أن تتغير الأحداث نفسها بالتالى ، فعندما يتسع الظرف يتسع كذلك الخير فيه ، فمثلاً عندنا فى المكاييل : الكيلة والقدح والوَيْبِىة وعندنا الأردب ، وكل منها يسع من المحتوى على قدر سعته . وهكذا كما تزيد أو تنقص فى ظرف الأحداث تزيد وتنقص فى الأحداث نفسها .

ثم تذيّل الآية بقوله سبحانه . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحق] سميع لما يقل ، بصير بما يفعل ، مالفون يقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، والبعض يظن أن العمل شيء والقول شيء آخر ، لا ، لأن

العمل وظيفه الجارحة ، فكل جارحة تؤدى مهمتها فهي تعمل ، عمل العين أن ترى ، وعمل الأذن أن تسمع ، وعمل اليد أن تلمس ، وعمل الأنف أن يشم ، وكذلك عمل اللسان القول ، فالحقول للسان وحده ، والعمل لباقي الجوارح وكلاهما عمل ، فدائماً نضع القول مقابل الفعل ، كما فى قوله تعالى ﴿لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) [الص] والسمع والبصر هما الجارحتان الرئيسيتان فى الإنسان ، وهما عمدة الحواس كلها ، حيث تعملان باستمرار على خلاف الشم مثلاً ، أو التذوق الذى لا يعمل إلا عدة مرات فى اليوم كله .

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَبْ مَائِدَ عُبُوتٍ مِنْ
دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبْ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٢٢)

﴿ذَلِكَ .. (١٧)﴾ [الحج] أى الكلام السابق أمر معلوم انتهينا منه ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. (٢٢)﴾ [الحج] ولحق هو الشيء اثبت الذى لا يتغير أبداً ، فكل ما سوى الله - عز وجل - يتغير ، وهو سبحانه الذى يغير ولا يتغير ، ولذلك أهل المعرفة يقولون : إن الله تعالى لا يتغير من أجلكم ، لكن يجب عليكم أن تتغيروا أنتم من أجل الله

وما دام أن ربك - عز وجل - هو الحق الثابت الذى لا يتغير ، وما عداه يتغير ، فلا تحزن ، وبإ غضب من أرضى ، وبإ من تنكى اضحك واعلمن ! لأنك ابن أغيار ، رضى دنيا أغيار لا تثبت على شيء ، لذلك فالإنسان يغضب إذا أصيب بحقة فى حياته يقول لو لم تكن هذه " نقول له - وهل تريدها كاملة ؟ لا بد أن يصيبك شيء ، لأنك ابن أغيار ، مما إذا تنتظر إن وصلت إلى القمة لا بد أن تتراجع ؛

لأنك ابن أغيار دائم التقلب في الأحوال ، وربك وحده هو الثابت الذي لا يتغير

ثم يقول سبحانه ﴿وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ .. (٦٧)﴾
[الحج] كل ما تدعونه أو تعبدونه من دون الله هو الباطل ، يعنى الذى يبطل كما جاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾
[الإسراء] يعنى - يزول ولا يثبت أبداً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٧)﴾
[الحج] العلى يعنى ، كل خلقه دونه وكبير يعنى كل خلقه صغير .

ومن أسمائه تعالى ﴿الْكَبِيرُ (٦٧)﴾ [الحج] ولا نقول أكبر إلا فى الأذان ، وفى الملتاح الصلاة ، والبعض يظن أن أكبر أبلغ فى الوصف من كبير ، لكن هنا غير صحيح ، لأن أكبر ما دونه كبير ، إنما كبير مقابله صغير ، فهو سبحانه الكبير : لأن ما دونه وما عداه صغير .

أما حين يناديك ويستدعيك لاداء فريضة الله يقول الله أكبر . لأن حركة الحياة وضروريات العيش عند الله أمر كبير وأمر هام لا يفغل ، لكن إن كانت حركة الحياة والسعى فيها أمراً كبيراً فالله أكبر . فربك يُخرجك للصلاة من عمل . ويدعوك بعدها إلى العمل . ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ . (١٠)﴾ [الجمعة]

ثم يقول الحق سبحانه

﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٧)﴾

﴿ألم تر .. (٦٧)﴾ [الحج] إن كانت للأمر الجسسى الذى تراه العين .

فانت لم تره وتنبهك إليه ، وإن كانت للأمر الذي لا يدرك بالعين فهي بمعنى . ألم تعلم . وتركنا العلم إلى الرؤية لتبين لك أن الذي يعلمك الله به أوثق مما تهديك إليه عينك .

فالمعنى : ألم تعلم وألم تنظر ؟ . المعنيان معاً .

﴿أَلَمْ نَرِ أَنْ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ..﴾ [الحج] فهذه آية تراها ، لكن ترى منها اظاهراً فقط ، فتري الماء ينهمر من السماء ، إنما كيف تكون هذا الماء في طبقات الجو ؟ ولماذا نزل في هذا المكان بالذات ؟ هذه عمليات لم ترها ، وقدرة الله تعالى واسعة ، ولك أن تتأمل لو أردت أن تجمع كوب ماء واحد من ماء البخار ، وكم يأخذ منك من جهد ووقت وعمليات تمسخين وتبخير وتكثيف ، فهل رأيت هذه العمليات في تكوين العطر ؟

إن رأيت من المطر ظاهره ، لذلك يلفتك ربك إلى ما وراء هذا الظاهر لتتأمله .

لذلك ؛ جعل الخالق - عز وجل - مسطح الماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، فالتساع مسطح الماء يزيد من البخار الذي ينشره الله تعالى على اليابس ، كما لو وضعت مثلاً كوب ماء في غرفتك وتركته مدة شهر أو شهرين ، ستجد أنه ينقص مثلاً سنتيمتراً ، أما لو نشرت الكوب على أرض الغرفة فسوف يجف بعد دقائق .

إن : فالتساع رقعة الماء يريد من كمية البخار المتصاعد منها ، ونحن على اليابس نحتاج كمية كبيرة من الماء العذب لصالح للزراعة وللشرب . الخ ، ولا يتوفر هذا إلا بكثرة كمية الأمطار .

ثم يبين سبحانه نتيجة إنزال الماء من السماء . ﴿فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ

مُخَضَّرَةٌ .. ﴿٦٦﴾ [الحج] يعنى : تصير بعد وقت قصير خضراء زاهية . ومن أن يذكر شيئاً عن تدخل الإنسان فى هذه العملية ، فالإنسان لم يحرق ولم يبذر ولم يرو ، إنما المسألة كلها بقدرة الله . لكن من أين أنت البذور التى كَوُنَتْ هذا النبات ؟ ومن يدرها وورعها ؟ البذور كانت موجودة فى التربة حية كاملة لم يُصِبْها شئ . وإن مرَّ عليها الزمن ، لأن الله تعالى يحفظها إلى أن تجد الماء وتتوفر لها عوامل الإنبت فتنبت ، لذلك نُسِمَى هذا النبات (العذى) : لأنه خرج بقدرة الله لا تدخل لأحد فيه

وتولت الرياح نقل هذه البذور من مكان لآخر ، كما قال تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ .. ﴿٦٧﴾ [الحجر] ولو سلسلت هذه البذرة ستجدها من شجرة إلى شجرة حتى تصل إلى شجرة أم . خلقها الخالق سبحانه لا شجرة قبلها ولا بذرة لذلك يُرْوَى أن يوسف النجار وكان يرعى السيدة مريم عليها السلام ويشرف عليها ، ويقال كان خطيبها لما رآها حاملاً وليس لها زوج سألها بأدب يا مريم ، أتوجد شجرة بلا بذرة ؟ قالت : نعم الشجرة التى أنبتت أول بذرة

ثم يقول سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ .. ﴿٦٨﴾ [الحج] اللطيف هو دقة التناول للأشياء ، فمثلاً حين تريد أن تدخل خيطاً فى إبرة ، تجد الخيط لا ينفذ من ثقبها لأول مرة ، فتحاول أن تُرَفِّقَ من طرف الخيط وتبرمه حتى يندق فينفذ من الثقب ، فالخيط بعد أن كان غليظاً أصبح لطيفاً دقيقاً .

ويقولون : الشئ كلما لُطِّفَ عُنْفُ ، فى حين يظن البعض أن الشئ الكبير هو القوي ، لكن هذا غير صحيح ، فكلما كان الشئ

لطيفاً دقيقاً كان خطره أعظم . ألا ترى الميكروب كيف يصيب الإنسان وكيف لا نشعر به ولا نجد له ألماً ؟ ذلك لأنه دقيق لطيف . وكذلك له مدخل لطيف لا تشعر به . لأنه من الصَّغَر بحيث لا تراه بالعين المجردة

والبعوضة كم هي هيئة صغيرة ؛ لذلك تؤلمك لدغتها بخرطومها الدقيق الذي لا فكاد تراه ، وكلما دقَّ الشيء احتاج إلى احتياط أكثر لتحمي نفسك من خطره . فمثلاً إن أردتَ بناء بيت في الخلاء أو منطقة نائية ، فإنك ستضطر أن تضع حديداً على الشيابيك بحميك من الحيوانات المفترسة كالذئب مثلاً ، ثم تضع شبكة من السلك لتحميك من العثران ، فإن أردتَ أن تحمي نفسك من الذباب والبعوض احتجت إلى سلك أدق . وهكذا كلما صَغُر الشيء ولطف احتاج إلى احتياط أكثر .

فاللطيف هو الذي يدخل في الأشياء بلطف ؛ لذلك يقولون فلان لصيف الصدخ معنى - يدخل لكل إنسان بما يناسبه ، ويعرف لكل إنسان نقطة ضعف يدخل إليه منها ، كان معه (طفاشة) للرجال ، يستطيع أن يفتح بها أى شخصية .

لكن ، ما علاقة قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحج] بعد قوله ﴿ فَصَبِّحُ الْأَرْضَ مُخَضَّرَةً .. ﴾ [الحج] ؟ قالوا لان عملية لإنبات تقوم على مَسَامٍ وشعيرات دقيقة تخرج من البذرة بعد لإنبات ، وتمتص الغذاء من التربة ، هذه الشعيرات الجذرية تحتاج إلى لطف ، وامتصاص الغذاء المناسب لكل نوع يحتاج إلى خبرة ، كما

قال تعالى . ﴿ يَسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِخَ بِخَضِرٍ حَتَّىٰ يَبْغُضَ فِي الْأَكْلِ... ٤٤ ﴾ [الرعد]

فالارض تصيح مُخَضَّرَةٌ من لُطْفِ الحق سبحانه ، ومن خبرته في مداخل الاشياء . لذلك قال بعد ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ٦٣ ﴾ [الحج]
ولدقة الشعيرات الجذرية نحرص ألا تعلق المياه الجوفية في التربة ، لأنها تفسد هذه الشعيرات فتتعتن وتموت فيصفر الثبات ويموت

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَهُهُ
الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ٦٤ ﴾

فما في السموات وما في الارض ملك لله تعالى ، ومع ذلك لا ينتفع منها الحق سبحانه بشيء ، إنما خلقها لمنفعة خلقه ، وهو سبحانه غني عنها وغني عنهم ، وبصفات الكمال فيه سبحانه خلق ما في السماوات وما في الارض . لذلك قال بعدها ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ٦٤ ﴾ [الحج]

وصفات الكمال في الله تعالى موجودة قبل أن يخلق الخلق ، وبصفات الكمال خلق ، وملكه تعالى لسماوات وللارض ، ولما فيهما ملكة للظرف وللظروف ، ونحن لا نملك السماوات ولا نملك الارض ، إنما نملك ما فيهما من خيرات ومنافع مما ملكنا الله له ، فهو الغني سبحانه ، المالك لكل شيء ، وما ملكنا إلا من باطن ملكه

والحميد يعني المحمود ، فهو غني محمود ؛ لأن غناه لا يعود

عليه سبحانه ، إنما يعود على خلقه ، فيحمدونه لغناه ، لا يحقدون عليه ، ومن العجيب أن الحق سبحانه يُملك خلقه من ملكه ، ثمَّ استخدم النعمة فيما جعلت له ، ومن أعطى غير القادر من نعمة الله عليه يشكر الله له ، وهي في الأصل نعمته ذلك لأنك أنت عبده ، وقد استدعاك للوجود ، وعليه سبحانه أن يقول لك ويرعاك .

فإن احتاج غير القادر منك شيئاً ، قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ الله قرضاً حسناً .. ﴾ (٢٤٥) [البقرة]

فاعتبره قرضاً ، وهو ماله ، لكنه ملكك إياه ؛ لذلك لا يسلبه منك إنما يأخذه قرضاً حسناً ويصاعفه لك ؛ لأنه غنى حميد أى محمود ، ولا يكون لغنى محموداً إلا إذا كان غير الغنى مستفيداً من غناه .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَبِحِسِّكِ الْمَسْكَاةَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٦٥)

هذه الآية امتداد للآية السابقة ، فما في السماء وما في الأرض ملك له سبحانه لكنه سخره لمنفعة خلقه ، فإن سأل سائل ، فلماذا لا يجعلها الله لنا ويملكنا إياها ؟ نقول : لأن ربك يريد أن يُطمئنك أنه لن يعطيها لأحد أبداً ، وستظل ملكاً لله وانت تتنفع بها ، وهل تأمن إن ملكها الله لغيره أن يتغير لك ويحرمك منها ؟ فأمثك في أن يظل الملك لله وحده ، لأنه ربك ومُتوليك ، وإن يتغير لك ، وليس يتنكر في منفعتك .

وقوله تعالى ﴿وَأَلْقَيْنَا نَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ..﴾ (٦٥) [الحج]
 لَقَلَّكَ . السفن ، تُطْلَق على المفرد وعلى الجمع ، تجري في البحر
 بأمره تعالى ، فتسير السفن بالرياح حيث أمرها الله ، كما قال
 سبحانه : ﴿وَنَضْرِبُ الرِّيحَ ..﴾ (٦٤) [البقرة] وهذه لا يملكها ولا
 يقدر عليها إلا الله ، وقال في آية أخرى . ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ
 رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ..﴾ (٣٢) [الشورى]

وتأمل دقة الأداء القرآني من الله الذي يعلم ما كان ، ويعلم ما
 يكون ، ويعلم ما سيكون ، فلنقاتل الآن أن يقول . لم نعد في حاجة
 إلى الريح تُسِير السفن ، أو توجهها ؛ لأنها أصبحت تسير الآن بالأت
 ومحركات . نعم السفن الآن تسير بالمحركات لكن للريح معنى
 أوسع من ذلك ، فالرياح ليست هذه القوة الذاتية التي تدفع السفن
 على صفحة الماء إنما الريح تعنى القوة في ذاتها ، أي كانت ريحا
 أم بُخارا أم كهرباء أم ذرة .. إلخ

بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنَارَهُوا فَنَفْسُتُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ..﴾ (٦٦)
 [الأنفال] يعني : تذهب قوتكم أي كانت هذه القوة حتى الصياد الذي
 يركب البحر بقارب صغير يُسِيرُهُ بالمجاديف بقوة يده وعضلاته هي
 أيضا قوة ، لا تخرج عن هذا المعنى .

ومكنا يظل معنى الآية صالحا لكل زمان ولكل مكان ، وإلى أن
 تقوم الساعة .

والرياح إن أقرنت دلت على حدوث شر وصدور ، كما في قوله
 تعالى ﴿وَلِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (٤١) [الدريات]

وقوله . ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .﴾ (٤١) [الأنفال]

وقوله . ﴿يَلْهُوْا مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ لَّيْهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الاحقاف]

وإن جاءت بصيغة الجمع دلّت على الخير ، كما في قوله تعالى :
﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَّاحٍ ..﴾ [٢٢] [الحجر]

وسبق أن تحدثنا عن مهمة الريح في تماسك الأشياء وقيامها بذاتها ، فالجبل الأشم الذي تراه ثابتاً راسخاً إنما ثبت بآثر الريح عليه . وإحاطته به من كل جانب ، بحيث لو قُرْغ الهواء من أحد جوانب الجبل لانههار ، وهذه هي الفكرة التي قامت عليها القنبلة ، فالحواء هو الذي يقيم المباني والعمارات ويثبتها ؛ لأنه يحيطها من كل جانب ، فيحدث لها هذا التوازن ، فإن قُرْغ من أحد الجوانب ينهار المبنى .

ثم يقول سبحانه ﴿وَهُمَّكِ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ..﴾ [الحج] فالسمااء مرفوعة فوقنا بلا عَدَد ، لا يمسكها فوقنا إلا الله بقدرته وقيوميته أن تقع على الأرض إلا بإذنه تعالى . كما قال في آية أخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زُلَّتَا إِنَّهُمَا مِنْ أَمَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ..﴾ [٢١] [فاطر]

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرْءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج] فمن صفاته تعالى الرأفة والرحمة ، والفهم السطحي لهاتين الصفتين يرى أنهما واحد ، لكن هما صفتان مختلفتان ، فالرأفة تزيل الآلام ، والرحمة تويد الإنعام ، ولقاعدة أن نَرَه المفسدة مُقَدَّم دائماً على جلب المصلحة ، فربك يراف بك فيزيل عنك أسباب الألم قبل أن يجلب لك نفعاً برحمته .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمثل : قلنا هَبْ أن واحداً يرميك بحجر ، وآخر يرمى لك تفاحة ، فأيهما يشغلك أولاً ؟ لا شك ستشغل

بالحجر ، كيف تقى نفسك من ضرره ثم تحاول أن تتألم هذه
التفاحة ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَا خِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ
دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴾ (٦٦) [الحج]
ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ
إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ (٦٦)

الحق - تبارك وتعالى - يُذكّرنا ببعض نعمه وبيعض العمليات
التي لو تتبعناها لوقفنا بمقتضاها على نعم الله علينا ، ولم ننسها
أبداً .

أولها ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ .. ﴾ (٦٦) [الحج] والإحياء ، أن يعطى
المحيي ما يحييه قوة يؤدي بها المهمة المخلوق لها ، والإحياء الأول
في آدم - عليه السلام - حين خلقه ربه وسوّاه ونفخ فيه من روحه ،
ثم أوجدنا نحن من ذريته .

﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ .. ﴾ (٦٦) [الحج] وكما أن الخلق آية من آيات الله ،
فكذلك الموت آية من آيات الله ، نراها ونلمسها ، وما دُمْتَ تُصدّق بآية
الخلق وآية الموت ، وترامها ، ولا تشك فيهما ، فحين نقول لك إن
بعد هذا حياة أخرى فصدق ، لأن صاحب هذه الآيات واحد ،
والمقدمات التي تحكم أنت بصدقها يجب أن تؤدي إلى نتيجة تحكم
أيضاً بصدقها ، وما هي المقدمات بين يديك صادقة

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ .. ﴾ (٦٦) [الحج] والإحياء

سورة الحديد

﴿٩١٧﴾

يُطَلَّقُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مَعَانٍ مُتَعَدَّةٍ ، مِنْهَا الْحَيَاةُ الْعَادِيَّةُ الَّتِي تَتِمَثَّلُ فِي الْحَرَكَةِ وَالْأَكْلَ وَالشَّرْبَ ، وَمِنْهَا الْحَيَاةُ فِي الْآخِرَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الْعنكبوت]

وهذه هي الحياة الحقيقية ؛ لأن حياة الدنيا تعقرها الأغيار ، ويقتلَب فيها الإنسان بين القوة والضعف ، والصحة والمرض ، والغنى والعقر ، والصغر والكبر ، وبعد ذلك يعقرها الزوال ، أما حياة الآخرة التي وصفها الله بأنها الحيران يعني : مبالغة في الحياة ، فهي حياة لا أغيار فيها ولا زوال لها .

إذن : لديك حياتان : حياة لبثية المادية وبها تتحرك وتُحس وتعيش ، وحياة أخرى ماقية لا زوال لها .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ..﴾ [الأنفال] كيف - إذن - ونص أحياء ؟ قالوا . لما يحييكم ليست حياة الدنيا المادية التي تعقرها الأغيار ، إنما يحييكم الحياة الحقيقية في الآخرة ، الحياة الباقية التي لا تزول ، التي قال الله عنها . ﴿وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الْعنكبوت] يعني . العلم الحقيقي الذي يهدي صاحبه .

لأن كانت الحياة المادية الدنيوية بفتح السروح في الإنسان ، نعيم تكون الحياة الثانية ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ..﴾ [الأنفال]

قالوا هذه الحياة تكون بروح أيضاً ، لكن غير الروح الأولى ، إنها بروح القرآن الذي قال الله فيه . ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ..﴾ [الشورى] وسعى الملك الذي ينزل به روحاً . ﴿نُزُلٌ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الأنبياء]

فالروح الثانية التي تُحييك الحياة الحقيقية الخالدة هي متبعج الله في كتابه الكريم ، إن اتبعته نلتَ هذه الحياة الباقية الخالدة وتمتعتَ فيها بما لا عَيْنَ رأت ، ولا أُنْ سَمعتُ ، ولا خطر على قلب بشر ، وهي لا مقطوعة ولا ممنوعة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ [الحج] كفور . صيغة مبالغة من كافر ، والكفور الذي لم يعرف للمنع حقَّ النعمة ، مع أنه لو تبينها لما انكأ أبداً عن شكر المنعم سبحانه .

والإنسان يمرُّ بمراحل مختلفة بين الحياة والموت ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [غافر] ، فمتى سيقولون هذا الكلام ؟

قالوا هذا يوم القيامة ، وقد أحياهم الله من موت العدم ، فأحياهم في الدنيا ثم أماتهم ، ثم أحياهم في الآخرة ، فهلك موت قبل إيجاد ، وموت بعد إيجاد ، ثم يأتي البعث في القيامة

وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ .. ﴾ [الحج] قضية قالها الخالق - عز وجل - ولم يدعها أحد لنفسه مع كثرة الكفار والملاحدة والافاقين في كل زمان ومكان ، لم يسمع من ادعى مسألة الخلق ، وهذه قضية يجب أن نقف عندها وأن نبحث - لماذا لم يظهر من يدعى ذلك ؟ وإذا لم يدع الخلق أحدٌ ولم يدع الإحياء أحد ، فمن - إذن - صاحب الخلق والإحياء والإماتة ؟

إذا كان الناس يهتمون ويؤرخون لأيُّ مخترع اختراع آلة مثلا ، فيقولون مخترع الكهرباء فلان وعاش في بلدة كذا ، وكان من أمره كذا وكذا ، وتعلم في كذا ، وحصل على كذا .. إلخ فكيف بمن خلقكم

سُورَةُ الْحَجِّ



وأحياءكم من عدم ؟ خاصة وهذه المسألة لم يجبج بادعائها أحد
فثبتت القضية له سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْشَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا رِمَازَ عَنْكَ
فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٦٧)

الحق - سبحانه وتعالى - خلق آدم عليه السلام خليفة له في
الأرض ، وأجرى له تدريباً على مهمته بالأمر الإلهي والنهي الإلهي ،
وأخبره بعبادة الشيطان له ولذريته ، وحذره أن يتبع خطواته ، وقد
انتهت هذه التجربة بنزول آدم من الجنة إلى الأرض ليباشر مهمته
كخليفة لله في أرضه على أن يظل على ذكر من تجربته مع الشيطان
وقد سخر الله له كل شيء في الوجود يخدمه ويعمل من أجله

ثم أنزل الله عليه منهجاً ، يعمل به لتستقيم حركة حياته وحياة
ذريته ، وذكره بالمنهج التدرسي السابق الذي كلفه به في الجنة ،
وما حدث له لما خالف منهج ربه ، حيث ظهرت عورته ﴿ وَظَلَمْنَا
بِخَصَافَةٍ عَلَيْهِمَا مِنْ ورقِ الجنة .. ﴾ (٧٢) [الأعراف]

كذلك إن خالفت هذا المنهج الإلهي في الدنيا ستظهر عوراتكم
لذلك إذا رايت أي عورة في المجتمع في أي ناحية ، في الاجتماع ،
في الاقتصاد ، في التربية ، فاعلم أن حكماً من أحكام الله قد عمِلَ ،
فظهرت سواة من سوءات المجتمع ، لأن منهج الله هو قانون الصيانة

(١) المنشك الموضع الذي تلمح فيه النفس والمنشك شرعة النفس وهو الذبح
والمناشك المتعبدات . [لسان العرب - مادة ن س ك]

الذى يحملك وينظم حياتك لتؤدي مهمتك في الحياة .

كما لو دخلت بيتك فوجدت آلة من آلات البيت لا تؤدي مهمتها ، فتعلم ان بها عطلا فتذهب بها إلى المهندس المختص بصيانتها ، كذلك ان تعطل في حياتكم شيء عن أداء مهمته فردوه إلى صاحب صيانتته إلى الله وإلى الرسل ، وهذا منطق جازم يعترف به الجميع المؤمن والكافر ان ترد المسئلة إلى صانعها ، وإلى العالم بقانون صيانتها ، وأنت لم يدع أحد أنه خالقك ، فحين يحدث فيك خلل ، فعليك أن تذهب إلى ربك وحالفاك .

لذلك كان النبي ﷺ إذا حربه أمر قائم إلى الصلاة^(١) ، ومعنى « حربه أمر » يعنى شيء فوق طاقته وأسبابه ، يهرع إلى الصلاة ليعرض نفسه على ربه عز وجل ، فإن وجدت في نفسك خلا في أى ناحية ، فما عليك إلا أن تتوضأ ، وتتف بين يدي ربك ليصلح ما تعطل فيك .

وإن كان المهندس يصلح لك الآلة بشيء مبادى ، ولو قطعة صغيرة من السلك ، فإن ربك عز وجل غيب ، وعلاجه أيضاً غيب يأتيك من حيث لا تدري .

ومنهج الله الذى وضعه لصيانة خلقه فيه أصول وفيه فروع ، الأصول : أن تؤمن بالآله الواحد للفاعل المختار ، وهذه قاعدة ما اختلف عليها أي من رسالات السعيا أبداً ، كما يقول تعالى ﴿لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا رَمَىٰ بِهِ نُبُوحًا وَاللَّهِ أَرْحَمُا لَكُمْ . .﴾ (٥) ﴿[الشورى]

فهذه أصول لا يختلف عليها دين من الأديان ، لكن لما كان الناس منشورين في شتى بقاع الأرض تعيش كل جماعة منهم منعزلة عن

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٢٨٨/٥] وأبو داود في سننه (١٢٦٦) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

الأخرى لبعد المعارك وانعدام وسائل الاتصال والاتقاء التي تراها اليوم ، والتي جعلت العالم كله قرية واحدة ، ما يحدث في أقصى الشرق تراه وتسمع به في أقصى الغرب ، وفي نفس الوقت ، لما عاش الناس هذه العزلة لا يدري أحد بأحد لدرجة أنهم كانوا منذ مائتي عام يكتشفون قدرات جديدة .

وقد نشأ عن هذه العزلة أن تعددت الداءات بتعدد الجماعات ، فكان الرسول أو النبي يأتي ليعالج الداءات في جماعة بعينها يبيح إلى قومه خاصة ، لهذا ليعالج مسألة الكيل والميزان ، وهذا ليعالج ظنيان المال ، وهذا ليعالج انحراف الطباع وشذوذها ، وهذا ليعالج التعصب القبلي .

أما رسالة محمد ﷺ ، فجاءت في بداية التقاء الجماعات هنا وهناك ، فكانت رسالته ﷺ عامة للناس كافة ، وتجد أصول الرسالات عند موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام أصولاً واحدة ، أما الفروع فتختلف باختلاف البيئات .

لكن ، لما كان في عهد تعالى أن هذه العزلة ستنتهي ، وأن هذه البيئات ستجتمع وتلتقي على أمر واحد وستتحد فيها الداءات ؛ لذلك أرسل الرسول الحاتم لهم جميعاً على امتداد الزمان والمكان .

وفي هذه الآية ، ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مِنْكُمْ لَهَا لَاسِكْرَهُ ﴾ (٦٧) [الحج] أي ، أن الحق سبحانه جعل لكل أمة من الأمم التي بعث فيها الرسل مناسك تناسب أوضاعهم زمانهم ؛ لأنهم كانوا في عزلة بعضهم عن بعض ، كما جاء في قوله تعالى ، ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ۚ ﴾ (٦٨)

رَبِّهِ [المائدة]

فالشرائع تختلف في الفروع المناسبة للزمان والمكان والبيئة ،

أما الأخلاق والعقائد فهي واحدة ، فإله عز وجل إله واحد في كل ديانات السماء ، والكذب مُحَرَّم في كل ديانات السماء لم يأت نبي من الأنبياء ليبيح لقومه للكذب .

وَالْمُنْكَرُ . المنهج المتعبدى ، ومنه قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦٢) [الأنعام]
﴿ هُمْ نَامِكُوهُ .. ﴾ (١٦٧) [الحج] يعني : ناعلوه .

ثم يقول سبحانه ﴿ فَلَا يَدْرُسُكَ فِي الْأَمْرِ .. ﴾ (١٧٧) [الحج] . كَانَ يَقُولُوا أَنْتَ رَسُولٌ وَنَحْنُ أَيْضًا نَتَّبِعُ رَسُولًا . له منهج وله شريعة . نعم . لكن هذه شريعة خاتمة جاءت مهيمّة على كل الشرائع قبلها ، ومناسبة لمستجدات الأمور .

لذلك يُطمئن الحق - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ بعدها ﴿ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ (٢١٧) لَأَتَىٰ هَٰذَا مُسْتَقِيمٌ ﴿ [الحج] يعني : اطمئن فأتى على الحق وأدع إلى ربك : لأنك على هدى مستقيم سيصل إليهم إن لم يكن إيمانًا فسيكون إصلاحًا وتقنينًا بشريًا تلجسثهم إليه أحداث الحياة ومشاكلها ، فلن يجدوا أفضل من شرع الله يحكمون به ، وإن لم يؤمنوا

وكان الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ لا تقارعهم ولا يفازعونك ، وَخُذْ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ ﴿ لَأَصْلَحَ بِمَا قُورُوا وَأَعْرَضُوا عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٩١) [الحج] الذين يجادلونك وينازعونك في قرسالة . وسوف تحدث لهم القضية بقدر ما يحدثون من الفجور ويظنون إلى شرعك وقانونك ليحلوا به مشاكلهم

والهدى وحسب بأنه مستقيم ، لأنه هدى من الله سبحانه لك ، هدى

الخالق الذي يعلم ملكات النفس الإنسانية كلها ، وشرع لكل ملكة ما يناسبها ، وأحداث الحياة ستضطرهم إلى ما قنن الله لخلافته في الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٦٨)

الجدل : مأخوذ من جدل النحل بعضه على بعض لتقويته ، وإن كانت حيطاً رفيعاً نيرمه فنعطيه سُمكاً وقوة ، لذلك الخيط حين يبرمه يقل في الطول ؛ لأن أجزاءه تتداخل فيكون أقوى ، فالجدل من تمتين الشيء وتقويته ، وكذلك الجدل ، فهو محاولة تقوية الحجة أمام الخصم

وفي آية أخرى ﴿ وَجَادِلْهُمْ بَالِغِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴾ (٦٩) [النحل] قال معنى : إن جادلوك بعد التي هي أحسن فقل ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٦٨) [الحج] يعني ردهم إلى الله واحتكم إليه ؛ لذلك جاء بعدها

﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ

فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٦٩)

لاحظ أن الحق سبحانه لم يقل : يحكم بيننا وبينكم كما يقتضى اسمعنى ؛ لأنكما طرفان متجادلان ، وكان الحق - تبارك وتعالى - يقول لرسوله ﷺ أتركهم فسوف يختلفون هم فيما بينهم ، ولن يخال الخلاف معك ؛ لأن الخلاف في شيء واحد ينشأ من هوى النفس ، وهوى النفس ينشأ من الحرص على السطة الزمنية . يعنى : أرح نفسك ، فربك سيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٧)

هذه قضية حكم بها الحق سبحانه لنفسه ، ولم يدعها أحد ، فلا يعلم ما في السماء والأرض إلا الله ، وهذه الآية جاءت بعد الحكم في المنازعة فربما اعترض أحد وقال : ما دام الأمر عن الله أحكاماً تنظم حركة الحياة وقد جاء كل رسول بها ، فما ضرورة أن يحوي رسول الله ﷺ للناس كافة

وقلنا : إن الدين نوعان : نوع لا يختلف باختلاف الرسل والأمم والعصور ، وهذا في القضايا العامة الشاملة التي لا تتغير ، وهي العقائد والأصول والأخلاق ، ونوع آخر يختلف باختلاف العصور والأمم ، فيأتي الحكم مناسباً لكل عصر ، ولكل أمة .

وما دام الحق سبحانه هو الذي سيحكم بين الطرفين ، قال ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٧) ﴿ [الحج] أعلم كل شيء كائن في الوجود ظاهراً وباطناً ، فأنا أنحكم عن علم وعن خبرة ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴾ (٧) ﴿ [الحج] والعلم شيء ، والكتاب شيء آخر ، فما دام الله تعالى يعلم كل شيء ، وما دام سبحانه لا يضل ولا يسي ، فما ضرورة الكتاب ؟ -

قالوا^(١) : الكتاب يعني به اللوح المحفوظ الذي يحوي كل شيء

(١) قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه : ابن أبي حاتم وابن مردويه - أوردته السيوطي في الدر المنثور (٧٤، ٦)

وفي آية أخرى قال : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ (١١) فَمِمَّ شَاءَ ذِكْرُهُ ۝ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ۝ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ (١٤) بِأَيْدِي مَلَكَةٍ ۝ (١٥) ﴾ [ص] .

حتى القرآن نفسه في ذلك الكتاب . ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مُّجِيدٌ ۝ (٢١) فِي لَوْحٍ مُّحْفُوظٍ ۝ (٢٢) ﴾ [البروج]

وقال تعالى : ﴿ يَخْتَرُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝ (٣٦) ﴾ [الزمر] ويقول تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ (٥٤) ﴾ [الأنعام]

فضرورة الكتاب لديك وليدرك العلائكة المطَّلعين على أن الأشياء التي تحدث مستقبلاً كتبها الله عز وجل . فمجيئها في المستقبل على وفق ما كتبه دليل علمه سبحانه بها ، فالذي كتب الشيء قبل أن يكون ، ثم جاء الشيء موافقاً لما كتب أكبر دليل على علمه وإحاطته .

إذن مجيء الكتاب لا ليساعدها على شيء ، إنما ليكون حُجَّةً عليك ، فيقال لك : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝ (١٣) ﴾ [الإسراء] هـ هو تاريخك ، وهـ هي قصتك ، ليس كلاماً من عندنا ، وإنما فعلك والحجة عليك .

وعلم الله تعالى في قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۝ (٧٠) ﴾ [الحج] يحمل الوعد والوعيد في وقت واحد ، وهذا من عجائب الأداء القرآني . أن يعطي الشيء وتقيضه ، كيف ؟ هب أن عندك ولدين اعتدى أحدهما على الآخر في غيبته ، فلما عدت أسرع بالشكوى ، كد من صاحبه ، فقلت لهما : سكتا لا أسمع لكما صوتاً ، وقد عرفت ما حدث وسأرتب لكل منكما ما يناسبه وما يستحقه على وفق

ما علمت ، لا شك عندها أن المظلوم سيفرج ويستبشر ، وأن الظالم
سيخاف ويتغير لونه .

إذن . فعلم الله بكل شيء في السماء والأرض وإحاطته سبحانه
بما يجري بين خلقه رعد للمحق ، ورعيد للمبطل
ثم يقول الحق سبحانه :

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ
لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾

كان العبادة ومعنى طاعة أمر واجتتاب نهى - يجب أن تكون
مصادرة من أعلى منا جميعاً ، فليس لأحد منا أن يشرع للآخر ،
فيأمره أو ينهيه ، لأن الأمر من العساوي لك لا مرجح له ، وله أن
يقول لك لماذا أنت تأمر وأنا أطيع ؟ أما إن جاء الأمر من أعلى منك
فأنت تطيع بلا اعتراض ، وبمعك الحجة أن الأمر من أعلى ، تقول ،
أبي أمرني بكذا وكذا ، أو ربي أمرني بكذا وكذا ، أو نهاني عن كذا
وكذا .

إذن . كل دليل على حكم الفعل أو الترك لا بد أن يكون مصدره
من الحق سبحانه وتعالى ، فهو الأعلى مني ومنك ، وإذا انصغت
لأمره ونهيه فلا حرج على ولا ضرر ؛ لأنني بما انصغت لمساو إنما
انصغت لله الذي أنا وأنت عبيد له ، ولا غضاضة في أن تتبع حكمه .

بذلك في حكم أهل الريف يقولون . (إلى الشرع يقطع صباعه
مِحْرَش دم) لماذا - لأنك ما قطعته أنت إنما قطعه الله ، فليس في
الأمر تسلط أو جبروت من أحد ، وليس فيه مذلة ولا استكانة لأحد

ومعنى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ..﴾ (٧١) [الحج] يعبدون ضيره تعالى ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ..﴾ (٧١) [الحج] السلطان إما سلطان قهر ، أو سلطان حجة ، سلطان القهر أن يفهرك ويجبرك على ما لم تُرد فعله ، أما سلطان الحجة فيقنعك ويثبت لك بالحجة أن تفعل. باختيارك ، وهذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله ليس لها سلطان ، لا قهر ولا حجة .

إذلك في جبل إبليس يوم القيامة للذين اتبعوه يقول لهم ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ..﴾ (٢١) [إبراهيم] يعنى كنتم على إشارة فاستجبتم لى ، وليس لى عليكم سلطان ، لا قوة أتهركم بها على المعصية ، ولا حجة أقنكم بها .

ثم يقول تعالى ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ..﴾ (٦) [الحج] يعنى . علم الاجتهاد الذى يستنبط الاحكام من الحكم المجمل الذى يُزله الحق تبارك وتعالى ، وهذه هى حجة العلم التى قال الله تعالى عنها ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعِلِمَهُ الَّذِينَ نَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ..﴾ (٨٣) [النساء] يعنى أهل العلم .

إذن . العبادة لا بد أن تكون بسلطان من الله نصاً قاطعاً وصريحاً لا يحتمل الجدل . وإما أن تكون باجتهاد أولى العلم

وقوله تعالى : ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (٧١) [الحج] لم يقل سبحانه . لن ينتصر الظالمون ، ولم ينفع عنهم النصير ، لأن هذه مسألة مُسلمة إنما لا يفزع لنصرتهم أحد ، فلن ينقصروا ولن ينصرهم أحد ، ولا يفزع أحد لينصر أحداً إلا إذا كان المنصور ضعيفاً

ثم يقول الحق سبحانه .

وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ أَإِنْتَابِيتُمْ تَعْرِفُ فِي
وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُرُونَ
بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ شَرُّ مَنِ
ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرَ ﴿٧٦﴾

تصور هذه الآية حال الكفار عند سماعهم لكتاب الله وآياته من
رسول الله أو صحابته . فلما سمعوها ﴿تَعْرِفُ فِي وَجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
الْمُنْكَرَ ..﴾ [الحج] أي الكراهية تراها وتقرؤها في وجوههم
عبوساً وتلقطياً وغضباً وانفعالاً ، ينكر ما يسمعون ، ويكاد أن يتحول
الانفعال إلى نزوع غشبي يفتك بمن يقرأ القرآن لما بداخلهم من شر
وكراهية لما يثلى عليهم

لذلك قال تعالى بعدما : ﴿يَكَادُونَ يَسْطُرُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ
آيَاتِنَا ..﴾ [الحج] والسَطْر . الفتك والبطلان ، لأن العمل الوجداني
الذي يشغل نفوسهم يظهر أولاً على وجوههم انفعالاً يتبىء بشيء
يريدون إيقاعه بالمؤمنين . ثم يتحول الوجدان إلى نزوع حركي هو
الفتك والبطلان .

(قُلْ) في الرد عليهم ماذا يُضْمِبُكُمْ حتى تسطوا علينا ونكروها
ما نفلو عليكم من كتاب الله . والقيظ والكراهية عند سماعهم القرآن
دليل على عدم قدرتهم على الرد بالحجة ، وعدم قدرتهم أيضاً على
الإيمان ، لذلك يتقلبون بين غيظ وكراهية .

لذلك يخاطبهم بقوله : ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنَ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ (٧٦) [الحج] يعنى : مالى أراكم مفتاظين من آيات الله
كارهين لها الآن ، والأمر ما يزال هيند ؟ أمهره سمع الآيات يفعل
بكم هذا كله ؟ فما بالكم حينما تباشرون النار فى الآخرة ، الفيف
الذى تظنون شرّاً فتسقطون علينا بسببه أمر بسيط . وهناك أمر منه
ينتظركم ﴿ النار وعدّها الله الذين كفروا .. ﴾ (٧٦) [الحج]

وما أشبه هذا بموقف الصديق أبى بكر حينما أوقف صناديد
قريش بالباب ، وقدم عليهم المستضعفين من المؤمنين ، فغضبوا لذلك
ووريت أنرفهم . فقال لهم أوريتم أنوفكم أن قدمتكم عليكم الآن ،
فكيف بكم حين يقدمهم الله عليكم فى دخول الجنة ؟

وكلمة ﴿ وَعَدَهَا .. ﴾ (٧٦) [الحج] لوعدها دلماً يكون بالخير ، أما
هذا فاستعملت على سبيل الاستهزاء بهم والتقليل من شأنهم ، كما
قال فى آية أخرى ﴿ فَيُنْزِلُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٧٤) [الاحقار] فسماعة
أن يسمع فتنشوى يستشرف للخير ، شيفاجته العذاب ، فيكون
أنكى له .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْجِلُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ
يَشْرَبُ الْوُجُوهَ .. ﴾ (٧٩) [الكهف] لأن القياض النفس وياسها بعد يوانر
الانسياط أشد من اعذاب ذات

وقوله ﴿ وَبَشِّرِ الْمَصِيرَ ﴾ (٧٧) [الحج] أى ساءت نهايتكم
ومرجعكم

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مِثْلٍ فَأَسْتَمِعُوا لَهُ ذِكَّ الَّذِي
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ
وَلَنْ يَسْلُبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ
الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٦﴾﴾

قلنا الضرب إيقاع شيء على شيء بقوة ، ومنه نقول : ضربنا الدينار يعني : بعد أن كان قطعة من الذهب أو الفضة مثلا أصبح عملة معروفة متداولة .

والمثل تشبيه شيء غير معلوم بشيء آخر معلوم وعجيب وبديع يعلق في الذهن . كما نصف لك إنسانا لم تراه بإنسان تعرفه . نقول هو مثل فلان . وهكذا كل التشبيهات . شيء تريد أن تعطيه للمخاطب وهو لا يعلمه .

ومنه قوله تعالى ﴿مَثَلُهُمْ كَمِثْلِ الدُّبَابِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَهْبَاتِ مَا
حَرَكَ زَهَبَ اللَّهُ يَبُورُهُمْ وَيُتْرَكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصَرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة]
وقوله تعالى ﴿فَمَثَلُهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ
يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَافْصَحْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَتَعَكَّرُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ
الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت]

ذن الأمثال . إعلام بشيء معلوم ليصل العلم فيه إلى شيء

مجهول . وكلمة (مثل) استقلت بأن يكون المثل بديعاً في النسخ ،
بليغاً موجزاً ، بحيث تتفاهله الألسنة بسرمة في كلمات معدودة ..

فلو وجدت مثلاً تليقاً مبعلاً تكاسل طوال العام ، ولم يذكر ،
فلما حضر الامتحان راح يجتهد في المذاكرة ، فتقول له : (قبل
الرماء تعلا الكنائن) يعنى . قبل أن تصطاد بالسهام يجب أن تعدّها
أولاً وتملا بها كنانتك . فهذا مثلٌ يُضرب للاستعداد للأمر قبل
حلوله

ومن أمثلة أهل الريف يقولون (أعط العيش لخباره ولو ياكل
نصفه) ويُضرب لمن يجعل الصنعة عند غير صانعها والمتخصص
فيها .

ويقولون فيمن يُقصّر في الأمر المنوط به (باب الفجار
مخلع) .

وحين ترسل مَنْ يقضى لك حاجة فيفلح فيها ويأتى بالنتيجة
المرجوة يقول لك : (أبدى المعض عن الزبد) والمعضُ عملية خض
اللبن في القربة لفصل الزبد عن اللبن .

وهكذا ، المثل قول موجزٌ بليغٌ قيل في مناسبتة ، ثم استعمله
الناس لخفته وجماله وبلاغته في المواقف المشابهة ، والمثل يظل على
حاله الأول لا يغير ، ويجب الالتزام بنصّه مع المفرد والمثنى
والجمع ، ومع المذكر والمؤنث ، فمثلاً إن أرسنت رسولاً يقضى
لك حاجة ، فعندها يعود تقول له : (ما ورامك يا عمام) هكذا
بالكسر في خطاب المؤنث مع أنه رجل ، لماذا ؟ لأن المثل قيل أول

ما قيل لمؤنث . فظل على هذه الصيغة من اثنا عشر حتى وروى كان
المخاطب مذكراً .

وقصة هذا المثل أن الحارث ملك كندة أراد أن يتزوج أم إياس .
وبعث من تخطبها له ، وكان اسمها عصام ، فلما ذهبت إليها قالت لها
لما - إن فلانة جاءت تخطبك لفلان . فلا تخفي عنها شيئاً . ودعيها
تشمك إن أرادت . وناطقيها فيما استطقتك به . فلما دخلت على الفتاة
وأرادت أن ترى جسمها خلعت ثوبها . وكشفت عن جسمها . فقالت
العراق (ترك الخداع من كشف القناع) فسارت مثلاً . ثم عادت
إلى الحارث فاستقبلها متعجلاً ردها فقال . (ما وراءك يا عصام)
يعنى ما الخير ؟ فظل المثل هكذا للمؤنث ، وإن خوطب به المذكر

والحق - تبارك وتعالى - يضرب لكم هذا المثل ويقول - خذوه
في بالكم ، وانتبهوا له ، وافتحوا له آذانكم جيداً واعقلوه ؛ لأنه
سينفعكم في علاقتكم برسول الله وبالمؤمنين .

والخطاب هنا موجه للناس كافة . لم يخص أحداً دون أحد
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلٌ فَأَمْتَجِعُوا لَهُ .. ﴾ [٧٦] [الحج] فلم يقل يا أيها
المؤمنون لأن هذا المثل موجه إلى الكفار . فالمؤمنون ليسوا في
حاجة إليه ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. ﴾ [٧٧] [الحج] يعنى : انصتوا وتفهموا
مراده ومرماه لتسيروا في حركتكم على وفق ما جاء فيه . وعلى
وفق ما فهمتم من مفزاه .

فما هو هذا المثل ؟

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ .. ﴾

﴿ ٧٧ ﴾

[الحج]

أى الذين تعبدونهم وتسجئون إليهم من دون الله ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا.. (٧٢)﴾ [الحج] وهو أصغر المخلوقات ﴿وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ.. (٧٣)﴾ [الحج] يعنى تضاعفت جهودهم ، واجتمع أمرهم جميعاً لا واحداً واحداً ، وهذا ترقى فى التحدى ، حيث زاد فى قوة المعاند .

كما ترقى القرآن فى تحدى العرب ، فتحداهم أولاً بأن يأتوا بمثل القرآن ، ولأن القرآن كثير تحداهم بعشر سور فما استطاعوا ، فتحداهم بسورة واحدة فلم يستطيعوا

ثم يترقى فى التحدى ليقول : جمعوا كل فصاحتكم وبلغاتكم ، بل والجن أيضاً يساعدونكم وإن تستطيعوا . ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ.. (٨٨)﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا.. (٧٢)﴾ [الحج] جاءت بنفى المستقبل فلم يقل مثلاً . لم يخلقوا ، فالنفي هنا للتأييد ، فهم ما استطاعوا فى الماضى ، ولن يستطيعوا أيضاً فيما بعد حتى لا يظن أحد أنهم ربما تمكنوا من ذلك فى مستقبل الأيام ، ونفى الفعل هكنا على وجه التأييد ، لأنك قد تترك الفعل مع قدرتك عليه ، إنما حين تتحدى به تفعل بتردد على هذا التحدى ، فأوضح بهم الحق سبحانه أنهم لم يستطيعوا قبل التحدى ، ولن يستطيعوا بعد التحدى .

ثم يقول تعالى ﴿وإن يستبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه.. (٧٢)﴾ [الحج] فقد تقول : إن عملية الخلق هذه عملية صعبة لا يتحدى بها ، لذلك تحداهم بما هو أسهل من الخلق ﴿وإن يستبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه.. (٧٣)﴾ [الحج] وهل يستطيع أحد أن يعيد ما أخذه اذباب من طعامه عنى جناحيه أو أرجله أو خرطوميه ؟

وكانوا يذبحون القرابين عند الأصنام ، ويضعون أمامها الطعام

ليباركوه ، فكانت الدماء تسيل عندها وتتناثر عليها ، فيحطّ عليها الذباب ، وياخذ من هذه الدماء على أرجله النخيفة هذه أو على أجنحته أو على خرطوميه ، فتحدّاهم أن يعيدوا من الذباب ما أخذه ، وهذه مسألة أسهل من مسألة الخلق .

واك أن تُجرب أنت هذه العملية ، إذا وقع ذباب على العسل الذي أمامك ، فلا بدّ أن ياخذ منه شيئاً ولو كان ضئيلاً لا بدرك ولا يؤزن ولا تكاد تراه ، لكن أنتستطيع أن تمسك الذبابة وتردّ ما أخذت منك ؟

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (٧٦) [الحج] يعني كلاهما ضعيف ، فالذباب في ذاته ضعيف وهم كذلك ضعفاء ، بدليل أنهم لن يقدرُوا على هذه المسألة ، لكن هناك ضعيف يدعى القوة ، وضعيف قوته في أنه مُقرّ بضعفه ، فالذباب وإن كان ضعيفاً إلا أن الله تعالى قال فيه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. ﴾ (٧٦) [البقرة] يعني : ما فوقها في الصغر ، ليس المراد ما فوقها في الكبر كالعصفور مثلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ فِئَافِئًا

اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٧٦)

يعنى هؤلاء الكفار الذين عبدوا من دُونِ الله آلهة لا تستطيع أن تخلق ذباباً ، ولا تستطيع حتى أن تردّ من الذباب ما أخذه ، هؤلاء ما عرفوا الله قدره ، ولو عرفوا قدر الله ما عبدوا غيره .

والقدر ، يعنى مقدار الشيء ، وقلنا : إن مقادير الأشياء تختلف

حسب ما يريد من معرفة المقادير ، فالطول مثلاً له مقياس يُقاس به مقدار الطول ، لكن هذا المقياس يختلف باختلاف المقياس ، فإن أردت أن تقيس المسافة بين القاهرة والاسكندرية مثلاً لا تستخدم اعلى أو السنتيمتر ولا حتى المتر ، إنما تستخدم الكيلومتر فإن أردت شراء قطعة من القماش تقول متر ، أما إن أردت صورة شخصية تقول سنتيمتر

إذن لكل شيء مقدار يُقدر به ، ومقياس يُقاس به ، فإن أردت المسافة تقيس الطول ، فإن أردت المساحة تقيس الطول في العرض ، فإن أردت الحجم تقيس الطول في العرض في الارتفاع ، الطول بالمتر والمساحة بالمتر المربع ، والحجم بالمتر المكعب كذلك في الوزن تُقاسه بالكيلو أو الرطل أو الجرام .. الخ

وقدر ثأني بمعنى : ضيق ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ (١٦) [النجر]

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيُلْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ (٧) [الطلاق]

والمقدار كما يكون في لماديات يكون أيضاً في المعنويات ، فمثلاً تعبر عن الزيادة المادية تقول : فلان كبر يعني شئٌ و زاد أما في المعنويات فيقول الحق سبحانه : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ (٥) [الكهف] يعني عظمُ

والحق - تبارك وتعالى - ليس مادة ؛ لأنه سبحانه فوق المادة ، فعنى المقدار في حقه تعالى عظمته في صفات الكمال فيه ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (٧٤) [الحج] ما عظموه حقَّ التعظيم الذي ينبغي له ،

وما عرفوا قُدْرَهُ ، ولو عرفوا ما عبدوا غيره ، ولا عبدوا أحدا معه من هذه الأكنهة التي لا تضيق ذليلاً ، ولا حتى تسترد ما أخذته منهم الذليل ، فكيف يُستورون هؤلاء بالله ويقارونهم به عز وجل ؟ إنهم لو عرفوا الله تعالى قُدْرَهُ لاستعبروا من ذلك كله .

ثم تُدِيل الآية بقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج] فما مناسبة هاتين الصفتين لسياق الذي نحن بصدده ؟

قالوا : لأن الحق - سبحانه وتعالى - تكلم في المثال السابق عَنِ انصرافوا عن عبادته سبحانه إلى عبادة الأصنام وقال ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج] فقال في مقابل هذا الضعف إن الله لقويٌّ ، قوة عن العايد ؛ لأنه ليس في حاجة إلى عبادته ، وقوة عن المعبود لأنه لو شاء عطَّفه ، وما دُمتم انصرفتم عن الله وعبدتم غيره ، فهذا فيه مُضَارَّة ، وكان هناك معركة ، فإن كان كذلك فالله عزيز لا يغالب

والآية ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قُدْرِهِ .. ﴾ [الحج] وردت في عدة مواضع في كتاب الله ، منها ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قُدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ .. ﴾ [الأنعام] فلم يعرفوا الله تعالى قُدْرَهُ لأنهم اتهموه ، وله سبحانه كمال العدل ، فكيف يكلف عباده بعبادته ولا يبلغهم برسول ؟ وهو سبحانه القائل ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [١٥٨]

فحين يقولون ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ .. ﴾ [الأنعام] كأنهم يصِفُون الحق سبحانه بأنه يُعَذِّب الناس دون أن يبلغهم بشيء . ويرد عليهم في هذه المسألة ﴿ قُلْ مَنَ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ .. ﴾ [٩١]

824

وفي موضع آخر : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۖ﴾ (٣٧) [الزمر]

ونقول : قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَقَدَرَهُ قَدْرَهُ ، كَانَ الْأَمْرُ تَحْتَلِفُ فِي تَقْدِيرِ الْأَشْيَاءِ ، مِمثْلًا نَنْظُرُ إِلَى حَجَرَةٍ فَقُولُ : هَذِهِ تَقْرِيْبُهُ 6×8 هَذَا تَقْدِيرٌ إِجْمَالِيٌّ تَقْرِيْبِيٌّ ، إِنَّمَا إِنْ أَخَذْتَ الْمَقْيَاسَ وَقَدَّرْتَ تَقْدِيرًا حَقِيقِيًّا ، فَتَمِدَّ تَزِيدَ أَوْ تَنْقُصَ ، فَالْأَوَّلُ نَقُولُ : قَسَرْتُ الْحَجَرَةَ قَدْرَهَا وَالْآخَرُ نَقُولُ : قَسَرْتُ الْحَجَرَةَ حَقَّ قَدْرِهَا .

وَعَلَيْهِ فَرَأَيْتَ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تُغْنِيَكَ اللَّهُ تَعَالَى حَقَّ قُدْرَتِهِ فَرَأَيْتَ إِنْ
عَلَى قُدْرَةِ اسْتِعْيَابِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ ، إِنَّمَا كَلَّمَهُ تَعَالَى ، حَقِيقَةً فَلَا تَحِيطُ
بِهِ ، لِأَن كَمَالَهُ تَعَالَى لَا تَقْصُرُ وَلَا تُدْرِكُ إِدْرَاكًا تَلَاً .

ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه عن علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ولما نزل قوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ..﴾ (١٦٦) [ال عمران] قال بعض الصعابة^(١) ومن يقدر على ذلك، إنها مسألة جسيمة أن نتقن الله التقرى الكائنة التي يستحقها عز وجل، فامرل الله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ..﴾ (١٦٧) [التغابن] ونزلت ﴿لَا يَكْفُ اللَّهُ نَعْماً إِلَّا رُجُوعاً..﴾ (٢٨٦) [البقرة]

(١) عن سعيد بن جبهر وهو من كبار التلمذة قال : لقد فزيت هذه الآية اشتد على القوم العمل . فقاموا حتى ورمت عرائسهم ، وتلا رعت جواهرهم ، فأنزل الله تعظيماً على المسلمين ﴿ فاضربوا الله ما استعصم ﴾ [التوبة] ففسفت الآية الأولى [أخرجه ابن أبي حاتم]
 وابن عباس في قوله ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ [آل عمران] قالوا : لم تسمع ولكن ﴿ حق ﴾
 عليه ﴿ ﴾ [آل عمران] أن يهادوا في الله حق جهاده ولا يتلذذوا في الله لومة لائم ،
 ويقرروا الله بالقسط وإن على أنفسهم وآياتهم وأسمايتهم . [أخرجه ابن جرير وابن المنذر
 وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه] أوردهما السيوطي في الدر المنثور ٢/٢٨٣

وكان النبي ﷺ إذا أثنى على الله تعالى يقول : « سبحانك ، لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »^(١) .

لماذا ؟ لأنه لا يملك أحد مهما أوتي من بلاغة الأسلوب أن يُثني على الله الثناء المناسب الذي يليق به سبحانه ، ومن رحمة الله تعالى بعباده أن تحمل عنهم هذه المسألة فأثنى الحق سبحانه على نفسه ، وعلمنا كيف نثني عليه سبحانه ، فإذا ما تحدث البليغ وأثنى على الله بفنون القول والثناء ، فإن العيب الذي لا يجيد الكلام يطمس حيث يُثني على ربه بما علمه من الثناء ، وما وضعه من صيغ يقولها الفيلسوف ، ويقولها راعي الشاة .

ولولا أن الله تعالى علمنا صيغة الحمد في سورة الفاتحة فقل : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة] ما تعلمنا هذه الصيغة ، فتعليم الله لعباده صيغة الحمد في ذاتها نعمة تستحق الحمد ، والحمد يستحق الحمد ، وهكذا في سلسلة لا تنتهي ، ليظل الحق - تبارك وتعالى - محموداً دائماً ، ويظل العبد حامداً دائماً .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مسألة الألوهية وما ينبغي لها من صفات الكمال المطلق ، وحذر أن تُسفل عليها ما ليس منها وما لا يستحقها ، وهذه قمة العقائد ، وبعد أن تزمّن بالإلهيات بهذا الصفاء وتخلص إيماننا من كل ما يشوبه لا يد من البلاغ عن هذه القوة الإلهية التي آمنّا بها ، والبلاغ يكون بإرسال الرسل .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٨/٦ ، ١٢٠) وكذا مسلم في صحيحه (١٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قلت رسول الله ﷺ ليلة من الليالي فالتصت فوقعت يدي على بطن قدميه وفوقني المسجد وعما منصوبتان وهو يقول : اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

لذلك قال سبحانه

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾

إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾

إذن - المرحلة الثانية في الإيمان بعد الإيمان بالقمة الإلهية الإيمان بالرسول ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (٧٥) [الحج] والاصطفاء اختيار نخبه من كثير ، واختيار القليل من الكثير دليل على أنها الخلاصة والصفوة ، كما يختلف الاصطفاء باختلاف المصطفى ، فإن كان المصطفى هو الله تعالى فلا بد أن يختار خلاصة الخلاصة .

والاصطفاء سائر في الكون كله يصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفى من الزمان ، ويصطفى من المكان ، كما اصطفى رمضان من الزمان ، والكعبة من المكان . ولم يجعل الحق سبحانه الاصطفاء لتدليل المصطفى على غيره ، إنما ليُشهِع اصطفاءه على خلق الله . فلما اصطفى رمضان على سائر الزمن - لا يدلل رمضان - إنما لتأجذ منه شحنة تتوَّى روحك ، وتُصَفِّجها بقية الأيام ، لتستفيد من صالح عملك فيها .

وقد يتكرر الاصطفاء مع اختلاف متعلق الاصطفاء ، لذلك وقف المستشرقون عند قول الله تعالى : ﴿يُحَرِّمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤١) [آل عمران]

يقولون ما فائدة تكرار الاصطفاء هنا ؟ ولو تأملنا الآية لوجدنا فرقاً بين الاصطفاء الأول والآخر : الاصطفاء الأول اصطفاء : لأن

تكونى عابدة تقية متينة منقطعة فى محرابك هـ ، أما الاصطفاء الآخر
فاصطفاء على نساء العامين جميعا ، بأن تكونى أما لعولود بلا أب ،
فمتعلق الاصطفاء - إذن - مختلف -

وتنقسم الملائكة فى معالجة الاصطفاء إلى ثلاثة مصطفاة ،
وملائكة مُصْطَفَى منها - وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ۖ ﴾ [قلز] يعنى ، كلهم لهم رسالة مع عوالم أخرى غيرنا .

أما فى الآية التى معنا ، فالكلام عن الملائكة الذين لهم صلة
بالإنسان أمثال جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، والحفظة
الكاتبين والمكلفين بحفظ الإنسان ، فإله تعالى يصطفى هؤلاء ، أما
الباقيون منهم فالله مصطفاهم لعبادته فهم مُهَيَّمُونَ ، لا يدرون عن هذا
الخلق شيئا ، وهم الملائكة العالون الذين قال الله عنهم فى الحديث
عن إبليس : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝ ﴾ [ص] يعنى ، الذين
لم يشعروهم الأمر بالوجود ، لأن لهم مهمة أخرى .

ثم يقول تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ ﴾ [الحج] السمع يتعلق
بالأصوات ، وبالبصر يتعلق بالافعال ، وهما كما قلنا عُصْدَةُ الحواس
كلها ، والحق سبحانه فى قوله : ﴿ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ ﴾ [الحج] يبين لنا
أن رسله سيؤاخيهم بأقوال تؤذيهم واستهزاء ، وسيُقَابِلُون بأفعال
تعرقل مسيرة دعوتهم ، فليكن هذا معلوما حتى لا يفت فى عضدهم ،
وإنا معهم سميع لما يُقال بصير بما يفعل ، فهم تحت سمعى
وبصرى وكلاهما .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ ﴾

وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿ ٧٦ ﴾

﴿ مَا يَنْ أَدِيهِمْ ﴾ (٧١) [الحج] ما أماسهم ، ويعلم أيضاً ما خفهم ،
فليعمل الإنسان ما يشاء . فعلم الله محيط به .

﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (٧٢) [الحج] فالمرجع فى النهاية إليه
سبحانه ، فالحق - تبارك وتعالى - لم يخلق خلقه ليتركهم هملاً ، إنما
خلقهم لحكمة ، وجعل لهم نهاية يُجَارَى فيها كل بعمله ، فمن تعب
ونصب فى سبيل دعوة الله وتحمل المشاق فى مماندة رسل الله فله
جزاؤه ، ومن جابهم وعاندهم سواء بالأقوال السالبة الشاتمة
المستهزئة ، أو بالأفعال التى تعوق دعوتهم ، فله أيضاً ما يستحق من
العقاب

وبعد أن حدثنا ربنا عز وجل عن الإلهيات وعن الرسل التى تُبَلِّغُ
عنه سبحانه ، يُحَدِّثُنَا عن المنهج الذى سياتقون به ينظم حركة
حياتنا ، هذا المنهج موجز فى اقل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهو
لا يشمل فى أوامره ونواهيه كل حركات الحياة . فالأوامر والنواهي
محصورة فى عدة أمور ، والباقى مباح ؛ لأن الله تعالى وضع الأوامر
والنواهي فى الأصول التى تعصم حركة الحياة من الأهواء والتزوات ،
وتترك الباقى لاختيارك تفعله على أى وجه تريد .

لذلك نرى العلماء يجتهدون ويختلفون فى مثل هذه الأمور التى
تركها الله لنا ، ولو أراد سبحانه لأنزل فيها حكماً محكماً ، لا يختلف
عليه أحد . لك أن تقول : ولماذا ترك الحق سبحانه هذه الأمور
تتضارب فيها الأقوال ، وتختلف فيها الآراء . وتحدث فيها تراعات بين
الناس ؟

قال : هذا مراد الله . لأن الله تعالى خلق الإنسان مُسَجَّراً فى
أشياء ، ومختاراً فى أشياء أخرى ، فللناس أن يتروكوا المجتهد يجتهد

ما وسعه الاجتهاد ، ثم يحكمون على ما وصل إليه أنه حق ، وآخر يجتهد ويقررون أنه باطل ؛ لأن الله لو أراد على لونه واحد لقاله ، إنما تركه محتملاً للأراء .

إذن . أراك مسبحانه أن تكون هذه الأراء لأن الإنسان كما هو محكوم بقهر في كثير من الكونيات وله اختيار في بعض الأمور ، كذلك الحال في التكليف ، فهو مقرر في الأصول التي لو حاد عنها يفسد العالم ، ومختار في أمور أخرى يصح فيها ويصح تركها . يقول تعالى في هذا المنهج :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧﴾﴾

النداء في ضرب المثل السابق^(١) كان للناس كافة ؛ لأنه يريد أن يكف عباد الاصنام إلى هذا المثل ، ويسمعهم بياه ، أما هنا فالكلام عن منهج ومستور موجه ، خاصة إلى الذين آمنوا ، لأنه لا يكلف بالحكم إلا من آمن به ، أما من كفر فليس أملاً لحسن هذه الامانة ، لذلك تركه ولم ينظم له حركة حياته . وكما قلنا في رجل المرور أنه يساعد من استعان به ووثق فيه ، فيدله ويرشده ، أما من شك في كلامه وقلل من شأنه بتركه يضل في مفتيق الطرق

فإذا ناداك ربك بما تكلف به ، فاعلم أن الجهة مُنَعَّكة ، كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ . (١٣٦) [النساء]

وقد اعترض على أسلوب القرآن في هذه الآية بعض الذين

(١) يقصد قوله تعالى . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ . (١٣٦) [الحج]

ياخذون الآيات على ظاهرها ، يقولون ، كيف يخاطبهم بآياتها الذين آمنوا ثم يقول آمنوا ، كيف وهم يؤمنون بالفعل ؟

قالوا . المراد يا أيها الذين آمنوا قبل سماع الحكم الجديد ظلوا على إيمانكم في الحكم الجديد ، واستمعروا على إيمانكم ، لذلك إذا طلبت شيئاً ممن هو موصوف به ناعلم أن المراد الدوام عليه .

كما أن هناك قرناً بين الإيمان بالحكم وبين تنفيذ الحكم ، فقد تؤمن بالحكم أنه من الله ولا تشك فيه ولا تعترض عليه ، لكنك لا تنفذه وتمصاه ، فمثلاً في الحج يقول تعالى . ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ۚ ﴾ [آل عمران] الذي لله تعالى على عباده أن يحجروا البيت ﴿ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران] وهذا شرط ضروري ، فلا تكليف بلا استطاعة ، ثم يقول : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ [آل عمران]

فهل يعني هذا أن من لم يحج فهو كافر ؟

قالوا لا ، لأن المراد : الله على الناس حكم يعتقده المؤمن ، بأن الله على الناس حج البيت ، فمن اعتقد هذا الاعتقاد فهو مؤمن ، أما كون ينفذه أو لا ينفذه هذه مسألة أخرى ،

ثم يبدأ أول ما يبدأ في التكليف بمسألة الصلاة ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ۚ ﴾ [الحج] لقد جاء الرسل من عند الله بتكاليف كثيرة ، لكن خص هنا الصلاة لأنها التكليف الذي يتكرر كل يوم خمس مرات ، أما بقية التكليف فهي موسمية . فالصوم شهر في العام كله ، والحج مرة في العمر كله لمن استطاع ، والزكاة عند خروج المحصول لمن يملك النصاب أو عند طول الحول .

[ذن : مصنف فريضة الصلاة عن باقي الفرائض : لذلك خصها

رسول الله ﷺ في قوله : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة » فمن تركها فقد كفر ^(١) .

ويقول : « الصلاة عماد الدين » ^(٢) .

وخصها الحق - تبارك وتعالى - بطرف تشريعي خاص ، حيث فُرِضَت الصلاة بالمباشرة ، وفُرِضَت ياتى الفرائض بالوحى .

وضربنا لذلك مثلاً - والله المثل الأعلى - قلنا : إن رئيس العمل يمكن أن يرسل لك ورقة يقول : افعل كذا وكذا ، فإن كان أمراً هاماً اتصل بك تليفونياً ، وأخبرك بما يريد لأهميته ، فإن كان الأمر أهم من ذلك وجاء من جهة أعلى يقول لك : تعال عندي لأمر هام ، ويكلفك به مباشرة ، وكذلك على حسب الأهمية يوجد ظرف التشريع .

فالصلاة لم تأت بالوحى كباقي الفرائض ، إنما جاءت مباشرة من الموحى سبحانه وتعالى ؛ لأنها ستكون صلة بين العبد وربه ، فشاء أن يُنَزَّهَهَا حَتَّى مِنْ هَذِهِ الْوَاسِطَةِ ، ثُمَّ مَيَّزَهَا عَلَى غَيْرِهَا مِنَ التَّكَالِيفِ ، فجعلها الفريضة التي لا تسقط عن المسلم بحال أبداً . فقد تكون فقيراً فلا تلزمك لزكاة ، وغير مستطيع فلا يلزمك حج ، ومريض أو مسافر فلا يلزمك صوم .

أما الصلاة فلا يُسْقِطُهَا عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، فَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى الْقِيَامِ فَلَكَ أَنْ تُصَلِّيَ قَاعِداً أَوْ مُضْطَجِعاً أَوْ رَاقدًا ، تشير

(١) أخرجه الترمذى في سننه (٢٦٢٦) والنسائى في سننه (٢٢٦/١) من حديث عبد الله بن مريدة عن أبيه قال الترمذى حديث حسن صحيح غريب .

(٢) قال المافظ العراقى في تفريجه للإحياء (٢٤٧/١) : « رَوَاهُ التَّيْمِيُّ فِي الْفَتْحِ بِسَدِّ ضَعْفِهِ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ ، وَقَالَ الْمَلَّا عَلَى الْقَارِئِ : « الْأَسْمَاءُ الْمَرْفُوعَةُ » (حَيْثُ ٥٧٨) قَالَ ابْنُ الْحَسَلِاحِ فِي مَشْكَلِ الْوَسِيدِ : إِنَّهُ غَيْرُ مَعْرُوفٍ ، وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي الْمَنْتَقِيحِ : إِنَّهُ مَذْكُورٌ مَاتِلٌ ، لَكِنْ رَوَاهُ الدِّجَلِىُّ عَنْ حَتَّى كَمَا ذَكَرَهُ السَّيْرُكِيُّ فِي الدَّرَرِ الْمُنْتَقَرَةِ (ح ٢٧٩)

بطرفك لركوعك وسجودك ، ولو حتى تجرى أفعال الصلاة على قلبك ، المهم أن تظل ذاكراً لمركبك مقصلاً به ، لا يمر عليك وقت إلا وهو سبحانه في بالك .

وقلنا : إن ذكر الله في الأذان والإقامة والصلاة ذكر دائم في كل الوقت لا ينقطع أبداً ، فحين تصلّي أنت الصبح مثلاً غيرك يصلّي الظهر ، وحين تركع غيرك يسجد ، وحين تقول : بسم الله الرحمن الرحيم غيرك يقول : الحمد لله رب العالمين . الخ .

فهي عبادة متخلطة دائمة لا تنقطع أبداً ، لذلك يقول أحد أهل المعرفة مخاطباً الزمن : يا زمن فيك كل الزمن . يعني : في كل جزئية من الزمن الزمن كله ، كأنه قال : يا ظهر ، وفيك العصر ، وفيك المغرب ، وفيك العشاء وهكذا العالم كله يدور بعبادة الله لا تنتهي .

وذكر من الصلاة الركوع والسجود ؛ لأنهم أظهر أعمال الصلاة ، لكن الركوع والسجود حركات يؤديها المؤمن المخلص ، ويؤديها المنافق ، وقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى ، لذلك أراد الحق سبحانه أن يميّز هذا من هذا ، فقال : ﴿وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ...﴾ (٧٧) [الحج]

فليست العبادة في حركات الركوع والسجود ، إنما العبادة في التوجه بها إلى الله ، وإخلاص النية فيها لله ، ولا أصبحت الصلاة مجرد حركات لا تعدو أن تكون تمارين رياضية كما يحلو للبعض أن يقول الصلاة فيها تمارين رياضية تحرك كل أجزاء الجسم ، نعم هي كما تقولون رياضة ، لكنها ليست عبادة ، العبادة أن تؤديها لأن الله تعالى أمرك بها .

ثم يقول تعالى ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ بِكُمْ تَنْلِجُونِ﴾ (٧٧) [الحج]

والخير كلمة عامة تشمل كل أوامر التكليف ، لكن جاءت مع الصلاة على سبيل الإجمال ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فالخير - إذن - كلمة جامعة لكل ما تؤديه وظائف المناهج من خير المجتمع ؛ لأن المنهج ما جاء إلا لينظم حركة الحياة تنظيمًا يتعاون ويتساند لا يتعاند ، فإن جاء الأمر على هذه الصورة سبَّح المجتمع بأسره .

ولا تنسَ أن المنهج حين يُضيق عليك ويُقيد حركتك يفعل ذلك لصالحك أنت ، وأنت المستفيد من تقييد الحركة ، لأن ربك قيّد حركتك وضيق عليك حتى لا تُفكك الشر بالآخرين ، وفي الوقت نفسه ضيق على الآخرين جميعًا أن يتحركوا بالشر قاصيتك ، وأنت واحد وهم كثير ، فمن أجل تقييد حركتك تُعِدُّ لك حركة الناس جميعًا ، فعن الكاسب في هذه المسألة .

للشرع قال لك : لا تسرق وأنت واحد وقال للناس جميعًا : لا تسرقوا منه ، وقال لك : غُضْ بصرك عن محارم الغير وأنت واحد . وقال لكل غير : غُضُّوا أبصاركم عن محارم فلان ، فكل تكليف من الله للخلق يعرِّد عليك .

فالمعنى ﴿وَأَفْعَلُوا الْحَيْرَ (٧٧)﴾ [المع] أى . اذى لا يأتى منه فساد أبدًا . وما دامت الحركات حادثة عن مراد لهوى واحد لمئاتها تتساند وتتعاون ، فإن كان لك هوى والغيرك هوى تصادمت الأهواء وتعاندت ، والخير كل ما تأمر به التكاليف المنهجية الشرعية من الحق تبارك وتعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿تَعْلَمُ تَفْلِحُونَ (٧٧)﴾ [المع] لكن ، أين سيكون هذا الفلاح : فى الدنيا أم فى الآخرة ؟

« الفلاح يكون فى الدنيا لمن قام بشرع الله والتزم منهجه وفعل

سورة الفلاح

﴿٩٩٤٧﴾

الخير ، فالفلاح ثمرة طبيعية لمنهج الله في أي مجتمع يتحرك أفرادُه في اتجاه الخير لهم وللغير ، مجتمع يعمل بقول رسول الله ﷺ ، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ^(١) ، وعندنا لن ترى في المجتمع نزاحماً ولا تنافراً ولا ظمناً ولا رشوة . الخ هذا الفلاح في الدنيا ، ثم يأتي زيادة على فلاح الدنيا فلاح الآخرة .

إذن لا تظنوا التكاليف الشرعية عبثاً عليكم ، لأنها هي صالحكم في الدنيا ، وبها فلاح دنيائكم ، ثم يكون ثوابها في الآخرة مَحْضُ الفضل من الله .

وقد تَبَهَّنَا النَّبِيُّ ﷺ إلى هذه المسألة فقال : لا يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته ^(٢) ، ذلك لأن الإنسان يفعل الخير في الدنيا لصالحه وصالح دنياه التي يحسها ، ثم ينال الثواب عليها في الآخرة من فضل الله كما قال تعالى ﴿وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ (١٧٣)﴾ [النساء] وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ (٧٧)﴾ [الحج] نعرف أن لكل أداة للترجي ، وهو درجات بعضها أرحى من بعض ، فمثلاً حين تقول : لعل فلاناً يعطيك ، فيأنت ترجو غيرك ولا تضمن عطاءه ، فإن قلت : لعل أعطيك ، فالرجاء - إذن - في يدك ، فهذه أرحى من سابقتها ، لكن ما رلنا أننا رأيت متساويين ، وربما أعطيك أولاً ، إنما حين تقول : لعل الله يعطيك فقد رجوت الله ، فهذه أرحى من سابقتها ، فإننا قال الله تعالى بذاته : لعل أعطيك فهذا أقوى درجات الرجاء وأكدها ، لأن الرعد من الله والرجاء فيه سبحانه لا يخيب .

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٢) ، ومسلم في صحيحه (٤٩) . كتاب الإيمان

عن أنس بن مالك رضي الله عنه

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٢) ، وكذا مسلم في صحيحه

(٢٨١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَهْدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ۝٧٨﴾

معنى ﴿ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (٧٨) [الحج] كالذى لكنا في ﴿ مَا قَاتِلُوا اللَّهَ حَقَّ قَاتِلِهِ ﴾ (٧٤) [الحج] لأن الجهاد أيضاً يحتاج إلى إخلاص ، وأن تجعل الله في بالك ، فربما خرجت لمجرد أن تدفع العلوم عن نفسك وحملت السلاح فعلاً ودخلت المعركة ، لكن ما في بالك أنها قد وما في بالك إصلاء كلمة الله . كالذى يقاتل لشجرة وليرى الناس مكانته ، أو يقاتل طمعاً في الغنائم ، أو لأنه صفاظ من العدو وبينه وبينه ثار ، ويريد أن يتلقم منه ، هذه وغيرها أمور تُخرج القتال عن هدفه وتُفرغه من محتواه

لذلك لما سئل سيّدنا رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمفتم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَاتِلٌ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ فِي الْعَالِيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »^(١) وهذا فهو حق الجهاد ، وأنت فيه تحكّم على نفسك ، لأن ميزان ذلك في يدك .

(١) مطلق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (١٦٢) . ومسلم في صحيحه (١٩٠٤) من أبي موسى الأشعري . .

وقد تسأل : ولماذا الجهاد ؟ قالوا : لأنك إذا انتفعت بالعنوج تطبيقاً له بعد التحقيق الذي أتى به الروس فتدفع نفسك ، لكن ربك - عز وجل - يريد أن يُشيع النفع لمن معك أيضاً ، وهذا لا ينأى إلا بالجهاد بالنفس أو المال أو أى شيء محبوب ، وإلا فكيف ستربح الصفقة التي قال الله تعالى عنها : ﴿ إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ (١١٧) ﴿

وكما أن النجود في ساحة القتال مهمة ، كذلك لمن تعد ولم يخرج مهمة : الجندي حين يقتحم الأهوال والمخاطر ويعرض نفسه لموت ، فهذا يعني أنه ما دخل المعركة وما عرض نفسه للقتل إلا وهو واثق تمام الثقة ، أن ما يذهب إليه بالقتل خير مما يناله بالجن ، وهذا يشجع الآخرين ويحثهم على القتال .

لذلك ، في غزوة بدر لما سمع الصحابي كلام رسول الله ﷺ عن أجر الشهيد وكان في فمه تمره يمضغها ، فقال يا رسول الله ، أليس بيني وبين الجنة إلا أن أقتل في سبيل الله ؟ قال نعم ، فالتفت التمرة من فيه وخرج لتؤم إلى الجهاد^(١) لأنه واثق تمام الثقة أن ما سيذهب إليه بالشهادة خير مما ترك .

أما الذين بَقُوا ولم يَخْرُجُوا ، فمهمتهم أن يحملوا المتنجس ، وأن يحققوه ، وإلا لو خرج الجميع إلى القتال واستشهدوا جميعاً ، فعن يحمل متنجس الله وينشره ؟

(١) من جابر بن عبد الله قال قال رجل أين أنا يا رسول الله إن فُتكت ؟ قال في البكة قالوا تمرات كن في بكة ثم قاتل حتى أكل* وفي حديث مسدد : قال رجل لثني عليه السلام يوم أحد ، أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٨٩٩) كتاب الإمارة قال ابن حجر في الفتح (٣٥٤/٧) : لم ألق عبي بن جهم ، ورغم أن يشكوا أنه عمير بن الحمام وسبقه إلى ذلك الخطيب واحتج بما أخرجه مسلم من حديث أنس قلت لكن وقع التصريح في حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر .

سُورَةُ الْحَجِّ

﴿١٩٥﴾

وجاءت كلمة الجهاد عامة لتشمل كل أنواع الجهاد ، فإذا ما أُمِر
الجهاد ثمرته وتغلبنا على الكفر فلم يَعدْ هناك كفار ، أو خَلَوْا طريق
دعوتنا وتركنا ، وأصبحوا أنْ يعيشوا في بلادنا أهل ذمة ، فلا داعي
- إذن - للقتال ، ويتحول الجهاد إلى ميدان آخر هو جهاد النفس

لذلك قال تعالى بعدها ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ (٧٨) ﴿[الحج] يعني :
اختاركم واصطفاكم لتكونوا خير أمة أخرجت للناس ، وضمن هذا
الاجتباء أن تكون أمة له ، وعلى مستوى مسؤوليته ، وأن نحقق
ما أُراده الله منا .

كما ينبغي جماعة من أهل الدعوة الذين حملوا رايبتها ، نقول
لهم : لقد اختاركم الله ، فكونوا أمة لهذا الاختيار ، واجعلوا كلامه
تعالى في محله

ثم يقول سبحانه : ﴿رَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (٧٩) ﴿[الحج] يعني :
ما اجتباكم ليُعنتكم ، أو ليَضيقَ عليكم ، أو ليُعسرَ
عليكم الأمور ، إنما جعل الأمر كله يسر ، وشرعه على قدر
الاستطاعة ، ورخص لكم ما يُخفف عنكم ، ويذهب عنكم الحرج
والصيق ، فمن لم يستطع القديم صلى فاعداً ، ومن كان مريضاً
أفطر ، والفقير لا زكاة عليه ولا حج الخ .

كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
لَأَعْتَبَكُمْ﴾ (٨٠) ﴿[البقرة] لكنه سبحانه ما أعنتكم ولا ضيقَ عليكم ،
وما كلفكم إلا ما تستطيعون القيام به .

وقوله تعالى ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٨١) ﴿[الحج] كلمة (ملة)
جاءت هكذا بالنصب ، لأنها مفعول به لفعل تقديره : (الزموا) ملة
إبراهيم ؛ لأنكم دعوته حين قال ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ
خَلْقِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ (٨٢) ﴿[البقرة]

ولما كان النبي ﷺ أباً لكل من آمن به سَمِيَ الله زوجاته أمهات
للمؤمنين ، فقال سبحانه ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ
أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (٦) [الأحزاب]

وما دامت الأزواج أمهات ، فالزوج أب ، وبناءً على هذه العلة
يكون إبراهيم عليه السلام أباً لامة الإسلام ، وإن كان فيهم من ليس
من سلالة .

ونجد البعض ممن يحبون الاعتراض على كلام الله يقولون في
مسألة أبوة الرسول لأمته لكن القرآن قال غير ذلك ، قال في قصة
زيد بن حارثة : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ (٥) [الأحزاب]
فنفي أن يكون محمد أباً لأحد ، وفي هذا ما يناقض كلامكم .

نقول لو فهمتم عن الله ما افترضتم على كلامه ، فإله يقول .
ما كان محمد أباً لأحدكم ، بل هو أب للجميع ، فالعنفى أن يكون رسول
الله أباً لواحد ، لا أن يكون أباً لجميع أمته . وقال بعدما ﴿وَلَكِن
رَّسُولَ اللَّهِ﴾ (٤) [الأحزاب] وما دام رسول الله ، فهو أب لكل .

ثم يقول تعالى عن إبراهيم عليه السلام . ﴿فَرَسَمْنَاكُمُ الْمُسْلِمِينَ
مِّن قَبْلُ﴾ (٧٨) [الحج] يعني إبراهيم عليه السلام سماكم المسلمين ،
فكان هذه مسألة واضحة وأمر معروف أنكم مسلمون منذ إبراهيم
عليه السلام . ﴿وَفِي هَٰذَا لَيَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ
عَلَى النَّاسِ﴾ (٧٨) [الحج]

وفي موضع آخر يحدث تقديم وتأخير ، فيقول سبحانه .
﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (١٤٣) [البقرة]

سُورَةُ الْحَجَّةِ

﴿٩٩٥٢﴾

لماذا ؟ قالوا : لأن رسول الله يُلَِّغُ رسالة الله ، وأشهد الله على ذلك حين قال : « اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد » ^(١) أشهد أني بلغت ، وهو ﷺ يريد من أمته أن يكون كل شخص فيها حاملاً لهذه الرسالة ، مُبَلِّغاً لها حتى يسمع كلام الرسول مَنْ لم يحضره ولم يَرَهُ ، وهكذا يكون الرسول شهيداً على مَنْ آمن به ، وَمَنْ آمن شهيداً على مَنْ يُلَِّغُه

لذلك من شرف أمة محمد أولاً أنه لا يأتي بعده رسول ، لانهم مأمونون على منهج الله ، وكان الخير لا ينطفىء فيهم أبداً ، ولما : إن الرسل لا يأتون إلا بعد أن يعمُ الفساد ، ويفقد الناس المذعة الطبيعية التي تحجزهم عن الشر ، وكذلك يفقدوا المجتمع كله فلا ينهى أحد أحداً عن شر ؛ عندها يتدخل الحق سبحانه برسول ومعجزة جديدة ليُصلح ما فسد .

فختام الرسالات بمحمد ﷺ شهادة أن الخير لا ينقطع من أمته أبداً ، ومهما انحرف الناس سيقتي جماعة على الجادة يحملون المنهج ويتمسكون به ويكونون قدوة لغيرهم . لذلك حنّد رسول الله هذه المسألة فقال : « أخير في حصر ، وفي امتي نثراً ، فالخير كله وانكسار كله في شخص رسول الله ، ومنثور في أمته .

ثم يعود السياق إلى الأمر بالصلاة . ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١١٥] ، وفيها إلقاء للولاء المكرر في اليوم خمس مرات ، وبها يستمر تذكّر الله على مدى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٧٢٩) في خطبة الوداع من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا » .

الزمن كله لا ينقطع أبداً في لحظة من لحظات الزمن حين تنظر إلى العالم كله ، وتضم بعضه إلى بعض .

ولنعامل في الزمن بالنسبة للحق - تبارك وتعالى - بجده دائماً لا ينقطع ، فالיום مثلاً عندنا أربع وعشرون ساعة ، واليوم عند الله ألف سنة مما تعدون ، واليوم في القيامة خمسون ألف سنة ، وهناك يوم اسمه يوم الآن أي : اللحظة التي نحن فيها ، وهو يوم الله الذي قال عنه : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن] لذلك يقول : ما شغل ربك الآن وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ ؟ قال : « أمور يبديها ولا يبديها ، يرفع أقراماً ، ويضع آخرين »^(١) .

فيوم الآن يوم عام ، لا هو يوم مصر ، ولا يوم سوريا ، ولا يوم اليابان إذن في كل لحظة يبدأ يوم وينتهي يوم ، فهو يوم تعالى مستمر لا ينقطع .

ونقرأ في الحديث النبوي الشريف : « إن الله ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل »^(٢) .

نهار مَنْ ؟ وليل مَنْ ؟ فالنهار والليل في الزمن دائم لا ينقطع ، وفي كل لحظة من لحظات الزمن ينتهي يوم ويبدأ يوم ، وينتهي ليل ويبدأ ليل ، إذن : فاه تعالى يده مبسرطة دائماً لا يقبضها أبداً ، كما

(١) عن أبي السرياء رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن] قال : « من شأنه أن يخلق دنيا ، ويخرج كروبا ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » أخرجه ابن أبي حاتم في السنة (١٢٩/١) وابن ماجه في سننه (٢٠٢) ، وأبو نعيم في الطبعة (٢٥٢/٥) وأبو الشيخ في العظمة (ج ١٥٠)

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٥/٤ ، ٤٠٤) ومسلم في صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

قال سبحانه ﴿لَئِنْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقْ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (٧٦) [المائدة]

ثم يقول سبحانه ﴿وَعَتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ (٧٨) [الحج] الجثوا إليه في الشدائد ، وهذا يعنى انكم ستواجهون وتضطهدون ، فما من حامل منهج لله إلا اضطهد ، فلا يكثر فيكم هذا ولا يفت في عَصِيَّتكم ، واجعلوا الله ملجاكم ومعتصمكم في كل شدة تداهمكم ، كما قال سبحانه ﴿لَا تَعْصِمُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ (١٢٩) [مروء]

وعتصامكم بالله أمر لا تاتون إليه بأنفسكم إنما ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ (٧٨) [الحج] يعنى . المتولى لشأنكم ، وما دام هو سبحانه مولاكم ﴿فَبِعَمَلِ الْمَوْلَى وَنِعَمِ النَّصِيرِ﴾ (٧٨) [الحج]

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

سورة المؤمنون^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

لما قال الحق - تبارك وتعالى - في الآية قبل السابقة من سورة الحج ﴿تَعْلَمُكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج] ولعلّ تفيد الرجاء ، أراد سبحانه أن يؤكد هنا على فلاح المؤمنين فقال : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون] وأن الرجاء من الله واقع ومؤكّد ، لذلك جاء بأداة التحقيق ﴿قَدْ﴾ التي تفيد تحقق وقوع الفعل ، وهكذا تنسجم بداية سورة (المؤمنون) مع نهاية سورة (الحج) .

وقوله تعالى هناك ﴿تَفْلِحُونَ﴾ [الحج] وهنا ﴿أَفْلَحَ﴾ [المؤمنون] مائة (فلع) مأخوذة من فلاحه الأرض ، والفلاح هو الشق ، لذلك قالوا إن الحديد بالحديد يفلح ، وشق الأرض ، إهانتها وإثارتها بالحرث ، وهذه العملية هي أساس الزرع ، ومن هنا سُمّي لزرع حرثاً في قوله سبحانه : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُكَ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ

(١) سورة المؤمنون ، هي السورة رقم (٢٣) في ترتيب المصحف الشريف عدد آياتها ١١٨ آية وهي سورة مكية كلها في قول الجميع قاله القرطبي في تفسيره (٦/٤١٣٥) . وهي السورة رقم ٧٣ في ترتيب النزول ، نزلت بعد سورة الانبياء وقبل سورة السجدة قال ابن الضريس في فضائل القرآن فيما نقله عنه السيوطي في « الإقتار » (٢٧/١)

الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٧٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴿٧٥﴾ ﴿[البقرة]

ومعنى أفلح : فاز بأقصى ما تتطلع إليه النفس من خير .

والأرض حين تهرثها تكون خالية ليس فيها شيء يهلك ، إذن . المراد بالحرث هنا الزرع الناتج عن عملية الحرث . والتي لا بدّ منها كحجّ تتم عملية الزراعة ؛ لأنك بالحرث تثير التربة ليتخللها الهواء ، فيزيد من خصوبتها وصلاحها لاستقبال البذرة . وسبق أن تحدثنا عن عملية الإنبات ، وكيف تتم ، وأن النبات يتغذى على نكفتي البذرة إلى أن يصبح له جذر قوى يستطيع أن يمتصّ من التربة . فإن بقيت البذرة في أرض صماء غير مثارة فإن الجذر يجد صعوبة في اختراق التربة والامتصاص منها .

فالحق - تبارك وتعالى - يعملنا سورة من واقعتنا المشاهدة ، ويستعير من فلاحه الأرض ليعبر عن فلاح المؤمن وفوزه بانعيم المقيم في الآخرة . فالفلاح يحرث أرضه ويسقيها ويرعاها فتعطيه الحبة بسبعمئة حبة ، وهكذا سيكون الجزاء في الآخرة : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْذَرُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ مِصْرَ مَتَابِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ مِائَةٍ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يَضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ ﴿[البقرة]

فإذا كانت الأرض المخلوقة لله عز وجل تعطى كل هذا العطاء ، فما بالك يعطاء مباشر من خالقك وخالق الأرض التي تعطيك ؟ وكما أن الفلاح إذا تعب واجتهد زاد محصوله ، كذلك المؤمن كلما تعب في العبادة واجتهد زاد ثوابه وتضاعف جزاؤه في الآخرة .

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾^(١)

كان أول ظاهرة الفلاح في الصلاة ، وما يزال الحديث عنها موصولا بما قاله ربنا في الآيات السابقة ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [٧٧] [الحج] وقال بعدها : ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ...﴾ [٧٨]

وهنا جعل أول وصف للمؤمنين الذين أفلحوا ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [٧٧] [المؤمنون] فلم يقل مثلاً : مؤدون ؛ لأن أمر أداء الصلاة في حق المؤمنين مفروغ منه ، العبرة هنا بالهيئة والكيفية ، العبرة بالضشوع والخضوع وسكينة القلب وطمانينته واستحضار الله الذي تقف بين يديه .

كما تقول لولدك اجلس أمام المعلم باهتمام ، واستمع إليه بانتصات ، فانت لا توصيه بالذهاب إلى المدرسة أو حضور الدرس . فهذا أمر مفروغ منه ، لذلك تهتم بجوهر الموضوع والحالة التي ينبغي أن يكون عليها

والضشوع أن يكون القلب مطمئناً ساكناً في مهنته هذه ، فلا ينشغل بشيء آخر غير الصلاة ، لأن الله ما جعل لرجل من قلبين في جوفه ، وما دام في حضرة ربه عز وجل فلا ينبغي أن ينشغل بسواه ، حتى إن بعض العارفين لمعنى الضشوع يقول : إن الذي

(١) سبب نزول الآية أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أيديهم إلى السماء في الصلاة يلتفتون يمينا وشمالا . فأنزل الله ﴿فَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [٧٧] [المؤمنون] فقالوا يرفعون أيديهم ، فلم يرفعوا أيديهم بعد ذلك في الصلاة ، ولم يلتفتوا يمينا ولا شمالا . [تفسير السيريني في شهر المنثور ١/ ٨٣]

يتعمد معرفة مَنْ على يمينه أو مَنْ على يساره في الصف تبطل صلاته^(١) .

ولما دخل سيدنا عمر - رضى الله عنه - على رجل يصلى ويعتصم بلحيته ، فضربه على يده وقال : لو خشع قلبك لخشعت جوارحك^(٢) ذلك لأن الجوارح تستمد طاقتها من القلب ومن الدم الذى يمشى فيها ، فلو شغل القلب عن الجوارح ما تحركت .

لذلك لم سأل أحد الفقهاء صوفياً . ما حكم مَنْ سها في صلاته ؟ قال : حكمه عندنا أم عندكم ؟ قال : ألنا عند ولكم عند ؟ قال : نعم ، عند الفقهاء مَنْ يسهو في الصلاة يجبره سجود السهو ، أما عندنا فمن يسهو في الصلاة نقتله . يعنى مسألة كبيرة .

ثم ألا يستحق منك ربك وخالفك أن تتفرغ له سبحانه على الأقل وقت صلاتك ، وهى خمس دقائق فى كل وقت من الأوقات الخمسة ، وقد تركك بالى الوقت تفعل ما تشاء ؟ أنت أكثر على ربك أن تُفرِّغ له قلبك ، وأن تحتضره سبحانه ، وهذه العملية فى صالحك أنت قبل كل شيء ، فى صالحك أن تكون فى جلوة مع ربك تستمد منه سبحانه الطاقة والمعونة ، وتعرض لنفحات وإشراقاته وتقنيس من أنواره وأسواره ؟

ومن حرص أهل التقوى على سلامة الصلاة وتعامها قال أحدهم

(١) قاله معاذ بن جبل رضى الله عنه ليعب ذكره عنه أبو محمد عبد الحق الإشبيلي فى « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٢) .

(٢) ذكر أبو محمد عبد الحق هذا الأثر فى كتاب « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٨) بتحقيق طبعه دار التراث المتصورة . ولكن هذا للنسب ليسوى . وذكر له أيضاً أن الحس نظر يوماً إلى رجل يعتصم بالحصى فى الصلاة وهو يقول : اللهم توجنى من الصور العين . فقال له : يتن الشايط أنت ، تعطب الصور العين وأنت تعتصم بالحصى .

صاحبه الذي يحرص على أن يؤم الناس : لماذا تحرص على الإمامة وأنت تعرف أن طالب الولاية لا يؤلى ؟ قال . نعم أحرص عليها لأخرج من الخلاف بين الشافعي الذي قال بقراءة المفاتحة خلف الإمام . وأبي حنيفة الذي قال بأن قراءة الإمام قراءة للمأموم ، فأحرص على الإمامة حتى أقرأ أنا ، ولا أتشغل بهذا الخلاف .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢)

لغو . الكلام الذي لا فائدة منه ، ويُطلق أيضاً على كل فعل لا جدوى منه ، وفي موضع آخر يقول تعالى . ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٧٢) [الفرقان] لا يشغلون به ولا يابهون له ، وحكى القرآن عن الكفار عند سماعهم القرآن قولهم . ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَفَاءِ فِيهِ ۖ ﴾ (٣٦) [فصلت]

ذلك جعل الحق - تبارك وتعالى - من نعيم الجنة : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْلِيمًا ﴾ (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ (٢٦) [الواقعة] كان من المعاييب في الدنيا ومن مصائبها أن نسمع فيها لغواً كثيراً لا فائدة منه ، وفي آية أخرى يقول عن خمر الآخرة التي لا تُذهب العقل ، ولا تجعل صاحبه يهذي بلغو الكلام . ﴿ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا تَغَرِّ فِيهَا وَلَا تَأْلِيمًا ﴾ (٢٢) [الصود]

و ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢) [المؤمّنون] الإعراض في الأصل تجنب الشيء ، وهو صيغة لحركة إباء النفس لشيء ما . وأهل المعرفة يضعون اللغو مقياساً ، فيقولون كل عمل لا تقال عليه ثواباً من الله فهو لغو .

لذلك أحرص دائماً أن تكون حركتك كلها لله حتى تُقَابَ عليها ، كصاحبنا الذي دخل عليه رجل وقصده في قضاء أمر من الأمور وهو لا يملك هذا الأمر ، لكن أراد أن يستغل فرصة لخير هذه ، وأن يكون

له ثواب حتى في حركة الامتناع عنه ، فرفع يده . اللهم إنه عبد قصد عبداً وأنا أخذ بيده وأقصد ريباً ، فأجعل تصويب خطئه في قصدي تصويماً لقصدك . يعني - أنا وإن كنتُ لا أقدر على قضائها إلا أنني أدخل بها على الله من هذه الناحية .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾

الزكاة أولاً تطلق على معنى التطهير ، كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة: 103] لأن لفظة قد تصيب الإنسان حال جمع المال ، فيخلط ماله ما فيه شبهة مثلاً ، فيحتاج إلى تطهير ، وتطهير المال يكون بالصدقة منه .

والزكاة بمعنى النماء ، فبعد أن تُطهر المال تُنميه وتزيده ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ [الشمس] يعني : نعى ملكة الخير فيها ، ورقاها وصعدتها بأن ينظر إلى العس إن كان سينتقم منك في الظاهر ، إلا أنه سيجلب لك الخير فيما بعد ، فترتقى بذلك ملكات الخير في نفسك .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن الزكاة ، وهو الزيادة جمع المتفاضلات في آية واحدة ، فالزكاة يزيد المال ويأخذ المراهي المائة مائة وعشراً ، في حين تنقص الزكاة من المال في الظاهر ، فالمائة بعد الزكاة تصبح سبعة وتسعين ونصفاً ، ثم تأتي الآية لتضع أملك المقياس الحقيقي ﴿ يَصْحَقُ اللَّهُ الزَّكَاةَ وَيُؤْتِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [البقرة] ، فالزكاة التي تنقصه زيادة هو محقق ، والذي تنقصه نقصاً هو بركة وزيادة وتعالى .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لَّهَبُوا فِي أَسْوَإِ النَّاسِ فَلَا يَرْجُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْطَرُونَ ﴾ [الروم] أي : الذين يضاعف الله لهم ويزيدهم .

وكما أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - بالخشوع في الصلاة أمرنا كذلك في الزكاة ، فلم يقل مؤدون ، ولكن ﴿ فاعملون ﴾ [المؤمنون] وهذه من تربية مقامات العبادة في الإنسان ، فأنت حين تصلي ينبغي أن نخشع وتخضع في صلاتك لله ، وكذلك حين تُزكى تُرقى ملكة الخير في نفسك ، محيين تعمل وتسعى لا تعمل على قُدْر حاجتك ، وإنما على قُدْر طاقتك ، لتأخذ من ثمرة سَعْيِكَ حاجتك ، وفي نيتك أن تُخرج من الباقى زكاة مالك رصدقتك ، فالزكاة - إذن - هي بالك وفي نيتك بداية .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْوَاحِهِمْ فَحُفَظُونَ ﴾

الفروج - جمع فَرْج ، والمقصود سَوَاءً كُلُّ من الرجل والمرأة ، وقد أمر الله تعالى بحفظها على المهمة التي خلقت من أجلها ، ومهمة هذه الأعضاء إما إخراج عادم الجسم من بول أو غائط ، أو العملية الجنسية وهدفها حفظ النسل ، وعلى الإنسان أن يحفظ فرجه على ما أحله الله له في قوله تعالى :

﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ

فَأَنَّهُمْ خَيْرٌ مَُّلْوِينَ ﴾

أي يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم ، لأن الله أحلها ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [المؤمنون] وملك اليمين حلال لم يَعد له موضع ،

ولم يُعَدَّ له وجود الآن ، وقد حرم هذا القانون البشرى الدولى ، فلم يعد هناك إمام كما كان قبل الإسلام ، فهذا حكم مُعطل لم يُعَدَّ له مدلول ، وفرق بين أن يُعطل الحكم لعدم وجود موضوعه وبين أن يُلغى الحكم ، فعلى اليمين حكم لم يُلغ ، الحكم قائم إنما لا يوجد له موضوع .

ولتوضيح هذه المسألة فَبَّ أنك فى مجتمع كله أغنياء ، ليس فيهم فقير ولا مستحق للزكاة عندها تقول : حكم الزكاة مُعطل . فهى كخريضة موجودة ، لكن ليس لها موضوع .

وبعض السطحيين يقولون : لقد ألقى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سهام المؤلفات لقلوبهم^(١) ، والحقيقة أنه ما ألقى ولا يملك أن يلقى حكماً من أحكام الله ، إنما لم يجد أحداً من المؤلفات لقلوبهم ليعطيه ، فالحكم قائم لكن ليس له موضوع ، بدليل أن حكم تأليف القلوب قائم ومعمول به حتى الآن فى بلاد المسلمين ، وكثيراً ما تناول تأليف قلوب بعض الكتاب وبعض الجماعات لتعطيلها نحر الإسلام ، خاصة وغيرنا ييذلون تصارى جهودهم فى ذلك . إذن فسهم المؤلفات لقلوبهم ما زال موجوداً ويعمل به

كما نسمع مَنْ يقول : إن عمر - رضى الله عنه - عطل حد السرقة فى عام الرمادة ، وهذا ادعاء مخالف للحقيقة ، لأنه ما عطل

(١) روى عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن حجاج بن دينار عن ابن سيرين عن عبيدة قال : « جاء عبيدة بن جحش والأقرع بن حابس إلى أبى بكر فقالا : يا خليفة رسول الله ، إن عندهما أرضاً سبخة ليس فيها كلاً ولا منفعة فإن رأيت أن تعطيتكما ! فالتفتما إياهما وكتب لهما عليها كتاباً وأشهد ، ولهم فى القوم عمر ، فالتفتا إلى عمر ليشهد لهما ، فلما سمع عمر ما فى الكتاب تناولوه من أيديهما ثم نكّل فيه بمساء ، فقتلما وقالوا مائة سيئة ، فقال إن رسول الله ﷺ كان يتألفكم والإسلام يرمض قليل ، وإن الله قد أغنى الإسلام ، إنما فاجبنا جهنمكم لا يدرى الله طبعكم إن رحيماً » [لورده ابن بكر الجصاص فى أحكام القرآن ١٦٠/٢]

هذا الحد إنما عطل نصاً وأحيا نصاً ؛ لأن القاعدة الشرعية تقول :
ادراوا الحدود بالشبهات . وما دام قد سرق لبساً جَسَّعته فلم يصل
إلى نصاب السرقة ، فالسرقة تكون بعد قدر يكفى للضرورة .

وقد قل أن يقول : إذا دارت حرب بين المؤمنين والكافرين وأسروا
منا وأسرونا منهم ، ألا يوجد حينئذ ملك اليمين ؟ نقول : نعم يوجد
ملك اليمين ، لكن سؤلجهم قوانين دولية ألزمت نفسك بها وارتضيتها
تقول بمنع الرق عليك الالتزام بها ، لكن إن وجد برق فملك اليمين
قائم وموجود وهذه المسألة يأخذونها سبة في الإسلام ، وكيف أنه
يبيح للسيد كذا وكذا من ملك يمينه .

وهذا المأخذ ناشئ عن عدم فهم هؤلاء للحكمة من ملك اليمين ،
وأن كرامة المملوكة ارتفعت بهذه الإباحة ، فالمملوكة أخذت في حرب
أو خلافه ، وكان في إمكان من يأخذها أن يقتلها ، لكن الحق سبحانه
حمى دمها ، وتمس في النفس مسألة النفعية فأباح لمن بأسرها أن
ينتفع بها وأحلها له أيضاً .

ولك أن تتصور هذه الأمة أو الأسيرة في بيت سيدها ومعه زوجة
أو أكثر وهي تشاهد هذه العلاقات الزوجية في المجتمع من حولها ،
إن من حكمة الله أن أباح لسيدها معاشرتها ؛ لأنها لن ترى لربة
البيت بعد ذلك مزية عليها ؛ لأنهما أصبحا سواء ، فإذا ما حملت من
سيدها فقد أصبحت حرة بولدها ، وكان الحق سبحانه يُسير الأمور
تجاه العتق والحرية ألا تراء بعد هذا يفتح باب العتق ويهدد
أسبابه ، فجعله أحد مصارف الزكاة وباباً من أبواب الصدقة وكفارة
لبعض التجاوزات التي يرتكبها الإنسان .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَا إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ غَيْرُ مُلْتَمِسِينَ﴾ [المؤمنون] يعني
لا نمدحهم ولا نذمهم ، وكان المسألة هذه في أضيق نطاق

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ ﴾

﴿ ابْتَغَىٰ ﴾ . طلب ، ﴿ وَرَاءَ ذَٰلِكَ ﴾ : غير ما ذكرناه من الأزواج وملئك اليمين .

وسبق أن ذكرنا أن كلمة ﴿ وَرَاءَ ﴾ استعملت في القرآن لمعان عدة ، فهي هنا بمعنى غير الأزواج وملئك اليمين . ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه . ﴿ .. وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ۝١٤ ﴾ [النساء] يعني حرمت عليكم كذا وكذا ، وأحللت لكم غير ما ذكر

وتستعمل وراء بمعنى بُعد ، لأن الغيرية قد تتحد في الزمن ، فيوجد الاثنان في وقت واحد ، أما البعدية لزمناها مختلف ، كما في قوله تعالى ﴿ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ ۝١٦ فَهَرَّاتُهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝١٧ ﴾ [هود] يعني : من بعده ؛ لأن الزمن مختلف .

وتأتي وراء بمعنى خلف ، كما في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَسَ مَا يَشْتَرُونَ ۝١٨٧ ﴾ [آل عمران] يعني جعلوه خلف ظهورهم .

وتأتي وراء أيضاً بمعنى أمام ، كما في قوله تعالى ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩ ﴾ [الكهف] ومعلوم أن الملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة تمر به فيأخذها غصباً

(١) روى الأزهري عن الفراء في تفسير هذه الآية : « إنما ضحكتم سريراً بالامن لأنها خافت كما خاف إبراهيم » وقال الفراء وهو ما يمثله الكلام والله أعلم ، وإنما قولهم ضحكتم ضحكتم فلم تسمعوه من ثقة ، أورده ابن منظور في تلسى العرب - مادة ضحك .

وقوله تعالى : ﴿مَنْ وَرَّاهُ جَهَنَّمَ﴾ (١٦٠) ﴿إبراهيم﴾ وجهنم أمامه ،
وستأتي فيما بعد ، ولم تَعْض فتكون خلفه .

ومعنى ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاعِلُونَ﴾ (٧) ﴿المؤمنون﴾ أى : المعتدون
المتجاوزون لما شرع لهم ، وربنا - تبارك وتعالى - حينما يحذرنا
من التعدي يفرق بين التعدي في الأوامر ، والتعدي في النواهي ، فإن
كان في الأوامر يقول : ﴿فَلَا تَعْتَدُوا﴾ (٢٢١) [البقرة]

وإن كان في النواهي يقول : ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ (١٨٧) [البقرة]
ثم يقول الحق سبحانه .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (٨)

﴿راعون﴾ . يعنى يحافظون عليها ويراعونها بالتنفيذ ، والأمانة :
كل ما استؤمنت عليه ، وأول شيء استؤمنت عليه عهد الإيمان بالله
الذى أخذه الله عليك ، وما بُعِثَ قد آمنتم بالإله فعليك أن تَتَقَدَّ أوامره .
لأن : هناك أمانة للحق وأمانة للخلق ، أمانة الحق التى قال الله
تعالى عنها :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٦) [الاحزاب]

لما بُعِثَ قد قبلت تحمل الأمانة ، فعليك الأمانة

أما العهد : فكل ما يتعهد به الإنسان في غير معصية ويلزمه
الوفاء بسما عاهد به ، لأنه حين تعاهد إنساناً على شيء فقد ربطت
حركته وقيدتها في دائرة إنفاذ هذا العهد ، فحين تقول لى : سأقابلك
غداً في المكان الفلانى في الوقت الفلانى لعمل كذا وكذا ، فإننى

سأرتب حركة حياتي بناءً على هذا الوعد ، فإذا لحقتْ وعيك فقد أطلقتْ نفسك في زمنك وتصرفتْ حسبَ راحتك ، وقيدتْ حركتي أنا في زمني وضيّعتْ مصالحِي ، وأربكتْ حركة يرمي ؛ لذلك شدّد الإسلام على مسألة خلف الوعد .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾

في الآيات السابقة تحدّث عن الصلاة من حيث هيئته الخضوع والخضوع قيه ، وهنا يذكر الصلاة من حيث أدائها والحفاظ عليها ، لأنّ الحفاظ يعني أن تأخذ كل وقت من أوقات الصلاة بميلاده وميلاد الاوقات بالانسان ، لكن البعض يقولون إن الوقت مُعْتَدٌ ، فالظهر مثلاً مُعْتَدٌ من أذان الظهر إلى قبل أذان العصر ، وهكذا في باقي الصلوات .

نقول ، نعم هذا صحيح والوقت مُعْتَدٌ ، لكن مَنْ يضمن لك الحياة إلى آخر الوقت ؟ مَنْ يضمن لك أن تصلي العشاء مثلاً قبل أذان الفجر ؟ نعم ، تظل غير آثم إلى آخر لحظة إذا تمكنت من الصلاة وصلّيت ، لكن هل تضمن هذا ؟ كالذي يستطيع أن يحج ، إلا أنه آخر الحج إلى آخر أيامه ، فإن حج فلا شيء عليه ، لكنه لا يضمن البقاء إلى أن يحج ؛ لذلك يجب العبادة بالحج عند أول استطاعة حتى لا تأثم إن فاتك وأنت قادر

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/٤٦٤) : « أي يرثون منازل أهل الدار من الجنة وهي خير من أبي هريرة عن النبي ﷺ : « إن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكناً في الجنة ومسكناً في النار ، فلما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون منازل الكفار ويحمل الكفار في منازلهم في النار » أخرجه ابن ماجه بمعناه . »

﴿أَوْفِيعَكَ﴾ [المؤمنون] يعنى : أصحاب الصفات المتقدمة ، وهم ستة أصناف - الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، والذين هم لآماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون . هؤلاء هم الولوثون ، والإرث : أخذ حق من غير عقد أو هبة : لأن أخذ مال الغير لا بد أن يكون إما ببيع وعقد ، وإما هبة من صاحب المال لذلك سألوا إرث . أهذا حقه ؟ قال : نعم ، قالوا : فما صكك عليه ؟ يعنى : أين العقد الذى أخذته به ؟ قال : عقدي وصكى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء] فهو عقد أوثق وأعلى من تعاقد البشر .

وما دام عقدي من الحق - تبارك وتعالى - ملا تقل : إن الميراث مأخوذ بغير عقد : لأنه قائم على أوثق العقود ، وهو العقد من الله .

وكثيراً ما يخرج الناس فى مسألة الميراث عما شرع الله حباً فى المال واستثثاراً به ، أو يحلأ على من جعل له الشرع نصيباً ، فمن كان عنده البنون والبنات يعطى البنين ويحرم البنات ، ومن كان عنده بنات يكتب لهن ما يملك حتى يحرم إخوته وأعمامهم من حقهم فى ماله ، وهذا كثيراً ما يحدث فى المجتمع .

ويجب عليك أن تتنبه لمسألة الميراث وتحترم شرع الله فيه وتقسم الله للمال ، فقد وهبك الله المال وتركك تنصرف فيه طوال حياتك ، وليس لك أن تنصرف فيه أيضاً بعد موتك ، عليك أن تدع المال لصاحبه وراثيه يتصرف فيه : لذلك قال الله تعالى عن الإرث : ﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء] يعنى : ليست من أحد آخر ، وما دامت فريضة من الله فعليك أن تمتثل لها وتنفذها ، وهين تقابى عليها فإنك تتأبى على الله وترفض قسمته

والمعامل في مسألة الإرث يجد الخير كل الخير فيما شرعه الله
ومن كان يحب البتة فليعط البتة حتى لا يفسد علاقة أولاده من
بعده . ويأتى إيمان بعض الرجال الذين أخذوا كل مال أبيهم وهرموا
منه البتة ، يقولون : نريد أن نصحح هذا الخطأ ونعيد القسمة على
ما شرع الله .

وجد عند بعض الناس إشراقات إيمانية ، فإن رفض بعض
الإخوة إعادة التقسيم على شرع الله يقول : أنا أتصل ميراث أخواتي
من مالي الخاص ، ومثل هؤلاء يفتح الله عليهم ويبارك لهم فيما بقى ؛
لأنهم جعلوا اعتمادهم على الله فيزيدهم من فضله ويربى لهم القليل
حتى يصير كثيراً ، أما من اعتمد على ما فى يده فإن الله يكله إليه .

وعجب من الذى يجعل ماله للبتة ليحرم منه إخوانه ، نقول له :
أنت لست عادلاً في هذا التصرف ، يجب أن تعاملهم بالمثل ،
فإن تركت بناتك فقراء لا مال لهن ، فمن يعولهن ويرعاهن من بعدك ؟
يعولهن الأعمام ، إذن : لتكن معاملة بالمثل .

والحق - تبارك وتعالى - حين يورث هذه الأصناف يورثهم
بفضله وكرمه ، وقد بين النبي ﷺ ذلك بقوله : لا يسئل أحد منكم
الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن
يتغمثنى الله برحمته ،^(١) .

أما قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل]
فهذا خاص بمجرد دخول الجنة ، أما الزيادة فهي من فضل الله
﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء]

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٢) ، وكذا مسلم في صحيحه
(٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

ومن أسمائه تعالى (الوارث) وقال ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٨٩)
[الأنبياء] فماذا يرث الحق سبحانه وتعالى منا ؟

لقد خلق الله الخلق ، وأعطى للناس أسباب ملكيته ، ووزع هذه الملكية بين عباده . هذا يملك كذا ، وهذا يملك كذا من فضل الله تعالى فإذا كان يوم القيامة عاد الملك كله لى صاحبه ، وكان الحق سبحانه وتعالى هو الوارث الوحيد يوم يقول : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٩٦) [غافر]

والله خير الوارثين : لأن الوارث يأخذ ما ورثه ليقتفع هو به ، لكن الحق سبحانه يرث ما تركه للغير ليعود خيره عليهم ويزيدهم ، ويعطيهم أضعافاً مضاعفة ، وإذا كان يعطيهم فى الدنيا بأسباب فإنه فى الآخرة يرث هذه الأسباب ، ويعطيهم من فضله بلا أسباب ، حيث تعيش فى الجنة مستريحاً لا تعب ولا نصب ولا سقى ، وما يخطر ببالك تجده بين يديك دون أن تحرك ساكناً .

إذن البشر يرثون ليأخذوا ، أما الحق سبحانه فيرث ليعطى ، لذلك فهو خير الوارثين .

فأى شيء يرثه المؤمنون الذين توفرت فيهم هذه الصفات ؟
يجيب الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١١)

إذن - الحق سبحانه ورثهم فى الفانية ليعطيهم الفردوس الخالد فى الآخرة ، والفردوس أعلى الجنة ، فورث الحق لينفع عباده ويُصعد النفع لهم ، وفى الدنيا كما ينتفع بالأسباب ، وفى الآخرة تنتفع بغير أسباب ، الحق ورث ليعطى ، لا مثل ما أخذ إنما فوق ما أخذ : لأننا

نأخذ في الميراث ما يفنى ، والله تعالى يعطينا في ميراثه ما يبقى .

لكن مَعْنُ يرثون الفردوس ؟

قالوا ، الحق - تبارك وتعالى - عندما خلق الخلق ، وجعل فيهم الاختيار بين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية رتباً على ذلك لصوراً ، فجعل الجنة على فرض أن الخلق كلهم مؤمنون ، بحيث لو دخلوا الجنة جميعاً ما كانت هناك أزمة أماكن ولا زحام ، وكذلك جعل النار على فرض أن الخلق كلهم كافرون ، فلو كفر الناس جميعاً لكان لكل منهم مكانه في النار .

وعليه فحين يدخل أهل الجنة الجنة يتركون أماكنهم في النار ، وحين يدخل أهل النار النار يتركون أماكنهم في الجنة ، فيرث أهل النار الأماكن الشاغرة فيها ، ويرث أهل الجنة الأماكن الشاغرة فيها

والفردوس أعلى مكان في الجنة ، لذلك كان النبي ﷺ يقول :
« إذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة »^(١)
ذلك ، لأن الفردوس جنة على أعلى ربوة في الجنة يعني في مكان مميز منها ، والعلى في مسألة المسكن والجنان أمر محبوب في الدنيا ، الناس يحبون السكنى في الأماكن العالية ، حيث نقاء الهواء ونقاء الماء ، ألا تراهم يزرعون في المرتفعات ، وإن كانت الأرض مستوية يجعلون فيها مصارف منخفضة تمتص الماء الزائد الذي يفسد الزرع ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ كَمْثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ ﴾ (٢٦٥) ﴿

[البقرة]

كذلك الأرض المرتفعة لا تُسقى بالماء القمر ، إنما تُسقى من ماء

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٥/٢ ، ٣٣٩) ، والبخاري في صحيحه (٧٤٣٣) من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه

السماء الذى يفسد الاوراق قبل ان يروى الجذور ، فيكون النبات على افضل ما يكون ، لذلك يقول عنها رب العزة : ﴿ فَآتَتْ أُكْلَهَا ضَعْفَيْنِ ﴾ (٢٦٤) [البقرة]

ومعلوم ان الاوراق هي رمة النبات ، وعليها تقوم عملية التمثيل الضوئى التى يصنع منها النبات غذاءه ، فإذا ما سُدَّتْ مسام الاوراق وتركتم عليها القبار فمن ذلك يُقْلَل من قدرة النبات على التنفس ، مثل الإنسان حينما يُصَاب بشيء فى رفته تزعجه وتُقَلل من كفاءته .

وفى الفردوس ميزة أخرى هي أن الحق سبحانه وتعالى هو الذى غرس شجرها بيده ، كما كَرَّمَ آدم عليه السلام فخلقه بيده تعالى ، فقال ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِإِيدِي . ﴾ (٧٥) [س]

ويروى أن الحق - تبارك وتعالى - لما خلق الفردوس ، وغرس أشجارها بيده قال للفردوس^(١) : تكلمى ، فلما تكلمت الفردوس قالت : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون]

ثم يقول تعالى : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١١) [المؤمنون] لأن نعيم الجنة باقٍ ودائم لا ينقطع ، وقسم عرفنا أن نعيم الدنيا موقوت مهمل أوتى الإنسان منه ، فإنه منقطع زائل ، إما أن يتركه بالفقر والحاجة ، وإما أن يتركه أنت بالموت ، لذلك يقول تعالى فى نعيم الآخرة ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ (٣٢) [الواقعة]

ومكنا نلاحظ على استهلال هذه السورة أن الحق سبحانه بدأ بالكلام عن الفلاح فى الآخرة كأنه قدّم ثمرة الإيمان أولاً ، ووضع

(١) أخرجه الحاكم من مستدركه (٢/٢٩٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال ﷺ : « خلق الله الجنة عدن ، وغرس أشجارها بيده فقال لها : تكلمى ، فقالت : قد أفلح المؤمنون . » قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبي فى التلخيصه بل ضعيف

الجزء بداية بين يديك كأنه سبحانه يقول لك . هذا جزء من آمن بي
وانتبع منهجي . كما جاء في قوله تعالى في استهلال سورة (الرحمن) .
﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾
[الرحمن] كيف وقد خلق الله الإنسان أولاً ، ثم علمه القرآن ؟

قالوا : لأن الذي يصنع صنعة يضع لها قانونها . ويحدد بها
مهمتها أولاً قبل أن يشرع في صناعتها . فمثلاً - والله أعلم -
الذي يصنع التلاجة . قبل أن يصنعها حدد عملها ومهمتها وقانون
صيانتها والغاية منها

والقرآن هو منهج الإنسان . وقانون صيانتها في حركة الحياة .
لذلك خلق الله المنهج ووضع قانون الصيانة قبل أن يخلق الإنسان .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝﴾

سبق أن تكلمنا عن خلق الإنسان ، وعرفنا أن الخالق - عز
وجل - خلق الإنسان الأول . وهو آدم عليه السلام من طين . ومن
أبعاضه خلق زوجته . ثم بالتزاوج جاء عامة البشر كما قال تعالى :
﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۝﴾
[النساء]

ومسألة خلق السماء والأرض والناس مسألة احتفظ الله بها . ولم
يطلع عليها أحد . كما قال سبحانه : ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَجِدَّ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا ۝﴾ [الكهف]

فلا تُصع إلى هؤلاء المضلين في كل زمان ومكان ، الذين يدعون
العلم والمعرفة ، وتسمعهم يقولون : إن العالم كان كتلة واحدة تدور
بسرعة فانفصل عنها أجزاء كونت الأرض . الخ وعن الإنسان

يقولون : كان أصله قدراً ، إلى آخر هذه الفقرات التي لا أساس لها من الصحة .

لذلك أعطانا الله تعالى المناعة الإيمانية التي تحمينا أن ننساق خلف هذه النظريات ، فأخبرنا سبحانه خبر هؤلاء وحقرنا منهم ؛ لأنهم ما شهدوا شيئاً من الخلق ، ولم يتخذهم الله أعواناً فيقولون مثل هذا الكلام . إذن - هذا أمر استأثر الله بعلمه ، فلا تأخذوا علمه إلا مما أخبركم الله به .

وكلمة الإنسان اسم جنس تطلق على المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث فكل واحد منا إنسان ، يدلل أن الله تعالى استثنى من المفرد اللفظ جمعاً في قوله تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)﴾ [العر] فاستثنى من المفرد الجماعة

ومعنى ﴿خَلَقْنَا (١٢)﴾ [المؤمنون] أوجدت من عدم ، وسبق أن قلنا إن الله تعالى أثبت للبشر صفة الخلق أيضاً مع الفارق بين خلق الله من عدم وخلق البشر من موجود ، وخلق الله فيه حركة وحياة فينمو ويتكاثر ، أما ما يخلق البشر فيجسد على حالة لا يتغير ، لذلك وصف الحق سبحانه ذاته فقال .

﴿فَبَارِكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْعَالَمِينَ (١١)﴾ [المؤمنون]
أما قول القرآن حكاية عن عيسى عليه السلام - ﴿أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ (٢٩)﴾ [ال عمران] فهذه من خاصياته عليه السلام ، والإيجاد فيها بأمر من الله يُجرى على يد نبيه .

فالمعنى . ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ (١٢)﴾ [المؤمنون] أى . الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام ﴿مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾ [المؤمنون] والسلالة : خلاصة الشيء تُسَلُّ منه كما يُسَلُّ السيف من غمدته أى .

الجواب الذى يوضع فيه ، فالسيف هو الأداة الفتاكة الفاعلة أما
الغمد فهو مجرد حافظ وحامل لهذا الشيء الهام .

فالسلالة - إذن - هي أجود ما فى الشيء ، وقد خلق الله الإنسان
الاول من أجود عناصر الطين وأنواعه ، وهي زبد الطين ، فلما أخذت
قبضة من الطين وضغطت عليها بين أصابعك يتفلت منها الزبد ، وهو
أجود ما فى الطين ويبقى فى قبضتك بقايا رمال وأشياء خشنة .

ولما أحب سيدنا حسان بن ثابت أن يهجو قريشاً لمعاداتهم
رسول الله ﷺ قال : « إذن لى يا رسول الله أن أهجوهم من على
العنبر فقال ﷺ : « أتجهوهم وأنا منهم ؟ » فقال حسان : أسلك منهم
كما تسلك الشجرة من العجين^(١) .

وتخلق السلالة على الشيء الجيد فيقولون فلان من سلالة كذا ،
وفلان سليل المجد يعنى فى مقام المدح ، حتى فى الخيل
يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة ويسجلون لها شهادات ميلاد
تثبت أصالة سلالتها ، ومن هنا جاءت شهرة الخيل العربية الأصيلة

وقد أثبت العلم الحديث صدق هذه الآية ، فبالتحليل المعملى
التجريبى أثبتوا أن العناصر المكونة للإنسان هي نفسها عناصر
الطين ، وهي ستة عشر عنصراً ، تبدأ بالأكسوجين ، وتنتهى
بالمغنيز ، والفراد هنا التربة الطينية الخصبة الصالحة للزراعة ، لأن
الأرض عامة بها عناصر كثيرة قللوا : مائة وثلاثة عشر عنصراً

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَّكِينٍ ﴾

(١) لفرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٢١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٨٩) من شيوخهما
عثمان بن أبى-شعبة بسنده إلى عائشة رضى الله عنها

ومن عجائب قدرة الله في تكوين الإنسان أن المرأة إذا لم تعمل ينزل عليها دم الحيض ، فإذا ما حملت لا ترى الحيض أبداً ، لماذا ؟ لأن هذا الدم ينزل حين لم تكن له مهمة ولا تستفيد به الأم ، أما وقد حدث الحمل فإنه يتحول بقدرة الله إلى غذاء لهذا الجنين الجديد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ۖ (١٣) ﴾ [المؤمنون] وهي قطعة صغيرة من اللحم على قدر ما يُمضَغ ، وسبق أن قلنا إن المضة تنقسم بعد ذلك إلى مُخَلِّقَة وغير مُخَلِّقَة ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لُبِّينَ لَكُمْ ۖ (١٤) ﴾ [الحج] هذا على وجه التفصيل ، أما في الآية التي معنا فيُحَدِّثُنا عن أطرار الخلق عامة ، حتى لا نظن أن القرآن فيه تكرار كما يدعى البعض .

المضغة المخلقة هي التي يتكوّن منها جوارح الإنسان وأعضاؤه ، وغير المخلقة تظل كما قلنا : احتياطياً لصيانة ما يتلف من الجسم ، كما يحدث مثلاً في الجروح وما شابه ذلك من عطب يصيب الإنسان ، فتقوم غير المخلقة بدورها الاحتياضي .

ثم يقول تعالى ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَرْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۖ (١٥) ﴾ [المؤمنون] لأنه كان في كل هذه الأطوار : النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، ثم العظام واللحم ما يزال قابلاً لأمه متصلاً بها ويتغذى منها ، فلما شاء الله له أن يُولَدَ ينقصل عن أمه ليباشر حياته بذاته ؛ ولذلك نجد لحظة انفصال الجنين عن أمه في

عملية الولادة مسألة صعبة ؛ لأن سيستقبل حياة ذاتية تستلزم أن تعمل أجهزته لأول مرة ، وأول هذه الأجهزة جهاز التنفس .

ومن رحمة الله بالجنين أن ينزل برأسه أولاً ليستطيع التنفس ، ثم يخرج باقى جسمه بعد ذلك ، فإن حدث العكس ونزل برجليه فربما يموت ، لأنه انفصل عن تربيته لأمه ، وليس له قدرة على التنفس يستفظ بحياته الذاتية الجديدة ؛ لذلك فى هذه الحالة يلجأ الطبيب إلى إجراء عملية قيصرية لإنقاذ الجنين من هذا الوضع ، وقبل أن يعتقد .

ولما كانت مسألة خلق الإنسان فيها كثير من العبر والآيات ودلائل القدرة طوال هذه المراحل التى يتقلب فيها الإنسان ، ناسب أن نختم الآية بقوله تعالى ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون] لأنك حين تقف وتتأمل قدرة الله فى خلق الإنسان لا تملك إلا أن تقول : سبحان الله ، تبارك الله الخالق .

لذلك يروى أن رسول الله ﷺ حينما قرأ هذه الآية سبق عمر فقال (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال ﷺ لىكاتب : اكتبها فقد نزلت^(١) ، لأنها لتفعل طبعى لقدرة الله ، وعجيب صنعه ، وبديع خلقه ، وهذا نوح من التجاوب بين السليقة العربية واللسان العربى وبين أسلوب القرآن الذى جاء بلسان القوم .

(١) أثر عمر ، أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن قتيبة عن صالح أبى الخليل أن رسول الله ﷺ قال : « ولذى نفسى بيده » [إنها ختمت بلذى تكلمت يا عمر » [أوردته السيوطى فى قدر المنثور ٩٢/٦]

ويقول : إن سيدنا معاذ بن جبل نطق بها أيضاً^(١) ، وكذلك نطق بها رجل آخر هو عبد الله بن سعد بن أبي السرح^(٢) ، مع اختلاف في نتيجة هذا النطق : لما نطق بها عمر ومعاذ رضي الله عنهما كان استحساناً وتعجباً ينتهي إلى الله ، ويُقَرَّر له سبحانه بالقدرة وبديع الصنوع .

أما ابن أبي السرح فقد قالها كذلك تعجباً ، لكن لما وافق قوله قول القرآن أعجب بنفسه ، وادعى أنه يُوحى إليه كما يُوحى إلى محمد ، ولم لا وهو يقول كما يقول القرآن ، ومع ذلك هو ما يزال مؤدباً يدعى مجرد أنه يوحى إليه ، لكن زاد تعاليه وجَّره غروره إلى أن قال : سأُنزل مثلاً أنزل الله ، فليس ضرورياً وجود الله في هذه المسألة ، فارتدَّ والعياذ بالله بسببها ، وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّخَذَ إِلَهًا كَذِبًا أَوْ قَالَ أُرْسِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ... ﴾ (١١) [الأنعام]

وخلل ابن أبي السرح إلى فتح مكة حيث شفع فيه عثمان رضي الله عنه عند رسول الله ﷺ ، فلما رأى رسول الله حُرَّصَ عثمان عليه سكت ، ولم يقل فيه شيئاً ، وعندها أخذه عثمان رضي الله عنه

(١) أثر معاذ بن جبل كحرج ابن عمرو وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : أُمِّي حُرِّصَ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلَاةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ (١١) [المؤمنون] إلى قوله ﴿ ذَلِكَ آخِرُ... ﴾ (١١) [المؤمنون] فقال معاذ بن جبل : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضجعت رسول الله ﷺ ، فقال له معاذ : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : إنها ختمت ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١١) [المؤمنون] .

(٢) هو عبد الله بن سعد بن أبي السرح القرشي العامري ، من بني عامر بن لؤي ففتح أفريقية ، أسلم قبل فتح مكة ، كان من كتَّاب الوحي ، وكلَّ طي سبعة عمرو بن العاص حين افتتح مصر وولَّيها بعده لمدة ١٢ عاماً ، نالت له أفريقية كلها وهزم الروم في معركة ذات الصواري ، عام ٢٤ هـ . توفي عام ٢٧ هـ . [الإعلام للزركلي ٨٩/١] .

وانصرف ، فقال النبي ﷺ فصابعه : « أما كان قبكم من يُحهر عليه ؟ » فقالوا : يا رسول الله لئلا أومات لئلا يرأسك ؟ يعني : أشرت إلينا بهذا ، انظر هنا إلى منطق النبوة ، قال ﷺ : « لا ينبغي أن يكون لنبي خاتمة الأعين »^(١) يعني : هذا تصرف لا يليق بالأنبياء فلو فعلتموها عن أنفسكم كان لا بأس .

ثم بعد ذلك تحمل بركة عثمان على ابن أبي السرح فيؤمن ويحسن إسلامه ، ثم يؤلى مصر ، ويقود الفتوحات في إفريقيا ، ويتقلب على الضجة التي أثاروها في بلاد النوبة ، وكان الله تعالى كان يدخره لهذا الأمر الهام

وبعد هذه العجائب التي رأياها في مراحل خلق الإنسان وخرجه إلى الحياة والإقرار لله تعالى بأنه أحسن الخالقين ، يذكّرنا سبحانه بأن هذه الحياة لن تدوم ، فيقول تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ كَرُّبَعْدَ ذَلِكَ لَمِيَّتُونَ ﴾ ١٥

والك أن تسأل كيف يُحدثُ الحق - تبارك وتعالى - عن مراحل الخلق ، ثم يُحدثنا مباشرة عن مراحل الموت والبعث ؟
نقول : يعطيهما الله تعالى معاً لتستقبل الحياة وهي النّهن وهي الذاكرة ما ينقض هذه الحياة ، حتى لا نتعالى ولا تغفل عن هذه النهاية ولنكن على بالك ، فترتب حركة حياتك على هذا الأساس .

(١) إخرجه ابن داود في سننه (٢٦٨٤) . والسنن في سنة (٦/٧) من حديث سعد بن أبي وقاص ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « أما كان قبكم من يُحهر عليه ؟ يعني : أشرت إلينا بهذا ، انظر هنا إلى منطق النبوة ، قال ﷺ : « لا ينبغي أن يكون لنبي خاتمة الأعين »
أومات إليها بعينك قال : « إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خاتمة الأعين »

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى . ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ ﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبَيِّنَ لَكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا . ٢ ﴿ [الملك] كَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَنْعَى إِلَيْنَا أَنْفُسَنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ فِينَا الْحَيَاةَ ، وَقَدَّمَ الْمَوْتَ عَلَى الْحَيَاةِ حَتَّى تَسْتَقْبِلَ الْحَيَاةُ وَتَسْتَقْبِلَ قَبْلِهَا الْمَوْتَ الَّذِي يَنْقُضُهَا فَلَا تَفْتَرُ بِالْحَيَاةِ ، وَتَعْمَلُ لَهَا بَعْدَ الْمَوْتِ .

وقد خاطب الحق - سبحانه وتعالى - نبيه ﷺ بقوله . ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ٣ ﴾ [الزمر] البعض يظن أن مَيِّتٌ بالتشديد يعنى مَنْ مَاتَ بالفعل ، وهذا غير صحيح ، فالمَيِّتُ بتشديد الياء هو ما يؤول أمره إلى الموت ، وإنْ كَانَ ما يَزَالُ عَلَى تَيْدِ الْحَيَاةِ ، فكُنَّا بِهَذَا الْمَعْنَى مَيِّتُونَ ، أَمَّا الَّذِي مَاتَ بالفعل فهو مَيِّتٌ بِسُكُونِ الْيَاءِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ ^(١) .

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاخَ بِعَيْتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ ^(٢)
ومعنى . ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ٤ ﴾ [المؤمنون] يعنى : بَعْدَ أَطْوَارِ الْخُلُقِ الَّتِي تَقْدَمَتْ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ مِنَ الطِّينِ إِلَى أَنْ قَالَ سُبْحَانَهُ . ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ٥ ﴾ [المؤمنون]

والماتل في هذه الآية وهو تُصَدِّثُنَا عَنْ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْكُرُهُ أَحَدٌ وَلَا يَشْكُ فِيهِ أَحَدٌ ، وَمَعَ ذَلِكَ أَكْثَرُهَا الْحَقُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِإِدَاتَيْنِ مِنْ أَدَوَاتِ التَّوَكُّيدِ : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَمَيِّتُونَ ٦ ﴾ [المؤمنون] فَأَكْثَرُهَا بِإِنْ وَبِالْإِلَامِ ، وَمَعْنُومٌ أَنَّنَا لَا نَلْجَأُ إِلَى التَّوَكُّيدِ إِلَّا حِينَ يَوَاجِبُنَا مَنكَرٌ ، فَيَأْتِي التَّأَكُّيدُ عَلَى قَدَرِ مَا يَوَاجِبُكَ مِنْ إِنْكَارٍ ، أَمَّا خَالِي الذِّهْنِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَوْكِيدٍ .

(١) هو - عدى بن الرصاة النخعي - شاعر جاهلي ، اشتهر بنسبه إلى أمه ، وصاح اسم أبيه . [الأملام للزركلي ٤ / ٢٢] .

(٢) ذكره ابن منظور في لسان العرب - مادة موت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا
عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

يلحظ أن للعبد سبعة موافق في هذه السورة وأمراراً يجب أن
نتأملها ، ففي استهلال السورة ذكر سبحانه سبعة أصناف ﴿أَفَلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ...﴾ [المؤمنين]

وفي مراحل خلق الإنسان نجده مرّ بسبعة أطوار : سلالة من
طين ، ثم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم لحماً ، ثم
إنشأناه خلقاً آخر

وهنا يقول ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ...﴾ [المؤمنين]
وفي موضع آخر قال ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ
مِثْلَهُنَّ...﴾ [الطلاق]

فهذه سبعة للعاية ، وسبعة للمقاييس ، وهو الإنسان ، وسبعة
للسماوات والأرض المخلوقة للإنسان

وطرائق جمع طريقة أي مطروقة للملائكة ، والشيء المطروق
ما له حجم يتمسك بالطريق ، كما تطرق قطعة من الحديد مثلاً ، فانظر
إلى السماء واتساعها ، وقل سبحانه من طرقها .

ونلاحظ أن الحق سبحانه لم يذكر هنا الأرض ، لماذا ؟ قلوا .
لأن الأرض ثقيل عليها ثابتين لا تخاف من شيء ، إنما الخوف من
السماوات أن تنفك فوقنا ، لذلك يقول سبحانه بعدها : ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ

الْعَلَقِ غَالِبِينَ ﴿١٧﴾ [المؤمنون] فلن نغفر عن السماء من فوقكم .
وسوف نُمسِكُها بأيدينا ، كما قال سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُصِيبُ
السُّمُونَةَ وَالْأَوْحَاطَ أَنْ تُقْوِلُوا وَلَئِنْ آتَيْنَا مِنْكُمْ هَاجِرًا مِّنْ أَحَدٍ مِّنْ
بَعْدِهِ...﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾

ثم يعطيا الحق - تبارك وتعالى - الدليل الحسى على هذه الآية .
وكيف أن هذه تعالى رقع السماء فوقنا بلا عمد ، ومثل تلك الطير
يُمسِكُها في السماء ﴿أَرَأَيْتُمْ يَوْمًا إِذَا اتَّخَذُوا طَيْرَهُمْ حِصَانًا وَيَقَعْنَ مِمَّا
يُمسِكُهُمْ إِلَّا الْوُحُوشُ حِرْبًا﴾ [الحشر] .

تطمئن أن الطير يثبتون إلى السماء تحركة الجناحين التي تدفع الهواء
وتقاوم الجاذبية فلا يسقط ، كما يصباح الذين يرفعون ذراعهم إلى السماء
ليسبح ، فإذا ما قبض الطائر بجناحيه ومع ذلك يظل معلقا في السماء
لا يسقط فحينئذ يُمسِكُها في هذه الحالة ، هذه مصورة تشاهدونها
لا يشبه فيها أحدا ، فإذا قلت لحكم إلى إمامكم المسيحي أن تقع على
الأرض فصدقوا وأمينوا ، واستدلوا على الخبيث بالمشاهد .

وكان الحق سبحانه عن قوله ﴿وَمَا كُنَّا مِنَ الْخَلْقِ غَالِبِينَ﴾ ﴿١٧﴾
[المؤمنون] يقولون : «أطعنوا إلى السماء من فوقكم ، فقد جعلت لها
التأمينات اللازمة التي تؤمن مصيبتكم تحت سفلتها ، أطعنوا لامها
بأيدينا وفي حمايتها» .

لكن ما المرات بقوله ﴿عَنِ الْخَلْقِ﴾ ﴿١٧﴾ [المؤمنون] هو الإنسان
أم خلق السماء ؟ المذرك . ما كنا غَالِبِينَ عن خلق السماء ، غيبتها
على توحيات ونظم مصيبتكم وتضمن سلا متكم .

والغلة ترك شيء لأنه غاب عن البال ، وهذه مسألة لا تكون
أبدا في حق الله - عز وجل - لأنه لا تأخذه سنة ولا نوم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ
وَلِنَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى عن الماء : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون] فهو الماء مقرر السماء ؛ لا ، الماء مقرر الأرض ، كما جاء في قول الله تعالى . ﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَامٍ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ﴾ [فصلت]

لما استدعى الخالق - عز وجل - الإنسان إلى هذا الوجود جعل له في الأرض مقومات استبقاء حياته من الهواء والقوت والماء ، والإنسان كما قلنا يستطيع أن يصبر على الطعام ، وصبره أقل على الماء ، لكن لا صبر له على الهواء ؛ لذلك شاءت قدرة الله ألا يملكه واحد ؛ لأنه مقوم الحياة الأول ، فالغلاف الجوي والهواء المحيط بالأرض تابع لها وجزء منها داخل تحت قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴿٩﴾ ﴾ [فصلت] بدليل أنهم حينما يخرجون عن نطاق الأرض يمتنع الهواء .

ومن حكمة الخالق - عز وجل - وقدرته أن جعل الماء على الأرض مائلاً ؛ لأن المصح أساس في صلاح الأشياء التي يطرأ عليها الفساد ، فالماء العذب عرضة للتغير والعطن ، وبالمطبخ نصلح ما نخشى تغييره فنضعه على الطعام ليحفظه ونستخدمه في دباغة الجلود .. الخ

لذلك قال الشاعر :

يَا رِجَالِ الدِّينِ يَا مِلْحَ الْبَلَدِ مَنْ يُصْلِحِ الْمِلْحَ إِذَا الْمِلْحُ فَسَدَ

[إذن . أصل الماء في الأرض ، لكن ينزل من السماء بعد عملية التبخر التي تُصفيه فينزل عذباً صالحاً للشرب وللري ، قلنا إن الخالق سبحانه جعل رقعة الماء على الأرض أكبر من رقعة اليابسة حتى تتسع رقعة البحر ، ويتكون المطر الذي يكفي حاجة أهل الأرض

ومن رحمة الله بنا أن ينزل الماء من السماء ﴿يَقْضِرُ﴾ (١٨) [المؤمنون] معنى : بحسب رطب قدر الحاجة ، فلو نزل مكثاً مرة واحدة لأصبح طوفاناً مُدمراً ، كما حدث لقوم نوح ولأهل مارب . وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عَدَّتْ حَرَاتُهُ وَمَا نُنَزِّلْهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١) [الحجر]

ثم يقول سبحانه ﴿فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ..﴾ (١٨) [المؤمنون] لاندأ نأخذ حاجتنا من ماء المطر ، والباقي يتسرب في باطن الأرض ، كما قال سبحانه ﴿فَسَلَكَهُ بَنَائِعَ فِي الْأَرْضِ﴾ (٢١) [الزمر] ومن عجب قدرة الله في المياه الجوفية أنها تسير في مسارب مختلفة ، بحيث لا يختلط الماء العذب بالماء المالح مع ما يتميز به الماء من خاصية الاستطراق ، والعاسون في مجال حفر الآبار يجدون من ذلك عجائب ، فقد يجدون الماء العذب بجوار المالح ، بل وفي وسط البحر لأنها ليست مستطرفة ، إنما تسير في شعيرات ينفصل بعضها عن بعض .

والمياه الجوفية مخزون طبيعي من الماء يُخرجه عند الحاجة ، ويُسمعنا إذا نُضِبَ الماء العذب الموجود على السطح ﴿فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ..﴾ (١٨) [المؤمنون] ليكون احتياطياً لحين الحاجة إليه . فإذا جفَّ المطر تستطيعون أن تستبطلوه .

ثم يُدْكِرنا الحق سبحانه بقوته على سلب هذه النعمة ﴿وَأَنَّا عَلَىٰ ذُقَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ (١٧٨) [المؤسسون] يعني سيريرا في هذه النعمة سيرا لا يُعْرِضُهَا لِلزَّوْلِ ، وقال في موضع آخر ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ نَارُكُمْ هُودًا فَتَرَىٰ بَأْتِكُمْ مَاءٌ يُعْبِرُ﴾ (١٧٩) [المك]

وحين تُعَدُّ نعم الله التي أمثَقَ علينا بها بداية مع نعمة المياه ، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ (١٨٠) [المؤسسون] تجدها أيضا سبعة ، ويبدو أن لهذا العدد أسراراً في هذه المصورة ، فقد ذكر من أوصاف المؤمنين سبعة ، ومن مراحل خلق الإنسان سبعة ، ومن السماء والأرض سبعة ، وهذا يذكر من نعمه علينا سبعة ، لذلك كان العلماء وقفات عند هذه العدد بالذات ،

وأذكر ونحن في المملكة السعودية وكنت أستاذاً في كلية الشريعة وعلى بعض الأساتذة روتيس بعثت الشيوخ فكي غيث ، رحمه الله وغفر الله له ، ورئيس بعثة المعارف الأستاذ صلاح بك الباقر ، وكان دائماً ما يجلس معنا شيوخ علماء المملكة في هذا الوقت السيد إسحق عزوز ، وكان يجمعنا كل ليلة للفندق للنش فقيم فيه ، وكنا نتبارس بعض قضايا العلم ،

وقد أثار الشيخ إبراهيم عطية قصة هذا العدد في القرآن الكريم ، وكان يقرأ في تاصير القرطبي كوثجد فيه ، قال عمر بن الخطاب لابن عباس يا ابن عباس أتتفرق متى ليلة القدر ؟ فقال ابن عباس أظن الظن أنها ليلة الصامع والعشورين ، فلما سمعنا هذه الكلام قلنا ، هذه سبعة ، وهذه سبع وعشرون ، فلما اختلعتنا اقترح علينا الشيخ محمد أبو علي - أطل الله عمره - أن نذهب لنصلي في الحرم قبل أن نحلى في الفندق عملاً بسنة رسول الله ﷺ ، وقد كان كلما توجه أمر يقوم

إلى الصلاة ، وقتها يفتح الله علينا في هذه الصلاة

وبعد أن صلينا جلسنا معاً في هذه الصلاة ، فإذا رجل لا نعرفه على سمة المجاذيب غير أنهم بنفسه ، يجلس بجرارنا ويُنصت لما نقول ، ثم شاركنا الكلام وقال أقم يقن رسول الله ﷺ ، التمسوها في العشر الأواخر من رمضان ،^(١) إذن فدعكم من العشرين يوماً ، واحسبوا في العشر الأواخر ، ثم نظرنا فم نهده ، كأن وحدة الرمن التي توجد بها ليلة القدر هي هذه العشر ، وكأنها بهذا المعنى ليلة السابع وهذه أيضاً من أسرار هذا العدد ﴿ وَقُولْ كُلِّ ذِي عِلْمٍ نَحْمَدُكَ ﴾ (٧٦)

[يوسف]

أطال الله في عمر من بقي من هؤلاء ، وفقر الله لمن ذهب .
ثم يقول الحق سبحانه

﴿ فَأَشَانَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ تَحْتِهَا أَعْنَابٌ
لَكُمْ فِيهَا خُرُوجٌ كَبِيرٌ وَمِنْهَا قَائِلُونَ ﴾

الجنة المكان الطيب بالاشتراك المطبق والمزروعات التي تستمر من يسهر فيها ، أي تستمر في الخارج ، فلا يحتاج في متطلبات حياته إلى غيرها ، فهي من الكمال بسبب تكبها ، فلا يخرج منها . واختار هذه الأنواع ﴿ نُخِيلُ وَأَعْنَابٌ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ (١٦) [المؤمنين] لما لها من منزلة عند العرب ، وقال ﴿ فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ (١٦) [المؤمنين] لأنه لم يحصر جميع الأنواع .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٢١) من حديث ابن عباس ، وأخرجه مسلم في صحيحه (١٦٦٦) كتاب الصيام من أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : ترب ليلة القدر ، ثم أضافني بعض أهل التفسير ، فالتسوها في العشر الأخيرة .

وَمِنْ شَجَرَةِ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ
بِالدُّهْنِ وَصَبِغٍ لِّلْأَكْلِينَ ﴿٢٠﴾

الطور : جبل منسوب إلى سيناء ، وسيناء مكان حسن ، لأن الله بارك فيها ، والطور كلم الله عليه موسى . فهو مكان مبارك ، كما بارك الله أرض بيت المقدس فقال ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء] ومعنى ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ [٢٠] ﴿ المؤمنون ﴾ الدهن هو الدسم ، والمركب هنا شجرة الزيتون التي يستخرجون منها الزيت المعروف ﴿ وَصَبِغٍ لِّلْأَكْلِينَ ﴾ [٢٠] ﴿ المؤمنون ﴾ يعني : يتخذونه إداماً يغمسون فيه الخبز ويأكلونه ، وهو من أشهى الاكلات والدُّهْن عند مَنْ يزرعون الزيتون في سيناء وفي بلاد الشام ، وقد ذُقْنَا هذه الاكلة الشهيرة في لبنان ، عند زهينا إليها في موسم حصاد الزيتون .

وَأَن لَّكَ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّمَن كَانَ فِي بُطُونِهَا وَلَكَرْفِيهَا
مَنْفَعٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾

الانعام . يُراد بها الإبل والبقر ، والحق بالبقر الجاموس ، ولم يُذكر لأنه لم يكن موجوداً بالبيئة العربية ، والغنم وتشتمل الضأن والمامز ، وفي سورة الانعام يقول تعالى ﴿ نِعْمَانِيَّةُ أَزْوَاجٍ مِّنَ النَّعَامِ الَّتِي وَمِنَ الْمَعْرِائِي . . ﴾ [٢١] [الانعام]

ويقال فيها أنعام ونعم (بفتح النون والعين) .

والعبرة . شيء تعتبرون به وتستدلون به على قدرة الله وبديع صنعه في خلق الانعام .

لكن ، ما العبرة في خلق هذه الأنعام ؟ الحق - سبحانه وتعالى -
تكلم عن خلق الإنسان ، وأنه تعالى خلقه من صفوة وحلاصة وسلالة
من الطين ومن النطفة ، وهكذا في جميع أطوار خلقه . وفي الأنعام ترى
شيئاً من هذا الاصطفاء والاختيار ، فالأنعام تاكل من هنا وهناك وتجمع
هتى الأنواع من المأكولات ، ومن هذا الخليط يخرج القرث ، وهو ممتن
لا تطبيق راحته ويتكون دم الحيون ، ومن بين القرث والدم يصفى لك
الخالق - عز وجل - لبناً خالصاً ، وهذه سلالة أيضاً وتصفية

قل تعالى . ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ
مِنْ قُرْثٍ ^(١) وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل]

ونلاحظ أن الآية التي معنا تقول . ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ [٢٦]
[المؤمنون] وفي آية النحل : ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ [٦٦] [النحل] ذلك
لأننا نأخذ اللبن من إناث الأنعام ليس من كل الأنعام ، فالمعنى ﴿ مِمَّا
فِي بُطُونِهَا ﴾ [٢٦] [المؤمنون] أى . الإناث منها و ﴿ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ [٦٦]
[النحل] أى : بطون المعز ؛ ولذا عاد الضمير مذكراً

وقوله ﴿ نُسْقِيكُمْ ﴾ [٢٦] [المؤمنون] من سقى . وفي موضع آخر
﴿ فَأَسْقِيَنَا كُمْرَهُ ﴾ [٢٦] [الحجر] من الفعل أسقى . البعض يقول إنهما
مترادفان ، وهما ليسا كذلك لأن لكل منهما معنى ، فسقى يعنى أعطاه
الشراب ، أما أسقى فيعنى جهز له ما يشربه لحين يجب أن يشرب ^(٢)

(١) القرث ما من لكرش من طعام مخبرم متغير كربه القراصة [القاموس القريم
٧٤/٢]

(٢) قل الضراء . العرب تقول لكل ما كان من بطون الأنعام ومن السقاء أو ظهر جحرى لقوم
أسقى . فإذا سقاه ماء . لشفاه قالوا سقاه ولم يقولوا أسقاه . كما قال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ
رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [٣٥] [الإنسان] . وربما قالوا لما فى بطون الأنعام ولحم السقاء سقى
واسقى [لسان العرب - مادة سقى] .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه من شواب الجنة . قال ﴿ وَحَلُوا
أَصَابِرَ مِنْ قِطْعَةٍ وَمَقَاهِمَ مِنْهُمْ خِرَافَةً ظَهَرُوا ﴾ (١٦) [الاسين]

ولما تكلم عن ماء الحنظل قال سبحانه ﴿ وَكَرُسْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ
لِنُزُلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُطْبِقُ الْغُصَّةَ وَمَا أَهْمُ لَهُ بِخَائِبِينَ ﴾ (١٧) [الحجر]
يعنى جعله في مستودع لعين الحاجة اليه

كما قلنا في (مَرَصِع) بالكسر . و (مَرَضِع) بالفتح . فمرضع
بالكسر للتي ترضع بالفعل . ومنه قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَرُوءُهَا تَدَحَّلُ كُلُّ
مَرَضِعَةٍ فَمَا أَرْضَعَتْ ﴾ (١٨) [الحج]

أما مرصع بالفتح . فهي الصالحة للرضاعة

ثم يقول تعالى ﴿ رَلَّكُمْ فِيهَا مَنَافِعَ كَثِيرَةً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (١٩)
[الاسود] فلاحظ أن آية الحنظل ركزت على مسألة تصفية اللبن من بين
لرث ودم . أما هنا فقد ركزت على منافع أخرى للأسهام . فكل آية
تأخذ جانباً من الموضوع . وتتناوله من زاوية خاصة . فوضح ذلك
لنن يقولون بالتكرار في القرآن الكريم . فأكايات في الموضوع الواحد
ليست تكراراً : إنما هو تأسيس بقطعات مختلفة . كل لفظة تؤدي في
مكانها موقفاً من العلة والعمدة . بحيث إذا جمعت كل هذه التكرارات
لتظاهرة تعطي الصورة الكاملة للشيء .

والمنافع في الانعام كثيرة . منها حنظل الصوف والوبر . وكلوا
يصنعون منه ملابس والفرش والاضمام قبل أن تعرف الملابس
والصنوجات الحديثة . ومن ملابس الصوف سُميت الصوفية لمن
يلبسون الثياب الخشنة . وهم الآن يضمعون من الصوف ملابس
مائعة كالحرير يرتديها المترفون .

ومن منافع الأنعام لطبيب الجلود والعظام وغيرها . يقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَكْبَارًا لِتَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَمَنْ أَتَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا عَنْهُ يَتَوَلَّوْا مِنْ دُونِهِ فَذَرْهُمْ لَا يَدْرِي لَكُمْ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ شَيْءٍ وَمِنْ أَشْجَارِهَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ﴾ (النحل : ٨٠) ﴿

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (١١) ﴿[مؤمنين] أى . لحماً ، وتكسر اللحم فى آخر هذه المبالغ ، لأنه آخر ما يمكن الانتفاع به من الحيوان ، وسبق أن ذكرنا أن الحيوان الذى لحقه الله لنا إذا تعرض لما يزهق روحه ، فإنه يرفع لك رفقته ، ويكشف لك عن مريض نفسه كأنه يقول لك أسمع واستفد منى قبل أن أموت .

وقى لفظة اخرى لمنافع الانعام يقول سبحانه ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَاءٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْعِيسَىٰ إِلَّا يَشِقُّ الْاُنْفُسِ ﴾ [النحل: ٧] اذن كل اية تحدثت عن الانعام تعطينا فائدة لتقل مربوطة بالقرآن كله

وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ (١٢) ﴿ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي . على الدوابَّ يُحْمَلُونَ ، فتركب الدواب ، وتحمل عليها منجنا . لكن لما كانت الأرض ثلاثة أرباعها ماء ، فإن الحق - سبحانه وتعالى - ما تركنا في البحر ، إنما حملنا فيه أيضاً ﴿ رَعَى الْفُلْكَ يُحْمَلُونَ ﴾ (١٣) ﴿ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فكما أعددت لكم المطايا على اليابسة الضيفة أعددت لكم كذلك ما تركبونه في هذه المساحة للرأسمة من الماء .

ولما كلن الكلام هنا عن القلب فقد غاسب ذلك الحديث عَمْرُ له
صلاة بالقلب ، وهو نوح عليه السلام

(١) النص : الانتقال من مكان إلى مكان أي سائر . [القاموس القويم ٤٦٥/١]

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ اتَّقُوا رَبَّ ۖ فَمَا يَسْمَعُونَ ﴾
 ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٢٣)

بعد أن حدثنا القرآن الكريم عن خلق الإنسان وخلق الحيوان ،
 وحدثنا عن بعض نعمه التي امتن بها علينا تدرج بنا إلى صناعة
 الفلك : لأنه قد يسأل سائل : وكيف تكون هذه الفلك أي : تخلق
 كالإنسان والحيوان بالتوالد ، أم تنبت كالزرع ؟ فأوضح الخالق
 سبحانه أنها وجدت بالوحي في قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ
 الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَوَحَيْنَا (٢٢) ﴾

ومعنى ﴿ بِأَعْيُنِنَا (٢٢) ﴾ [المؤمنون] أنها صنعة دقيقة ، لم يترك فيها
 الحق سبحانه نبيها يفعل ما يشاء ، إنما تابعه ولاحظه ووجهه إلى
 كيفية صنعها والمواد المستخدمة فيها ، كما قال سبحانه :
 ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدَسَّرَ (٢٤) ﴾ [القمر] وهي الحبال ، كانوا
 يربطون بها ألواح الخشب ، ويضمون بعضها إلى بعض ، أو
 المسامير تُشدُّ بها الألواح بعضها إلى بعض .

لكن ، مهما أحكمت ألواح الخشب بعضها إلى بعض ، فلا بد أن
 ينقل بينها مسام يتسرب منها الماء ، فكيف نتفادى ذلك في صناعة
 الفلك خاصة في مواضعها البدائية ؟ يقولون : لا بد لصانع الفلك أن
 يجفف الخشب جيداً قبل تصعيده فإذا ما نزل الخشب المدة يتشرب
 منه ، فيزيد حجمه فيسد هذه المسام تماماً ، ولا يتسرب منها الماء .

ومن عجائب القرآن ومعجزاته في حكاية الفلك قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الْجَوَارِ الْبُنَّاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) ﴾ [الرحمن] يعنى :
 كالجبال العائمة . وهذه الفلك لم تكن موجودة وقت نزول القرآن إنما

أخبر الله بها ، مما يدل على أنه تعالى الذي امتنّ علينا بهذه النعمة ، علم ما يمكن أن يتوصل إليه الإنسان من تطور في صناعة الفلك ، وأنها ستكون عالية شاهقة كالجبال .

وطالما أن الكلام معنا عن الفلك ، فطبيعي وعن المناسب أن نذكر نوحاً عليه السلام ، لأنه أول من فطن بالوحي إليه إلى صناعة الفلك ، فقال سبحانه : ﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ .. (٢٢) ﴾ [المؤمنين] لما تكلم الحق سبحانه عما في الانعام من نعم وفوائد ، لكنها تؤول كلها - بل والدنيا معها - إلى زوال ، أراد سبحانه أن يعطينا طريقاً من الحياة الباقية والنعيم الدائم الذي لا يزول فنذكر منهج الله الذي أرسل به نوح ، وهو واحد من أولى العزّم من الرسل .

والإرسال . هو أن يكلف مرسل مرسلاً إلى مرسل إليه ، فالكلف هو الحق سبحانه ، والكلف بالرسالة نوح عليه السلام ، والمرسل إليهم هم قومه ، والله لا يرسل إلى قوم إلا إذا كانوا يهيمونه ، وكيف لا وهم عباده وخلقه ، وقد جعلهم خفاء له في الأرض ؟

والذي خلق خلقاً ، أو صنع صنعة لا بدّ أن يضع لها قانون صيانتها ، لتؤدي مهمتها في الحياة ، وتقوم بدورها على الوجه الأكمل ، كما مثّلنا لذلك - وقد تعالى العقل الأعلى - بصانع الثلاجة أو التليفيون حين يضع معه كتالوجاً يحري تعليمات التشغيل وطريقة الصيانة وكيفية إصلاح الأعطال .

فبالذي خلق الإنسان وجعله خليفة له في الأرض أولى بهذا القانون وأولى بصيانة خلقه ، لذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي : يا ابن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له ، يعني : ما دام كل شيء

من أجلك يعمل لك ويؤدي مهمته ، فعليك أيضاً أن تؤدي مهمتك التي خلقتك من أجلها

لذلك وضع لك ربك قانون صيانتك بفعل كذا ولا تفعل كذا . فعليك أن تلتزم الأمر فتؤدي به فهو سرُ العمل في الكون ، وسرُ السعادة والتمتع في حركة الحياة . وعليك أن تستب النهي فلا تقربه ، لأنه سيؤدي إلى قُبْح . وسيكشف عورة من عورات المجتمع . أما الأمور التي سكنت فيها فأنت حرٌ فيها تفعل أو لا تفعل ، لأن ذلك لا يأتي بغير في المجتمع ، وهذه المسائل تُسمى المباحات ، وقد تركها الله لحريتك واختيارك

والحق - تبارك وتعالى - لما استدعى الإنسان إلى هذا الكون خلق له مقومات حياته من مقومات استنبطه الحياة من طعام وشراب وماء واستنبطه النوع بالتناسل ، وقد شغل قانون الصيانة كل هذه المقومات ، فنظمها وحدد ما يحل وما يحرم فقال : كُلْ هذه ولا تأكل هذه ، واشرب هنا ولا تشرب ذاك ، ولو شاهدنا المخترعين في مسائل المادة نجد المصانع يحدد مقومات صيغته ، فمثلاً هذا الجهاز يعمل على ١١٠ فولت ، وهذا يعمل على ٢٢٠ فولت ، وهذه الآلة تعمل بالبنزين ، وهذه بالسولار ، فلو غيّرت في هذه المقومات نفس الآلة ولا تؤدي مهمتها .

كذلك - والله العلي الأعلى - عليك أن تلتزم بقانون ومنهج خالقك عز وجل ، ولا تحدّ عنه ، وإلا فسد حالك وعجرت عن أداء مهمتك في الحياة فإن أردنا أن نستقيم لنا للخلافة التي خلقنا الله لها وهي خلافة مصلحة لا مفسدة ، فعلينا بقانون الصيانة الذي وضعه لنا خالقنا عز وجل .

ومن ذلك قول الشاعر^(١) :

وَمَا أَدْرِى وَسَوْفَ أَخَالُ أَدْرِى أَقَوْمٌ أَلْ حِصْنٌ^(٢) أَمْ نِسَاءُ

لكن هل أرسل نوح عليه السلام إلى الرجال دون النساء ؟ أرسل نوح إلى الجميع ، لكن تُكر القوم لأنهم هم الذين سيحملون معه أمر الدعوة ويسيحون بها ، ويُبلغونها لمن لهم ولاية عليهم من النساء ، والرجال متّوط بهم القيام بمهام الأمور في عمارة الكون وصلاحه .

والإضافة هي ﴿قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون] بمعنى اللام بمعنى قوم له ؛ لأن الإضافة تأتي بمعنى من مثل أردب قمح بمعنى من قمح ، وبمعنى في مثل مكر الليل بمعنى في الليل ، وبمعنى اللام مثل قلم زيد بمعنى لزيد .

فاللعمري هنا : قوم له ، لأنه منهم وعامون عليهم ومعروف لهم سيرته الأولى ، فإذا قلل لهم لا يستهمونه ، إذن فمن رحمة الله بالخلق أن يرسل إليهم واحداً منهم ، كما قال سبحانه ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة] ففى هذا إيتاس وإلف للقوم على خلاف ما إن كان الرسول منكاً مثلاً ، فإن القوم يستوحشونه ولا يأنسون إليه

لذلك فالنبي ﷺ كان يُسمّى بين قومه وقبل بعثته بالصديق الأمين ؛ لأنه معروف لهم ماضيه وسيرته ومقومات حياته تُشجّع على

(١) هو ، زهير بن أبى سلمى ، حكيم الشعراء في الجاهلية ، كان كيوه وحاله وأخته سلمى وابنتاه كعب وبجيب وأخته الخنساء شعراء ، ولد في بلاد « مريثة » بنواحي المدينة ، من أشهر شعراء مطلقته ، توفي عام ١٢ ق . هـ [الأعلام للزركلى ٥٢/٣]

(٢) يريد حِصْن بن حذيفة الخزاعي ، قال ابن منظور في [لسان العرب مادة حصن] .

أَنْ يُصَدِّقُوهُ فِيمَا جَاءَ بِهِ ، وَكَيْفَ يَصَدِّقُونَهُ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا ،
وَلَا يُصَدِّقُونَهُ فِي الْبَلَاغِ عَنْ اللَّهِ ؟

إِذَنْ : ﴿إِلَى قَوْمِهِ ۖ﴾ [المؤمنون] أَفَئَا لَمْ نَأْتِ لَكُمْ بِرَسُولٍ مِنْ
جَنْسٍ آخَرَ ، وَلَا مِنْ قَبِيلَةٍ أُخْرَى ، بَلْ مِنْكُمْ ، وَتَعْرِفُونَ مَاضِيَهُ
وَتَارِيخَهُ ، فَتَنْسَوْنَ بِمَا يَجِيءُ بِهِ ، وَلَا تَقْنُونَ مِنْهُ مَوْقِفَ الْعَدَاءِ

أَوْ يَكُونُ الْمَعْنَى إِلَى قَوْمٍ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ قَوْمًا قَوَّامِينَ
عَلَى شَيْئٍ مِنْ إِصْلَاحِ الْحَيَاةِ ، إِلَّا إِذَا اسْتَمَعُوا مِنْهُجَهُ ، فَهُمْ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُمْ
سَيَاحِدُونَ مِنْهُ مِنْهُجِ اللَّهِ .

ثُمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهُ . ﴿فَقَالَ يَلْفُورُمْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرِهِ ۖ﴾ [المؤمنون] (يَا قَوْمِ) اسْتِمَالَةٌ وَتَحْضِينَ لَهُمْ ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ﴾ [المؤمنون] وَالْعِبَادَةُ طَاعَةٌ عَابِدٍ لِأَمْرِ مَعْبُودٍ ،
وَالْعِبَادَةُ تَقْتَضِي تَكْلِيفًا بِأَمْرٍ وَنَهْيٍ . فَالْأَلُوْهِيَّةُ تَكْلِيفٌ وَعِبَادَةٌ ، أَمَّا
الرَّبُّوِيَّةُ فَعَطَاءٌ وَتَرْبِيَّةٌ لِذَلِكَ فَسَالُ سُبْحَانَهُ . ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
ۖ﴾ [هود] أَيْ : رَبُّكُمْ جَمِيعًا ، رَبُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَبُّ الْكَافِرِينَ ، رَبُّ
الطَّائِعِينَ ، وَرَبُّ الْعَاصِينَ

وَكَمَا قُلْنَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْأَرْضُ وَالْمَطَرُ .. فَخُ كُلُّهَا تَخْدُمُ
الْجَمِيعَ . لَا فَرْقَ بَيْنَ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ ، لِأَنَّ ذَلِكَ عَطَاءُ الرَّبُّوِيَّةِ ، وَإِنْ
سَأَلْتَ الْكَافِرَ الْجَاهِدَ . مَنْ خَلَقَكَ ؟ مَنْ رَزَقَكَ ؟ فَهَلْ يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ
يَقُولَ : اللَّهُ ، إِذَنْ : فَلْيُحْزَرْ هَؤُلَاءِ عَلَى أَعْرَاسِهِمْ ، وَلْيُعْلَمُوا أَنَّهُ تَعَالَى
وَحْدَهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ . فَمَقْتَضِيَاتُ الرَّبُّوِيَّةِ وَالْإِيمَانِ بِهَا
تَقْتَضِي أَنْ نُؤْمِنَ بِالْأَلُوْهِيَّةِ .

كَمَا أَنَّ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ يَنْشَأُ بَيْنَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَيَشَبُّ ، فَلَا يَجِدُ
غَيْرَهُمَا يَخْدُمُهُ وَيَقْتَضِي حَاجَتَهُ وَيُؤَمِّرُ مَتَلْبَاتِهِ ، بَلْ وَيَزِيلُ عَنْهُ الْآذِيَّ

ويجهر على راحته . كل ذلك بروح سعيدة ونفس راضية مطمئنة ،
ربما يجوعان بشفيع ، ويعريان لتكسى ، ويحرمان نفسيهما ليوفرا لك
الحياة الكريمة . فإذا ما كبر الصغير وبلغ الحلم وبلغ الرجال نجده
يعقبهما ، ويخرج عن طاعتهما ، ويأخذه من أحضانها أصدقاء السوء ،
ويؤذنون له التمرد على أبيه . وأمه .

ونقول لمثل هذا العاق : اخُزْ على عرْصك واسْتَحْ ، فليس هكذا
يكون رد الجسد . وأين كلن هؤلاء الأصدقاء يوم أن كنت صغيراً
تحتاج إلى من يعولك ويميط عنك الأذى ، ويسهر على راحتك ؟ قد
كان ينبغي عليك ألا تسمع إلا لمن أحسن إليك .

وهذا مثال لتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية . والله المثل الأعلى .
فكيف تأخذ من ربك عطاء الربوبية ، ثم تنمرد عليه سبحانه في
الألوهية . فتعصى أمره وتكفر بنعمه ؟ كان من الواجب عليك اللجوء
للنعمه .

ولا بد أن تعلم أن ربك - عز وجل - مأمرك عليك في التكليف
بالأمر والنهي . لأنك عبده وصنعتك ، وأنت حين تؤدي ما عليك تجاه
الألوهية لا ينتفع الله سبحانه من ذلك بشيء . إنما تعود منفعتها
عبيدك ، وهكذا إذا ما رددت أمور الطاعة والمعبادة والتكليف لوجهتها
تعود في النهاية أيضاً إلى عطاء الربوبية ، لأنها تعود عليك أنت
بالنفع .

فنحن نأخذ بالأوامر والنواهي على أنها تكاليف وأعباء يقتضيها
الإيمان بالألوهية ، نقول : نعم هي تكاليف من الله لكن لصالحك . فلو
أنصفت لوحيك الألوهية من الربوبية ، فحين يُحرّم عليك شرب
الخمير ويصحبك من فساد العقل ، هل ينتفع سبحانه من ذلك بشيء ؟



لذلك يقول تعالى عن هؤلاء : ﴿وَلَيْسَ مَالُهُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ سُبُوتٌ
وَالْأُخْرَىٰ لِيَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ ۖ﴾ (٢٤) [تعالى]

ويقول : ﴿وَلَيْسَ مَالُهُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ لِيَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ ۖ﴾ (٢٥) [تعالى]
فما دام هو سبحانه خالقكم ورازقكم وخالق السموات والأرض ،
فلماذا تعصونه ؟ وهل تنقص عصيانكم من ملكه شيئاً ؟ وهل زاد في
ملكه شيء بطاعة من أطاع ؟ هل زاد في ملك الله بطاعة الطائعين
أرض أو سماء أو شمس أو قمر ؟

إن الحق سبحانه قبل أن يخلقكم خلق لكم بهيمة الكواكب فهو كل
مقومات حياتكم واستدعائكم إلى كونه مبعثاً لاستقبالكم ولجميعكم
إلى فركك - عز وجل - لا تنفعه طاعة ، ولا تصيره معصية

لذلك يقول في الحديث النبوي : «يا سمعان ، لو أن أولكم
ولتسركم ، ولتصركم بجهنم ككلوا على اتقى التمسوا رجل واحد منكم
ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وأخسوكم وأنسكم وبنكم
كأبوا على أمير قلوب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ،
ولو أن أولكم وآخركم وأنسكم ورجبكم وشاهدكم وخائيتكم لاجتمعوا في
صعيد واحد ، وبالنسب كل واحد مما بين يدي أعطيناهم له ما يقص ذلك
مما عندي إلا كسمرة إبرة أحدكم إلى أن ينفخ فيه من المنبر ، وذلك كشي
جواد واحد معج ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إنما أريد لشيء إذا
أردته أن أقول له : كن فيكون» (١)

إن . حيث تطيعني فلتسير لك ، لأنك أصبحت هذه الطاعة حياة

١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٢٧) كتاب البر والصلة ، وأبو داود في سننه (٢١٩٥) من
طريق آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه ، واللفظ للترمذي . وقال : هذا حديث حسن

أخرى خالدة باقية بعد هذه الحياة الفانية التي مهما أترفت فيها فهي إلى زوال ، فإما أن تفوت نعيمها بالموت ، وإما أن يفوتك بالحاجة والعقر ، أما في الآخرة فالنعيم دائم باقٍ لا يفوتك ولا تفوته ، لأنها نعمة لا مقطوعة ولا ممنوعة .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [التكوير] فكان عطاء الألوهية ربوبية متعددة إلى زمن آخر غير زمن الدنيا ، فلا تظن أن طاعتك ستفيدنى فى شيء ، أو أن معصيتك ستضررنى بشيء ، ومن هنا قال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل]

وقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [المؤمنون] أى . معبود غيره ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المزمل] هذا استفهام يحمل معنى التهديد والتوبيخ ، لكن كيف يؤيِّضهم وهو لم يزل فى مرحلة الأمر بعبادة الله ، ولم يسمع منهم بعد بواذر الطاعة أو العصيان ؟ قالوا : يبدو أنه رأى منهم إعراضاً فامرهم بتقوى الله .

والتقوى معناها أن تجعل بينك وبين ربك وقاية تقىك صفات جبروته وقهره وتحميك من أسباب بطلانه وانتقامه ، فليست مطيعة لهذه الصفات ، والوقاية التى تجعلها بينك وبين هذه الصفات هى أن تنفذ منهج الله بطاعة الأوامر واجتناب النواهي .

ومن عجيب تركيبات التقوى فى القرآن الكريم أن يقول سبحانه : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [البقرة] ويقول : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ .. ﴾ [البقرة] قالوا . نعم اتق الله ، واتق النار ؛ لأنك تتقى الله من متعلقات صفات قهره وفضضه ومنها النار ، فحين تتقى الله بالمنهج فقد اتقيت النار أيضاً .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِمَا هَذَا
إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ
مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٤)

العلأ . من العلم . يعنى : الشيء الذى يملأ الشيء ، فالعلأ يعنى
الذين يملأون العيون بشرفهم ومكانتهم وعظمتهم وأهبتهم ، ومن ذلك
قولهم . فلان ملأ العين . أو ملأ السمع والبصر . ويقولون للرجل
إذا بلغ فى الحُسْن مبلغاً . فلان تُبَد العيون يعنى حين تراه
لا تصرف بصرك إلى غيره من شدة حسنه كأنه قُبِد بصرك نحوه
أما فى المقابل فيقولون . فلان تتقصصه العين ولا تراه وكأنه غير
موجود .

إنّ العلأ هم الذين يملأون صدور المجالس أئمة وفخامة
وجاهة وسيادة ، لكن ، لماذا هؤلاء بالذات هم الذين نعتبوا صده
وراجعوه ؟

قالوا . لأن منهج الله ما جاء إلا لإصلاح ما فسد لى الكون وما
استشرى فيه من شر . فالحق - تبارك وتعالى - يُنزل منهجاً على
لسان رسول أول ، ويطلب من قومه أن يُبلّغوا منهج رسولهم من
بعده ، لكن تاتى الغفلة على هذا المنهج فيخرج الناس عنه ويأتى
خروجهم عن منهج ربهم على عنة صور

فمنهم مَنْ يخرج عن منهج ربه ويصنع الذنب ، إلا انه يعاود
نفسه ويراجعها ويلومها وسرعان ما يتوب ويندم ، فزاجره من نفسه

رواعظه من داخله ، وهؤلاء الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً
ومنها من يخرج على منهج ربه خروجاً لا رجعة له ولا راجع ،
وهذا يصحبه . بلغتنا (هياكل) يعني لم يعد له راجع من شرع ولا
من ضمير . ويبقى بعد ذلك راجع العاصي حين يرى مثل هؤلاء
الخارجين عن منهج الحق عليه أن يتصدى لهم . ويقطعهم ولا يودهم
ولا يحترمهم . ولا لو نزل المنحرف ومركب القبائح على حاله من
اجترام الناس وتقديرهم ، ولو ظل على مكانه في المجتمع لتمادى
في غيئه وأسرف على نفسه وعلى مجتمعه فيبتدئ بترك الشر في
المجتمع ، ويعم الفساد وتشيع الفوضى .

ألا ترى للشرع للحكيم حين جعل الدنيا في القتل على العاقلة
بعض . عائلة للقاتل ، لا على القاتل وحده ؟ لماذا ؟ لكن يأخذوا على
يد ولهم إن أسرف أو بدت عنه بوادر الاعتداء ، لأنهم جميعاً
سيحملون هذه التبعة .

ونقول : خص الملا بالذات ، لأنهم هم المتطعمون بالشر والفساد
في المجتمع ، ومن مصلحتهم أن يستمر هذا الوضع لتبقى لهم
سلطتهم الزمنية ومكانتهم ؛ لذلك هم أول من يقاومون الرسالات
بالجور والكره . ألم يقل الحق سبحانه عنهم في آية أخرى : ﴿ مَا
تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلًا وَمَا تَرَاكَ أَتَعْلَمُونَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا ﴾ (٢٧) [مجاد]

فهؤلاء الذين يسموهم أرادل هم المستضعفون والفقره
والعطشون والمهمومون بأسور الخلق والدين والقيم ، فما إن تسمع
أذانهم من رسالة إلا تلجأوا طيها وترتموا في أحضانها لأنها جاءت
لتنقدهم ؛ لذلك يكونون أول من يؤمن . وإن جاء المصيح لإصلاح

هؤلاء ، فقد جاء أيضاً ليخرج من أصحاب السلطان والقهر والجبروت
سلطانهم وتعاليمهم . فلا بد أن يواجهوه ويصدونه

ومعنى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ...﴾ (المزسور) كفروا . يعنى
جعلوا وجود الله ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ (المؤمنون) فإول شيء
صدقه من الرسول كونه بشراً ، إذن . فمادام كنتم تتكلمون ؟ وقد
شرح هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿وَمَا مَعَ النَّفْسِ أَنْ يُلَاقُوا إِذْ جَاءَهُمُ
الْهُدَىٰ ۚ إِذْ أَنْ قَالُوا أَبْعَثْ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الاسراء)

ولا بد من الرسول أن يكون من جنس المرسل إليهم ، ليصح أن
يكون لهم أسوة . فيطردوه ويهتدوا به . وإلا لو جاء الرسول ملكاً
فكيف تتحقق فيه القدرة ؟ وكيف يستطيعون رأيتهم تعلمون أنه ملك
لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل . وليست لديه شهوة . ولا مقومات
المنشئة ؟

ولنفرض أن الله نزل عليكم ملكاً . كيف ستشاهدونه وتتلقون
عنه ؟ لا بد - إن - أن يأتىكم فى صورة رجل لئتمكنوا من مشاهدته
والتلقى عنه . وهكذا نعود فى نقاش هذه المسألة إلى أنه رجل ، لذلك
قال سبحانه ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ
(١)﴾ [الأعلم] وتظل الشبهة باقية

إن من الحق أن نقول بأن يكون الرسول ملكاً

أما قولهم ﴿بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ (المزسور) مهم . هو بشر ، لكن
ليس كمثلكم . لأنتم كاذبون فى هذه العقيدة . لأنه بشر استطاع الله
بالوحي ، لذلك يقول رسول الله ﷺ « يرحم مني فأقول ما أنا إلا
بشر مثلكم ، وأعطى من الله فأقول أنا لست كالحكم » .

ويقول تعالى لرسول الله ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۖ ﴾ [قصص: ٦] ومن هذا كانت الافضلية في أنه بشر يوحى إليه ، وما بشريته إلا للإنسان والإلف .

ثم يتابع الحق سبحانه مقالة هؤلاء الكافرين من قوم نوح .
﴿ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] يتفضل . يعني ينصب نفسه إلى الفضل والشرف والسيادة ليكون متبوعاً وهم تابعون ﴿ وَتَوَّ شَاءَ اللَّهُ ۖ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] يعني هو شاء أن يرسل رسولا ﴿ لِأَنْزِلَ مَلَايِكَةً ۖ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] أي رسلا ، وقد رَدَّ الله تعالى عليهم هذا القول ، فقال تبارك وتعالى ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَايِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ ﴾ [الاسراء: ٩٥]

ثم يقولون ﴿ مَا سَجَعْنَا بِهِذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ۖ ﴾ [المؤمنين: ٢٤] المراد بهذا : يعني أن يأتي من يقول اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، لأن آباءنا لاولين كانوا يعبدون الاصنام ، ولم يأت من يقول لنا هذا الكلام مثل نوح .

وهذا دليل على أنهم مقلدون للآباء ، ليس لديهم تفكير واستقلال في الرأي ينتظرون به إلى الأشياء نظرة الحق والعدالة . وفي موضع آخر قال تعالى عنهم ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَةٍ ۖ ﴾ (١) وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿ [الذخرف: ٢٣]

ولو تأملنا حال المجتمعات ، ومنها مجتمعنا الذي نعيش فيه لوضح لنا كذب هؤلاء في ادعائهم التقليد للآباء ، كيف ؟ تأمل حال

(١) قال ابن عباس أي على دين . وفي رده على مقالات طالع بن الأزرق قال على ملة غير الملة التي تدعون إليها [ترويض السيرة في السير المثلث ٣٧٢/٧ . وعزا الأول لابن جرير الطبري . والثاني للطبري]

الاجيال المختلفة تجد كل جيل له رأيه وتطلعاته ورغباته التي ربما اختلف فيها لابن عن أبيه ، فالأبناء الآن لهم رأى مستقل ، فالولد يختار مثلاً الكلية التي يرغبها ، الملابس التي يحبها ، وإن خالفت رأى أبيه ، بل ويصل الأمر إلى اتهام الآباء بالجسود والتخلف إن لزم الأمر ، وهذا موجود في كل الاجيال .

إذن : لماذا لم تقولوا في مثل هذه الأمور . إنا وجدنا آباءنا على أمة ؟ لماذا كانت لكم ذاتية ورأى مستقل في أمور الدنيا دون أمور الدين ؟ إنكم تتخذون الذاتية فيما يلبي رغباتكم وشهواتكم وانحرافاتكم . وتتخذون التقليد فيما يقلل تكليفكم ؛ لأن التكليف سيقيّد هذه الرغبات والشهوات ويقضي على هذه الانحرافات ، لذلك يتمرد هؤلاء على منهج الله .

لذلك ، نعجب لما نراه ونسمعه من حال أبتدثا اليوم ، وكيف أفلت الزعام من الآباء والامهات ، فالشباب يسير على هواه في أمور انحرافية ، فإن وجهه أبوه أعرض عنه واتهمه بأنه من جيل قديم وقد ذهب زمانه بلا رجعة ، وقد تعدى الأمر من الاولاد إلى البنات ، فصيرون أيضاً يتمردون على هذه القيم ولا يهتمون بها .

فقولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آيَاتِ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون] وقولهم ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ [الزمر] هم كاذبون أيضاً في هذه المقولة ؛ لأنهم لو صدّقوا لقولهم في كل شيء فيما لهم وما عليهم في أمور الدنيا وفي أمور الدين والقيم والأخلاق .

لذلك الحق - تبارك وتعالى - يعالج هذه القضية في مواضع عدة من كتابه الكريم ، وبأساليب مختلفة ، منها قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . ﴾ [البقرة]

لأن هذا يريحهم من حقيقته التكليف . وإن كانوا للعبادة طاعة عابد
لمحذود . فمن أمره وتوبيخه بما أسول عبادة الأصنام ؟ لأنها الهمة كما
يدعون . لكن ليس لها منج . ولينح معها تكليف . فبما أن كسره أمرك
الصنم ؟ ومن أي شيء تمالك ؟ وماذا أعز من عزاء لمن أطاعه ؟
وماذا أعز من عقاب لمن عصاه ؟ إنهم يصعبون بل منج . وبلا
تكليف . وهذا دليل كذبهم في عبادة الأصنام . ويروا من الهتهم .

لهم يقولوا . ﴿ مَا بِهِمْ وَلَا يُغْنِيُوا إِلَى اللَّهِ يُلْقَى ﴾ [الاسراء] فهذا
حق وصفة وحصول : لأن الكلام حقيقته لا يستقيم . كيف تقولون
نحبهم . وليس لهم منج . وليس لهم تكليف . والعبادة طاعة عابد
لمحذود .

إن ما هو إلا خواء وأفلاس عقدي . لذلك يرد الحق . تبارك
وتعالى . عليهم فيقول سبحانه . ﴿ أُولَئِكَ كَانُوا فِي أَعْيُنِنَا وَلَا
يُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة] .

وقد موضح آخر يقول . سُبْحَانَ وَعَلَى . عنهم . ﴿ قَالُوا حَسْبُنَا
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ ﴾ [التوبة] . وقوله أبلغ من سابقته . لأنهم
يسعدون كفرهم ويحترقون عليه . فقولهم . ﴿ بَلْ نَجْعَلُ مَا آلَيْنَا عَلَيْهِ
آيَةً ﴾ [التوبة] . فربما يرفعون أنفسهم فيقولون إلى الحق .
سوف نالون الأبد .

لكن هذا ﴿ حَسْبُنَا ﴾ [التوبة] . بعض كافي . ولن نغزوه
ولن نعيد عنه . لذلك يأتى تدبير كل آية بما يناسبها . فلي الأولى
قال تعالى ربك عليهم . ﴿ أُولَئِكَ كَانُوا فِي أَعْيُنِنَا وَلَا يُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة] .
ولي الأخرى قال ربك عليهم . ﴿ أُولَئِكَ كَانُوا فِي أَعْيُنِنَا لَا يُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة] .
شيء .

فذكر العقل في الأولى : لأن الإنسان يأنس فيه بنفسه ، وذكر في
الأخرى العلم ؛ لأن الإنسان في العلم يأنس بعقله ، وعقل العلم
أيضاً ، فالعلم - [إن] - توسع عنه العقل لذلك ذكره مع قولهم
﴿حَسْبُنَا﴾ [المائدة] الدالة على المبالغة والإصرار على الكثرة .

كما فلاحظ عليهم في قولهم : ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ (٤٤) ﴿[المؤمنون]
أن الغفلة قد استحكمت خيمهم ، لأنه نوحاً عليه السلام يعتبر الجهد
الحامس بعد إيم عليه السلام ، فيبينهما فترة طويلة ، فكيف ما سمعوا
طوال هذه الفترة برسول أو نبي ، يقول : اعبدوا الله يا لكم من إله
غيره ؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يُدْعَىٰ حَتَّةً فَنَتَصَوَّبُ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٤٥)

﴿إِنْ هُوَ﴾ (٤٥) [المؤمنون] يعنى : ما هو و ﴿حَتَّةً﴾ . يعنى
جنون ، وهو سقر العقل الذى يسيطر على حركة الإنسان في الحياة
ليسير حسب تقديراتها (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، أما المجنون
فيعمل ما يخطر بباله دون أن يعرض الأعمال على العقل أو التفكير ؛
لذلك من عدالة الله صلى الله عليه وآله أننا لا نأخذ المجنون على تصرفاته حين
يمتدح على أحد بنا بالسب أو الضرب مثلاً ، ولا نعتك إلا أن نبتسم
له ، وندعو الله أن يعافينا مما ابتلاه به .

فلن كان هذا حال المجنون في حركة حياته ، فهل يكون نوع
الخلق الذى يسير وفق قوانين الحياة ومحكوماً بالقلم وقيم خلقية ، هل
يكون مجنوناً ؟ ومن العجيب أن تهمة المجنون هذه سائرة على لسان

المكذِّبين للرسول في كل زمان ومكان ، وقد اتُّهم بها رسول الله ﷺ .
فردَّ الله عليهم ونفى عن رسوله هذه الصفة في قوله : ﴿ تَوَّابٌ وَأَلْقَمٌ وَمَا
يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمُنْعِنُونَ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَحْشُورٍ
(٣) وَتِلْكَ لَمِئَاتُ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

فكيف يكون ذو الخلق مجتوفاً ؟ ولو كان ﷺ مجنوناً ، فلماذا
استأمنوه على ودائعهم ونفائسهم . واطمأنوا إليه ، وسمَّوه الصديق
الأمين ؟ إنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم يعلمون خلقه ، وأنه محكوم بقيم
من الحق والخير لا تتزحزح .

وما دام الأمر لا يعدو أن يكون رجلاً به جنَّة ﴿ فَتَرْبِصُوا بِهِ حَتَّى
حِينٍ (٥) ﴾ [المؤمنين] أى : انتظروا واتركوه رشاقته فربما عاد إلى
صوابه ، وترك هذه المسألة من تلقاء نفسه حين يرانا منصرفين عنه
غير مهتمين به ، أو دَعَّوه فإن كان على حق ونصره الله وأظهر أمره
عندها نتبعه ، وإن كانت الأخرى لها نحن مُعْرِضُونَ عنه من بداية
الأمر .

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنتُ بَدِئْتُ ﴾ (٦)

بعد أن كذَّبَه قومه دعا الله أن ينصره ﴿ بِمَا كُنتُ بَدِئْتُ (٦) ﴾
[المؤمنين] يعنى انصُرْنِي بسبب تكذيبهم ، واجعل تكذيبهم لا مدلولَ
له فينتصر عليهم رغم تكذيبهم ، أو : يا رب عوِّضْنِي بتكذيبهم
نصراً ، يعنى : أبْدِلْنِي من كذبهم نصراً ، كما تقول اشتريت كذا
بكذا ، فآخذت هذا بدل هذا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ
كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ حَالَهُ وَالْقَوْلُ
مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

استجاب الله تعالى دعاء نبيه نوح - عليه السلام - في النصرة على قومه ، فأمره بأن يصنع الفلك . والفلك هي السفينة . وتطلق على المفرد والجمع . قال تعالى ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ (١٦٩) [الشعراء] وقال ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَبِثْتُمْ مِنْ لَدُنْهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر] فدللت مرة على المفرد ، ومرة على الجمع .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا... ﴾ (١٧) [المؤمنون] دليل على أن نوحاً - عليه السلام - لم يكن نجاراً كما يقرر البعض ، فلو كان نجاراً لهداه عقله إلى صناعتها ، إنما هو صنعها بوحي من الله وتوجيهاته ورعايته ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَتَصْنَعُ عَلَى عَيْنِي ﴾ (٢١) [طه] فالمعنى : اصنع الفلك وسوف أوفقك إلى صناعتها ، وأهبطك إلى ما يجب أن يكون ، وأصحح لك إن أخطأت في وضع شيء في غير موضعه ، إذن : أمرت وأعنت وتابعت والوحي : هو خطاب الله لرسوله بخفاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ (٢٧) [المؤمنون]

(١) النور : مكان تفرج الماء ، والكلمون الذي يحين فيه . وقوله تعالى ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ (٢٧) [المؤمنون] أي : تجمعت الأرض بماء كثير أو تجمعت بماء يشبه لوراء النار في التنور [القاموس القويم ١/١٠٦]

وهما لم يتصرفا للسياق للفترة التي صنع فيها نوح السفينة .
والتي جاءت في قوله تعالى : ﴿ وَصَنَعَ الْفُلَّكَ وَكَلَّمَا مَرْءً عَلَيْهِ غُلًّا مِّنْ
لُّوْمِهِ مَجْرُورًا مَّهً قَالِ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَمِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [معد] ذلك لأنهم لا يعلمون شيئاً عن سبب صناعتها .

وفي موضع آخر يُطَمِّن - سبحانه وتعالى - من كيفية صنعها
فيقول : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَابٍ رَّفُوسٍ ﴾ [المعد] ولنا إن
الدُّسُرَ الحبال التي تُضَمُّ بها ألواح الخشب بعضها إلى بعض شريطة
أن تكون جائلة ، وتضم إلى بعضها بحكمة حتى إذا ما نزل الماء
وتشرَّبت منه يزيدها فتنسُد المصام بين الألواح ، كما يراهم مثلاً
يصنعون براميل الزيت من شرائح الخشب

وقد صنع أحدهم سفينة من البُرْدَى بهذه الطريقة ، وسافر بها
إلى أمريكا واستخدم فيها الحبال بدلاً من المسامير

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا . . ﴾ [المؤمن] بمعنى بإجاء
المؤمنين لك ، وإهلاك الكافرين ﴿ وَفَارَقَتِ الْوُجُوهُ ﴾ [المؤمن] والفتور
هو الفِرَاق الذي يخمرون فيه الخبز . ويقال إنه كان موروثة لروح من
ليام آدم ، ينفور بالماء يعني يخرج منه الماء ، وهو في الأصل محل
للنار ، فيخرج منه الماء وكأنه بقلبي لكن هل كل الماء سيخرج من
الفتور ؟ الماء سيخرج من كل أنحاء الأرض وسيُنزل من السماء .
وفوران الفتور هو إبدان مباشرة هذه العملية وبداية لها

في حدث هنا ﴿ فَاسْأَلْهُمَهَا مَن كَلَّمَ زَوْجَتِي أَتَيْنِ ﴾ [المؤمن]
يعني لحمل وأدخل فيها زوجين ذكراً وأنثى من كل نوع من
المخلوقات ، كما في قوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكُكُمْ فِي سَفَرٍ ﴾ [المعد]
يعني أدخلكم ، وقال سبحانه ﴿ أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ فِي جَهَنَّمَ ﴾ [٣٦]

[التقصير] يعني أدخلها ، وقال سبحانه : ﴿كَذَلِكَ نَسُكُّهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢)﴾ [المجر]

ومن مادة (س ك) أخذنا في أعرافنا اللغوية . نقول : سلك
الماصورة أو العين يعني أدخل فيها ما يزيل سدتها

والمؤمنين في ﴿مَنْ كَلَّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ (٢٧)﴾ [المؤمنون] يعني . من كل- شيء^(١) يريد حفظ نوعه واستمراره : لأن الطوفان سيغرق كل شيء . والحق - تبارك وتعالى - يريد أن يحفظ لعباده المؤمنين مقومات حياتهم وما يخدمهم من الحيوانات والالعام وجميع أنواع المخلوقات الأخرى من كل ما ولد أو يبيض .

ومعنى ﴿زَوْجَيْنِ (٢٧)﴾ [المؤمنون] ليس كما يظن البعض أن زوج يعني . اثنين ، إنما الزوج يعني فرد ومعناه مثله . ومنه قوله تعالى : ﴿لَعَلَّيْهَ أَزْوَاجٌ مِّنَ الصَّانِّ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَخْرُوجَيْنِ قُلْ الْأُنثَىٰ حَرَمٌ أَمِ الْأُنثَىٰنِ أَمْ اشْتَبَهَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَىٰنِ نَسْعُرِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١٣)﴾ ومن الإبلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ (١١٤)﴾ [الأنعام]

نسمى كل فرد من هذه الثمانية زوجاً ؛ لأن معاً مثله .

هذا في جميع المخلوقات ، أما في البشر فلم يقل زوجين ، إنما قال ﴿وَأَهْلُكَ (٢٧)﴾ [المؤمنون] أيأ كان نوعهم وهدمهم . لكن الأهلية هنا أهلية نسب ، أم أهلية إيمانية ؟

الأهلية هنا يراد بها أهلوية الإيمان والاتباع ، بدليل أن الله تعالى

(١) قال الحسن البصري لم يحمل نوح في العاصفة إلا ما ولد ويبيض ، فاما البق والذباب والندود فلم يحمل شيئاً منها . وإنما خرج من الطين . فإله القرشي في تفسيره [١١٥٢/٦]

شرح هذه النقطة في آية أخرى . فقال على لسان نوح عليه السلام .
﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ۖ ۞ (٤٥) ﴾ [هود]

فقال له ربه : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ ۞ (٤٦) ﴾ [هود]
فينبذ الانبياء بنوة عمل واتباع ، فإن جاءت من صلبه امرأة
وسهلاً ، وإن جاءت من الغير عاملاً وسهلاً . لذلك النبي ﷺ يقول
عن سلمان الفارسي . « سلمان منا آل البيت »^(١) فقد تعدى أن يكون
مسلماً إلى أن صار واحداً من آل البيت .

وكذلك أدخل فيها أمك من انساب بديل أنه استثنى منهم . ﴿ إِلَّا
مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ ۞ (٢٧) ﴾ [المزموذ] وكان له امرأتان ، واحدة
كفرت به وخانت في ولدها كنعان ، والتي ذكرت في قول الله تعالى
في سورة التحريم ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ
لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ۖ ۞ (٦٥) ﴾ [التحريم]

وكنعان^(٢) هو الذي قال : سألني إلى جبل يعصمني من الماء
وهذه النقطة لم تذكر هنا ، لأن أحداث هذه القصة جاءت مفرقة في
عدة مواضع ، بحيث لو جمعت تعطى الصورة العامة للقصة ، فإن
قُلْتُ فلماذا لم تأت مرة واحدة كما في قصة يوسف عليه السلام ؟

نقول . جاءت قصة يوسف كاملة في موضع واحد ليعطينا بها
الحق - سبحانه وتعالى - نموذجاً للقصة الكاملة المحبوبة التي تدل
على قدرته تعالى على الإتيان بالقصة مرة واحدة لمن أراد ذلك ، فإن

(١) أخرجه الصلح في مستدركه (٥٩٨/٢) من حديث عمرو بن عوف القوسي قال الأعمش
والعجلوني في كشف الخفاء (٥٥٨/١) سند ضعيف .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٤١٦/٢) ، قوله ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ۖ ۞ (٤٥) ﴾ [هود] هذا هو الابن
الواحد واسمه يام ،

أردتها كاملة فنحن قانرون على ذلك ، وما هي قصة يوسف ، إنما الهدف من القصص في القرآن هو تثبيت فؤاد النبي ﷺ كما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان] ، لأنه ﷺ سيقابل مواقف تكذيب وعداء وعناد من قومه ، وسيعرض لأزمات شديدة ويحتاج إلى ما يُسلِّيه ويُثَبِّته أمام هذه الأحداث

لذلك جاءت لقطات القصص الفرائي متفرقة في عدة مواضع لتسلية رسول الله ، والتخفيف عنه كلما تعرض لمواقف من هذه المواقف ، وبجمع هذه اللقطات المتفرقة تتكون لديك القصة الكاملة المستوية .

وقد أدخل نوح معه زوجته الأخرى المؤمنة وأولاده : سام وحام ويافث وزوجاتهم ، فهؤلاء ستة ونوح وزوجه فهم ثمانية ، معهم اثنان وسبعون من المؤمنين وأصول الإيمان الباقي مع نوح عليه السلام .

ولما كان الحكم بفرق مَنْ كفر من أهله أمراً لا استثناء فيه ، قال تعالى بعدها : ﴿ وَلَا تُخَاصِمْنِي فِي الدِّينِ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ [هود] لكن ظلموا مَنْ ؟ ظلموا أنفسهم حين كفروا بالله ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقنن]

صحيح أنت حين كفرت أخذت حق الله في أنه واحد أحد موجود ، وإله لا معبود غيره ، وأعطيتَه لغيره ، لكن هذا الظلم لم يضر الله تعالى في شيء إنما أضرَّ بك وظلمتَ به نفسك ، ومتتهى الحُملُ والصفه أن يظلم الإنسان نفسه .

ثم يقول سبحانه :

﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَمْرًا مِّنْ مَّعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٨)

﴿ اسْتَوَيْتَ (٢٨) ﴾ [المؤمنون] يعنى : استعليت وركبت انت ومن معك على الفلك واطمان قلبك إلى نجاة المؤمنين معك ﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ (٢٨) ﴾ [المؤمنون] فلا بد للمؤمن أن يستقبل نعم الله عليه بالحمد ، وبالإشغاف بالنعم جلال المنعم ، فساعة أن يستقبل لك الأمر على الفلك وتطمش بادر بحمد الله .

وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَرَّ الْإِنْسَانُ الضُّرَّ دَعَا لِحَبِّهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانٌ لَّمْ يَدْعُهَا إِلَى ضُرِّهِ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُتَرَفِّينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٢) [يونس]

وكان الحق - تبارك وتعالى - يعطينا حصانة ، ويجعل لنا أسوة بذاته سبحانه ، حتى إذا ما تعرضت لنكران الجميل ممن أحسننا إليه لا نخضب ، لأن الناس ينكرون الجميل حتى مع الله عز وجل .

لذلك لما قال موسى - عليه السلام - : يا رب أسألك ألا يقال فى ما ليس فى . يعنى لا يتهمنى الناس ظلماً ، فرد عليه ربه عز وجل : يا موسى ، كيف ولم أصنع ذلك لنفسى .

إن : فهذه مسألة لا يطمع فيها أحد ، ولو أن كل فاعل للجميل يضمن به على الناس لأنهم ينكرونه لفسد الحال ، وتوقفت المصالح بين الخلق ، وضن أهل الخير بخيرهم ، لذلك وضع لنا ربنا - عز وجل - الأسوة بنفسه سبحانه .

سورة المؤمنون

١٠٠١

والإنسان إن كان حسيساً لا يقف عند إنكار الجميل ، إنما يتعدى ذلك فيكره من أحسن إليه ويحتد عليه ، ذلك لأن الإنسان مجبول على حب النفس وانتعالي والعطرسية ، فإذا ما رأى من أحسن إليه كرهه ؛ لأنه يدرك فيه كبرياء نفسه ، ويصده من تعاليه .

ومن هنا قالوا : « اتق شر من أحسنت إليه » لماذا ؟ لأنه يخزى سمعة يراك ، وهو يريد أن يتمالي ، ووجودك يكسر عنده هذا التعالي . إذن ، ومثل نفسك على أن الجميل قد يُنكر حتى لو كان ماعله رب العزة سبحانه ، فلا يهزئك أن يُنكر جميلك أنت .

ومن ذلك قال الشاعر^(١)

يَسِيرُ ذَوُو الْحَاجَاتِ ظِلْفَكَ حُضْعًا فَإِنْ أَدْرَكُوهَا حُلْفُوكَ وَمَرُولُ
وَأَفْضَلُهُمْ مَنْ إِنْ دُكِرَتْ بِهِ تَوَقَّفَ لَا يَنْفَى وَقَدْ يَقُولُ
فَلَا تَدْعِ الْمَعْرُوفَ مَهْمَا تَنَكَّرُوا فَإِنْ ثَوَّبَ اللَّهُ أَرْضِي وَأَجْرُ

فالمعنى : إذا استوييت أنت ومن معك ، واستتب لك الأمر على العلك ، فإياك أن تغتر أو تنأى بجانبك فتنسى حمد الله على هذه النعمة ، لذلك أمرنا حين نركب أي مركب أن نقول « بسم الله مجريها ومرساها » ، لأنك ما أجريتها بصهارتك وقوتك ، إنما باسم الله الذي ألهم ، وباسم الله الذي أعان ، وباسم الله الذي تأمضى ، ورعاني بعينه ، وما دُمْتَ تذكر المنعم عند النعمة وتعترف لصاحب الفضل بفعله يحفظها لك

أما أن يذكرها على صاحبها ، وتنسبها لنفسك ، كالذي قال ﴿ إِنَّمَا أُوتِيَهُ عَلَىٰ عَنَمٍ عِنْدِي .. ﴾ (٧٨) [النمير] فيقول ما دام الأمر كذلك ، نحافظ أنت عليه

حتى في ركوب الدابة يُعلمنا ﷺ أن نقول : سبحان الذي
سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ،^(١)

وقوله تعالى : ﴿الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٨) ﴿[المؤمنون]
وذكر النجاة لأن درة المفسدة مُقدَّم على جلب المنفعة .

ثم يُعلمه ربه دعاء آخر يدهو به حين تستقر به السفينة على
الجودي ، وعندما يفتل منها ليباشر حياته الجديدة على الأرض

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٤٩)

وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿فَلْيَلْ يُنْزِلْ أَهْبَاطُ بِسَامٍ مَّثَا
وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ .﴾ (٤٨) ﴿[مود] لأنك ستُنزل منها
وليست هي مكان معيشتك .

وكذلك دعا النبي ﷺ فقال كما حكى القرآن ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي
مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ..﴾ (٥٠) ﴿[الإسراء]

فلا بد أن تذكر في النعمة المتعم بها ، لذلك فالذين يُصابون في
نعم الله عليهم بأعين الحاسدين ، ثِقَ تمام الثقة أنهم حين رأوا نعمة
الله عليهم لم يذكروا المنعم بها ، ولو أن لإنسان حين يرى نعمة من
نعم الله عليه في ماله أو ولده فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله ،
ووضع النعمة في حماية المنعم لضمان دوام نعمته وسلامتها من أعين
الحاسدين : لأنه وضعها تحت قانون للصيانة الإلهية .

(١) المخرج مسلم في صحيحه (١٢٤٢) كتاب الحج من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن
رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبر ثلاثاً ، ثم قال : سبحان
الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، وكذا أخرجه أحمد في
مسنده (١١٤/٢ ، ١٥٠)

ومعنى ﴿مُنْزَلًا مُّبَارَكًا ..﴾ (٢٩) ﴿[المؤمنين] الشيء المبارك الذى يعطى فوق ما يتصور من حجمه ، كان يعيش شخص براتب بسيط عيشة كريهة ويربى أولاده أفضل تربية ، فيتساءل الناس : من أين له ذلك ؟ ونقول : إنها البركة التى تحل فى القليل فيصير كثيراً . صحيح أن الوارد قليل لكن يكثره قلة المنصرف منه .

وقد مثلت لذلك بواحد يرتزق من الحلال ، فييسر الله أمره ، ويقضى مصالحه بيسر تكفئه ، فإذا مرض ولده مثلاً يشفيه الله بقرص أسبرين وكوب من الشاي ، ولا يفزع لمرضه ؛ لأنه مطمئن القلب ، راضى النفس ، واثق فى معونة الله أما الذى يتكسب من الحرام ويأكل الرشوة . الخ إن مرض ولده يهرع به إلى الأطباء ويتوقع فى ولده أخطر الأمراض ، فإن ارتشى بعشرة صرف عليها مات

وسبق أن قلنا . إن هذه البركة هى رزق السلب الذى لا يريد من ذلك ، إنما يُقَلِّل من مصروفاته .

وكلمة ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٣٠) ﴿[المؤمنين] أم أنه سبحانه المنزل الوحيد ؟ الله خير المنزلين يعنى أباح أن يقال بلعيد أيضاً منزل حين يُنزل شخصاً فى مكان مريح ، كأن يسكنه مثلاً فى شقة مريحة ، أو يستقبله ضيفاً عليه .. الخ . وإن كنتَ مُنْزَلًا بهذا المعنى ، فإله عز وجل هو خير المنزلين ؛ لأنه سبحانه حين يُنْزِلُك ينزل على قدره تعالى ، وعلى قدر كرمه وعطائه .

إذن : لحق - تبارك وتعالى - لم يضمنْ عليه خلقه أن يصفهم بما وصف به نفسه ، فلم يضمنْ عليك أن يصفك بالخلق فقال ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (٣١) ﴿[المؤمنين] فثبت لك صفة الخلق لأنك توجد

معدوماً مع أنك تُوجده من موجود الله ، كأن تصنع من الرمل والنار
كوباً من الزجاج مثلاً ، لكن ما توجده يظل جامداً على حالته لا ينمو
ولا يقتاسل ، وبيست فيه حياة ، ومع ذلك سماك ربك خالقاً ، وكذلك قال :
﴿ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [ال عمران]

وكما أن الله عز وجل لم يخن عليك بهذه الصفات ، فلا تظن
عليه سبحانه بأنه خير المزمزين ، وخير الوارثين ، وخير الماكرين ،
واحسن الخالقين . .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَكْفُرُ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾

﴿ لِي فِي ذَلِكَ .. ﴾ [المؤمنون] يعنى : فيما تقدم ﴿ لَا يَأْتِ .. ﴾ [٣٥]
[المؤمنون] عبر وعظات وعجائب ، لو فكر فيها المرء بعقل محايد
لانتهى إلى الحير ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ [المؤمنون] فلا تظن أن
الابتلاء مقصور على للظلمة والكافرين الذين أخذهم الله وأهلكهم ، فقد
يقع الابتلاء بمن لا يستحق الابتلاء ، وحين يبتلى الله أهل الخير
والصلاح فما ذلك إلا ليزداد أجرهم وترفع مكانتهم ويمحص إيمانهم .

ومن ذلك الابتلاءات التي وقعت بالمسلمين الأوائل ، فإنها لم تكن
كراهية بهم أو انتقاماً منهم ، إنما كانت تصفية لمعذبهم وإظهاراً
لإيمانهم الراسخ الذي لا يتزعزع ، لأنهم سيحملون دعوة الله إلى أن
تقوم الساعة ، فلا بد من تمحيصهم وتصفيتهم .

كما قال سبحانه : ﴿ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا
يُفْتَنُونَ ﴾ [المنكوت] لا ، لا بد من الابتلاء الذي يميز لصادقين ممن

يعبد الله على حَرْف ، لا بُدَّ أن يتساقط هؤلاء من موكب الدعوة ، ولا يبقى إلا المؤمنون الراسخون على إيمانهم الذين لا تزعزعهم الأحداث .

إنَّ المعنى ﴿وَأَن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون] يعنى : أهل الإيمان الذين لا يستحقون العذاب ؛ لأننا نحب أن ترفع درجاتهم ونُحصي إيمانهم ليكونوا أهلاً لدعوة الله ، لذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - فى الحديث القدسى :

« وعزتي وجلالى ، لا أخرج عبدي من الدنيا وقد أردتُ به الخير حتى أوفيه ما عمله من السيئات ، من مرضى فى جسمه وخسارة فى ماله ، وفقد فى ولده ، فإذا بقيتُ عليه سيئة ثقلت عليه سكرات الموت حتى يأتينى كيوم ولدته أمه . وعزتي وجلالى ، لا أخرج عبدي من الدنيا وقد أردتُ به الشر حتى أوفيه ما عمله من الحسنات ، صحتُ فى جسمه ، وبركة فى ماله وولده ، فإذا بقيتُ له حسنة خففتُ عليه سكرات الموت حتى يأتينى وليست له حسنة ، ،

إنَّ فالانقلاب كما يكون انتقاماً من الظلمة والظلمة يكون كذلك تربيباً للنعم ، وتمحيصاً للإيمان ، وإرادة للثواب .
ثم يقول الحق سبحانه

﴿ثُمَّ أَشَدُّ مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا مَّا خَرِين﴾ (٣٧)

أى من بعد قوم نوح عليه السلام ، وقلنا إنَّ القرن : الزمن الذى يجمع أناساً متقاربين فى مسائل الحياة ، وانتهى العلماء إلى أن

القرن مائة عام ، أو إلى ملك مهما طار ، أو رسالة مهما طالت كلها نسمى قرناً^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَارْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٣٢)

جاء بعد قوم نوح عليه السلام قوم عاد ، وقد أرسل الله إليهم سيدنا هوداً عليه السلام ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ ﴾ (٦٥) [الاعراف] وقد دعاهم بنفس دعوة نوح - ﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ ﴾ (٣٢) [المؤمنون] وقال لهم أيضاً ، ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٣٢) [المؤمنون]

إذن هو منهج موحد عند جميع الرسالات ، كما قال سبحانه . ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ ﴾ (١٣) [الشورى]

فدين الله واحد ، نزل به جميع الرسل والأنبياء ، فإِنْ قُلْتَ فَمَا بَالُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا ۚ ﴾ (٤٨) [البقرة]

نقول : معصم ، لأن الحقائق والاصول هي الثابتة التي لا تتغير .

(١) قال الأزهري القرن أمل كل مدة كان فيها شيء أو كان فيها طبقة من أهل العلم . قلت السنون أو كثرات ، والنيل على هذا قول النبي ﷺ . حركم قرنى - بمعنى أصحابي - ثم الذين يلونهم - بمعنى التابعين - ثم الذين يلونهم - يعني الذين أخذوا عن التابعين ، وقال القرطبي في تفسير الآية (١٦٤/٦) . هم قوم عاد والرسول هود لأنه ما كانت أمة انقضت في إثر قوم نوح إلا عاد ،

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أما المنهج والشرعية الخاصة بالفرد فهي محل التفسير بين الرسل ، لأنها أمور تتعلق بحركة الحياة ، والحق - تبارك وتعالى - يعطى لكل بيئة على لسان رسولها ما يناسبها وما يعالج أمراضها وداوائها

والشرعة هي القانون الذي يحكم حركة حياتك ، أما الدين فهو الأمر الثابت والموحد من قبل الله - عز وجل - والذي لا يملك أحد أن يُغيّر فيه حرفاً واحداً .

لذلك ، كانت لغة الأمم أن يجعلوا أنفسهم فرقاً مختلفة وأحزاباً متباينة . وهؤلاء الذين قال الله فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ .. (١٥٩) [الأنعام]

وقامل ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ .. (١٥٩) [الأنعام] ولم يقل : فرقوا شريعته ولا منهجهم ، ذلك لأن الدين واحد عند الله ، أما المناهج والشرائع فهي مجال الاختلاف على حسب ما في الأمة من داءات ، فهؤلاء كانوا يعبدون الأوثان ، وهؤلاء كانوا يطفئون الكيل والميران ، وهؤلاء كانوا يجحدون نعم الله .. الخ .

وسبق أن أوضحنا أن اختلاف الداءات في هذه الأمم ناتج عن العزلة التي كانت تبعدهم ، فلا يدري هذا بهذا ، وهم في زمن واحد أما في رسالة الإسلام - هذه الرسالة العامة الخاتمة - فقد جاءت على موعد من التقاء الأمم وتواصل الحضارات ، فما يحدث في أقصى الشمال يعرفه من في أقصى الجنوب ؛ لذلك توحدت الداءات ، فجاءه رسول واحد خاتم التشريع صالح لجميع الأزمان ولجميع المكان ، وإلى قيام الساعة .

وأمة المسلمين في التعصب الأعمى انذى يُنزل الأمور الاجتهادية التي ترك الله لعباده فيها حرية واختياراً منزلة الأصول والعقائد التي لا اجتihad فيها ، فيتسرعون في الحكم على الناس واتهامهم بالكفر لمجرد الاختلاف في وجهات النظر الاجتهادية .

نقول ، من رحمة الله بنا أن جعل الأصول واحدة لا خلافاً عليها أم الفروع والأمور الاجتهادية التي تتأثر بالفهم من المجتهد فقد تركها الله لأصحاب الفهم ، وينبغي أن يحترم كل منا فيها رأي الآخر ، بدليل قول الله تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ مِنْهُمْ ۝٨٣﴾ [النساء]

وإلا لو أراد الحق سبحانه لَمَّا جعل لنا اجتihadاً في شيء ، ولجاءت كل مسائل الدين فهرية ، لا رأى فيها لحد ولا اجتihad ، أما الحق - سبحانه وتعالى - فقد شاعت حكمته أن يجمعنا جمعاً قهرياً على الأمور التي إن لم نجمع عليها تفسد ، أما الأمور التي تصلح على أي وجه فتركها لاجتihad خلفه .

نعليتنا - إذن - أن نحترم رأى الآخرين ، والأنتجراً عليهم بل لنحترم ما اختاره الله لنا من حرية الفكر والاجتihad

وأسوتنا في هذه المسألة سيرة رسول الله ﷺ ، وسلف هذه الأمة في غزوة الأحزاب ، فلما هبَّ الريح على معسكر الكفار فاقطعت خيامهم وشتتت شعلهم وفرُّوا من الميدان انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، لكن سرعان ما أمره ربه بالتوجه إلى بني قريظة لتأديبهم ، وأخبره - سبحانه وتعالى - أن العلائكة ما زالت على حال استعدادها ، ولم يضعوا عنهم أداة الحرب ، فجمع رسول الله الصحابة

وقال لهم : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَحْسِبُ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرْيِظَةَ »^(١) .

وفعلًا ، سار الصحابة نحو بني قريظة فيما بين العصر والمغرب ، فعلمهم مَنْ خَافَ أَنْ يَدْرِكَهُ الْمَغْرِبُ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ الْعَصْرَ ، فصلى في الطريق ومنهم مَنْ التزم بأمر رسول الله ﷺ بالأُ يَصَلِّي إِلَّا فِي بَنِي قَرْيِظَةَ ، حتى وإن أدركه المغرب ، حدث هذا الخلاف إذن بين صحابة رسول الله وفي وجوده ، لكنه خلاف فرعى ، لَمَّا رَفَعُوهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَافَقَ هَؤُلَاءِ ، وَوَافَقَ هَؤُلَاءِ ، وَلَمْ يَنْكَرْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَا اجْتَهَدَ .

إذن في المسائل الاجتهادية ينبغي أن نحترم رأى الآخرين ؛ لذلك فالعلماء - رضى الله عنهم - وأصحاب الفكر المعتزّن يقولون : رأى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب . فليت المسلمين يتخلصون من هذه الآفة التي فرقتهم ، وأضعفت شوكتهم بين الأمم . ليتهم يذكرون دائماً قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا لَسْتُ بِتَمِّمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (١٥٩) [الانعام]

ولما تكلم الحق - تبارك وتعالى - عن مسألة الوضوء ، قال سبحانه

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ .. ﴾ (٦) [الاحزاب]

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البيهقي في صحيحه (١١١٩) وكذلك مسلم في صحيحه - كتاب الجهاد والسير (ج ٦٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي ﷺ نادى فيهم يوم انصرف عنهم الأعراب : « ألا يصلين أحد الظهري إلا في بني قريظة » وفي لفظ : العصر .

نلاحظ أنه تعالى عند الوجه قال ﴿فَاغْسُوا وُجُوهَكُمْ ..﴾ (٦) [المائدة] دون أن يحدد للوجه حدوداً ، لماذا ؟ لأن الوجه لا خلاف عليه بين الناس ، لكن في الأيدي قال : ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ..﴾ (٦) [المائدة] فحدد اليد إلى المرفق ؛ لأنها محل خلاف ، فمن الناس من يقول : الأيدي إلى الكتف ، ومنهم من يقول : إلى المرفق ، ومنهم من يقول : هي بكف اليد .

لذلك حددها ربنا - عز وجل - ليُخرجنا من دائرة الخلاف في غسل هذا العضو ، ولو تركها - سبحانه وتعالى - دون هذا التصديد لكان الأمر فيها مناجاً : يغسل كل واحد يده كما يرى ، كذلك في الرأس قال سبحانه ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ..﴾ (٦) [المائدة] وتركها لاحتتمالات الباء التي يراها البعض للإصاق ، أو للتحذية ، أو للتبعيض .

إذن حين ترى مخالفاً لك في مثل هذه الأمور لا تنتهمه ؛ لأن النص أجاز له هذا الاختلاف ، وأعطاه كما أعطاك حق الاجتهاد .
ثم قال الحق سبحانه .

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ
وَأُتْرِفْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا
تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (٢٢)

تكلما عن معنى ﴿الْمَلَأُ ..﴾ (٢٢) [المزموذ] وهم عَيْنُ الْأَعْيَانِ وأصحاب السلطة والنفوذ في القوم ، والذين يضايقهم المبهج الإيمانى ، ويقصى على مكانتهم ، ويقف في وجه طغيانهم وسيطرتهم واستضعافهم للخلق .

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ [المؤمنون] تماماً كما حدث مع سابقينهم من قوم نوح ﴿ وَكَذَّبُوا بِإِيفَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴾ [المؤمنون] مادة : ترف مثل فرح ، نقول : ترف الرجل يترف إذا تنعم ، فإذا زدت عليها الهمزة (أترف) نقول أترفته للنعمة ، أترفه الله ، يعنى : كسنت النعمة سبب طغيان ، ووسع الله عليه فى النعمة ليتسع فى الطغيان .

وفى هذا المعنى ورد قوله تعالى . ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ .. ﴾ [الأنعام] يعنى من منهج الحق ﴿ فَحَقًّا عَلَيْهِمْ أُتُوا بِكُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام]

ذلك ، ليكون الأخذ أقوى وأعنف وأبلغ فى الإبلام والحسرة ، وسبق أن ذكرنا تشبيهاً أضحك الحاضرين كثيراً ، والله تعالى - المثل الأعلى - ، قلنا إن الله تعالى إذا أراد أن يوقع معانداً لا يوقعه من فوق الحصيرة ، إنما يوقعه من فوق كرسى عال ومكانة رفيعة ، ليكون (الهدر) أقوى وأشد .

فإن أخذ الإنسان العادى الذى لا يملك ما يتحسر عليه من مال أو جاه أو منصب ، فالامر هين ، أما حين يرقى رتبة ريعلى منزلته ويترف فى النعيم ، ثم يأخذه على هذه الحال فلا شك أنه أخذ عزيز مقتدر وهذا أشد وأنكى .

إذن أترفناهم يعنى : وسعنا عليهم وأمددناهم بالنعمة المختلفة ليزدادوا فى كفرهم وطغيانهم ، على حد قوله تعالى ﴿ فَذَرْنَهُمْ لِي

عَمَرْتَهُمْ^(١) حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَهْمَسَهُونَ أَلَمَّْا نُبَدِّهِمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَبِين (٥٥)
نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴿ [المؤمنون]

إن الله تعالى يمدُّ لهؤلاء في وسائل الغنى والانصراف ليزدادوا منها ، ويتعمقوا في آثامها لنتمتع نحن في عذابهم والانتقام منهم

ثم يمكس القرآن عنهم هذه المقولة التي سارت على ألسنتهم جنيعاً في كل الرسالات ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. ﴾ (٢٢) ﴿ [المؤمنون]
وكان هذه الكلمة أصبحت لازمة من لوازم المكذِّبين للرسول المعاتدين لمنهج الله ، ثم يؤكدون على بَشَرِيَّةِ الرسول فيقولون ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ (٢٢) ﴿ [المؤمنون] ألم يقل كفار مكة لرسول الله ﷺ . ﴿ مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ .. ﴾ (٧) ﴿ [الفرقان]

سبحان الله ، كأنهم يتكلمون بلسان واحد مع اختلاف الالام وتباعد الأزمان ، لكن كما يقولون الكفر ملة واحدة

﴿ وَلَئِنْ أَمَلَعْتُمْ بَصَرًا لَشَأْءُ إِتَّكُمُ إِذَا الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢٦) ﴿

خاسرون إن أسمعتم بشراً مثلكم ، لكنه بشر ليس مثلكم ، إنه بشر يوحى إليه ، فإنا لا أتبع فيه بشريته ، إنما أتبع ما ينزل عليه من الوحي .

﴿ أَلَيْدُكُمْ أَنْتُمْ إِنْ أَمَلَعْتُمْ بَصَرًا لَشَأْءُ إِتَّكُمُ إِذَا الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢٦) ﴿
﴿ وَعِظْنَا أَنْتُمْ تَخْرِجُونَ ﴾ (٣٥) ﴿

(١) أي في غيهم وطمس ألبصير . قال ابن كثير في تفسيره (٢٤٧/٣) قال القرطبي في تفسيره (٤٦٦٤/١) : « النعمه في اللغة ما يفرك ويطوك ، وأصله الستر والخمر فلهذا الكثير لأن يغطي الأرض . والمراد من الحيرة والغفلة والضلالة »

إنهم ينكرون البعث بعد الموت الذي يعدهم به نبيهم ، لكن ما الإشكال في مسألة البعث ؟ أليست الإعادة أهون من البدء ؟ وإذا كان الخالق - عز وجل - قد خلقكم من لا شيء فلأن يُعيدكم من الرفات أهون ، وإن كانت كلمة أهون لا تليق في حق الله تعالى ؛ لأنه سبحانه لا يفعل أمره عن علاج ومزاولة . إنف عن كلمة « كُنْ » لكن الحديث في هذه المسألة يأتي بما تعارفت عليه العقول ، وبما يُقرب القضية إلى الأذهان

﴿ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴾ (٣٦)

﴿ هَيَّاتَ .. ﴾ (٣٦) [المؤنبد] اسم فعل بمعنى بَعُدَ ، يعني بَعُدَ هذا الأمر ، وهو أن ترجع بعد الموت ، وبعد أن صرنا عظاماً ورُفَاتًا . والكلمة في اللغة إما اسم أو فعل أو حرف . الاسم ما دلَّ على معنى مستقل بالفهم غير مرتبط بزمن ، فحين نقول سماء نفهم أنها كل ما علاك فاضلك . والفعل كلمة تدل أيضاً على معنى مستقل بالفهم لكنه مرتبط بزمن ، فحين نقول : أكل نفهم المقصود منها ، وهي متعلقة بالزمن الماضي ، أما الحرف فكلمة تدل على معنى غير مستقل بذاته ، فالحرف (على) يدل على معنى الاستعلاء ، لكن استعمال أى شيء ؟

فالمعنى - إذن - لا يستقل بذاته ، إنما يحتاج إلى ما يوضحه ، كذلك (في) تدل على الظرفية ، لكن لا تُحدد بذاتها هذه الظرفية . كذلك من الابتداء وإلى للغاية ، ولكل من الاسم والفعل والحرف علامات خاصة يُعرف بها .

وغير هذه الثلاثة قسم رابع جاء مخالفاً لهذه القاعدة ، لذلك

يسمونه الخالفة وهو اسم الفعل مثل (هيات) أى بُعد . فهو اسم يدل على معنى الفعل دون أن يقبل علامات الفع . ومثله شتان بمعنى تفرق ، أف بمعنى أتضجر . الخ

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم أنهم قالوا

﴿ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا

وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٣٧)

لقد استبعد هؤلاء أمر البعث ، لأنهم لا يعتقدون فى حياة غير حياتهم الدنيا ، فالامر عندهم محصور فيها ﴿ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا .. ﴾ [المؤمنون] (٣٧) إن حرف نفي يعنى ما هي ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿ مَا هُنَّ أَمْهَاتُهُمْ إِنَّمَا هُنَّ أَمْهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ .. ﴾ (٧) [المجادلة] يعنى : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدتهن .

وقوله ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا .. ﴾ (٣٧) [المؤمنون] قد يظن البعض أنهم بهذا القول يؤمنون بالبعث ، لأنهم قالوا . (نموت ونحيا) فكيف يُفكرونه ؟

والمراد : نموت نحن ، ويحيى من خلف بعدنا من أولادنا ، بدليل قولهم بعدها : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٣٧) [المؤمنون]

﴿ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

وَمَا نَحْنُ لَمُْؤْمِنِينَ ﴾ (٣٨)

يعنى . الرجل الذى أخبركم بمسألة البعث ﴿ افترى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا .. ﴾ (٣٨) [المؤمنون] وعجيب منهم هذا القول فهم يعرفون الله ويعترفون ﴿ افترى عَلَى اللَّهِ .. ﴾ (٣٨) [المؤمنون] فكيف يكون إلها دون أن يُبلغكم رسالة على لسان رسوله ؟ وإلا ، فكيف ستعرفون منهج الله ؟ قالوا . بالمقل . لكن العقل فى هذه المسألة لا يصح .

وسبق أن متلنا لذلك - وقد العتل الأعلى - هب أننا نجلس في حجرة مغلقة ودق جرس الباب ، لا شك أننا سنتفق جميعاً على أن طارقاً بالباب ، وهذا يسمى « تعقل » ، لكننا سنختلف في التصور أهو رجل ؟ أم امرأة ؟ أم طفل ، أهو بشير أم نذير ؟ ... الخ

إذن نتفق حين نقف عند التعقل ، لكن كيف نعرف من بالباب ؟ نجمله هو يخبر عن نفسه حين نقول : من الطارق ؟ يقول : أنا فلان ، وجئت لكذا وكذا ، فمن الذي يبلغ عن التعقل ؟ صاحبه .

وكذلك عقلك يؤمن بأن الكون له خالق ولابد تدل عليه آيات الكون ، فأتت لو نظرت إلى لعبة الكهرباء هذه التي تنير غرفة واحدة ، وتاملت لو وجدت وراءها مصانع وعدداً وآلات وعمالاً ومهندسين ومخترعين ، ومع ذلك لها قدرة محدودة ، ولها عمر افتراضي وربما كسرت لأي سبب وطلعت .

أفلا تنتظر كذلك إلى الشمس وتأمل ما فيها من آيات وعجائب ، وكيف أنها تنير نصف الكرة الأرضية في وقت واحد دون أن تقطع ودون أن تحتاج إلى صيانة أو قطعة غيار ، ومع ذلك لم يدعها أحد لنفسه ، أفلا يدل ذلك على أن وراء هذا الخلق العظيم خالقاً أعظم ؟

إذا كنا نؤرخ لمكتشف الكهرباء ومخترع لمصباح الكهربائي ، ونذكر ماذا صنع ؟ وكيف توصل إلى ما توصل إليه ، أليس يجدد بنا أن نبحث في خالق هذا الكون للعجيب ؟

إنك لو حاولت أن تنتظر إلى قرص الشمس أثناء النهار ، فإن نظرك يكل ولا تستطيع ، وإذا اشتدت حرارتها لا يطيقها أحد ، مع أن بينك وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، كل ثانية فيها ثلاثمائة ألف كيلومتر ، فأي طاقة هذه التي تنبعث من الشمس ؟

ومن عجائزها أيضاً أنك تشعر بحرارتها على الأرض المنبسطة
مإذا ما ارتفعت فوق جبل مثلاً أو منطقة عالية تقل درجة الحرارة مع
أنك تقترب من الشمس ، على خلاف ما لو أوقدت ناراً مثلاً فتجد أن
حرارتها تنخفض كلما ابتعدت عنها . أما أشمس فكما اقتربت منها
قلت درجة الحرارة ، فمن يقدر على هذه اظاهرة ؟

فإذا جاء مَنْ يخبرني أنه خالق هذه الشمس أقول له : إذن هي لك ،
إلى أن يأتي منازع يدعيها لنفسه ، ولم يأت منازع يدعيها إلى الآن
وقولهم ﴿الْفَسْرَى ..﴾ (٣٨) [المؤمنون] مبالغة منهم في حق
رسولهم ، لأن الافتراء ، تعمّد الكذب ، والكذب كما قلنا : أن يأتي
الكلام مخالفاً للواقع ، وقد يأتي الكلام مخالفاً للواقع لكن حسب علم
صاحبه ، فهو في ذاته صادق

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنتُ بِنَاصِرًا﴾

سبحان الله ، كان تاريخ الرسالات يعيد نفسه مع المكذّبين ،
وكانه (أكلشييه) ثابت على السفة الرسل . اعبدوا الله ما لكم من إله
غيره ، فيتهمونه ويكذبونه ويقولون : ما أنت إلا بشر مثلنا ، فتأتي
النهاية واحدة . رب انصُرْنِي بِمَا كُنتُ بِنَاصِرًا . يعنى أبدلى بتكذيبهم
نصراً

هذه قرلة هود - عليه السلام - حين كذّبه قومه ، وقولة نوح ،
وقرلة كل نبي كذّبه القوم ؛ لأن الرسول حين يكذب من امرسل إليهم
لا يفرح إلا إلى مَنْ أرسله . لأن مَنْ أرسله وعده بالنصرة والتأييد .
﴿وَأَنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْعَالُونَ﴾ (١٧٣) [الصافات]

وقال . ﴿وَلْيَصْرِنُ اللَّهُ مَنْ يَصْرُهُ﴾ . ﴿٤٠﴾ [المعج]
 وقال سبحانه . ﴿وَلَقَدْ مَبَّتْ كَلِمَتًا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ
 الْمُنصُورُونَ﴾ (١٧٢) [المصافات]

فالمعنى انصرني لانك ارسلتني ، وقد كذبني القوم بعد ان
 استنفذت في دعوتهم كل اسبابي ، ولم يَعدْ لي بهم طاقة ، ولم يَعدْ
 لي إلا معونتك . والإنسان حين يستنفد كل الاسباب التي معه الله
 إياها دون أن يصل إلى غايته فقد أصبح مضطراً دليلاً في قوله
 سبحانه . ﴿أَمْ يَجِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَا﴾ .. ﴿٦٢﴾ [النمل]

ذن لا تلجأ إلى الله إلا بعد أن تزدى ما عليك أولاً ، وتفرغ كل
 ما في طاقتك في سبيل غايتك ، لكن لا تعتمد عن الاسباب وتقول يا
 رب فالارض أمامك والفساس في يدك ومعك عاقبة وقدره ، فاعمل
 واستنفد اسبابك أولاً حتى تكون في جانب المضطر الذي يُجيب الله
 دعاه .

لذلك نسمع كثيراً مَنْ يقول . دعوتُ الله ولم يستجب لي ، ونقول
 له . أنت لم تَدْعُ بدعاء المضطر ، أنت تدمسو بدعاء مَنْ في يده
 الاسباب ولكنه تكاسل عنها ؛ لذلك لا يُستجاب لك .

وهذه نراها حتى مع البشر ، والله تعالى العظمى الاعلى هَبْ أَنْتَ
 صاحب مال وتجارة وجاءتك بضاعة من الجمر ك مثلاً ، وجلست
 تراقب العمال وهم يُدخلونها المفاذن . فليس من مهامك الحمل
 والتخزين فهذه مهمة العمال ، لكن هَبْ أَنْتَ رجبت عاملاً ثَقُلَ عليه
 حملُه وكاد السندوقي أن يوقعه على الأرض ، ماذا يكون موقفك ؟
 لَا شَكَّ أَنْتَ ستفزع إليه وتأخذ بيده وتساعدُه ؛ لأنه فعل كل ما في
 وسعِه ، واستفزع كل أسيابه وقواه ، فلم تضنْ أَنْتَ عليه بالعون .

كذلك ربك - عز وجل - يريد منك أن تؤدي ما عليك ولا تدعه لشيء قد جعل لك فيه أسباباً ؛ لأن الأسباب يد الله الممدودة لخلقها . فلا تود يد الله بالأسباب لتطلب الذات بلا أسباب .

لذلك جاء قول الرسل الذين كذبوا : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي .. ﴾ (٣٦)
[المؤمنون] ليس وأنا قاعد متخاذل متهاون ، ولكن ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ (٣٧)
[المؤمنون] يعني . فعلت كل ما في وسعي ، ولم يعد لي بهم طاقة
فتأتي الإجابة على وجه السرعة .

﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ (٣٨)

﴿ عَمَّا قَلِيلٍ .. ﴾ (٣٨) [المؤمنون] يعني : بعد قليل ، - (عن) هنا بمعنى بعد ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ (٣٩)
[الاشفاق] يعني : بعد طبق .

ام ﴿ عَمَّا .. ﴾ (٤٠) [المؤمنون] هنا فقد دلت على الظرف الزمني ؛
لأن المراد بعد قليل من الزمن

﴿ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ (٤٠) [المؤمنون] حين يقع بهم ما كانوا به
يكذبون ، ويحلّ عليهم العذاب يندمون ، لأنهم لن يستطيعوا تدارك ما
فاتهم ، فليس أمامهم إذن إلا الندم ، وهذه المسألة دلت على أن
القطرة الإنسانية حين لا تختلط عليها الأمواء تنتهي في ذاتها إلى
الحق ، وإن أخرجها الغضب إلى الباطل ، فإنها تعود إلى توازنها وإلى
الجادة حين تهدأ ثورة الغضب

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا أدلة وإشارات حول هذه القضية
في قصة ولدي آدم عليه السلام فيقول : ﴿ وَأَتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ
بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ

إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ [المائدة]

إلى أن قال سبحانه : ﴿ فَطَرَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ .. ﴾ (٢٥) [المائدة] فجاء القتل أثراً من آثار الغضب . والمفروض أنه بعد أن قتله شفى نفسه ، ويتبغى له أن يسرّ لاته حقيق ما يريد ، لكن ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (٢٦) [المائدة]

أى : بعد أن هدأت ثورة الغضب بداخله ندم على ما فعل ، لماذا ؟ لأن هذه طبيعة النفس البشرية التى لا تطغىها ولا يخرجها عن توازنها إلا الهوى ، فإن خرج الهوى عادت إلى الاستقامة وإلى الحق ، وكان الله تعالى خلق فى الإنسان مقاييس يجب ألا تُفسدما الأهواء ولا يُخرجها الغضب عن حد الاعتدال لذلك يقولون : آفة الرأى الهوى .

لقد استيقظ قابيل ، لكن بعد أن رأى عاقبة السوء التى وصل إليها بتسرعه ، لكن التكى يستيقظ قبل ردّ الفعل .

لكن ، لماذا اختار لهم وقت الصباح بالذات . ﴿ لُبَّصْبَحُنْ نَادِمِينَ ﴾ (٤٠) [المؤمنون] المتتبع لما حاق بالأمم المكّبة من العذاب والانتقام يجد أنه غالباً ما يكون فى الصباح ، كما قال تعالى . ﴿ أَلْبِعْذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿ (١٧٧) [الصافات]

وقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ صَبَحَ بِكَرَّةٍ عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ (٢٨) [العر]

وقال سبحانه ﴿ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴾ (٧١) [الظم]

ذلك . لأن الصباح يعقب فترة النوم والضمول الحركى ، فيقومون من نومهم فيفاجئهم العذاب ، ويأخذهم على حين غفلة وعدم استعداد لمواجهة ، على خلاف إن حاءهم العذاب أثناء النهار وهم مستعدون .
ويدمهم على أنهم كذبوا أمراً ما كان ينبغي أن يكذب وقد جرّ

عليهم الويلاب . واندم على خير فات من طبيعة النفس البشرية التي عادة ما تغلبها الشهوة ويُغريها احقق برد الحق ، ويمنعها الكبر من الانصياع للرسول خاصة وهو بشمر مثلهم ، ويريد في ظنهم أن يستعلى عليهم ، لكن حين يواجهون عاقبة هذا التكذيب ونتيجة هذا لحق يدمرون . ولات ساعة مندم .

إذن . فشهوة النفس تجعل الإنسان يقف موقفاً ، إذا ما جُوزى عليه بالشدة يندم أنه لم يُبغذ ولم يطع ، يندم على غطرسته في موقف كان ينبغي عليه أن يتنازل عن كبريائه ، لذلك يقولون من المشجاعة أن تجهن ساعة

ويحسن ذلك إذا كنت أمام عدو لا تقدر على مجابته ، ونذكر للرئيس الراحل السادات مثل هذا الموقف حين قال لا أستطيع أن أحارب أمريكا ، فالبعض فهم هذا القول على أنه ضعف وجبن ، وهو ليس كذلك ، إنما هو شجاعة من الرجل ، شجاعة من نوع راق ؛ لأن من الشجاعة أيضاً أن تشجع على نفسك ، وهذه شجاعة أعلى من الشجاعة على عدوك ، وتصور لو دخل السادات مثل هذه الحرب مهزماً كيف سيكون ندمه على شجاعة متهورة لا تحسب العواقب . وقد رأينا عاقبة الجراءة على دخول حرب غير متكافئة .

ثم يقول الحق سبحانه

فَلَا تَخْذَلْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَبَعَلْنَاهُمْ دُمُوعًا
فَبَعَثْنَا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾

ما دام أن الحق - تبارك وتعالى - توعدهم وحدد لهم موعداً ،

فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ بِهِمْ هَذَا الْوَعْدُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ ، وَالْأُلوَ مَرَّ دُونَ أَنْ يَصِيبَهُمْ مَا يَنْدَمُونَ لِأَجَلِهِ لِأَنَّهُمْ الْمَبْدَأُ مِنْ أَسَاسِهِ ، مَا دَامَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَهَا وَسَجَّلَهَا عَلَى نَفْسِهِ سُبْحَانَهُ فِي قُرْآنٍ يَحْفَظُهُ هُوَ .

﴿عَمَّا قَبْلُ لِبَشَرٍ نَادِمِينَ﴾ (٤٤) [المؤمنون] فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ الْعَذَابُ فِي الصَّبَاحِ .

لِذَلِكَ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ ..﴾ (٤٥) [المؤمنون] لَا بِالْإِظْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ قِيلَ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ . ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (٤٦) [الصافات] وَالْمَعْنَيَانِ يَلْتَقِيَانِ ، لِأَنَّ الرِّيحَ الْمَصْرَصِرَ لَهَا صَوْتٌ مَزْمَجِرٌ كَانَهُ الصَّيْحَةُ وَالْمَصْرَاحُ .

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غَضَاءً ..﴾ (٤٧) [المؤمنون] الْغَضَاءُ : مَا يَحْمِلُهُ لَسِيلٌ مِنْ قَشٍ وَأَوْرَاقٍ وَبَقَايَا النَّبَاتِ ، فَتَكُونُ طَبَقَةً طَافِيَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ تَذْهَبُ بِهَا الرِّيحُ فِي إِحْدَى الْجَوَانِبِ ، وَالْغَضَاءُ هُوَ الزَّيْدُ الَّذِي قِيلَ الْحَقُّ سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ ﴿فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ فِمَكْثٌ فِي الْأَرْضِ ..﴾ (٤٨) [الرحمن]

وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ قَالَ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : «يُوشِكُ أَنْ تَقْدَأَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَمَا تَقْدَأَى الْأَكْلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا - يَعْنِي : يَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِمَحَارِبَتِكُمْ كَمَا أَنَّكُمْ غَنِيمَةٌ يَرِيدُونَ قَتْلَهَا - فَقَالُوا : أَمِنْ قَلَّةِ نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ يَوْمٌ كَثِيرٌ . وَلَكُمْ غَضَاءٌ كَفُّهُ السَّيْلُ»^(١) يَعْنِي : شَيْئًا هَيِّنًا لَا قِيَمَةَ لَهُ يَذْهَبُ سَرِيعًا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٩) [المؤمنون] أَيْ بُعْدًا لَهُمْ عَنْ رَحْمَتِنَا وَنِعْمَتِنَا الَّذِي كُنَّا نُمْنِيهِمْ بِهِ وَنَعْدُهُمْ بِهِ لَوْ آمَنُوا .

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٢٧٨/٥) ، وَابُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ (٤٢٩٧) مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

وليس البعد عن العذاب ، لأن البعد مسافة زمنية أو مكانية ، نقول : هذا بعيد ، أى : زمنه أو مكانه ، المراد هنا البعد عن النعيم الذى كان ينتظرهم إن آمنوا .

والظلم كما قلنا أخذ حق الغير ، والشرك هو الظلم الاعظم ، لأنه ظلم فى مسألة القمة ، والبعض من السطحيين يظن أن الشرك ظلم عظيم ، لأنك ظلمت الله سبحانه وتعالى ، لأنك أنكرت وجوده وهو موجود ، وأشركت معه غيره وهو واحد لا شريك له ، نعم أنت ظلمت ، لكن ما ظلمت الله ؛ لأنه سبحانه لا يظلمه أحد ، وإن كان الظلم - كما نقول - أخذ حق الغير ، فحق الله محفوظ وثبت له سبحانه قبل أن يوجد من يعبرف له بهذا الحق ، حق الله ثابت مهما علا الباطل وتجعجج أهل الضلال

لذلك يقول عز وجل ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى . ٤١ ﴾ [التوبة] وفى المقابل ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا . ٤٢ ﴾ [التوبة] ولم يقل قياساً على الأولى وكلمة الله العلي ، لأن معنى ذلك أن كلمة الله لم تكن عليا فى يوم ما ؛ لذلك جاءت كلمة الله مرفوعة على صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبوت ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا . ٤٢ ﴾ [التوبة] أى : دائماً ومهما عكّت كلمة الكافرين ، لماذا ؟

قالوا : لأن عكرو كلمة الكافرين فى ذاته علو لكلمة الله ، فلماذا علا الكفر واستشرى شره ولساده بعض الناس ويوقظ غفلتهم وينبئهم إلى حسنة الكفر ونذاته وما جرّه عليهم من ظلم وفساد فينكروه ويعودوا إلى جادة الطريق ، وإلى الحق الثابت لله عز وجل .

إذن فكلمة الله هي العليا مهما كانت الجولة لكلمة الذين كفروا ، وكما يقولون والضمد يظهر حسنه الضد والله عز وجل لا يسلم

الحق ، ولكن يتركه ليبلر قِيرة الناس عليه ، فإن لم يفاروا عليه غار هو عليه .

وما دامو ما ظلموا الله ، ولا يستطيعون ذلك ، فما ظلموا إلا انفسهم ، وإن عقل ظلمك لغيرك وأخذك لحقه فلا يُعقل ظلمك لنفسك ؛ لأنه أبشع أنواع الظلم وأبلغها .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ ١٢

قبل عدة آيات قال الحق تبارك وتعالى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ [المؤمنين] فجاءت قرناً بصيغة المفرد ، لأن الحديث مقصور على عاد قوم هود ، أما هنا فقال تعالى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا .. ﴾ [المؤمنين] لأن الكلام سيأتي عن أمم ورسالات مختلفة ومتعددة ، فجاءت (قرونًا) بصيغة الجمع ، قرونًا متتابعة أو متعاصرة كما تعاصر إبراهيم ولوط ، وكما تعاصر موسى وشعيب عليهم جميعاً وعلى نبينا الصلاة والسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ ١٣

تأملوا هذه الآية جيداً وارعوها انتباهكم ، فلكل أمة أجل تنتهي عنده تماماً ، مثل أجل الأفراد الذي لا يتقدم ولا يتأخر ، فقرن بعد قرن ، وأمة بعد أمة ، تمرُّ بأطوار شتى كأطوار حياة الإنسان ، ثم تنتهي إلى ذوال ويعقبها غيرها .

فلكل أمة رسول يحسن إليها دعوة الله ومنهجه ويجاهد في سبيل نشرها إلى أن ينصره الله وتنتشر دعوته ويتمسك الناس بها ، ثم

تصيبهم غفلة وفتور عن منهج الله ، فينصرفون عنه ويختلفون ويتفرقون ، فيكون ذلك إيذانا بزوالها ثم يخلفها غيرها ؟

كذلك في مسألة الحضارات التي نندثر ليحل محلها حضارات أخرى أقوى ، نسمع عن حضارة قديمة في مصر وفي الصين وفي اليمن ، نسمع عن الحضارة الرومانية والفينيقية .. الخ حضارات تتوالى وتأخذ حظها من الرقي والرفاهية ، وتورث أصحابها رخاوة وطراوة ، وتبدلهم بالجّد والقوة ليذا وضعفاً ، فيغفلوا عن أسباب رقيهم وتقدمهم ، فتتهدم حضارتهم ويحل محلها أقوى منها وأصلب .

وهذا مثال ونموذج في حضارة بلغت أوج عظمتها ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرِمَ ذَاتَ الْاَعْمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَتَمُودَ الَّذِي جَابُوا الصَّخِرَ بِالْاَوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْاَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر]

والى الآن ، ونحن نرى آثار الحضارة الفرعونية ، وكيف أنها تجذب انتباه أصحاب الحضارات الحديثة ونفال إعجابهم ، فيأتون إليها من كل أنحاء العالم ، مع أن حضارة عاد كانت أعظم منها ، لأن الله تعالى قال في حقها ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) ﴾ [الفجر]

ومع ذلك لا نرى لهم أثراً يدل على عظم حضارتهم ، ولم يكن لهذه الحضارة مناعة لتحمي نفسها ، أو تحفظ لها بشيء ، فانهارت وبادت ولم يبقَ منها حتى أثر .

كذلك أتباع الرسل يمرون بمثل هذه الدورة ، فبعد قوة الإيمان تصيبهم اللغفة وينسرب إليهم الضعف وسوء الحال ، إلى أن يرسل الحق سبحانه رسولا جديداً

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (١٣) ﴾ [المؤمنون]

المعنى في الجملة الأولى واضح ، فأي أمة لا يمكن أن تسبق

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

﴿١٠٠﴾ ١٠٠

أجلها الذي حدده الله لها ، ولا يمكن أن تفتى أو تقوض قبل أن يصر
هذا الأجل

لكن ما المراد بقوله سبحانه . ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (٤٢) [المؤمنون]
كيف يتأتى ذلك ؟ نعمنا . لا تسبق أجلها يعنى أجلها أن تقوض بعد
عشرين سنة ، فلا يمكن أن نقوض قبل خمس عشرة ، أما كونها
تستأخر بعد أن بلغت العشرين إلى عشرة ، فكيف يتم ذلك ؟

نقول لا تستأخر يعنى : من حيث الحكم هي لا تسبق الأجل
وهي محكوم عليها بأنها لا تستأخر ، لأن الاستئثار بعد بلوغ الأجل
مستحيل كما لو قلنا شخص بلغ سن العشرين لا يقدر أن يموت
في العاشرة . فالمعنى : الأهل فيه أنه لا يستأخر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَلَّجَاءً أَمْرَهُ رَسُولُهُمَا كَذِبٌ
فَاتَّبَعْنَا بِعَصْمِهِمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَظْمِنَا
لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٤)

﴿تتراً ..﴾ [المؤمنون] يعنى متوالين يتبع بعضهم بعضاً ؛
لذلك قلنا البعض فعلاً وهي ليست بفعل ، بدليل أنها جاءت في قراءة
أخرى^(١) (تتراً) بالتثوين والفعل لا يُنُون ، إذن هي اسم ، والآلف
فيها للتأنيث مثل حبلى

أضف إلى ذلك أن التاء الأولى تأتي في اللغة بدلاً من اللواو ، كما
جاء في الحديث الشريف من نصيحة النبي ﷺ . « اصفظ الله

(١) في قراءة ابن كثير رأيي مسرور بالتثوين على أنه مصدر أدخل فيه التثوين على فتح الراء
[تفسير القرطبي ٤/٦٠٩]

يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك - أو وجاهك ،^(١) يعنى . مواجهك .

فإذا أبدتُ النّاء الأولى فى (تقرأ) واوا تقول (وقرأ) يعنى متتابعين فرداً فرداً ، والوتر هو الفرد .

ثم يقول سبحانه ﴿ كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ .. (١٤) ﴾ [المؤمنون] فهذه طبيعة ولازمة من لوازم المرسل إليهم ، وما من رسول أرسل إلى قوم إلا كذبوه ، ثم يلجأ إلى ربه . ﴿ قَالَ رَبِّ اصْرِفْ بَعْدِي كَذِبُونِ (٢١) ﴾ [المؤمنون]

ولو لم يكذب الرسول ما كان هناك ضرورة لإرساله إليهم ، وما جاء الرسول إلا بعد أن استشرى الباطل ، وعمّ الطغيان ، فطبيعى أن يكذب من هؤلاء المنتقمين بالشر المستعدين من الباطل والذين يدافعون عنه بكل قواهم ، وكان تكذيبهم للرسول دليل على صواب مجرى الرسل ، وإلا لما كان هناك ضرورة لرسالات جديدة .

وقوله تعالى . ﴿ فَاتَّبَعَنَا بِفَضْلِهِمْ بَعْضًا .. (١٤) ﴾ [المؤمنون] يعنى . يعضى واحد ويأتى غيره من الرسل ، أو نهلك المكذبين ثم يأتى بعدهم آخرون ، فيكذبون فنهلكهم أيضاً .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ .. (١٥) ﴾ [المؤمنون] أحاديث : إما جمعاً لحديث كما نقول . أحاديث رسول الله ﷺ أو جمع أحذوتة . وهى المقولة التى يتشذق بها الجميع ، وتلوكب كل الألسنة . ومن ذلك قول الإنسان إذا كثّر كلام الناس حوله (جعلوتى حدوتة) يعنى على سبيل التوبيخ والتقريع لهم .

فقوله ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ .. (١٥) ﴾ [المؤمنون] كانه لم يبقَ منهم

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٩٢/١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧) والترمذى فى سننه (٢٥٩٦) .
وقال : حديث حسن صحيح . من حديث عبد الله بن عباس .

أثر إلا أن نتكلم عنهم ، ونذكرهم كتابيخ يُحْكِي ، وفي موضع آخر قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ﴾ (٤٦) [سبا] ثم يقول تعالى عنهم كما قال عن سابقينهم . ﴿ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤٧) [المؤمنين] يعني . بُعْدًا لهم عن رحمة الله ، وبُعْدًا لهم عن نعيم الله الذي كان ينتظرهم ، ولما أنهم آمنوا لنالوه . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ
بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ (٤٨)

تكررت قصة موسى - عليه السلام - كثيرا ومعه أخوه هارون ، كما قال ﴿ اشدُّدْ بِهِ أَزْدِي ﴾ (٤٩) وأشركه في أمري ﴿ (٣٧) ﴾ [طه] والبعض يظن أن موسى جاء برسالة واحدة ، لكنه جاء برسالتين : رسالة خاصة إلى فرعون ملخصها . ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْلِبْهُمْ .. ﴾ (٤٧) [طه] وجاء له بمعجزات تثبت صدق رسالته من الله ، ولم يكن جدال موسى لفرعون في مسألة الإيمان جزءا من هذه الرسالة ، إنما جاء هكذا عرضا في المناقشة التي دارت بينهما

والرسالة الأخرى هي رسالته إلى بني إسرائيل متضمنة في التوراة

وقوله ﴿ بِآيَاتِنَا .. ﴾ (٤٨) [المؤمنين] قلنا إن الآيات جمع آية ، وهي الشيء العجيب المألقت للنظر الفائق على نظرائه وأقرانه ، والذي يكرم ويفخر به . والآيات إما كونية بآلة على قدرة الله في الخلق كالشمس والقمر . إلخ كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. ﴾ (٣٧) [نصبت]

ومهمة هذه الآيات الكونية أن تُلغى نظر المخلوق إلى يبيع صنع الخالق وضرورة لإيمان به ، فمنها نعلم أن وراء الكون البديع خالقاً وقوة تعدّه وتديره ، فمن يمدّ هذه الشمس بهذه القوة الهائلة ؟ إن التيار الكهربائي إذا انقطع نُظفنا هذه اللمبة ، فمن خلق الشمس من عدم ، وأمدّها بالطاقة من عدم ؟

إن : وراء هذا الكون قوة ما هي ؟ وماذا تطلب منا ؟ وهذه مهمة الرسول أن يُبلغنا ، ويُجيب لنا عن هذه الأسئلة

وتُطلق الآية أيضاً على المعجزة التي تثبت صدق الرسول في البلاغ عن الله

وتُطلق الآية على آيات القرآن الحاملة للأحكام والحاوية لمنهج الله إلى خلقه .

ثم يقول تعالى : ﴿وَسُلْطَانٌ مُّبِينٌ (٤٥)﴾ [المؤمنون] فعطف ﴿سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (٤٥)﴾ [المؤمنون] على ﴿بِآيَاتِنَا .. (٤٥)﴾ [المؤمنون] وهذا من عطف الصفة على الموصوف لمزيد اختصاص ، لأن الآيات هي السلطان ، فالسلطان . الحجة . والحجة على الوجود الأعلى آيات الكون ، والحجة على صدق الرسول المعجزات ، والحجة على الأحكام الآيات الحاملة بها

وسمّي معجزة مرسى عليه السلام (العصا) سلطاناً مبيناً أي . محيطاً ؛ لأنها معجزة متكررة رأينا لها عدة حالات . فهذه العصا الحامية مرة تنقلب إلى حية تَلَقُّ الحيات ، ومرة يضرب بها البحر فينقلب . ومرة يضرب بها اسجر فيتفجر منه الماء ، وفوق ذلك قال عنها : ﴿وَلِيَّ فِيهَا مَأْوٍ أُخْرَى (١٨)﴾ [طه]

ومن معاني السلطان . انقهر على عمل شيء أو الإقناع بالحجة لعمل هذا الشيء . لذلك كانت حجة إبليس الوحيدة يوم القيامة أن يقول لاتباعه . ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ (١٢) [إبراهيم] يعني كنتم رهن الإشارة ، إنما أنا لا سلطان لي عليكم ، لا سلطان قهر ، ولا سلطان حجة لذلك قال في النهاية . ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ .. ﴾ (١٣) [إبراهيم] والإنسان يصرخ إذا قرّعه أمر لا حيلة له به ، فيصرخ استنفاراً لمعين يُعينه ، فمن أسرع إليه وأعانه يقال أصرخه يعني : أزال سبب صراخه

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ (١٤)

﴿لِرُغْوَنَ ..﴾ (١٤) [المؤسدين] لقب لكل من كان يحكم مصر . مثل كسرى في الفرس ، وفيصر في الروم ، وتكلمنا عن معنى (الملا) وهي من الامتلاء ، والمراد القوم الذين يملؤون للعيون مهابة ومنزلة ، وهم أشرف القوم وصدور المجالس ، ومنه قولهم فلان قيد التواضع يعني من ينظر إليه لا ينصرف عنه إلى غيره وقوله تعالى . ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ (١٥) [المؤمنين] والاستكبار غير التعالي ، فالمستكبر يعلم الحكم ويعترف به ، لكن يابى أن يطيعه ، ويأبى أن يصنع ما أمر به ، أما العالى فهو الذى يظن أنه لم يدخل فى الأمر من البداية

ومن هنا جاء قوله تعالى لإبليس لما أبى السجود لآدم ﴿ أَتَكْبَرُ ۚ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (٧٥) [ص]

والعالون هم العلائكة المهيمنون في الله ، والذين لا يدرون شيئا من آدم وذريته .

﴿ فَقَالُوا اتَّوَيْنَا لِشَرِّينَ مِثْلِكَ ﴾

﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ (٤٧)

اعترضوا ايضاً هنا على بشرية موسى وهارون كك حدث من الاعم السابغة ، انهم يريدون الرسول ملكاً ، كما جاء في موضع آخر ﴿ وَمَا مَنَعَ نَاسٍ اَنْ يُؤْمِنُوا اِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى اِلَّا اَنْ قَالُوا اَبَعَثَ اللّٰهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (١٤)

[الإسراء]

ومن الغباء ان يطلبوا ملكاً رسولاً ، فلو جاءهم الرسول ملكاً ، فكيف سيكون اسوة للبشر ؟ وكيف سيروته ويتلقون عنه ؟ انن . لا بُدَّ اَنْ ياتِيهم في صورة بشر ، لذلك يقول تعالى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ (١)

[الانعام]

وستنظر الشبهة قائمة ، فما الذي يجعلك تُصدّق أنّه ملك ؟

وقوله تعالى ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ (٤٧) ﴿ [المؤمنون] يعني : كيف تؤمن لموسى وهارون وقومهما - أي : بنى إسرائيل - خدام لنا ، ياتعون بأمرنا ، بل ونذلهم ونذبح أولادهم ، ونستحيي ساءهم ، ونسومهم سوء العذاب ؟

وسمى ذلك عبادة ، لأن من يخضع لإنسان ، ويطيع أمره كأنه عبده .

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ (٤٨)

أي بالفرق ، وهذه قصة مشهورة معروفة وجعلها الله مثلاً وعبرة .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٤٩)

﴿ الكتاب .. (٤٩) ﴾ [المؤمنون] أى . التوراة ، وفيه منهج الهداية
﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٤٩) ﴾ [المؤمنون] أى : يأخذون الطريق الموصِّل للهاية
الشريفة المفيدة من أقصر طريق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ
قَاتٍ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (٥٠)

بعد أن أعطانا هذه اللمعة الموجزة من قصة موسى وهارون
انتقل إلى المسيح ابن مريم ، والقرآن في حديثه عن عيسى عليه
السلام مرة يقول ابن مريم ومرة يقول . عيسى بن مريم وتسمية
عيسى عليه السلام بأمه هي التي جعلت سيدتنا وسيدة نساء العالمين
مريم ساعة تُبَشِّرُ بغيام تستتكر ذلك ، وتقول كيف ولم يمسنى
بشر ؟ ولم يخطر ببالها أنها يمكن أن تتزوج وتنجب ، لماذا ؟ لأن الله

(١) الربرة ما ارتفع من الارض قال ابن كثير في تفسيره (٢٤٦/٣) « اختلف
المفسرون في مكان هذه الربرة من أى أرض هي ؟
بمصر قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، بنس الربى إلا بمصر قال ابن كثير
وهو بعيد جدا .

- دمشق قاله سعيد بن المسيب وقال ابن عباس أمهار دمشق

- الرملة من فلسطين قاله أبو هريرة

بيت المقدس . قاله الضحاك وقتادة

قال ابن كثير « هذا راء أعلم هو الظاهر ؛ لأنه المذكور في الآية الأخرى . والقرآن يفسر
بعضه بعضا ، وهذا لو لم يكن ما يُفسَّر به لم الاحاديث الصحيحة لم الآثار »

سمّاه ابن مريم ، وما دام سمّاه بأمه ، إذن : فلن يكون له أب وليس أصعب على الفتاة من أن تجد نفسها حاملاً ولم يمسه رجل ، لأن عرض الفتاة أغلى وأعزّ ما تملك ، لذلك مهدّ الحق - تبارك وتعالى - لهذه المسألة ، وأعدّ مريم لاستقبالها ، وإعطائها العناية اللازمة لمواجهة هذا الأمر العجيب ، كما نفعل الآن في التطعيم ضد الأمراض ، وإعطاء المنة التي تمنع المرض .

فلما دخل زكريا - عليه السلام - على مريم فوجد عندها رزقاً لم يأت به وهو كفيلاً والمسئول عنها ، سألها ﴿ أَأَتَىٰ لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ ۝٣٧﴾ [آل عمران] وكان هذا الردّ من مريم عن فهم تام لقضية الرزق ، ولم يكن كلام دراويش ، بدليل أنها قالت بعدها : ﴿ إِنَّا اللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾ [آل عمران]

وفي هذا الموقف درس لكل أب ولكل وليّ أمر ورب أسرة أن يسأل أهل بيته عن كل شيء يراه في بيته ولم يأت هو به ، حتى لا يدع لأولاده فرصة أن تعتمد أيديهم إلى ما ليس لهم .

بعد انتقع زكريا - عليه السلام - بهذا القول وانتبه إلى هذه الحقيقة ، نعم زكريا يعلم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، لكن ذلك العلم كان معلومة في حاشية الشعور ، فلما سمعها من مريم خرجت إلى بؤرة شعوره ، وعند ذلك دعا الله أن يرزقه الولد وقد بلغ من الكبر عتياً ، وامراته عاقر .

وكذلك انتفعت بها مريم حين أحسّت بالحمل دون أن يمسه بشر فطمأنت : لأن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

وقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ۖ ۝٥٠﴾ [المؤمنين] فأحبر

سبحانه عن المثنى بالمقرد ﴿آية ٥٠﴾ [المؤمنون] لأنهما مشتركان فيها . مريم آية لأنها أنجبت من غير زوج ، وعيسى آية لأنه ولد من غير أب ، فالآية إذن لا تكون في أحدهما دون الآخر ، وهما فيها سواء .

لذلك يراعى النص القرآني هذه المساواة فيقدم عيسى في آية ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ۖ﴾ [المؤمنون] ويقدم مريم في آية أخرى . ﴿وَجَعَلْنَاهَا رَابِعًا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الاسماء] هذه العدالة في النص لأنهما سواء في الضرية لا يتميز أحدهما على الآخر .

والآية هي الأمر العجيب الذي يثبت لنا طلاقة قدرة الخالق في الخلق ، وحتى لا يظن البعض أن مسألة الخلق مسألة (ميكانيكية) من أب وأم ، لذلك كان وجه العجب في خلق عيسى أن يخرج عن هذه القاعدة ليجعله الله دليلاً على قدرته تعالى ، فإن أراد أن يخلق خلق من العدم ، أو من أب فقط ، أو من أم فقط ، وحتى في اكتمال العنصرين يوجد الأب والأم ، لكن لا يوجد الإنجاب ، إذن المسألة إرادة الله عز وجل ، وطلاقة لقدرة إلهية لا حدود لها .

يقول سبحانه : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۖ أَوْ يَزْوَجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ۖ﴾ [الشورى]

والآن نلاحظ أن البعض يحاول منع الإنجاب بشتى الوسائل ، لكن إن قدر له مولود جاء رغم أنف الجميع ، ورغم إحكام وسائل منع الحمل التي تفننوا فيها

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَى رِثْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون] من الطبيعي بعد أن حملت مريم بهذه الطريقة أن تضطهد

من قومها وتطارد ، بل وتستحيى هي من الناس وتتجاشى أن يراها أحد ، ألا ترى قوة تعالى عن ابنة شعيب ﴿فَجَدَّاهُ إِحْدَاهُمَا نَمِشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ .. (٢٥)﴾ [القصص] على استحياء ، لأنها ذهبت لاستدعاء فتى غريب عنها ، فما بالك بمريم حين يراها القوم حاملاً وليس لها زوج ؟ إنها مسألة أصعب ما تكون على المرأة .

لذلك لما سئل الإمام محمد عبده وهو في باريس . بأي وجه قابلت عائشة قريبتها بعد حادثة الإفك ؟ فاجابه الله الجواب وهداه إلى الصواب ، فقال : بالوجه الذي قابلت به مريم قومها وقد جاءت بحسن وادها ، ذلك لأنهم أرادوا أن يأخذوها سبية ومطعماً في جبين الإسلام

ولما كانت مريم بهذه الصفة تراها الله ودافع عنها ، فهذا يوسف النجار وكان خطيب مريم حين يرى مسألة حملها ، وهو أغبر الناس عليها بدل أن يتشكك فيها ويتهمها يتحول قلبه عليها بالمعطف . كما قال تعالى : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الاحزاب] فإذا به يخدمها ويحضر عليها لأن الله أنزل المسألة على قلبه منزل الرضا ، وكل ما قاله في محادثة مريم وفي الاستفسار عما حدث بطريقة مهذبة يا مريم أرايت شجرة بدون بذرة ؟ فاضحكت مريم وقد فهمت ما يريد وقالت نعم الشجرة التي أنبتت أول بذرة^(١) إنه كلام أهل الإيمان والفهم عن الله .

لذلك أراها الله وولدها ﴿وَأَرَيْنَاهُمَا إِلَى رَبِّهِ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥)﴾

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (١١٦/٢) وفيه أن مريم عليها السلام ردت عليه فقالت : أما قولك هل يكون شجر من غير حب وبذرة من غير بذرة فإن الله قد خلق الشجر والبرق أول ما خلقهما من غير حب ولا بذرة ، وهل يكون ولد من غير أب لو أن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم ، لصنعتها وسلم لها حالها

[المؤمنين] وساعة تسمع كلمة الإيواء تفهم أن شخصاً اضطر إلى مكان يلجأ إليه ويأوى إليه ، وكذلك كانت مريم مضطرة تحتاج إلى مكان يحتويها وهي مضطهدة من قومها . ولا بد في مكان الإيواء هذا أن تتوفر فيه مقومات الحياة ، خاصة لمثل مريم التي تستعد لاستقبال وليدها ، ومقومات الحياة . هواء وماء وطعام .

فانتظر كيف أعد الحق - سبحانه وتعالى - لمريم مكان الإيواء ﴿وَأَوْتَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ .. (٥٠)﴾ [المؤمنين] وهي المكان العالي عن الأرض المنخفض عن الجبل ، فهو معتدل الجو ؛ لأنه بين الحرارة في الأرض المستوية والبرودة في أعلى الجبل .

﴿ذَاتِ قَرَارٍ .. (٥١)﴾ [المؤمنين] يعني . توفرت لها أسباب الاستقرار من ماء وطعام ، فالماء يأتيها من أعلى الجبال ويمر عليها ماء معيناً ، يعني . تراه بعينك ، والنعام يأتيها من ثمار النخلة التي نزلت بجوارها

ومعلوم أن الربوة هي أنسب الأماكن حيث يمر عليها الماء من أعلى ، ولا يتبقى فيها مياه جوفية تضر بمزروعاتها ، لأنها تتصرف في الأرض المتخفضة عنها .

لذلك ضرب لنا الحق - تبارك وتعالى - المثل للأرض الخصبة التي تؤتي المحصول الوافر . فقال : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيحًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ .. (٥٢)﴾ [البقرة]

إذن . اختار الله تعالى لمريم القرار الذي تتوفر فيه مقومات الحياة على أعلى مستوى بحيث لا تحتاج أن تنتقل منه إلى غيره

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه وتعالى - عن قضية عامة بعد أن تكلم عن القرار ومقومات الحياة ، وهي الطعام واشرب والهواء ،

مناسب ذلك أن يتكلم سبحانه من المطعم .

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا

إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

لكن ، كيف يحاطب الحق - تبارك وتعالى - لرسول جميعاً في وقت واحد ؟ نقول ، لأن القرآن الكريم هو كلام الله القديم ، لم يأت خاصاً بمحمد ﷺ ، وإن نزل عليه فهو إذن خطاب لكل رسول جاء

وبعد أن أمرهم الحق سبحانه بالأكل من الطيب أمرهم بالعمل الصالح ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا .. (٥١)﴾ [المؤمنون] ثم يقول سبحانه : ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون] كأن الحق سبحانه يقول : اسمعوا كلامي فيما أمركم به أنا عليم وخبير بكل ما يصلحكم ، لأنني الخالق الذي أعلم كيف تستقيم بنيةكم للحركة الصالحة للخير ، ولا تستقيم بنيةكم للحركة الصالحة للخير إلا إذا أخذتم المطعم من الحلال الطيب .

وكما قلنا : إن صانع الآلة يضع لها الرقود المناسب لتشغيلها ، وإلا تعطلت عن أداء مهمتها .

فلكى تؤدي الصالح في حركة حياتك عليك أن تبدأ بالمطعم الطيب الذي يبني ذراتك من الحلال فيحدث انسجاماً بين هذه الذرات ، وتعمل معاً متعاونة غير متعائلة ، وإن انسجمت ذراتك وتوافقت أعانتك على الصالح

فإن دخل الحرام إلى طعامك وتلوثت به ذراتك تماقرت وتعاندت ، كما لو وضعت للآلة وقوداً غير ما جعل لها ، فافهموا هذه القضية ، لأنني أنا الخالق فأمموا لي كما تؤمنون بقدرة الصانع حين يصنع لكم صناعة ، ويضع لكم قانون صيانتها .

إذن أمر الحق سبحانه أولاً رسله بالأكل من الطيبات ؛ لأن

العمل الصالح يحتاج إلى جهاز سليم متوافق من داخله ؛ لذلك في سيرة النبي ﷺ أن أم عبد الله أخت شداد بن أوس ، أرسلت إلى النبي في يوم صامسه وهو حار شيطاً من اللبن يفطر عليه ، وهو ﷺ يعم أنها فقيرة لا تملك شيئاً فأرسل إليها من أين لك هذا اللبن ؟ فأرسلت إليه - من شاة عندي - فبعث إليها - ومن أين لك بالشاة ؟ قالت - اشتريتها بممل دبرته - فشرب رسول الله من اللبن^(١)

وإن كنا نحن لا نتحري في متعمننا كل هذا التحري ، لكن هذا رسول الله الذي يتخذ منهج الله كما جاءه ، وعلى أكمل وجه وفي الحديث الشريف : أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (٥١) [المؤمنين] وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ ثَمَرَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. ﴾ (١٧٢) [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك ؟^(٢)

نعم ، كيف يُستجاب له وهو يدعو الله بجهاز إرسال فاسد مشوش دنسه وخالطه الحرام ؟

وفي حديث سيدنا سعد رضي الله عنه بما قال برسول الله يا رسول الله ادع الله لي أن أكون مستجاب الدعوة ، فقال ﷺ

(١) من أم عبد الله أخت شداد بن أوس لها بنت إلى رسول الله ﷺ بلذخ ابن عند فطره وهو صائم وذلك في طول النهار وشدة الحر فرد إليها رسولها ، أتى لك هذا اللبن ؟ قالت ، من شاة لي قال فرد إليها رسولها ، أتى كانت لك هذه الشاة ؟ قالت اشتريتها من مالي فأجده منها ، فلما كان من الغد اتته فقالت أم عبد الله يا رسول الله بعثت لك بكلمين برنية لك من طول النهار وشدة الحر فردت الرسول فيه فقال لها بذلك أمرت الرسل ألا تاكل إلا طيباً ولا تعمل إلا صالحاً أورده الهيثمي في مجمع الروايات (٢٩١/١) وقال « رواه الطبراني وفيه أبو بكر بن أبي بريم وهو ضعيف »

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠١٥) ، وأحمد في مسنده (٢٢٨/٢) ، والترمذي في سننه (٢٩٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

« يا سعد أطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوة »^(١) .
ثم يذيل الحق سبحانه هذه الآية بقوله تعالى ﴿ إِنِّي بِمَا لَعَلُونَ عَلِيمٌ ﴾
(٤١) [المؤمنون] يعنى : أعلم ما يصلحكم ، وما يجلب لكم الخير
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّةٌ رَّابِعَةٌ وَأَنَارِبَ كُمْ فَأَنذَرُونَ ﴾

بعد أن تكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن المعركة بين الإيمان والكفر أو ما هنا أن يتكلم عن معركة أخرى لا تقل خطورة من الأولى ، وهى معركة الفرقة والاختلاف بين صفوف المؤمنين ، ليحذرننا من الخلافات التى تشق عصائنا ، وتفت فى عضد الأمة وتضعفها أمام أعدائها ، ونسمعهم الآن يقولون عنا بعدما وصلنا إليه من شيع وأحزاب - ليتقفوا أولاً فيما بينهم ، ثم يبشروا بالإسلام .

الأمة الجميلة بجمعهم زمن واحد أو دين واحد ، وتطلق على الفرد الواحد حين تجتمع فيه خصال الخير التى لا تجتمع إلا فى أمة . لذلك سمي الله تعالى نبي إبراهيم أمة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانَنًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل]
أما قوله سبحانه ﴿ لَنُكَلِّمَنَّكَ مِنكُم شِرْعًا وَمِنْهَا جَا .. ﴾ (٤٨)
[المائدة] فكيف نقول : إنها أمة واحدة ؟

قالوا : لأن الدين يتكون من أصول وعقائد ، وهذه واحدة لا تختلف باختلاف الأديان ، وأخلاق وفروع . وهذه تختلف من دين لآخر باختلاف البيئة : لأنها تأتى بما يناسب حركة الحياة فى كل عصر .

(١) عن ابن عباس قال : لبيت هذه الآية عند رسول الله ﷺ « ينادي الناس قفوا عما فى الأرض خلافاً .. » (البقرة) [٦٦] فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله ادع الله أن يعطى مستجاب الدعوة ، فقال رسول الله ﷺ : يا سعد أطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوة . والذي نفس محمد بيده إن العبد يذوق اللذة الحرام من جوفه ما يتقبل منه العمل لربعين يوماً وأياماً عبد ميت لجمه من سحت فلانار أولى به . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٩١/١٠) وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير وفيه من لم أعرفهم »

يقول تعالى . ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ . ﴾ (١٣)

إذن . فالأمة واحدة بمعنى في عقائدها وإن اختلفت في اشريعة والمنهج . والأحكام الجزئية التي تتعرض لأفضلية الحياة - ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَجِلٌ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ .. ﴾ (٥٠) [ال عمران] وكانوا في الأمم السابقة إذا وقعت نجاسة على ثوب يقطعون الموضع الذي وقعت عليه ، فلما جاء الإسلام خفف عن الناس هذا العنت ، وشرع لهم أن يغسلوه فيطهر .

وما دام أن أمتكم أمة واحدة ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون ﴾ (٥٢) [المؤمنون] يعني . اتقوا الله في هذه الأمة الواحدة وأبقوا على وحدتها ، واحذروا ما يفرقها من خلافات حول فروع إن اختلف البعض عليها اتهموا الآخرين بالكفر : لأنهم يريدون أن يتهبوا من الدين الجامع سلطة زمنية لأنفسهم .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ إِنَّ الدِّينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. ﴾ (١٥٩) [الانعام]

فالأمور التي أحكمها الله باللفظ الصريح المحكم أصول لا خلاف عليها ولا اجتihad فيها ، وأم الأمور التي تركها سبحانه للاجتihad فيجب أن نحترم فيها اجتihad الآخرين ، وإلا لو أراد الحق سبحانه لجعل الأمر كله محكما لا مجال فيه لرأي أو اجتihad

ومعنى ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ .. ﴾ (٥٢) [المؤمنون] أن من عطاء ربوبيتي أن جعلت لكم أمورا محكمة وعقائد ثابتة ، لأن الاختلاف فيها يفسد

المجتمع ، وتركتم لكم أموراً أخرى تأتون بها أو تتركونها ، كلٌ حسب اجتهاده ، لأن الاختلاف فيها لا يترتب عليه فساد في المجتمع ، وسبق أن مثلنا لهذه الأمور .

وقوله . ﴿ قَاتِلُونِ ﴾ [المؤمنون] ٥٦ . طاعة الأمر ، فما أحكمته فأحكموه ، وما جعلت لكم فيه اجتهاداً فاقبلوا فيه اجتهاد الآخرين

لكن ، هل سمعنا قول الله وأطعنا ؟ يقول سبحانه

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

﴿ زُبُرًا .. ﴾ [المؤمنون] ٥٣ . قطعاً متفرقة ، ومنه ﴿ أَتَوْنِي زُرَّ الْحَدِيدِ .. ﴾ [الكهف]

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون] ٥٣ . كل جماعة تتعصب لرايها وتفرح به وكأنها على الحق وغيرها على الباطل ، يريدون أن تكون لهم سلطة زمنية بين الناس ، ويصورون لهم أنهم أتوا بما لم يأت به أحد قبلهم ، وتنبيهوا إلى ما غفل عنه الآخرون .
﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ .. ﴾ [المؤمنون] ٥٣ . بالرائي الذي يريدونه ، لا بالحكم الذي يرتضيه الحق سبحانه وتعالى .

من ذلك قولهم إن الصلاة في مسجد به قبر أو ضريح باطلة وأن ذلك شرك في العبادة .. إلخ ولو أن الأمر كما يقولون فليهدموا القبر في المدينة

إن على هؤلاء الذين يشيرون مثل هذه الحلافات أن يتفهموا الأمور

على وجهها الصمغ ، حتي لا تكون من الذين قال الله عنهم ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥٣) [المؤمنون]

وما أفسد استقبال الأديان السابقة على الإسلام إلا مثل هذه الخلافات ، وإلا فكل دين سبق الإسلام وخصوصاً الموسوية والعيسوية قد بشرت بمحمد ﷺ ، وكانوا وهم أهل كتاب ورسالة وعلى صفة بالسماء - يجادلون أهل الكفر من عبدة الأصنام يقولون لقد أطل زمان نبي يظهر فيكم نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم ^(١) .

ومع ذلك ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ﴾ (٨٩) [البقرة] لماذا ؟ لانهم يريدون أن يحتفظوا بسلطتهم الرمنية .

كيف لا ينكرون رسول الله ﷺ ، وقد كان أحدهم ^(٢) يستعد لتنصيب نفسه ملكاً على المدينة يوم أن دخلها رسول الله ، فأفسد عليه ما أراد ؟

﴿ فَذَرَهُمْ فِي غَتَرَتِهِمْ حَقٌّ حَإِينَ ﴾

﴿ فَذَرَهُمْ .. ﴾ (٥٤) [المؤمنون] يعنى دَعَهُمْ ، والعرب لم تستعمل الماضى من هذين الفعلين ، فورد فيهما يدع ويذر . وقد ورد هذا الفعل أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النُّعْمَةِ .. ﴾ (١١) [الزمل]

(١) من أضياع من الانتصار للخوا كذا قد طوباهم فهو دعاً فى الجاهلية وشر أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أطل زمانه فقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به ، نكره ابن كثير فى تفسيره (١٢٤/١) نقلاً عن ابن إسحاق

(٢) هو عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فى المدينة ، ابن الحبيب من خزاعة ، وسلول جدته لآبيه ، كان سيد الخزرج فى آخر جاهليتهم وكان كلما حلف بالمسلمين نازلة شمت بهم وكلمة سمع بسيرة نطروها توفى عام ٩ هجرية [الأعلام للزركلى ١/٦٥]

وفي قوله تعالى : ﴿ فَسَرَنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْفَلْحِثِ .. (١٤) ﴾ [الفرقان]

والمعنى : ذرهم لي أنا أتولى عقابهم ، وأفعل بهم ما أشاء ، أو :
ذرهم يفعلون ما يشاءون ليستحقوا العقاب ، وينزل بهم العذاب .

والخمرة : جملة الماء التي تغطي قامة الرجل وتمنع عنه التنفس ،
فلا يبقى له من أمل في الحياة إلا بمقدار ما في رقبته من الهواء ،
لذلك يحرص الإنسان على أن يُمرّن نفسه على أن تتسع رقبته لأكبر
قدر من الهواء .

ومن ذلك أخذت كلمة المناقسة ، وأصلها أن يخطس اثنان تحت
الماء ليختبر كل منهما الآخر ، أيهما يبقى فترة أطول تحت الماء
ودون تنفس .

ويقول تعالى ﴿ وَلِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (١٦) ﴾ [المطهين]
وتستطيع أن تجرى مع نفسك هذه المناقسة ، بأن تأخذ نفساً حقيقاً
ثم تعد واحد ، اثنان وسوف ترى مقدار ما في رقبته من الهواء .

فالمعنى : ذرهم في غيائهم وغلظتهم فلن يطول بهم الوقت : لأنهم
كس غمره الماء ، وسرعان ما تنكسر أنفاسه ويفارق الحياة ، لذلك
قال تعالى بعدها ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) ﴾ [المؤمنون] والحين مدة من
الزمن قد تطول ، كب في قوله تعالى ﴿ نُؤْتِيهِمْ أَكْثَرُهَا كُلَّ حِينٍ يَافُو
رَبَّهَا .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وقد تلخص كما في قوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْهُنَّ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ
تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ [الروم] وكان الله تعالى عَزَّوَالِغَمْرَةَ لِيبدل على أن
حينهم لن يطول

ثم ينتقل السياق ليعالج قضية قد تشغل حتى كثيراً من المؤمنين

﴿ اِيَحْسَبُونَ اَنَّا نُعْطِيهِمْ مِنْ مَّالٍ وَّيَتَنَبَّأُونَ بِغَيْبِنَا الَّذِي لَا يَنْبَغِي لَهُمْ اَن يُخْبِرُوْا بِهِ اِنَّهُمْ لَمَالٍ حِسَابٌ ۝۵۵﴾

فَسَارِعْ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥١﴾

هذه قضية شغلت كثيراً من المؤمنين حين يرون الكافرين بالله
مرفهين مُعَمَّين ، في يدهم المال والنفوذ ، في حين أن المؤمنين
فقراء ، وربما تشكك البعض واعتق إيمانه لهذه العتققات

ونقول لهؤلاء لم تكن هذه صورة المؤمنين في الماضي ، إنهم سادوا الدنيا بعلومهم وثقافتهم وازدهرت حضارتهم على مدى ألف سنة من الزمان ، فما تخلوا عن دينهم وقيمهم كل بهم ما هم فيه الآن .

لقد تقدم علينا الآخرون ؛ لأنهم أخذوا بأسباب النخيا ، ويتبغى
 علينا نحن المسلمين أن نأخذ أيضاً بهذه الأسباب ، لأنها من عطاء
 الربوبية الذي لا يحرم منه لا مؤمن ولا كافر ، فمن أحسنه بال ثمرته
 وأخذ خمره .

قال سبحانه : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَرَدُّ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ﴾ (٢٠) [الشورى]
والأسباب يد الله الممدودة لحقله ، فمن رَدُّ يد الله إليه فلا بد أن يشقى في رجة الحياة .

وقد يكون تنعم هؤلاء مجرد ترف يجرهم إلى الطغيان . كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام]

لذلك فاسبق - تبارك وتعالى - بعالج هنا هذه العيسية -

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ مِنْ مَّاءٍ رَمَسٍ ﴾ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ..
(٥٦) ﴿ (المؤمنون) أَيْظَنُونَ أَنَّ هَذَا حَيْرٌ لَهُمْ ؟ لَا ، بَلْ هُوَ إِسْهَالٌ
رَاسْتِرَاجَ لِيَزِدَادُوا طُغْيَانًا .

ومى موضع آخر يقول سبحانه ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ
إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا .. ﴾ (٨٥) [النوبة]

وقوله تعالى . ﴿ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ .. ﴾ (٥٦) [المؤمنون] (بل) تفيد
الإضراب عما قبلها وإثبات ما بعدها ، إضراب عن مسألة تنعم هؤلاء ،
لأنها نعمة موقوتة وزائلة ، وهى فى الحقيقة عليهم نقمة ، لكنهم
لا يشعرون ، لا يشعرون أن هذه النعمة لا تعنى محبتهم ورضائنا
عنهم ، ولا يشعرون بالمكيدة وبالفخ الذى يُدبر لهم

وسبق أن أوضحنا أن الله تعالى حين يريد الانتقام من عدوه يُمدّه
أولاً ، وَيُوسِّعْ عَلَيْهِ وَيُعَلِّى مَكَانَتَهُ ، حتى إذا أخذه كان أخذه مؤلماً
وشديداً .

وقوله تعالى : ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ .. ﴾ (٥٦) [المؤمنون]
المسارعة ترد فى كتاب الله على مَعَانٍ مرة يتعدى الفعل إلى ،
مثل ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ .. ﴾ (١٦٢) [آل عمران] ومرة يتعدى
بفى ، مثل ﴿ وَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ﴾ (٦١) [المؤمنون] فما الفرق بين
المعنيين ؟

سارع إلى كذا إذا كنتَ خارجاً عنه ، وتريد أن تخطو إليه خُطًى
عاجية ، لكن إن كنتَ فى الخير أصلاً وتريد أن تترقى فيه تَقَرُّقاً .
سارع فى الخيرات فالأولى يخاطب بها مَنْ لم يدخل فى حيز
الخير ، والآخرى لمنْ كان مظلوماً فى الخير ، ويريد الارتقاء .

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧)

الخشية . هي أشد الخوف ، والإنسان قد يخاف من شيء ، لكن يبقى عنده أمل في النجاة ، ويتوكل من الأسباب ما ينقذه ويؤمن خوفه ، لكن حين تخاف من الله فهو خوف لا منقذ للأمل فيه ، ولا تهب فيه هبة تشعرك بلطف .

ومعنى ﴿مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) [المؤمنون] الإشفاق أيضاً الخوف ، وهو خوف يُعَدِّح ولا يُذَمِّ ، لأنه خوف يحمل صاحبه ويحُكُّه على تجنب أسباب الخشية بالعمل الصالح ، إنه إشفاق من الذنب الذي يستوجب العقوبة كالتميذ الذي يذاكر ويمتهد خوفاً من الرسوب ، وهكذا حال المؤمن يخاف هذا للخوف المثمر المدوح الذي يجعله يأخذ بأسباب النجاة ، وهذا دليل الإيمان .

أما لإشفاق بعد فوات الأوان ، والذي حكاه القرآن عن المجرمين : ﴿رُوحِ الْكَافِ قَتَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا .﴾ (٤٩) [الكهف] فهذا إشفاق لا فائدة منه ، لأنه جاء بعد ضياع الفرصة وانتهاء وقت العمل ، فقد قامت القيامة ونُشِرَ الكُتُبُ ولا أمل في النجاة إذن .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٨)

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩)

نلاحظ في هذه الآيات أن الحق سبحانه حدثنا عن الإشفاق والخشية ، ثم عن الإيمان بآيات الله ، ثم في النهاية عن مسألة الشرك . وقد تسأل : لماذا لم يبدأ بالتحذير من الشرك ؟

نقول . لأن الشوك المولد هذا الشوك الخفى الذى يقع فيه حتى المؤمن ، والذى قال الله فيه ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف] فلا تظن أن الشوك فقط أن تجعل له شريكا ، أو أن تسجد لصنم ، فمن الشوك شوك خفى نقيق يتسرب إلى القلب ويخالط العمل مهما كان صاحبه مؤمنا .

لذلك . فالنبي ﷺ يُعلمنا الادب فى هذه المسألة ، فيقول فى دعائه : « اللهم إني أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطني فيه ما ليس لك »^(١) .

فالإنسان يشرح فى العمل ويخلص فيه النية لله ، ومع ذلك يتسرب إليه شيء من أروياء وتزيين الشيطان ، لذلك وصف النبي ﷺ الشوك الخفى بأنه أخفى من دبيب الذمعة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء^(٢) .

كما أن الشوك الأكبر لا يتصور معن هذه الصفات المتقدمة صفاته .

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف بن عبد الله أنه كان يقول : « اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه لم عفت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى لم أف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٠٢/١) من حديث أبي مرسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أيها الناس اتقوا هذا الشوك فإنه أخفى من دبيب الذمعة فقال له من شاء الله أن يقول وكيف تتقيه وهو أخفى من دبيب الذمعة يا رسول الله ؟ قال قولوا : اللهم إنا معوز بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم » .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ
أَتَتْهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاغِبُونَ﴾^(١)

﴿يُؤْتُونَ . (٦٠)﴾ [المؤمنون] يعنى العمال ، وقال بعدها - ﴿مَا آتَوْا .. (٦١)﴾ [المؤمنون] حتى لا يجعل لها حداً ، لا العشر ولا نصف العشر ، يريد سبحانه أن يفسح لأريحية العطاء وسخاء النفس ، لذلك جاءت ﴿مَا آتَوْا .. (٦٠)﴾ [المؤمنون] هكذا مبهمه حتى لا تظن أنها الزكاة ونعرف أن الله تعالى يفتح المجال للإحسانية والتفضل ، وهذا هو مقام الإحسان الذى قال الله تعالى عنه : ﴿إِنَّ الصَّالِحِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٦٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (٦٦)﴾ [الذاريات] والمحسن ، الذى يلزم نفسه من الطاعات فوق ما ألزمه الله ، لكن من جنس ما فرض الله عليه ، فإن كان الفرض فى الصوم شهر رمضان يصوم المحسن رمضان ويزيد عليه ؛ لذلك نجد الدقة فى الأداء القرآنى ، حيث يقول بعدها : ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (٦٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٦٨)﴾ [الذاريات]

(١) من عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. (٦٠)﴾ [المؤمنون] قالت عائشة : هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يحافون ألا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون فى الخير ، أخرجه أحمد فى مسنده (١٥٩/٦) . والترمذى (٢٠٥) ، والترمذى فى سننه (٣١٧٥) . وابن ماجة فى سننه (٤١٩٨) . واللفظ للترمذى

وهذه أمور فوق ما فرض الله عليهم ، ولم يطلب منك أن تقوم الليل لا تقام ، لكن صَبَّ العشاء ونَمَّ حتى الفجر ، وهذه المسألة واضحة في قوله تعالى بعدما : ﴿ رَفَى أَمْوَالِهِمْ حَقُّ لِقَاتِهِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (١٦٩) [الذاريات] ولم يقل (معلوم) لأن الآية لا تتكلم عن الحق المعلوم وهو الزكاة ، إنما عن الصدقة والتطوع فوق ما فرض الله .

والإيهام في ﴿ مَا .. ﴾ (١٧٠) [المؤمنون] جاء أيضاً في قول الله تعالى ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (٧٨) [طه] ولم يحدد مقدار الماء الذي غشيهم ، وترك المسألة مبهمّة ليكون المعنى أبلغ ، ولتذهب الظنون في مَوَلِّهَا كل مذهب .

لكن : ما داموا قد أعطوا ومدّوا أيديهم للآخرين بالعطاء ، فلماذا يقول تعالى ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. ﴾ (١٧١) [المؤمنون]

نقول : لأن العبرة ليست بمجرد العمل ، إنما العبرة بقبول العمل ، والعمل لا يُقبل إلا إذا كان خالصاً لوجه الله لا يخالطه رياء ولا سمعة ، فهم إذن يعملون ويتحرّون الإخلاص وأسباب القبول ويتصدّق أحدهم بالصدقة ، بحيث لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه . ومع ذلك يخاف عدم القبول ، وهذه أيضاً من علامات الإيمان .

وكان ربك عز وجل يَخَارُ عليك أن تعمل عملاً لا تأخذ عليه أجراً ، لأنك إن رأيت الناس في شيء من العمل تركك الله وإياهم تأخذ منهم الجزاء ، فهذا إذن جهْدٌ مُهْدَرٌ لا فائدة منه ، وهذه المسألة لا يرصاها لك ربك .

وفي الحديث القدسي : الإخلاص سرٌّ من أسرارى أودعته

تَلْبَ مَنْ أَحْبَبَتْ مِنْ عِبَادِي ، لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكْتُبُهُ ، وَلَا شَيْطَانٌ
فَيُفْسِدُهُ ،^(١) .

والرجل : انفعال قسري واضطراب يطرأ على العضو من خوف أو
خشية ، والخوف شيء يخيفك أنت ، أما الخشية فهي أعلى من
الخوف ، وهي أن تخاف ممن يوقع بك أذى أشد مما أنت فيه
ومن أهل التفسير مَنْ يرى أن الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ
وَجَلَّةٌ ۖ﴾ [المؤمنون] جاءت في الرجل الذي يسرق ، والذي
يُزْنِي ، والذي يشرب الخمر ، لكن قلبه وجَلَّ من لقاء الله وخشيته ،
فما يزال فيه بقية من بقايا الإيمان والحياة من الله تعالى وقالوا
إن عائشة رضى الله عنها نهت هذا من الآية^(٢) .

لكن هذا الفهم لا يستقيم مع قوله تعالى ﴿يُؤْتُونَ ۖ﴾ [١٠] .
[المؤمنون] أى ، يؤتون غيرهم ، فهناك إذن مؤت ومؤتى له ، ولو أراد
السرقه والرنى وشرب الخمر لقال : يَأْتُونَ .

فالمراد ، يؤتون غيرهم ما عليهم من الحق ، سواء أكانت هذه
الحقوق لله تعالى كالزكاة والكفارات والنذور والحدود ، أو كانت
متعلقة بالعباد كالودائع والأمانات والعدالة فى الحكم بينهم . الخ
فيؤدى المؤمن ما عليه من هذه الحقوق ، وقلبه وجَلَّ ألا يصاحب
الإخلاص عمله فلا يقبل .

(١) ذكره القرطبي فى « إحياء علوم الدين » (١ / ٣٧٦) قال السراجى فى تخرجه « رويته فى
جزء من مسلمات القزوينى مسلسلاً بقول كل واحد من رواة مسالك قلنا من الإخلاص
قال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمى عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبي ﷺ
عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن حنبل وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه
أبو القاسم القشيري فى الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف ،

(٢) سبق ذكر حديث عائشة وفهمها للآية صفحة ١٠٠٦٥

ثم يقول تعالى : ﴿ اُنْهَمُ اِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ (٦٥) [المؤمنون] فالمؤمن يؤدى ما عليه ، ومع ذلك تراه خائفاً وجلالاً ، لأنه يثق فى الرجوع الى الله والوقوف بين يديه سبحانه ، وهو ربه الذى يُجازيه على قدر إخلاصه ، ويخاف ايضاً أن يفتضح أمره إن خالط عمله شيء من الرياء ، لأن ربه غير لا يرضى معه شريكاً فى العمل ، وهو سبحانه يعلم كل شيء ويحاسب على ذرات الخير وعلى ذرات الشر .

وهناك أعمال فى ظاهرها أنها من الدين ، لكن فى طيها شيء من الرياء ، وإن لم يَدْرِ الإنسان به ، ومن ذلك قولهم : أفعل هذا لله ثم لك ، أو توكلت على الله وعليك الخ ، فهذه العبارات وأمثالها تحمل فى طياتها معانى الشرك التى ينبغى أن تُنزه الله عنها ، فلا نعطف على الله تعالى أحداً حتى لا نشركه مع الله ، ولو عن غير قصد .

لذلك يقول تعالى ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف] ويوم القيامة يطمئن أهل الإخلاص إلى الجزاء ، ويُفاجأ أهل الشرك والرياء بوجود الله تعالى ، ولم يكن على بالهم حين عملوا ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللّهُ عِنْدَهُ فِرْقَافَ حِسَابٍ .. ﴾ [النور] إذن ما دُمنا سنفاجأ بوجود الحق ، ولا شيء غير الحق ، فليكن عملنا للحق ، ولا شيء لغير الحق .

﴿ اُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِ لَهُمْ هَاسِرُونَ ﴾ (٦٦)

﴿ اُولَئِكَ .. ﴾ [المؤمنون] أى : أصحاب الصفات المتقدمة ﴿ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِ .. ﴾ (٦٦) [المؤمنون] ولفق بين تسرع وسارع : تسرع يسرع يعنى : بذاته ، إنما سارع بسارع أى : يرى غيره

يسرع ، فيحاول أن يتفوق عليه ، فقيه مبالغة وحافظ على المنافسة .

وسبق أن أوضحنا الفرق بين سارع إلى وسارع في ، فمعنى ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ..﴾ (٦١) ﴿[المؤمنون] أنهم كانوا في حَيْزِ الخيرات ومطروفين فيه ، يكن يحاولون الارتقاء والازدياد من الخيرات للوصول إلى مرتبة أعلى .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (٦١) ﴿[المؤمنون] هل المسارعة هي علة أنهم سبقوا إلى الخيرات ، أم أن سَبَقَهُم إلى الخيرات علة المسارعة ؟

في اللغة يقولون : سبب ومسبب ، وشرط وجزاء ، وعلة ومطلوب . فحين نقول : إن تذاكر تنجح ، فالمذاكرة سبب في النجاح ، لكن هل سبقت المذاكرة النجاح ؟ لا ، بل وجد النجاح أولاً في بالك ، واستحضرت مميزاته وكيف ستكون مفضلتك في المجتمع وبين الناس ، وبذلك وجد عندك دافع وخطاير ، ثم أردت أن تحققه واقعاً ، فذاكرت للوصول إلى هذا الهدف

إنن : فكل شرط وجواب ، الجواب سبب في الشرط ، والشرط سبب في الجواب ، الجواب سبب في الشرط دافعاً له ، والشرط سبب في الجواب واقعاً وتنفيذاً ، فالسجاح وجد دافعاً على المذاكرة ، والمذاكرة جاءت واقعاً ليتحقق النجاح .

وكذلك في ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (٦١) ﴿[المؤمنون] فالمعنى : القصد أن يسبق فسارع ، سارع في الواقع ليسبق بالفعل ، لكن السبق قبل المسارعة ؛ لأن الذهن متهيئ له أولاً وحقائقه واضحة .

إنن : الشرط والجزاء ، والسبب والمصيب ، والعلة والمعلول تدور
بين دافع هو الجواب ، وواقع هو الشرط .

ومعنى ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون] يعنى : هم أهل لهذا
العمل وقادرون عليه ، كما لو طلبت منك شيئاً فتقول لى : هذا شيء
صعب فأقول لك : وأنت لها .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ
وَهُمْ لَا يَظَالِمُونَ﴾ ٦٢

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن المسارعة والمنافسة بين أنها على
قَدْرِ الوُسْعِ والطاقة ، وأنه سبحانه ما كلفك إلا بعد علمه بقدرتك ،
وأنك تسع هذا التكليف ، فإياك أن تنتظر إلى الحكم فتقول أنا أسعه
أو لا أسعه ، لكن انظر إلى التكليف ، ما دام ربك قد كلفك فاعلم أنه
فى وُسْعِكَ ، وحين يعلم منك ربك عدم القدرة يُخَفِّفُ عنك التكليف
دون أن تطلب أنت ذلك والأمثلة على تخفيف التكليف واضحة فى
الصلاة والصوم والحج .. إلخ .

والآن نسمع مَنْ يقول لم تُعَدِ الطاقة فى هذا لعصر تسع هذه
التكاليف ، فالزمن تغير ، والأعمال والمسئوليات كثرت ، إلى غير ذلك
من هذه الاتوال التى يريد أصحابها التهنيل من شرع الله ونقول
ما دام لتكليف باقياً فالوُسْعُ باقى ، والحق - سبحانه وتعالى - أعلم
بِوُسْعِ خَلْقِهِ وطاقاتهم

إنن : أنا أنظر أولاً إلى التكليف ، ثم أحكم على الوُسْعِ من
التكليف ، ولا أحكم على التكليف من الوُسْعِ .

سورة المؤمنون

﴿١٠٠٧١﴾

ثم يقول سبحانه ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَظَنُّ بِإِحْقَاقِهِمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٦٤) [المؤمنون] المراد هنا كتاب أعمالنا^(١) الذي سجل فيه كل شيء قدمت الأيدي ، لكن : ما الحكمة من تسجيل لأعمال ؟ وهل يكذب العباد ربهم عز وجل فيما سجل عليهم ؟

قالوا الحكمة من تسجيل الأعمال أن تكون حجة على صاحبها ، وليعلم أن الله ما ظلمه شيئاً ؛ لذلك سيقول له ربه ﴿أَفَرَأَى كِتَابَكَ ..﴾ (٦٥) [الإسراء] يعنى بنفسك حتى تقام عليك الحجة ، ولا يكون عندك اعتراض .

ثم قال بعدها ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٦٦) [المؤمنون] لأن الظلم لا يتصور من الحق - سبحانه وتعالى - فالظلم نتيجة الحاجة ، وأنت تظلم غيرك حين تريد أن تنتفع بأثر الغير في الخير زيادة عما عندك ، فالظلم إذن نتيجة الحاجة والحق سبحانه هو المعطي ، وهو الغني الذي لا حاجة له إلى أحد ، فلماذا يظلم ؟

كذلك قد يظلم الضعيف لياخذ ما في يد غيره ليستجده أو شهوته ، ولو كان قوياً لكفى نفسه بمجهوده .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي شَرٍّ مِّنْ هَٰذَا وَلَمْ أَعْمَلْ
مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ (٦٧)

(١) ذكر الفروطى في تفسيره (٦٦٧/٦) أقوالاً أخرى في المراد بالكتاب في الآية فقال « وقيل عني اللوح المسطور ، وقد أثبت فيه كل شيء - لهم لا يجوزون ذلك - وليل الإشارة بقوله ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ (٦٤) [المؤمنون] القرآن ، فالله أعلم - وكل محتمل - والاول اظهر » يقصد انه كتاب إحصاء أعمال العباد ، وهو ما ذهب إليه فضيلة الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى

﴿بَلْ .. (٦٢)﴾ [المؤمنين] حرف يدل على الإضراب عن الكلام السابق ، وإثبات الحكم للكلام بعدها . وَالْغَمْرَةُ كَمَا قُلْنَا هي جملة الماء الذي يعلو قامة الإنسان حتى يمنع عنه التنفس ويحرمه للهواء . وهو أول مَقُومٍ من مَقُومَاتِ الحياة .

فالإنسان يصبر على الطعام شهراً ، ويصبر على الماء من ثلاثة أيام لعشرة . إنما لا يصبر على النَّفْسِ إلا بمقدار ما يحتويه الصدر من الهواء . لِإِنْ كَانَ كَانَتْ رَتَّةٌ سَلِيمَةٌ تَتَسَّعُ لأكبر كمية من الهواء ، وتستطيع أَنْ تَتَّحَمَلَ عدم التنفس لفترة أطول . أما إِنْ كَانَتْ الرِّقَّةُ مَعْتَلَةً ، فَإِنَّهَا لَا تَتَسَّعُ لَكَمِيَّةٍ كَبِيرَةٍ . وسرعان ما ينتهي الهواء ويموت الإنسان .

ومن التنفس جاءت المناقسة ، كما في قوله تعالى ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٦٦)﴾ [المطففين] ثم اسْتَعْمَلْتُ لكل عمل تَنَافُسٍ فيه غيرك ، لأن الهواء هو العنصر الأساسي في الحياة

لذلك الخالق - عز وجل - حينما خلق هذه البنية الإنسانية جعل لها نظاماً فريداً في وقودها و غذائها على خلاف صُنْعَةِ الْبَشَرِ ، فلو منعت البنزين مثلاً عن السيارة توقفت ، أما صُنْعَةُ الْخَالِقِ - عز وجل - فالجسم يأخذ حاجته من الطعام والماء ، ثم يفترون الباقي لوقت الحاجة ، وقد علم الحق سبحانه شهوتك وحبك للطعام والشراب ، وأخذك منها فوق حاجتك ، فَإِنْ غَابَ عَنْكَ لِلطَّعْمِ تَغْذِيٌّ جِسْمِكَ مِنْ هَذَا الْمَخْزَنِ الرَّبَّانِيِّ .

لذلك نرى البعض حين يتأخر عنه الطعام يقول - نفسي انصبت من الأكل ، والحقيقة أنه أكل فعلاً ، وتغذى من مخزون الطعام والشراب في جسمه

ومن حكمة الله أن الطعام الفائض يُخزن في صورة واحدة هي الشحم ، الذي يتحول تلقائياً إلى أى عنصر آخر يحتاجه الجسم ، فإذا انتهى الشحم تغذى الجسم على اللحم والعضلات ، ثم على العظام ، ومن آخر مخزن للقوت في جسم الإنسان ، لذلك جاء في قصة زكريا عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ ﴾ [مريم]

أما الهواء فليس له مخزن إلا بقدر ما تنفس له ابرة ، فإذا نفذ منها الهواء بشهيق وزفير فلا حيلة فيه ، ومن رحمة الله بعباده ألا يملك الهواء لأحد فقد يملك الطعام وربما يملك الماء ، أما الهواء الذي يحتاجه في كل نفس ، فقد جعله الله ملكاً للجميع ، حتى لا يمتنعه أحد عن أحد ، لأنك لا تستطيع أن تحتال له كما تحتال للطعام والمشروبات ، ولو غضب عليك مالك الهواء لمت قبل أن يرضى منك

ونلاحظ هنا أن الغمرة لا تحتويهم هم ، إنما تحتوي القلوب ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ ۖ ۝٦٣ ﴾ [المؤمنين] وهذه بلوى أعظم ، لأن القلب محل لحصيلة المدركات التي يأخذها العقل ، ويميز بينها ويختار منها ويرجح ، ثم تتحول هذه المدركات إلى عقائد تستقر في القلب وعلى هديها تسير في حركة الحياة

لذلك إن كان القلب نفسه في الغمرة فالمصيبة أشد والبلاء أعظم ، لأنه مستودع العقائد والمبادئ التي تُتبرك الطريق

والقلب هو محل نظر الله إلى عباده ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ فَزَّانًا لِّجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ۖ ۝١٧١ ﴾ [الأعراف]

وقال سبحانه : ﴿ خَسِمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ۖ ۝٧ ﴾ [البقرة] لأنهم أحبوا

الكفر واطمانوا اليه ، ولأنه سبحانه ربّ متولّ ربوبية الخلق . يعطيهم ما أرادوا حتى إنّ كان كفراً ، لذلك ختم على قلوبهم حتى لا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر ؛ لأنهم عشقوا الكفر وأحبّوه .

بذلك نقول لاهل المصائب الذين يُصابون في شأل أو عزيز فيحزنون عليه ، ويبالغون بإقامة العاتم والسرادقات ، ويقيمون ذكرى الخميس والأربعين وغيرها ، وربما كان الابن عاقاً لوالديه في حياتهما ، فإذا مات أبوه أو أمه أقام للماتم وشغل الناس ، وهو كما قال الشاعر

لَا أَعْرِفُكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَقْدِيرِي وَفِي حَيَاتِي مَا بَلَّغْتَنِي زَادَا
أَوِ الْإِثْمَ الَّتِي فَقَدْتَ وَحِيدَهَا مَثَلًا ، فَتَعِيشُ حَزِينَةً مُكْدَّرَةً ، وَكَانَهَا
عَشَقْتَ الْحُزْنَ وَأَحْبَبْتَهُ ، نَحْزِرُ هَؤُلَاءِ وَنَتَمَسَّحُ كُلَّ حَزِينٍ أَنْ يُفْلِقَ بَابَ
الْحُزْنِ بِعَسَامِيرِ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ ، فَالْحُزْنَ إِنْ رَأَى بِأَمِهِ مُوَارِبًا دَحَلَ
وَهَلَّ بِمَعِكَ وَلَا زَمَكَ .

وسبق أنوضحنا أن الحق سبحانه لا يرفع بلاءاً عن عبده حتى يرضى به ، ولنا القدوة في هذه المسألة بأبينا إبراهيم عليه السلام حين ابتلاه ربه بنهب ولده في رؤيا رآها ، واعتبرها هو تكليفاً ، ورعى بقدر الله وسلم لأمره ، ثم أضر ولده ووحيدة بهذه الرؤيا حتى لا يحرمه هذا الأجر ولا يأخذ على غرة ، ميتخبر قلبه علمه

﴿ قُلْتُ أَسْلَمًا وَقُلْتُ لِلْجَبِينِ (١٣) وَنَادَيْتَاهُ أَنْ يَهْبِزْهُمُ (١٤) لَعَلَّ الرُّعْبَ إِذَا كَذَلِكَ فَجَزَى الْمُحْسِنِينَ (١٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٦) وَنَادَيْتَاهُ بِذِيْعٍ عَظِيمٍ (١٧) ﴾

(١) لله : الإلقاء على وجهه على الأرض . [القاموس القروبي ١/١٦١]

فبعد أن رضى إبراهيم وولده بقضاء الله رفع عنهما البلاء ،
وجاءهما الفداء من الله لإسماعيل ، بل وزاده بأن بشره بولد آخر هو
إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، أجيال متعاقبة جاءت فضلاً من
الله وجزاءً على الرضا بقضائه وقدره ، وما أحسن ما قال الشاعر^(١)
في هذا الموقف

سَلَّمَ لِرَبِّكَ حُكْمَهُ فَكُفِّمَهُ بِقَضِيهِ حَتَّى تَسْتَرِيحَ وَتَقْنَمَا
وَأَذْكُرُ حَلِيلَ اللَّهِ بِبَيْ لَيْعِ أَمْنِهِ إِذْ قَالَ خَالَفَهُ فَلَمَّا اسْلَمَا

إذن ، إذا كانت القلوب نفسها في غمرة ، فقد خرب جهاز العقائد
والمبادئ ، وينشأ عن حرايه خراب حركة الحياة وانحراف السلوك .
وقد أخذ القلب هذه الأهمية ، لأنه معمل الدم ، ومصدر سائل الحياة ،
فإن فسد لا بد أن ينصح على باقي الجوارح ، ففسد هي الأخرى ،
ولو كان القلب صالحاً فلا بد أن ينصح صلاحه على الجوارح كلها
فتصلح ، كما جاء في الحديث الشريف

« أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْفَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا
فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ »^(٢)

ثم يقول سبحانه ﴿وَلَهُمْ أَهْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَابِدُونَ
(٦٣)﴾ [المؤمنين] يعنى الأمر لا يتوقف بهم عند مسألة العقائد ، إنما
لهم أعمال أخرى كثيرة سيقعون فيها ، فالحق سبحانه لا يذكر لهم إلا
قسم المخالفات ونماذج منها ، إنما في علمه تعالى وفي لوحه
المحفوظ أنهم سيعملون كذا ويفعلون كذا ، وإن كانوا هم أنفسهم
لا يعلمون أن ذلك سيحدث منهم لكن ربهم عز وجل - يعلم بطلاقة
القدرة ما كان وما سيكون .

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه

(٢) متفق عليه أخرجه البخارى في صحيحه (٥٦) . وكذا مسلم في صحيحه (١٥٩٩)

من حديث المعلى بن بشير رضى الله عنه

ومن عجائب قدرة الله أنه سبحانه يحكم على عبده انكافر أنه سيعمل كذا وكذا ، ومع ذلك لم يعاند أحد الكفار ، فيقول : إن الله حكم على بكذا ، ولكني لن أفعل فيكون حكم الله عليه غير صحيح ؛ لأن الحق سبحانه لا يتحكم فيما يجريه علينا فحسب ، وإنما في اختيار العبد ومراة ، مع أن العبد حرٌّ في أن يفعل أو لا يفعل .

وهذه القضية واضحة في قوله تعالى عن أبي لهب . ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ ﴾ [المسد] لقوله . ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ۚ ۞ ﴾ [المسد] تفيد المستقبل ، فقد حكم الحق سبحانه عليه أنه سيكون في النار ، وكان أبو لهب في أمة ومجمع من القوم الكافرين . ومتهم من آمن فمن يضمن أن يسمع أبو لهب هذا الحكم ومع ذلك لا يؤمن ويموت كافراً ؟

ثم ألم يَكُنْ بإمكان هذا (المفضل) أن يقف على ملا ويقول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ويدخل في الإسلام ، فيكون الحكم فيه غير صحيح ؟ يكن هذا كلام الله وحكمه القديم لا يرد ولا يخالف أحد مهما كان أمره في يده وهو قادر على الاختيار ، هذا من طلاقة قدرة الله في فعله وعلى خلقه في أفعاله

فالمعنى : ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ [المؤمنون] حكم لا يرد ولا يكذب ، حتى وإن أخبر به صاحبه ؛ لأن علم الله تعالى مستوعب لما كان ولما سيكون ، وكان الحق سبحانه يقول : إن طلاقة القدرة ليست فيما أفعله فحسب ، إنما فيما يفعله غيري ممن أمطيته حرية الاختيار .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتَرَفِّهِم بِالْعَذَابِ إِذَاهُمْ يَخْتَصِرُونَ ﴾ (٦١)

يعنى . بعد أن أشركوا بالله وكفروا به . وبعد أن أصبحت قلوبهم فى غمرة وعمى إذا مسهم شيء من العذاب يجارون ويصرخون ، ومن ذا الذى يطبق لفحة أو رائحة من عذاب الله ؟

ومعنى ﴿أَخَذْنَا ..﴾ (٦١) [المؤمنون] كلمة الأخذ لها مجال واسع فى كتاب الله ، والأخذ هو الاستيلاء بعنف على شيء هو لا يحب أن تستولى عليه . والأخذ يوحى بالعنف والشدة . بحيث لا يستطيع للمأخوذ الإفلات مهما حاول .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَلِرٌ﴾ (٤٧) [القصص] يعنى . أخذاً شديداً يتملص منه فلا يستطيع الفكك

وقوله ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ..﴾ (٦٧) [مود]

ويقول ﴿إِنْ أَخَذَ إِلَهٌ شَيْئًا﴾ (٦٧) [مود]

ومعنى . ﴿مُتَرَفِّهِمْ ..﴾ (٦١) [المؤمنون] من الترف وهو التمتع . لأن الحياة تقوم على ضروريات تستبقى الحياة وكماليات تُسعد رُتفُها وتُثريها ، فالمترَف من عنده من النعيم مسوق الضروريات يقال . يرف الرجل يَرف من باب قرح يفرح . وأترفته النعمة إذا أطفته . وأترفه الله يعنى . وسع عليه النعمة وزاد منها . وعلى قدر الإتراف يكون الأخذ أبلغ والألم أشد .

وسبق أن ذكرنا قول الله عز وجل . ﴿فَلَمَّا تَسَاءَلُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ .﴾ (٤٤) [الأنعام] يعنى من منهج الله ، لم تُضيق عليهم إنما ﴿لَنَحْنَا

عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ
مُمْسِكُونَ ﴿٤٤﴾ قَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا .. ﴿٤٥﴾ [الأنعام]

فهنا تكون النكاية أشد ، والحسرة أعظم

والكلام هنا عن كفار قريش ، فكيف أخذهم الله وهم في ثرف من
العيش ، حيث تصب عندهم كل خيرات الجزيرة حتى عاشوا عيشة
الثرف والتنعيم ٩

أخذهم الله حال ثرفهم بالقحط والسنين ، لذلك لما رآهم النبي ﷺ
أترفوا بالنعمة وطفقوا بها قال ، اللهم أشدّد وطأتك على مُضَر ،
واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ٩

واستجاب الله تعالى دعاء نبيه ، فأصابهم الجذب والقحط حتى
أكلوا الجيف و (العلهز) ٩ وهو شعر الدبيحة أو وبرها المخلوط
بدمها بعد أن جفّ وتجمد تحت حرارة الشمس ، وهذا هو المراد
بقوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ .. ﴾ ﴿٤٤﴾ [المؤمنون]
وقوله تعالى ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ [المؤمنون]

يصرخون ويضجون ، فهذا أبو سفيان بعد أن أكلوا الجيف
والفضلات يقول للنبي ﷺ يا محمد ألسنت رحمة للعالمين ٩ إذن

(١) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول ، اللهم أشدّد
وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف ، أخرجه البخاري في صحيحه

(١٠٦) (واحد في مسنده { ٤٧٠ / ٢ ، ٥٠٦ ، ٥٢١ })

(٢) العلهز دم يابس يثقب به أرباب الإبل في المجاعات ويؤكل قال ابن شميل

وان قرني قحطى قرى وملهز فأتبع بهذا ويح نفسك من فعل

[لسان العرب - مادة علهز]

فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يُفْرِجَ عَنَّا ، فدعا رسول الله ﷺ ربه حتى فرج عنهم^(١) .

أو يراد بالعذاب هذا ما حدث لهم يوم بدر ، حيث أذلهم الله ، فقتل منهم مَنْ قُتِلَ ، وأسر مَنْ أُسِرَ ، وانهارت سيادتهم وضاعت هيبتهم ، وقد كانوا يُعَذِّبُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَقْتُلُونَهُمْ ، ويقيعونهم في حرِّ الشمس ويضعون الأحجار الكبيرة فوق بطونهم . حتى أنزل الله تعالى في هذه الحالة القاسية التي يعانيها المؤمنون ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ٥٥ ﴾ [الفر] فيستقبلون الآية بتعجب حتى يقول عمر أيُّ جمع هذا الذي سيُهْزَمُ ، فليس هناك أيُّ بدرة لنصر المؤمنين ، فلم جاء يوم بدر ورأى المؤمنون ما حاق بالكافرين قال عمر نفسه صدق الله ، سيُهْزَمُ الجمع وقد هُزِمَ .

وقوله تعالى ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ٥٦ ﴾ [الفر] يَجْأَرُ يصرخ بصوت عال ، والإنسان لا يصرخ إلا إذا كان في محنة لا تقدر أسماؤه على دفعها ، فيصرخ طلباً لمن ينجده ، ويرفع صوته ليُسمع كل مَنْ حوله . كم يقولون (يَجْعَر)

والجوار مثل الخوار يعني يصيحون مثل العجول بعد ما كانوا رجالاً وسادة وطغاة ، فلماذا لم تظلوا سادة ؟ لماذا تصرخون الآن ؟ وكن المستطر منهم في وقت الشدة أن يتماسكوا ، وإن يتجالدوا حتى لا يشمت بهم العبيد والمقرء الذين آمنوا ، كما يقول الشاعر^(٢) .

(١) عن ابن عباس أنه قال جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد أشدك أه والرحم فقد أكلنا الطير - يعني الوبر والسم - أنزل الله ﴿ وَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ الْعَبَادِ مَا يَسْتَكُونُ ١ ﴾ [الفر] [المؤمنون] ذكره ابن كثير في تفسيره (٢٥١/٢) وعراه لابن أبي حاتم

(٢) الشاعر هو : أبو ذؤيب ، حريد بن خالد الهذلي (توفي ٢٧ هـ)

وَتَجَلْدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيَهُمْ أَنِّي لَرِيبٍ الدَّهْرِ لَا أَنْضَعُ^(١)
 لكن ، هبته فقد حاق بهم العذاب . وإن يخذعوا أنفسهم الآن .
 فليس أمامهم إلا الصرخ يطلبون به امغيث والمنجى من المهالك
 ثم يقول الحق سبحانه

﴿ لَا تَحْشَرُوا الْيَوْمَ أَنْكُمْ مِّنَّا لَا تُصْرُونَ ﴾^(٢)

يرد عليهم الحق سبحانه . ﴿ لَا تَحْشَرُوا الْيَوْمَ .. ﴾^(٣) [المؤمنون]
 لأن من يجار يفادي من ينصره وأنهم من تنصروا ﴿ إِنْكُمْ مِّنَّا لَا
 تُصْرُونَ ﴾^(٤) [المؤمنون] لا تنصرون من جهتنا ، لأنني انصر
 أوليائي ، وانصر رسلي ، وانصر من ينصرني ، فاقطعوا للظن في
 نصري لكم ، لأنني أنا الذي أمرتُ بكم ما جعلكم تحارون بسببه
 فكيف أزيله عنكم ؟

وفي موضع آخر يتكلم الحق سبحانه عن أهل الكفر الذين
 تمالئوا عليه . وشجَّع بعضهم بعضاً على التجرؤ على القرآن وعلى
 النبي ﷺ ، ويصفقون لمن يخوض في حفيها ﴿ احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا
 وَأَرْوَاهُمْ^(٥) وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾^(٦) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ
 الْجَحِيمِ^(٧) وَهَدُوهُمْ إِنْهُمْ مُّسْتَعْرِفُونَ^(٨) مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ^(٩) بَلْ هُمْ
 الْيَوْمَ مُّسْتَلَمُونَ^(١٠) ﴿ [المصافات]

(١) المضجع الخضوع والتذلل ، وفي الحديث ما تضجع امرؤ لأمر يريد به عرض
 الدنيا إلا ذهب ثلثه دية يعني خضع ويل وتجلد إظهار الجلد وهو التصير والتشد
 [لسان العرب - مادتا ضجع ، جلد]

(٢) قال السمعاني بن بشير يعني يارونهم أشباههم وأنثالهم ، وقال عمر بن الخطاب يجره
 أصحاب الرد مع أصحاب الرتا ، وأصحاب الرتا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الشعر مع
 أصحاب الشعر [تفسير ابن كثير ٤/١]

إِذْ ، لا تَجَارُوا لَكُمْ لَنْ تَنْصُرُوا مِنَّا ، وَكَيْفَ تَنْصُرُكُمْ بِجُؤَارِكُمْ
هَذَا ، وَقَدْ أَنْصَرَفْتُمْ عَنْ آيَاتِي ؟

﴿مَذَكَّاتٌ مَائِيَّةٌ تُنَادِي بِكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ

أَعْقَابِكُمْ فَتَنْكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

كَيْفَ تَسْتَعِيثُونَ بِاللَّهِ وَتَجَارُونَ إِلَيْهِ وَأَنْتُمْ تُلْقَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ تَشْرَحُ
لَكُمْ وَتَنْتَبِهُ لَكُمْ وَجُودَ اللَّهِ بِالْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ ، وَتَنْتَبِهُ لَكُمْ صِدْقَ الرَّسُولِ
بِالْمُعْجَزَاتِ ، وَتَحْصِرُكُمْ مِنْهُجَ اللَّهِ فِي الْآيَاتِ حَامِلَةَ الْأَحْكَامِ ، وَلَكِنَّكُمْ
عَمِيتُمْ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ

وَمَعْنَى ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المؤمنون] الْعَقِبُ :
مُؤَخَّرَةُ الْقَدَمِ ، فَيَبْدُلُ أَنْ يَمْشِيَ إِلَى الْأَمَامِ كَمَا خَلَقَهُ اللَّهُ وَجَعَلَ لَهُ
كَشَافَاتٍ يُبَصِّرُ بِهَا الطَّرِيقَ وَيَهْتَدِي إِلَى مَوْضِعِ قَدَمَيْهِ إِذَا بِهِ
يَمْشِي لِلْخَلْفِ عَلَى عَقْبِهِ ، وَكَانَهُمْ أَخَذُوا أَخْذًا غَيْرَ عِنْدَهُمْ دَوَلَابِ
السَّيْرِ ، لَمَّا إِذَا ؟ لِأَنَّهُمْ غَمَرُوا عَنْ أَسْبَابِ الْهُدَايَةِ ، فَصَارُوا يَتَخَبَطُونَ فِي
مَتَاهَاتِ الْحَيَاةِ عَلَى غَيْرِ هَدًى ، كَمَنْ يَسِيرُ بِظُلُمَةٍ لَا يَعْرِفُ مَوَاقِعَ
قَدَمَيْهِ ، وَمَكْذًا فَعَلُوا هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ .

وَهَذَا الْقَرَجُ يَعْنِي فِي قِيَادَةِ السَّيَّارَاتِ (مَارْشَادِير) ، وَيَحْتَاجُ
فِيهِ الْإِنْسَانُ لِمَنْ يُوجِّهُهُ وَيُرْشِدُ حَرَكَتَهُ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا ، لِأَنَّهُ لَا يَرَى
بِالْمَعْنَى : لَا تَلْمُ إِلَّا نَفْسَكَ حَيْثُ حَرَمْتَهَا مِنْ أَسْبَابِ الْهُدَايَةِ ، فَبَعْدَ
أَنْ جَاءَتْكَ وَأَصْبَحْتَ بَيْنَ يَدَيْكَ لَغْمَضَتْ عَنْهَا عَيْنُكَ

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ قَالَ سُبْحَانَهُ عَنِ الشَّيْطَانِ ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتَانِ
نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ .. ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال]

﴿مُسْتَكْبِرِينَ يَكْمُرُ بَيْنَهُمْ جُرُورٌ ﴿٦٧﴾﴾

مادة كبر تأتي بكسر الباء للدلالة على العمر تقول : كبر فلان .
يعنى كان صغيراً ثم كبر ، ويضم الباء للشيء المعنوى وللقيم ،
كما فى قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ﴾ (٥) [فكبر]
يعنى عظمت .

ومعنى الاستكبار افتعال الكبر وطلبه ، مثل : استقهم يعنى . طلب
الفهم ، فى حين هو ليس كبيراً فى ذاته ، فهو محتاج إلى غيره .
فالكبير فى ذاته مَنْ تكون عنده وتتوفر له فى ذاته مقومات الحياة
وضرورياتها وترغها ، لا يستعدها من أحد .

لكن الإنسان ضروريات حياته ، وأسباب ترفه موهوبة له من
غيره . فلا يصح له أن يتكبر . فمن أراد أن يتكبر فليتكبر بشيء
ذاتى فيه من صحة أو مال أو سلطان .. الخ ، وهذه كلها أمور
موهوبة لك ، فالصحيح قد يصبح سقيماً ، والغنى قد يصبح فقيراً .

لذلك ، فالكبرياء لله تعالى وحده ؛ لأنه الواهب للخير ، والمتفضل
على الخلق بما يمكن أن يتكبروا به ، ومن صفات جلاله وكماله
سبحانه (المتكبر) ، لأنه سبحانه رب الخلق أجمعين ، ومن مصلحة
الخلق أن يكون المتكبر هو الله وحده ، حتى لا يرفع أحد رأسه على
خَلْقِهِ ويتكبر عليهم .

وهكذا يحمى الحق سبحانه خَلْقَهُ من خَلْقِهِ ، فإن تكبر عليك
ربك ، وأجرى عليك قدراً ، لأنك فعلت شيئاً وأنت واحد ، فاعلم أنه
يتكبر على الآخرين جميعاً وهم كثيرون . إن فعلوا بك هذا الشيء .
إن فصفة الكبرياء لله عز وجل فى صالحك .

ومثلنا لذلك . والله أعلم الأعلى من مصلحة الأسرة ألا يكون بها إلا
كبير واحد يرجع إليه ، ومن أقوال العمامة (التى ملوش كبير يشتري له
كبير) لأنه الميزان الذى تستقيم به الأمور ويسير دفة الحياة .

وقلنا إن من أسمائه تعالى (الكبير) ولا نقول : الأكبر مع أنها صيغة مبالغة ، لماذا ؟ لأن أكبر صيغة مبالغة عندنا نحن البشر ، نقول . هذا كبير وذاك أكبر ، وهذا أقوى وذاك أقوى ، ولا يقال هذا في صفة تعالى لأنك لو قلت : الله أكبر لكان المعنى أنك شركت معه غيره ، فهو سبحانه أكبر وغيره كبير ، لذلك لا تُقال الله أكبر إلا في الداء للصلاة

إذن المستكبر . الذي يطلب مؤهلات كبر وليس لذاتية شيء من هذه المؤهلات ، والإنسان لا ينبغي له أن يتكبر إلا إذا مك ذاتيات كبره . والمخلوق لا يملك شيئاً من ذلك

ومعنى ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ (٦٧) [المؤمنون] الهاء في (به) ضمير مبهم ، يُعرف بمرجعه . كما نقول : جاءني رجل فأكرمته ، فالذي أزال إبهام الهاء مرجعه إلى رجل . وفي الآية لم يتقدم اسم يعود عليه الضمير ، لكن الكلام هنا عن الرسول الذي أرسل إليهم ، والقرآن الذي أنزل عليهم معجزة ومنهاجاً ، إذن لا يعود الضمير إلا إلى واحد منهما .

أو : أن الضمير في (به) يعود إلى بيت الله الحرام . وقد كان سبباً لمكانة قريش ومنزلتهم بين العرب ، وأعطاهم وضْعاً من السيادة والشرف ، فكانوا يسيرون في رحلات التجارة إلى اليمن وإلى الشام دون أن يتعرض لهم أحد . في وقت انتشر فيه بين القبائل السلب والنهب والغارة وقطع الطريق .

وما كانت هذه المنزلة لتكون لهم لولا بيت الله الحرام الذي يحجّه العرب كل عام ، وخدمته ورسداته في أيدي قريش ، لذلك استكبروا به على الأمة كلها ، ليس هذا فقط ، إنما تجرأوا أيضاً على البيت .

ويقول تعالى بعدما : ﴿ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ (٦٧) ﴿ [المؤمنون] السامر الجماعة يسمرون ليلاً ، وكانوا يجتمعون حول بيت الله ليلاً يتحدثون في حق النبي ﷺ ، يشتمونه ويحرضون في حقه ، وفي حق القرآن الذي نزل عليه ^(١) .

وليتمهم يسمرون عند البيت بالخير إنما بهجر ، والهجر هو قحش الكلام في محمد ﷺ وفي القرآن

فامر هؤلاء عجيب : كيف يفعلون هذا وهم في رحاب بيت الله الذي جعل لهم السيادة والمنزلة ؟ كيف يخوضون في رسول الله الذي جاء ليظهر هذا البيت من الأصنام ورجسها ؟ إنه سوء أدب مع الله ، ومع رسوله ، ومع القرآن ، يصيق فيه قول الشاعر

أَعْلَمُ الرَّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ لَكُمَا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَاتِي
وَكَمْ عَلِمْتُ نَطْمَ الْقَوَائِي فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةَ هَجَانِي

لقد استكبر هؤلاء على الأمة كلها بالبيت ، ومع ذلك ما حفظوا حرمة ، وجعلوه مكاناً للسمر والهجر والسفاهة واللطيش . ولكل ما لا يليق به ، فالقرآن عندهم أساطير الأولين ، ومحمد عندهم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون .. وهكذا .

والحق - سبحانه وتعالى - يُنبهكم إلى أن ضروريات حياتكم هبة منه سبحانه وتفضل ، فعينما جاءكم أبرة ليهدم هذا البيت العتيق ، وينقل هذه العظمة وهذه القداسة إلى الحبشة ، ولم يكن لكم طاقة لردّه ولا تدرة على حماية البيت فلر هدمه لضاعت هيبتكم

(١) قاله عبد الله بن عباس وغيره ، ليم نقله عنه القرطبي في تفسيره (٦ / ٤٦٧) .

وسيادتكم بين القبائل ، ولتجروا عليكم كما تجروا على غيركم ، لكن
حمى الله بيته ، ودافع عن حرملك ، حتى إن الفيل نفسه رعى هذا
الدرس ، ووقف مكانه لا يتحرك نحو البيت خاصة ، ويوجهونه في
أي ناحية أخرى فيسير .

وَيَذَوِي أَن أَحَدَهُمْ^(١) قَالَ لِلْفِيلِ يَخَاطِبُهُ : أَيُّكَ مُحَمَّدٌ وَارْجِعْ
وَالشَّادُ - يعني : أفد بجلدك : لاك في بلد الله الحرام ، وكما قال
الشاعر^(٢)

حُبْسَ الْفِيلِ بِالْمَغْمَسِ حَتَّى صَارَ يَحْبُو كَأَنَّهُ مَعْقُورٌ^(٣)

وهكذا ردهم الله مقهورين منحرورين ، وحفظ لكم البيت ، وأبقى
لكم السيادة

لذلك لاحظ الانتقال من سورة الفيل إلى سورة قريش ، يقول
تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَبُدَّهُمْ فِي
تَضَالُلٍ ۚ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤)
فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل] يعني : مثل التبن والعُتات الذي
تذروه الرياح

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : لقد رأيت ناقة الفيل وسائمه أحبين مقامين يستلزمان
بمكة أخرجه البيهقي في (دلائل النبوة) ، ١/١٢٥ ، قال مسقطه الحير في سيرة ابن
هشام (٥٩/١) يستلزمان « الناس » ، ونقله الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية
(١٧٤/٢)

(٢) هو أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة

(٣) الغمس : موضع قريب من مكة والمعقور المنحور ، أي كأنهم قطعوا إحدى قوائمهم ثم
شمره ، وهو للإبل [انظر : لسان العرب - مادة : عقر]

ثم يقول في أول قريش . ﴿لَيْلَافٍ قُرَيْشٍ ۝١﴾ [قريش] بمعنى ما حلّ بأصحاب الفيل ، فاللام في (ليلاف) لام التعليل ، يعني : حلّ ما حلّ بأصحاب الفيل لقائف قريش ما اعتادته من رحلة الشتاء والصيف ﴿لَيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾ [قريش] وما دام أن الله تعالى قد حماكم وحمل لكم البيت ، وحفظ لكم السيادة كان ينبغي عليكم أن تعبدوه وحده لا شريك له ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْتَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش]

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿أَعْلَمُوا بِتُرَاثِ الْقَوْلِ ۚ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ
آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾

في هذه الآية والآيات بعدما يريد - سبحانه وتعالى - أن يوبّخهم بعدة أمور واحد بعد الآخر .

أولها : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ۚ ۝٦٨﴾ [المؤمنون] فالاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع : ماذا جرى لهؤلاء ؟ أفلم يعقلوا القول الذي جاءهم في القرآن ، وهم أمة الفصاحة والبلاغة والبيان ، وأمة القول بكل فنونه حتى أقاموا له المراسم والمعارض وعلّقوه على الجدار ؟

لذلك لا يعقل ألا تفهموا القرآن ، وقد جاءكم بأسلوب على مستوى أعلى من البلاغة والفصاحة ، لا بدّ أنكم فهمتموه ووعيتُم ما فيه ، بدليل قولكم : ﴿لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّ عَظِيمٍ ۝٦٩﴾ [الزخرف]

وهكذا الكذاب يسرقه طبعه ، وينمّ منطقاً عما في ضميره .

فاعترضكم ليس على القرآن إنما على محمد : لأنه فقير من أوسط القوم ، فالمسألة - إذن - منازعة سيادة وسلطة زمنية ، لكن ألم ينر هؤلاء أن محمداً ﷺ ما جاء ليسلبهم سلطنتهم ، أو يعلو هو عليهم ، إنما جاء ليحكمهم بمنهج الله ، ويتحمل هو الأذى والتعب والمشقة في سبيل راحتهم وسعادتهم ؟

لقد جاء النبي ﷺ ليأخذ الحكم ويحمل منهج الله تكليفاً لا تشريعاً ، بدليل أنه عاش في مستوى أقل منكم ، فلا ترى رسول الله إلا أقلهم طعاماً وأقلهم شرباً ، أقلهم لباساً وأثاثاً ، حتى أقاربه كانوا فقراء ، ومع ذلك حرم عليهم الزكاة التي أباحها لعامة المسلمين الفقراء ، كذلك يرث الناس وهم لا يرثون .

وبعد ذلك كله تقولون : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزمر] يبدو أنكم ألغتم العبودية للعضماء وللجبابرة ، ألغتم العبودية لغير الله ، وعز عليكم أن يحرركم الله من هذه العبودية على يد رجل منكسر فقير منكم ، جاء ليصلحكم ، ويخرجكم من العبودية للمخلوق إلى العبودية للخالق عز وجل .

ألم يقل أحد رؤوس الكفر عن القرآن : « والله إن أعلاه لعشر ، وإن أسفله لمقدق ، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه »^(١) .

إذن : ﴿أَلَمْ يَنْهَوْا الْقَوْلَ ..﴾ [١٨] ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ توبيخ ، لأنهم فهموا القرآن ، لكن حسدوا محمداً ﷺ أن ينزل عليه ، وأن ينال دوتهم هذه

(١) هذا القول قتاله الوليد بن المغيرة ، نقله ابن هشام في السيرة النبوية (١ / ٢٧) وذلك أن كشراف قريش اجتمعوا ليبدوا رأياً واحداً في أمر محمد ﷺ ، رفض الوليد كل ما قاله القوم من محمد إلى أن قال قوله هذه ثم قال : « ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرفت أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو ساحر يُفَرِّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه - وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ،

المكانة ، كما قال سبحانه . ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ (٥١) ﴿

[النساء]

الأمر الثاني ﴿ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٥٢) ﴿

[المؤمنون] يعنى جاءهم أمر غريب لا عهد لهم به ، وهو أن يأتى رسول من عند الله ، وهذه المسألة معروفة لهم ، فمنهم إبراهيم عليه السلام ، ومنهم إسماعيل وهم مؤمنون بها ، إذن ليست مسألة عجيبة ، بل يعرفونها جيداً ، لكن ما منعهم فى الاولى منعهم فى هذه ، إنه الحسد لرسول الله ﷺ ، لذلك يقول تعالى ﴿ وَثَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴾ (٥٦) ﴿

[الرحم]

الأمر الثالث : ﴿ أَلَمْ تَرَ مَرَفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ (٥٧) ﴿

يعنى . أنزل عليهم رسول من السماء لا يعرفون سيرته وخلقه ونسبه ومسلكه قبل أن يبعث ؟ إنهم يعرفونه جيداً ، وقبل بعثته سمّوه « الصانق الأمين » وارتضوا حكومتهم بينهم فى مسألة الحجر الأسود ، وكانوا ياتمنونه عسى ودائعهم وثقائس أموالهم ، ولم يجربوا عليه كذباً أو خيانة أو سقطاً من سقطات الجاهلية .

وقد شرحت هذه المسألة فى قول الله تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ .. ﴾ (٦٢٨) ﴿ [التوبة] يعنى . من جنسكم ، ومن نوعكم ، ومن قبيلتكم ، ليس غريباً عنكم وهو معروف لكم . سلوكه وسيرته وخلقه ، وإذا لم تُجربوا عليه لكذب مع الخلق ، انتصرون منه أن يكذب على الخالق ؟

وهل رسول الله فى أول بعثته لما أخبر الناس أنه رسول الله جاء

القرآن ليحمل الناس على الإيمان به ٢ لا ، إنما جاء ليتحدى من لم يؤمن . أما من آمن بداية ، بمجرد أن قال محمد . أنا رسول الله قال : صدقت ، وحيثية التصديق ما جُربَ عليه في الماضي ، ولم علم من صدقه ، وأنه لم يكذب أبداً ؛ لذلك كان المقياس عند الصحابة أن يقول رسول الله ، فإن قال فالمسألة منتهية لأنه صادق لا يشك أحد منهم في صدقه .

لذلك النبي ﷺ لما قال أبو بكر في مسألة الإسراء والمعراج : إن كان قال فقد صدق^(١) ، يحملها رسول الله تقديراً لأبي بكر ويقول : « كنت أذ وأبو بكر في الجاهلية كفرسي رهان » يعني ، في الخلق الطيب والسلوك السيئ » فسبقته للثبوت فأتبعني ، ولو سبقني هو لاتبعت » .

ولما نزل جبريل - عليه السلام - على سيدنا رسول الله ﷺ في أول الوحي فاجهده ، فذهب إلى السيدة خديجة - رضي الله عنها - وحكى لها ما حدث له كأنه يستفهم منها صَماً حدث ولم يخبرها أنه رسول من عند الله ، ومع ذلك أخذته إلى ورقة بن نوفل ، وكان على علم بالكتب السابقة ، فلما سمع ورقة بن نوفل ما حدث قال : إنه الناموس الذي كان ينزل على موسى وليتني أكون حياً إذ يُخرجك قومك ، فقال ﷺ . « أومخرجي هم ؟ » قال . « ما جاء أحد بمثلي

(١) ذكر ابن عسقم في المعيرة النبوية (٢١٨/١) باختصار « أن رسول الله ﷺ لما أصبح بعد صوته من بيت المقدس حَسَا على قريش فاحسبهم الخير فأنكروا عليه ذلك وانصدوا لما يكره وعرضوا عليه هذا الأمر في إنكار فقال لهم أبو بكر إنكم تكذبون عليه فقلوا بلى ما هو ذلك في المسجد يحدث به القدس . فقال أبو بكر . والله لئن كُنَّا لقلنا لقد صدق . لما يعجبكم من ذلك . فوالله إنه ليسبرني أن أظفر ليلتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصطقبه ، فهذا كرم سما تعجبون منه »

ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ^(١) .
ومع ذلك يخال رسول الله ﷺ خائفًا قلقًا أن يكون هذا شيئًا من
الشیطان ، فتطمئنته السيدة خديجة ، فهذا لا يعقل مع رسول الله .
لذلك تقول له : إنك لتصل الرحم ، وتكسب المعدوم ، وتحمل
الكل ^(٢) ، وتعين على نوائب ^(٣) الدهر ، والله لن يخذلك الله أبدًا ^(٤) .

ومن هنا اعتبروا السيدة خديجة أول مجتهدة في الإسلام ، لأنها
اجتهدت واستنبطت من مقدمات رسول الله قبل البعثة دليلًا على
صدقه بعد البعثة ، لذلك كانت أول من سعت بآم المؤمنين ، حتى
قال بعض العارفين : خديجة أم المؤمنين بما فيهم رسول الله ﷺ ،
لأنه في هذه السن كان في حاجة إلى أم أكثر من حاجته إلى عروس
صغيرة تدلله ، وقد قامت خديجة - رضي الله عنها - فعلاً بدور الأم
لرسول الله فاحتضنته ، وطمأنته ووقفت إلى جواره في أشد الأوقات
وأخرجها .

كما نلاحظ في الآية ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ۖ ﴾ (٦٩) [المؤمنون]
فأضاف الرسول إليهم يعني رسول لهم ، أما في الإضافة إلى الله
تعالى ، رسول الله ، فالمعنى رسول منه ، وهكذا يختلف المعنى
 باختلاف الإضافة .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٠) كتاب الإيمان ، والبخاري في صحيحه (٢) من
حديث عائشة رضي الله عنها

(٢) الكل هو من لا يستقل بأمره قال تعالى : ﴿ وَمَوْكَلٌ عَلَى مَوْلَاةٍ ۖ ﴾ [النحل] والكل
هو العجز الثقيل لا خير فيه [القاموس اللويمي ١٦٩/٢] بالفتح .

(٣) النوائب جمع نائبة ، وهي ما يهرب الإنسان أي يدل به من العلمات والحوادث .
والنائبة العصبية من سمات الدهر تنزل بالإنسان [لسان العرب - مادة : نوب]

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٠) كتاب الإيمان ، والبخاري في صحيحه (٢) من حديث
عائشة رضي الله عنها

﴿أَمْرٌ يَقُولُونَ لَهُ جَنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ
وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

والمسألة الرابعة في توبيخ الله لهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ ﴾ (٧١) [المؤمنون] يعنى جنون ، والجنون أن تستعمل الآلة العقلية التى تزن الحركات على وفق النفع والضرر ، فتفعل الخير الدافع ، وتترك الشر الضار . ولنتظر : أى خصلة من خصال الجنون فى مصد ۞

وَدَعَاكَ مِنْ قَضِيَّةِ الدِّينِ وَالْإِلَهِ إِنَّمَا جُذُ خَلَقَهُ ، وَالْحَقُّ أَمْرٌ يَتَّفِقُ عَلَيْهِ الْجَمِيعُ وَيُحَدِّثُونَهُ ، حَتَّى وَإِنْ كَانُوا ضِدَّ صِفَتِهِ ، فَالْكَذَابُ يَحِبُّ الصَّادِقَ ، وَيَعْتَرِفُ أَنَّ الصِّدْقَ شَرَفٌ وَكِرَامَةٌ ، وَالْبَحِيلُ يَحِبُّ الْكَرِيمَ ، وَالْمُضْرِبُ يَحِبُّ الْحَلِيمَ . أَلَا نَرَى الْكَاذِبَ يَزَاوِلُ كَذِبَهُ عَلَى النَّاسِ ، لَكِنْ لَا يَحِبُّ مَنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِ ؟

ألا ترى شاهد الزور يفتقد غيره بشهادته ، ومع ذلك يسقط من نظره ويحقره ، حتى إن أهل الحكمة ليقولون : إن شاهد الزور يرتفع رأسك على الخصم بشهادته ، وتدوس قدمك على كرامته ، ومن جعلك موضعاً للنقبة فقد سلطت من نظره ، وإن أعنته على أمره .

إذن . فالأخلاق مقاييسها واحدة ، فقيسوا مجسداً بأخلاقه لا بالدين والرسالة التي جاء بها ، انظروا إلى خلقه فيكم ، ولن يستطيع واحد منكم أن يتهمة في خلقه بشيء . وما دام لا يُتَّهم في خلقه فلا يُتَّهم كذلك في عقله ، لأن العقل هو ميزان الخلق وأساسه .

لذلك يقول ربه - عز وجل - في حقه :

﴿ۛ وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ۛ﴾ مَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ مِّمَّنْ يَمْجَلُونَ ﴿ۛ﴾ وَإِنَّ لَكَ

لأَجْرًا غَيْرَ مَسْنُونٍ^(١) ﴿٢٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٢٤﴾ [الأنعام] فَخَلَقَكَ
العظيم أكبر بليد على أنك لست مجنوناً .

إذن . محمد يرى من هذه التهمة ، والمسألة كلها كما قال
تعالى . ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ ﴾ . (٢٣) [المؤمنين] فهذا عيبه في نظرهم ؛
لأن الحق يغيظ أهل الباطل المنتفعين منه ، والبعض يرى الحق في
الخير الذي يأتيه ، فإن كان في شيء لا ينتفع منه فهو شر ، لذلك
إن أردت أن تحكم على خصلة فاحكم عليها وهي عليك ، لا وهي لك ،
فمثلاً أن تكره الكاذب سواء كذب لك أو كذب عليك ، إذن : فخذ
المسائل على أنها لك وعليك .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما قيد حركتك في النظر إلى
محارم الآخرين ، لا تتبرم ولا تقل . منعنى متعة النظر . الخ . لكن
انظر إلى أنه قيد عينيك وأنت واحد ، وقيد عيون الآخرين عن محارمك
وهم كثيرون .

ويقول تعالى بعدما : ﴿ وَأَكْفَرَهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [المؤمنين]
وطبيعي أن يكره أهل الباطل الذين استشرى ظلمهم وطفيتانهم .
يكرهون الحق الذي جاء ليعدل الميزان ، ويقوم المعوج في حركة
الحياة ، وكراهية أهل الباطل لرسول الله كان ينبغي أن تكون معيار
تصديق له لا تكذيب به ، ينبغي أن نقول . طالما أن أهل الباطل
يكرهون هذا فلا بد أنه على الحق وإلا ما كرهوه

(١) غير مسنون . أي غير مقطوع أي دائم . ويحتمل أنه غير مكتر بالمرئ والتقويم والفهم
به . ولا يتعارض المعنيان . [القاموس القويم ٢ / ٢٤٠]

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ
ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٧١)

إذن . فالمسائل لا تسير على هوى المخلوق ، إنما على مرادات الخالق ، لأن الخالق سبحانه هو صانع هذا الكون . وكل صانع يغاز على صناعته ، وهذا مُشاهد حتى في صناعة البشر ، ولك أن تتصور ماذا يحدث لو أفسدت على صانع ما صنعه .

وعدلة الأشياء أن تسير على وفق مرادات الصانع ، لا هوى المصنوع ، لأن الأهواء تملكها الأخيار ، فالإنسان لو سار في حركة حياته على وفق هواء لاخذ ما ليس له ، ولتقبل الرشوة ، ومال إلى الفسق والانحراف ؛ لأنه في الظاهر يرى أنه منتفع بهذا ولا ينظر إلى العاقبة والمحصلة النهائية ، لقد نظر إلى متعة زائلة موقوتة ، ونسى تبعه ثقيلة لن يقدر عليها فيما بعد .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ ﴾ (٧١) [المؤمنون] ولك أن تقول : نعم ،
اتباع الأهواء يفسد الأرض ، ويفسد حركة الحياة فيها ، لكن كيف
يفسد السماء ؟ ومن لأحد قدرة عليها ؟

ونقول : ألم يكن من أمنيات هؤلاء . ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى
تُفْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ (٧٠) أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر
الأنهار خلالها تفجيراً (٧١) أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ..
﴿ (٧٢) ﴾ [الإسراء]

إِنَّ . من أهوائهم أَنْ تَهْتَمَّ السماء ، ولو حتى على رؤوسهم ،
وَأَيَّ فساد بعد هذا ، وهكذا لو اتبعت أهواءهم لفسدت السموات
والأرض ، ليس هذا ولقط يل ﴿ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ ۝ (٧١) ﴾ [المؤمنون] حيث
سيتعدى فسادهم ليشمل كل ما في الوجود .

لذلك يقيد العبي لله هذه الأهواء في قوله : لا يؤمن أحدكم
حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ،^(١) لآله . ﴿ وَمَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ
(٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ ﴾ [النجم]

وقد توقف بعض المستشرقين مُعْتَرِضاً على هذه الآية ﴿ وَمَا
يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ ﴾ [النجم] يقولون : يعني كلامه كله صحيح ،
فلماذا يُعَدَّلُ له ربه بعض الأحكام ؟ ومعنى ذلك أن الحكم المعدل
حين نطق به كان ينطق عن هوى

ولو فهم هؤلاء معنى الهوى ما كان منهم هذا الاعتراض ، فالهوى
أن تعرف الحق ، لكن هواك يصرفك عنه ، ورسول الله ﷺ لم يكن
يعرف في هذه المسائل حكماً واصرف عنه ، إنما نطق وحكم على
مقتضى ما فهم في أمر لم ينزل فيه من الله شيء ، ثم نزل الحكم
من الله ليعدل اجتهاد رسوله .

إذن لم يكن لرسول الله ﷺ ينطق بمقتضاه ، وفي تعديل الحق
سبحانه لرسوله ، وتبليغ الرسول لأمته بهذا التعديل أكبر دليل على
صِدْقِهِ ﷺ وأمانته في البلاغ عن ربه ، ولأفلم يكن أحد ليعلم هذا
التعديل ، لو أخفاه رسول الله تعصياً لنفسه ، أو لدفع الخطأ عنه .

(١) أخرجه ابن أبي عمير في كتابه الستة (١٢ ، ١) من حديث عبد الله بن عمرو .

وأورده ابن رجب الحنبلي في : جامع العلوم والحكم ، (ج ١٠) ومثله

ومن ذلك قوله تعالى ﴿يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ لِمَ تُعْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ..﴾ (١) [التحريم] ويقول سبحانه : ﴿عَمَّا اللَّهُ عَمَّكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ ..﴾ (٢) [النوبة]

وكان بوسع رسول الله أن يكتم هذه الآيات التي تعاتبه وتُعَذِّبُنا عليه ، لكنه ﷺ كان أميناً يقول ما له وما عليه ، بذلك يقول عنه ربه : ﴿ وَتَوَلَّوْا قَوْلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ (١٤) لَأَخْلَعَنَّ مِنْهُ الْيَمِينَ (١٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (١٦) ﴾

ثم يقول تعالى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الزمنون] و (بل) تفيد الإضراب عن الكلام السابق ، وإثبات كلام جديد بعدها ، والذكر هنا يعنى الشرف والصِّيت والمكانة العالية ، كما جاء فى قوله تعالى عن القرآن : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ. ﴾ [الرَّحْف]

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١)
[الأنبياء] فكان يجب عليهم أن يحتضنوا هذا القرآن ، ويرفعوه فوق رؤوسهم ، ففيه مجدهم وشرفهم وعزتهم ، والعرب بدون القرآن لا ذكراً لهم ، فقد كانوا أمة أمية تعيش على الترحال والتنقل ، ولا تستقر إلا على منابع الماء ومواضع الكلا ، كانوا بدواً تنتشر فيما بينهم الحروب والفارات وقطع الطرق ، كان الواحد منهم يسرق ليكرم ضيفه بمسرق .

وهذه من الامور العجيبة في عادات العرب في الجاهلية ، فلم يكن

(١) اليوناني عَرَّق في القلب إذا فُطِحَ مات صاحبه ، وهو الخريص الرئيسي الهام الذي يتدفق الجسم بالدم للتغذية الخارج من القلب . والمسيح أي امتنعت عاجلاً وأملكتناده سريعاً إذا حالف أسرنا أي مخالفة [الباموس القويم ٢/ ٣٩٤]

لديهم منهج يحكم حياتهم ، عجيب أن ترى هب الفارة والاعتداء مع
الشهامة والكرم في طبيعة واحدة ، فهو يفعل ما يعنُّ له ، وما يخطر
بباله ، فالمسألة ليست محكومة عندهم بقانون ، حتى قال غصينهم
الشاعر

لا تمدحني ابنَ عبادٍ^(١) وإنْ هطلتْ كَفَّاهُ بالْجُودِ حَتَّى اشْبَهَ الدُّيَمَا^(٢)
فَلَيْتَهَا خَطَرَتْ مِنْ وَسْوَاسِهِ يُعْطَى وَيَمْنَعُ لَا بُحْلًا وَلَا كَرَمًا

ومن أشهر قصائد الشعر العربي في الكرم هذه القصيدة التي
تأصل فيها هذا الخلق حتى عند الأطفال ، وحتى أن الأب يوم يذبح
ولده للضيف ، لأنه لم يجد ما يذبحه لقرانه^(٣)

ويقول فيها الشاعر .

وَطَاوٍ ثَلَاثًا عَاكِصٍ الْبَطْنِ مَرْمَلٍ بَبِيْدَاءَ لَمْ يَعْرِفْ بِهَا سَاكِنٌ رَسْمًا^(٤)
أَخِي جَفْوَةً فِيهِ مِنَ الْإِنْسِ وَحَشَةً يَرَى الْبُؤْسَ فِيهَا مِنْ شِرَاسَتِهِ نَعْمَى
رَأَى شِمْعًا وَسَطَ الظَّلَامِ فَرَكَعَهُ فَمَا رَأَى ضَيْفًا تَشْمُرُ رَاغِمًا^(٥)
وَقَالَ هَيَّا رَبَاءَ ضَيْفٍ وَلَا قَرَى ! بَحَقِّكَ لَا تُحْرِمُهُ تَالِيلَةَ اللَّحْمِ

(١) هو إسماعيل بن عباد أبو القاسم الطائفي ، وزير غلب عليه الاسب ، استوزره مؤيد
الدولة ثم أخوه فخر الدولة ، رلقب بالمصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه ، ولد في
الطائف (من أعمال قزوين) (عام ٣٢٦ هـ) وألحقه نصيبه توفى بالري (طهران) عام
(٣٨٥ هـ) ونقل إلى اصفهان فدفن فيها [الأعلام للزركلي ١ / ٢٦٦]

(٢) الديمة المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق وهو المطر الدائم ويقال نامت السمعة
لديهم ، مطرت ديمة [لسان العرب - مادة ديم]

(٣) القرى طعام الأضياف

(٤) الطاوي الجائع مرمل قد اختلط طعامه بالرمل الرسم الاثر

(٥) راعه أخاهه وأنزعه

وأفرد في شعب عَجُوزًا إزاءها ثلاثه أشبايح تَخَالَهُمُوا بِهِمَا
حُفَاءَ غُرَّةٍ مَا اغْتَدُوا خُبْرَ مَلَّةٍ وَلَا عَرَفُوا لِلْبَرِّ مَذَّ خَلَقُوا طَعْمًا^(١)
فَقَالَ اللَّهُ لَمَّا رَأَاهُ بِمِثْرَةٍ أَيَا أَبْتَ ائْبَحْنِي وَيَسُرُّ لَهُمْ طَعْمَا
وَلَا تَعْتَذِرُ بِالْعُدْمِ عَلَى الَّذِي طَرَا يظنُّ لَنَا عَالًا فَيُوسِعُنَا ذِمَّ
فَرَوَى قَلِيلًا ثُمَّ أَحْجَمَ بَرْهَةً وَإِنْ هُوَ لَمْ يَذْبَحْ فَنَاءَ فَقَدْ هَمَّا
فَبَيْنَا هَمَّا عَنَّتْ عَلَى الْبُعْدِ عَانَةً قَدْ انْطَلَعَتْ مِنْ حَلْفٍ مَسْحَلَهَا تَقْلَمًا^(٢)
عَطَاشًا تَرِيدُ الْمَاءَ فَانْسَابَ تَحَوَّاهَا عَلَى أَنَّهُ مِنْهَا إِلَى نَعْمِهَا أَنْطَمَا
فَأَمَلَهَا حَتَّى تَرَوْتَ عِطَاشَهَا وَأَرْسَلَ فِيهَا مِنْ كِنَانَتِهِ سَهْمًا
فَخَرَّتْ تَحْوَصُّ ذَاتَ جَحْشٍ قَدْ ائْتَنَزَبَتْ لَحْمًا وَقَدْ طَبَّقَتْ شَحْمًا^(٣)
فَيَا بَشْرَهُ إِذْ جَرَّمَا نَحْوَ قَوْمِهِ وَيَا بَشْرَهُمَا لَمَّا رَاوَا كَلَمَهَا يَنْعَى^(٤)
وَبَاتَ أَيُّوَهُمَ مِنْ بَشَاشَتِهِ أَيَا تَخَيَّفَهُمُوا وَالْأَمَ مِنْ بَشْرَاهَا أُمَّ
لَقَدْ تَأَصَّلَتْ خَصْلَةُ الْكَرَمِ فِي الْعَرَبِيِّ ، حَتَّى فِي الْأَطْفَالِ الصِّغَارِ ،
فَهُوَ وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا لَكِنْ لَا يَحِبُّ أَنْ يُعْرِفَ عَمَهُ الْفَقْرَ ، يَحِبُّ أَنْ يَظْهَرَ
فِي صُورَةِ الْغَنَى الْكَرِيمِ الْمَعْطَاءِ ، وَإِنْ نَاقَضَ ذَلِكَ صِفَاتٍ أُخْرَى
ذَمِيمَةً فِيهِ .

واشاعدهم أنهم جماعة تنقضت خصائصهم ، وقد عاشوا في أمة
تامة فلم يعالجوا حضارة ، وهذه حسبت لهم يعد ظهور الإسلام

(١) خير ملة هو الخير يوضع في الرماد الحار الذي يُجْمَى لِيُدْفَنَ فِيهِ الْخَيْرُ لِيَبْضُغَ

(٢) عَنَّتْ ظَهَرَتْ هَانًا : الْعَتَوَى مِنَ الدَّوَابِّ مِنْ حُمُرِ الْوَحْشِ الْمَسْلُ قَائِدُ الْقَطِيعِ

(٣) تَحَوَّصَ سَمِيَةً مَمْلُوءَةً طَبَّقَتْ شَحْمًا ائْتَنَزَبَتْ ائْتَلَتْ شَحْمًا وَلَحْمًا

(٤) الْكَلَمُ الْجَرَجُ يَدْمَا يَدْرِفُ دَمًا [رَاجِعْ لِسَانَ الْعَرَبِ]

وبعثة النبي ﷺ من بينهم ، فكيف لمثل هؤلاء أن يأتوا بهذه المعاني والأساليب العالية التي تحكم العالم كله ؟ ولو كانوا أهل علم وحضارة لقالوا عنهم وعن الإسلام : إنه لفرة حضارية

ولو كان رسول الله ﷺ قارئاً لقالوا : قرأ فلان وفلان ، كما حكى عنهم الحق سبحانه وتعالى . ﴿ وَكَفَدُ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۖ ۝ (١٠٢) ﴾ [النحل]

إذن : فذكر العرب وشرقهم ومجدهم وكرامتهم في القرآن ، ومع ذلك لم يعملوا حتى لمصلحتهم ، ولم يهتموا بهذا القرآن ، إنما أعرضوا عنه ﴿ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ۝ (٧١) ﴾ [المؤمنون]

أى . عن القرآن ، وهذا دليل أنهم كانوا مغفلين ، لا يعرفون حتى مصلحتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَسَّأَلَهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجٌ رَبِّكَ خَيْرٌ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝ (٧١) ﴾

(الخَرْجُ) ما يخرج منك طوعية ، أما الخراج فهو ما يخرج منك رعباً منك ، وللزيادة في المعنى تدل على الزيادة في المعنى ، فالخراج أبلغ من الخرج والمراد بقوله تعالى ﴿ أَمَسَّأَلَهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجٌ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ ۝ (٧٢) ﴾ [المؤمنون] أن كنت تريد خرجاً فلا تأخذه من أيديهم ، إنما خذه من ربك ، فما عندهم ليس خرجاً بل خراج ﴿ فَخَرَّاجٌ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ ۝ (٧٢) ﴾ [المؤمنون]

فلا تأخذ الوزن إلا من يد الخير والبركة : لأن الحق سبحانه لا



يَمُنُّ عَلَى خَلْقِهِ بِرِزْقِ يَرْزُقُهُمْ بِهِ ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ قَدْ اسْتَعَاثَ إِلَى الْحَيَاةِ : لَدَيْكَ تَكْفُلُ سَبْحَانَهُ بِأَرْزَاقِهِمْ ، كَمَا لَوْ دَعَوْتَ صَدِيقًا إِلَى طَعَامِ فَمِنْكَ تَعُدُّ لَهُ مَا يَكْفِي عَشْرَةَ ، فَمَا بِأَلَكْ حَيْثُمَا يُعَدُّ لَكَ رَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ ؟

ثُمَّ يُدِيلُ الْعَقْلَ سَبْحَانَهُ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٧٧) [النؤميسر] وهذه أحدى إشكالات عند البعض : لَأَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ جَعَلَ لَخَلْقِهِ شِرَاكَةً فِي صِفَةِ الرِّزْقِ ، فَغَيْرُهُ سَبْحَانَهُ يَرْزُقُ أَيْضًا ، لَكِنْ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ، لِأَنَّهُ يَرْزُقُ الْخَلْقَ بِأَصْنَافِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَرْزُقُونُ مِنْهَا غَيْرَهُمْ ، فَإِنْ كُنْتَ تَرْزُقُ غَيْرَكَ مِثْلًا طَعَامًا فَهُوَ سَبْحَانَهُ أَصْلُ هَذَا الطَّعَامِ وَمَصْدَرُهُ .

هُوَ سَبْحَانَهُ خَالِقُ التُّرْبَةِ ، وَخَالِقُ الْمَاءِ ، وَخَالِقُ الْهَوَاءِ ، وَخَالِقُ الْبِذْرَةِ ، وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ أَعْمَلْتَ عَقْلَكَ ، وَاسْتَخْدَمْتَ الطَّاقَاتِ الَّتِي مَنَحَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا ، فَأَخْرَجْتَ هَذَا الطَّعَامَ ، فَلَوْ أَنَّكَ جِئْتَ لِأَهْلِكَ بِحَاجِيَاتِ الْمَطْبُخِ وَبَوَازِمِ الْمَعِيشَةِ طَوَالَ الظُّهْرِ مِنْ دَقِيقٍ وَسَمْنٍ وَارِزٍ وَسُكَّرٍ إلَخَ وَقَامَتْ زَوْجَتُكَ بِإِعْدَادِ الطَّعَامِ أَتَقُولُ . إِنَّ الزَّوْجَةَ هِيَ الَّتِي جَاءَتْ بِالطَّعَامِ ؟

لِذَاكَ يَقُولُ الْعُلَمَاءُ وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ تَزُوهَا السَّنَنُكُمْ عَنْ قَوْلِ فَلَانِ رَازِقٍ ، وَدَعَوْهَا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ خَالِقُ الرِّزْقِ ، وَوَاجِدُ أَسْوَلهِ ، وَمَا أَنْتَ إِلَّا مُنَاوِلٌ لِلْغَيْرِ .

وَتَلَحَّظُ أَنَّهُ تَعَالَى أَضَافَ الْخَرَاجَ إِلَى الرِّبَويَّةِ الَّتِي تَقِيدُ الرِّعَايَةَ وَالْعَنَايَةَ وَالتَّوْبِيَّةَ ، فَمَا دَامَ الْخَرَاجُ خَرَاجُ رَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ ، فَهُوَ خَرَاجٌ كَثِيرٌ وَعَطَاءٌ لَا يَنْقُصُ .

الصراط المستقيم : الطريق المعتدل الذي لا عوج فيه ولا أمثاله^(١) ، فكيف إذن يتأبون عليك ويمتفون في طريقك وأنت تدعوهم إلى الصراط المستقيم ؟ ومن انتفع بالصراط المعوج واحد فسوف ينتفع بالصراط المستقيم الملايين .

ومن ذلك ما سبق أن أروضناه من أنه يجب عليك أن تنتظر إلى ما أعطاه لك التشريع قبل أن تنتظر إلى ما أخذه منك ، فالشرح حين يأخذ منك وأنت غنى يعطيك وأنت فقير ، ويأمرك برعاية اليتيم ليرعى أولادك من بعدك إن تركتهم وهم صغار .

فالشعر - إذن - يؤمن حياتك ويجعلك تستقبل مقادير الله بالرضا ، لأنك في مجتمع إيماني لن يتحلى عنك إن افتقرت ، ولن يترك أولادك إن قسّموا ، فالمجتمع الإيماني إن مات فيه الأب كان الجميع لليتيم آباء أما إن صاع اليتيم في مجتمع الإيمان فإن ذلك يفتح الباب للسخط على قدر الله ، ويغري ضعاف الإيمان أن يقولوا : ما الحكمة في أن يأخذ أباهم ويتركهم عائلة لا يتكفل بهم أحد ؟

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُّونَ ﴾ (٧٤)

﴿ الصِّرَاط .. (٧٤) ﴾ [المؤمن] هو الطريق المستقيم الذي يؤدي إلى الغاية بأقل مجهود ، وفي أقل وقت ويوصلك إلى أفضل غاية ، والطريق يأخذ حظه من العناية والاهتمام بقدر الغاية الموصّل إليها ،

(١) الامت الاختلاف في المكان لارتفاعاً وانخفاضاً ، ومنه قوله تعالى ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه] أي لا ترى في الأرض يوم القيمة التواء ولا انحرافاً يميناً ولا شمالاً ولا ترى فيها اختلافاً في الارتفاع والانخفاض أي أنها مستوية تماماً رأسياً وأفقياً

فَالطَّرِيقَ مِنَ الْقَامَرَةِ إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ غَيْرِ الطَّرِيقِ بَيْنَ الْقَرْيِ وَالنُّجُوعِ .
وَمَعْنَى : ﴿لَتَأْكُبُونَّ (٧٤)﴾ [المؤمنون] يَعْنَى مَنْحَرِفُونَ عَنِ
الطَّرِيقِ ، وَلَهُمْ حَقٌّ فِي الْأَعْوَجَاجِ وَعَدَمُ الْإِسْتِقَامَةِ : لِذَلِكَ يَقُولُ لَكَ مَنْ
يُرِيدُ الصَّدَقَ (تَعَالَى دَوغَرَى) يَعْنَى مِنَ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لَا
أَعْوَجَاجَ فِيهِ وَلَا مَرَاوَعَةً .

لَكِنْ ، مَا الَّذِي جَعَلَهُمْ يَتَنَكَّبُونَ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي يُنْظَمُ لَهُمْ
حَرَكَةُ الْحَيَاةِ ، وَيَجْعَلُهَا تَتَمَاسَدُ لَا تَتَعَانَدُ ، وَيَعُودُ مَجْهُودُ الْفَرْدِ عَلَى
الْبَاقِينَ ؟ لِمَاذَا يَهْرَمُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ مَزَايَا هَذَا الطَّرِيقِ ؟

قَالُوا . لَأَنَّهُمْ مَكْذُوبُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا مَكْذِبِينَ بِالْآخِرَةِ
لَأَمَنُوا وَاتَّبَعُوا مَنَهِجَ اللَّهِ : لِأَنَّهُمْ سَيَحْتَوِلُونَ إِلَى اللَّهِ لَيْلُولَةً ، تَعْطَى
الْمُحْسِنُ جَزَاءَهُ وَتَعْطَى الْمُسِيءُ جَزَاءَهُ . فَالَّذِي أَفْسَدَ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ
اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَظَنُّوا أَنَّ الدُّنْيَا هِيَ الْغَايَةُ وَهِيَ نَهَايَةُ الْمَطَافِ ،
وَعَفَلُوا عَنِ الْآخِرَةِ ، وَأَنَّهَا دَارُ النِّعَمِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي لَا يَفُوتُكَ
وَلَا تَقُوتُهُ

كَمَا قَالَ عَنْهَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . ﴿وَلِإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ
الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [المنكبر] يَعْنَى الْحَيَاةَ الْحَقِيقِيَّةَ .

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ .

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا

فِي طَغْيِهِمْ يَوْمَئِذٍ (٧٥)﴾

يَعْنَى نَوْ حَدَّثَ هَذَا لِعَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ . كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ
فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا
فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسً ۖ (١٢)﴾ [يونس]

وَلَيْتَهُ كَتَفَى عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، إِنَّمَا يَتَعَدَّى هَذَا ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا ۖ ۞ (٧٨) ﴾ [الزمر] يَقُولُ كَمَا قَالَ قَارُونَ : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ ۞ (٧٨) ﴾ [النصر] يَعْنِي : هَذَا بِمَجْهُودِي وَتَعَبِي ، وَتَدَ كَلِمَتِ فَلَانًا ، وَفَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا

لِذَاكَ كَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَقُولَ لَهُ رَبِّهِ . مَا نُعْتُ قَدْ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدَكَ ، فَاحْفَظْهُ بِعِلْمٍ عِنْدَكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ ۖ ۞ (٨١) ﴾ [القصر]

فَإَيْنَ الْآنَ عِلْمُكَ ؟ وَإِنِّي عِلْمُ هَذَا الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِمَا أَتَى بِهِ ؟ وَمَعْلُومٌ أَنْ اسْتِنْبَاطَ الشَّيْءِ أَصْعَبُ مِنْ حَفَظِهِ وَصِيَانَتِهِ .

وَمَعْنَى ﴿ لَلْجُورِ ۖ ۞ (٧٥) ﴾ [المؤمنون] تَعَادَى ﴿ لِي طُغْيَانِهِمْ ۖ ۞ (٧٦) ﴾ [المؤمنون] وَالطُّغْيَانُ . مَجَاوِزَةُ الْحَدِّ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ حَدًّا مَرْسُومًا لَا يَنْقُصُ وَلَا يَزِيدُ ، فَإِنْ ائْتَيْتَ هَذَا الْحَدَّ الَّذِي رَسَمَهُ اللَّهُ لَكَ اسْتَقَمْتَ وَاسْتَقَامَتْ حَرَكَةُ حَيَاتِكَ بِلَا مَنَازِعَ ، وَلَوْ طَغَى الشَّيْءُ أَفْسَدَ حَرَكَةَ الْحَيَاةِ ، حَتَّىٰ لَوْ كَانَ الْمَاءُ الَّذِي جَعَلَ إِلَيْهِ مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ حَيًّا ، لَوْ طَغَى يُفَرِّقُ وَيُفَرِّقُ بَعْدَ أَنْ كَانَ سِرَّ الْحَيَاةِ حَالِ اعْتِدَادِهِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَعَمَاَ الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۖ ۞ (٥١) ﴾ [الحاقة]

وَيُقَالُ لِمَنْ جَاوَزَ الْحَدَّ . طَاغِيَةً بَقَاءَ التَّائِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمَجَالِفَةِ . هَبْنِ تَجَاوَزَ هَذِهِ أَيْضًا نَقُولُ : طَاغَوْتَ .

ثُمَّ تَأْتِي نَتِيجَةُ التَّعَادَى فِي الطُّغْيَانِ ﴿ يَمْهَرُونَ ۖ ۞ (٧٥) ﴾ [المؤمنون] يَعْنِي . يَتَحَيَّرُونَ وَيَعْمُونَ مِنَ الرَّهْدِ وَالصَّوَابِ ، فَلَا يُعَيِّرُونَ بَيْنَ خَيْرٍ وَشَرٍّ .

ثم يقول الحق سبحانه^(١) :

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِيَ رَبِّهِمْ

وما ينضربون

استكان فلان لا يقال إلا لمن كان متحركاً حركة شريفة ، ثم هذا
وسكن ، نقول ، فلان (انكَنَ) أو استكان وأصلها (كَوْن)
فالمعنى طلب وجوداً جديداً غير الوجود الذي كان عليه لو حالاً
غير الحال الذي كان عليه أولاً ، فقبل أن يستكين ويخضع كان لا بُدَّ
مُتمرداً على ربه

وانوجود نوعان وجود اولی مطلق ، ووجود ثان بعد الوجود الأولی ، كما نقول مثلاً وُجد زيد یعنی وُجد زيد وجوداً اولياً ، إنما على أي هيئة وُجد ؟ حميلاً ، قبيحاً . هذه تحتاج إلى وجود آخر ، نقول : كان زيد هكذا فعل وماعل لا يحتاج إلى إخبار آخر لأنها للوجود الأول ، لكن حين نقول : كان زيد مجتهداً ، فهذا هو الوجود الثاني وهو لاجتهاد ، وهو وجود ناتج عن الوجود الأول

فكان الأولى هي كان القامة التي وردت في قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَانَ قَوْمٌ ضَلُّوا عَنْ سَبِيلِي﴾ (٢٨٠) ﴿[البقرة: ٢٨٠]﴾ أي: وجد ذو عُسرة،

(١) سبب مرول الآية قال ابن عباس مرأت في قصة ثمة بن أنثال لما أسرته العسوية وأسلم وحلى رسول الله ﷺ سبيله ، حال بين مكة وبين المدينة وقال والله لا يأتيكم من التمامة حبة حنطة حتى يأتني فيها رسول الله ﷺ وأخذ الله قريشاً بالحنط والجور حتى أكلوا البيعة والكلاب والعلمر قيل وما العلمر ؟ قال كانوا يأخذون الصوف والوبر ، فيجملونه بالدم ثم يشورونه ويأكلونه فقال له أبو سفيان أتشهدك الله والرحم ليس نزع من أن الله يفتك وجهه للعالمين ؟ قال بلى قال - فوالله ما أراك إلا قتلت الأباة بالسيف ، وقتلت الأباة بالجور ، فنزل قوله فوالرحمناهم وكشفنا ما بهم من غمر لعلوا في غيائهم ومنهون (٢٥) [المؤمنون] أوردته القرطبي في تفسيره (٤٦٧٧/٦) والواحدى على أسباب النزول (ص ١٧٩) .

ولا تحتاج في هذه الحالة إلى خبر .

ونقول : تمتنى فسلان على الله أن يوجد له ولد ، فكان محمد ،
يعنى . وجد . أما كان الناقصة فتحتاج إلى خبر ؛ لأن (كان) فعل
يدل على زمان الماضى ، والفعل لا بد أن يدل على زمن وحدث ؛
لذلك لا بد لها من خبر الذى يعطى الحدث تقول . كان زيد مجتهداً ،
فجاء الخبر ليكمل الفعل الناقص ، فكانك قلت زيد مجتهد

ومعنى ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ (٧٦) [المؤمنون] أن خضوعهم
واستكانتهم لم تكن لأنفسهم ولا للناس ، إنما استكانة لله بأخذ أوامره
بمنتهى الخضوع وبمنتهى الطاعة ، لكنهم ما فعلوا وما استكانوا ، لا
فى حال الرحمة وكشف الضر ، ولا فى حال الأحذ والعذاب ، وكان
عليهم أن يعلموا أن الله غير حاله معهم ، ومقتضى ذلك أن يغيروا هم
أيضاً حالهم مع الله ، فيستكينوا لربهم ويخضعوا لأوامره .

﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (٧٧) [المؤمنون] الضراعة : هى الدعاء والدلة
والخضوع لمن أخذ بيدك فى شىء ، كما جاء فى قوله تعالى
﴿قُلُوا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَمْرٍ تَضَرَّعُوا ..﴾ (١٢) [الاعراف] يعنى . لجئوا إلى الله
وتوجهوا إليه بالدعاء والاستغاثة .

﴿حَقَّ إِذَا فَتَحَ عَلَيْهِمْ بَابَ ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبَسِّئُونَ﴾ (٧٧)

لقد فشت معهم كل المحاولات ، فما أجدت معهم الرحمة
واستمروا على غلوائهم ، وما أجدى معهم العذاب وما استكانوا بعد أن
أخذهم الله به ، إذن . لم يبق لهم حجة ولا أمل فى النجاة ، ففتح الله

عليهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتْلُوا صُحُفَهُمْ وَلَا يَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمِهِمْ ذُنُوبَهُمْ عَلَيْهِمْ سَئِيرُ الْعَذَابِ ۚ وَبَلَاغٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۖ لَئِنْ كَانُوا مِنْكُمْ يَشْكُرُونَ ۖ (٧٧)﴾ [المؤمنون] يعني : أصابتهم محنة كأنهم من وراء باب مغلقة تفاجئهم ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبَسَّوْنَ (٧٧)﴾ [المؤمنون] آيسون من النجاة متحسرون على ما فاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّنَ السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ
وَالْأَفْئِدَةِ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يقول : خلقت عبادي من عدم ، وأمددتهم بأقوات الحياة ومقوماتها من عدم ، ثم جعلت لهم منها ما ينظم حركة حياتهم ويصون بنيتهم ، لأن صاحب الصنعة أعلم بصنعه ، وأعلم بما يصلحها ، ويعرب عايتها التي خلقها من أجلها ، فالذي صنع التلاجة مثلاً من صنعها أولاً ثم قال بنا انظروا في أي شيء تفيدكم هذه الآلة ؟ لا ، إنما قبل أن يصنعها حدد مهمتها ، والغاية منها ، وكذلك خلق الله ، والله المثل الأعلى

والذي خلق وحدد الغاية أعلم بقانون الصيانة الذي يحى صيغته من الفساد ، ويجعلها تؤدي مهمتها على أكمل وجه ، فإن خالفت قانون الصيانة الذي وضعه لك ربك تفسد حياتك وتتعطل عن أداء مهمتك التي خلقت لها ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات]

لذلك أمركم إن اختلفتم في شيء أن تردوه إلى الله وإلى الرسول ، كما ترد الآلة إلى صانعها العالم بطبيعتها وبمواطن الخلل فيها ، ونستنبط من هذه المسألة ، إذا رأيت خللاً في الكون أو فساداً

في ناحية من نواحيه ، وإذا رأيت عورة من العورات قد ظهرت فاعلم
أن حكماً لله قد عطل

فمثلاً إن رأيت فقيراً جائعاً عارياً فماذا أنت قادر على العمل بكنه
قعد عن السعي وخالف قوله تعالى ﴿فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ
رِزْقِهِ وَأَلْيِهِ السُّورُ (١٥)﴾ [الملك] أو أن القادرين العاملين حرموه حقّه
الذى جعله الله له في أموالهم ، وخالفوا قوله تعالى : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ
حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٤٦)﴾ [الذاريات]

لذلك ، فالحق - سبحانه وتعالى - يجرى على عياده من المقادير
ما يحفظ لهم توازن الحياة ويسدّ حاجة المحتاجين ، كما نرى مثلاً
أحد الأثرياء يترك بلده ، ويتنقل إلى بلد آخر يضع فيها أمواله
وثرواته ، وليس هناك سبب لهذه النقلة إلا أنها خطر سلطه الله عليه
ليحفظ به توزيع المال في المجتمع ، ولو حسبتها لوجدت أن هذا
المكان زانت فيه حصيلة الزكاة عن حاجة المحتاجين ، فانتقل إلى بلد
آخر قلّت فيه الأموال عن حاجة الفقراء والمحتاجين .

وبعد ذلك لم يتركك ربك ، بل عرض لك الآيات التي تلتفتك إليه ،
وتُحَفِّتُكَ إلى التعرف عليه ، وهي إما آيات كونية عجيبة تدل على قدرة
الله تعالى ، أو معجزات تثبت صدق الأنبياء في البلاغ عن الله : لأن
الله تعالى لا يخاطب عباده كل واحد بمفرده ، إنما يرسل رسولا
ليبينهم ثم يؤيده بالمعجزة الدالة على صدقه في البلاغ .

فحين تنظر في آيات الكون وتستدل بها على وجود خالق قادر
لكذلك لا تعرف من هو هذا الخالق يأتي الرسول ليقول لك : إنه الله ،
وقد ضربنا لذلك مثلاً - والله المثل لأعلى - هب أن أحداً نقي الباب
ونحن جلوس بالداخل فما الذي يحدث ؟ نتفق نحن جميعاً على أن

طارقاً بالباب لكن مَنْ هو ؟ لا أحد يعلم

فالاتفاق هنا في التعلُّل ، وأن هناك قوة خلف الباب تدفعه ، لكن مَنْ هو ؟ وماذا يريد ؟ لا بُدَّ لمعرفة هذه المسائل من بلاغ عن هذه القوة ، وإياك أن تقول بالضرر : هذا فلان وأنا أقول هذا فلان ، إنما علينا أن تنتظر البلاغ منه نعرف مَنْ هو ، وما عليك إلا أن تقول : مَنْ بالباب وسوف يخبرك هو عن نفسه ، وعن سبب مجيئه ، وماذا يريد . ثم بعد ذلك تأتي الآيات التي تحصل منهج الله ، وتخبرك أنه يريد منك كذا وكذا

الشاهد . أن هذه الآيات كلها تحتاج إلى وسائل لإدراكها ، تحتاج إلى سمع وبصر لنراها ونسمعها ، ثم تحتاج إلى عقل لنفكر فيها ونتأملها ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ ﴾ (٧٨) ﴿ [المؤمنون]

السمع والبصر من الحواس التي سماها العلماء احتياطاً الحواس الخمس الظاهرة أي : أن هناك حواس أخرى لم يكتشفوها ، ومعللاً اكتشافها العلم بعد ذلك كحاسة العضل التي تميز بها الثقل ، وحاسة البين التي تميز بها الغليظ من الرقيق في الشياب مثلاً ، فهذه الأشياء لا تستطيع التعرف عليها بالحواس الخمس المعروفة .

وعُمدة الحواس . السمع والبصر ؛ لأنه إذا جاءتني رسول يُبَلِّغُنِي عن الله لا بُدَّ أن أسمع منه ، فإن كنت مؤمناً بالله فقد اكتفيت بحاسة السمع ، وإن كنت غير مؤمن تحتاج إلى بصر لتبصر به آياته الدالة على وجوده وقدرته ، وتستدل بالصنعة على الصانع ، وبالخلق على الخالق ، وتتف على ما في كون الله من الدقة والإحكام والهندسة والإبداع .

وهذه مهمة العقل بعد أن تحولت المسحورات والكرثيات إلى قضايا ومبادئ عقلية تحكم حياتك ، كما لو رأيت النار بعينك ثم لمستها بيدك فأحرقتك فتكوتت . لديك قضية عقلية مؤداها أن النار لها خاصية الإحراق فلا تلمسها بعد ذلك ، وهذه تراها حتى في الطفل الصغير حينما يعجبه قرن الشعلة مثلاً فيقضمه فيشعر بحرارته والله .

فإذا رأه بعد ذلك بقول (أوف) ، فهذه اللفظة بالنسبة للطفل قضية عقلية تكوتت لديه نتيجة تجربة استقرت في فؤاده ، وأخذها مبدأ يسير عليه في كل حياته ، وهكذا من المحسّات ومن تجارب الحياة تتكوّن لديك قضايا عقلية تستفيد بها فيما بعد

إذن : من وسائل الإدراك تتكوّن المبادئ والقضايا التي يأخذها العقل ، ويفاضل بينها حتى ينتهي إلى قضية ومبدأ يستقر في القلب ونسحبها عقيدة يعني شيء معقود عليه لا ينحلّ

وحين تتأمل حديث القرآن عن الحواس . نجدّه يُرتّبها دائماً هذا الترتيب . السمع والبصر والفؤاد لأنها عمدة الحواس ، فالشمّ مثلاً والتذوق واللمس لا نحتاج إليه إلا قليلاً ، أما السمع والبصر فعليهما تقوم مسألة الدعوة : السمع لسماع البلاغ ، والبصر لقراءة آيات الله الدالة على قدرته تعالى

وقد أثبت العلم الحديث هذا الترتيب للسمع والبصر والفؤاد معاً يدلّ على أنه ترتيب من خالق عن حكمة وعلم وقدرة ، بحيث لا يأتي واحد منها قبل الآخر . كما أثبت علماء وظائف الأعضاء صدق هذا الترتيب ، فأول أداة تؤدي مهمتها في الإنسان هي الأذن ثم العين ، وتعمل من ثلاثة إلى عشرة أيام من الولادة ، ثم من السمع والبصر

توجد التضاييا التي يعمل فيها العقل .

إذن . فهذا ترتيب خلقى وتكوينى . كما أن السمع وهو أول حاسة تؤدي مهمتها في الإنسان هو أيضاً الإدراك الوحيد الذي يصاب الإنسان في كل أطواره . فالأذن تسمع مثلاً حتى في حالة النوم على خلاف العين ، ذلك لأن بالسمع يتم الاستدعاء . لذلك تظل تؤدي مهمتها حتى في حال النوم .

كما أن العين لا ترى في الظلام ولها غطاء طبيعي ومغاليق تحجب الرؤية . وليست الأذن كذلك . فالصوت إذا خرج تسمعه جميع الأذان ، أما المرثى فقد يوجد معك في نفس المكان ولا تراه وقد يراه غيرك . إذن فالمسموع واحد والمرئى متعددة . لذلك قال سبحانه : ﴿ السَّمْعُ وَالْبَصَارُ .. (٧٨) ﴾ [المؤمنون]

فليس لك خيار في السمع ، لكن لك خيار في الرؤية ، فالمبصرات تتعدد بتعدد الأبصار ، لكن السمع لا يتعدد بتعدد الاسماع .

لذلك من إجازات البيان القرآني في قصة أهل الكهف أن الله تعالى ضرب على آذانهم في الكهف ليناموا ولا تزعجهم الأصوات في هذه الصحراء الدويّة . ولو بقي لهم السمع كشأن الخلق جميعاً لما استقر لهم قرار طوال هذه الفترة الطويلة . ولأفزعهم الأصوات

يقول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ مِثِينَ عَدَدًا (١٦) ﴾ [الكهف]

كذلك من آيات الإعجاز في القرآن الكريم أن جميع الآيات التي ذكرت السمع والبصر ذكرته بهذا الترتيب . السمع والابصار ، إلا في آية واحدة في موقف القيامة قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٧) ﴾ [السجدة]

فقدّم البصر على السمع ، لأن في القيامة تفجؤهم المرائى أولاً
فبين أن تفجأهم الأصوات ، وهذه من مظاهر الدقة في الأداء القرآنى
المعجز .

وكان الحق سبحانه يقول . لا عُدْر لك عندي فقد أعطيتك سمعاً
لتسمع البلاغ عنى من الرسول ، وأعطيتك عَيْنًا لتلتفت إلى آيات
الكون ، وأعطيتك فؤاداً تفكر به ، وتنتهى إلى حصيلة إيمانية تدلّك
على وجود الخالق عز وجل

إذن : ما أخذتك على غرّة ، ولا خدعتك فى شيء ، إنما خلقتك
من عدم ، وأمدمتك من عدم ، ورتبت لك مناقذ الإدراك ترتيبياً منطقياً
تكوينياً ، فأى عذر لك بعد ذلك .. وإياكم بعد هذا كله أن تشغلكم
الأمواء ، وتصرفكم عن البلاغ الذى جاءكم على لسان رسول

والمتأمل فى تركيب كل من الأذن والعين يجد فيهما آيات
ومعجزات للخالق - عز وجل - ما يزال العلماء لم يصلوا رغم تقدّم
العلوم إلى أسرارها وكُنْهها .

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨)
[المؤمنون] لأن هذه نعم وآلاء وآيات الله ، كان ينبغي أن تشكر حقّ
الشكر .

البعض يقول فى معنى ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) [المؤمنون] أنه
تعالى عبّر عن عدم الشكر بالقلّة ، وهذا الفهم لا يستقيم هنا ، لأن الله
تعالى أثبت لعباده شكراً لكنه قليل ، وربك - عز وجل - يريد شكراً
دائماً يصاحب كل نعمة ينعم بها عليك ، فمسألة ترى الأعلى الذى

حُرِّمَ نعمة البصر يتخبط في الطريق تقول الحمد لله . تقولها هكذا بالفتوة ، لأنك تعيش وتتقلب في نعم الله ، لكن لا تتذكروا إلا حين ترى مَنْ حُرِّمَ منها .

لذلك ، إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تقوم لك النعمة فاعقلها بِذِكْرِ الله المنعم قُلْ عند النعمة ، أو عند رؤية ما يعجبك في أهل أو مال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، أَلَا ترى أَنَّ الله تعالى جعل الحسد ليتبهننا إِنْ أَرَدْتَ صيانة النعمة فلا تنسَ المنعم ، لأنه وحده القادر على حفظها وصيانتها ، كما نشقري الآن آلة ، ونشقق مع صانعها على صيانتها صيانة دورية مقابل أجر معين .

كذلك إِنْ قُلْتَ عند النعمة ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فلن ترى فيها سوء أبداً ، لأنه أيقظت بـ « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » قانون صيانتها ، وجعلت حفظها إلى مَنْ صنمها ، ولا يُصاب الإنسان في النعمة إلا إذا غفل عن المنعم وترك الشكر عليها .

والذكر أنه كان لي قريتنا رجل من أهل الفهم عن الله ، وكان يملك ثلث فدان يزرعه المزروعات التقليدية ، وفي أحد الأعوام زرعه قطناً ، فجاءت عليه البودة وكادت تهلكه ، فكلّمه والدي في مسألة البودة هذه فقال له يا عم متولى لا تفق فأنا أؤدى صيانتها يعني أخرج منها الزكاة .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٩)

﴿ذَرَأَكُمْ .. (٧٩)﴾ [المؤمنون] بتكم ونشركم في أنحاء الأرض لتعمر كلها ، وتعجب حين ترى أناساً متشبثين بالجبال والصحراء

الفقر الجرداء ، ولا يرضون بها بديلاً ، ويتحملون في سبيل البقاء بها العنت والمشقة ، حتى إنك لتقول : لماذا لا يشركون هذا المكان إلى مكان خصب .

وقد رأينا مثل هؤلاء الذين صبروا على أقدار الله في بلادهم ، رأيناهم في اليمن بعد أن أفرقها سيل العرم ، وكانت تُسمى « اليمن السعيد » ، ورأيناهم في السعودية وفي الكويت ، وحكى لنا أهل هذه البلاد ما كانوا فيه من الضيق وقسوة الحياة ، ثم جاءهم عاقبة صبرهم ، وجعل الله - سبحانه وتعالى - هذه الجبال وهذه الصحراوات أغنى بلاد الدنيا ، لأنهم رضوا في الأولى بقضاء الله ، فابدلهم بصبرهم على لأواء الصحراء ثعيباً ، لو حُرِمَ منه المنعمون في الدنيا لماتوا من البرد .

ذلك لأن الخالق - عز وجل - نشر خيراته في كل أنحاء الأرض بالتساوي ، لكل قطعة طولية من الأرض فيها من الخيرات مثل ما في النطقة الأخرى ، وفي يوم من الأيام كان أصحاب الزرع هم أصحاب المال وأصحاب السيادة ، ثم تغيرت هذه الصورة بظهور خيرات أخرى غير الزراعة ، فالخيرات - إذن - مضمورة في أنحاء الأرض ، لكن لها أوان تظهر فيه .

إذن ، فَبِثُّ الخليفة ونشرها في أنحاء الأرض له حكمة أرادها الخالق عز وجل .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٧٩) [المؤمنين] يعنى : لا تفهموا أنكم بنشركم في الأرض وتفريقكم فيها أنكم تفلتون منا ، أو أننا لا نقدر على جمعكم مرة أخرى ، فكما نشرناكم لحكمة نجمعكم لحكمة لا يخرج من أيدينا أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمِمَّا الَّذِي يُمَيِّتُ وَيُحْيِي وَلَهُ اسْمٌ خَلِيفٌ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٨٠)

﴿يُمَيِّتُ وَيُحْيِي .. (٨٠)﴾ [المؤمنون] فإعلان لا بد أن ينشأ بعد وجود الحياة ووجود الموت ، فالخالق - عز وجل - يُوجد الحياة أولاً ، ويوجد الموت ، ثم يجري حدثاً منهما على ما يريده

والحياة سبقت الموت في كل الآيات ، إلا في آية واحدة في سورة تبارك ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٧٠)﴾ [ملك] وعلة ذلك أن الله تعالى يعطي للإنسان بالحياة إرادة تُنشئ الحركة في كل أجهزته ، ولك أن تتأمل ، ما الذي تخطئه إن أردت أن تقوم من مكانك ؟ ماذا تفعل إن أردت تحريك يدك أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة وتتحرك أعضاؤك دون أن تدري أو تُجهد نفسك للقيام بهذه الحركات ، ودون أن تباشر أي شيء .

إذن بمجرد إرادتك تنفص لك الجوارح وأنت مخلوق لمربك ، فإذا كان المخلوق يفعل ما يريد بلا معالجة ، فكيف نستبعد هذا في حقّه - سبحانه وتعالى - ونكتب أنه يقول للشيء : كُنْ فيكون ، مع أننا نفعل ما نريد بجوارحنا بمجرد الإرادة ، ودون أن نأمرها بشيء أو نقول شيئاً ، والله سبحانه وتعالى يقول للشيء : كُنْ فيكون ، وأنت تفعل دون أن تقول

وقد قدم الحق سبحانه الموت في هذه الآية . ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ

وَالْحَيَاةَ .. (٢) ﴿[الماء] : لأن الحياة سقُورث الإنسان غروراً في سيطرة إرادته على جوارحه فيطغى ، فأراد ربه - عز وجل - أن يُنبهه : تذكّر أنّي أميتُ ، ليستقبل الحياة ومعها تليّضها ، ليستقيم في حركة الحياة .

وصفة الخلق والإماتة صفات لله تدبئة قبل أن يخلق شيئاً أو يعيت شيئاً : لأنها صفات ثابتة لله قبل أن يباشر متعلقات هذه الصفات كما قلنا ، وبه المثل الأعلى : الشاعر حين يقول تصيدة قالها لأنه شاعر ولا تقول . إنه شاعر لأنه قال هذه القصيدة ، فلولا صفة الشعر فيه ما قال .

وكما أن الحياة مخلوقة ، فالموت كذلك مخلوق ، وقد يقول قائل إذا أطلقت رحمة على شخص أودته قتيلاً فقد خلقت الموت . نقول - الحمد لله أنك لم تدع الإحياء واكتفيت بالموت ، لكن فرق بين الموت والقتل ، القتل نقض للبئية يتبعه إزهاق للروح ، أما الموت فتخرج الروح أولاً من نقض للبئية .

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ..﴾ (١١٤) ﴿[ال عمران]

والنمرود الذي حاك إبراهيم - عليه السلام - في ربه أمر بقتل واحد وترك الآخر ، وأدعى أنه أحياها هذا ، وامات هذا ، وكانت منه هذه الأعمال سفسطة لا معنى لها ، ولو كان على حق لأمر بإحياء هذا الذي قتله ؛ لذلك قطع عليه إبراهيم - عليه السلام - هذا الطريق ونقله إلى مجال آخر لا يستطيع المراوغة فيه

إذن مَدَمُ البئية يتبعه خروج الروح ، لأن للروح مواصفات

خاصة ، بحيث لا تصل إلا في بنية سليمة ، وقد أوضحنا هذه المسألة - والله المثل الأعلى - بلعبة الكهروياء ، فقوة الكهرباء كإمته في الأسلاك لا ترى نورها إلا إذا وضعنا اللعبة مكانها ، ويكون لها مواصفات بحيث لا تضيء إلا إذا توفرت لها هذه الصفات ، فإن كُسِرَتْ ينطفئ نورها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ..﴾ (٨٠) [المؤمنون] الليل يحل بخياب الشمس وحلول الظلمة التي تمنع رؤية الأشياء ، وقديماً كانوا يظنون أن الرؤية تتم حين يقع شعاع من العين على المرئى ، ثم جاء العالم المسلم للحسن بن الهيثم ، فأثبت خطأ هذه النظرية ، وقدر أن الرؤية تتم حين يقع شعاع من المرئى على العين فتراه ، بدليل أنك لا ترى الشيء إن كان في الظلام .

وظلمة الليل تنبهنا إلى أهمية الضوء الذي لا بد منه لنتقدي إلى حركة الحياة ، والإنسان يواجه خطورة إن سار في الظلام : لأنه إما أن يصطدم بأضعف منه فيحطمه ، أو يأتوى منه فيؤلمه ويؤديه .

إذن . لا بد من وجود النور لتتم به حركة الحياة والسعى في مناكب الأرض ، وكذلك لا بد من الظلمة التي تمنع الإشعاع من الجسم ، فيستريح من عناء العمل . وقد أثبت العلم الحديث خطر الإشعاعات على صحة الإنسان .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ..﴾ (٨٠) [المؤمنون] فجعلهما يختلفان ويتعاقبان ليؤدي كل منهما وظيفته في الكون ، يقول تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝﴾ [الليل] وطالما أن لكل منهما مهمته ، فإياك أن تقلب الليل إلى نهار ، أو النهار إلى ليل ؛ لأنك بذلك تخالف الطبيعة التي خلقك الله عليها ، وانظر إلى هؤلاء

الذين يسلكون هذا المسلك فيسهرزون الليل حتى الفجر ، وينامون النهار حتى المغرب ، وكم أحدثوا من فساد في حركة الحياة ، فالتلميذ ينام في الدرس ، والعامل ينام ويُقصر في أداء عمله .

والنبي ﷺ يُنبئنا إلى هذه المسألة في قوله : « ... أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »^(١) لأن الجسم لا يأخذ راحته ، ولا يبدأ إلا في الظلمة ، فيصبح الإنسان قوياً مستريحاً نشيطاً ، واقرا قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۚ (١١) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١٢) ﴾ [النبا]

ومن دقة الأداء القرآني أن يراعى هؤلاء الذين يعملون ليلاً ، وتقتضى طبيعة أعمالهم السهر ، مثل رجال الشرطة وعمال المخابز وغيرهم ، فيقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٦) ﴾ [الروم] فالليل هو الأصل ، والنهار لمثل هؤلاء الذين يخدمون المجتمع ليلاً ؛ لذلك عليهم أن يجعلوا من النهار ليلاً صناعياً ، فيعلقوا النوافذ ويناموا في مكان هادئ ، ليأخذ الجسم حظه من الراحة والهدوء .

إذن الليل والنهار ليسا ضدَّين ، إنما هما خُلقان متكاملان لا متعاندان ، وهما كالذكر والأنثى ، يكمل كل منهما الآخر ، لا كما يدعى البعض أنهما ضدان متقابلان ؛ لذلك بعد أن أقسم الحق سبحانه بالليل إذا يغشى ، وبالنهار إذا تجلَّى ، قال : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) ﴾ [الليل] فالليل والنهار كالذكر والأنثى لكل منهما مهمة في حركة الحياة .

واختلاف الليل والنهار من حيث الضوء والظلمة والطول والقصر وفي اختلاف الأماكن ، فالليل لا ينتظم الكون كله ، وكذلك النهار ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد في مسنده (٢٨٨/٣) من حديث جابر ابن عبد الله ، واللفظ البخاري .

فحين يكون عندك ليل فهو عند غيرك نهار ، يقول تعالى : ﴿يُولِجُ
الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ﴾ (١٧) [المعنى]

وينتج عن هذا تعدد المشرق والمغرب بتعدد الأماكن بحيث كل
مشرق يقابله مغرب ، وكل مغرب يقابله مشرق ، لدرجة أنهم قالوا :
ينشأ ليل ونهار في كل واحد على مليون من الثانية .

وينشأ عن هذا كما قلنا استدامة ذكر الله على مدى الوقت كله ،
بحيث لا ينتهي الإذان ، ولا تنتهي الصلاة في الكون لحظة واحدة ،
فأنت تصلي المغرب ، وغيرك يصلي العشاء . وهكذا إذن . فالحق
سبحانه يريد أن يكون مذكوراً في كل الكون بجميع أوقات الصلاة في
كل وقت .

حتى إن أحد الصوفية وأهل المعرفة يقول مخاطباً الزمن : يا زمن
وفيك كل الزمن . يعنى : يا ظهر وفيك عصر ومغرب وعشاء وفجر ،
لكن عند غيرى .

ومن اختلاف الليل والنهار ينشأ أيضاً الصيف الحار والشتاء
البارد ، والحق سبحانه وتعالى كلف العبيد كلهم تكليفاً واحداً كالصع
مثلاً ، وربط العبادات كلها بالزمن الهجرى ، فالصيف والشتاء يدوران
في الزمن ، ويتضح هذا إذا قارنت بين التوقيت الهجرى والميلادى ،
وبذلك من لم يناسبه الحج في الصيف حج في الشتاء ؛ لأن اختلاف
التوقيت القمري يكون السنة كلها بكل الأجواء .

لذلك قالوا : إن ليلة القدر تدور في العام كله ؛ لأن السابعة
والعشرين من رمضان يوافق مرة أول يناير ، ومرة يوافق الثاني ،
ومرة يوافق الثالث . وهكذا .

ومن اختلاف الليل والنهار أنهما خلفه ، كما قال تعالى :
﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكْرًا ﴾ (٦٦)

[الفرقان]

فنحن نرى الليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، لكن احكم
القضية في كل أطوار زمنها ، فما دام الحق - سبحانه وتعالى - جعل
الليل والنهار خلفه ، فلا بد أن يكون ذلك من بداية خلقهما ، فلو وجد
الليل أولاً ثم وجد النهار ، فلا يكون الليل خلفه ؛ لأنه لم يسبقه
شيء ، فهذا يعنى أنهما خلقا معاً ، فلما دار الزمن خلف بعضهما
الآخر ، وهذا لا ينشأ إلا إذا كانت الأرض مَكْوَرَةً ، بحيث يجتمع فيها
الليل والنهار في وقت واحد ، فالحديث واجه الشمس كان نهاراً ، والذي
واجه الظلمة كان ليلاً

ثم يقول سبحانه ، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٨٥) [المؤمنون] لأن هذه المسائل
كان يجب أن تعقلوها خاصة ، ولقد كانت اختلافات الأوقات مَبْنِيَّةً على
التعقل ، أما الآن فهي مَبْنِيَّةٌ على النقل ، حيث تقاربت المسافات ،
وصرنا نحرف فارق التوقيت بيننا وبين جميع أنحاء العالم بالتحديد .

كذلك كان الناس في الماضي ينكرون نظرية كروية الأرض ، حتى
بعد أن التقطوا لها صوراً أظهرت كرويتها وجدنا من مفكرين من يفكر
ذلك . ونقول : لماذا نقف هذا الموقف من نظريات ثابتة قد سبق
قرآننا إلى هذا القول ؟ ولماذا نعطي الآخرين فكرة أن ديننا يفشل هذه
المسائل ، مع أنه قد سبق كل هذه الاكتشافات ؟

ولو تأملت قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ .. ﴾ (٣) [الرحمن]
لوجدت فيه الدليل القاطع على صِدْقِ هذه النظرية ، لأن الأرض
المعدودة هي التي لا تنتهي إلى حافة ، وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت

الأرض كروية بحيث تسير فيها ، لا تجد لها نهاية حتى تصل إلى
الموضع الذي منه بدأت ، وبو كانت الأرض على أي شكل آخر غير
الكروي مثل المربع أو المستطيل لكان لها نهاية . لكن لم تتوفر لنا
في الماضي الأدوات التي توضح هذه الحقيقة وتظهرها .

إذن الحق سبحانه في قوله . ﴿ أَمَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٨١) ﴿ [المؤمنون] ينبهنا إلى ضرورة إعمال العقول في المسائل الكونية : لأنها ستوفر علينا الكثير في الطريق إلى الله عز وجل ، ولماذا يُعمل الإنسان عقله ويتفكر مثلاً في ارتكاب الجرائم فيُرتب لها ويخطط ؟ لكن الله تعالى يكون له بالمرصاد فيوقعه في مؤثّق ، فيترك وراءه منفذاً لإثبات جريمته ، وثغرة تُوصّل إليه ، لذلك يقول رجل القضاء : ليست هناك جريمة كاملة ، وهذه مهمة النقاضي أو المحقق الذي يحاور المجرم ليصل إلى هذه الثغرة .

وكان الحق - سبحانه وتعالى - يقول : لقد استخديمت عقلك فيما لا ينبغي ، وسخرته لشهوات نفسك ، فلا بد أن أوقعك في مزلق ينكشف فيه أمرك ، فإن سترتها عليك مرة فإياك أن تعادي ، أو قطن أنك أفلت بعقلك وترتيبك وإلا أخذتك ولو بجريمة لم تطلعها ، لأنك لا تستطيع أن ترتب بعقلك على الله ، وعدالته سبحانه فوق كل ترتيب .

كما لو قُضِحَ نَسَانُ بَأَمْرٍ هُوَ مِنْهُ بَرِيءٌ ، وَلِحَقِّهِ الْأَذَى وَالضَّرَرُ
بِسَبَبِ هَذِهِ الْإِدَانَةِ الْكَاذِبَةِ ، فَتَأْتِي هَذِهِ السَّمَاءُ فَيَمْتَرُ اللَّهُ عَلَيْهِ
فَضِيحَةً فَعَلَهَا جَزَاءً لِمَا قَدْ أَصَابَهُ فِي الْأَوَّلَى ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ لَا يَفْعَلُهَا
إِلَّا رَبُّ .

والحق . سبحانه وتعالى حينما يُنبِّه العقل ويثيره . تفكر .
تدبر . تعمّل . ليدرك الأشياء الكونية من حوله ، فهذا دليل على أنه

سبحانه واتق من صنّعه وإبداعه لكونه ، لذلك يثير العقول للبحث والتأمل في هذه الصنعة .

وهذه المسألة بلاعظها فيمن يعرض صنّعه من البشر ، فالذي يتق صنّعه يعرضها ويدعوك إلى اختبارها والتأكد من جودتها على خلاف الصنعة الرديئة التي يلغها لك صانعها ، ويمسرفك عن تأملها حتى لا تكشف عيبها .

فحين ينبهك ربك إلى التأمل في صنّعه فحليكم أن تترك المعزى من هذه الإثارة لتصل إلى مراده تعالى لك .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ (٨١)

أى . لم يتعلموا بكل هذه الآيات . بل قالوا مثلما قال الاولون :

﴿ قَالُوا أَوْزَانُ غَيْرَ مُتَنَاوِئَاتٍ فَكُنَّا مُتَرَاجِضِينَ ﴾

﴿ أَوْزَانُ كَتَبُوا ﴾ (٨٢)

وسواء أكان هذا قولهم أو قول سابقهم من الاولين ، فقد كان الشك عند الذين علموا الدعوة المحمدية في مسألة للبحث من الموت ، وكل كلامهم يؤدي إلى ذلك ، فهم تعجبوا من حدوث هذا الأمر .

ولذلك قال قائلهم . ﴿ وَحَرَبَ لَنَا مِثْلَ نَسِي خَلْقِهِ قَالِ مِ يَحْيَى الْعِظَامُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) قل يحيىها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴿ (٧٩) ﴾

[يس]

﴿ لَقَدْ وَعِدْنَاكَ نَحْنُ وَرَبُّكَ أَنْ هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا

إِلَّا أَصْطِيلٌ آتٍ ﴾ (٨٣)

أتظنون أن الله تعالى إذا وعدكم بالموت ثم بالبعث أن هذا سيكون في الدنيا ؟ لذلك تقولون : وَعِدْنَا بهذا من قبل ولم يحدث ، وقد مات منا كثيرون ولم يعودوا ولم يُبْعَثُوا ، فَمَنْ قَالَ لَكُمْ إِنَّكُمْ ستموتون اليوم وتُبْعَثون غداً ؟

البعث لا يكون إلا بعد أن يموت جميع الخلق ، ثم يُبْعَثُوا كلهم مرة واحدة .

إذن : هذا الكلام منهم مجرد سفسطة وجدل لا معنى له .

وكلمة ﴿وَعِدْنَا ..﴾ (٨٢) [المؤمنون] يعنى بالبعث ، والوعد عادة يكون بالخير، كما أن الوعيد يكون بالشر ، كما جاء في قول الشاعر :

رَأْسِي إِذَا أَوْعِدْتُهُ أَوْ وَعِدْتُهُ لَمُخْلِفٌ إِبْعَادِي وَمُنْجِزٌ مَوْعِدِي

يعنى هو رجل كريم يترك الشر الذي توعد به ، ويفعل الخير الذي وعد به ، وإن قال العلماء : قد يستعمل هذا مكان هذا .

لكن ، هل الوعد للكفار بالبعث وما يتبعه من عذاب وعقاب يُعد وَعْدًا ؟ قالوا : نعم يعد هذا الشر وهذا العذاب الذي ينتظر وَعْدًا بالخير لأنه يُتَبَّهَم ويُلْقَتُهُم إلى خطورت حتى لا يقفوا فيه إنن . هو خير لهم الآن حيث يُحَذَّرُهم كما تحذر ولدك من الرسوب إن أهمل في دروسه .

ومن ذلك أيضاً في هذه المسألة ما أشرنا إليه من تكرار قوله تعالى ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن] في سورة الرحمن ، وأنها جاءت بعد ذكر نعم الله على سبيل التوبيخ لَمَنْ أنكر هذه النعم أو كُذِّبَ بها ، وتكررت مع كل نعمة تأكيداً لهذا التوبيخ ، لكن العجيب أن تذكر هذه الآية حتى بعد النقم أيضاً ، كما في قوله تعالى .

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْهَوَانِ﴾ (٨٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٦﴾ [الرحمن]

وهل في النار والشواظ نعمة ؟ نقول نعم فيها نعمة ؛ لأنها نصيحة لك قبل أن تقع في هذا المصير وتحذير لك في وقت التدارك حتى تراجع نفسك .

وقولهم . ﴿إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨٦) [المؤمنون] ﴿إِن هَذَا﴾ (٨٦) [المؤمنون] يعني : ما هذا . وأساطير : جمع أسطورة مثل . أعاجيب وأعجوبة ، وهناك مَنْ يقول . إن أساطير جمع سطر أسطار أساطير مثل شكل وأشكال ، فهي جمع للجمع . وسواء أكانت جمع أسطورة أو جمع سطر ، فالمعنى لا يختلف : لأن الشيء المسطور قد يعتبره الناس خرافة وكلاماً لا معنى له .

والأساطير هي الكلام المكذوب الذي لا أصل له فلا يسمى الكلام أسطورة إلا إذا جاء وقته ولم يحدث ، فلك أن تقول أساطير إنما البعث الذي تقولون منه ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨٦) [المؤمنون] لم يات وقته بعد ، فلم يبعث جميع الخلق حتى يُبعثوا ، فقد أخطأتم التوقيت وظننتم أنكم في الدنيا تمرثون وتبعثون هكذا على رؤوس الأشهاد ، والناس ما زالت في سعة الدنيا .

إنن : ليس البعث كما تقولون ، بل هو حق ، ولكنكم لم تضعوا له الكلمة المناسبة ؛ لذلك يوجه إليهم هذه الأسئلة التقريرية التي تقيم عليهم الحجة :

﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٧)

ويأتي في السؤال بيان الشرطية الدالة على الشك في كونهم يعلمون .

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٨٥)

فما دُمتُم أقررتم بأن الأرض ومن فيها لله ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٨٥)
[المؤمنون] يعنى ما الذى صرفكم عن مالك الأرض وخالقها ؟
ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ
وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٨٦)

نلاحظ أنهم لم يجادلوا في هذه المسألة ، ولم يقولوا مثلاً إنها سماء واحدة هي التي نراها ، مما يدل على أنها أمر غير متكور عندهم ، ولا بد أن الأنبياء السابقين قد أخبروهم خبر السماء ، وأنها سبع سموات ، وأصبحت عندهم قضية عقلية يعرفونها ، ولا كان يؤسّمهم الاعتراض ، حيث لا يرون إلا سماء واحدة . إذن . لم يجادلوا في هذا الموضوع .

وقوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٨٦) [المؤمنين] العرش مضاف عظيم لا يعلم كُنْهه إلا الله الذى قال فيه ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ .. ﴾ (٥٤) [الأعراف] وقال ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. ﴾ (٧) [مود]

والعرش لم يَرَهُ أحد ، إنما نُصِبَ عنه ربه الذى خلقه ، فقال لى كذا ولى كذا ، ويكفى أن الله تعالى وصفه بأنه عظيم . وفى هذه أيضاً لم يجادلوا رسول الله ولم يقولوا إننا لم نَرِ العرش ، مما يدل على أن عندهم حصيلة من تراث الأنبياء السابقين انتقلت إليهم فطرة من فطر التكوين البشرى فى السماع من الموجددين .

وقد وصف العرش بأنه عظيم عند البشر أيضا ، ففي قصة سليمان ومملكة سبأ قال الهمدد : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٢) [النمل] لأن العرش رمزية لاستقرار الملك واستتباب الأمر للملك الذي لا ينازعه في ملكه احد ، ولا يناوشه عليه عدو ، لذلك أول ما قال سليمان - عليه السلام - في امرها قال : ﴿ أَهْكُمْ يَأْتِيَنِ بِعَرْشِهَا .. ﴾ (٢٣) [النمل] وكأنه يريد أن يسلب منها أولا رمز العظمة والأمن والأمان والاستقرار في الملك .
ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٨٧)

فما دام الأمر كذلك وما دُمت تعترفون بأن لله ملك السموات والأرض وله العرش العظيم ، فلماذا لا تتقون هذا الإله ؟ لماذا تعبدون على منهجه ؟ إن هذا الكون كله بما فيه خلق لخدمتك ، أفلا يفتك هذا إلى الصانع المنعم .

لذلك يقول تعالى في الحديث القدسي : « يا ابن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلي ، فلا تشغل بمسألة عما أنت له »^(١) يعني : لا تقلب النعمة عن المنعم . وعلى العبد أن ينظر أولا إلى خالقه وماله ، فيؤدي حقه ، ثم ينظر إلى ما يملك هو .

ومعنى : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٨٧) [الأنعام] الانتباه : أن تجعل بينك وبين صفات لجلال من الله وقاية ، وسبق أن قلنا : من عجيب آيات القرآن أن تكرر مرة (اتقوا الله) ومرة (اتقوا النار) . والمعنى لا تتعرض فيه كما يشنه البعض ، بل المعنى واحد : لأن النار جهنم

(١) أورد ابن كثير في تفسيره (٢٢٨/٤) : « ورد في بعض الكتب الإلهية يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تقرب ، وتكلمت بربك فلا تقرب ، فقلبي شديدي . قرأت وجدتي . وجدت كل شيء . وإن الله خلق كل شيء ، وأنا أعبد إلهه من كل شيء » .

من جنود الله ومن صفات جلاله ، فالمراد : اتقوا عذاب الله ، واتقوا صفات القهر والجبوت بأن تجعل بينك وبينها وقاية .
ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ
وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِلَّا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٨)

معنى ﴿ بِيَدِهِ .. ﴾ (٨٨) [المؤمنون] تدل على التمكن من الشيء ، كما نقول . هذا الأمر في يدي يعني في مكنتي وبصرتي ، ألقبه كيف تشاء ﴿ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴾ (٨٨) [المؤمنون] مادة ملك منها ملك ، ومنها ملك ، ومنها ملكوت .

الملك ما تملكه أنت ، حتى لو لم يكن عندك إلا ثوب واحد فهو ملك ، أما ملك فيعني أن تملك مَنْ يملك ، وهذا يكون ظاهراً . أما الملكوت فالأشياء المخلوقة التي لا تقع عليها حواسك ، ولا يمكن أن تعلم عنها شيئاً إلا بإخبار خالقها ، والإنسان لا يرى كل ما في الكون ، بل إن في نفسه وذاته أشياء لا يعرفها ، فهذا كله من عالم الملكوت .

بل إن الإنسان لا يرى حتى الملك الظاهر المحسوس ، لأنه لا يرى منه إلا على قدر مدِّ بصره ، وما خرج عن هذا النطاق لا يراه ، وإن كان يراه غيره ، ويمكن أن يدخل هذا الملك الذي لا تراه في دائرة الملكوت بمعناه الواسع .

إنن . الملكوت يطلق على الأشياء المصنوعة التي لا يراها أحد ، أو على الأشياء التي يراه واحد دون الآخر .

والإنسان إذا تعمق في عبادة الله وهي طاعته يفيض عليه من التجليات ، ويعطيه من هذا الملكوت عطاءً مباشراً ، كما قال : ﴿ مَنْ لَدُنَّا .. ﴾ (٩٧) [النساء]

الا ترى إبراهيم عليه السلام قال عنه ربه . ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَكُنَّا ﴾ (٣٧) [النجم] وقال عنه : ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. ﴾ (١١٢) [البقرة] يعني : يؤدي ما لله بدقة وعلى الوجه الأكمل ؛ لذلك ياتمه ربه على أن يكون إماماً للناس ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. ﴾ (١١٢) [البقرة]

فلما أحسن إبراهيم ما بينه وبين ربه وبلغ هذه العتزة قال عنه ربه . ﴿ وَكَذَلِكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلِكًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٩٥) [الأنعام] لانه أحسن في الأولى فرقى إلى أعلى منها . كما هو دخل رجل بيتك وشاهد ما عندك من نعيم ، ففرح لما أنت فيه ، وقال : ما شاء الله تبارك الله ، ودعا لك بالزيادة ، فلما رأيت منه ذلك قلت له إذن - تعالى أريك ما هو أعظم .

كذلك العبد الصالح الذي عبد الله وتوكل عليه بمنهج موسى عليهما السلام ، فلما استقام على هذا المنهج وتعمق في عبادة الله وطاعته أعطاه الله من علمه اللدني دون واسطة ودون رسول ، حتى كان هو معلماً لموسى عليه السلام .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .. ﴾ (٨٨) [المؤمنون] يجير : تقول : استجار بفلان فأجاره يعني - استغاث به فأنقذه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ .. ﴾ (٤٨) [الأنفال] والإنسان لا يستجير بغيره إلا إذا خسعت قوته عن حمايته ، فيلجأ إلى قوى يحميه ويدفع عنه .

إن . هذه المسألة لها ثلاثة عناصر مجير ، وهو الذي يقبل أن يغيثك ويحتضنك ويدافع عنك . ومُجَار . وهو الضعيف الذي يطلب الحماية . ومُجَار عليه . وهو القوي الذي يريد أن يبطش . ومن المعروف أن رسول الله ﷺ في رحلته إلى الطائف وبعد أن فعلوا به ﷺ ما فعلوا استجار ، ودخل في حمي كافر .

فالحق - سبحانه وتعالى - يجير مَنْ استجار به ، ويغيث مَنْ استغاثه لكن ﴿لَا يُجَارُ عَلَيْهِ ..﴾ (٨٨) ﴿[المؤمنون] لَأَن الَّذِي يَجِيرُكَ إِنَّمَا يَجِيرُكَ مِنْ مَسَارٍ لَه فِي الْقُوَّة ، فَيَسْتَمْلِيعُ كَأَن يَمْنَعُكَ مِنْهُ ، وَيَحْمِيكَ مِنْ بَطْشِهِ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَحْمِيكَ مِنْ اللَّهِ ؟ وَمَنْ يَجِيرُكَ إِن كَانَ اللَّهُ هُوَ مُطَالِبُكَ ؟﴾

لذلك يقول سبحانه في مسألة ابن نوح ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ..﴾ (٤٦) ﴿[هود] مَا لَهُ - عَزَّ وَجَلَّ - يَجِيرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى فِي جَوَارِ رَبِّهِ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِ

وتلاحظ هنا العلاقة بين صدر هذه الآية وعجزها . فإله تعالى بيده وفي قبضته سبحانه كل شيء ، ولأمر كله إليه ، فإياك أن تظن أنك تغفلت من قبضته بالنعمة التي أعطاك ، لأنه سبحانه قادر أن يسلبك إياها ، وساعتها لن يجيئك أحد ، ولن يغيثك من الله مغيث ، ولن يعصمك من الله عاصم .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٦) ﴿[آل عمران]

ومنا أيضاً يقول سبحانه . ﴿إِن كُنتُمْ تَعْمُونَ﴾ (٨٨) ﴿[المؤمنون] إِن كَانَ عِنْدَكُمْ عِلْمٌ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ رُوِّسَتْ إِلَيْكُمْ وَعَايَنْتُمُوهَا

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ سَيَقُولُونَ رَبِّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ^(١) ﴾

ففى هذه أيضاً يقولون : الله : لأنه واقع مموس لا يُنكر ، وطالما أن الأمر كذلك ﴿ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴾ (٨٩) [المؤمنون] كيف تسحرون أو اسحرتكم من هذا الواقع وصرفتم عنه إلى هذا الكلام الباطل ؟

هذه فضليا ثلاث جاءت على صورة سؤال لتدينهم بوضوح العقيدة فى الوجود الأعلى ، وبوضوح اليينات فى إعجاز ابلاغ عن الله ، وبوضوح الآيات فى آيات المنهج ، وقد أراد الحق سبحانه أن يأتى الكلام منهم ويأقارهم هم على أنفسهم ، ليكون حجة وشهادة حق عليهم .

ومعلوم أن الإقرار سيد الأدلة ، لذلك سألهم ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا .. ﴾ (٩٠)

[المؤمنون] ﴿ وَقُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٩١) [المؤمنون]

[المؤمنون] ﴿ قُلْ مَنْ مَلِكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴾ (٩٢)

وهم يقولون فى هذا كله (الله) إذن ، فماذا بقى لكم ؟ ما الذى منعكم أن تتقوا الذى تؤمنون بأنه المالك للأرض والسماء وبينه كل شيء ؟ إنه مجرد استكبار وعناد وغطرسة ، وإلا فماذا تعنى كلمة (الله) التى تنطقون بها ؟

إنكم تعرفون الله ، وتعرفون مدلول هذه الكلمة : لأن مدلول الكلمة سابق على وجودها فى لغة البشر ، فاللغة عادة الفاظ توضع لمعان

(١) قال الفرطاسى فى تفسيره (١٦٢٩/٦) : أى فكيف تُخدعون وتُصرفون من طاعته وتوحيد أو كيف يميل إليكم أن لا تفكرنا به ما لا يضر ولا ينفع .

تدل عليها ، فالمعنى يُوجد أولاً ، ثم نضع له اللفظ الدالّ عليه ، وما دام أن لفظ (الله) يدور على ألسنتكم ولا يدّ أنكم تعرفون مدلوله ، وهو قضية لغوية انتهيتم منها ، وإلا فالأمر العدمي لا اسم له . فالتليفزيون مثلاً . ما اسمه قبل أن ي اخترع ؟ لم يكن له اسم ، لأنه لم يكن له معنى ، فلما وُجد وُضع له الاسم .

وحيث دارت الالسنة بكلمة الله فمعنى ذلك أنه تعالى موجود قبل وجود الاسم ، فالمسألة - إذن - حجة عليكم .

لذلك عرض الحق - سبحانه وتعالى - هذه القضايا في صورة سؤال لينتزع منهم الإقرار بها ، كما لو أنكروا شخصاً جميلاً فيه ، فإن قلتَ له على سبيل الإخبار . لقد قدمتُ لك كذا وكذا ، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب وله أن يعترف أو ينكر .

أما حين تقول له : ألم أقدم لك كذا وكذا ؟ على سبيل الاستفهام . فإنه لا يملك إلا الاعتراف وينطق لك بالحق وبالواقع ، وتصل بإقراره إلى ما لا تؤديه الشهادة أو البيّنة عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

يعنى . دعوني أخبركم عن أمرهم ، ولما أنا أنكروا الحق ولم ينطقوا به . إنهم ينكرون الحق لأنهم كاذبون ويريدون أن يُثبتوا أن ما هم عليه أمر طبيعي ، لعلنا ؟ لأنهم مستفيدون من الانحراف ومن الباطل ؛ لذلك يقفون في وجه الرسالة التي جاءت لتحصيل الميزان والنضاء على الانحراف والباطل ، ويلجئون إلى تكذيبها وصرف الناس عنها لئلا يلتزموا ينتقمون هم بالباطل

لذلك تأمل : لماذا يكذب الناس ؟ يكذبون لأنهم ينتفعون من الكذب ، ويتعبدون الصدق ، ويضيعون عليهم الخلق .
ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ الذَّكَاءِ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَمْ يَبْقَعْهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مَّبْحَنٍ لِلَّهِ صَمًا يَصِفُونَ ﴾ (٩١)

يا ليت الأمر وقف بهم عند مجرد عدم الإيمان بالله ، إنما تعداه إلى أن وصفوا الله تعالى بما لا يليق من الصفات ، وما دام أن الله تعالى ينفي عن نفسه تعالى اتخاذ الولد ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ .. ﴾ (٩١) [المؤمنون] فلا بد أنهم قالوا : اتخذ الله ولداً ، فترقبوا في فجورهم وطغيانهم ، وتجرأوا حتى على مقام العزة

وتقول أولاً : ما الولد ؟ الولد ما ينجبه الإنسان من ذكر أو أنثى ، وقد سمعنا هؤلاء يقولون ، عيسى ابن الله ، والعزير ابن الله ، وقالوا عن الملائكة : بنات الله ، وقد قال تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ .. ﴾ (٩١) [المؤمنون] ليشمل البنين والبنات .

ومعنى ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ .. ﴾ (٩١) [المؤمنون] أن الله تعالى كان موجوداً ، ثم اتخذ له ولداً ، فاتخاذ الولد إذن حادث ، وهذا يعني أنه قد مرت فترة لم يتخذ الله له فيها ولداً ، لذلك نسأل ، ما الذي زاد في ملك الله بوجود الولد ؟ هل أصبحت السموات ثمانية ؟ هل زاد في الكون شمس أخرى أو قمر ؟ الكون كما خلقه الله تعالى ، وجعل فيه

ضروريته وأصوله وفروعه لم يزد فيه شيء إذن : فاتخاذ لولد عبثاً لم يحدث منه شيء .

ويقولون اتخذ الله الولد ليؤنس خلقه بوجود ولده وشيء من راحته بين الخلق ، قالوا هذا في مؤتمر (نيقية) ، كأنه عندهم يقوم مقام الألوهية . لكن كم كانت مدة بقائه بينكم ؟ لقد أقام المسيح في الأرض بضعاً وثلاثين سنة قبل أن يرفع ، فكيف يحرم من هذا الانس من سبقوا ميلاده عليه السلام ؟ وكيف يحرم منه من أتوا بعده ؟

اليس في هذا ما يتعارض وعدالة الربوبية : لأن الخلق جميعاً خلق الله ، وهم عنده سواء ؟

ومنهم من يقول : إنه جاء ليرفع الخطيئة ، لكن الخطيئة ما زالت في الأرض بعدما فعل ما فعل . إذن ، فكلها حُجج واهية .

ولو ناقشنا هذه المسألة مناقشة منطقية فلسفية : لماذا يتخذ الإنسان الولد ؟ يتخذ الإنسان الولد لأنه يحب الحياة ، وموته يختصر هذه الحياة ، فمريد الولد ليكون امتداداً لحياته ، ويضمن به بقاء الذكر جيلاً من بعده ، فإن جاء للولد ولد ضمن جيلين ، لذلك يقولون « أعز من الولد ولد الولد » . لكن أي ذكر هذا الذي يتمسكون به ؟ إن الذكر الحقيقي ما تخلقه من بعدك من عمل صالح يسبقك عند الله .

والحق - سبحانه وتعالى - لا يحتاج إلى ذكر من بعده تعالى ؛ لأنه باقٍ لا يموت ، فهذه المسألة إذن معنوية في حق تعالى .

وقد يتخذ الولد ليكون سنداً وعوناً لأبيه حين يكبر وتضعف قواه ، لذلك يقولون : خير الزواج الزواج المبكر ؛ لأنه يساعدك على إنجاب أب يعولك في طفولة شيخوختك ؛ لأنك تنجب طفلاً وأنت

صغير ، فيعاصرك أكبر مدة من الزمن ، وتطول به قُرّة عينك على خلاف مَنْ ينحب على كسّر ، لذلك قال : أب يموك في طفولة شيخوختك ولم يقل ابناً لأنك في هذه الحال تحتاج إلى حنان الأب .

وهذه أيضاً معقنة في حقه تعالى ؛ لأنه سبحانه القوي ، الذي لا يحتاج إلى معين ، ولا إلى عزوة

مسألة أخرى . أن الإنسان يحب الولد ؛ لأنه بعض منه ، وهو سبب في وجوده ، فيحب أن يكون له ولد من صلبه ، وهذا فرع من حُبّه للتملك ، فالإنسان أول ما يحب يحب أن تكون له أرض ، ثم يحب أن يزرعها ويأكل من خيراتها ، ثم يحب أن تكون له حيوانات يشرب لبنها ويستفيد منها ، ثم إن تم له هذا كله يتطلع إلى الولد ، وكأنه تدرج من حب الجماد إلى الدبابة ، إلى الحيوان ، إلى الإنسان .

وهذه المسألة أيضاً لا تجوز في حقه تعالى ، فإن أحببت الولد ليكون جزءاً منك ومن صلبك تعتز به وبيئته ، فالحلق جميعاً عيال الله وأولاده ، فكيف يحتاج إلى الولد بعد ذلك ؟

إذن : كلها حجة ومسايل باطلة ؛ لذلك ردّ الله عليهم ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ۚ ﴾ [المؤمنين] وأتى بمنّ الدالة على العموم ، يعني : ما اتخذ الله شيئاً من بداية ما يُقال له ولد ، ولو كان حتى مُتّبئ ، كما تقول : ليس عندي مال ، فتنفني أن يكون عندك مال يُعتد به أو ذو قيمة ، لكن هذا لا يمنع أن يكون عندك عدة جنبيات أو قروش . فإن قلت : ما عندي من مال ، فقد نفيت أن يكون عندك أقل ما يُقال له مال .

وتردّ بهذه المسألة على مَنْ يقول أن (من) هنا زائدة ؛ لأن كلام الله دقيق لا زيادة فيه ، الزيادة في كلام البشر ، والحق سبحانه منزّه عن هذه المسألة .

ثم يرتقى بنا الحق سبحانه في الرد عليهم فيقول : ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] يعنى : معبود بحق أو بغير حق ، لذلك سَمَى الأصنام آلهة ، لكن كلمة الله انصرفت إلى المعبود بحق سبحانه وتعالى ، فنفى الحق سبحانه الشركاء معه فى العبادة ، كما جاء فى موضع آخر ﴿لَوْ كَانَ لِهَيْمًا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٩٢)﴾ [الأنبياء]

يعنى : لو كان فيهما آلهة الله خارج منها لفسدت السماء والأرض ، وكذلك لو كان فيهما آلهة مع الله لفسدتا أيضاً ، لأنّ لا هنا ليست استثنائية ، إنما هى اسم بمعنى غير ، وقد ظهر إصرارها على لفظ الجلالة بعدها (الله) .

ومسألة تعدد الآلهة لو تأملتها لَبَانَ لك بطلانها ، فإنّ كان مع الله آلهة لا تقسموا هذا الكون فيما بينهم ، وجعلوه قطاعات ، يأخذ كل منهم قطاعاً فيه ، فواحد للأرض ، وآخر للسماء ، وثالث لما بين الأرض والسماء وهكذا .

ولكن ، هل يستغنى قطاع من الكون عن الآخر ؟ أتستغنى الأرض عن السماء ؟ إذن سيحدث تضارب لا يستقيم معه حال الكون .

كذلك نقول : الإله الذى أخذ الأرض مثلاً ، لماذا لم يأخذ السماء ؟ لا بدّ أنه أخذ الأرض بقوّته ، وترك للسماء لعجزه ، ولا يصلح لها من وصف بهذه الصفة ، فإن قالوا : إنهم جميعاً أقوياء يستطيع كل واحد منهم أن يخلق الخلق بمفرده نقول : إذن ما فائدة الآخرين ؟

ثم يقول سبحانه ﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .. (٩٣)﴾ [المؤمنون] يعنى : لو استقل كل منهم بقطاع من الكون دون الآخر لفسدت الأمور ، كما رأينا فى دنيا البشر أن يحاول أحد

الملك أن يستقلّ بقطاع من الأرض لا حقّ له فيه ، ورأينا ما أحدثه من فساد في الأرض ، هذا مثال لقوله تعالى : ﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ..﴾ (٩١) [المؤمنين] وهي صورة من صور الفساد .

لذلك يعالج الحق سبحانه هذه القضية ويعلنها على الملأ : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ..﴾ (١٨) [آل عمران]

فليس هذا كلاماً ، وليست هذه شهادتنا ، بل كلام الله وشهادته سبحانه لنفسه ، لكن هل علم هؤلاء الأئمة بهذه الشهادة ؟ إن علموا بهذه الشهادة فسكوتهم عليها وعدم اعتراضهم عجز ، وإن لم يدروا فهُمْ غافلون نائمون ، ففي كلتا الحالتين لا يصحّ أن يكونوا آلهة .

وفي موضع آخر يردّ عليهم الحق سبحانه . ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا ..﴾ (٤٦) [الاسراء] يعني في هذه الحالة ﴿لَا تَتَفَوَّأُوا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سُبُلًا﴾ (٤٧) [الاسراء] يعني . ذهبوا يبحثون عن الإله الذي أخذ منهم الكون ، وتعدّى على سلطانتهم ، إما ليحايهوه ويحاكموه ، وإما ليتقربوا إليه .

لذلك سيقول عن الذين تدعون أنهم آلهة من دون الله . ﴿يَتَخَفُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ ..﴾ (٥٧) [الاسراء] يعني : عيسى والعزير والملائكة الذين قتلتم إنهم بنات الله ، هؤلاء جميعاً يتوسلون إلى الله ويتقربون إليه ﴿أَنَّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ..﴾ (٥٧) [الاسراء]

وفي موضع آخر يقول تعالى . ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ..﴾ (١٧٣) [النساء]

إنهم لا يستنكفون عن عبوديتهم لله . بل يعتزون بهذه العبودية ،

وَيُغْضِبُهُمْ وَيَسُوِّدُهُمْ أَنْ نَقُولَ عَنْهُمْ آلِهَةٌ ، أَوْ نَعْطِيَهُمْ مِنَ الْقُدُسِ أَكْبَرَ مِمَّا يَسْتَحِقُّونَ ، ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ وَلَّاهُمْ وَعَصَبَتَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى أَكْبَرَ مِنْ وَلَائِهِمْ وَعَصَبَتِهِمْ لَأَنْفُسِهِمْ .

لِذَلِكَ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي يَتَّخِذُونَهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ هِيَ أَوَّلُ مَنْ يَلْعَنُهُمْ ، فَالْأَحْجَارُ الَّتِي عْبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ - مَعَ أَنَّ كَلِمَةَ الْعِبَادَةِ هُنَا خَطَأٌ وَنَقُولُهَا تَجَاوُزًا ، لِأَنَّ الْعِبَادَةَ طَاعَةُ الْعَابِدِ لِأَمْرِ الْمَعْبُودِ ، وَانْتِهَاؤُهُ بِنَهْيِهِ ، وَالْأَحْجَارُ لَيْسَ لَهَا أَمْرٌ وَلَيْسَ لَهَا نَهْيٌ - هَذِهِ الْأَحْجَارُ أَعْبَدَ مِنْهُمْ اللَّهُ ، وَأَعْرَفَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ ، لِذَلِكَ تَكْرَمُهُمُ الْحَجَارَةُ وَتَلْعَنُهُمْ ، وَتَتَحَوَّلُ عَلَيْهِمْ فِي الْقِيَامَةِ نَارًا تَحْرُقُهُمْ .

اقْرَأْ هَذَا الْحَوَارِ الَّذِي يَتَنَافَسُ فِيهِ غَارُ حِرَاءَ الَّذِي شَهِدَ بَدَايَةَ الْوَحْيِ وَأَنْسَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَوَّلِ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، وَغَارُ ثَوْرٍ الَّذِي احْتَمَى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ عِنْدَ الْهَجْرَةِ ، وَكِلَاهُمَا أَحْجَارٌ ، يَقُولُ الشَّاعِرُ (١) .

كَمْ حَسَفْنَا حِرَاءَ حِينَ تَرَى	الرُّوحَ أَمِينًا يَفْذُوكَ بِالْأَنْوَارِ
فَحِرَاءَ وَثَوْرَ صَارَا سَوَاءَ	بِهِمَا اشْتَمَعَ لِدَوْلَةِ الْأَحْجَارِ
عَبَدُونَا وَفَعَلْنَا عِبَادَةَ اللَّهِ	مِنَ الْفَاشِقِينَ بِالْأَشْحَارِ
تَحَدُّوا صَمْعَتَنَا عَلَيْنَا دَلِيلًا	فَفَسَدُونَا لَهُمْ وَقُودَ النَّارِ
لَدُنْ نَجْوَا جَهْلًا كَمَا قَدْ تَجَنَّوْهُ	عَلَى ابْنِ مَرْيَمَ وَالْحَوَارِ
لِلْمُغَالِي جَزَائِهِ وَالْمُغَالِي	فِيهِ تُجْبِيهِ رَحْمَةُ الْغَفَّارِ

لِذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى لِمِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأَنْسُوا إِلَهُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ (١١٦)

[المائدة]

فيقول عيسى . ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (١١٦) [المائدة]

نعم ، الله تعالى يعلم ما قال عبده ونبيه عيسى ، لكن يريد أن يقر عليهم بأنه كاره لقولهم هذه الكلمة .

والنبي ﷺ حينما هُزِمَ الرومان من الفرس حزن لهزيمة الرومان . لماذا ؟ لأنهم أهل كتاب يعرفون الله ، ويعرفون البلاغ عن الله ، وإن كانوا كافرين به ، أما الفُرس فكانوا مَجُوساً يعبدون النار ؛ لذلك يطمئنه ربه بقوله . ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبُيُوتُ الْمُبَنَّاتُ فِيهِ يُصَلُّونَ لِلَّهِ يُؤْتُونَ مِمَّا رَزَقَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ يَسْلَمُونَ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) لِي أَذِتِي الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ (٣) يُدْعَى الْمُسْلِمُونَ (٤) بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ لِيَلْزَمَهُ الْخُلُوعُ (٥) ﴾ [الهمزة]

فإن كانوا لا يؤمنون بمحمد ، فهم يؤمنون برب محمد ، فالعصبية - إن - الله أكبر من العصبية للرسول المبعث عن الله

ثم يقول سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٩١) [المؤمنون] يصفون بمعنى ' يكذبون ' ، لكن عِبْرَ عنه بالوصف كأن المعنى : إن أردت أن تعرف الكذب فاسمع إلى كلامهم فهو الوصف الدقيق له ، وقال في موضع آخر ﴿ وَتَهْتَفُ إِلَيْهِمْ أَعْيُنُهُمْ الْكُذِبُ ﴾ (٩٢) [الحمل] فكلامهم هو الكذب بعينه ، وهو أصدق وصف له : لأن الكذب ما خالف الواقع ، وهم لا يقولون إلا ما خالف الواقع

كما لو سألت : ما الحماقة ؟ فأقول لك انظر إلى تصرفات فلان ، يعني : هي الوصف الصادق للحماقة ، والترجمة الواضحة لها ، وكأنه بلغ من الوصف مبلغاً يُجسّم لك المعنى الذي تريده .

ومعنى . ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ .. ١٥﴾ [المؤمنون] تنزهه ، وهى مصدر
رُجِدَ قبل أن يُوجدَ المسيح . فهى صفة لله تعالى أزلية . حيث ثبت
تنزيه الله قبل أن يخلق الخلق . فلما خلق الله السماء والأرض سُبِّحت
له . ﴿سُبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ١٦﴾ [الحديد] ولم ينقطع
التسبيح بعد ذلك . قال الحق سبحانه . ﴿سُبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ .. ١٧﴾ [الجمعة]

وما دام لكل يُسَبِّحُ الله . وما زال مُسَبِّحًا . فسُبِّحَ أنت يا محمد .
﴿سُبِّحَ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى ١٨﴾ [الأعلى]

فكيف يكون الكون كله مُسَبِّحًا ، ولا تُسَبِّحُ أنت . وأنت سيد هذا للكون ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن ذاته العلية :

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّنَا

عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٩﴾

العلم . إدراك قضية أو نسبة واقعة مجزوم بها وعليها دليل ، ولا
يصل إلى العلم إلا بهذه الشروط ، فإن كانت القضية مجزومًا بها
واقعة ، لكن لا تستطيع أن تُدَلَّ عليها كالطفل حين يقول : الله أحد ،
فهذا تقليد كما يُقَدُّ الولدُ أباه أو مُعلمه ، فهو يُقَدُّ غيره فى هذه
المسألة إلى أن يوجد عنده اجتهاد فيها ويستطيع هو أن يُدَلَّ عليها .

فإن كانت القضية مجزومًا بها وليست واقعة ، فهذا هو الجهل ،
فليس الجهل كما يظن البعض ألا تعلم . إنما الجهل أن تجزم بقضية
مناقضة للواقع .

لذلك تجد الجاهل لُشِقْ وأتعب لاهل الدعوة والمعلمين من الخالي
الذهن الذى لا يعرف شيئًا . ليست لديه قضية بداية ، فهذا ينتظر
منك أن تُعلمه . أما الجاهل فيحتاج إلى أن تُخرج من ذهنه القضية

الحاطة أولاً . ثم تضع مكانها الصواب

والغيب . المراد به الغيب المطلق يعنى . ما غاب عنك وعن غيرك ، فنحن الآن مشهد لمن حضر مجلسنا هذا ، إنما نحن غيب لمن غاب عنه ، وهذا غيب مقيد . وعنه الكهرباء والجادبية وغيرهما ؛ لأن هذه الاشياء كانت غيباً عَمَّنْ قبلنا مع أنها كانت موجودة ، فلما توصلنا إلى مقدماتها ظهرت لنا وصارت مشهداً ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ .. ﴾ (٧٥٥) [البقرة]

فأثبت الإحاطة بلداس لكن بشرط مشيقتك تعالى ، فإن شاء أطلعهم على الغيب ، وأرسلهم إلى معرفته حين يأتى أجل ميلاده وظهوره .

إنن . المعلوم لغيرك وغيب عنك ليس غيباً ، وكذلك الغيب عنك وله مقدمات توصل إليه ليس غيباً ، إنما الغيب هو الغيب المطلق الذى غاب عنك وعن غيرك . والذى قال الله تعالى عنه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ (٢٦) إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. ﴾ (٢٧) [الجن]

والشهادة . يعنى المشهود ، لكن ما دام الحق سبحانه يعلم الغيب ، فمن باب أولى يعلم المشهود ، فلماذا ذكر الشهادة هنا ؟ قالوا : المعنى : يعلم الغيب الذى غيب عنى ، ويعلم الشهادة لغيرى .

ومن ناحية أخرى : ما دام أن الله تعالى غيب مستتر عنا ، وهناك كَوْنٌ ظاهر ، فربما ظن البعض أن المستتر الغيب لا يعلم إلا الغيب ، فأراد - سبحانه وتعالى - أن يؤكد على هذه المسألة ، فهو سبحانه غيب ، لكن يعلم الغيب والشهادة

ونرى من الناس مَنْ يحاول أن يهتك ستار الغيب ، ويجهتد فى أن يكشف ما استتر عنه ، فيذهب إلى العرافين والمنجمين وأمثالهم ، وهو لا يدري أن الغيب من أعظم نعم الله على خلقه ، فالغيب هو علة

إعصار الكون ، وبه يتم التعامل بين الناس ، ذلك لأن الإنسان ابن أعمار ، كثير التقلب ، ولو علم كل منا وكُشِفَ له ما عند أخيه لقطع الناس ، وما انتفع بعضهم ببعض .

لذلك يقولون لو تكاشفتُم ما تدافعتُم يعني لو كُشِفَ لك عما في قلب أخيك لَضَعَفَتْ عليه حتى يدفنه بعد موته .

إذن فَجَعَلَ هذه المسائل غُيْبًا مستورا يُحَسِّنُ القلوب ، ويثري الخير بين الناس ، فينتفع كل منهم بالآخر ، وإلا لو علِمَتْ لواحد سيئة ، وعرفت موقفه العدائي منك لكرهتَ حتى الخير الذي يأتيك من ناحيته ، ولتترك قلبك نحره بالعقد والغل ، وما انتفعتُ بما فيه من حسنا .

لذلك ، نقول لمن يبحث عن غُيْبِ الآخرين : إن أردتَ أن تعرف غُيْبَ غيرك ، فاسمع له أن يعرف غُيْبَكَ ، وإن سمع له بذلك ، إذن : فدَعْ الأمر كما أَرَادَهُ الله ، ولا تبحث عن غُيْبِ الآخرين حتى تستقيم دَقَّةُ الحياة

وربك دائماً يلفتك إلى النظر إلى المقابل ففي الحديث القدسي : « يا ابن آدم ، دعوت على مَنْ ظلمك ، ودعا عليك مَنْ ظلمته ، فإن شئت أجبتك وأجبتنا عليك ، وإن شئت تركتكما إلى الآخرة فيسعكما عقرى »^(١)

فسالحق - تسارك وتعالى - يريد أن يُصَفِّي نفوس الخلق ، وأن يقف الناس عند حدود ما أطلعك الله عليه ، ولا تبحث عن المستور

(١) أورده الإمام أبو حامد المزالي (١٨٢/٣) من قول يزيد بن عيسرة إن ظلمت تدعو على من ظلمك فمن الله تعالى يقول إن أمر يدعو عليك بتلك ظلمته فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليه ، وإن شئت أخرجنا إلى يوم القيامة فيسعكما عقرى

حتى لا تتعب نفسك ، حتى تواجه مشاكل الحياة بنفس صافية راضية
عك وعن الناس .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٩٢ ﴾ [المؤمنون] لان ما
تشركونهم مع الله لا يعلمون شيئاً من هذا كله ، لا غيباً ولا شهادة ؛
لذلك لا يتمك إن عبده ، ولا يضره إن لم تعبده .

ثم يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ٩٣ ﴾

رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٩٤ ﴾

﴿ قُلْ .. ٩٢ ﴾ [المؤمنون] امر من الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ رَبِّ .. ٩٣ ﴾
[المؤمنون] منادى حذلت منه أداة النداء يعنى : يا رب ﴿ إِمَّا
تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ٩٣ ﴾ [المؤمنون] يعنى . من العذاب ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي
فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٩٤ ﴾ [المؤمنون] أى : إن قدرت أن تعذبهم فى حياتى
فلا تعذبهم وأنا فيهم .

وهذا من رقة قلبه ﷺ ، وحين اشتد به إيذاء الكفار وعنادهم
فى أول الدعوة أرسل الله إليه الملائكة تعرضن عليه الانتقام من
قومه المكذبين به ، لكنه يأبى ذلك ويقول : « اللهم اهد قومي فإنهم
لا يعلمون »^(١) ويقول : « لعل الله يخرج من أصلابهم من يقول »

(١) أخرج ابن أبي شيبة وأحمد فى الزهد وابن مسكويه فى طريق مجاهد عن عبيد
ابن عمير قال : إن كان نوح ليضربه قومه حتى يرمى عليه ، ثم يسبق فيقول اهد قومي
فإنهم لا يعلمون . وقال شقيق قال عبد الله : لقد رأيت النبي ﷺ وهو يمسح الدم من
وجهه وهو يحكى نبياً من الأنبياء . وهو يقول اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون [الورد
السيوطى فى الدر المنثور ١/٢٨١] . ولتنظر كتاب الزهد لأحمد بن حنبل (٢٧٨ ، ٢٨٠)

لا إله إلا الله .

كما أن موقفه يوم فتح مكة واضح ومعروف ؛ ذلك لأنه ﷺ أرسل رحمة للعالمين .

لكن ، هل قار الرسول ودعا بهذا الدعاء لأنه يعتقد أن الله يجعله معهم حين ينزل بهم العذاب ؟ نقول لا ؛ لأنه لم يقر هذه الجملة من نفسه ، إنما أمره الله بها ، ولم يكن رسول الله ليعتقد هذا الاعتقاد ، إذن ، المسألة وحى من الله لا بد أن يبلغه . وأن يقولها كما قالها الله ؛ لأن مدلولها رحمة به في ألا يرى من يعذب ، أو من باب قوله تعالى :

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لِّأَصْحَابِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً .. (٢٥)﴾ [الأنفال]

وهذا الدعاء الذي دعا به رسول الله يدفع عنه أي خطر يطرأ عليه . ويعلمئنه أن هذا الأمر لن يحدث

وقوله ﴿إِنَّمَا تُرِيدُنِي .. (٢٧)﴾ [المؤمنون] عبارة عن (إن) و (ما) وهما يدلان على معنى الشرطية والزمنية ، فكأنه قال قل ساعة أن ينزل بهم العذاب ، رب لا تجعلني في القوم الظالمين

(١) أخرج البغلي في صحيحه (٢٢٣١) . وكذا مسلم في صحيحه (١٧٩٥) كتاب الجهاد من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبي إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم يستقبلني إلا وأنا بقرون الثعلب ، فركعت راسي فإذ أنا بسحابة قد أظلتني فسرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك . وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد فقال : ذلك فيما شئت . إن شئت لئن أطبق عليهم الصدود لقال اليبس ﷻ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا

﴿وَإِنَّا عَلَيَّ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدْ رُؤُونُ﴾ (١٥)

أى أننا قادرون على أن تُريك شيئاً مما وعدناهم به من العذاب ، لكنه ليس عذاب الاستئصال ؛ لأن الله تعالى أكرم أمته - حتى الكافر منها - بأن صافها من هذا العذاب ، لأنه يأتي على الكافرين فلا يُبقى منهم أحداً ، ويمنع أن يكون من ذريبتهم مؤمن بالله . فهُبْ أن عذاب الاستئصال نزل بهم فى بدر مثلاً ، أكنّا نرى المؤمنين منهم ومن ذرياتهم بعد بدر ؟

إذن ، لا يكون عذاب الاستئصال إلا إذا علم الله تعالى أنه لا فائدة منهم ، ولا حتى من ذريبتهم من بعدهم . كما حدث مع قوم نوح ، ألا ترى نوحاً عليه السلام يقول عنهم : ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْهَلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلْدُرُوا إِلَّا فَاِجْرًا كَفَّارًا﴾ (٢٧) [خروج]

ولا يمكن أن يقول نوح هذا الكلام ، أو يحكم على قومه هذا الحكم ، لا بوحي من الله ؛ لأنه لا يستطيع أن يحكم على هذه القضية الكونية التى لا يعلمها إلا المكنون لأعلى سبحانه ، فنحن نرى عنة الكفر ورؤوس الضلال ، ثم يؤمنون بعد ذلك كله ويبلّون فى الإسلام بلاءً حسناً .

وانظر إلى عكرمة وخالد وعمرو بن العاص ، وكم تألم المؤمنون وحزنوا لأنهم أملتوا من القتل ، لكن الله تعالى قدبير آخر ، وكأنه يذخرهم لخدمة الإسلام وحماية الدعوة .

فعكرمة بن أبى جهل يُظهر شجاعة نادرة فى موقعة اليرموك حتى يُطعن طعنة الموت ، ويستند إلى عمر ويقول وهو يجرؤ بروحه فى سبيل الله ، أهذه ميتة تُرضى عنى الله ورسوله ؟ هذا فى يوم

الخدمة^(١) الذي قال فيه الشاعر^(٢) :

إِنَّكَ لَوْ شَاهدْتَ يَوْمَ الخِدْمَةِ
إِذْ قَرَّ صَفْرَانٌ وَقَرَّ عَكْرَمَ
وَلَحَقْتُنَا بِالسُّيُوفِ المَسْلَمَةِ
يَقْلِقُنْ كُلَّ سَاعِدٍ رَجُومَ
صَرْبٍ فَلَا تُسْمِعُ إِلَّا غَمْغَمَ
لَهُمْ نَهْيٌ^(٣) حَوْلَهُ وَحَمَضَمَ
لَمْ تَنْطَلِقِ مَالُومٍ أَدْنَى كَلِمَ^(٤)

أما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فقد كان من أمرهما
ما نعرف جميعاً .

﴿ ادْفَعْ بِأَيْدِيهِمْ أَجْسَدَ السَّيِّئَةِ
فَنَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (٩٦)

﴿ ادْفَعْ .. ﴾ (٩٦) [المؤمنون] تدل على المداخلة يعنى أمامك حصم

(١) قال ابن الأثير هو جبل معروف عند مكة قال ابن بري كانت به ومة يوم فتح مكة ،
ومنه يوم الخدمة وكان لفيهم خالد بن الوليد ، فهزم المشركين وقطعهم [لسان
العرب - مادة خنم]

(٢) جاء من لسان العرب أن هذا الوجه نسبة ابن السعيد البطليوسي إلى العتقت للراعي
الهدلي ، وذكر ابن بري أنه حماس بن قيس بن خالد الكناسي وقيل إلى هذا الرجز لهريرة
ابن الحطييم

(٣) فنهيت الصياح وقيل هو الصوت من الصدر عند المشقة [لسان العرب - مادة نهى]
(٤) أورد ابن منظور هذه الأبيات في [لسان العرب - مادة خنم] من قول الراعي الهدلي
لامرأته وكانت لامته على انهزامه فقال هذه الأبيات وكان قد قال قبل ذلك

أَنْ يُكَلِّمُوا الْيَوْمَ فَمَا بِي حَلَا
هَذَا مَسْلَحٌ كَامِلٌ وَآلَا
وَأَنْ تُرَارِينَ سَرِيحُ السَّلَا

بهاجمك يريد أن يؤذيكَ ، وعليكَ أن تدفعهُ عنكَ ، لكن دَفَعْ بالتي هي أحسن أي : بالطريقة أو الحال التي هي أحسن ، فإن أخذكَ بالشدة فقابلهُ باللين ، فهذه هي الطريقة التي تجمع الناس على دعوتك وتؤلفهم من حولك .

كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۚ ﴾ (١٠٩) [آل عمران]

فإن أردتَ أن تعطفهم نحوك فادفعْ بالتي هي أحسن ، ومن ذلك الموقف الذي حدث من رسول الله يوم الفتح ، يوم أن مكَّنه ربه من رقاب أعدائه ، ووقف أمامهم يقول : يا معشر قريش ، ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابنُ أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ^(١) .

وتلحظ أنهم كلموه بما يستميل قلبه ويعطفه نحوهم ، وذكَّروه بأواصر القرابة والرحم ، وحثَّوه بما يحثُّن قلبه ، ولقَّنه ما ينتفعون هم به . أخ كريم وابن أخ كريم ، ولم يقولوا مثلاً ، أنت قائد منتصر ، تستطيع أن تفعل بنا ما تشاء .

وفعلاً كان من هؤلاء ومن ذرياتهم بصراء للإسلام وأعاون لدعوة رسول الله

وقصة فضالة^(٢) الذي كان يبغض رسول الله ، حتى قال قبل الفتح ، والله ما أحد أبغض إليَّ من محمد ، وقد زاد غيظه من رسول

(١) قال ابن إسحاق ، حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام في خطبه على باب الكعبة فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر وعده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : الأميراء فأنتم الطلقاء ، [راجع السيرة النبوية لأبي مسلم ٤/١١٢]

(٢) هو فضالة بن عمير بن الملوح النخعي (الإصابة ٦٩٨٨)

الله حينما رآه يدخل مكة ويحطم الأصنام ، فأراد أن يشق الصفوف إليه ليقتله ، وبعبارة قال « فوالله ، ما وضعت يدي عليه حتى كان أحب خلق الله إلي »^(١) .

لكن ماذا تدفع ؟ تدفع (السيئة) ، وتلاحظ هنا أن ربنا - تبارك وتعالى - يدعونا أن تدفع السيئة بالتي هي أحسن ، لا بالحسن ؛ لأن السيئة يقابلها الحسنة ، إنما ربك يريد أن يرتقي بك في هذا المجال ، فيقول لك : ادفع السيئة بالأحسن

وفي موضع آخر يعطينا ثمرة هذا التصرف الإيماني : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الَّذِي تَرَىٰ رَبَّهُ عَادَاةً كَأَنَّهُ وَلِيُّ حَمِيمٍ ﴾ [فصلت] ولو تأملت معنى هذه الآية لوجدت أن المعجزة من الله ، وليست معن عاملته هذه المعاملة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ كَأَنَّهُ .. ﴾ [فصلت] ولم يقل : يصبح لك ولياً حميماً

ذلك لأنك حين تدفع بالتي هي أحسن يدخل منك صاحبك ، ويتدم على إساءته لك ، ويحاول أن يعوضك عنها فيما بعد ، والأمر يعود إلى مثلها مرة أخرى ، لكنه مع كل هذا لا يُسمَّى ولياً حميماً ، إنما هو ولي وحميم ، لأنه كان سبباً في أن يأخذك ربك إلى جانبه ، ويتولاك ويدافع عنك

لذلك لما شتم أحدهم الحسن البصري وسبه في أحد المجالس ، وكان في وقت رطب البلح أرسل الحسن إليه طبقاً من الرطب وقال

(١) ذكر ابن عبد البر في كتاب البدر في السير له أن النبي ﷺ مر به يوم افتتح وهو مرم على الفلك به فقال له : ما كنت تهت به نفسك ؟ قال : لا شيء كنت أذكر الله تعالى فضحك رسول الله ﷺ وقال : استغفر الله لك ثم وضع يده على صدره - قال : فكان فضالة يقول : والله ما دفع يده عن صدرى حتى ما أجد على ظهر الأرض أحب إلي منه ذكره ابن حجر العسقلاني في الإصابة (ترجمة ٦٩٨٨) .

لخادمه : اذهب به إلى فلان ومثل له : لم يجد سيدي أثمن من هذا
يهديه إليك ، وقد يلعبه أنك أهديت إليه حسناتك بالأمس ، وهي بلا
شك أعظم من هديتي تلك^(١)

إذن ، من الغباء أن نتناول الآخرين بالهَمْز واللمز واللعن
والغيبية ، فإليك بهذا الفعل كأنك أهديت لعدوك حسناتك ، وأعطيت
أعظم ما تملك لأبغض الناس إليك .

ألا ترى موقف الأب حين يقسو على ولده ، فيستسلم له الراد
ويخضع ، أو يظلمه أخوه فيتحمل ظلمه ولا يقابله بالمقل ، ساعتها
يحنو الأب على ولده ، ويزداد صلفاً عليه ، ويحرص على ترضيته ،
كذلك يعامل الحق - تبارك وتعالى - العباد فيعاب بينهم من معاملات -
والله للعتل الأعلى . لذلك قلنا لو علم الظالم ما أعده الله للمعتلوم من
الجزاء لضمن عليه بالظلم ، لأنه سيظلمه من ناحية ، ويرضيه الله من
ناحية أخرى .

ويقال إنه كان عند أحد الملوك رجل يُنفّس فيه الملك عن
نفسه ، فإن غضب استدعى هذا الرجل وراح يشتم فيه ويسبّه أمام
الناس حتى يهدأ ، فإذا أراد أن يتصرف الرجل أخذته على انفرد
وأعطاه كيساً من المال ، وفي أحد الأيام احتاج هذا الرجل إلى مال
ليقضى أمراً عنده ، فصاروا أن يتعمّك ليصل إلى الملك ، ثم قال له :
ألست في حاجة لأن تشتمني اليوم ؟

فمساءلتنا بهذا الشكل ، إذن ما عليك إلا أن تدفع بالتى هي

(١) ذكره أبو حامد الغزالي (١٥١/٣) أن رجلاً قال للنسب إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه
رجلاً على طريق وقال قد بلغني أنك أهديت إلي من حسناتك ، فباردت أن أكافئك عليها
فأعظمي فإنني لا أقدر أن أكافئك على قسام .

أحسن ، فإن صادفت من صاحبك مودة وصفاء ، وإلا فجزأه الله لك أوسع . وعطاؤه أعظم ، وما أجمل قول الشاعر^(١) حين عبّر عن هذا المعنى .

يَا مَنْ تَضَايِقُهُ الْفِعَالُ مِنَ التِّي وَمِنَ الَّذِي

ادْفَعْ فِدْيَتَكَ بِالتِّي حَتَّى تَرَى فَإِذَا الَّذِي

يعنى : إن أردت الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ! فاعمل بالتى هى أحسن .

ثم يقول سبحانه : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (١٦) [المؤمنون] معناه أنت يا محمد تأخذ بعقلك من هؤلاء إذا كنا نحن لا نعرف ما يفعلونه بك ، لكن الحال أننا نعرفه جيداً ونحصى عليهم ، وقد أعدنا لهم الجزاء المناسب ، فدع هذه المسألة لنا ولا تشغل نفسك بها .

وكان الحق - تبارك وتعالى - يريد أن ينزه ذات رسوله ﷺ من انفعالات الغضب ، وألا يشغل حتى بمحرد الانفعال ؛ لأنه حين يتعرض لك شخص بسيئة تريد أن تجمع نفسك لترد عليه ، وخصوصاً إذا كان هذا الرد مخالفاً لطبعك الحسن وخلقتك الجمين ، فكأنه يكلفك شيئاً فوق طاقتك .

فإنه تعالى يريد أن يرحم نبيه وأن يريحه دعك متهم ، وقوض أمرهم إلينا ، فنحن أعلم بما يصفون أى . بما يكذبون فى حقك .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ (١٧)

لعاداً جاءت الاستعاذة من همزات الشياطين بعد هذه المسألة ؟ قالوا لأن الشيطان يريد أن يتدخل ، ويظهر لك أنه معك ، وأنه

(١) الشيخ رحمه الله رحمه الله .

يَفْكَارُ عَلَيْكَ ، فَيَحْرُسُكَ عَلَيْهِمْ وَيُغْرِيكَ بِهِمْ ، وَيُدْفَعُكَ إِلَى الْاَنْتِقَامِ مِنْهُمْ
وَالْتَسْلُطِ عَلَيْهِمْ .

وهمزات جمع همزة ، وهى النزعة أو النخسة يثير بها الشيطان
الإنسان ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ
بِاللَّهِ .. (٢٠٠)﴾ [الاعراف]

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (٩٨)

يعنى : إن دخل عليك الشيطان بهمة ووسوسة فقل : أعوذ بالله
من همزات الشياطين ، بل وأزيد من ذلك الزم جانب الحيطة معه ،
فقل : أعوذ بالله أن يحضروني مجرد حضر ، وإن لم يهمزوا لى ،
فإننا لا أريدكم فى محضرى ، ولا أريد أن أجالسهم .

﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩)

ذلك لمجرد أن تحضره سكرات الموت ويرون أنه ميت فتكشف له
الحقائق ويرى ما لا نراه نحن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَكَشَفْنَا
عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٩٩) [ق]

فيتعنى الإنسان أن يرجع إلى الدنيا وهو ما يزال يحتضر ،
لماذا ؟ لأنه رأى الحقيقة التى كان ينكرها ويكذب بها ، والذين
يشاهدون حال الموتى ساعة الاحتضار يرون منهم إشارات تدل على
أنهم يرون أشياء لا نراها نحن ، كل حسب حاله وعلته .

ولذلك حين مات أبى ، وكان على صدرى ساعتها أنه قال لى :
يا أمين - وهذا اسمى فى بلدى - كيف تبنى كل هذه القصور ولا
تخبرنى بها ؟

والجنود الذين صاحوا فى المعركة هبى يا رياح الجنة . لا تدُّ

أنهم رأوها وشعروا رائحتها ، وإلا ما الذي جعلهم يتلهفون للموت ، ويشنقون للشهادة إلا أنهم يرون حالاً ينتظرهم أفضل مما هم فيه .

ومن هؤلاء الصحابي الجليل الذي حدثه رسول الله ﷺ عن أجر الشهداء عند الله ، وكان في يده تمرات أو في فمه يعضها ، فقال : يا رسول الله ، اليس بيني وبين الجنة إلا أن أدخل هذه المعركة فأقتل في سبيل الله ؟ قال : نعم ، فألقى التمرة من فمه ومضى إلى المعركة^(١) .

كأنه استكثر أن يقعد عن طلب الجنة مدة مضى هذه التمرات . فإلى هذه الدرجة بلغ يقين هؤلاء الرجال في الله وفي رسول الله

ونلاحظ في هذه الآية : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ۖ .. ﴾ (٩١) [المؤمنون] هكذا بصيغة المفرد ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ (٩٢) [المؤمنون] جاء بالجمع على سبيل التعميم ، ولم يقل رب أرجعني ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٩٣) [العنكبوت] فهنا الحق - تبارك وتعالى - يُعظم ذاته ، لكن هذا يُعظم الله الآن ، وهو في حال الاحتضار ، وقد كان كافراً به ، وهو في سعة الدنيا وبحبوحة العيش .

أو أنه كرر الطلب - أرجعني أرجعني أرجعني ، فجمعها الله تعالى ، أو ، أنه استبشاث بالله فقال : رب ثم خاطب الملائكة - أرجعون إلى الدنيا .

لكن ، لماذا الرجوع ؟

(١) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له : أريدت إن قتلت فأين أنا ؟ قال في الجنة - فألقى تمرات في يده ، ثم قاتل حتى قُتل - أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٦٦) ومسلم (١٨٩٦) في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ
هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٥٠)

أى : أنتى تركت كثيراً من أعمال الخير ، فلعلى إن رجعت بعد أن عاينت الحقيقة لتستدرك ما فاتنى من الصالحات ، لو لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ، لأننى ضننتُ بمالى وبمجهودى وقضائى على الناس ، وكنتُ العامل الكثير ، وتركته خلفى ثم أحاسب أنا عليه ، فإن عنت قدمته وأنفقتة فيما يدخر لى ليوم القيامة .

ثم تاتى الإجابة : ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا . .﴾ (١٥١) ﴿[المؤمنون] أى : قوله : أرجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ، إنها مجرد كلمة لا واقع لها ، كلمة يقولها وقت الضيق والشدة ، فإله تعالى لن يرجعهم ، ولو أرجعهم ما فعلوا ؛ لذلك نفاها بقوله (كلا) التى ترد على قضايا تريد إثباتها ، ويريد الله تعالى نفيها كما ورد فى سورة الفجر

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ (١٥٦)
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ (١٥٧)﴾ [الفجر]

فيرد الحق سبحانه : (كلا) لا أنت صادق ولا هو ، فليس المال والغنى وكثرة العَرَض دليل كرامة ، ولا الفقر دليل إهانة ، فكلتا القضيتين خطأ ، بدليل أنك إذا أعطاك الله المال ، ثم لا تؤدى فيه حق الله وحق العباد ، ولا يمينك على أداء ما فُرِض عليك صار المال وبالا عليك وإهانة لا كرامة . ما جدوى العامل إن دخلت فى قوله تعالى . ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧)﴾ [الفجر] ؛ ساعتها سيكون مالك حجة عليك .

كذلك الحال مع مَنْ يظن أن الفقر هانة ، فإن سلب الله منك المال الذي يُطيقه فقد أكرمك ، وإن كنت لا تدري بهذا الإكرام

ثم يقول سبحانه ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] كيف يتعمنون الرجوع وبينهم وبينه بَرْزَخٌ يمنعهم العودة إلى الدنيا ؛ لذلك تُسمَّى الفترة بين الحياة الدنيا والآخرة بالحياة البرزخية ، فليست من الدنيا ، وليست من الآخرة .

وفي موضع آخر يُصوِّر الحق سبحانه هذا الموقف بقوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. ﴾ [الأنعام: ٢٨] أي : لو رددناهم من الآخرة لعادوا لما كانوا عليه من معصية الله ، وإن كنت هذه قضية عقلية ففي واقعهم ما يثبت صدق هذه القضية ، واقرا فيهم قول الله تعالى . ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ .. ﴾ [الإسراء: ٨٢] فإخذ نعمة الله وتقلب فيها ، ثم تنصل من طاعة الله

ويقول تعالى في هذا المعنى أيضا ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى صُرٍّ مِّنْهُ .. ﴾ [يونس: ١٩]

إذن العسالة اضطرابات ، كلما اضطروا دَعَّوْا الله ولجئوا إليه ، وتوسَّلوا ، فخذروا من واقع حياتهم ما يدل على صدق حكمي عليهم لو عادوا من الآخرة .

والبرزخ ، هو الحاجز بين شيئين ، وهذا الحاجز يأخذ قوته من صاحب بنائه ، فإن كان هذا الحاجز من صناعته - سبحانه وتعالى - فلن ينفذ منه أحد .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (٢٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَتَّحِيَانِ (٣٠)﴾ [الرحمن] وما داما يلتقيان ، فما فائدة البرزخ هنا ؟

قالوا . نعم يلتقيان . ولا ينفى أحدهما على الآخر ؛ لأن المسألة ليست سدًا أو بناءً هندسيًا ، إنما برزخ خاص لا يقدر عليه إلا طلاقة القدرة الإلهية التي خرقت النواميس ، فجعلت الماء السائل جيلًا ، بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فصار كل فريق كالطرد العظيم . حلالة القدرة التي فجرت الصخر صيونًا .

إنن . المسألة ليست (ميكانيكا) كما يظن البعض . والبرزخ بين الماء المالح والماء العذب أية من آيات الله شاحصة أمامنا ، يمكننا جميعاً أن نتأكد من صحة هذه الظاهرة .

لكن هذا البرزخ من أمامهم ، فلماذا قال تعالى ﴿وَمِنْ رَزَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُخْرُونَ (٣٠)﴾ [المؤمنون]

قالوا . لأن اللفظ الواحد يُطلق في اللغة وله معان عدة واللفظ واحد ؛ لذلك يُسمونه المشترك ، فمثلاً كلمة عَيْن تطلق على العين الباصرة ، وعلى عين الماء ، وعلى الجاسوس ، وتقال للذهب والمفضة ، وللرجل البارز في قومه ، والسياق هو الذي يُحدد المعنى المولد ؛ لذلك على السامع أن تكون عنده لحظة ليرد اللفظ إلى المعنى المناسب لسياقه .

وكذلك كلمة (النجم) فتعني الكوكب في السماء ، وتعني كذلك ما لا ساق له من النبات ، وهو الخشب الذي ترعاه البهائم ، ومنه قول الشاعر :

(١) مرج البحرين أي أرسلهما أو أطلقهما يجريان وهذا يلتقيان عند مصب النهر [القاموس القويم ٢/٢٢٦] .

أَرَأَيْتَ النِّجْمَ فِي سَيْرِي إِلَيْكُمْ وَيُرْعَاهُ مِنَ الْيَدَا جَوَادِي

فكلمة (وراء) تطلق ويُرَادُ بها معان عدة ، قد تكون متقابلة يُعَيِّبُهَا السياق ، فتأتى وراء بمعنى (بعد) كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ رَأْيِ إِسْحَاقَ يَعْزُوبَ ﴾ [مود] وتأتى بمعنى (غير) كما في قوله تعالى : ﴿ لَمَنِ ابْتَغَىٰ رِءَاً ذَلِكَ فَأَرْسَلْنَاكَ هُمْ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون]

وتأتى بمعنى (أمام) كما في قوله تعالى . ﴿ وَكَانَ رِءَاً هُمْ ذَلِكَ يَأْخُذُ كُلُّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف] فالملك كان أمامهم فيقتطع كل سفينة قادمة . وكذلك في قوله تعالى : ﴿ مَنْ رِءَاً جَهَنَّمَ ﴾ [إبراهيم] فقوله تعالى . ﴿ وَمِنْ رِءَاًهُمْ يَرْزُقُ إِلَىٰ يَوْمٍ يُنْظَرُونَ ﴾ [المؤمنون] أى . من أمامهم .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ فَإِذَا تَفَخَّخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [١١١]

الصُّور : البوق الذي يتفخخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا النسخة الشافية للبعث .

والأنساب : جمع نَسَبٍ ، وهو الالتقاء في أصل مباشر . كاللقاء الابن بالاب ، أو الأب بالابن ، أو اللقاء بواسطة كالعصمة والحوالة . والنسب هو أول لُحْمَةٍ في الكون تربط بين الناس في مصالح مشتركة ، وهو الالتقاء الضروري الذي يوجد لكل الناس ، فقد لا يكون لك أصدقاء ولا أصحاب ولا زملاء عمل . لكن لا بد أن يكون لك نَسَبٌ وقرابة وأهل .

فحين ينفي الحق - سبحانه وتعالى - النسب يقول : ﴿لَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ...﴾ (١١) [المؤمنون] فليس النفي لوجود النسب ، فإذا نفي في الصور منعت البينة من الأبوة ، أو الابوة من البينة . إنما النسب موجود حقيقة ، لكن لأن النسب المعروف فيه التعاون على الخير والتأزر في دفع الشر ، فالتنفي هنا لهذه المنفعة في هذا اليوم بالذات حيث لا ينفع أحد أحداً ، فالنسب موجود لكن دون نفع ، فالتنفع من أمور الدنيا أن يوجد قوى وضعيف ، فالقوى يعين الضعيف ، ويفيض عليه ، أما في هذا الموقف فالكل ضعيف .

كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٢١) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٢٥) وَصَاحِبَةِ وَجْهِهِ (٢٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٢٧)﴾ [عبس]
ويقول : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ (٢٨)﴾ [المعثر]

لذلك حينما حدث رسول الله ﷺ أننا سنُحْشَر يوم القيامة حفاة عراة تعصبت السيدة عائشة ، واستعيت من هذا الموقف ، فأخبرها رسول الله أن الأمر ليس كذلك ، فهذا موقف يتشغل كل بنفسه ، والحال أصعب من أن ينظر أحد لأحد^(١) .

إذن النفي لنفع الأنساب ، لا للأنساب نفسها .

وإن كان نفع الأسباب يمتنع لهو الأحره فقد يتسامى الإنسان فيمتنع نفعه حتى في الدنيا عن ذوى قوابله إن كانوا غير مؤمنين . وقد ضربها الله مثلاً في قصة نوح - عليه السلام - وولده ، وضابطه

(١) عن عائشة قالت - قال النبي ﷺ - يبعث الله الناس يوم القيامة حفاة عراة عرلاً فقالت عائشة يا رسول الله فكيف بالمعرات ؟ قال لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه أخرجه أحمد في مسنده (١٠/٦) والنسائي في سننه (١١٤/٤) والحاكم في مستدركه (٥١٤/٤) وقال - سمع على شرط مسلم ولم يخرجاه -

ربه ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ﴾ (٤٦) [هود] فامتنع
التنصب حتى في الدنيا ، فالبنوة ليست بثرة الدم واللحم ، البنوة -
خاصة عند الأنبياء - بثرة عمل واتباع .

وإذا تأملت تاريخ المسلمين الأوائل لوجدتهم يعتزرون بالإسلام ،
لا بالأنساب ، فالدين والعقيدة هما النخعة ، وهما ارباطة القرية التي
يربط الإنسان بغيره ، وإن كان أدنى منه في مقاييس الحياة .

قرأنا في قصة بدر أن مصعب بن عمير^(١) - رضوان الله عليه -
وكان فتى قريش المدلل ، وأغنى أغنيائها ، ليس أخضر الثياب ويعيش
الين عيشة ، فلما أشرب قلبه الإيمان زهد في كل هذا للنعيم ، وحرم
من خير أهله . ثم هاجر إلى المدينة ، وهناك رآه رسول الله ﷺ
يلبس جلد شاة فقال : « انظروا ماذا فعل الإيمان بأخيكم »^(٢) .

وفي المعركة . رأى مصعب أخاه أبا عزيز^(٣) أسيراً في يد واحد
من الأنصار هو الصحابي أبو اليسر^(٤) فقال له مصعب اشدد علي

(١) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، أبو محمد ، هاجر إلى الحبشة للهجرة
الأولى والثانية . ويكثّر إلى المدينة يملأ مسلميها الفقه ويقرنهم القرآن ثم قدم على
رسول الله ﷺ مع السبعين الذين وقفوا في العقبة الثانية . وكان مصعب رفيق البشارة .
ليس بالطويل ولا بالقصير ، توفي في غزوة أحد [صفة الصفوة ١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦] .

(٢) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب (جلد)
كيش قد تنطق به ، فقال النبي ﷺ : انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه ، لقد
رأيت بهين أبوين وفنوانه بالسيب الطعام والشراب ، فبعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون
أوردته ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢٠٦ / ١) وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠٨ / ١)
قال العراقي في تحريجه لأحاديث الأحياء (٢٩٥ / ٤) إسناده حسن .

(٣) هو ربيعة بن عمير أخو مصعب بن عمير له منجبة وسماع من النبي ﷺ ، والتقل أهل
المبارى على أنه أسير يوم بدر . انظر الإصابة لابن حجر (ترجمة ٧٥٣ الكشي)

(٤) اسمه كعب بن عوف الأنصاري . شهد العطفة وبدرًا وله فيها آثار كثيرة وهو الذي أسر
المسياس بن عبد المطلب . كان قسيساً عظيم البهر . مات بالمدينة عام ٥٥ هجرية
[الإصابة ترجمة ١٢٤٣] وقد ضبط الحافظ أبي حجر كنيته (أبو اليسر) فقال
(٢٠٧ / ٥) : يفتح التمانية بالثنتين والمهمة ، وقال (٢١٨ / ٧) : يفتحين .

أسيرك - يعنى . إياك أن يسلط منك - فإن أمه غنية ، وستفديه بمال كثير . فنظر أبو عزيز إلى مصعب وقال أهذه وصاتك بأخيك ؟ فقال : هذا أخى دوتك .

إذن فلا أتسب بينهم ، حتى فى الدنيا قبل الآخرة .

وفى غزوة أحد استشهد مصعب بن عمير ، ولم يجدوا ما يكفونه فيه إلا ثوباً قصيراً ، إن غطى رأسه انكشفت رجلاه . وإن غطى رجليه انكشفت رأسه ، فقال النبى ﷺ : غطوا رأسه ، واجعلوا على رجليه من الإلخز^(١) .

والسيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان لما أسلمت وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكن اتهمها البعض بأنها هاجرت لا من أجل دينها ، ولكن من أجل زوجها ، فيشأ الله تعالى أن يظهر براءتها ، فيقتصر زوجها عبيد الله بن جحش هناك ونخل هى على لإيمان . ولما علم رسول الله ﷺ بأمرها أراد أن يعرضها فخطبها لنفسه ، ولم ينتظر إلى أن تحب ليعقد عليها ، فوكل التجاشى ملك الحبشة ليعقد له عليها^(٢)

وبعد زواجها من رسول الله ﷺ أراد أبوها أبى سفيان زيارتها ، وكانت تصعد فراش رسول الله ، فلما أراد أبى سفيان أن يجلس عليه نحت جانباً ، ومنعته أن يجلس - وهو كافر - على فراش رسول الله .

(١) مطلق عليه - أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٧٦) - وصلى فى صحيحه (٩٤٠) من حديث خباب بن الارت رضى الله عنه

(٢) قال أبو الجوزى فى صفة القسوة (٢٦/٧) : « بعد رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضميرى إلى التجاشى ملك الحبشة ليعطيهما حليه فتزوجها إياه وأصدق حه التجاشى أربصاًة ميثاقاً وبعت بها إلى شحبل بن حصة وقدر . وكنت خالفاً من سعيد بن العاص فروجها . وفلك سنة مبيع من الهجرة » .

فقال: أضغاث بالقراش على؟ فقالت: نعم^(١).

إذن ففُح الأسباب يمتنع في الدنيا قبل امتناعه في الآخرة ، لكن الحق - سبحانه وتعالى - تفضل بأن أبقي مطلوبات النسب في الدنيا ودعانا إلى الحفاظ عليها حتى مع الكافرين ، لأنه سبحانه وصع الكافر ، فعلى المؤمن أن يسعه من باب أولى ، فإن رأيت الكافر في شدة وقدرت أن تُعينه فأعنه

واقرا في هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَنْ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۚ ﴾ [النمل] فهما كافران ، بل ويريدانك كافرا ، ومع ذلك احفظ لهما حق النسب ، ولا تقطع الصلة بهما .

ويروى أن إبراهيم - عليه السلام - وقد أعطاه الله الحلة ، وقال عنه . ﴿ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَكَّى ﴾ [النجم] وابتلاه بكلمات فاتهم ، مر عليه عابر سبيل ليل ، فقبل أن يدخله ويضيفه سألته عن ديانتك ، فأخبره أنه غير مؤمن ، فأعرض عنه إبراهيم - عليه السلام - وتركه ينصرف ، فأوحى الله إليه : يا إبراهيم وسعتُ عبدي وهو كافر بي ، وتريده أن يغير دينه لضيافة ليلة ؟ فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به ، وأخبره بما كان من عتاب ربه له في شأنه ، فقال الرجل : نعم ارب الذي يعاتب أحبابه في أمر أعدائه ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم رسول الله .

(١) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢٢/٢) : أن أبا سفيان قال لا يئته أم حبيبة بعد أن طوت قرأ رسول الله ﷺ يا بني . أرغبت بهذا القرأ على أم بي عنه ؟ فقالت : بل هو قرأ رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك . فقال : يا بني لقد أسألك بهذا شر ، وسخطم أن أبا سفيان أسلم فيما بعد في فتح مكة .

ويرتقى أهل المعرفة بالنسب ، فيرون أنه يتعدى الارتباط بسبب وجودك ، وهو الأب أو الأم ، فالتنسب وإن كان ميلاد شيء من شيء ، أو تفرع شيء من شيء ، فهناك نسب أعلى ، لا لعن أوجدك بسبب ، وإنما لعن أوجدك بلا سبب الوجود الأول ، فكان عليك أن تراعى هذا النسب أولاً الذي أوجدك من عدم ، وإن أثبت حقاً للوالدين : لأنهما سبب وجودك ، فكيف بالمرجد الأعلى ؟

وقوله تعالى ﴿ وَلَا يَسْأَلُونَ ﴾ (١٠٦) [المؤمنون] سأل ، تقتضى سائلاً ومسئولاً ، أما الفعل (تسأل) فيدل على المقابلة يعنى : كل منهما سائل مرة ، ومسئول أخرى ، كما تقول : شارك محمد عمراً ، وقاتل .. الخ .

وقد اعترض على هذه الآية بعض المستشرقين الذين يجهلون أن يتوركوا على كتاب الله ، قائلين ، إن المسلمين ينظرون إلى كتاب الله بمهابة وتقدیس يمنعهم ويحجب عقولهم عن تحقُّل ما فيه ، لماذا وقد قال تعالى عن القرآن ﴿ وَلَوْ كُنَّا مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢) [النساء] ؟

يقول هؤلاء ، إن القرآن نفي التساؤل في هذه الآية ، وأثبتته في قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلْ بِمَعْصِيَتِهِمْ عَلَيَّ فَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٢٥) [الطود] هي الحوار بين الكفر .

وهناك تساؤل بين المؤمنين والكافرين ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينًا ﴾ (٢٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٢٩) فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ (٣٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٣١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٣٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٣٣) وَلَمْ نَكُ نَطْعِمِ الْمَسْكِينِ (٣٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاحِشِينَ (٣٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ أَيَّامَ الدِّينِ (٣٦) [المدر]

ومرة يكون التساؤل بين المؤمنين بعضهم وبعض ﴿وَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾
فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَرَقَانَا عَذَابَ السُّعُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ
الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ [الطور]

إذن كيف بعد ذلك ينفي التساؤل ؟ ويقول ﴿وَلَا
يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٨) [الزمنون]

وهذا التضارب الذي يروته تضارب ظاهري ، لأن هناك فرقاً بين
أن تسمع عن شيء وبين أن تُفاجأ به وأنت غير مؤمن ، لقد قالوا
﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٢٧) [الزمنون]

فحين فوجئوا بالنفخ في الصور ، وداعتهم القيامة التي كانوا
يُكذِّبون بها بُهتوا ودُفِشُوا ، وخرست ألسنتهم عن الكلام من شدة
دهشتهم ، وكيف وما كانوا ينكرونه مائل أمامهم فجأة ، ثم يتدرجون
من هذه الحالة إلى أن يأخذوه أمراً واقعاً لا مكر منه ، فيبدؤون
بالكلام ويسأل بعضهم بعضاً عما هم فيه وعما نزل بهم

إذن فالسؤال له زمن ، ونفى السؤال له زمن ، لذلك يقولون في
مثل هذه المسألة أن الجهة مُتَفَكِّة ، فإذا رأيت شيئاً واحداً أثبت مرة ،
ونفى أخرى من قائل واحد منسوب إلى الحكمة وعدم التضارب ،
فاطم أن الجهة مُتَفَكِّة .

ومثل هذا الموقف من أهل الاستشراف وقفوه أيضاً في سؤال أهل
المعاصي ، حيث يقول تعالى في إثبات سؤالهم ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ
مُسْتَوْثُونَ﴾ (٢٤) [الصافات] ويقول في نفي سؤالهم ﴿فَوَرَعْنَا لَا يَسْأَلُ عَنْ
ذُنُوبِهِ إِنْشٌ وَلَا حَاجٌ﴾ (٣١) [الرحمن] فكيف يثبت الفعل وينفيه ، والفاعل
واحد ؟

وهذا الاعتراض منهم ناشئ عن عدم فهم لغة القرآن والمكة العربية ، أو لأنهم يريدون مجرد الاستدراك على كتاب الله وإثارة الشكوك حوله لكن رُبُّ ضارة نافعة ، فبعد حرُكت شكوكهم وماخذهم علماء المسلمين للتصدّي لهم ، ولورد على أباطيلهم وكشف نواياهم ، فمستلنا كمثل الذي يستعد لملاقاة المرضى بالطعم المناسب الذي يعطى للجسم مناعة وحصانة ضد هذا المرض .

وسيدنا عمر - رضي الله عنه - وكان القرآن ينطق على وثق ما يريد ، يرى الناس يُقبِلون الحجر الأسود ، فتوقع أن يتكلم الناس في هذه المسألة ، وكيف أن الدين ينهاهم عن عبادة الأصنام وهي حجارة ويأمرهم بتقبيل الحجر ، وكان رضي الله عنه يقول ويقول : « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يُقبلك ما قبّلتك » (١) .

فلفت الناس إلى أصل التشريع وأن الحجرية لا عبادة لها عندنا ، لكن عندنا للنبي ﷺ وهو مُشرّع لنا ووجب علينا اتباعه ، وهكذا كان ردّ عمر على من أثاروا هذه الفتنة .

ولما تكلم عمر في غلاء المهور وكان متهما بوافق قوله قول القرآن الكريم ، وقفت له امرأة وراجعته وقالت له : أخطأت يا عمر ، كيف تنهى عن الغلاء في المهور ، والله تعالى يقول : ﴿ وَأَتِمُّوا حَدَاثَكُمْ نِسَاءً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ ﴾ (٢) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٥١٧) ، ومسلم في صحيحه (١٢٧٠) من حديث عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال الطبري : « إنما قال ذلك عمر لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام لنشئ عمر أن يخن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأعيان كما كانت العرب تفعل في الجاهلية فأراد عمر أن يطم الناس أن استلامه اتباع لفعل رسول الله ﷺ لا لأن الحجر ينفق ويفسر بذاته كما كانت الجاهلية تعتقد في الأوثان » أوردته ابن حجر في الفتح (٤٦٣ / ٣) .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ . ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ .. (١٧) [الأنفال] فكنا نقى وإثبات فى آية واحدة لفاعل واحد . لأن رسول الله ﷺ أخذ فعلاً حَفَظَ من الحصى ورَمَى بها نحو الاعداء^(١) ، لكن هل فى قدرته أن يوصل هذه الحفنة إلى أعين الاعداء جميعاً ؟ فالعمل والرعى للرسول ، والنتيجة والفاية لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٨)
 وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ
 فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٩)

ثَقُلَتْ وخَفَّتْ هنا للحسنتات . يعنى : كانت حسناته كثيرة أو كانت قليلة
 ويمكن أن نقول ثقلت موازينه بالسبيئات يعنى . كثرت
 الحسنات ، لكن القرآن تكلم من ناحية أن العمدة فى الأمر الحسنات
 والميزان يقوم على كفتين فى أحدهما الموزون ، وفى الأخرى
 الموزون به ، وللموزن ثلاث صور عقلية - أن يخف الموزون ، أو
 يخف الموزون به ، أو يستويا ، وقد ذكرت الآية حالتين ، خفت

(١) من على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال يا رب إن تلك هذه العصاة على عهدى فى الأرض أبداً ، فقال له جبريل أخذ قبضة من التراب غارم بها فى وجوههم فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم لما من المشركين أحد إلا لسا ب عينه ومنخره ووجهه تراب من تلك القبضة فوالرا مدبرين . أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقى (٧٩/٢) كلاهما فى دلائل كثيرة . وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢٩٤/٢) .

موازينه ، وثقلت موازينه ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ ﴿٨﴾ فَأُمْدٌ هَاطِلَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَفْرَاقُ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١١﴾ ﴿ [القارة]

أما حالة التساوى فقد جاءت لها إشارة رمزية في سورة الاعراف .

﴿ وَعَنِ الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيحَانِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا حُشِرَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾ [الاعراف]

فَمَنْ غُلِبَتْ حَسَنَاتُهُ ذَهَبَ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ غُلِبَتْ سَيِّئَاتُهُ ذَهَبَ إِلَى النَّارِ ، وَبَقِيَ أَهْلُ الْأَعْرَافِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ : لَأَيُّهُمْ تَسَوَّاتُ عِنْدَهُمْ كِفَاتُ الْمِيزَانِ ، فَلَا هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَلَا هُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، قَهَمَ عَلَى الْأَعْرَافِ ، وَهُوَ السُّورُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ يَنْظُرُونَ إِلَى هَؤُلَاءِ وَإِلَى هَؤُلَاءِ .
ثم يقول تعالى في شأنهم ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ ﴿٤٦﴾ [الاعراف] : لَأَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ سَبَقَتْ عَصِيَّةَ ، وَعَفْوُهُ سَبَقَ عِقَابَهُ .

ومعنى ثقلت موازينه وخفت موازينه يدس على أن الأعمال تصبح ولها كثافة وجرم يعصى ثقلاً ، أو أن الله تعالى يخلق في كل عمل له كتلة ، فحسنة كذا بكذا ، والمراد من الميزان دقة العَصَلِ والحساب .

ونلاحظ في الآية - ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ ﴿١٠٦﴾ [المؤمنون] بالجمع ولم يقل ميزانه ، لماذا ؟ قالوا ، لأنه يمكن أن يكون لكل جهة عمل ميزان خاص ، فللصلاة ميزان ، وللعمل ميزان ، وللحج ميزان .. إلخ ثم نجمع له كل هذه الموارين .

وقوله : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ .. ﴾ ﴿١٠٧﴾ [المؤمنون] لأنهم أخذوا لها القليل أعاجل ، وفوتوا عليها الكثير الأجل ، وسارعوا إلى متعة فانية ، وتركوا متعة باقية : لأن الدنيا

أجلها محدود ، والزمن فيها مطلق ، والخير فيها على قدر إمكانات أهلها .

أما الآخرة فزمنها مطلق ، وأجلها ممدود خالد ، والخير فيها على قدر إمكانات المنعم عز وجل ، فلو قارنتَ هذا بذاك لتبين لك مدى ما خسروا ، لذلك تكون النتيجة أنهم ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون] ثم يعطينا الحق سبحانه صورة تَبَشُّعُ الجِزَاءِ فِي جَهَنَّمَ ، وتُصَوِّرُ أهوالها ، وذلك رحمة بنا لفرقده من قريب ، ونعمل جامعين على أن ننهي أنفسنا من هذا المصير ، وننتفر من هذه العاقبة البشعة ، كما يقول الشرح بداية سنقطع يد السارق ، فهو لا يريد أن يقطع أيدي الناس ، إنما يريد أن يمنعهم ويحذرهم هذه العاقبة .

ومن ذلك قوله تعالى في مسألة القصاص : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ .. ﴾ [البقرة]

وقد هُوجِمَ القصاص كثيراً من أعداء الإسلام ، إذ يقولون : يكفي أن قُتِلَ واحد من المجتمع ، فكيف تقتل الآخر ؟ والقرآن لم يضع القصاص ليقتل الاثنين ، إنما وضعه ليمنع القتل ، وليستبقى القاتل والقتيل أحياء ، فحين يعرف القاتل أنه سيقتل قصاصاً يمتنع ويرتدع ، فإن امتنع عن القتل فقد أحيينا القاتل والقتيل ، وقد عبروا عن هذا المعنى فقالوا : القتل أنفى للقتل .

يقول تعالى في تبشيع جهنم .

﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ [البقرة]

اللفح : أن تمس النار بحرارتها الشيء تشويهه ومنه التلحح^(١)

(١) قال الزجاج : تلفح وتلفح بمعنى واحد إلا أن التلفح أعظم تشويهاً منه قال أبو منصور ومما يؤيد قوله تعالى ﴿ وَقَدْ مُسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ [الأنبياء] [لسان العرب - مادة الفح]

﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾ [المؤمنون] كلمة « كالح » تقولها حتى في العامة فلان كالح الوجه . يعني : تغير وجهه تغيراً يتركز لا تسريح له ، وضربوا للوجه الكالح مثلاً برأس الخروف المشوية التي غيرت النار ملامحها ، فاصبحت مشرقة كالخمر تلتصق الشفة العليا بجيبتها ، والسفلى بصدره ، فتظهر أسنانه في شكل منفر .

بعد ذلك يخاطبهم الحق سبحانه خطاباً يلقي اللوم عليه ويحصلهم مسئولية ما وصلوا إليه ، فلم يعذبهم ربهم ابتداءً ، إنما عذبهم بعد أن أنذروهم ، وأرسل إليهم رسولا يعمل منهمجاً يبين ثواب الطائع وعقاب العصي ، ونبأهم إلى كل شيء ، ومع ذلك عصوا وكذبوا ، ولم يستأنفوا عملاً جديداً على وفق ما أمر الله . إذن : فهم المقصرون .

﴿أَلَمْ تَكُنْ مَائِنًا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاكْتُمُرِبَاهُ أَكْذِبُوتَ﴾ [٧٥]

يعني . أنتم السبب فيما أنتم فيه من العذاب ، فليس للناس على الله حجة بعد الرسل ، وليس لأحد عذر بعد البلاغ ، لذلك حينما يدخل أهل النار النار يخاطبهم ربهم . ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُولُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتُ رَبِّكُمْ ..﴾ [٧١]

[الرمز]

فالآية تثبت أنهم هم المعدنون أمام نفوسهم . ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأنعام] فلم نفاجئهم بعقوبة على شيء لم ننبئهم به ، إنما أرسلنا إليهم رسولا يأمرهم وينهاهم ويبيشّرهم وينذرهم .

والإنذار بالشر قبل أن يقع نعمة من النعم . كما قلنا في سورة الرحمن عن قوله تعالى ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَرَاطٌ مِّن نَّارٍ وَنَحْسٌ فَلَا تَعْتَصِرَانِ﴾ [٢٥] فَبَأَىٰ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ [٢٦] [الرحمن] وهل النار

والشواظ نعمة ؟ نعم نعمة ؛ لأننا نجدرك منها قبل وقوعها ، وأنت ما زِلْتَ في سعة الدنيا ، وأمامك فرصة الاستدراك

والآيات - كما قلنا - تُطَلَّقُ على الآيات الكونية التي تُلَفَّتْ الناس إلى وجود الخالق الأعلى الذي أنشأ هذا الكون بهذه الهندسة البديعة ، وتُطَلَّقُ على المعجزات التي تثبت صدق الرسول في البلاغ عن الله ، وتُطَلَّقُ على الآيات الحاملة للأحكام وهي آيات القرآن .

وقد جئناكم بكل هذه الآيات تَبَيَّنَ عليكم وتسمعونها وترونها ، ومع ذلك كُذِّبْتُمْ . ومعنى ﴿ تَعَالَى عَلَيْكُمْ .. ﴾ [المؤمنون] ١٢٥ لَمَّا نَبِهْتَكُمْ إليها ، وَلَفَّيْنَا أَنْظَارَكُمْ إِلَى تَامِلِهَا ، حتى لا تقولوا : غفلنا عنها

﴿ قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتَنَا
وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾

﴿ شِقْوَتَنَا .. ﴾ [المؤمنون] ١٢٦ أى . الشقاوة^(١) وهي الألم الذي يملك كل ملكات النفس لا يترك منها جانبا ، يقولون فلان شقى يعنى مُصِيبٌ عليه ومُتَعَبٌ في كل أمور حياته ، لا يرى راحة في شيء منها . وكانهم يقولهم . ﴿ عَلَّمَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتَنَا .. ﴾ [المؤمنون] يريدون أن يبعدوا المسألة عن أنفسهم ويُلْقُوا به عند الله تعالى ، يقولون يا رب لقد كتبت علينا الشقاوة من الأزل ، فلا ذنبَ لنا ، وكيف نسعد نحن أنفسنا ؟ يقولون لو شاء ربنا ما فعلنا ذلك .

ونقول لهم لقد كتب الله عليكم أزلا ، لأنه سبحانه علم أنكم ستختارون هذا

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٦٨٧/٦) . قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم : شقوتنا ، قرأ الكوفيون إلا عاصم : شقوتنا . .

فوصفوا أنفسهم بالظلم . كما قال سبحانه عنهم في آية أخرى .
﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢٨)
[الاسعاف]
فيقول الحق سبحانه .

﴿قَالَ اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ (٢٨)

﴿اخْشَوْا﴾ (٢٨) [المؤمنون] كلمة بالغة في الزجر تعني . السكوت مع الذلة والهوان ؛ لذلك يقولونها للكلاب . وقد تقول لصاحبك . اسكت علي سبيل التكريم له . كما لو حدثك عن فضلك عليه ، وأنت قد كنت له كذا وكذا فتقول له اسكت اسكت . تريد له العزة ، والأ يقف أمامك موقف الضعف والذلة .

والخسوء من معانيها أنك تضعف عن تحمل الشيء . كما في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهَرَ خَاسِرًا﴾ (٤) [الملك] يعني : ضعيف عن تحمل الضوء

وفي قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (٥٦) [البقرة] يعني مطرودون مبعودون عن سعة الإنسانية وعزتها ؛ لذلك يرى القردة مفصوحى السوءة ، خفيى الحركة بما لا يتناسب وكرامة الإنسان .

إذن : ليس المراد أنهم أصبحوا قردة . إنما كونوا على هيئة القردة ؛ لذلك تراهم حتى الآن لا يهتمون بمسألة العرض وانكشاف العورة .

إذن . المعنى ﴿اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ (٢٨) [المؤمنون] اسكتوا سكوتاً بذلة وهوان . ويكفى ما صنعتموه بالمؤمنين بي . فيقول الحق سبحانه

﴿ اِنَّكُمْ كَانُمْ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا اَمْنًا فَاُخْفِرْنَا
وَارْحَمْنَا وَامَّا خَيْرُ الرِّجِئِ ﴾ (١٦٩)

والمراد هنا الضعاف من المؤمنين أمثال عمار وبلال وخباب بن الأرت^(١) ، وكانوا يقولون هذا الكلام ، وهو كلام طيب لا يرد ، بل يجب أن يُسمع ، وإن يُصغى به ، ويُؤخذ قدوة .

﴿ فَاتَّخِذْنَهُمْ سَخِرًا حَقًّا أَنْتُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ
مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ (١٧٠)

تكلما عن هذه المسألة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (١٦٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (١٧٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَبَتُوا فَكُفِّي (١٧١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (١٧٢) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (١٧٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (١٧٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (١٧٥) هَلْ قُرْبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٧٦) ﴾

[المطففين]

إذن : اتخذ الكفار ضعاف المؤمنين محل سخرية واستهزاء ، وبالفوا في ذلك ، حتى لم يعد لهم شغل غير هذا ، وحتى شغلهم الاستهزاء والسخرية عن التفكير والتأمل فلم يبقَ عندهم طاقة فكرية

(١) قاله مجاهد فيما نقله عنه القرطبي في تفسيره (١٦٨٨/٦)

(٢) فكفيت أي يفتابون الناس ويتناولون مشيهم ويتلذذون بهم والفكه الذي يُحسب أصحابه ويضمكهم [لسان العرب - مادة فكه]

تفكر فيما آمن به هؤلاء ، وهذا معنى ﴿ حَتَّىٰ أَنسَوَكُم ذِكْرِي .. ﴾ [المؤمنون] أي : شغلكم الاستهزاء بالمؤمنين عن الإيمان بمن خلقكم وخلقهم .

ويا ليت الأمر توقف عند هذا الحد من السخرية ، إنما تعداه إلى أن يضحكوا من أهل الإيمان ، ويضحكوا أهلهم ﴿ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ [المؤمنون] وفي الآية الأخرى : ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين] وسخرية أهل الباطل من أهل الحق موجودة في كل زمان ، وحتى الآن نرى من يسخرون من أهل الاستقامة والدين والورع ويتندرون بهم ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ الْفَآئِزُونَ ﴾ [١١٣]

لما صبر أهل الإيمان على الاستهزاء والسخرية عوضهم الله تكريماً ونعياً ، وهذه مسألة يجب ألا يغفل عنها المؤمن حين يسخر منه أعداؤه ، عليه أن يتذكر عطاء ربه وجزاء صبره ، وإن كان الساحر منك عبداً له قدرته المحدودة ، فالمكرم بك ربك بقدره لا حدود لها ، ولك أن تقارن إذن بين مشقة الصبر على أديهم ، ولذة النعيم الذي تجده بعد ذلك جزاء صبرك .

﴿ قُلْ لَّيْسَ فِي الْأَرْضِ عِدَدُ سِنِينَ ﴾ [١١٤]

ليث : مكث وأقام ، فالمعنى ما عدد السنين التي ظللتموها في الأرض ، لكن لماذا هذا السؤال ؟

قالوا . لأن الذي شغلكم عن دين يضمن لكم ميعاداً خالداً ، وبعيداً باقياً هو الدنيا التي صرفتكم بزينتها وزخرفها وشهواتها

- وعلى فرض أنكم تمتعتم بهذا في الدنيا - فهو يُقَارَنُ بها أعدُ
للمؤمنين في الآخرة من النعيم امقيم الذي لا يفوتهم ولا يفوتونه ؟

والقيامة حين تقوم ستقوم على قوم ماتوا في ساعتهـا فيكون
بشهم قريباً ، وعلى أناس ماتوا من أيام آدم فيكون لبشهم طويلاً ،
ذن ، فاللبث في الأرض مقول بالتحكيك كما يقولون ، لكن هل يدركه
الأموات المدة التي لبثوها في الأرض ؟ معلوم أنهم لا يدركون الزمن ؛
لأن إدراك الزمن إنما يتأتى بمشاهدة الأحداث ، فالميت لا يشعر
بالزمن ، لأنه لا يعيش أحداثاً ، كالنائم لا يدري المدة التي نامها ،
وكلُّ مَنْ سئلَ هذا السؤال قال ﴿ بَرَّأً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ ﴾ (٢٥٩) ﴿ [البقرة]
قالها العُزَيْرُ الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه ، وقالها أهل الكهف
الذين أنامهم الله ثلاثمائة سنة وتسعاً ، لأن هذه هي أطول مدة يمكن
أن يتخيلها الإنسان لنومه ، ولا يستطيع للنائم تحديد ذلك بدقة ، لأن
الزمن أين الحدث ، فإن انعدم الحدث انعدم الزمن .

لذلك يقول تعالى عَنْ مَاتُوا حَتَّى مِنْ أَيَّامِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾ (٤٦) ﴿ [التارعات]

وكذلك يقول هؤلاء أيضاً في الإجابة على هذا السؤال .

﴿ قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴾ (١١٢) ﴿

أى . أصحاب العُدِّ الذين يمكنهم العُدُّ والحساب لأننا لم نكن في
وعينا لنعد كما لبثنا ، والمراد بالعادين هم الملائكة الذين يعدون
الأيام ويمسبونها .

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٤٦٠/٦) في معنى (العاديين) قولين

- الحساب الذين يحرفون ذلك . قال قتادة

- الملائكة الذين كانوا معاً في الدنيا . قال مجاهد

﴿ قَلَّ إِن لَّيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُثُرْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ١١٤

إِنْ : بمعنى ما ، يعنى : ما لبثتم إلا قليلاً ، فمهما قدرتم من طول الحياة حتى مَنْ مات منذ أيام آدم عليه السلام ، فسيكون قليلاً بالمقارنة بالزمن الذى ينتظركم فى الجزاء الآخرى ، فما لبثتموه فى الدنيا لا يُقاس بعذاب الآخرة المعتمد الباقى ، هذا ﴿ لَوْ أَنَّكُمْ كُثُرْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون] تعلمون طول ما تصيرون إليه من العذاب الخالد المقيم

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ١١٥

(حسبتم) ظننتم يعنى : ماذا كنتم تظنون فى خلقنا لكم ؟ كما قال فى موضع آخر ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت] وكلمة ﴿ عَبَثًا .. ﴾ [١١٥] [المؤميد] العبث هو الفعل الذى لا غاية له ولا فائدة منه ، كما تقول : هيم لعبث ؟ لمن يفعل فعلاً لا جدوى منه ، وغير العبث تقول : الجد ونقول : اللعب واللهو ، كلها أفعال فى حركات الحياة ، لكن اجد . هو أن تعمل العمل لغاية مرسومة .

أما اللعب فهو أن تعمل عملاً هو فى واقع الامر لا غاية له الآن إلا تَرْبِكَ أنت على الحركة وشغل ملكاتك حتى لا تتوجه إلى فساد شيء أو الإضرار بشيء ، كما تشتري لولدك لعبة يلعب بها ، وينشغل بها عن الأشياء القيِّمة فى المنزل ، والتى إن لعب بها حطَّمها ، فانت

تصرف حركاته إلى شيء لقمعها عن أشياء ضارة ، أو تعلّمه باللعب شيئاً يفيدّه فيما بعد ، كالسباحة أو ركوب الخيل .

واللهو كاللعب في أنه يكون لغاية قد تأتي بعد ، أو لغاية تنقضي ضرراً . إلا أن اللعب حين تزاوله لا يشغلك عن مطلوب ، أما اللهو فهو الذي يشغلك عن مطلوب ، فمثلاً الطفل دون السابعة يلعب في أوقات الصلاة ، فيُسمّى فعله لعباً ، لأن كان في العاشرة يُسمّى فعله لهواً ؛ لأنه شغفه عن الصلاة ، وهي واجبة عليه .

واللعب يُدربك على أشياء قد تحتاجها وقت الجد فتكون سهلة عليك . أما العبث فلا فائدة منه . لذلك قال سبحانه ﴿ وَالْحَسَنُ أَمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَرَبًا ۖ ۝ (١١٠) ﴾ [المؤمنون] فنفى أن يكون الخلق عبثاً بلا غاية ، لأن الله تعالى خلق الخلق لغاية مرسومة ، ووضع لهم منهاجاً يحدد هذه الغاية ، ولا يضع المنهج للخلق إلا الخلق .

كما قلنا سابقاً : إن الصانع الذي صنع هذا الميكروfon لم يصنعه ثم طلب منا أن نبحث له عن مهمة ، إنما قبل أن يصنعه حدد له مهمته والغاية منه ، وهي أن ينقل للصوت لمسافات بعيدة ، إذن : فالغاية مرسومة بداية وقبل العمل .

فالذي يحدد الغاية هو الصانع المبدع للشيء ، وهو أيضاً الذي يحدد صلاح الصنعة لغايتها ، ويحدد قانون صيانتها لتؤدي مهمتها على أكمل وجه . وأنت أيها الإنسان صنعة الله فدعّه يحدد لك غايتك ، ويضع لك منهج صيانتك وقانون صيانتك ، بافع كذا ولا تفعل كذا .

إنّ - فساد الدنيا يأتي من أن الصنعة تريد أن تأخذ حق الصانع في تحديد الغاية . وفي تحديد المنهج ، وقانون الصيانة ، وليس من مهمتها ذلك ، والخالق حينما يحدد لك الغاية يضع لك المنهج الذي

يُعينك على غايتك ، إنما أنت . متى تستطيع أن تدرك الأشياء لتضع غاية أو تضع قانون الصيانة ؟

إنك لا يمكن أن تبلغ هذا المبلغ قبل سن العشرين على أحسن تقدير ، فَمَنْ - إذن - يضع لك غايتك وقانون صيانتك قبل هذه السن ؟ لا أحدٌ خير خالقك عز وجل ، ولن يستقيم الحال إلا إذا تركنا الصُّنعة للصانع غايةً ومنهجاً وصيانة .

وكيف تظن أن الله تعالى خلقك عبثاً ، وهو الذي استدعاك للوجود وأعطاك لك مقومات حياتك وضرورياتها ، وحنك بإعمال عقلك في هذه المقومات لتستطيع أن ترقه بالطاقة والقدرة المخلوقة لله تعالى لتُسعد نفسك وترفع حياتك .

وقد كنا في الماضي نجلس على ضوء المسرحية ، والآن على أضواء الفنون والكريستال ، ومهما ترفهت حياتك وتوفرت لك وسائل الراحة فلا نسّ أنها عطاء من الله في المادة وفي الطاقة وفي العقل المفكر ، كلها مخلوقة لله عز وجل ، لا تملك أنت منها شيئاً بديل أن الله إذا سلبك العقل لصرت مجنوناً ، ولو سلبك الطاقة والقدرة لصرت ضعيفاً لا تستطيع مجرد التنفس ، فهذه نعم موهوبة لك ليست ذاتية فيك .

إذن عليك أن تتأمل في خالقك عز وجل ، وما وهبك من مقومات الحياة ، لتعلم أن هذا الخلق لا يمكن أن يكون عبثاً ، ولا بد أن له غاية رسمها الخالق سبحانه ، وأنت في ذاتك تحاول أن تضع لك غاية في جزئية ما من الغاية الكبرى التي خلقك الله لها

ألا ترى الولد الصغير كيف تعتنى به وتعلمه وتتفق عليه مرحلة بعد الأخرى ، حتى يصل إلى الجامعة ، وتتعلق أنت بأمل كبير في أن

يكون لولدك هذا مكانة في المجتمع ومنزلة بين الناس ؟ هذه العملية في حد ذاتها غاية ، لكن بعد أن يحصل على الوظيفة المرموقة والمكانة والمنزلة ينتهي الأمر بالموت .

إن لا بد من وجود غاية أخرى أعظم من هذه ، غاية لا يدركها الفناء ، وليس لها بعد ، هذه الغاية الكبرى هي لقاء الله وملاقاة الجزء ، إما إلى الجنة وإما إلى النار

وعلينا أن نأخذ كل مسائل الحياة وجزئياتها في ضوء هذه الحقيقة ، أننا لم نخلق عبثاً ، بل لغاية مرادة الله ، ولها أسباب توصل إليها

ثم يقول سبحانه ﴿وَأَنكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ [المؤمنون ١١٥] (تُرجعون) يعني رُغمًا عنكم ، ودون رادتكم ، كان شيئاً ما يسوقهم ، كما في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دُعًا﴾ [المائدة ١٣] يعني : يدفعون إليها ، ويضربون على أعقابهم ، ويساقون سوقاً الدواب .

﴿فَتَعَالَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [١١٦]

﴿فَتَعَالَى ..﴾ [المؤمنون ١١٦] تنزهه وتقدس ، وكلمة العلو تعني علو المنزلة . نقول علا فلان على فلان ، أما حين نقول تعالى الله ، فالمراد العلو الأعلى ، وإن وهب علواً للغير فهو علو الداني ، وعلو المتغير ، بدليل أنه تعالى يُعَلِّبُك ، وإن شاء سببك ، فالعلو ليس ذاتياً فيك .

وكلمة الملك نعرفها فيمن يملك قطعة من الأرض بمن فيها ويحكم
وبه رعية . ومن هذه المادة المالك . ويطلق على أي مالك لأي
شيء . ولو لم يكن لديه إلا الثوب الذي يلبسه فهو مالك ، أما الملك
فهو من يملك الذين يملكون ، فله ملك على المالكين ، وهذا الملك
لم يأخذ ملكه بذاته ، إنما بإيتاء الله له

لذلك يقول تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ
وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُقِلُّ مَنْ تَشَاءُ .. ﴾ [آل عمران]

قلو كان ملك هؤلاء الملوك ذاتياً ما تُزَع منهم . ألا ترى الملك من
ملوك الدنيا يقوى ويستتب له الأمر ، ويكون له سولجان ويطش
ولتت .. إلخ ، ومع كل هذا لا يستطيع الاحتفاظ بملكه ؟ وفي لحظة
ينهار هذا الملك ولو على يد جندي من جنوده ، بل وربما تلفته
بلائه ، ولا تقبل حتى أن يُدفن بها ، وتطوع له بعض الدول ، وتقبل
أن تُقارَى رفاته بأرضها ، فأي ملك هذا ؟

وهذه آية من الآيات نراها في كل عصر - وكانها قاضية - دليلاً
على صدق الآية . ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ
الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُقِلُّ مَنْ تَشَاءُ .. ﴾ [آل عمران] إذن
إن ملك الله فاعلم أنه ملك موهوب ، مهما استتب لك فلا تضمن
بقائه ، لأن الله تعالى ملكك لغاية ، ولا يملك الغاية إلا هو سبحانه

لذلك كان الحق - سبحانه وتعالى - ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. ﴾ [١٧٦]
[المؤمنون] يعني الذي لا يزعزعه أحد عن ملكه ، أو يسلبه منه ،
وهو الذي يتصرف في ملكه كيف يشاء لا ينازعه فيه أحد ، وإن
أعطى من ياطن ملكه تعالى ملكاً لأحد ، فيظل في يده سبحانه زمام
هذا الملك ، إن شاء بسطه ، وإن شاء سلبه ونزعه . فهو وحده الملك

الحق ، أما غيره فملكهم موهوب مسلوب ، وإن ملك سبحانه أناساً .
أمر أناس في الدنيا يأتي يوم القيامة فيقول ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ.. (١٦)﴾
[غانم]

وتلاحظ أن كلمة ﴿تُرَى الْمُلْكُ .. (١٦)﴾ [ال عمران] سهلة على
خلاف ﴿تَنَزَّ الْمُلْكُ .. (٧٦)﴾ [ال عمران] ، ففي النزح دليل على
المشقة والمعاناة ؛ لأن صاحب الملك يحاول أن يتمسك به ويتشبث
ويتنازع ، لكن أينازع الله ؟

نقوله سبحانه ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١٦٦)﴾ [المؤمنون]
المراد تعالى عن أن يكون خَلْقكم عبثاً ، وتعالى عن أن تُضربوا من
قبضته ، أو تخرجوا عن نفوذه ، أو تستقلوا بخلقتكم عن سيطرته ،
وتعالى أن تُفلتوا من عقابه أو تمتنعوا عنه ؛ لأنه لا إله غيره ؛
﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١٦٦)﴾ . [المؤمنون]

فالحق تبارك وتعالى يحكم في إطار ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ
الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) . لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإحلام]
فإذا قال لك شيئاً فاعلم أنه لا إله غيره يعارضه .

والعرش : رمز لاستتباب الأمر للمالك ؛ لأنه يشغل بتسيير ملكه
والقضاء على المناوئين له وقاديب أعدائه ، فإذا ما استتب له ذلك
جلس على عرشه ، إذن : الجلوس على العرش يعنى استقرار الأمور
واستتباب أمر الملك ؛ لذلك فإن الحق سبحانه بعد أن خلق الخلق
استقرى على العرش .

والعرش يفيد أيضاً السيطرة والتحكم ، وعرش الله عرش كريم ؛

لأنه تعالى عليك لا لئذلك وبهينك ، وإنما تعالى عليك ببعاليك إليه ويعطيك من فضله . كما سبق أن قلنا : إن من مصلحتنا أن يكون الله تعالى مُتَكَبِّراً ، ومن عظمة الحق سبحانه أن يكون له الكبرياء ، فساعة يعلم الجميع أن الكبرياء لله وحده لا يتكبر أحد على أحد

يقول الحق سبحانه ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤٧) [الجنثية]

لذلك يقولون في الأمثال : (اللى ملوش كبير يشتري له كبير)
يعنى : ليس بشئ في ظله ، فالحق - تبارك وتعالى - يتعالى لصالح خلقه .

ومن ذلك ما قلناه في مسألة العبودية ، وأنها مكروهة ثقيلة إن كانت للبشر : لأن السيد يأخذ خير عبده ، إنما هي محبوبة إن كانت لله تعالى : لأن العبودية لله يأخذ العبد خير ربه .

فإن كانت عروش الدنيا للسيطرة والتخكم في مصائر الناس وامتصاص دمائهم وأخذ خيراتهم ، نعرش ربك عرش كريم ، والكريم في كل شئ أشرف غاياته ، اقرأ قوله تعالى ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) [الأنفال]

وحين يوصينا بالوالدين ، يقول سبحانه ﴿وَلَا تَهْرَبْنَاهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) [الأنفال]

فالعرش الكريم أشرف غايات العنك : لأن لعنك ليس تسلطاً وقهراً ، إنما هو ملك لصالح لناس ، والحق - تبارك وتعالى - حينما خلق الحياة بذرع فيها أسباب الفضل ، ولكنه جعل فيها القوى القدر ، وجعل فيها الضعيف العاجز ، ثم أمر القوى أن يأخذ بيد الضعيف ،

وَأَنْ يَعُولَهُ ، فَالْكَرَمُ اسْتِطْرَاقُ نَفْعِ الْقَوَى لِلضَّعِيفِ ، فَكُلُّ خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ تُوصَفُ بِالْكَرَمِ .

إِذَنْ إِيَّاكَ أَنْ تَقْهَمَ أَنَّ عَرْشَ رَبِّكَ لِلْسَّيْطَرَةِ وَالْعُلُوِّ وَالْجَبَرُوتِ ، لِأَنَّهُ عَرْشُ كَرِيمٍ .

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٧)

﴿يَدْعُ مَعَ اللَّهِ .. (١١٧)﴾ [الْمُؤْمِنُونَ] يَعْنِي : يَعْبُدُ مَعَ اللَّهِ ، وَالْعِبَادَةُ طَاعَةُ الْمَعْبُودِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، لَكِنْ كَيْفَ تَدْعُو إِلَهًا ، لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، وَلَا يَرْهَانُ عِنْدَكَ عَلَى الْوَهْيَةِ ؟ لِذَلِكَ هَدَدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَوَعَّدَهُ بِقَوْلِهِ ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ .. (١١٧)﴾ [الْمُؤْمِنُونَ] أَيْ رَبِّهِ الْحَقُّ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٧) [الْمُؤْمِنُونَ]

وَعَجِيبٌ أَنْ تَبْدَأَ السُّورَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) [الْمُؤْمِنُونَ] وَتَنْتَهِيَ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٧) [الْمُؤْمِنُونَ] أَيْ : يَنْقِضُ مَا بَدَأَتْ بِهِ ، وَعَلَيْكَ أَنْتَ أَنْ تَسْأَلَ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْقَوْسَيْنِ ، وَمَا نَامَتْ الْمَسْأَلَةُ مَسْأَلَةَ إِيْمَانٍ بِفُلْحِ أَهْلِهِ ، وَكَفَرٍ لَا يَفْلِحُ أَهْلُهُ ، فَتَمَسَّكُوا بِرَبِّكُمْ ، وَالتَّزَمُوا مِنْهُجَهُ فِي (الْفِعْلِ) وَ (لَا تَفْعَلْ) .

وَأَنَّ غَلَبَتَكُمْ النَّفْسُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الذَّنُوبِ فَتَذَكَّرُوا .

﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنِي وَأَرْحَمِ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١١٨)

إن هفوتكم هبة فإياكم أن تنسوا هذه الحقيقة ، والجنوا إلى ربكم فإنه غفار شرع لكم التوبة لتتوبوا ، والاستغفار لتستغفروا ، وهو سبحانه أرحم بكم من الوالدة بولدها ، وهو خير الراحمين .

والمعني ﴿اغْفِرْ ..﴾ (١١٨) [المؤمنون] أي ، الذنوب السابقة الماضية ﴿وأرحم﴾ (١١٨) [المؤمنون] أي أرحمنا أن نقع في الذنوب فيما بعد ، واعصمنا في مستقبل حياتنا من الزلل ، إذن : تمسك بربك وبمنهج ربك في كل حال ، لا يصرفك عنه صارف .

سورة النور

سورة النور^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَلَتْنَ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾

اسمها سورة (النور)^(٢) ، وإذا استقرنا موضوع المُسمى أو
المُغْنَى به بسورة (النور) تجد النور شائعاً في كل أعضائها - لا أقول
آياتها ولا أقول كلماتها - ولكن النور شائع في كل حروفها ، لماذا ؟

قالوا لأن النور من الألفاظ التي يدل عليها بلفظها ويعرفها أكثر
من أي تعريف آخر فالناس تعرف النور بمجرد تُلَقُّ هذه الكلمة ،
والنور لا يُعرَّف إلا بحقيقة ما يؤيد ، وهو ما توضح به المراتبات ،
وتتجلى به الكائنات ، فلو لا هذا النور ما كنا نرى شيئاً .

لأن يُعرف النور بخاصيته ، وهو الذي يجعل لك قدرة على أن

(١) سورة النور ، في السورة رقم ٢٤ في ترتيب المصحف الشريف وتقع في الجزء الثامن
عشر من المصحف ، وفي سورة مدنية بالإجماع قاله القرطبي في تفسيره (٤٦٩٢/٦) ،

برك بعد سورة النور والجل سورة الحج ، وفي السورة رقم ١٧ في ترتيب الآيات
بالمدينة ، راجع « الإتيان في علوم القرآن » للسيوطي (٢٧/١) وعدد آياتها ٦٤ آية

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤٦٩٢/٦) « مقصود هذه السورة ذكر أحكام الحجاب
والستر ، وكتب عمر رضي الله عنه إلى أهل الكوفة « أطوا ثيابكم بسورة النور »

تري المړثيات ، بديل أنها إن كانت في ظلمة لا تراها إذن فالنور لا يُرى ، ولكن نرى به الأشياء . فالله تعالى نور السموات والأرض يُنورهما لنا ، لكن لا نراه سبحانه .

لكن ، هل كل الأشياء مرئي ؟ أليس منها المسموع والمشعوم والمتنوّق ؟ قالوا . نعم ، لكن الدليل الأول على كل هذه وفعل الحوادث هي المړثيات ؟ لأن كل أدلة الكون مرئية نراها أولاً ، ثم حين نسمع ، وحين نشم ، وحين نلمس ، وحين تميز الثقيل من الخفيف ، أو القريب من البعيد . فهذا كله فرع ما يوجد فيك ، بعد ما تؤمن أن الله الذي أوجدك هو الذي أوجد لك كل شيء ، فلما ما نظرت إلى النور وجدت النور أمراً حسياً ترى به الأشياء .

وكانوا في الماضي يعتقدون أن الإنسان يبصر الأشياء بشعاع يخرج من العين ، فيسقط على الشيء فتراه ، إلى أن جاء العالم الإسلامي الحسن بن الهيثم ، وأبطل هذه النظرية وقال : إن الشعاع يأتي من المړثي إلى العين فتراه ، وليس العكس ، واستدل على ذلك بأن الشيء إن كان في الظلام لا نراه ، ونحن في النور ، فلو أن الشعاع يخرج منك لرأيت .

وفي ضوء هذه النظرية فهمنا قوله تعالى . ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ الْنُّهَارِ مُبْصِرَةً ۚ ۞ [الإسراء] فهي مُبْصِرَةٌ ، لأن الشعاع يأتي من هناك ، فكانها هي التي ترى .

لكن ، ما نفع هذا النور الحسي للإنسان الخليفة في الأرض ؟ أنت حين ترى الأشياء تتعامل معها تعاملأ يعطيك خيرها ويكفّ عنك شرها ، ولو لم تَرَ الأشياء ما أمكنك التعامل معها وإلا فكيف تسير في مكان مظلم فيه ما يؤذيكَ مثل الثعابين أو زجاج متكسر ؟

إذن لا تستطيع أن تهتدي إلى مواضع قدمك ، وتأخذَ خمير الأشياء ، وتتجنب شرها إلا بالنور الحسي ، كذلك إن سرت في ظلمة وعلى غير هدى فلا بد أن تصطدم بالقوى منك فيخطئك ، أو بأضعف منك فتحطمه .

لذلك سمى الحق - تبارك وتعالى - المنهج الذي يهديك في دروب الحياة نوراً .

والناس حين لا يرجد النور الرباني الإلهي يصنعون لأنفسهم أنواراً على قدر إمكاناتهم وبيئاتهم بداية من المرسجة ولمبة الجاز ، وكان الناس يتفاوتون حتى في هذه - حتى عصر الكهرباء والفلوروسنت والنيون وخلافه من وسائل الإضاءة التي يتفاوت فيها الناس تفاوتاً كبيراً - هذا في الليل ، فإذا ما أشرقت الشمس أطفأ الجميع أنوارهم وصايبهم ، لماذا ؟ لأن مصباح الله قد ظهر واستوى فيه الجميع لا يميز فيه أحد عن أحد .

وكذلك النور المعنوي نور المنهج الذي يهديك إن كان الله فيه توجيه ، فأطفىء مصابيح توجيه البشر لا يصح أن تستضيء بنور وفور ربك موجود ، بل عليك أن تبادر وتأخذ ما تقدر عليه من نور ربك ، فكما أخذت نور الله الحسي فأنغيت به كل الأنوار ، فخذ نور الله في القيم ، خذ نور الله في الأخلاق وفي المعاملات وفي السلوك يغنيك هذا عن أي نور من أنوار البشر ومناهجهم .

الآن ترى النمرود كيف بهت حينما قطع عليه إبراهيم - عليه السلام - جدله والجهاد إلى الحجّة التي لا يستطيع الفكك منها ، حين قال له ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ بِأَنَّى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ۖ ﴾ (٢٥٨) [البقرة]

والحق - تبارك وتعالى - يفيض من أنواره وصفات كماله علي خلقه الذين جعلهم خلفاء له سبحانه في الأرض ، فقال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ۝ (٢) ﴾ [البقرة] والخليفة في الأرض ليس جيلاً واحداً خلقه الله واستخلفه في الأرض إلى قيام الساعة ، إنما الخليفة أجيال وانسلا تتوالى ، يموت واحد ويولد آخر في حلقات موصولة الانسلا لا الذوات .

والخليفة لا ينتج في خلافته إلا إذا سار فيها على وفق مراد من استخلفه ، وآفة الناس في خلافتهم لله في الأرض أن يعتبروا أنفسهم أصلاء لا خلفاء ، فالخليفة في ذاته دائماً هذه الخلافة ، لذلك يلتفت إلى الأصل ، وينظر ماذا يريد منه من استخلفه .

والحق - تبارك وتعالى - جعل له خليفة في الأرض لتظهر عليه سمات قدرته تعالى وصفات كماله ، فذلك تعالى قادر ، الله عالم ، الله حكيم ، الله غنى ، الله رحيم ، الله غلور .. الخ وهو سبحانه يعطى من صفاته ويفيض منها على خلقه وخليفته في أرضه بعضاً من هذه الصفات ، فيعطيك من قدرته قدرة ، ومن رحمته رحمة ، ومن غناك غنى ، لكن تظل الصفة في يده تعالى إن شاء سلبها ، ألا ترى القوى قد يصير ضعيفاً ، والغنى قد يصير فقيراً ؟

ذلك لنعلم أن هذه الصفات ليست ذاتية فينا ، وأن هذه الهبات ليست أصلاً عندنا ، إنما هي فيض من فيض الله وهبة من هباته سبحانه ، لذلك علينا أن نستعملها وفق مراده تعالى ، فإن أصطاك ربك القدرة فإتماً أماض بها عليك لتقيض أنت بها على غيرك ، أعطاك العلم لتنتشره على الناس ، أعطاك الغنى لترعى حق الفقير .

إذن . ما دام أن الله تعالى أفاض عليك من صفات الكمال واحتفظ

هو سبحانه بملكية هذه الصفات ، فإن شاء سلّبها منك ، فعليك أن تستغل الفرصة وتنتهز وجود هذه الخصلة عنديك ، فتتجرها فيما أراد الله منك قبل أن تُسلّب ، حتى إذا سلّبت منك نالتك من غيرك .

فتصدق وأنت غني لئلا صدقة الآخرين إن أصابك الفقر ، وأكرم اليتيم لتجد من يكرم يتيمك من بعدك ، فإن قابض أحداث الحياة بهذه الخطرة اطمان قلبك ، وأمّنت من حوادث الزمن ، واستقبلت الأحداث بالرضا ، وكيف تهتم وأنت في مجتمع يرعاك كما رعيتك ، ويصملك كما حملته ، ويتعاون معك كما تعاونت معه ؟

وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَوَكَّلُوا مِنْ خَلْقِهِمْ ذُرِّيَّةً مُبْعَاةً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقْرَأُوا قَوْلًا مُبِيداً ﴾ [النمل]

إذن . الحق - تبارك وتعالى - يريد من خليفته في أرضه أن يكون جماعاً لصفات الكمال التي تسعد الخلق بآثار الخلق فيهم ، وهذه هي الخلافة الحقة .

وسورة النور جاءت لتجمل نور المعنويات ، نور القيم ، نور التعامل ، نور الأخلاق ، نور الإدارة والتصرف ، وما دام أن الله تعالى وضع لنا هذا النور فلا يصح للبشر أن يضيعوا لأنفسهم قوانين أخرى ، لأنه كما قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور] فلو لم تكن هذه الشمس ما استطاع أحد أن يصنع لنفسه نوراً أبداً .

فالحق - تبارك وتعالى - يريد لخليفته في أرضه أن يكون طاهراً شريفاً كريماً عزيزاً ؛ لذلك وضع له من القوانين ما يكفل له هذه الغاية ، وأول هذه القوانين وأهمها قانون التقاء الرجل والمرأة التقاء سليماً في وضوح النهار ؛ لينتج عن هذا اللقاء نسل طاهر جدير

بخلافه الله في أرضه ، لذلك أول ما تكلم الحق سبحانه في هذه السورة تكلم عن مسألة الزنى

والعجيب أن تأتي هذه السورة بعد سورة (المؤمنون) التي قال الله في أولها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون] ثم ذكر من هؤلاء المؤمنين المفلحين ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ قُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون] وهذا قال : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي .. ﴾ [النور] فجاء بالمتقابل للذين هم لغروبهم حافظون

نفهم من هذا أنه لا يلتقى رجل وامرأة إلا على نور من الله وهدى من شريعته الحكيمة ، لأنه عز وجل هو خالق الإنسان ، وهو أعلم بما يصلحه ، وهو خالق ذراته ، ويعلم كيف تتسجم هذه الذرات بعضها البعض ، وهو سبحانه خالق ملكات النفس ، ويعلم كيف تتعايش هذه الملكات ولا تتنافر .

إذن . طبعي إن أردت أن تمشي خليفة في الكون على غير موكب الله وعلى غير مواصفات الحق ، لا بد أن يضطرب الكون وتنتصرع فيه ملكات النفس ، وماذا تنتظر من هذا الخليفة إن جاء في الظلام ؟ ساعتها تظهر أمراض النسل من وآد الأولاد وقتلهم حتى في بطون الأمهات ، وقد يشكك الرجل في ولده ، فيبغضه ويهمله ويتركه للتشرد .

إذن . لن تستقيم هذه المسألة إلا حين يأتي الخليفة وفق مواصفات ربه ، وأن يلتقى الزوجان على ما شرع الله في وضع النهار ، لا أن يندس كل منهما على الآخر في ظلمة الإثم ، فيحدث المحذور الذي تضلط به الأنساب ، ويتفكك رباط المجتمع .

إن من أقسى تجارب الحياة على المرأة أن يشك في نسبة ولده إليه ، وأن تعتصمه هذه الفكرة ، فيهمل ولده ولذة كبده ، وينفق منها

وهناك ويحرمه على خلاف النسل الطاهر ، حيث يتلف الأب لولده ، ويجوع ليضجع ، ويتعرى ليلبس .

فالحق سبحانه يريد النسل المعصرون بالأبوين في أبوة صحيحة شرعية وأمومة صحيحة شرعية اجتماعا على نور الله .

ولك أن تجرى مقارنة بين امرأة حملت سفاحاً وأخرى حملت حملاً شرعياً طاهراً ، ستجد الأولى تجعله على مضض وكُرْه ، وتود أن تتخلص منه وهو جنين في بطنها ، فإن تحاملت على نفسها إلى حين ولادته تخلّصت منه في ليلتها ولو بالقائه على قارعة الطريق .

أما صاحبة الحمل الشرعي فتتلفب على الولد ، وإن تأخر بعض الوقت صارت قلقة تدور بين الأطباء ، فإن أكرمها الله بالحمل طارت به فرحاً وفخراً ، وحافظت عليه في مشيها وحركاتها ونومها وقيامها إلى حين الوضع ، فتتحمل آلامه راضية ثم تحتضنه وترضعه وتعيش حياتها في خدمته ورعايته .

فالله يريد أن يأتي خليفته في أرضه من إخصاب طاهر على أعين الناس جميعاً وفي نور الله المعنوي ، يريد للزوج أن يأتي من الباب في ضوء هذا النور ، لا أن يتلصص في الظلام من باب الخدم .

لذلك يتوعد الحق - سبحانه وتعالى - مَنْ يخالف هذا المنهج ويريد أن يفسد شرف الخلافة التي يريد الله طاهرة ، ويدنس النسل ، ويوغر الصدور بالأحقاد والعداوات ، ويزرع الشك في نفوس الخلق ، وجرأثم العرض لا يقتصر خيرها على العداوات الشخصية إنما تتعدى هذه إلى الإضرار بالمجتمع كله .

وانظر إلى الإيدز الذي يهدد المجتمعات الآن ، وهو ناتج عن

الالتقاء غير الشرعي ، وخطر الإيدز لا يقتصر على طرفيه إنما يتعداهما إلى الغير ، إذن : من صالح المجتمع كله أن نقيم حد الزنا حتى لا يستشري هذا الداء

ونعجب من هؤلاء الذين يهاجمون شرع الله في مسألة الحدود حين تنطوي برّجُم الزاني المحصّن حتى الموت ، ألا يعلم هؤلاء أننا نُضَيّ بواحد لحفظ سلامة الملايين في صحة وعافية ؟ ألا يدرون ما يحدث مثلاً في ولاء الطاعون الذي أعجز العلماء حتى الآن ، ولم يجدوا له علاجاً ، وكيف أن المشرع أمرنا أن نزل الطاعون بأرضه ألا نذهب إليها ، وأمر من فيها ألا يخرجوا منها ، لماذا ؟ لنحصر هذا الوباء حتى لا يستشري بين الناس .

كذلك الحال في مسألة الزنا ؛ لأن الزاني لا يقتصر شره عليه وحده ، إنما يتعدى شره إلى المجتمع كله ، مع مراعاة أن المشرع فرق بين الزاني المحصّن وغير المحصّن ، وكذلك الزانية ، ففي حالة الإحصان تتعدد المآلات في المكان الواحد ، لذلك سئلنا في سان فرانسيسكو لماذا أبغتم تعدد الزوجات ، ولم تبيحوا تعدد الأزواج ؟ هذا منهم على سبيل قياس الرجل على المرأة . لماذا لا تتزوج المرأة وتجمع بين أربعة رجال ؟

قلت - أسألهم ، أليس عندهم أماكن يستريح فيها الشباب جنسياً يعني بيوت الدعارة - قالوا : نعم في بعض الولايات ، قلت . فيماذا احتظمت لصحة المجتمع وسلامته ؟ قالوا نُجرب عليهم كشفاً دورياً كل أسبوع ، قلت : وهل هذا للكشف الدوري يستوعب الجميع ؟ أم أنه مجرد (ششن) وعينات عشوائية .

إذن من الممكن أن يتسرّب المرض بين هؤلاء الشباب ، وهبْ

أنك أجريت على هذا من الكشف يوم الأحد مثلاً ، وفي يوم الاثنين جاءها المرض ، فإلى كم واحد سينتقل المرض إلى أن يأتي لأحد القادم ؟ فهذه مسألة لا تستطيع السيطرة فيها على الداء .

ثم أتجهرون هذه الفحوصات على المتزوجين والمتزوجات ؟ وهل اكتشفتم بينهم مثل هذه الأمراض ؟ قالوا : لا لم يحدث أن اكتشفنا هذا بين المتزوجين . قلت : إذن كان عليكم أن تقتبها إلى سبب هذه الداءات ، وأنها تأتي من تعدد مآلات الرجال في المكان الواحد ، لأن لكل ماء سياله وله ميكروبات تتصارع ، إن جتمعت في المكان الواحد فينشأ منها المرض .

لكن حين يكون للزوجة زوج واحد ، فلن يرى مثل هذه الداءات في المجتمع ، ومن هنا يأتي دور الوازع الديني ، فإن فقد الوازع الديني فلا بد من الوازع الحسي ليجر مثل هؤلاء ويوقفهم عند حدود الله رغماً عنهم ، حتى وإن لم يكونوا يؤمنون بها .

إذن ، هذه القضية ومشاكل وداءات حدثت للناس بقدر ما أحدثوا من الفجور ، ويقدر ما انتهكوا من حُرُمات الله ، وانظر مثلاً لمن يضطر لسفر إلى مثل هذه البلاد ، كم يكون حذراً مُقَرَّعاً حين يقيم مثلاً في فندق ، فيأخذ أدواته الشخصية ، ويخاف أن يستعمل أشياء غيره ، ويحرص على نظافة المكان وتغيير الفراش قبل أن ينام عليه . الخ كل هذه الاحتياطات .

فالشرع حين يأمر بقتل الزاني أو الزانية إنما فعل ذلك ليسلم المجتمع بأسره ، وكثيراً ما نواجه مثل هذه الاهتراضات من أصحاب الرحمة للحققاء والشعاعات الجوفاء ، أفم أرحم بالخلق من الخلق ؟ ألا يرون للزلازل أو لحوادث السيارات والطائرات التي تحصد الآلاف

من الأرواح ؟ فلماذا هذه الضجة حين نبتز العضو المريض من المجتمع ؟

قوله تعالى : ﴿سُورَةُ النُّورِ أُنزِلَتْهَا وَلَفَرَّجْنَاَهَا .. (١)﴾ [النور] السورة . مأخوذة من سور البيت ، وهي طائفة من نجوم القرآن أو آياته مسحوبة ببداية ونهاية ، تعمل أحكاماً وقد تكون طويلة كسورة البقرة ، أو قصيرة كالإخلاص والكوثر ، فليس للسورة كمية مفضوضة ؛ لأنها توقيفية

﴿أُنزِلْنَاهَا .. (١)﴾ [النور] منهم من أنزل أن الإنزال من أعلى إلى مَنْ هو أدنى منه ، كما يكتب الموظف مثلاً يريد التغلُّم لرئيسه ، أرفع إليك كذا وكذا ، فيقول الأعلى وأنا أنزلت القرار الفلاني ، فالأدنى يرفع للأعلى ، والأعلى يُنزل للأدنى .

لذلك يقول تعالى : (أنزلنا) حتى للشيء الذي لا ينزل من السماء ، كما قال سبحانه : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] فالحديد وإن كان مصدره الأرض ، إلا أنه لا يكون إلا بقدرة الأعلى سبحانه .

﴿وَفَرَّجْنَاهَا .. (١)﴾ [النور] الشيء المبروض يعني الواجب أن يعمل ، لأن المشرِّع قاله وحكم به وقدره ، ومنه قوله سبحانه ﴿فَقِصْفٌ مَّا فَرَضْتُمْ .. (٢٣٧)﴾ [البقرة] أي نصف ما قدرتم ، إذن كل شيء له حكم في الشرح ، فإن الله تعالى مقدِّره مقدِّراً حكيماً على قدره .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١)﴾ [النور] الآيات الواضحات ، وتُطلق الآيات - كما قلنا - على الآيات الكونية التي تلت أنظارنا إلى قدرة الله وبديع صنَّعه ، وتُطلق على المعجزات التي تثبت صدق الرسل ، وتُطلق على آيات القرآن الحاملة للأحكام

وفي هذه السورة كثير من الأحكام إلى أن قال فيها الحق سبحانه : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٢٥)﴾ [النور] وقال . ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ .. (٢٦)﴾ [النور] فطالما أنكم أخذتم نور البنية ، وأقررتُم أنه الأحسن ، وأنه إذا ظهر الشيء جميع أنواركم ، فكذلك خذوا نور التشريع واعملوا به واعلموا أنه نور على نور .

إن من لديكم من الله نوران نور حسي ونور معنوي . . .
﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٦)﴾ [السر] بعد أن قال سبحانه أنزلت كذا وكذا أراد أن يلهب العضاير لتستقبل آياته الاستقبال الحسن ، وتطبق أحكامه التطبيق الأمثل يقول . أنزلت إليكم كذا لعلمكم تذكرون ، ففيها حثٌ وإلهابٌ لتستفيد بتشريع الحق للخلق

ثم يتحدث الحق سبحانه عن أول قضية فيما فرضه على عباده .

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَلَيْهِمَا ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٤)﴾

قلت " إن الحق سبحانه تدول هذه المسألة حرصاً على سلامة النشء وطهارة هذا الإنسان الذي جعله الله خليفة له في الأرض ، وحين نقامل السياق القرآني في هذه الآية نجد أن كتلة الزاني تدل على كُلٍّ من الأنثى والذكر ، فهي اللفظة الاسم الموصول . الذي للمفرد المذكر ، والتي للمفردة المؤنثة ، والذات للمثنى المذكر ، والذات للمثنى المؤنث ، والذين لجمع الذكور ، واللاتي لجمع الإناث .

لكن هناك أسماء تدل على كل هذه الصيغ مثل . مَنْ ، مَا ، آل

تقول . جاء مَنْ أكرمتي . وجاءت من أكرمتني . وجاء من أكرموني .
فكذلك (ال) في (الزاني) تدل على المؤنث وعلى المذكر ، لكن
الحق سبحانه ذكرهما صراحةً لِيُزيلَ ما قد يحدث عند البعض من
خلاف : أيهما النسب في هذه الجريمة . هذا الخلاف الذي وقع فيه
حتى الأئمة والفقهاء . فهناك مَنْ يقول الزاني واطئ وفاضل ، والمرأة
موطوءة ، فالفعل للرجل لا للمرأة ، فهو وحده الذي يتحمل هذه
النتيجة .

لذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه يمكن أن رجلاً ذهب
للنبي ﷺ وقال : يا رسول الله وطئت امرأة في رمضان . فقال له
النبي ﷺ : « كُفِّر » (١)

وأخذ الشافعي من هذا الحديث أن الكفارة إنما تكون على الرجل
دون المرأة ، وإلا لقان له الرسول . كُفِّرَا .

لكن يجب أن نفرق بين وطئ وجامع . الوطء فعل الرجل حتى وإن
كانت الزوجة كارهة رافضة ، أما الجماع فهو حال الرضا والقبول من
الطرفين . وفي هذه الحالة تكون الكفارة عليهما معاً : لذلك صرح الحق
تبارك وتعالى بالزاني والزانية لِيُزيلَ هذه التشبهة وهذا الخلاف

وأرى في هذه المسألة أن الذي استفتى رسول الله هو الرجل ،
ولو كانت المرأة لقال لها أيضاً : كُفِّرِي ، فالحكم خاص بمن استفتى

والمعامل في آيات الحدود يجد مثلاً في حد السرقة قوله تعالى

(١) هي عائشة رضي الله عنها أنها قالت : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : اختزنت قال
رسول الله ﷺ : لم ؟ قال : وطئت امرأة في رمضان نهاراً قال : « تسديق . تسديق . »
قال : ما حدثني شيء . فأمره أن يجلس . فقامه هرقان فيهما طعام فأمره رسول الله ﷺ
أن يتصدق به . أخرجه مسلم في صحيحه (١١١٢)

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ .. (٣٨) [المائدة] فبدأ بالمذكر ، أما في حَدِّ الزَّنا فقال : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ .. (٤١) [النور] فبدأ بالمؤنث ، لماذا الاختلاف في التعبير للقرآني ؟

قالوا : لأن دور المرأة في مسألة الزنا أعظم ومدخلها أوسع ، فهي التي تخرى الرجل وتثيره وتهيج عواطفه ؛ لذلك أمر الحق - تبارك وتعالى - الرجال بقَضِّ البصر وأمر النساء بعدم إبداء الزينة ، ذلك ليسد ثوانذ هذه الجريمة ويمنع أسبابها

أما في حالة السرقة فعادةً يكون صبيء البففة ومؤنة الحية على كامل الرجل ، فهو المكلف بها ؛ لذلك يسرق الرجل ، أما المرأة فالعادة أنها في البيت تسبق ، وليس من مهمتها توفير تكاليف الحياة ، لكن لا مانع مع ذلك أن تسرق المرأة أيضاً ؛ لذلك بدأ في السرقة بالرجل .

إذن ، بمقارنة آيات القرآن تجد الكلام موزوناً دقيقاً غاية الدقة ، لكل كلمة ولكل حرف عطاؤه ، فهو كلام رب حكيم ، ولو كانت المسألة مجرد تقنين عادي ما التفت إلى مثل هذه المسائل .

ثم يأتي الحد الرابع لهذه الجريمة ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً﴾ .. (٤٢) [النور] اجلدوا أمر ، لكن لمن ؟ لم يقل أيها الحاكم أو القاضي ، لأن الأمر هنا للامة كلها ، فأمر إقامة الحدود منوط بالامة كلها ، لكن أقتضض الامة بأسرها وتعددها بفعل واحد في كل مكان ؟

قالوا لامة مثل النائب العام لوالى ، عليه أن يختار من يراه أهلاً للولاية ليتخذ له ما يريد ، ومن ولى قاضياً فقد قضى ، وما دام الأمر كذلك فإياك أن تؤلى القضاء من لا يصلح للقضاء ؛ لأن لتبعية - إذن - ستكون عينك إن ظلم أو جار فالواو والالف في

﴿فاجلدوا﴾ [٢٠] [البقرة] تدل على معان كبيرة ، فالامة في مجموعها لا تستطيع أن تجلد كل زان أو زانية ، لكن حين تولي امامها بالبيعة ، وحين تختاره ليقوم حدود الله ، فكانها هي التي اقامت الحدود وهي التي نفذت .

لذلك النبي ﷺ يقول : مَنْ وَلَّى أَحَدًا أَمْرًا وَفِي النَّاسِ خَيْرٌ مِنْهُ لَا يَشْمُ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ (١)

لماذا ؟ لانك حين تولي أمور الناس مَنْ لا يصلح لها في وجود مَنْ يصلح إنما تُشيع الفساد في المجتمع ولا تظن أنك تستطيع أن تخفي شيئاً عن أعين الناس ، فلهم من الوعي والانتباه ما يُفرّقون به بين الكفء وغيره ، وإن سكتوا وتغافلوا فإنهم يقسأئون من ورائك . لهذا ولّى هذا ، وترك مَنْ هو أكفأ منه : لأبْدُ أن له مؤهلات أخرى ، دخل بها من الباب الخلفي . ولماذا لا نفعل مثله ؟ عندها تسود الفوضى وتضيع الحقوق وينتشر الإحباط والتكاسل والخصول ، ويحدث خلل في المجتمع وتتعطل المصالح .

ومع هذا كله لا نستطيع أن نلوم الرأى حين يختار مَنْ لا يصلح قبل أن نلوم أنفسنا أولاً ، فمن الذين اخترناه ودلّسنا في البيعة له ، فسأله الله علينا ليُدّلس هو أيضاً في اختياره ، أمّا لو أدّى كل منا واجبه في اختيار مَنْ يصلح ما وصل إلى مراتب القيادة مَنْ يدلس على الناس ، وبذلك تستقيم الأمور ، ويتقرب الإنسان للولاية بالعمل وبالجد والإخلاص والأمانة والصدق والتفاني في خدمة المجتمع .

(١) عن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأنكر عليهم أمراً محاباة فعله لئلا لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخل جهنم ، أخرجه أحمد في مسنده (٦/١)

ومن رحمة الله تعالى بالخلق أن يقذف الإخلاص وحب العمل ويزرع الرحمة بخلق في بعض القلوب ، لذلك ترى في كل مصلحة أو في كل مكتب موظفاً متواضعاً يحب للناس ويحرص على قضاء مصالحهم ، تراه يرتدى نظارة سميكة يرى من خلالها بصعوبة ، وهو دائماً مُنكب على الأوراق والملفات ، ويقصده الخلق لقضاء مصالحهم : يا فلان امدي ، اعطني كذا ، واكتب لي كذا ، وقد رسع الله صدره للناس فلا يرد أحداً .

هذه المسائل كلها نفهمها من الواو والالف في ﴿فَاجْلِسُوا ..﴾ (٧) [النور] أما الجلد فهو الضرب ، نقول ، جلده ، يعني ضرب جلده ، ورأسه : يعني ضرب رأسه ، وظهره ، ضرب ظهره ، والجلد ضَرْبٌ بكيفية خاصة ، بحيث لا يقطع لحماً ولا يكسر عظماً : لأن الضربة حسب قوتها وحسب الآلة المستخدمة في الضرب ، فمن الضرب ما يكسر العظم ولا يقطع الجلد ، ومنه ما يقطع الجلد ولا يكسر العظم ، ومنه ما يؤلم دون هذا أو ذاك

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ..﴾ (٧) [النور] تحذير من الرحمة الحمقاء ، الرحمة في غير محلها ، وعلى حد قول الشاعر .

فَقَسَا لِيَنْجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

فالرأفة لا تكون في حدود الله ، أراقوا بهم في مسائلكم الخاصة فيما بينكم ، وعجيب أن تدعوا الرأفة في مسائل الحدود وأنتم من ناحية أخرى تضربون وتسرقون أموال الناس ، وتنتهكون هوماتهم ، وتثيرون بينهم الفتنة والحروب ، فأين الرأفة إذن ؟

إذن : لا مجال للرحمة والرأفة في حدود الله ، فلسنا أرحم بالخلق

من الخالق ، وما وُضعت الحدود حباً في تعذيب الناس ، إنما وُضعت
وشُدُّد عليها لتمنع الوقوع في الجريمة التي تستوجب الحد ، ففُطِعَ يد
واحدة تمنع فُطْعَ آلاف الأيدي .

والذين يتهمون الإسلام بالقسوة والبشاعة في تطبيق الحدود
أنسُوا ما فعلوه في هيروشيما ، وما زالت آثاره حتى الآن ؟ أنسوا
الحروب التي بشعلونها في أنحاء العالم ، والتي تحصد آلاف الأرواح ؟
أمي الرحمة الحقاء التي لا معنى لها ؟ أم هي الكراهية لحدود الله ؟

ونذكر في الماضي أنه كان يخرج مع فوج الحجيج قوة حماية
وحراسة من الجيش ، تحمي الحجيج من قطاع الطرق ، وكانوا
يُسَمُّونَ بعثة الحج هذه (المحمل) ، فلما أقامت السعودية حكم الله
وطبقت الحدود أمُنت الطرق ، واستغنى الناس عن هذه الحراسات مع
اتساعها وتشعب طرقها ووعورتها بين الجبال والوديان والصحاري
الشاسعة التي لا يمكن أن تحكمها أو تحرسها عَيْنُ بشر ، لا بدُّ لها
من تقنين الخالق عز وجل .

ومع ذلك حين أحصوا الأيدي التي قُطعت وجدوها قليلة جداً ،
وأغلبها من خارج المملكة - وأذكر أنني قلت مرة في خطبة عرفة .
ارجعوا إلى حكامكم وقولوا لهم . اقتطعوا يد السارق ، فالذي لا يقطع
يد السارق في نيته أن يسرق ، لذلك يحاف على يده ، فحين تذكر له
مسألة قُطْع يد السارق ترتجف يده . والذين يعارضون حدود الله هم
أنفسهم يسكرون على مبدأ أن هلاك الثلث جائز لإصلاح الثلثين ، لكن
تقف حدود الله قُصَّة في حلقهم .

واجلد مائة جلدة يخص الزاني غير المحصن يعني غير المتزوج ،
أما المتزوج فله حكم آخر لم يأت في كتاب الله ، إنما أتى في سنة

سُورَةُ النُّورِ

﴿١٠١﴾

رسول الله ﷺ ، ذلك لأن القرآن الكريم ليس كتاباً منهجاً فقط ، إنما كتاباً منهجاً ومعجزة ومعاً أصول ، من هذه الأصول أنه قال في آية من آياته : إنا وكنا رسول الله في أن يُشروع للناس

والحكم الذي يؤخذ من القول عُرْضة لأن نتسحق فيه ونقف أمامه نُقَلْبُ الفَظْظَة أو بؤله ، أما إن أخذ الحكم من فعل المشرع ، فليس فيه شك أو تمحُّك ، وليس قابلاً للتأويل لأنه فعل ، وقد فعل الرسول ورجم الزاني والزانية الممحصنين في قصة ماعز والغامدية ، لأنه مفوض من الله .

ولا بد أن نفرق بين الحدين ، ففي حدِّ الأمة إن زنت يقول تعالى ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥)﴾ [النساء] البعض فهم من الآية أنها تشمل حدَّي الرَّجْمِ وَالْجُلْدِ ، فقالوا : في الجلد يمكن أن تجلد خمسين جلدة ، لكن كيف تجزي الرجم ؟ وما دام الرجم لا يُجرأ فليس عليها رجم .

ولو تأمل هؤلاء نصَّ الآية لخرجوا من هذا الخلاف ، فالحق سبحانه وتعالى لم يقل ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ .. (٢٥)﴾ [النساء] وسكت ، إنما قال ﴿مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥)﴾ [النساء] فخصَّ بذلك حدَّ الجلد ، لأن العذاب إيلاء حي ، أما الرجم فهو إرهاب حياة ، فهما متقابلان .

ألا ترى قول القرآن في قصة سليمان عليه السلام والهدمد : ﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أُرْ لَأَذْبَحَنَّهُ .. (٣٦)﴾ [النمل] فالعذاب غير الذبح . إذن ، تجزئة الحد في الجلد فقط ، أما الرجم فلا يُجرأ ، فإن زنت الأمة المحصنة رُجِمَتْ .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ..﴾ [النور]
هذا كلام موجع ، وإعاجلة لجماعة المؤمنين ، فهذا هو الحكم ، وهذا
هو الحدُّ قد شرعه الله ، فإن كنتم مؤمنين بالله وبالحساب والعقاب
فطبقوا شرع الله ، وإلا فراجعوا إيمانكم بالله وباليوم الآخر لأننا نشكُّ
فى صدق هذا الإيمان .

وكان الحق - تبارك وتعالى - يهيجنا ويثيرنا على أهل هذه
الجريمة ، لناخذ على أيديهم ونُخْرِفُهم بما شرع الله من الحدود .
فالمعنى إن كنتم تؤمنون بالله إلهاً حكيماً مشرعاً ، خلق خلقاً ،
ويريد أن يحمي خلقه ويُطهره ليكون أملاً لحلافته فى الأرض الخلافة
الحقة ، فتركوا الخالق يتصرف فى كونه وفى خلقه على مراده عزَّ
وجلَّ ، فالخلق ليس خلقكم لتدخلوا فيه .

ثم يقول تعالى ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور]
فالامر لا يقف عند حدِّ التعذيب والجُلد إنما لا بدَّ أن يشهد هذا
العذاب جماعة من المؤمنين ، والطائفة هم الجماعة وأقلها أربعة
لماذا ؟ قالوا لأن النفس قد تتجهل الإيمان إن كانت سراً لا يطلع
عليها أحد ، فلا يؤلمه أن تُعَذِّبَ أشدَّ العذاب بينك وبينه ، إنما لا
يتحمل أن تشتمه أمام الناس . إذن - مشاهدة الحدِّ إهانة لصاحبه ،
وفى أيضاً زَجْرٌ للمشاهد ، ونموذج على رادع .

لذلك يقولون : الحدود زواجر وجوابر ، زواجر لمن شاهدها أى
تزجره عن ارتكاب ما يستوجب هذا الحد ، وجوابر ليصاحب الحد
تجبر ذنبه وتُسِفِّط عنه عقوبة الآخرة ، فلا يمكن أن يستوى من أقر

وأقيم عليه الحد بمن لم يقر ، ولأن الرنا لم يثبت بشهود أبداً ، وإنما بإقرار ، وهذا دليل على أن الحكم صحيح في ذاته ، ويرى أن فضوح الدنيا وعذابها أهون من فضوح الآخرة وعذابها ، إلا لما أقر على نفسه .

فالمسألة يقين وإيمان ثابت بالقيامة وبالبعث والحساب ، والعقوبة اليوم أهون ، وإن كان الزنا يثبت بالشهود فلربما نُسوا ، لذلك النبي ﷺ كان يأتيه الرجل حثماً بالزنا فيقول له : « لعلك قبلت ، لعلك عمزت ، لعلك لمست » ^(١) يعني : لم فصل إلى الحد الذي يسمى زنا ، يريد رسول الله ﷺ أن يذرا الحد بالخبيثة ^(٢) .

ولهذا المبدأ الإسلامي السامع إن أخذت الزاني وذهبت ترجمه فأكفه الحجر فحاول الفرار بامرنا الشرع ألا تتبعه والأ نلاحقه . لماذا ؟ لأنه اعتبر أن فراره من الحد كأنه رجوع عن الإقرار ^(٣) .

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٦٨٢٤) ، وأحمد في مسنده (٢٢٨/١ ، ٢٠٥ ، ٢٧٠ ، ٢٨٩ ، ٢٧٥) عن ابن عباس قال : لما أتى معاوية بن مالك النبي ﷺ قال له : لعلك قبلت أو عمزت أو نظرت ؟ قال : لا يا رسول الله قال : أنتكها ؟ - لا يكني - قال : فعد ذلك أمر برجمه .

(٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « اسألو الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله ، فإن الإمام أن يخطئه في العفو خير له من أن يخطئه في العقوبة » أخرجه الترمذي في سننه (١٤٢٤) ، وأبو داود في مستدركه (٢٨٤/٤) - والدارقطني في سننه (٨٤/٢) قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٣) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٤٥ / ٢) ، والترمذي في سننه (١٤٢٨) أن معاوية لما وجد من التصجارة يشك فيه - حتى مر برجل منه لحى جمل (عظم حنكة) فحسبه به وحسبه ففاس حتى مات ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « ألا ترونكموه » قال الترمذي : هذا حديث حسن .

يقول الحق سبحانه (١) .

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢)

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ..﴾ (٣) [النور] لأن الزواج يقوم على التكافؤ ، حتى لا يستغل أحد الزوجين على الآخر ، والزاني فيه خسة ، فلا يليق به إلا خميسة مثله يعني . زانية ، أو أخس وهي المشركة ؛ لأن الشرك أخس من الزنا ، لأن الزنا مخالفة أمر توجيهي من الله ، أما الشرك فهو كفر بالله ؛ لذلك فالمشركة أخس من الزانية . وما نقوله في زواج الزاني نقوله في زواج الزانية ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ..﴾ (٤) [النور]

ومنا يعترض البعض . كيف إن كانت الزانية مسلمة ، أينكحها مشرك ؟ قالوا : التقابل هنا غرضه التهويل والتفطيع فقط لا الإباحة ، لأن المسلمة لا يجوز أن تتزوج مشركاً أبداً . فالآية توبيخ لها .

(١) سبب نزول الآية : ورد في سبب نزول هذه الآية عدة روايات ، منها

أخرج أحمد في مسنده (١٥٩/٢ ، ٢٢٢) عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها أم مهند كانت قساح وتضرب له أن تنفق عليه فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له امرأها . فقرأ عليه رسول الله ﷺ هذه الآية وأخرجه كذلك الواحد في أسباب النزول (ص ١٨) .

- أخرج الترمذي في مسنده (٣١٧٧) وأبو داود في مسنده (٢٠٥١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كان رجل يقال له مهند بن أبي مهند وكان رجلاً يسهل الأصابع من مكة حتى يأتي بهم المدينة وكانت امرأة يقال لها عناق وكانت صبيحة له وأنه قال لرسول الله ﷺ : إنكج عناقاً ، إنكج عناقاً ؟ فأمسك رسول الله ﷺ ثم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت الآية ، فقرأ رسول الله ﷺ : يا مشرك ، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها .

يا خسيصة ، لا يليق بك إلا خسيس منك أو أخس .

وأرى أن التمس محتمل لانكالك الجهة ؛ لأن التي زنت قدور بين امرين إما أنها أقبلت على الزنا وهي تعلم أنه محرم ، فتكون عاصية باقية على إسلامها ، أو أنها ردت حكم الزنا واعتزضت عليه فتكون مشركة ، وفي هذه الحالة يستقيم لنا فهم الآية .

ثم يقول تعالى . ﴿ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور] فهذا سبب طهر الأنسال أن يحرم الله تعالى الزنا . فيأتي للخليفة طاهر لنسل والعنصر . محضوناً باب وأم . مضموعاً بدفع العائلة ، لا يتحملون عليه نسمة الهواء ، لأنه جاء من وعاء طيب طاهر نظيف

ثم يقول الحق سبحانه

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَا يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ
فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾

والمحصنات تُطلق على المتزوجة ، لأنها حصنت نفسها بالزواج
أن تميل إلى الفاحشة ، وتطلق أيضاً على أحررة ، لأنهم في العاصي
كانت الإمام من اللأى يدعين لمعالة البغاء ، إنما لا تقدم عليها
الحرائر أبداً .

لذلك فإن السيدة بهذا^(١) التي تُسبدها الآن بعد إسلامها ، وهي
التي لاكت كبد سيدنا حمزة في غزوة أحد ، لكن لا عليها الآن ؛ لأن
الإسلام يجب ما قبله لما سمعت السيدة هند رسول الله ﷺ يدهي
النساء عن الرثا قالت أو ترزني حرة^(٢) ؟ لأن الزنا انتشر قبل
الإسلام بين البغايا من الإمام ، حتى كانت لهن رايات يرمعنها على
بيوتهن ليُعرفن بها

والمعنى ، يرمون المحصنات بما يناهى الإحصان ، والمراد الزنا
﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ۖ ۝ (٤) ﴾ [النور] وهذا
يُسمى حد القذف ، أن يرمى حرة بالزنا وتتهمها بها ، فحسب هذه
الحالة عليك أن تأتي بأربعة شهداء يشهدون على ما رميتها به ، فإن
لم تفعل يُقام عليك أنت حد القذف ثمانين جلدة ، ثم لا ينتهي الأمر
عند الجلد ، إنما لا تُقبل منك شهادة بعد ذلك أبداً

﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۖ ۝ (٥) ﴾ [النور] لماذا ؟ لأنه لم يعد
أعلا بها ، لأنه فاسق ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦) ﴾ [النور] والفاسيق
لا شهادة له ، وهكذا جمع الشارع الحكيم على القذف حد الجلد ، ثم

(١) من : هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية بن أبي سفيان وهي زوجة أبي سحيل بن
حرب ، وهي التي لاكت كبد حمزة عم رسول الله ﷺ في غزوة أحد بعد أن قتله وحشي
بتدبير منها .

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره (٢٥٤/١) في تفسير آية ﴿ يَسْأَلُهَا الَّتِي إِذَا جَاءَكَ الْمَوْتَاتُ
قَالَ عَلَيْكَ اللَّهُ لَا يَمُوتُكَ اللَّهُ شَيْئًا وَلَا يَحْيِيكَ وَلَا يَمُوتُكَ وَلَا يَحْيِيكَ وَلَا يَمُوتُكَ وَلَا يَحْيِيكَ ۖ ۝ (٥) ﴾ [الممتحنة] وفيها أنها قالت
يا رسول الله وهل ترمي امرأة حرة ؟ قال : لا والله ما ترمي الحرة .

« وَأَتَّبِعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا »^(١) لذلك تجد الذين أسرفوا على أنفسهم في ناحية ما ، حينما يكبرون وَيُحِبُّونَ التَّوْبَةَ تراهم شقوقين يَحُبُّ الخَيْرَ وعمل الطاعات ، يريدون أن يُكْفَرُوا بها ما سبق من السيئات ، على خلاف مَنْ حافظ على نفسه ، وتَأَيَّ بها عن المعاصي ، فتراها بارداً من ناحيتها بفعل الخير على قدر طاقتها .

وَكَيْفَ الْحَقُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يُحَذِّرُ عَبْدَهُ يَا عَبْدِي احذروا مَنْ أَخَذَ مِنِّي شَيْئًا خُلُوسَةً أَوْ تَرَكَ لِي حَكْمًا ، أَوْ تَجَرَأَ عَلَيَّ بِمَعْصِيَةٍ سَيَنْعَبُ فِيهَا بَعْدَ ، وَيَلْقَى الْأَمْرَيْنِ ، لَأَنَّ السَّيِّئَةَ سَتَظَلُّ وَرَاءَهُ تَطَارِدُهُ وَتُجْهِدُهُ لِأَغْفِرَهَا لَهُ ، وَسَيَحْتَاجُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَأَعْمَالِ الْخَيْرِ لِيَجْبِرَ بِهَا تَقْصِيرَهُ فِي حَقِّي بِهِ .

ثم يقول الحق سبحانه^(٢) :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٢/٥ - ١٥٨) والترمذي في سننه (١٦٨٧) والدارمي في سننه (٣٢٢/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال ﷺ : « اتق الله حيثما كنتم . وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلاف حسن » . واللفظ للترمذي .

(٢) بسبب نزول الآية من بين عباس قال لما نزلت ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْتَنِبُوهُنَّ ثَمَانِينَ جُلُوسًا ﴾ [النور] قال سعد بن عبادة وهو سيد الانصار : « تمكنا نزلت يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « أَلَا تَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ إِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَعْلَمُ أَنَّهَا حَقٌّ وَأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ قَدْ تَصَبَّحْتُ لَنْ لَوْ وَجِئْتُ نِكَاحَ قَدْ تَفَضَّلَها رجل لم يكن لي أن أعيجه ولا أهرجه حتى آتي بأربعة شهداء ، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضى حاجتي ، فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية من أوطس عشيّاً فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينه وسمع بآذنه فلم يهيج به حتى أصبح وغداً على رسول الله ﷺ فاضربه بما كان . فكره رسول الله ما جاء به واقتصد عليه فقال سعد بن عبادة : الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في المسلمين . فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً . فنزلت آية ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ .. ﴾ [النور] فقال رسول الله ﷺ : أشرب هلال . فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً . فقال : قد كنت أرجو ذلك من ربي . وذكر بعض الحديث ، أخرجه الوليد في أسباب النزول (ص ١٨٠ ، ١٨١)

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا

أَحَدُهُمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾

وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾

بعد أن تكلم الحق - تبارك وتعالى - عن الذين يرمون المحصنات ، وبين حكم القذف ، أراد أن يبين حكم الرمي إن كان من الزوج لزوجته ؛ لأن الأمر هنا مختلف ، وربما يكون بينهما أولاد منه أو من غيره ، فعليه أن يكون مؤدباً بأدب الشرع ولا يجرح لأولاد برمي أمهم ولا ذنب لهم لذلك شرع الحق - سبحانه وتعالى - في هذه الحالة حكماً خاصاً بها هو الملاعة ، وقد سُميت هذه الآية آية اللعان .

ويروى أن هلال بن أمية ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله إني رأيت فلاناً على بطن زوجته ، فإن تركته لأتني بأربعة شهداء لقضى حاجته وامصرف ، وإن قتلته فقد اعتديت عليه^(١) .
إذن ما حل هذا النزاع ؟

وينبغي أن نعلم أن الله تعالى لا ينزل التشريع والحكم بداية ، إنما يترك على الكون من أفضية الحياة وأحداثها ما يحتاج لهذا الحكم ، بحيث ينزل الحكم فيصايف الحاجة إليه ، كما يقولون موقع الماء من ذى الغلة الصادي ، يعني : حين ينزل الحكم يكون له موضع فيتلطفه الناس ، ويشعرون أنه نزل من أجلهم بعد أن كانوا

(١) لفظ الحديث عند الإمام أحمد في مسنده (٢٢٨ ، ١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن هلال بن أمية - وهو أحد الثلاثة الذين قُبيل عليهم - جاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلاً تركي بعثته وسمع بأذنيه فلم يهيج حتى أصبح مثلاً على رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ، إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعينه وسمعت بأذني ، الحديث .

يستشرفون لحكم في مسألة لم يأت فيها حكم .

وقد شرع الله تعالى حكم الملائنة أو البعان خاصة ، لهذه الحالة التي يلاحظ فيها الزوج شيئاً على أهله ، وقد يخضع يده عليه ، لكن لا يستطيع أن يأتي عليه بشهود ليثبت هذه الحالة ؛ لذلك جعله للشارع الحكيم يقوم وحده بهذه الشهادة ، ويكررها أربع مرات بدل الشهادتين الأربع .

يقول أشهد الله أنني صادق فيما رُميتُ به امرأتى ، يقولها أربع مرات ، وفي الخامسة يقول : ولعنة الله على من كُنتُ كاذباً ، وهكذا ينتهى دور الزوج في الملائنة .

وَيَذَرُوا هُنَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ ١

(يَذَرُ) أى يدفع العذاب عن الزوجة أن تشهد هي الأخرى أربع شهادات بالله ، تقول أشهد الله أنه كاذب فيما رُماني به ، وفي الخامسة تقول : غضب الله على من كان هو من الصادقين . فإن امتنعت الزوجة عن هذه الشهادة فقد ثبت عليها الزنا ، وإن حلفت فقد تعادلا ، ولم يعد كل منهما صالحاً للأخر ، وعندها يُفَرَّقُ الشرع بينهما تفريقاً نهائياً لا عودة بعده ، ولا تحمل له أبداً^(١) .

(١) وقد وردت الرواية بأن امرأة هلال بن أمية رماها بالزنا مع شريك بن صمعة شهدت أربع شهادات أنها لم تفلح ، فلما كانت الشهادة الخامسة سكنت سكنة حتى ظنوا أنها ستعترف ثم قالت : لا أفصح قومي سائر اليوم فمضت على القول لفرق رسول الله ﷺ بينهما وقال : انظروا ، لئن جاءت به جمعاً حمش السائقين فهو لشريك بن صمعة ، وإن جاءت به أبهى سبطاً قصير الميتين فهو لهلال بن أمية . فجاءت به جمعاً حمش السائقين أى تهلك وثبت كتب المرأة وثبت صدق هلال ، فقال ﷺ : لو لا ما نزل فيها من كتاب الله لكان بي وأهلها شيء ، ذكره ابن كثير في تفسيره (٢٦٨/٢) .

عن ربه ، فذكر أنهم يرمون المحصنات ، ويرمون زوجاتهم ، والأفطع
من ذلك أن يرموا زوجة النبي وأم المؤمنين ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى
كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

الإفك : لدينا نسب ثلاث للأحداث : نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية
حين نتكلم ، ونسبة خارجية . فحين أقول : محمد مجتهد . هذه
قضية ذهنية ، فإن نطقنا بها فهي نسبة كلامية ، فهل هناك شخص
اسمه محمد ومجتهد ، هذه نسبة خارجية ، فإن وافقت النسبة
الكلامية النسبة الخارجية ، فالكلام صدق ، وإن خالفت فالكلام كذب .
فالصدق أن تطابق النسبة الكلامية الواقع ، والكذب ألا تطابق
النسبة الكلامية الواقع ، والكذب قد يكون غير متعمد ، وقد يكون
متعمداً ، فإن كان متعمداً فهو الإفك ، وإن كان غير متعمد كأن أخبره
شخص أن محمداً مجتهد وهو غير ذلك ، فالخير كاذب ، لكن المخبر
ليس كاذباً .

فالإفك - إذن - تعمد الكذب ، ويعطى ضد الحكم ، كأن نقول
محمد مجتهد . وأنت تعلم أنه مهمل ، لذلك كان الإفك أفطع أنواع
الكذب ؛ لأنه يقلب الحقائق ويخلق واقعاً مضاداً لما لم يحدث .

(١) العصبة الجماعة المترابطة [القاموس القويم ٢٢/٢] قال في [لسان العرب - مادة
عصب] : العصبة : جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢٧٢/٣) : « الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله
ابن أبي بن سؤل فبهه الله ولعنه وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث وقال ذلك جماعة
وغير واحد . وقيل المراد به حسان بن ثابت وهو لود غريب . »

يقول تعالى : ﴿ وَأَنْمُرْ نَفْسَكَ أَهْوَى ﴾ (٥٢) [النجم] وهي القُرَى التي جعل الله عاليها سافلها ، وكذلك الإفك يُغَيِّرُ الواقع ، ويقلبه رأساً على عقب .

والعصبة الجماعة التي ترتبط حركتها لتحقيق غاية متحدة ، ومن ذلك نقول عصبة مخدرات ، عصبة سرقات ، يعني جماعة لتنفقوا على تنفيذ حدث لغاية واحدة ، ومنه قوله تعالى في سورة يوسف ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. ﴾ (١١) [يوسف]

وما دام أهل الإفك عصبة فلا بُدَّ أن لهم غاية واحدة في التشويه والتبشيع ، وكان رئيسهم عند الله بن أبي بن سلول ، وهو شيخ المنافقين ، ومعتور في أن يكون كذلك ، ففي اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة كانوا يصنعون لعبد الله بن أبي تاجاً لينصبوه ملكاً على المدينة^(١) . فلما فوجيء برسول الله واجتمع الناس عليه وأنفضاضهم من حوله بقيت هذه في نفسه .

لذلك فهو القائل ﴿ لَنْ رُجِعَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِنُخْرِجَ الْأَعْرُ مِنْهَا الْأَذَلُّ .. ﴾ (٨) [المنافقون] يقصد أنه الأعزُّ ، فردُّ عليه الحق - تبارك وتعالى - صدقت ، لكن العزة ستكون لله والرسول وللمؤمنين . وعليه فالخارج منها أنت

وهو أيضاً القائل ﴿ لَا تُفِيقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا .. ﴾ (٧) [المنافقون] والعجيب أنه يعترف أن محمداً رسول الله ،

(١) نكوه ابن هشام في السيرة النبوية (٢ / ٥٨١) : « أن قومه كانوا قد نظموا له الحُرُزَ ليُخرجوه ثم يُلْكَوهُ خِيَمُهُمْ . فجهلهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك . فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضلوا . وراى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضيق »

ويقولها علانية ، ومع ذلك ينكرها بأعماله وتصرفاته ، ويحدث تشويشاً في الفكر وفي أداء العبادة .

وما دام أن الحق سبحانه سَمَّى هذه الحادثة في حقِّ أم المؤمنين عائشة إِفْكَاً فلا بُدَّ أنهم تَلَبَّوْا الحقائق وقالوا ما يناقض الواقع .

والقصة حدثت في غزوة بني المصطلق ، وكان ﷺ إذا أراد غزوة أجرى قرعة بين زوجاته ، مَنْ تخرج منهن معه . وهذا ما تقتضيه عدالته ﷺ ، وفي هذه الغزوة أقصر بينهن فخرج السهم لعائشة فخرجت معه ، وبعد الغزوة وأثناء الاستعداد للعودة قالت السيدة عائشة : ذهبتُ لأقضي حاجتي في الحلاء ، ثم رجعت إلى هودَجة التمس عقداً لي من (جَزَع ظَفَار)^(١) وهو نوع نقيس .

فلما عادت السيدة عائشة وجدت القوم قد ذهبوا ، ولم تجد هودَجة فقالت في نفسها لا بُدَّ أنهم سيفقدونني وسيمودون لكن كيف حمل القوم هودَجة عائشة ولم تكن فيه ؟ قالوا : لأن الفساء كُنَّ خِفَافاً لم يثقلن ، وكانت عائشة نحيفة ، لذلك حمل الرجال هودَجة دون أن يشعروا أنها ليست بداخله . ثم نامت السيدة عائشة في موضع هودَجة تنتظر مَنْ يأتيها ، وكان من عادة القوم أن يتأخر أحدهم بعد الرحيل ليفقد المكان ويُعقب عليه ، علَّ يجد شيئاً نسيه القوم أو شخصاً تخلف عن الركب .

(١) الجَزَع والجَزَع نوع من الضرر اليمثل ، وهو الذي فيه يينثر وسواء نُشِبَ به الأعين . وظَفَار قرية من قرى حمير منسوبة إلى ظفار أسد مدينة باليمن [لسان العرب - مادنا جرح ، ظفر]

وكان هذا المصائب هو صفوان بن صفوان^(١) ، فلما رأى شيخ إنسان نائم فاقترب منه ، فإذا هي عائشة رضى الله عنها ، فلما نأقته سجالها ، وأدار وجهه حتى ركب وسار بها دون أن ينظر إليها وعف نفسه ، بدليل أن القرآن سمى ما قالوه إفكاً يعنى . مناقضاً للواقع ، فصفوان لم يفعل إلا نقيض ما قالوا

ولما قنم صفوان يقود ناقته بعائشة رآه بعض أهل النفاق فاتهموها ، وقالوا فى حقهما ما لا يليق بأم المؤمنين ، وقد تولى هذه الحملة رأس النفاق فى المدينة عبد الله بن أبى ومسصح بن أثانة ، وحسان بن ثابت ، وحمزة بنت جحش امرأة طلحة بن عبيد الله وأخت ربيب بنت جحش ، فروجوا هذا لاتهم وأداعوه بين الناس .

ثم يقول سبحانه ﴿ لَا نَحْسِبُهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴾ (١١) [النور] لكن ما الخير فى هذا الكلام وفى إذاعته ؟ قالوا . لأن القرآن حين نزلهم عائشة وتنزل برامتها من فرق سبع سموات فى قرآن يتلى ويتعد به إلى يوم القيامة ، وحين يفضح قوم على لسان القرآن ، لا بد أن يعتبر الآخرون ، ويحافوا أن يفعلوا مخالفة أن يفتضح أمرهم ؛ لذلك جاء هذا الموقف درساً عملياً لمجتمع الإيمان

نعم ، أصبحت هذه الصادثة حيراً ؛ لأنها نوع من التسايد لرسول الله ولدعوته ، فالحق - تبارك وتعالى - يؤيد رسوله فى الأشياء المسرة ليقطع أمل أعدائه فى الانتصار عليه ، ولو بالتدليس وبالمكر ولو بالإسرار والكيد الجفى ، ففى نزوة عداة قريش لرسول الله كان

(١) هو صفوان بن المفضل بن رخصة قسطنطينى أبو عمرو جندبى شهد الخندق والمشاهد كلها ، وحضر فتح دمشق واستشهد بدمية وتلى فى سمساط روى عن النبي ﷺ حديثين ترقى عام ١٩ هـ (الاعلام للبركلى ٦/٣ ٢) وقال الحاكم فى مستدركه (٥١٨/٢) مات بدمساط سنة ستين وبقبره هناك .

إيمان الناس به يزداد يوماً بعد يوم

وقد انتمروا عليه وكادوا له ليلاً ليلة الهجرة ، فلم يفلحوا ،
فحاولوا أن يسحرروه ، وفعلاً صنعوا له سحراً ، ووضعوه في بئر
ذروان في مُشَطٍّ ومشاطة ، فأخبره بذلك جبريل عليه السلام ، فبعث
رسول الله ﷺ علياً فجاء به^(١) .

إذن : عجزوا في المواجهة ، وعجزوا في التبييت والكيد ، وعجزوا
حتى في استخدام الجن والاستعانة به ، وهنا أيضاً عجزوا في تشويه
صورة النبوة والنبي من سمعتها ، وكان الحق سبحانه يقول لأعدائه
لقطعوا الأمل فمن تناثروا من محمد أبداً ، ومن هنا كانت حادثة الإفك
خيراً لجماعة المؤمنين

ومع ذلك ، لم يجرؤ أحد أن يخبر السيدة عائشة بما يقوله
المنافقون في حقها ، لكن تميز لها رسول الله ﷺ ، فلم يعد يداعبها
كعادته ، وكان يدخل عليها فيقول : كيف تيكم ، وقد لاحظت عائشة
هذا للتغير لكن لا تعرف له سبباً إلى أن تصادف أن سارت هي وأم
مسطح أحد هؤلاء المذنبين ، فعمرت فقالت : تمس مسطح فنهرتها
عائشة كيف تدعو علي ابنها ، فقالت : إنك لا تدريين ما يقول ؟
عندها ذهبت السيدة عائشة إلى أمها وسألتها عما يقوله الناس
فأخبرتها .

(١) حديث مطلق عليه أخرجه البخاري من صحيحه (٢٢٦٨) ، وكذا مسلم في صحيحه
(٢١٨٩) كتاب السلام أن رسول الله ﷺ قال : « جاءني رجلان فلقوا أحدهما عند رأسي
والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي ، أو الذي عند رجلي للذي عند
رأسي ما وجه الرجل ؟ قال : مطبوع قال من طبعه ؟ قال لبيد بن الأصم قال
في أي شيء ؟ قال في مشط ومشاطة قال وجفاً طلعة ذكر قال - فأين هو ؟ قال
في بئر ذي ذروان » .

لذلك لما نزلت براءة عائشة في القرآن قال لها أبو بكر . قومي
فاشكري رسول الله ، فقالت . بل أشكر الله الذي بركني^(١) .
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ
الْإِثْمِ .. ﴾ (١١)

عادة ما يستخدم الفعل (كَسَبَ) المجرد في الخير ، والفعل
اكتسب المزيد الدال على الافتعال في الشر . لماذا ؟ قالوا . لأن فعل
الخير يتمشى وطبيعة النفس ، وينسجم مع دراتها وتكوينها ، فالذي
يُقدم على عمل الخير لا يقاوم شيئاً في نفسه ، ولا يعارض ملكة من
ملكاته ، أو عادة من العادات .

ومنه نلاحظها حتى في الحيوانات ، ألا ترى القطعة إن وضعت
لها قطعة لحم تجلس بجوارك وتأكلها ، وإن أخذتها منك خطفاً تفر
بها هاربة وتأكلها بعيداً عنك إذن في ذاتية الإنسان وفي تكوينه -
وحتى في الحيوان - ما يُعرف به الخير والشر ، والصواب والخطأ

وانت إذا نظرت إلى ابتك أو زوجتك تكون طبيعياً مطمئناً ، لأن
ملكات نفسك معك موافقة لك لا تعارضك في هذا الفعل ، فإن حاولت
البنظر إلى ما لا يحل لك تحتل البظرة وتسرقها ، وتحاول سترها
حتى لا يلحظها أحد ، وقد ترتبك ويتغير لونك ، لماذا ؟ لأنك تفعل
شيئاً غير طبيعي ، لا حق لك فيه ، فتعارضك ملكات نفسك ، ودراة
تكوينك . فالأمر الطبيعي تستجيب له النفس تلقائياً ، أما الخطأ والشر
فيحتاج إلى فتعال . لذلك عبّر عن المكر والتجسس والتكيد
بـ (اكتسب) الدال على الافتعال .

(١) قصة حادثة الإفك وردت بطولها في مسموح البخاري (حديث ٤٧٥٠) وكذا مسلم في
مجمعه (٢٢٧٠) ، وأحمد في مسنده (٦ / ٥٩ ، ٦٠) من حديث عائشة رضي الله
عنها

وقوله تبارك تعالى . ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبَاسَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١)
[النور]

تولى كبر الشيء : يعنى قام به وله حظ وانفر فيه ، أو نقول : هو ضالع فيه ، والمقصود هنا عبد الله بن أبي الذي قاد هذه الحملة ، وتولى القيام بها وترويجها ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١) [النور] أى : وناسب هذه الجريمة .

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (١٢)

يوجهنا الحق - تبارك وتعالى - إلى ما ينبغي أن يكون في مثل هذه الفتنة من ثقة المؤمنين بأنفسهم وبإيمانهم ، وأن يظنوا بأنفسهم خيراً وينأوا بأنفسهم عن مثل هذه الاتهامات التي لا تليق بمجتمع المؤمنين . فكان على أول أذن تسمع هذا الكلام على أول لسان ينطق به أن يرفضه ، لأن الله تعالى ما كان ليُدلس على رسوله وصفوته من خلقه ، فيجعل زوجته محل شك واتهام فضلاً عن رميها بهذه الجريمة البشعة .

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (١٢) [النور] كان من المنتظر قبل أن تنزل المعانة في القرآن أن تأتي من نفوس المؤمنين أنفسهم ، فيردون هذا الكلام

و (لولا) أداة للحض والحث ، وقال - ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ ..﴾ (١٢) [النور] لأنه جال في هذه الفتنة رجال ونساء ، والقرآن لا يحتمل على ظن الخير برسول الله أو بزوجته ، وإنما ظن الخير بأنفسهم

لكن ، لماذا تفضل الله عليهم ورحمهم ، فلم يمسهم العذاب ، ولم يجازهم على افتراءهم على أم المؤمنين ؟

قالوا ، لأن الحق - تبارك وتعالى - أراد من هذه المسألة العبرة والعظة ، وجعلها للمؤمنين وسيلة إيضاح ، فليس المراد أن ينزل الله بهم العذاب ، إنما أن يعلمهم ويعطيهم درساً في حفظ أعراض المؤمنين .

﴿ اذْثَقَوْنَهُمْ بِالسِّنِّكُمْ وَتَقُولُونَ بِاَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هيناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ١٥ ﴾

انظر إلى بلاغة الأداء القرآني في التعبير عن السرعة في إفشاء هذا الكلام وإذاعته دون وعي ودون تفكير ، فمعلوم أن تلقى الأخبار يكون بالأذن لا باللسنة ، لكن من سرعة تناقل هذا الكلام فكانهم يثقلونه بالمسئمة ، كأن مرحلة السماع بالأذن قد ألغيت ، فبمجرد أن سمعوا قالوا .

﴿ وَتَقُولُونَ بِاَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ١٥ ﴾ [النور]

﴿ بِاَفْوَاهِكُمْ .. ١٥ ﴾ [النور] يعني ، مجرد كلام تناقله الأفواه ، دون أن يدققوا فيه ؛ لذلك قل بعدها ﴿ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ .. ١٥ ﴾ [النور] وهذا الكلام ليس هيناً كما تظنون ، إنما هو عظيم عند الله ، لأنه تناول عرض مؤمن ، والمؤمن حرمة ، فما بالك إن كان ذلك في حق رسول الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه ،

﴿ وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٦)

هذا ما كان يجب أن تقابلوا به هذا الخبر ، أن تقولوا لا يجوز لنا ولا يليق بنا أن نتناقل مثل هذا الكلام وكلمة ﴿سُبْحَانَكَ ..﴾ (١٦) [النور] يقال عند التعجب من حدوث شيء . والمعنى : سبحان الله نزهة ونجاة ونُعلية أن يسمح بمثل هذا الكذب الشنيع في حق رسول الله ﷺ ، فهذا كلام لا يصح أن نتكلم به ولو حتى بالنفى ، فإن كان الكلام بالإثبات جريمة فالكلام بالنفى فيه مظنة أن هذا قد يحدث . كما لو قلت : الورع فلان ، أو الشيخ فلان لا يشرب الخمر ، فكانه رغم النفي جعلته مظنة ذلك ، فلا يصح أن ينسب إليه سوء ولو بالنفى ، فذلك ذم في حقه لا مدح .

كذلك التحدث بهذه التهمة لا يليق بأم المؤمنين ، ولو حتى بالنفى ، ومعنى ﴿بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (١٦) [النور] كذب يبهت سامعه ، ويدمسه لفظاعته . وشناخته فنحن نائف أن نقول هذا الكلام ، ولو كنا منكرين له .

﴿ يَعْظُمُ عَلَيْكُمْ أَنَّ تَقُولُوا الْمَثَلَةَ هَذَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧)
﴿ وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ الْآيَاتُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٨)

الوعظ . أن تأتي لقمة الاشياء فتعظ بها كاربجل حينما يشعر بنهايته يحاول أن يعظ أولاده ويوصيهم ، لكن لا يوصيهم بكل أمور الحياة ، إنما بالأمور الهامة التي تمثل القمة في أمور الحياة ووعظ

الحق - تبارك وتعالى - لعباده من لطفه تعالى ورحمته ، بعظكم ،
لأنه عزيز عليه أن يؤخذكم بذنوبكم

وتذيل الآية بهذا الشرط : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [النود] حدث
وأهجة لجماعة المؤمنين ، لينتهوا عن مثل هذا الكلام ، وألا يقعوا فيه
مرة أخرى ، وكأنه تعالى يقول لهم : إِنْ كُنْتُمْ لَمْ تَفْعَلُوا هَذَا فَرَجَعُوا
إِيمَانَكُمْ : لأن إيمانكم ساعتها سيكون إيماناً ناقصاً مشكوكاً فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ
عَامَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ١٩

﴿ يُحِبُّونَ .. ﴾ [النود] الحب عمل قلبي ، والكلام عمل لسانی ،
وترجمة عملية لما في القلب ، فالمعنى : الذين يحبون هذا ولو لم
يتكلموا به ، لأن لهذه المسألة مراحل تبدأ بالحب وهو عمل للقلب ، ثم
التحدث ، ثم السماع دون إنكار

ولغظة هذه الجريمة ذكر الحق سبحانه المرحلة الأولى منها ،
وهي مجرد عمل القلب الذي لم يتحول إلى نزوع وعمل وكلام إذن .
المسألة خطيرة .

وللبعض بظن أن إشاعة الفاحشة فضيحة للمتهم وحده ، نعم هي
للمتهم ، لكن قد تنتهي بحياته ، وقد تنتهي ببراءته ، لكن المصيبة

(١) الفاحشة الفعلة القبيحة والفواحش الأمور القبيحة المنكرة [القاموس القديم] ١٧٣/٢

انها ستكون أسوة سيئة في المجتمع .

وهذا توجيه من الحق - سبحانه وتعالى - إلى قضية عامة وقاعدة يجب أن تُراعى ، وهي : حين تسمع خبراً يهدش الحياة أو يتناول الأعراض أو يهدش حكماً من أحكام الله ، فإياك أن تشيخه في الناس ! لأن الإشاعة إيجاد أسوة سلوكية عند السامع لمن يريد أن يفعل ، فيقول في نفسه فلان فعل كذا ، وفلان فعل كذا ، ويتجرا هو أيضاً على مثل هذا الفعل ، لذلك توهب الله تعالى من يشيع الفاحشة وينشرها ويذيعها بين الناس ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ﴾ (١١)

والحق - تبارك وتعالى - لم يعصم أحداً من المعصية وعمل السيئة لكن الأسوة من السيئة إشاعتها بين الناس ، وقد تكون الإشاعة في حق رجل محترم مهّاب في مجتمعه مسعور الكلمة وله مكانة ، فإن سمعت في حقّه ما لا يليق فلربما زهدك ما سمعت في هذا الشخص ، وزهدك في حسناته وإيجابياته فكانك حرمت المجتمع من حسنات هذا الرجل .

وهذه المسألة هي التعليل الذي يستتر الله به غيب الخلق عن الخلق ، إن : ستر غيب الناس عن الناس نعمة كبيرة تُفري الحير في المجتمع وتُتميه ، ويجعلك تتعامل مع الآخرين ، وتنتفع بهم على ملأتهم . وصدق الشاعر الذي قال

فَحَذِّ بِعُصَى وَلَا تَرْكَنْ إِلَى عَمَلِي وَأَكْجِرِ الثَّمَارَ وَخَلِّ الْعُودَ لِلنَّارِ

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٠)

انتظر كم فضل من الله تعالى تقبل به على عباده في هذه الحادثة ، ففي كل مرحلة من مراحل هذه القضية يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ .. ﴾ (٢٠) [النور] وهذا دليل على أن ما حدث كان للمؤمنين نعمة وخير ، وإن ظنوه غير ذلك .

لكن أين جواب لولا ؟ الجواب يفهم من السياق وتفسيره : لَقُضِّيتُمْ وَلَهَلَكْتُمْ ، وحصل لكم كذا وكذا ، ولك أن تُقدِّره كما تشاء . وما منع عنكم هذا كله إلا فضل الله ورحمته .

وفي موضع آخر يوضح الحق سبحانه منزلة هذا الفضل : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ لَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٥٨) [يونس] فالحق - سبحانه وتعالى - شرع منهاجاً ويجب من يعمل به ، لكن فرحة العبد لا تتم بمجرد العمل ، وإنما بفضل الله ورحمته في تقبل هذا العمل . إذن : بفضل الله هو القاسم المشترك في كل تقصير من الخلق في منهج الخالق عز وجل .

وبعد هذه الحادثة كان لا بد أن يقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ لَحْدٍ أَبَدًا وَلَئِنْ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ مُبِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١١)

(١) ركا طهر وصبح فهو زكي وفي زكية [القاموس القويم ٢٨٧/١] قال القرطبي في تفسيره (٤٧٤٢/٦) : أي ما اعتدى ولا أسلم ولا عرف رشداً ، على قراءة (زكي) أما على قراءة (زكي) ، أي أن تزكيتكم لكم وتطهيره ومهابته إنما هي بشيئته لا بأعمالكم .

كَأَنَّ الشَّيْطَانَ لَهُ خُطُوطٌ مُتَعَدِّدَةٌ لَيْسَتْ خُطُوطٌ وَاحِدَةٌ ، وَقَدْ أَثْبَتَ
 اللَّهُ عِدَاوَتَهُ لِبَنِي آدَمَ ، وَهِيَ عِدَاوَةٌ مُسَبِّبَةٌ لَيْسَتْ كَلَامًا نَظَرِيًّا ، إِنَّمَا هُوَ
 عَدُوٌّ بِوَاقِعَةٍ ثَابِتَةٍ ، حَيْثُ امْتَنَعَ عَنِ السَّجُودِ لِآدَمَ ، وَعَصَى أَمْرَ اللَّهِ
 لَهُ ، بَلْ وَابَسَى مَا فِي نَفْسِهِ وَقَالَ : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ
 مِنْ طِينٍ ﴾ (١٧) ﴿

[الاعراف]

وقال : ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء] وهكذا علل امتناعه بأنه خير ، وكان عداوته لأدم عداوة حسد لمركزه ومكانته عند ربه .

والحق - تفارك وتعالى - حينما يخبرنا بعداوة الشيطان من خلال امتناعه عن السجود ، إنما يحذرنا منه ، ويُنَبِّهنا إلى خطره ويُرَبِّيْنا فينا العناعة من الشيطان ، لأن عداوته لنا عداوة مركزة ، ليست عداوة يمارسها مكذا كييعا اتفق ، إنما هي عداوة له منهج ولها خطة .

فأول هذه الخطة أنه عرف كيف يقسم ، فدخل على الإنسان من باب عزة الله عن خلقه ، فقال ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سج]

قلو أرادنا ربنا - عز وجل - مؤمنين ما كان للشيطان علينا
سبيل ، إنما تركنا سبحانه للاختيار ، فدخل علينا الشيطان من هذا
لباب ، لذلك قال بعدها - ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤١) [الحجر]
فمن اتصف بهذه الصفة فليس للشيطان إليه سبيل

إذن مسألة العداوة هذه ليست بين الحق سبحانه وبين
الشیطان ، إنما بين الشیطان وبنی آدم .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ (٧١) ﴿[النور] فذله : يَا مَنْ آمَنْتُمْ بِهِ إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ تَنْبَهُوا إِلَى شَرِّ إِيْمَانِكُمْ بِهِ . وَابْتَغُوا عَمَّا يُضَلُّ بِهَذَا الْإِيْمَانِ ، أَوْ يَفُتُّ فِي عَضُدِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ ، وَتَاكَّدُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ لَهُ خُطُوبَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ .

﴿ لَا تَقْبَعُوا حُطُوتَ الشَّيْطَانِ .. ﴾ (٧١) [النور] فَإِنَّ وَسْوسَ لَكَ مِنْ جَهَنَّمَ ، فَتَأْتِيَتْ عَلَيْهِ وَوَجَدَ عِنْدَكَ صِلَابَةً فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ وَجْهَكَ إِلَى نَاحِيَةِ أُخْرَى ، وَزَيْنَ لَكَ مِنْ بَابٍ آخَرَ ، وَهَكَذَا يَظَلُّ بِكَ عَدُوكَ إِلَى أَنْ يُوقِعَكَ ، فَهَرَّ يَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَقْطَةً ضَعْفٌ فِي تَكْوِينِهِ ، فَيَحَاوِرُهُ إِلَى أَنْ يَهْصِلَ إِلَى هَذِهِ النِّقْطَةِ .

والشيطان هو المتمرد العاصي من الجن ، فالجن مقابل الإنس ، فمنهم الطائِع والعاصي ، والعاصي منهم هو الشيطان ، وعلى قِيعَتِهِمْ إِبْلِيسُ ؛ لِذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْكَهْفِ : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنْ آدَمَ الْجِنِّ عَنِ أَمْرِ رَبِّهِ .. ﴾ (٥٠) [الكهف]

ومبِقُ أَنْ ذَكَرْنَا أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَ الْمَعْصِيَةِ مِنْ قَبْلِ النَّفْسِ وَالْمَعْصِيَةِ مِنْ قَبْلِ الشَّيْطَانِ ، فَالْنَفْسُ تُكْجِعُ عَلَيْكَ فِي مَعْصِيَةٍ بَعِيْذِهَا لَا تَتَعَدَّاهَا إِلَى غَيْرِهَا ، أَمَّا الشَّيْطَانُ فَإِنَّهُ يَزِيدُكَ عَاصِيًا عَلَى أَىِّ وَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ ، فَإِنْ اِمْتَنَعْتَ عَلَيْهِ فِي مَعْصِيَةٍ جَرَّكَ إِلَى مَعْصِيَةٍ أُخْرَى أَيْ كَانَتْ .

ثُمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهُ ، ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ حُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ .. ﴾ (٢١) [النور] وَلَكِ أَنْ تَسْأَلَ : أَيْنَ جَوَابُ (مَنْ) الشَّرْطِيَّةِ هُنَا ؟ قَالُوا : حُذِفَ الْجَوَابُ لِأَنَّهُ يُفْهَمُ مِنَ السِّيَاقِ ، وَدَلُّهُ عَلَيْهِ بِذِكْرِ عُلْتِهِ وَالْمُسَبِّبِ لَهُ ، وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُقَدِّرَ الْجَوَابَ . مَنْ يَتَّبِعْ حُطُوتَ الشَّيْطَانِ يُذِقْهُ رَبُّهُ عَذَابَ السَّعِيرِ ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، فَمَنْ يَتَّبِعْ حُطُوتَهُ ، فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْعَذَابُ ، فَهَؤُلَاءِ الْمُسَبِّبُ مَقَامَ جَوَابِ الشَّرْطِ

وَالْكَلَامُ لَيْسَ كَلَامَ بَشَرٍ ، إِمَّا هُوَ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَأَسْلُوبُ الْقُرْآنِ أَسْلُوبُ رَاقٍ يَحْتَاجُ إِلَى فِكْرٍ وَاعٍ يَنْتَقِطُ الْمَعْنَى ، وَلَيْسَ مَجْرَدُ كَلَامٍ وَحْشِيٍّ

سورة النمل

﴿١٠٢٥﴾

الآن ترى بلاغة الإيجاز في قوله تعالى من سورة النمل ﴿الذَّهَبُ
بِكُنَابٍ هَذَا فَاَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ قَوْلَ هَهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل]
ثم يقول تعالى بعدها ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ
كَرِيمٌ﴾ [النمل]

وتأمل ما بين هذين الحديثين من أحداث جديفة للعلم بها ، فوعى
القارئ ونباهته لا تحتاج أن نقول له فذهب الهدد . وو إلخ فهذه
أحداث يُرتبها العقل تلقائياً .

وقد أوضح الشيطان نفسه هذه الخطرات وأعلنها ، وبين طرقه في
الإغواء ، ألم يقل : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الاعراف] فلا
حاجة للشيطان بأصحاب الصراط المعوج لأنهم أتباعه ، فالشيطان
لا يذهب إلى الضلالة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد ليُفسد على
المصلين صلاتهم ، لذلك البعض ينزعج من الوسواس القوي تنديبه في
صلاته . وهي في الحقيقة ظاهرة صحية في الإيمان ، ولولا أنك في
طاعة وعبادة ما وسوس لك .

لكن مصيبتنا أن الشيطان يعطينا فقط طرف الخيط ، ففسير نحن
حلّقه (نكّر في الحيط كراً) ولو أننا ساعة ما وسوس لنا الشيطان
استعدنا بالله من الشيطان الرجيم ، كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى
﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ..﴾ [الاعراف]
إذن إياك أن تتبل منه طرف الخيط ، لأنك لو قبلته فلن تقدر
عليه بعد ذلك .

ومن خطرات الشيطان أيضاً قوله ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ..﴾ [الاعراف]

إذن . للشيطان في إقواء الإنسان منهج وخطة مرسومة ، فهو يأتي الإنسان من جهاته الأربع : من أمامه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله . لكن لم يذكر شيئاً عن أعلى وأسفل : لأن الأولى تشير إلى علو الربوبية ، والآخرى إلى ثل العبودية . حين ترفع يديك إلى أعلى بالدعاء ، وحين تضع جبهتك على الأرض في سحودك ؛ لذلك لا يأتيك عدوك من هاتين الناحيتين .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۚ ۝٢١﴾ [النور]

قلنا إن فضل الجزاء يتناوبه أمران : جزاء بالعدل حين تأخذ ما تستحقه ، وجزاء بالفضل حينما يعطيك ربك فوق ما تستحق ؛ لذلك ينبغي أن نقول في الدعاء اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب . فإن عاملنا ربنا - عز وجل - بالعدل لضيعنا جميعاً

لكن ، في أي شيء ظهر هذا الفضل ؟ ظهر فضل الله على هذه الأمة في أنه تعالى لم يُعَذِّبْهَا بالاستئصال ، كما أخذ الأمم السابقة ، وظهر فضل الله على هذه الأمة في أنه تعالى أعطاها المناعة قبل أن تتعرض للحدث . وحذرنا قديماً من الشيطان قبل أن تقع في المعصية ، وقبل أن تفاجئنا بالأحداث ، فقال سبحانه - ﴿ فَلَمَّا يَأْتِهِمْ إِذَا هَٰذَا عَذْرٌ لَّكَ وَلِرَوِّجِكَ ۚ ۝١١٧﴾ [طه] ولا لفرق الإنسان في دراسة المعاصي .

لأن التنبيه للخطر قبل وقوعه يُربِّي المناعة في النفس ، فلم يتركنا ربنا - عز وجل - في غفلة إلى أن تقع في المعصية ، كما نُحَصِّنُ نحن أنفسنا ضد الأمراض لنأخذ المناعة اللازمة لمقاومتها .

وقوله تعالى ﴿ مَا زَكَّىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [٢١] ﴿ [النور] (زَكَّى) تطهر وتنقى وصفى ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢٢] وقال . ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢١] ﴿ [النور] لانه تعالى سبق أن قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ [١٩] ﴿ [النور] ذلك في ختام حادثة الإفك التي قرأت المجتمع الإسلامي في قمته ، فمضت رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق وروجه أم المؤمنين عائشة وجماعة من الصحابة

لذلك قال تعالى (وَاللَّهُ سَمِيعٌ) لما قيل (عَلِيمٌ) [النور ٢١] بما نكته القلوب من حُبِّ لإشاعة الفاحشة .
ثم يقول الحق سبحانه^(١) .

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾

تورط في حادثة الإفك جماعة من أفاضل الصحابة معن طبع على الخير ، لكنه قتل بما قيل وانساق خلف من روجوا لهذه الإشاعة ،

(١) سبب قول الآية ، قال القرطبي في تفسيره (٤٧١٢/٦) - المظهر من الروايات أن هذه الآيات قرئت في قصة أبي بكر بن أبي قحافة ومسطح بن أثالة ، وذلك أنه كان ابن بنت خالته يكنى من المهاجرين البصريين المصاكين وكان أبو بكر ينفق عليه . فلما كان أمر الإفك رقال مسطح في عائشة ابنة أبي بكر ما قال حنف أبو بكر ألا يتفق عليه ولا ينفعه مضافة أبداً .

(٢) ياتل معناه يحلف وثالث لفظة معناه يفسر [القرطبي ١٧٤٣/٦]

وكان من هؤلاء مسطح بن أثاثه ابن خالة أبي بكر الصديق ، وكان أبو بكر ينفق عليه ويرعاه لفقره ، فلما قال في هاشية ما قال وخاض في حقها أقسم أبو بكر ألا ينفق عليه ، وقد كان يعيش وأهله في سعة أبي بكر وفضله ؛ لأن هذه الفتنة جعلت بعض أهل الخير يظن به .

وهذا نموذج لمن ينكر الجميل ولا يقدر صنائع المعروف ، وهذا الفعل يزهّد الناس في الخير ، ويصرفهم عن عمل المعروف ، والله تعالى يريد أن يصحح لنا هذه المسألة ، فهذه نظرة لا تتفق وطبيعة الإيمان ؛ لأن الذي يعصى الله فيك لا تكافئه إلا بأن تطيع الله فيه .

وحين تترك من أساء إليك لعقاب الله وتعفو عنه أنت ، فإنما تركته للعقاب الأقوى ؛ لأنك إن عاقبته عاقبته بقدرتك وطاقته ، وإن تركته عقابه الله عاقبه بقدر طاقته تعالى وقدرته .

إذن العاقبة أقسى قلباً من المتقم ، وسيق أن مثلاً لذلك بالأخ حين يعتدي على أخيه الأصغر ، فيأتي الأب فيجد صغيره مهاناً مظلوماً ، فيأخذه في حضنه ، ويحاول إرضاءه وتعويضه عما لحقه من ظلم أخيه ، كذلك الحال في هذه المسألة والله المثل الأعلى

ومن هنا يجب عليك أن تسرّ بمنّ جعل الله في جانبك ، وتحسن إليه ، لا أن تردّ له الإساءة بمثلها .

إذن نزلت هذه الآية في مسطح بن أثاثه حين أقسم أبو بكر ألا ينفق عليه وعلى أهله ، وأن يمنع عنه عطائه وبرّه ، نزلت لتصحيح للصديق هذه النظرة وتوجّه انتباهه إلى جانب الخير الباقي عند الله لا عند الناس .

فقال تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولَٰؤِا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ ..﴾ [النور]

﴿يَأْتَلِ ..﴾ [النور] أتلى مثل أتلى تماماً ، ومنها تأتي
يعنى ، حلف وأقسم ، يوجه الحق تبارك وتعالى - الصديق أبا
بكر ، ويذكر لفظ ﴿أُولَٰؤِا﴾ [النور] الدال على الجماعة لتعظيمه
لما له من فضل ومنزلة في الإسلام ، ففي كل ناحية له فضل ، لذلك
أعطاه وصفين مثل ما أعطى للنبي ﷺ ، فقال للصديق : ﴿وَلْيَعْلَمُوا
وَلْيَعْلَمُوا ..﴾ [النور] وقال للنبي ﷺ : ﴿فَاعْلَمْ عَنْهُمْ
واصفح ..﴾ [النور]

كذلك ، ألا ترى الصديق ثانى اثنين في انصار ، وثانى اثنين في
أمر كثيرة ، فهو ثانى اثنين في الهجرة ، وثانى اثنين في قبول
دعوة الإسلام الأولى ، لذلك صدق سيدنا رسول الله ﷺ حين قال عن
الصديق : « كنت أنا وأبو بكر في الجامعة كقرسي رهاق » يعنى -
في التسابق في الخير « فسبقته إلى النبوة فاتبعنى ، ولو سبقنى إليها
لاتبعته »^(١)

ولما كان لأبي بكر أفضال كثيرة في زوايا متعددة لم يخاطبه
بصيغة المفرد ، إنما بصيغة الجمع تكريماً وتعظيماً .

ألا ترى الصديق مع ما عُرِفَ عنه من الحزم ورقة القلب لما انتقل
رسول الله ﷺ إلى الرقيق الأعلى وحدثت مسألة الردة يقف ويقول :
« والله لو منعوني عقال يعير كانوا يؤذونها لرسول الله لجاهدتهم

(١) من أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ : « إن أمة الناس علي في صعبته وماله
أبو بكر ، وإن كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ،
لا يبقين في المسجد باب إلا سدُّ ، إلا باب أبي بكر » أخرجه البخاري في صحيحه
(٢٦٥٤)

بالسيف ، لو لم أجد إلا الذر^(١) .

هذا موقف الصديق رقيق القلب ، لئِنْ اسْجَانِبَ ، صاحب الرحمة والحنان ، لدى تقبول عنه ابتغى ، إِنْه رجل بكَاء^(٢) ، يعنى كثير البكاء . فى حين يعارضه فى أمر الصرب عمر مع ما عُرِفَ عنه من الشدة والقسوة على الكفار . لكن هذا التناقض فى موقف كل منهما يقوم دليلاً على أن الإسلام ليس طبعاً غالباً على المسلم إنما موقف يعود المسلم إليه . فعرفت الردة هو الذى جعل من الصديق أسداً شجاعاً قسياً القلب ، ولو أن عمر فى مكانه من المستولية وفعل كما فعل الصديق لقالوا . شِدَّةُ أَلْفَهَا النَّاسَ مِنْ عَمْرٍ

فكان الإسلام لا يريد أن يطبع المسلم على طبع حسان يظل عليه ، إنما الموقف هو الذى يطبعك إيمانياً ، وهذا ما ذكرناه فى قوله تعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

فالمسلم ليس مظلوماً لا على الشدة وحدها ، ولا على الرحمة وحدها ، إنما عليه أن يتصرف فى كل موقف بما يناسبه على ضوء ما شرع الله

فقلوه تعالى ﴿أُولُوا الْقَصَلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ .. (٢٧)﴾ [البور] يقول للصديق أنت رجل فاضل صديق وعبدك سعة فلا تعطى ولا تؤثر

(١) حديث متفق عليه أخرجه البهاري فى صحيحه (٧٢٨٤ - ٧٢٨٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة بلفظ : « والله لا ملتئمن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو متمنى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه »

(٢) أخرجه البهاري فى صحيحه (٤٧٦) كتاب الصلاة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إلّا قرأ القرآن »

على نفسك من ضيق ، ولا يلبيق بالفاضل أن يقطع صلته ورحمه لمثل هذا الخطأ الذي وقع فيه مسطح ، خاصة أنه أخذ جزاءه كما شرع الله ، وعُوقِبَ بِحَدِّ الْغَدَفِ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وليس لك أن تعاقبه بعد ذلك .

ومن سماحة الإسلام أن مَنْ وقع في حَدٍّ وعُوقِبَ به لا يجوز لأحد أن يُخَيِّرَهُ بَذَنْبِهِ ؛ لأنه تاب وأذنب وظهره الله منه بالحدِّ ، وانتهت للمسألة ، وليس لأحد أن يسجل بين العبد وربه .

فكان الحق - تبارك وتعالى - يقول - ارجع إلى فضلك يا أبا بكر ، وعُدْ أَنْتَ إِلَى سَمْعِكَ ، وَكُنْ مَوْصُولَ الْمَرْوَةِ ، ولا تقطع رحمتك ، يريد - سبحانه وتعالى - أَنْ يُصْقَى مَا فِي النَّفْسِ مِنْ آثَارِ هَذِهِ الْفِتْنَةِ الَّتِي زَلَزَلَتْ الْمَجْتَمِعَ الْمُؤْمِنَ فِي الْمَدِينَةِ

ولا يلبيق بذى الفضل والسُّعة أن يعامل الناس بالعدل ، فصحیح أن مسطح كان يستحق هذه القطيعة وهذا الحرمان ، إنما هذا النجاء لا يلبيق بالصديق صاحب الفضل والسُّعة .

ولو أجريت إحصاء المؤمنين بإلهه وللكافرين في الكون ، ستعلم أن المؤمنين قلة والكافرين كثرة ، فهل قال الله تعالى لجنود خيره في الكون : أعطوا مَنْ آمَنَ ، وادركوا مَنْ كَفَرَ؟ وكسأت الحق - تبارك وتعالى - يعطينا مثلاً في ذاته سر وجل ، فكما أنه يعطي مَنْ كَفَرَ به ويرزقه ، بل ربما كان أحسن حالاً مِنْ آمَنَ ، فانت كذلك لا تمنع عطاءك عَنْ أَسَاءِ إِلَيْكَ .

لذلك يقول سبحانه في آية أخرى :

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْشَةً لَأَهْبَابِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤)

[البقرة]

فَإِنْ كُنْتَ بِأَرَا بِأَحَدٍ وَبَدَرَ مِنْهُ شَيْءٌ فَلَا تَحْلِفْ بِاللهِ أَنْكَ لَا تَبْرُهُ ،
فَقَدْ تَهَدَأَ ثَوْرُكَ عَلَيْهِ ، وَتَرِيدُ أَنْ تَبْرَهُ ، وَتَحْجِجُ بِحَلْفِكَ ، إِنْ :
لَا تَجْعَلُوا اللهُ عُرْضَةً لِحَلْفٍ يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمَعْرُوفِ .

ثُمَّ يَقُولُ سُبْحَانَهُ ﴿ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ
فِي سَبِيلِ اللهِ .. ﴾ (٧٦) [النور] صَحِيحٌ أَنْ مَسْطَحٌ مِنْ ذَوَى قُرْبَى أَبِي
بَكْرٍ وَمِنَ الْمَسَاكِينِ لَكِنْ يَعْصِيهِ اللهُ بِيَشَافَةً أَحَدٍ ، فَلَمْ يَخْرُجْهُ مَا قَالَ
مِنْ وَصْفِ الْمُهَاجِرِ ، وَلَمْ يَخْرُجْهُ ذَنْبُهُ مِنْ هَذَا الشَّرَفِ الْعَظِيمِ .

فَمَنْ فَضَّلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ أَنْ السَّيِّئَةَ لَا تُحِبُّ الْحَسَنَةَ ، إِنَّمَا
الْحَسَنَةُ بَعْدَ السَّيِّئَةِ تَحِبُّهَا ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ
السَّيِّئَاتِ .. ﴾ (١١٤) [مود]

فَرُغَ مَا وَقَعَ فِيهِ مَسْطَحٌ ، فَقَدْ أَبْقَاهُ اللهُ فِي الْعَثْبِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ ،
وَتَحْنِثُ قَلْبَهُ ، وَأَبْقَاهُ فِي الْمُهَاجِرِينَ .

﴿ وَتَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا .. ﴾ (٧٧) [النور] الْعَفْوُ ، تَرْكُ الْعَقُوبَةِ عَلَى
الذَّنْبِ ، لَكِنْ قَدْ تَعْفُو عَنِ الْمَذْنِبِ ثُمَّ تَتَوَبُّهُ . وَتَمَنَّ عَلَى بَعْضِكَ ،
وَتَذْكُرُهُ دَائِمًا أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ مِنْكَ هَذَا الْعَفْوُ ، لِذَلِكَ يَهْنَأُ رَبُّنَا - تَبَارَكَ
وَتَعَالَى - عَلَى إِصْفَاحِ بَعْدِ الْعَفْوِ ، وَالصَّفْحُ ، تَرْكُ الْعَمَلِ وَعَدَمُ ذِكْرِ
الرَّأْيِ بِصَاحِبِهَا حَتَّى تَصْبِيحَ الْعَقُوبَةُ عَنْهُ أَهْوَنَ مِنْ عَفْوِكَ عَنْهُ

ذَلِكَ لِأَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ حِينَمَا يُشْرَعُ لِلْبَشِيرِ مَا يُظْلَمُ الْعِلَاقَاتُ
بَيْنَهُمْ يِرَاعِي جَمِيعَ مَلَكَاتِ النَّفْسِ ، لَا يَقْتَصِرُ عَلَى الْمَلَكَاتِ اِئْتَالِيَةِ
فَحَسِبْ ، إِنَّمَا لِكُلِّ الْمَلَكَاتِ الَّتِي تَنْتَظِمُ الْخَلْقَ جَمِيعًا ، وَلِيَأْخُذَ كُلُّ مَنَّا
عَلَى قَدْرِ إِيمَانِهِ وَامْتِنَالِهِ لِأَمْرِ رَبِّهِ

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ
وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (١٢١) [النور]

ولو تأملنا حقيقة المثلية في ردِّ الإساءة لوجدناها صعبة في تقديرها ، فإنَّ ضربه شخصاً ضربة ، أعنيك القدرة التي تردُّ بها هذه الضربة بمثلاً تاماً بنفس الطريقة ، وب نفس القوة ، وب نفس الألم بحيث لا تكون أنت مُعتدياً ؟ إنك لو تأملت هذه المثلية لفصلت الحقو بدل الدخول في مقاهات أخرى .

وسبق أن ذكرنا قصة المراهب الذي اشترط على المدين إن تأخر في السداد أن يقطع رطلاً من لحمه ، ولما تأخر الرجل في السداد خاضعه عند القاضي ، وأخبره بما كان بينهما من شرط ، وكان القاضي ذكياً فقال للمراهب : خذ السكين واقطع رطلاً من لحمه ، لكن إن زاد أخذناه منك ، وإن نقص أخذناه منك . فتراجع المراهب لأنه لا يستطيع تقدير هذه المسألة .

فإن انصرفنا عن المعاقبة بالمثل وسعنا العفو ، وانتهت المسألة على خير ما يكون .

وفي مرتبة أخرى يقول سبحانه . ﴿ وَالكَافِرِينَ الْغَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢٤) [آل عمران]

فالحق - تبارك وتعالى - يجعل لنا مراتب في ردِّ السيئة ، فالعقاب بالمثل مرتبة ، وكظم الغيظ مرتبة ، والعفو مرتبة ، والصفح مرتبة . وأعلى ذلك كله مرتبة الإحسان إلى من أساء إليك ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢٤) [آل عمران]

ثم يجعل الحق سبحانه من نفسه أسوة لعباده فيقول . ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. ﴾ (٢٢) [التوبة] فكما تحب أن يغفر الله لك ذنبك ، فلماذا لا تغفر أنت لمن أساء إليك ؟ وكان ربنا - عز وجل - يريد أن يصحح ما بيننا ، لذلك لما نزلت هذه الآية في شأن أبي بكر

قال أحب يا رب ، أحب يا رب ، أحب يا رب ^(١) ..

ومعنى ﴿أَلَا ... (٢٢)﴾ [تفرد] أداة للحض واللص على هذا الحلق الطيب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)﴾ [تفرد] فمن تخلق باخلاق الله تعالى فليكن له عفوان ، وليكن لديه رحمة ، ومن منا لا يريد أن يتصف ببعض صفات الله ، فيتصف بأنه غفور ورحيم ؟
ثم يقول الحق سبحانه .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَأُنَازِلُنَّ فِي الْأَنْبِيَاءِ الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾

نلاحظ أن الآيات تحدثت عن حد القذف وما كان من حادث الإفك ، ثم ذكرت آية العتاب لأبي بكر في مسألة الرزق ، ثم عاد السياق إلى القضية الأساسية ، قضية القذف ، فلماذا دخلت مسألة الرزق في هذا الموضوع ؟

قالوا . لأن كل معركة فيها خصومة قد يكون لها أثر تتعلق بالرزق ، والرزق تكفل الله به لعباده ؛ لأنه سبحانه هو الذي استدعاهم إلى الوجود ، سراء المؤمن أو الكافر ، وحين تعطي المحتاج فإنما أنت مناول عن الله ، ويد الله الممدودة بأسباب الله

والحق تبارك وتعالى يحترم ملكية الإنسان مع أنه سبحانه ورازقه

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢٧٦) أن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : بلى والله إذا أحب أن تغفر لنا يا رب . ثم رجع إلى مسطح ما كلن يهمله من الإنفلة وقال لا أنزعها عنه أبداً ، في مقابلة ما كان قال ، والله لا نفعه بدفعة أبداً

(٢) المحصنة التي أحصنها زوجها والمحصنات العاطف من النساء [لسان العرب - مادة حصن]

ومعطيته ، لكن طالما أعطاه صار العطاء ملكاً له ، فإن حُتّه على النفقة بعد ذلك يأخذها منه قرضاً ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضاً حسناً .. ﴾ (٢٤٥)

[البقرة]

لأن أنفق المومنين على المعسر جعله الله قرضاً ، وتولى سداده بنفسه ، ذلك لأن الله تعالى لا يرجع في هبته ، فطالما أعطاك الرزق ، فلا يأخذ منك إلا قرضاً .

لذلك يقول تعالى : ﴿ هَأنأنتم هؤلاء تدعون لتبعنوا في سبيل الله فبئكم من يخلُ ومن يخلُ فإنما يخلُ عن نفسه .. ﴾ (٣٨) [محمد]

وفي موضع آخر يقول عن الاموال : ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُهَا فِيمَ هُمْ ﴾^(١) تخرجوا ويخرج أضعافكم ﴾ (٣٧) [محمد] لأن الإنسان تعب في جمع المال وعرق في سبيله ، وأصبح عزيزاً عليه ؛ لذلك يخل به ، فأخذه الله منه قرضاً مردوداً بزيادة ، وكان الرزق والمال بهذه الأهمية لأنه أوى مقام لعمارة الخليفة في الأرض ، لذلك ترك الحديث عن القضية الأساسية هنا ، وذكر هذه الآية التي تتعلق بالرزق .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى .. ﴾ (٢٣٨) [البقرة] وقد تكرر وسط مسائل تتعلق بالعبادة والكفارة ، وعدة المتوقفي عنها زوجها ، فما علاقة الصلاة بهذه المسائل ؟

قالوا لأن التزامات التي تحدث غالباً ما تُغيّر النفس البشرية وتثير حفيظتها ، فإذا ما قمت للوضوء والصلاة تهدأ نفسك وتطمئن .

(١) أعطاه الله عليه في السؤال أو طلبه بقوة وإصرار . قال تعالى : ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُهَا فِيمَ هُمْ ﴾ تخرجوا . [محمد] أي إن يجهدكم يطلبها ويحث عليكم تبطلوا [الأنعام: ١١٣]

وتستقبل مسائل الخلاف هذه بشيء من القبول والرضا .

نعود إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِلَاتِ ..﴾ [النور] المحصنة : لها (طلاقات ثلاث ، فهي المتزوجة لأن الإحصان : الحفظ وكأنها حفظت نفسها بالزواج ، أو هي العفيفة ، وإن لم تتزوج فهي مُحْصَنَةٌ نسي ذاتها ، والمحصنة هي أيضاً الحرة : لأن عملية البقاء والربا كانت خاصة بالإماء .

و ﴿الْفَافِلَاتِ ..﴾ [النور] : جمع غفلة ، وهي التي لا تدري يمثل هذه المسائل ، وليس في يالها شيء عن هذه العملية ، ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ سأل بريدة خادمة السيدة عائشة : ما تقولين في عائشة يا بريدة ؟ ، فقالت : تعجن العجين ثم تنام بجانبه فتأتي الدواجن فتأكله وهي لا تدري^(١) . وهذا كناية عن الغفلة لأنها ما زالت صغيرة لم تنضج نُضِجَ المرافقة ومع نُضِجَ المرافقة نُضِجَ اليقين والإيمان .

وتلاحظ هذه الغفلة في البنت الصغيرة حين تقول لها : أنتزوجين فلاناً ؟ تقول لا أنا أتزوج فلاناً ، ذلك لأنها لا تدري معنى العلاقة الزوجية ، إنما حينما تكبر وتفهم مثل هذه الأمور فإن زكوت لها الزواج تستحي وتخزي أن تتحدث فيه ، لأنها عرفت ما معنى لزواج . لذلك لما أمرنا الشرع باستئذان البنت للزواج جعل إذنها سكوتها ، فإن سكنت فهذا إذن منها ، ودليل على فهمها لهذه العلاقة ، إنما إن

(١) قطعة من حديث طويل عن حادثة الإكراه أميرة البعاري في صحيحه (٢٦٩ - ٢٧٢ - بشرح فتح الباري) عن عائشة رضي الله عنها ونحوه : أن علي بن أبي طالب قال يا رسول الله ، لم يفسق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وعل الجارية تصدك أفدع رسول الله ﷺ بريدة فقال يا بريدة هل رأيت فيها شيئاً يرييك ؟ فقال بريدة : لا والذي يملك بالعق ، إن رأيت منها أمراً أعصيه عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتي الدواجن فتأكله .

قالت . نعم أتزوجه لأنه جميل و . و . ، فهذا يعنى أنها لم تفهم بعد معنى الزواج .

إذن . الغافلة حتى عن مسائل الزواج والعلاقات الزوجية ، ولا تدرك شيئاً عن مثل هذه الأمور كيف تفكر فى الزنا ؟

ثم يذكر ربنا - تبارك وتعالى - جزاء هذه الجريمة . ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ [النور]

وإن كانت الغافلة هى التى ليس فى بالها مثل هذه الأمور ، ولا تدرك شيئاً حتى عن الزواج والعلاقات الزوجية بين الرجل والمرأة ، فهكيف تقول إنها تفكر فى هذه الجريمة ؟

واللعن . هو الطرد والإبعاد من رحمة الله ، وأيضاً الطرد والإبعاد عن حظيرة المؤمنين ؛ لأن القاذف حكمه أن يُقام عليه لحد ، ثم تسقط شهادته ، ويسقط اعتباره فى المجتمع الذى يعيش فيه ، فجمع الله عليه الخزي فى الدنيا بالحد وإسقاط الاعتبار ، إلى جانب عذاب الآخرة ، فاللعن فى الدنيا لا يعنيه من عذاب الآخرة .

وقدنا إن العذاب يلام حتى ، وقد يوصف العذاب مرة بالميم ، ومرة بمهين ، ومرة بعظيم^(١) ، هذه الأوصاف تدور بين العذاب

(١) - ورد وصف العذاب بالميم فى ٧٢ موضعاً فى القرآن منها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بما كانوا يَكْفُرُونَ ﴿١٥﴾ [البقرة] ، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الأنعام] .

وورد وصف العذاب بأنه مهين فى ١٤ موضعاً منها ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [١٥] [البقرة] ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾ [٢٧] [الأحزاب] .

- ورد وصف العذاب بالعظيم فى ٢٢ موضعاً منها ﴿وَعَلَى أَعْقَابِهِمْ لَهْزَؤَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [١٥] [البقرة] ، ﴿وَنُحِيطُ بِهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [١٢] [النساء]

وبالإضافة لهذا فقد وصف الحق سبحانه العذاب بأوصاف أخرى ، منها

- عذاب شديد ٢١ مرة	- عذاب مليم ٥٠ مرات
- عذاب الخلد مرتان	- عذاب الخزي مرتين
- عذاب غليظ ٤ مرات	- عذاب لرب ١ مرة واحدة
- عذاب خير مبرود ١ مرة واحدة	- عذاب العصور ٤ مرات ومبرها .

والمُعَذِّبُ ، فمن الناس مَنْ لا يؤلمه الجُذْدُ ، لكن يهينه ، فهو في حقه عذاب مهين لكرامته . أما العذاب العظيم فهو فوق ما يتصوره المتصور : لأن العذاب إيلاء من مُعَذِّبٍ لمُعَذِّبٍ ، والمُعَذِّبُ في الدنيا يُعَذِّبُ بأيدي البشر وعلى قُدْر طاقته ، أما العذاب في الآخرة فهو بجبروت الله وقهره الله : لذلك يوصف بأنه عظيم .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٤)

نعلم جميعاً أن اللسان هو الذي يتكلم ، فمأنا أضافت الآية ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ ..﴾ (٢٤) [النور]

قالوا . في الدنيا يتكلم اللسان وينطق ، لكن المتكلم في الحقيقة أنت ، لأنه ما تحرك إلا بمرادك له ، فاللسان آلة خاضعة لإرادتك ، إذن . فهو مجرد آلة أما في الآخرة فسوف ينطق اللسان على غير مراد صاحبه ؛ لأن صاحبه ليس له مراد الآن .

ولتقريب هذه المسألة - ألا ترى كيف يخرس الرجل اللبيب المتكلم . ويُمسك لسانه بعد طلاقته . بسبب مرض أو نحوه ، فلا يستطيع بعدها الكلام ، وهو ما يزال في سعة الدنيا فما الذي حدث ؟ مجرد أن تعطلت عنده آلة الكلام ، فهكذا الأمر في الآخرة . تعطل إرادتك وسيطرتك على جوارحك كلها ، فتنطق وتنحرك ، لا بإرادتك ، إنما بإرادة الله وقدرته .

فالمعنى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ ..﴾ (٢٤) [النور] أي . شهادة ونطقاً على مراد الله ، لا على مراد أصحابها .

ولم نستبعد نُطْقَ اللسان على هذه الصورة ، وقد قال تعالى .
﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٢١) [يس] وقد جعل
فيك أنت أيها الإنسان نموذجاً يؤكد صدق هذه القضية . فقل لي .
ماذا تفعل إن أردت أن تقوم الآن من مكان ؟ مجرد إرادة القيام ترى
نفسك قد قُمْتَ دون أن تفكر في شيء ، ودون أن تستجمع قواك
وفكرك وعضلاتك ، إنما تقوم تلقائياً دون أن تدري حتى كيفية هذا
القيام . وأي عضلات تحركت لأداءه

راك أن تقارن هذه الحركة التلقائية السليسة بحركة الحفار أو
الأوتاش الكبيرة وكيف أن السائق أمامه عدد كبير من العصي
والأذرع ، لكل حركة في الآلة ذراع معينة .

ماذا كان لك هذه السيطرة وهذا التحكم في نفسك وفي أعضائك ،
فكيف تستبعد أن يكون لربك - عز وجل - هذه السيطرة على خلقه
في الآخرة ؟

إذن . فاللسان محلّ القوى ، وهو طَوْع إرادته في الدنيا ، أما في
الآخرة فقد شَلَّتْ هذه الإرادة ودخلت في قوله تعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ
الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (١٦) [غافر]

ثم يقول سبحانه . ﴿ وَأَيَّدِيهِمْ وَأَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٧)
[النور] وهذه جوارح لم يَكُنْ لها تعلق في الدنيا لكنها ستنتطق اليوم .
ويحاول العلماء تقريب هذه المسألة فيقولون إن الجارحة حين تعمل
أي عمل يلتقط لها صورة تسجل ما عملت ، منطلقها يوم القيامة أن
تظهر هذه الصورة التي التقطت

والأقرب من هذا كله أن نقول : إنها تنتطق حقيقة ، كما قال تعالى
حكايه عن الجوارح . ﴿ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ

الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٦﴾ [فصلت]

ومعنى . ﴿الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أن لكل شيء في الكون نطقاً يناسبه ، كما نطقت النملة وقالت . ﴿يَسْأَلُهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ..﴾ (١٨) [النمل] ونطق الهمد ، فقال . ﴿أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ رَجَّتْكَ مِنْ سَيِّئَاتِنَا يَعْزُبُ﴾ (٢١) [النمل]

وإذ قال تعالى عن نطق هذه الأشياء . ﴿وَأَنْ يَنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..﴾ (٤٤) [الإسراء]

لكن ، إن أراد الله أن يفقه نطقهم فليكن كما فقه سليمان عليه السلام ، حين فهم عن النملة . ﴿فَتَسَمَّيْنَاهُ نَمْلَةً مِنْ قَوْلِهَا ..﴾ (١٩) [النمل] كما فهم عن الهمد ، وخاطبه في قضية العقيدة .

وإن كان النطق عادة يفهم عن طريق الصوت ، فكل خلق نطقه الذي يفهمه جنسه ؛ لذلك نسمع الآن مع تقدم العلوم عن لغة الأسماك ، ولغة للنمل .. إلخ .

وسبق أن قلنا : إن الذين قالوا من معجزات النبي ﷺ أن الحصى سبَّح في يده ، نقول عليكم أن تعدلوا هذه العبارة ، قولوا : سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى في يده . وإلا فالحصى مُسَبِّح في يده ﷺ ، كما هو مُسَبِّح في يد أبي جهل .

ولو سألت هذه الجوارح : لم شهدت على وأنت التي فعلت ؟ لقالت لك . فعلنا لأننا كنا على مرادك مقهورين لك ، إنما يوم تنحل عن إرادتك ونخرج عن قهرك ، فلن نقول إلا الحق . ثم يقول الحق سبحانه .

﴿يَوْمَ يَكْفُرُ بِيُوفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ
أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (٢٥)

قوله ﴿يَوْمَ يَكْفُرُ .. (٢٥)﴾ [النور] أى يوم أن تحدث هذه الشهادة ، وهو يوم القيامة ﴿يُوفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ .. (٢٥)﴾ [النور] الدين : يُطلق على منهج الله بهداية الخلق ، ويُطلق على يوم القيامة ، ويُطلق على الجزاء

فالمعنى يوفيههم الجزاء الذى يستحقونه ﴿الْحَقُّ .. (٢٥)﴾ [النور] أى العدل الذى لا ظلم فيه ولا تفسير ، فليس الجزاء جوراً ، إنما جزاء بالحق ؛ لأنه لم يحدث منهم توبة ، ولا تجديد إيمان ، لذلك لا بد أن يقع بهم ما حذرناهم منه وأخبرناهم به من العقاب ، وليس هناك إله آخر يُغيّر هذا الحكم لو يضره عنهم .

لذلك بعد أن قال تعالى ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ^(١) وَتَبَّ^(٢) مَا أَشْنَىٰ عَذَابُهُ^(٣) وَمَا كَسَبَ^(٤) سَيِّئَاتٍ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ^(٥) وَأَمْرَأَتُهُ^(٦) حَمَّالَةَ الْخَطَلِ^(٧) فِي جِيدِهَا حَمْلٌ مِّن مَّسَدٍ^(٨)﴾ [المسد]

قال بعدها . ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ^(١) اللَّهُ الصَّمَدُ^(٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ^(٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ^(٤)﴾ [الإخلاص]

(١) أبو لهب : هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، قوضى ، عم رسول الله ﷺ من أشد الناس عدوة للمسلمين ، كان غنياً حنياً ، كثير طيه أن يتبع ديناً جاء به ابن أخيه ، مكاذب أنصروه ، وحرص طيهم ولقائهم ، كان أحمر الوجه مشرقاً ، فلقب في الجاهلية بأبي لهب ، مات بعد وفاة عمر بأيام عام ٦ هـ . [الأعلام للزركلى ١٢/٤]

(٢) هى . أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهى أخت أبى سفيان ، وكانت عوثاً لزوجها أبى لهب طى كثره وجهوده وحسنه ، فهذا تكيد يوم القيامة عوثاً عليه فى عذابه فى نار جهنم فتحمل الخطب فتلقى على زوجها ليرداه على ما هو فيه [فقه ابن كثير فى تفسيره ٥٦٤/٤] .

يعنى . ليس هناك إله آخر يُغَيَّرُ هذا الكلام ، فما قلته سيحدث
لا محالة

ثم يقول تعالى : ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)﴾ [النور] و
﴿الْحَقُّ .. (٢٥)﴾ [النور] هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، فكل ما عدا
الله تعالى مُتَغَيِّرٌ ، إذن فالله بكل صفات الكمال فيه سبحانه لا يتغير
فيه ، لذلك يقولون إن الله تعالى لا يتغير من أجلنا ، ولكن يجب أن
نتغير نحن من أجل الله ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَهُمْ
حَتَّى يُفَرِّقُوا مَا بَيْنَهُمْ .. (١١)﴾ [الرعد]

فالله هو الحق الثابت ، هذا بالبراهين العقلية وبالواقع ، وقد عرفنا
الكثير من البراهين العقلية ، أم لواقع فإلى الآن لم يظهر من يقول
أنا الله ويدعى هذا الكون لنفسه ، وصاحب الدعوى تثبت له إن لم يَقمْ
عليها معارض ومعنى ﴿الْمُبِينُ (٢٥)﴾ [النور] الواضح الظاهر الذى
تشمل أحقيته الوجود كله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿الْغَيْبَاتُ لِلْغَيْبِينَ وَالْخَبِيرَاتُ لِلْخَبِيرَاتِ
وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ
مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)﴾

قلنا في تفسير ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا
يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ .. (٢)﴾ [النور] أن الزواج يقوم على التكافؤ ،
حتى لا يستعلى طرف على الآخر ، ومن هذا التكافؤ قوله تعالى :
﴿الْغَيْبَاتُ لِلْغَيْبِينَ وَالْخَبِيرَاتُ لِلْخَبِيرَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ
لِلطَّيِّبَاتِ .. (٢٦)﴾ [النور]

ثم يقول سبحانه : ﴿أُولَئِكَ ..﴾ [النور] أى . الذين دارت عليهم حادثة الإفك ، وخاض الناس في حقهم ، وهما عائشة وصفران ﴿مُبرءون مما يُقرءون ..﴾ [النور] أى . مما يُقال عنهم ، بدليل هذا التكافؤ الذى ذكرته الآية . فمن أطيب من رسول الله ﷺ ، وكما ذكرنا أن الله تعالى ما كان ليدلس على رسوله ﷺ ويجعل من زواجه من تحوم بحولها للشبهات .

إذن . فلا بد أن تكون عائشة طيبة طيبة تكافى وتناسب طيبة رسول الله : لذلك برأها الله مما يقول المفترون .
وقوله : ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور] مغفرة نزلت من السماء قبل القيامة ، ورزق كريم ، صحيح أن الرزق كله من الله بكرم ، لكن هنا يراد الرزق المعنوي للكرامة والمغفرة وللسمو ، لا الرزق المسمى الذى يقيم قوام البدن من أكل وشرب وخلافه .
ثم يقول الحق تبارك وتعالى .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ
حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا^(١) وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

كلمة بيت . نفهم منها أنه ما أعد للبيتوتة ، حيث يلوى إليه الإنسان آخر النهار ويرتاح فيه من عناء اليوم . ويسمى أيضاً الدار ؛ لأنها تدور على مكان خاص بك ، لذلك كانوا في الماضي لا يسكنون إلا في بيوت خاصة مستقلة لا شركة فيها مثل العمارات الآن ،

(١) أى : حتى تطهروا أنفسكم والألفة والرحمة . أو حتى تستشعروا أنفسكم وتعلموه [القاموس المبرمج ٢٧/١] .

يقولون بيت من بابه . حيث لا يدخل ولا يخرج عليك أحد ، وكان السكّن بهذه الطريقة عصمة من الريبة ؛ لأنه بيته الخاص بأهلك وحدهم لا يشركهم فيه أحد .

لكن هناك أمور تقتضى أن يدخل الناس على الناس ، لذلك تكلم الحق - تبارك وتعالى - هنا عن آداب الاستئذان وعن العبادىء والنظم التى تنظم هذه المسألة ؛ لأن ولوج البيوت بغير هذه الآداب ، ودون مراعاة لهذه النظم يسبب أمورا تدعو إلى الريبة والشك ؛ لذلك فى الفلاحين حتى الآن ، إذا راوا شخصا غريبا يدخل حارة^(١) لا علاقة له بها لا بد أن يسأل لماذا دخل هنا ؟

إنن : فشرع الله لا يحرم المجتمع من التلاقى ، إنما يضع لهذا التلاقى حدودا وآدابا تنفى الريب والشبهة التى يمكن أن تأتى فى مثل هذه المسائل

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى آداب الاستئذان : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ..﴾ (٢٧)

﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ..﴾ (٢٧) [النور] من الأنس والاطمئنان ، فحين تجلس وأهلك فى بيتك ، وأهل عليك غريب لا تعرفه ، إذا لم يقدم لك ما تأنس به من الحديث أو الاستئذان لا بد أن تحدث منه وحشة ونفور إذن ، على المستأذن أن يحدث من الصوت ما يأنس به صاحب الدار ، كما نقول يا أهل الله ، أو نطرق الباب ، أو نتحدث مع الولد الصغير ليخبر من بالبيت .

ذلك لأن للبيوت حرمتها ، وكل بيت له خصوصيات التى لا يجب

(١) الحارة : كل محلة دلت منازلهم لهم أهل حارة [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة : حير]

صاحب البيت أن يطلع عليها أحد ، إما كرامة لصاحب البيت ، وإما كرامة للزائر نفسه ، فالاستئذان يجعل الجميع يتحاشى ما يؤذيه .

لذلك قال تعالى بعدها . ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ۞ (٢٧) ﴾ [النور]

أي . خير للجميع ، للزائر وللمزور ، فالاستئذان يمنع أن يتجسس أحد على أحد ، يمنع أن ينظر أحد إلى شيء يؤذيه ، وهب أن أبا الزوجة أراد زيارتها ودخل عليها فجأة فوجدتها في شجار مع زوجها ، فلربما اطلع على أمور لا ترضيه ، فيتقدم الخلاف .

ثم تختم الآية بقوله تعالى . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) ﴾ [النور] يعني احذروا أن تعفلوا هذه الآداب ، أو تنهاونوا فيها ، كمن يقولون : نحن أهل أو أقرب لا تكليف بيننا ، لأن الله تعالى الذي شرع لكم هذه الآداب أعلم بما مى نفوسكم ، وأعلم بما يصلحكم

بل ويتعدى هذا الأدب الإسلامى من الغريب إلى صاحب البيت نفسه ، ففي الحديث الشريف « نهى أن يطرق المسافر أهله بليل »^(١) إنما عليه أن يخبرهم بقدومه حتى لا يفاجئهم وحتى يستعد كل منهما لملاقاة الآخر .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُوْذَنَ
لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۞ (٢٨) ﴾

(١) عن جابر بن عبد الله قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا أمان لعدكم المدينة فلا يطرق أهله بيل » أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٤٤) ومسلم فى صحيحه (١٥٢٨/٢) كتاب الإمارة

فإذا استأذنت على بيت ليس فيه أحد ، فلا تدخل ؛ لأنك جئت للمكين لا للمكن ، إلا إذا كنت تريد الدخول لتتخلص على الناس وتجلس عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ .. ﴾ (٢٨) [النور] كيف والدار ليس فيها أحد ؟

ربما كان صاحب الدار خارجها ، فلما رآك تستأذن نادى عليك من بعيد : تفضل . فلا بد أن يأذن لك صاحب الدار أو من ينوب عنه في الإذن ؛ لأنه لا يأذن إلا وقد أمن خلو الطريق مما يؤذي ، أو مما يؤذي أهل البيت

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ۖ .. ﴾ (٢٨) [النور]

لأنك إن تمسكت بالدخول بعد أن قال لك : ارجع فقد أثرت الريبة في نفسك ، فعليك أن تعقل وتحترم رغبة صاحب الشأن ، فهذا هو الأزكى والأفضل ، ألا ترى قول رسول الله ﷺ : دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ ^(١) .

﴿ وَأَلَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (٢٨) [النور] أى : عالم سبحانه بديعائل النفوس ووسائل الصدور ، فإن قال لك صاحب الدار ارجع فوقف أمام الباب ولم تنصرف ، فإنك تقير حولك الخلق والأوهام ، وربك - عز وجل - يريد أن يحميك من الظنون ودخائل النفوس

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (١١٧٨) والإمام أحمد في مسنده (٢٠٠/١) والترمذي في مسنده (٢٥١٨) وقال : حديث حسن صحيح ، من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وتامه : « فإن الصدق طمانينة ، وإن الكذب ريبة »

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا ضَرَفْتُمْ مَسْكُونَةً فِيهَا مَتَاعٌ
لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْذُرُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٩)

سأل الصديق أبو بكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ . يا رسول الله نحن قوم أهل تجارة ، نذهب إلى بلاد ليس لنا فيها بيوت ولا أهل ونضطر لأن نازل في أماكن (عامة كالغداق) نضع فيها متاعنا وببيت بها ، فنزلت هذه الآية^(١)

و ﴿جُنَاحٌ ..﴾ (٢٩) [النور] يعني . إثم أو حرج ، وهذه خاصة بالأماكن العامة التي لا يسكنها أحد بعينه ، والمكان العام له قوانين في الدخول غير قوانين البيوت والأماكن الخاصة ، فهل تستأذن في دخول الفندق أو المحل التجاري أو الحمام ... إلخ ، هذه أماكن لا حرج عليك في دخولها دون استئذان .

فمعنى ﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ..﴾ (٢٩) [النور] أي : لقوم محصورين ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ..﴾ (٢٩) [النور] كأن نقام فيها وتاكل وتشرب وتضع حاجياتك ، فالمتاع هنا ليس على إطلاقه إنما مفيد بما أحله الله وأمر به ، فلا يدخل في المتاع المحرمات .

لذلك قال بعدها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْذُرُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٩) [النور] يعني . في تحديد الاستمتاع ، فلا تأخذه على إطلاقه فتدخل فيه

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة قال : لما نزلت آية الاستئذان في البيوت ، قال أبو بكر يا رسول الله ، فكيف يتجار قريش الذين يختلفون (أي ينتقلون ويترددون) بين مكة والمدينة والشام ، ولهم بيوت معلومة على الطريق . فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان ؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ..﴾ (٢٩) [النور] أورده السيوطي في أسباب النزول (ص ١٢٧ - طبعة دار التحرير للطبع والنشر ١٩٦٢م) .

الحرام ، وإلا قالبايا كثيرا ما يرتادون مثل هذه الأماكن ، لذلك يُحصنك ربك ، ويعطيك العناية اللازمة لحمايتك .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُوا مِنْ أَجْسِدِهِمْ وَمَحْفُظَاتِ أَرْوَاجِهِمْ
ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٢٠)

تحدثت سورة النور من أولها عن مسألة الزنا والقذف والإحصان ، وحذرت من اتباع خطوات الشيطان التي تؤدي إلى هذه الجريمة ، وتحدثت عن التكافؤ في الزواج ، وأن الزاني للزانية ، والزانية للزاني ، والخبثون للخبثات والطيبون للطيبات .

وهذا منهج متكامل يضمن سلامة المجتمع والخليفة لله في أرضه ، قاله تعالى يريد مجتمعا تضيء فيه أقيم أسامية ، مجتمعا يخلو من وسائل (العكنة) والمخالفة والشجواء والبغضاء ، فلو أننا طبقنا منهج الله الذي ارتضاه لنا لارتاح الجميع في ظله

ومسألة غرض البصر التي يأمرنا بها ربنا - عز وجل - في هذه الآية هي صمام الأمان الذي يحمينا من الانزلاق في هذه الجرائم البشعة ، ويسد الطريق دونها ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُوا مِنْ أَجْسَادِهِمْ .. ﴾ (٢٠)

وقلنا : إن للإنسان وسائل إدراكات متعددة ، وكل جهاز إدراك له مناط ، فالأذن تسمع الصوت ، والأنف يشم الرائحة ، واللسان للكلام ، ولذوق المطعومات ، والعين لرؤية المرئيات ، لكن أفتن شيء يصيب الإنسان من ناحية الجنس هي حسنة البصر ، لذلك وضع

الشارع الحكيم العناية اللازمة في طرفي الرؤية في العين الباصرة وفي الشيء المبصر ، فأمر المؤمنين بغض أبصارهم ، وأمر المؤمنات بعدم إبداء الزينة ، وهكذا جعل العناية في كلا الطرفين .

وحين تتأمل مسألة غَضُ البصر تجدنا من حيث القسمة العقلية تدور حول أربع حالات الأولى أن بغضُ هو بصره ولا تبدى هي زينتها ، فخطُ الفتنة مقطوع من المرسل ومن المستقبل ، للثانية أن بغضُ هو بصره وأن تبدى هي زينتها ، الثالثة أن ينظر هو ولا تبدى هي زينتها . وليس هناك خطر على المجتمع أو فتنة في هذه الحالات الثلاث فلذا توفّر جانب انعدام الآخر إنما الخطر في القسمة الرابعة وهي أن ينظر هو ولا يغضُ بصره ، وأن تتزين هي وتبدى زينتها ، ففي هذه احوالة فقط يكون الخطر

إذن . فالحق - تبارك وتعالى - حرّم حالة واحدة من أربع حالات ؛ ذلك لأن المحرمات هي الأقل دائماً ، وهذا من رحمة الله بنا ، بدليل قوله تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ .. ﴾ (١٥١) [الأنعام] فالمحرمات هي المحصورة لعدودة ، أما المطلات فهي فوق الحصر والعد ، فالأصل في الأشياء أنها حلال ، وإذا أراد الحق سبحانه تحريم شيء نصّ عليه ، فانظر إلى هذه المعاملة الطيبة من ربك عز وجل .

وكما أمر الرجل بغضُ بصره ، كذلك أمرت المرأة بغضُ بصرها ، لأن الفتنة قد تكون أيضاً للرجل ذي الوسامة و فإِنَّ كَانَ حَظُّ المرأة في رجل تتفحمة العين فلربما نظرت إلى غيره ، فكما يُقال في الرجال يُقال في النساء .

هذا الاحتياط وهذه الحدود التي وضعها الله عز وجل وألزمنا بها

إنما هي لمتع هذه الجريمة البشعة التي بُدِئَتْ بها هذه السورة ، لأن
التنظر أول وسائل الرِّزَا ، وهو البريد لما بعده ، ألا ترى شوقي رحمه
الله حين تكلم عن مراحس العزَل يقول .

نَظْرَةٌ فَاِبْتِسَامَةٌ فَسَلَامٌ فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءٌ

فالامر بِغَضْرِ البصر ليسُ منافذ فساد الاعراض ، وَمَنْعُ اسباب
تلوث النسل ، لِيَأْتِيَ الْخَلِيفَةُ فِي الْاَرْضِ طَاهِرًا فِي مَجْتَمَعٍ طَاهِرٍ
نَظِيفٍ شَرِيفٍ لَا يَتَعَالَى فِيهِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، بَانَ لَهُ نَسَبًا وَشَوْفًا ،
وَالْآخِرُ لَا نَسَبَ لَهُ

ذلك ليعلمن كل إنسان على أن مَنْ يَلِيهِ فِي الْخِلَافَةِ مِنْ أَبْنَاءِ أَوْ
أَحْفَادٍ إِنَّمَا جَاءُوا مِنْ طَرِيقٍ شَرْعِيٍّ شَرِيفٍ ، فَيَجْتَهِدُ كُلُّ إِنْسَانٍ فِي أَنْ
يُنْشِئَ أَطْفَالَهُ تَنْشِئَةً فِيهَا شَفَقَةٌ ، فِيهَا حَنَانٌ وَرَحْمَةٌ ، لِأَنَّهُ وَائِقٌ أَنَّهُ
وَلَدُهُ ، لَيْسَ مَدْمُوسًا عَلَيْهِ ، وَغَلِبَ الظَّنُّ أَنَّ الَّذِينَ يُهْمَلُونَ أَصْعَالَهُمْ وَلَا
يُرَاعَوْنَ مَصَالِحَهُمْ يَشْكُرُونَ فِي نَسَبِهِمُ إِلَهُهُمْ .

ولا يصل المجتمع إلى هذا الطُّهْرِ إِلَّا إِذَا ضَمِنَتْ لَهُ الصِّيَانَةُ
الْكَافِيَةُ ، لِذَلَا تَشْرُدُ مِنْهُ غَرَائِزُ الْجِنْسِ ، فَيَعْتَدِي كُلُّ نَظَرٍ عَلَى مَا لَا
يَحِلُّ لَهُ ، لِأَنَّ التَّنَظَرَ بَرِيدٌ إِلَى الْقُلُوبِ ، وَالْقُلُوبُ بَرِيدٌ إِلَى الْجِنْسِ ، فَلَا
يَعْفُ الْفَرْجُ إِلَّا بِعَفَافٍ ابْنَظُر .

ونلاحظ في قوله تعالى . ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴾
(٢٠) [السور] دقة بلاغ الرسول عن ربه - عز وجل - وأمانته في نقل
العبارة كما أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ ، ففي هذه الآية كان يكفي أن يقول رسول
الله غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، لكنه التزم بنص ما أُنْزِلَ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ
يُنْزَلْ لِلْأَحْكَامِ فَقَطْ ، وَإِنَّمَا الْقُرْآنُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْمُنْزَلُ عَلَى رَسُولِهِ
وَالَّذِي يُتَعَبَّدُ بِتِلَاوَتِهِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُبَلِّغَهُ الرَّسُولُ كَمَا جَاءَهُ مِنْ رَبِّهِ .

أو أن ﴿مِنْ..﴾ [٢٠] ﴿[النور] هنا لتأكيد العموم في أدنى مراحله ، وسبق أن تكلمنا عن (مِنْ) بهذا المعنى ، ونحن كلما توغلنا في التفسير لا بد أن نقابلنا أشياء ذكرناها سابقاً ، ونحيل القارئ عليها .

قلنا : فرق بين قولك . ما عندي مال ، وقولك . ما عندي من مال . ما عندي مال ، يحتمل أن يكون هناك مال قليل لا يُعْتَد به ، لكن ما عندي من مال نفى لجنس المال مهما قل ، فعنْ تعني بداية ما يقال له مال .

فالمعنى هنا : ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ..﴾ [٢١] ﴿[النور] يعني بداية ما يُقال له بصر ، ولو لمحة خاطفة ، ناهيك عن التأمل وإدامة البصر .

وقلنا إن الشرع لا يتدخل في الخواطر القلبية والهواجس ، إنما يتدخل في الأعمال الزوجية التي يترتب عليها فعل ، قلنا : لو مورت ببستان قرايت به وردة جميلة ، فاعجبت بها وسُررت وانبسطت لها أساور نفسك ، كل هذا مباح لك لا حرج عليك فيه ، فإن تعدى الأمر ذلك فمددت إليها يدك لتقتطفها ، هنا يتدخل الشرع يقول لك : كف ، فليس هذا من حَقك لأنها ليست لك .

هذه قاعدة عامة في جميع الأعمال لا يستثنى منها إلا النظر وحده . وكأن ربنا - عز وجل - يستسمحنا فيه ، هذه المسألة من أجلنا ولصالحنا نحن ولراحتنا ، بل قل رحمة بنا وشفقة علينا من عواقب النظر وما يُخلّفه في النفس من عذابات ومواجيد .

نفى نظر الرجل إلى المرأة لا نقول له : انظر كما تحب واعشق كما شئت ، فإن فزعت إلى ضمة أو قبلة قلنا لك حرام . لماذا ؟ لأن الأمر هنا مختلف تماماً ، فعلاقة الرجل بالمرأة لها مراحل لا تنفصل إحداها عن الأخرى أبداً .

فساعة تنظر إلى المرأة هذا إدراك ، فإن أعجبك وأبسطت لها أساريرك ، فهذا وجدان ، لا بد أن يترك في تكوينك تفاعلاً كيمياوياً لا يهدأ ، إلا بأن تنزع فإن طلوعت نفسك في النزوع فقد امتدبت ، وإن كبت في داخلك هذه العواصف أصابتك بعقد نفسية ودعتك إلى أن تبحث عن وسيلة أخرى للنزوع ؛ لذلك وضعك ربك من بداية الأمر ودعاك إلى منع الإدراك بغض البصر .

لذلك بعد أن أمرنا سبحانه بغض البصر قال : ﴿ وَيَحْضَمُوا مُرُوجَهُمْ ۖ ۝٢٤﴾ [النور] لأنك لا تملك أن تفصل النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان عن الإدراك ، وإن أمكن ذلك في الأمور الأخرى ، فحين نمنعك من قطف الرودة التي أعجبك لا يترك هذا المنع في نفسك أثراً ولا وجداً ، على خلاف ما يحدث إن منعت عن امرأة أعجبك ، وهيجه الوجدان إليها .

وحفظ الفروج يكون بأن تقصرها على ما أحله الله وشرعه فلا أتله لغير محل له ، سواء كان من الرجل أو من المرأة ، أو أحفظه وأصونه أن يرى ؛ لأن رؤيته تهيج إلى الشر وإلى الفتنة .

﴿ ذَلِكَ أَرْكَى لَهُمْ ۖ ۝٢٥﴾ [النور] يعنى أطهر وأسلم وأدعى لراحة النفس ، لأنه إما أن ينزع فيرتكب محرماً ، ويلج في أمراض الناس ، وإما ألا ينزع فيكدر نفسه ويؤلمها بالصبر على ما لا تطيق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۖ ۝٢٦﴾ [النور] فهو سبحانه خالق هذه النفس البشرية ، وواضع مسألة الشهوة والغريزة الجنسية التي هي أقوى الغرائز ليربط بها بين الرجل والمرأة ، وليحقق بها عملية النسل وبقاء الاستخلاف في الأرض ، ولو لم تربط هذه العلاقة بالشهوة الملحة لذهأ الكثيرون في الزواج وفي الإنجاب وما يترتب عليه من تبعات .

الأ ترى المرأة وما تعانيه من الآلام ومتاعب في مرحلة الحمل ، وأنها ترى الموت عند الولادة ، حتى إنها لتقسم أنها لا تعود ، لكن بعد أن ترى وليدها وتنسى آلامها سرعان ما يعاودها الحنين للإنجاب مرة أخرى ، إنها الغريزة التي زرعها الله في النفس البشرية لدوام بقائها .

وللبعض نظرة فلسفية للفرائز ، خاصة غريزة الجنس ، حيث جعلها الله تعالى أقوى الفرائز ، وربطها بلذة أكثر أثراً من لذة الطعام والشراب والشَّمِّ والسَّماع .. إلخ فهي لذة تستوعب كل جوارح الإنسان وملكوته ، وما ذلك إلا حرصاً على بقاء النوع ودواماً للخلافة في الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه لرسوله .

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يَقْضِيْنَ مِنْ اَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُمْ وَلَا يُدْرِكُ
زِينَتَهُنَّ اِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْحَكُنَّ يَخْفَعْنَ عَنْهُنَّ
وَلَا يُنَادِيَنَّ زِينَتَهُنَّ اِلَّا لِيُعْلَمَ بِهِ^(١) اَوْ مَا بَايَهُنَّ اَوْ
مَا بَلَغَ بَعُولَتُهُنَّ اَوْ اُنْكَاهَهُنَّ اَوْ اُنْكَاهَ بَعُولَتُهُنَّ
اَوْ اِلْخَوَازِيْنَهُنَّ اَوْ بَنِي اِلْخَوَازِيْنِ اَوْ بَنِي اُنْكَاهَهُنَّ
اَوْ مَا مَلَكَتْ اَيْمَانُهُنَّ اَوْ اِلْتَبَاعَهُنَّ خَيْرٌ لِّرَاوِي اِلَّا زَيْنَةً^(٢)

(١) كَيْمَلُ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةُ هُوَ مَصْدَرٌ سَمِيٌّ بِهِ يُلْفَظُ قُلَا يُلَافُثُ ، وَالْجَمْعُ - كَعَمَلُ [الْفَاعِلِ]
الْقَرِيمِ [٧٦/١]

(٢) خير أولى الإربة أي خير أولى الحاجة والإربة الحاجة . والجمع مترب أي حرائج . قال القرطبي في تفسيره (١٧٧١/٦) : اختلف الناس في معناه . فقيل هو الأحمق الذي لا حاجة به إلى النساء وقيل الأبك . وقيل الرجل يتبع القوم فيأكل معهم ويرتفق بهم وهو ضعیف لا يشتكي النساء . ثم قال : وهذا الاختلاف كله متقارب المعنى . ويجتمع فيمن لا فهم له ولا عمة ينتبه بها إلى أمر النساء .

الرِّجَالِ وَالْطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ
وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا
إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣١﴾

ذكر هنا المقابن ، فامر النساء بما أمر به الرجال ، ثم زاد هنا مسألة
الزينة ، والزينة ، هي الامر الرائد عن الحد في الفطرية ، لذلك يقولون
للمرأة الجميلة بطبيعتها والتي لا تحتاج إلى أن تتزين ، غائبة^(١) يعني .
غنيت بجمالها عن التزين فلا تحتاج إلى كحل في عينيها ، ولا أحمر في
خديها ، لا تحتاج أن تستر قلبها^(٢) بأسورة ، ولا صدرها بعقد .. إلخ .

فإن كانت المرأة دون هذا المستوى احتاجت لشيء من الزينة ،
لكن العجيب أنهم يُبالغون في هذه الزينة حتى تصبح كاللافتة النيون
على كشك خشبي مائل ، فترى مُسنَّات يَضَعْنَ هذا اللون وهذه
المساحيق ، فيتلهن في حُرَّة لا تليق ؛ لأنه جمال مُسطع وزينة
متكلفة يسمونها تطرية ، وفيها قال المتنبي ، وهو يصف جمال المرأة
البدوية وجمال الحضرية

حُسن الحضارة مجلوبٌ بتطرية وفي البداوة حُسنٌ غير مجلوب^(٣)
ومن رحمة الله بالنساء أن قال بعد ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ﴾ .. ﴿٣١﴾
[النور] قال ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ .. ﴿٣٢﴾ [النور] يعني الأشياء

(١) الغائبة : الجارية المستاءة ، نكت روح كلفت أو غير ذات زوج ، سميت غائبة لأنها غلبت
بجسدها عن الزينة [لسان العرب - مادة غنى]

(٢) اللُجب سرار المرأة واللقب من الأسورة ما كان قللاً واحداً ، [لسان العرب - مادة لجب]

(٣) الحضارة : الإقامة في الحضر والحضر خلاف البداوة ، وهي المدن والقرى والريف
سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار ، [لسان
العرب - مادة حضر]

الضرورية ، فالمرأة تحتاج لأن تمشي في الشارع ، فتظهر عينيها وربما فيها كحل مثلاً ، وتظهر يدها وفيها خاتم أو حناء ، فلا مانع أن تظهر مثل هذه الزينة الضرورية .

لكن لا يظهر منب القُرُوط مثلاً ؛ لأن الخمار يستتره ولا (الدبكولتيه) أو العقد أو الاسورة أو الممك ولا الخلخال ، فهذه زينة لا ينبغي أن تظهر . إذن : فالشارع أباح الزينة الطبيعية شريطة أن تكون في حدود ، وأن تلتصق على مَنْ جُعِلَتْ من أجله .

ونلاحظ في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُسَبِّحُنَ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. ﴾ [النور] (٢١) المراد تغطية الزينة ، فالجارية التي تغطيها من باب أولى ، فالزينة تُغَطَّى الجارية ، وقد أمر الله بستر الزينة ، فالجارية من باب أولى .

وقوله تعالى . ﴿ وَلْيَضْحَكُنَّ بِحُجْرَمِهِنَّ عَلَىٰ جُوبِهِنَّ .. ﴾ [النور] (٢١) الخمر جمع خمار ، وهو غطاء الرأس الذي يُسَدَّل ليستتر الرقبة والصدر . الجيوب جمع جيب ، وهو الفتحة العليا للثوب ويسمونها (القُبَّة) والمراد أن يستتر الخمار فتحة الثوب ومنطقة الصدر ، فلا يظهر منها شيء .

والمجيب أن النساء تركن هذا الواجب ، بل ومن المفارقات أنهن يلبسن القلاية ويُعلّقن بها المصحف الشريف ، إنه تناقض عجيب يدل على عدم الوعي وعدم الدراية بشرع الله مُنْذِرُ هذا المصحف .

ونأمل دقة التعبير القرآني في قوله تعالى ﴿ وَلْيَضْحَكُنَّ .. ﴾ (٢١) [النور] والضرب هو . الوقع بشدة ، فليس المراد أن تضع المرأة الطرحة على رأسها وتتركها هكذا للهواء ، إنما عليها أن تُحْكِمَهَا على رأسها وصدرها وتربطها بإحكام .

لذلك لما نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة : رحم الله نساء المهاجرات ، لما نزلت الآية لم يكن عندهم خمر ، فعمدُن إلى العروط فشقروها وصنعوا منها الخمر^(١)

إذن راعى الشارع للحكيم زى المرأة من أعلى ، فقال : ﴿ وَلْيَهْزِرْنَ يَحْمِرْنَ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ ۞ ﴾ [النور] ومن الأدنى فقال : ﴿ يَدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ۖ ۞ ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَدْنِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُوثِهِنَّ ۖ ۞ ﴾ [النور] أي أزواجهن ، لأن الزينة جُعِلَتْ من أجلهم ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءُ بُعُولَتِهِنَّ ۖ ۞ ﴾ [النور] أبو الزوج ، إلا أن يضاف منه الفتنة ، فلا تبدى لزوجته زينتها أمامه

ومعنى ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ۖ ۞ ﴾ [النور] أي : النساء اللائي يعملن معها في البيت كالوصيفات والخادِمات ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۖ ۞ ﴾ [النور] [النور] والمراد هنا أيضاً ملك اليمين من النساء دون الرجال

ويشترط في هؤلاء النساء أن يكنَّ مسلمات ، فإن كنَّ كافرات كهؤلاء اللائي يستقدمونهن من دول أخرى ، فلا يجوز للمرأة أن تبدى زينتها أمامهن ، وأن تعتبرهن في هذه المسألة كالرجال ، لأنهن غير مسلمات وغير مؤتمعات على المصلحة ، وربما ذهبت فوصفت ما رأت من سيدتها للرجل الكافر فينشفل بها .

ومن العلماء من يرى أن ملك اليمين لا يخص النساء فقط ، إنما الرجال أيضاً ، فللمرأة أن تبدى زينتها أمامهم ، قالوا : لأن هناك استقبالا عاطفيا وامتناعا عاطفيا في النفس البشرية ، فالخادم في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٥٨ ، ٤٧٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها والمرؤوط جمع مرط وهو كساء يلأزر به وتلقح به المرأة

الْقَصْرَ لَا يَنْظُرُ إِلَى سَيِّدَتِهِ وَلَا إِلَى بَنَاتِهَا ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَسَامَى إِلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ ، إِلَّا إِذَا شَجَّعَتْهُ ، وَفَتَحَتْ لَهُ الْبَابَ ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ أُخْرَى .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ .. ﴾ (٤١) [النور] أَيْ التَّابِعِينَ لِلْبَيْتِ ، وَالَّذِينَ يَعِيشُونَ عَلَى فَضْلَاتِهِ ، فَتَكُونُ حَيَاةُ التَّابِعِ مِنْ حَيَاةِ مَتَّبِعِهِ ، فَلَيْسَ عِنْدَهُ بَيْتٌ يَأْوِيهِ ، لِذَلِكَ يَنَامُ فِي أَيْ مَكَانٍ ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ طَعْمٌ ؛ لِذَلِكَ يُطْعَمُهُ النَّاسُ وَهَكَذَا ، فَهُوَ ضَائِعٌ لَا مَدْفَعَ لَهُ وَلَا اسْتِقْلَالِيَّةَ لِحْيَاتِهِ ، وَتَرَى مِثْلَ هَؤُلَاءِ يَأْكُلُونَ فَضْلَاتِ الْمَوَائِدِ وَيَلْبَسُونَ الْخِرَقَ وَيَنَامُونَ وَلَوْ عَلَى الْأَرْضِ صَفَةً .

مِثْلُ (الْأَهْلِلِ) أَوْ الْمُعْتَرِثِ إِذْ يُعْطَفُ النَّاسُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ لَهُ مَطْمَعٌ فِي النِّسَاءِ ، وَلَا يَفْهَمُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ ، فَلَا يُضَافُ مِنْهُ عَلَى النِّسَاءِ ؛ لِأَنَّهُ لَا حَاجَةَ لَهُ لِهِنَّ ، وَلَا يَتَسَامَى لِأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْبَيْتِ .

وَمَعْنَى : ﴿ غَيْرِ أُولَى الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ .. ﴾ (٤١) [النور] يَعْنِي : كَانَ يَكُونُ كَبِيرَ السِّنِّ وَآمِنَ الْقُوَى ، لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى هَذِهِ الْمَسَائِلِ ، أَوْ يَكُونُ مُجَبُّوبًا^(١) ، مُقْطُوعَ الْمَنَافِعِ ، وَلَا خَطَرَ مِنْ مِثْلِ هَؤُلَاءِ عَلَى النِّسَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ الطِّفْلُ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. ﴾ (٤١) [النور]

نَلْحِظُ مِنْهَا أَنَّ الطِّفْلَ مُقَرَّدٌ ، لَكِنْ وَصِفَ بِالْجَمْعِ ﴿ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. ﴾ (٤١) [النور] لِمَاذَا ؟ قَالُوا . هَذِهِ سِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ اللَّفْظِ ، وَهِيَ الدِّقَّةُ فِي التَّعْبِيرِ ، حَيْثُ تَسْتَخْدِمُ اللَّفْظَ الْمَفْرُودَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْمُتَنِيِّ وَعَلَى الْجَمْعِ .

(١) الْجَبُّ الْقَطْعُ . وَالْمُجَبُّوبُ الْفَخْصِيُّ الَّذِي قَدْ اسْتَكْرَسَ لِكُرْدِ وَخُصْبِيَّاهُ فَهُوَ مُقْطُوعُ الذِّكْرِ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ حَبِيب] .

كما نقول : هذا قاضٍ عدلٌ ، وهذان قاضيان عدلٌ ، وهؤلاء قضاة عدلٌ ، ولم نقل عدلان وعدول ، فإذا وُصف الوصف في الجميع بدون هوى كان الوصف كالشيء الواحد ، فالقاضي لا يحكم بمزاجه ومواه ، والآخر بمزاجه ومواه ، إنما الجميع يصدر عن قانون واحد وميزان واحد . إذن ، فالعدل واحد لا يُقال بالنشكيز ، وليس لكل واحد منهم عدل خاص به ، العدل واحد

كذلك الحال في ﴿الطِّفْلِ .. (٢١)﴾ [النور] مع أن المراد الأطفال ، لكن قال (الطفل) لأن غرائزه مشتركة مع الكل ، وليس له هوى ، فكل الأطفال - إذن - كانتهم طفل واحد حيث لم يتكوّن لكل منهم فكره الخاص به ، الجميع يحب اللهو واللعب ، ولا شيء وراء ذلك ، فالجمعية هنا غير واضحة لوجود التوحيد في الغرائز وفي الميول .

بدليل أنه إذا كَبُرَ الأطفال وانتقلوا إلى مرحلة البلوغ وتكوّن لديهم هوى وفكر وميل يقول القرآن عنهم : ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ .. (٥٩)﴾ [النور] فنظر هنا إلى الجمع لعدم وجود التوحيد في مرحلة الطفولة المبكرة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ خَبْرٌ حَسِيفٌ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢١)﴾ [الذاريات] فوصف حَسِيفَ وهى مفرد بالجمع (مكرمين) ، ذلك لأن حَسِيفَ تدل أيضاً على الجمع ، فالضيف من انضاف على البيت وله حق والتزامات لا بد أن يقدمها المضيف ، مما يزيد على حاجة البيت ، والضيف في هذه الالتزامات واحد سواء كان مفرداً أو جماعة ؛ لذلك دُلَّ بالمفرد على الجمع .

وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٢١)﴾ [النور] يظهر على كذا ، لها معنيان في اللغة - الأول : بمعنى يعلم كما في

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ .. ﴾ [٢٥] ﴿ [الكهف]
يعنى : إِنْ عَلِمُوا بِكُمْ وَعَرَفُوا مَكَانَكُمْ .

والثانى : بمعنى يعلو ويغلب ويقهر . كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا
اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ [٩٧] ﴿ [الكهف] أى السد الذى بناه ذو القرنين ،
فالمعنى : ما استطاعوا أَنْ يعلوه ويرتفعوا عليه .

وهنا ﴿ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. ﴾ [٢٦] ﴿ [النور] يعنى :
يعرفونها ويستبينونها ، او يقدرون على مطالبتها ، فليس لهم علم او
دراية بهذه المسائل .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِعَلْمٍ مَا يُخْفِينَ مِنْ
زِينَتِهِنَّ .. ﴾ [٣١] ﴿ [النور]

الحق - تبارك وتعالى - يكشف الاعمى النساء وحيلهن فى جذب
الانظار ، فإذا لم يلعنك إليها النظر لفتك الصوت الذى تحدثه بمشيئها
كاتها تقوى لك . يا بجم اسمع . يا لى ما نتاش شايف اسمع . وهى
الماضى كُنْ يلبسَنَ الخلخال الذى يُحدث صوتاً أثناء المشى ، والآن
يجعلنَ فى أسفل الحذاء ما يُحدث مثل هذا الصوت أثناء المشى ،
وأول من استخدم هذه الحيل الراقصات لجذب إيهن الانظار .

ومعلوم أن طريقة مشى المرأة تُبدي الكثير من زينتها التى لا
يراها الناس ، وتُسبب كثيراً من الفتنة ؛ لذلك يقول تعالى بعدها وفى
ختام هذه المسائل : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴾ [٢٦] ﴿ [النور]

لم يقل الحق تبارك وتعالى : يا من أذنبتكم بهذه الذنوب التى سبق
الحديث عنها ، إنما قال ﴿ جَمِيعاً .. ﴾ [٢٦] ﴿ [النور] فحث الجميع على

التوبة : ليدل على أن كل ابن آدم خطاء . ومهما كان المسلم متمسكاً ملتزماً فلا يامن أن تقوته هفوة هنا أو هناك . والله - عز وجل - الخالق والاعظم بمن خلق : لذلك فتح لهم باب التوبة وحلهم عليها ، وقال لهم ما عليكم إلا أن تتوبوا . وعلى أنا الباقى
ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ وَأَذِكُوهَا الْآيِمْنَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ صِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣٢)

بعد أن تكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن مسألة حفظ الفروج ودعا إلى الحفاظ على طهارة الأنساب ، أراد أن يتكلم عن هؤلاء الرجال أو النساء الذين لم يتيسر لهم أمر الزواج ، ذلك ليعالج الموضوع من شتى نواحيه : لأن المشرع لا بد أن يستولى بالتشريع على كل ثغرات الحياة فلا يعالج جانباً ويترك الآخر .

و ﴿ الْآيِمَى .. ﴾ (٣٢) [النود] جمع أيم ، والآيم من الرجال من لا زوجة له ، والآيم من النساء من لا زوج لها

ونلاحظ أن الأمر فى ﴿ أَنْكِحُوا .. ﴾ (٣٣) [النود] جاء فكنا بهمزة القطع ، مع أن الأمر للواحد (انكح) بهمزة الوصل ، ذلك لأن الأمر هنا (أنكحوا) ليس للمفرد الذى سينكح الأيم ، إنما لغيره أن ينكحه ، والمراد أمر أولياء الأمور ومن عدهم رجال ليس لهم زوجات ، أو نساء ليس لهن أزواج عجلوا بزواج هؤلاء ، ويسرّوا لهم هذه المسألة . ولا تتشددوا فى نفقات الزواج حتى تعفوا أبناءكم وبناتكم وإذا لم تعيهم فلا أقل من عدم التشدد والمغالاة .

وفى الحديث الشريف : « إذا جاءكم من ترهبون دينه وخلقه فزوجه ، إلا تقلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير »^(١)

ومع ذلك فى مجتمعاتنا الكثير من العادات والتقاليد التى تعرقل زواج الشباب أخطرها المغالاة فى المهور وفى النفقات والنظر إلى المظاهر . إلخ وكان الحق - تبارك وتعالى - يقول لأولياء الأمور : يسروا للشباب أمور الالتقاء الحلال ومهدوا لهم سبيل الإعفاف .

وقد أعطانا القرآن نموذجاً لما ينبغي أن يكون عليه ولي الأمر ، فقال تعالى عن سيدنا شعيب عليه السلام ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ .. (٢٧) ﴾ [قصص] ذلك لأن موسى - عليه السلام - سيكون أجيراً عنده ، وربما لا يتسامى إلى أن يطلب يد ابنته ، لذلك عرضها عليه وخطبه لها وشجعه على الإقبال على زواجها ، فآزال عنه حياء التردد ، وهكذا يجب أن يكون أبو الفتاة إن وجد لابنته كفراً . فلا يتردد فى إعفافها .

وقوله تعالى ﴿ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ .. (٣٦) ﴾ [النور] وقوله ﷺ : « تُنكِحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا ، وَجَمَالِهَا ، وَحَسَبِهَا وَدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ ، قَرِيبَكَ يَدَاكَ »^(٢) .

ولما سئل الحسن - رضى الله عنه - عن مسألة الزواج قال لوألد

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (١-٨٩) من حديث أبى هريرة بلفظ : « إذا خطب إليكم من ترهبون دينه وخلقه فزوجه . إلا تقلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد مريض » . وأخرجه ابن ماجه فى سننه (١٩٦٧) بلفظ : « إذا أتاكم » وقد رجح الترمذى أنه مرسل من رواية الكشي بن سعد

(٢) حديث مطلق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٩٠) ، ومسلم فى صحيحه (١٤٦٦) كتاب الرضا عن حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال القرطبي فيما نقله عنه ابن حجر فى فتح الباري (١٣٦/٩) : « سئل الحديث أن هذه الخصال الأربع هى التى يرغب فى تكاح المرأة لأجلها . فهو خبر عما فى الوجود من ذلك ، لا أنه واقع الأمر بذلك ، بل ظاهره إنبه التكاح لقصد كل من ذلك ، لكن قصد البين فوكى » .

الفتاة الذي جاء يستشيرها زوجها من ثامنه على دينه ، فإن أحب
ابنتك أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها ، وماذا يريد الإنسان في زوج
ابنته أكثر من هذا ؟

فالدين والخلق والقيم السامية هي الأساس الذي يُبنى عليه
الاختيار ، أما المال فهو شيء ثانوي وعرضي ، ذلك يقول
تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ بَيْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور]

فالفقر قد يكون سبباً في عدم الإقبال على البنت ، أو عدم إقبال
أهل البنت على الزوج ، لكن كيف يتغلب الله عنا ونحن نتقيه ونقصد
الإعفاف والطهر ؟ لا يمكن أن يرضى الله على زوجين التقيا على هذه
القيم واجتمعا على هذه الآداب ، ومن يدريك لعل الرزق يأتي للثنتين
معاً ، ويكون اجتماعهما في هذه الرابطة الشرعية هو باب الرزق الذي
يفتح للوجهين معاً ؟

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور] فعطاء الله دائم لا ينقصد ، لأن خزانته
لا تنفذ ولا تنقص ، والإنسان يمسك عن الإنفاق ، لأنه يخاف الفقر ، أما
الحق - تبارك وتعالى - فيعطى العطاء الواسع ، لأن ما عنده لا ينفد .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿وَلَيْسَ خِفِ الَّذِينَ لَا يُمِدُّونَ لِكَأَحَدٍ مِّنْهُمْ أَهْلٌ مِّنْ فَضْلِهِ
وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَانُوا بِأَيْمَانِهِمْ
عَلِمَتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَنَّهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا
تُكْرِهُوا فَتَبِيتَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْتَ تَحَصُّنًا لِّمَا عَرَضَ الْحَيَوةِ
الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِمْ أَكْرَهِيَهُمْ

في حالة إذا لم تنكح الأيامي ، ولم تُعَنِّهم على الزواج ، ولم يقدروا هم على القيام بنفقاته يصف لهم الحق - سبحانه وتعالى - العلاج المناسب ، وهو الاستعفاف ، وقد طلب الله تعالى من المجتمع الإسلامي سواء - قمتل في أولياء الأمور أو في المجتمع العام - أن ينهض بمسألة الأيامي ، وأن يعينهم على الزواج ، فإن لم يقم المجتمع بدوره ، ولم يكن لهؤلاء الأيامي قدرة ذاتية على الزواج ، فليستعفف كل منهم حتى يغنيهم الله ، مما يدل على أن التشريع يبنى أحكامه ، ويراعي كل الأحوال ، سواء أطاعوا جميعاً أو عصوا جميعاً .

وقوله تعالى ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ...﴾ (٣٢) [النور] يعني . يحاول العفاف ويطلبه ويبحث عن أسبابه ، يجاهد أن يكون عفيفاً ، وأول أسباب العفاف أن يفيض بصره حين يرى ، فلا يرجد له مُهَيِّج ومثير ، فإن وجد في نفسه قُتُوَّة وقوة فعلية أن يكجمها ويضعفها بالرسائل الشرعية كما قال النبي ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة - يعني نفقات الحياة الزوجية - فليتزوج ، ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وجاء »^(١) .

والصوم يعمل على انكسار هذه الشهوة ويَهْدِيء من شراسة الغريزة ؛ ذلك لأنه يأكل فقط ما يقيم أودنه ، ولا ييسقي في بدنه ما يثير الشهوة ، كما جاء في الحديث الشريف : « بحسب ابن آدم لقيمات يُقَمِّنُ صُلْبَهُ ... »^(٢) .

(١) الرجاء : هو أن تُفَرِّبَ الخسيتين غيرة شهيدة تلعب شهوة للجماع ويظل سِرَّة الحصى وقال ابن منظور في [اللسان - مادة رجاء] أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطع الرجاء .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠٦٥) ، ومسلم في صحيحه (١٤٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٢/٤) ، والترمذي في سننه (٢٢٨٠) من حديث المقام ابن مهدي كُرب وتماحه « ما صلا آدمى وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلاات يقم صلبه ، فإن كان لا محالة فذلك لطفاه وذلك لشراهه وذلك لنفسه » .

أو : أن يُفَرِّغ الشاب نفسه للعمل الدافع المفيد الذي يشغله ويستنفد جهده وطاقته ، التي إن لم تصرف في الخير صرفت في الشر ، وبالعمل يثبت الشاب ذاته ، ويثق بنفسه ، ويكتسب الصلال الذي يُشجِّعه مع الأيام على الزواج وتحمل مسئولياته .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَتَعَفَافٌ .. ﴾ (٢٢) [النور] ولم يقل : وليعف ، فالمعنى ليس لك سبيل الإعفاف لنفسه وليستع إليه ، بأن يمتع المهيج بالنظر ويهدى شراسة الفريضة بالصوم ، أو بالعمل فيشغل وقته ويعود آخر النهار متعباً يريد أن ينام ليقوم في الصباح لعمله نشيطاً ، وهكذا لا يجد فرصة لشراء مما يتغضب الله .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا .. ﴾ (٢٣) [النور] أى : بذواتهم قدرة أو بمجتمعهم معونة

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ (٢٤) [النور] يدل على أن الاستعفاف وسيلة من وسائل الغنى ، لأن الاستعفاف إنما نشأ من إرادة التقوى ، وقد قال تعالى في قضية قرآنية : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ (٦) وَزُقِّهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٤) [الطلاق] فمن هذا الباب يأتيه غنى الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمَكَّنْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَنْتُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ .. ﴾ (٢٥) [النور]

الكتاب : معروف أنه اجتماع عدة أشياء مكتوبة في ورق ، والمراد هنا المكاتبة ، وهي أن تكتب عقدًا بينك وبين العبد المملوك ، تشترط فيه أن يعمل لك كذا وكذا بعدما يكون حراً ، إن أدنى ما ذكر في عقد المكاتبة .

﴿ فَكَاتِبُهُمْ إِنَّ عَلَّمْتُمْ لِيهِمْ خَيْرٌ .. ﴾ (٧٢) [النور] يعنى . إن كانت حريتهم ستؤدى إلى خير كان ترفع عنهم ذلة العبودية ، وتجعلهم ينشطون فى الحياة نشاطاً يناسب مواهبهم

لذلك جعل الحق - سبحانه وتعالى - هذه المكاتبه مصارفاً من مصارف الزكاة . فقال تعالى : ﴿ وَفِى الرِّقَابِ .. ﴾ (٧٧) [البقرة] يعنى العماليك الذين تريد أن تفك رقابهم من أسر العبودية وذلكها بالعتق ، وإن كان مال الزكاة يدفع للفقراء والمساكين .. إلخ ففى الرقاب يدفع المال للسيد ليعتق عبده

كما جعل الإسلام عتق الرقاب كفارة لبعض الذنوب بين العبد وبين ربه ، ذلك لأن الله تعالى يريد أن ينهى هذه المعصاة

﴿ وَأَتَوْهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ .. ﴾ (٧٣) [النور]

الحق - تبارك وتعالى - هو الرزاق ، والمال فى الحقيقة مال الله ، لكن إن ملكك وطلب منك أن تعطى أخاك الفقير يحترم ملكيتك ، ولا يعود سبحانه فى هبته لك ، لذلك يأخذ منك الصدقة على أنها قرض لا يردّه الفقير ، إنما يتولى ربك عز وجل رده ، فيقول : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً .. ﴾ (٢٤٥) [البقرة] ولم يقل سبحانه يقرض فلاناً ، وإنما يقرض الله لأنه تعالى هو الخالق ، ومن حق عبده الذى استدعاه للوجود أن يرزقه ويتكفل له بقوته .

واحترام الملكية يجعل الإنسان مطمئناً على آثار حركة حياته وثمرة جهده . وأنها ستعود عليه . وإلا فما الداعى للعمل ولابدل المجهود إن ضاعت ثمرته وحُرم منها صاحبها ؟ عندها ستتعطّل مصالح كثيرة وسيعمل الفرد على قدر حاجته فحسب ، فلا يفيض عنه شيء للصدقة .

ثم يقول سبحانه . ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَىٰ الْبَيْتِ إِنِ ارْتَضَىٰ عَمَلُهُمْ
لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾ (٣٦) [النور]

يُقَالُ لِلْمَمْلُوكِ : فَتَى ، وَلِلْمَمْلُوكَةِ : فَتَاةٌ ، فَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ
يَقُولَ الرَّجُلُ : عَبْدِي ^(١) وَأَمْتِي إِنَّمَا يَقُولُ : فَتَايَ وَفَتَاتِي ، فَهَذِهِ اتِّسَاعُ
أَكْرَمَ لَهُؤُلَاءِ وَارْفَعُ ، فَالْفَتَى مِنَ الْفُتُورَةِ وَالْقُوَّةِ كَأَنَّكَ تَقُولُ : هَذَا قُوَّتِي
الَّذِي يَسَاعِدُنِي وَيُعِينُنِي عَلَىٰ مَسَائِلِ الْحَيَاةِ ، فَالنَّبِيُّ ﷺ يَرِيدُ أَنْ يَرْفَعُ
مِنْ شَأْنِهِمْ .

وَمِنْ هَؤُلَاءِ جَمَاعَةُ الْمَمَالِكِ الَّذِينَ حَكَمُوا مِصْرَ فِي يَوْمٍ مِنَ
الْأَيَّامِ ، وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ وَالْأَعْيَانِ

وَالْبَيْتُ ظَاهِرَةٌ جَاءَ الْإِسْلَامَ فَوُجِدَ مَتَشَوِّعَةٌ ، فَكَانَ الرَّجُلُ الَّذِي
يَمْلِكُ مَجْمُوعَةً مِنَ الْإِمَاءِ يَنْصَبُ لَهُمْ رَايَةً تَدُلُّ عَلَيْهِمْ ، وَيَأْتِيهِمْ
السَّبَابُ وَيَقْبِضُ هُوَ الشَّمْسُ ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنْدَةَ
رَأْسُ النِّفَاقِ ، وَكَانَ عِنْدَهُ (مَسْبُوكَةٌ ، وَمَعَادَةٌ) وَفِيهِ تَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ^(٢) .

وَتَأْوِيلُ الْآيَةِ لَا تُكْرِهُوا الْإِمَاءَ عَلَى الْمَعَادِ ، وَقَدْ كُنْ يَبْكِينَ ،
وَيَرْفُضُنَ هَذَا الْفِعْلَ ، وَكُنْ يُوْذِنِينَ وَيَتَعَرَّضُنَ لِلْفُضْمِ وَاللَّمْزِ ، وَيَتَجَرَّأُ

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَلْحَمُّ رَبِّكَ .
وَحَسْبُكَ رَبِّكَ وَلِيَقُلْ سَيِّدِي مُوَلَايَ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي ، أَمْتِي ، وَلِيَقُلْ فَتَايَ
وَفَتَاتِي وَفُلَانِي ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٢٥٥٦) ، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٢٢٤١)
كِتَابُ الْأَلْفَاظِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ

(٢) قَالَ الزَّهْرِيُّ : كَانَتْ جَارِيَةً لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنْدَةَ يُقَالُ لَهَا مَعَادَةٌ يُكْرَهُهَا عَلَى الْوَلَدِ ،
فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامَ نَزَلَتْ ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَىٰ الْبَيْتِ ..﴾ [النور] . أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي
مُسْنَدِهِ (أَرَادَ ابْنَ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ ٢/ ٢٨٨) وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : نَزَلَتْ فِي أُمِّهِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ
أَبِي بَنْدَةَ يُقَالُ لَهَا مَسْبُوكَةٌ ، كَتَبَ يَكْرَهُهَا عَلَى الْفُجُورِ وَكَانَتْ لَا تَسِي بِهَا فَتَايَ فَانْزَلَ
اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَى الْبَيْتِ ..﴾ [النور] قَالَ الْأَعْمَشُ

عليهن الناس . وكان من هؤلاء الإساء بنات دوات أصول طيبة شريفة ، لكن ساقتهن الاقدار إلى السبى فى الحروب أو خلافه ، فى حين أن الحرية العفيفة تسير لا يتعرض لها أحد بسوء .

ومعنى . ﴿ إِن أَرَدْنَ نَحْسًا .. ﴾ [النور] يتكلم القرآن هنا عن الواقع بحيث إن لم يُردنَ نَحْسًا فلا تُكرهوهن ﴿ لَعَبَّوْهُنَّ عُرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴾ [النور] طلباً للقليل من المال الزائل ﴿ وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ كُرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور] لأنهن فى حالة الإكراه على البغاء يفقدن شرط الاختيار ، فلا يتحملن ذنب هذه الجريمة ، عملاً بالحديث النبوى الشريف : رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي : الْحَطَأُ وَالنِّسْبَانِ وَمَا اسْتَكْرَهَا عَلَيْهِ ^(١) .

لذلك يُطمئن الحق - تبارك وتعالى - هؤلاء اللاتي يُردنَ اتحصن والعفاف ، لكن يكرههن سيدهن على البغاء ، ويرغمهن بأى وسيلة : اطمئنن فلا ذنبَ لَكُنَّ فى هذه الحالة ، وسوف يُغفر لَكُنَّ والله غفور رحيم

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

المعنى : لا عذر لكم ، لأن الله تعالى قد أنزل إليكم الآيات الواضحة التى تضمن لكم شرف الحياة وطهرتها ونقاء نسل الخليفة

(١) أخرج مصنف ابن ماجه فى سننه (٢١٤٥) والدارقطنى فى سننك (١٧٠/٤) والحاكم فى المستدرک (١٩٨/٢) رصمته على شرط الشيطان من امر جالس يأنظ . إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسبوان وما استكروها عليه . وأنتظر كشف الغطاء (٥٢٢/١) .

لله في الأرض ، وهذه الآيات ما تركت شيئاً من أقضية الحياة إلا تناولته وأنزلت الحكم فيه ، وقد فلتتمس لكم العذر لو أن في حياتكم مسألة أو قضية ما لم يتناولها التشريع ولم ينظمها .

لذلك يقول سيفنا الإمام علي - رضي الله عنه - عن القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخير ما قبلكم ، ونبا ما بعدكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، مَنْ تركه من جبار قصمه الله ، وَمَنْ ابتغى الهدى في غيره أضله الله .^(٩)

ولا يزال الزمان يُثبت صدق هذه المقولة ، وانظر هنا وهناك لنجد مصارع الأراء والمذاهب والأحزاب والدول التي قامت لتناقض الإسلام ، سواء كانت رأسمالية شرسة أو شيوعية شرسة . إلخ . كلها انهارت على مراكبهم ومنسحق من الجميع .

نعم ، مَنْ تركه من جبار قصمه الله ، وَمَنْ ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، لاته خالفك ، وهو أعلم بما يَصْلُحُكَ ، فلا يليق بك - إذن - أن تأخذ خَلْقَ الله لك ثم تتكبر عليه وتضع لنفسك قانوناً من عندك أنت .

وسبق أن قلنا : إن الآيات تطلق على ثلاثة إطلاقات : الآيات الكونية التي تلفتك إلى الصانع المبدع عز وجل ، وعلى المعجزات التي تأتي لتثبت صدق الرسول في البلاغ عن الله ، وتطلق على الآيات الحاملة للأحكام وهي آيات القرآن الكريم ، وفي القرآن هذا كله .

وقوله تعالى : ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٥)

(۱) ذکرہ ابن کثیر فی تفسیرہ (۲۸۹/۲)

أي : جعلنا لكم موعظة وعبرة بالأمم السابقة عليكم ، والتي بلغت شأوها في الحضارة ، ومع ذلك لم تملك مقومات البقاء ، ولم تصنع لنفسها المناعة التي تصونها فانهارت ، ولم يبق منهم إلا آثار كالتي نراها الآن لقضاء المصريين ، وقد بلغوا من الحضارة منزلة أدهشت العالم المتقدم الحديث ، فيأتون الآن متعجبين : كيف فعل قدماء المصريين هذه الحضارة ؟

وكان أعظم من حضارة الفراعنة حضارة عاد التي قال الله عنها : ﴿ أَلَمْ نَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) ﴾ [الفجر] يعني : ليس لها مثل في الدنيا ﴿ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَاكْفَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُفْسَادِ (١٤) ﴾ [الفجر] يعني : لن يفلت من المخالفين أحد ، ولن ينجو من عذاب الله كافر .

والمثل كذلك في مسألة الزنا وقذف المحصنات العفيفات ، كحادثة الإنك التي سبق الكلام عنها ، وأنها كانت مثلاً وعبرة ، كذلك كانت قصة السيدة مريم مثلاً وقد اتهمها قومها ، وقالوا : ﴿ يَسْأَخَتُ هَارُونُ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بِغِيًّا (٧٨) ﴾ [مريم]

وكذلك كانت قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ، وكلها مسائل تتعلق بالشرف ، ولم تخل من رمى العفيفات المحصنات ، أو العفيف الطاهر يوسف بن يعقوب عليهما السلام .

وهذه الآيات مبينات للوجود الأعلى في آيات الكون ، مُبَيِّنَات لصدق المبلغ عن الله في المعجزات ، تُبَيِّنَات للأحكام التي تنظم حركة

الحياة في آيات القرآن ، ثم أريناهم عاقبة الأمم السابقة سواء من قبل
منهم على الله بالطاعة ، أو من أعرض عنه بالمعصية ، ولا يستفيد من
هذه المواعظ والعبر إلا العتقون الذين يخافون الله وتثمر فيهم
المرغظة .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ
فِيهَا يَصْبَحُ الْمَصْبُوحُ فِي زُجَاجَةٍ زُجَاجَةٌ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ
يُوقَدُ مِنْ شَجَرٍ مُبَارَكٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ
زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ
لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾

قلنا : فإن الله تعالى أعطانا النور الحسي الذي نرى به مرائي
الاشياء ، وجعله وسيلة للنور المعنوي ، وقلنا : إن الدنيا حينما تظلم
ينير كل منّا لنفسه على حسب قدراته وإمكاناته في الإضاءة ، فإذا
ما طلعت الشمس وأثار الله الكون أطفأ كل منّا نوره : لأن نور الله
كاف ، فكما أن نور الله كاف في الحسيات فتورده أيضاً كاف في
المعنويات .

فإذا شرح الله حكماً معنويةاً بنظم حركة الحياة ، فليناكم أن
تعارضوه بشيء من عندكم ، فكما أطفأتم المصابيح الحسية أمام
مصابيح فاطفتوا مصابيحكم المعنوية كذلك أمام أحكامه تعالى
وأوامره ، والامر واضح في الآيات الكونية .

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ..﴾ [النور] ﴿٢٥﴾ كما تقول والله المثل الأعلى : فلان نور البيت ، فالآية لا تعرف الله لنا ، إنما تعرفنا الله تعالى فينا ، فهو سبحانه منور السموات والأرض ، وهما أوسع شيء فتصوره ، بحيث يكون كل شيء فيهما واضعاً غير خفي .

ثم يضرب لنا ربنا - عز وجل - مثلاً توضيحياً لنوره . فيقول : ﴿مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِثْكَاهِ لَيْلٍ مُصْبِحٍ ..﴾ [النور] ﴿٢٥﴾ أي : مثل فتويره للسموات وللأرض ﴿كَمِثْكَاهِ ..﴾ [النور] ﴿٢٥﴾ وهي الطاقة التي كانوا يجعلونها قديماً في الجدار ، وهي فجوة غير نافذة يضعون فيها المصباح أو المِشْرِجَة ، فتخرج هذه الفجوة الضوء وتجمعه في ناحية فيصير قوياً ، ولا يصنع ظلاً أمام مسار الضوء .

والمصباح : إناء صغير يُوضع فيه زيت أو جاز فيما يعد ، وفي وسطه فتيل يمتص من الزيت فيظل مشتعل ، فإن ظل الفتيل في الهواء تلاعب به ويدد ضوءه وسحب دخاناً ؛ لأنه يأخذ من الهواء أكثر من حاجة الاحتراق ؛ لذلك جعلوا على الفتيل حاجزاً من الزجاج ليمنع عنه الهواء ، فيأتي الضوء منه صافياً لا دخان فيه ، وكانوا يسمونه (الهباب) .

وهكذا تطور المصباح إلى لمبة وصعد نوره وزادت كفاءته ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ..﴾ [النور] ﴿٢٥﴾ لكنها ليست زجاجة عادية ، إنما زجاجة ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ..﴾ [النور] ﴿٢٥﴾ يعني : كوكب من الدُر ، والدُر ينير بنفسه .

كذلك زيتها ليس زيتاً عادياً ، إنما زيت زيتونة مباركة .